مذاهب فكرية معاصرة

الديموقراطية

الشيوعية

العلمانية

العقلانية

القومية والوطنية

الإنسانية

الإلحاد

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ"

صدق الله العظيم

مذاهب
فكرية
معاصرة

الطبعة الثالثة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الرابعة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الخامسة
١٩٩١م - ١٤١١هـ
الطبعة السادسة
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
الطبعة السابعة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

مقدمة

تسيطر اليوم أوروبا « ١ » بكل قوتها على العالم كله .

ومع السيطرة تتسرب مجموعة من الأفكار والمذاهب والمعتقدات ، بل الخرافات كذلك ـ كخرافة الطبيعة الخالقة ، والمادة الأزلية الأبدية المتطورة ـ فتنصب فى أذهان الشعوب التى غلبت عليها أوروبا ، إما عن طريق التسرب التلقائى الذى ينشأ من تقليد المغلوب للغالب ، وإما عن طريق الغزو الفكرى المتعمد ، الذى يبثه الغالب فى فكر المغلوب ليضمن تبعيته له وعدم خروجه على طاعته .

ولم تكن سيطرة أوروبا – بكل قوتها – هى السبب الوحيد فى الحقيقة لهذا التسرب التلقائى أو ذلك الغزو الفكرى ، إنما كان هناك سبب لايقل أهمية عن هذه السيطرة إن لم يكن ـ فى نظرنا ـ أهم ، هو غياب البديل الذى يمكن أن يأخذ مكان هذه الأفكار والمذاهب والخرافات إذا تبين عدم جدارتها بالاتباع ، بل الذى يحول أصلا دون التوجه إليها واتباعها فى حالة وجوده ، ونعنى به الاسلام .. ذلك أن غيابه يعطى هذه المذاهب والأفكار فى نفوس الناس حجية الأمر الواقع وثقل الأمر الواقع. أى أنها تصبح فى حس الناس جديرة بالاتباع لا لجدارتها الذاتية ، ولا لأنها فى ذاتها صحيحة ، ولكن فقط لأنها موجودة بالفعل ، والبديل غير موجود !

« ١ » ليس المقصود باوروبا حدودها الجغرافية . إنما المقصود « الغرب » كله بامتداده الامريكى والروسى على السواء.

ولن نتعرض فى هذا الكتاب لأسباب غياب هذا البديل ، ولا للنتائج الخطيرة التى نتجت عن غيابه بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للعالم كله« ١ » . إنما أردنا فى هذا الكتاب أن نتعرض لهذه الأفكار والمذاهب ذاتها ، فنعرضها عرضا موضوعيا نبين فيه ما تحتوى عليه من حقائق وما تحتوى عليه من أباطيل ، ونبين فيه ـ أهم من ذلك ـ الظروف التى أدت إلى نشأتها وتشكلها على هذه الصورة ، فإن كثيرا من الناس الذين يأخذونها على أنها أمر واقع ، لا يسألون أنفسهم كيف نشأت ، وما الظروف التى جعلتها تأخذ هذه الصورة ، كأنهم يعتقدون – من ثقلة الأمر الواقع على حسهم ـ أنها ذات وجود طبيعى ، وأن الصورة التى هى عليها هى الصورة الطبيعية لهذا المذهب أو ذاك ، ولا يضعون فى حسابهم أن ظروفا محلية بحتة فى أوروبا هى التى جعلت الفكر الأوروبى يتجه هذه المتجهات ، ويسلك هذه المسالك ، وأنه لو كانت هناك ظروف مختلفة ، لاعتنقت أوروبا أفكارا أخرى ومذاهب من نوع آخر .

بعبارة أخرى إن هذه الأفكار والمذاهب هى انعكاس لظروف محلية بحتة فى أوروبا ، وليست كما هى فى حس الأوروبيين ومن يدور فى فلكهم من الشعوب المغلوبة « قيما » قائمة بذاتها ، ولا أفكارا « إنسانية » تنبع نبعا ذاتيا من كيان « الانسان » بوصفه إنسانا . ولم يكن من الحتم أن تعتنقها أوروبا ذاتها ـ لو أتيحت لها ظروف أفضل ـ وليس من الحتم أن يعتنقها أحد فى خارج أوروبا مادامت ظروفه غير ظروف القوم هناك .

وهذا الكتاب لم يكتب للمسلمين وحدهم ، وإن كان المسلمون يستطيعون أن يفيدوا منه مزيدا من المعرفة بدينهم ، على قول الفاروق عمر رضى الله عنه : « لايعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية ! » فمعرفة المسلمين بانحرافات الجاهلية المعاصرة تزيدهم معرفة بكمال الدين المنزل من عند الله .

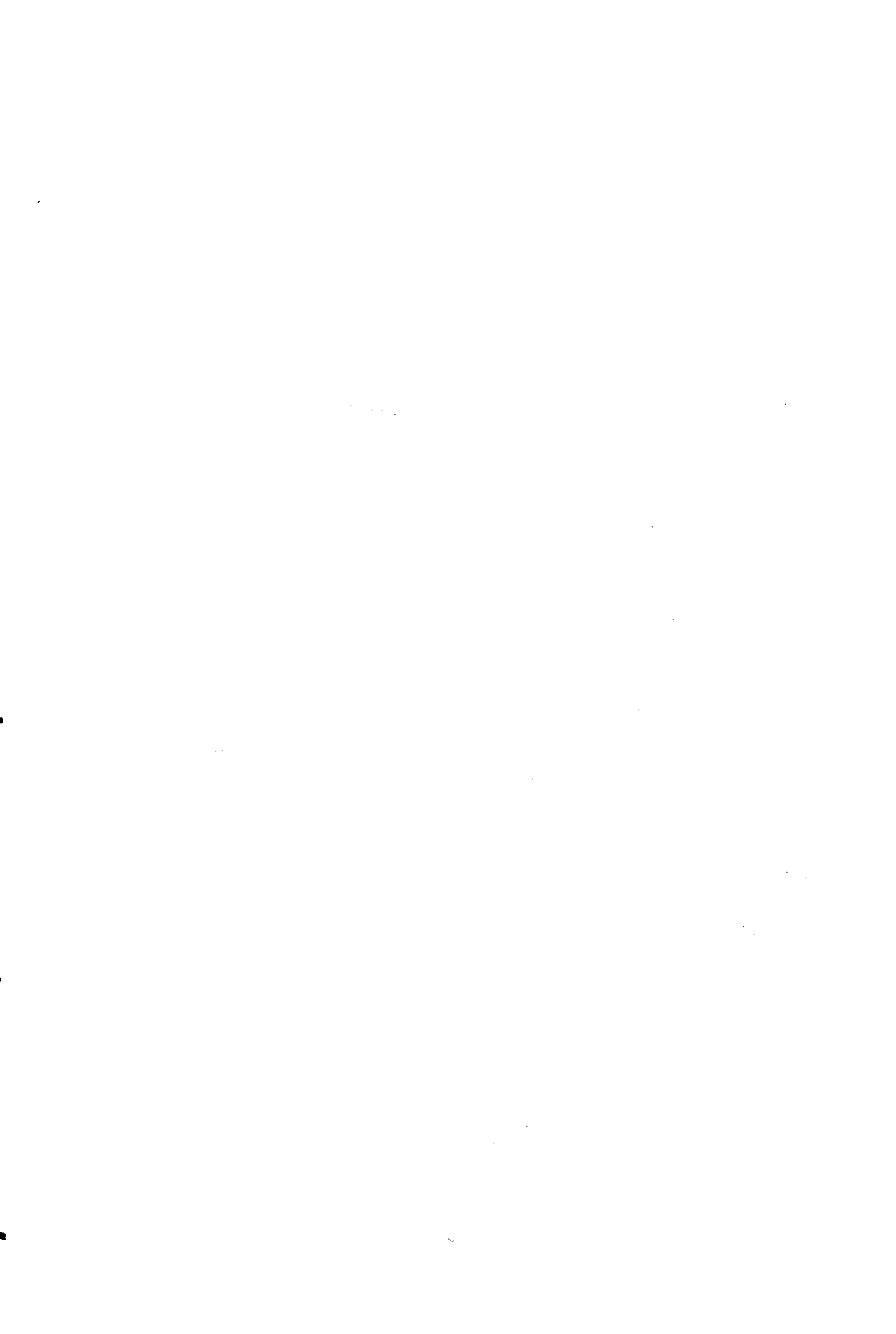
ولكنى كتبته لكل من يرغب أن يعرف شيئا عن هذه المذاهب المنتشرة فى الأرض اليوم ، وأسباب نشأتها وتشكلها على هذه الصورة . ولم أقصد به أن يكون دراسة متخصصة ، ولكنى حاولت أن أضع فيه القدر المناسب من المعلومات ، الذى يلقى ضوءا معقولا على هذه المذاهب والأفكار .

« ١ » فى النية إصدار كتاب فى هذا الموضوع بعنوان « واقعنا المعاصر » .

ولم أتحدث عن كل المذاهب المعاصرة ، فلم يكن قصدى الاستقصاء ، إنما
رضت لأبرز هذه المذاهب وأكثرها انتشارا فى عالمنا المعاصر ، فاخترت منها :
ديمقراطية والشيوعية والعلمانية والعقلانية والقومية والوطنية والإنسانية
الإلحاد .

فإن كنت قد قصرت فيما بذلت من الجهد فهذا هو العجز البشرى ، وإن كنت
د وفقت فمن الله التوفيق .

محمد قطب



التمهيد الأول

الدين والكنيسة

نبذة تاريخية

أولا : تحريف الدين :

لم تعرف أوروبا قط دين الله المنزل على حقيقته الربانية .

إنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوروبية لاصلة لها بالأصل المنزل ، الذى أرسل المسيح ليبلغه لبنى إسرائيل : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ... » « ١ »

وإذا استثنينا أفرادا قلائل ، متناثرين على طول التاريخ المسيحى من بعثة عيسى عليه السلام إلى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الجماهير الأوروبية ظلت تستقى دينها من رجال الدين من البابوات والكرادلة ، ومن المجامع المقدسة وشراح الأناجيل المحرفة ، وتعتبرهم مرجعا لايرقى إليه الشك ولايجوز أن يناقش ! فاتخذوهم ــ على الحقيقة لا على المجاز ــ أربابا من دون الله :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »« ٢ »

« ١ » سورة آل عمران [٤٩]
« ٢ » سورة التوبة [٣١]

وفى القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح كان الأباطرة وثنيين لايؤمنون بدين منزل ، فكانوا يضطهدون النصارى من صح اعتقاده منهم ومن انحرف وحرف ، يسومونهم سوء العذاب ، ويشردونهم فى الأرض ، حتى اتخذ فريق منهم الأديرة والملاجىء فى أطراف الأرض فرارا من العذاب .

وفى القرن الرابع تغير الأمر حين اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية وفرضها على الامبراطورية . ولكن الدين الذى فرضه قسطنطين هو ـ باعتراف المؤرخين والمفكرين الغربيين أنفسهم ـ شىء آخر غير الدين الذى بشر به المسيح .

يقول درابر الامريكى فى كتابه « الدين والعلم »

« ودخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام .. وكذلك كان قسطنطين .. فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره (سنة ٣٣٧ م) .

« إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان لنتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى على منافسه « الوثنية » قضاء باتا ، ونشر عقائده خالصة بغير غبش ..

« وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبدا للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها « ١ »

ويقول فشر المؤرخ الانجليزى :

« ١ » نقلا عن كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد ابى الحسن الندوى

« إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت أباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعا من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات « !! » بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها « ١ » !!

ويقول رينان الفيلسوف الفرنسى :

« إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل أخر ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لايخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس . وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى فخسر صفته الإلهية الكمالية ، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم وأخرها فى عصرنا الحالى ، والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار : موسى والزبور ، وأعمال الرسل ورسائلهم ، وتآليف آباء الكنيسة ، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله« ٢ »

ويقول برنتن :

« إن المسيحية الظافرة فى مجمع نيقية - وهى العقيدة الرسمية فى أعظم إمبراطورية فى العالم - مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين فى الجليل« ٣ »

ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائى عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعا لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل

« ١ » تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٨٠

« ٢ » عن « محاضرات فى النصرانية » للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٥ . وواضح ان رينان قد ركز على نقطة الفساد الحقيقية فى تعاليم الكنيسة وهى تأليه المسيح ، ولكنه خلط بها مسألة الختان وغيرها مما سماه « مظاهر خارجية » ولم تكن مسألة الختان التى عجزت الكنيسة عن تطبيقها هى التى افسدت المسيحية - وهى من تعاليم ابراهيم عليه السلام التى تلقاها من الوحى - انما كانت مسألة التثليث وتأليه عيسى عليه السلام .

« ٣ » أى المسيحية الأولى كما جاء فى كلام الكاتب بعد ذلك .

بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا « ١ » .

ويقول المؤرخ الإنجليزى ويلز :

« وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقى للمسيحية وهو شاول الطرسوسى أو بولس .. والراجح أنه كان يهودى المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك ، ولا مراء فى أنه تعلم على أساتذة من اليهود بيد أنه كان متبحرا فى لاهوتيات الاسكندرية الهلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلنستية ، وبأساليب الرواقيين ، كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية . أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة . ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء لاسترضاء الإله « ٢ »

ويقول أيضا :

« وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التى تكاد تضارعها فى سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس ...

« على أن ما أسهمت به نحلة الاسكندرية فى الفكر المسيحى والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد .. إذ كان طبيعيا أن يجد المسيحيون فى شخصية حورس (الذى كان ابنا لسيرابيس وهو سيرابيس فى نفس الوقت) شبيها مرشدا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا ... »« ٣ »

وتكفينا هذه الشهادات من مؤرخى الغرب ومفكريه ، لندرك مدى التحريف

« ١ » كتاب « افكار ورجال » تأليف جرين برنتن وترجمة محمود محمود ص ٢٠٧ من الترجمة العربية

« ٢ » معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٧٠٥

« ٣ » المصدر السابق ج ٣ ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩

والتشويه الذى أدخله بولس والمجامع المقدسة من بعده على العقيدة الصحيحة التى جاء بها رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام .

« وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »« ١ »

صدق الله العظيم .

على أن التحريف الذى وقع فى العقيدة من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم ، وتأليه عيسى عليه السلام وادعاء بنوته لله تعالى ، وتأليه مريم وروح القدس جبريل عليه السلام ، واختراع قصة الصلب والفداء ، وعبادة الصليب وعبادة التماثيل والأوثان .. الخ ... الخ .. هذا التحريف على بشناعته لم يكن هو التحريف الوحيد الذى أدخلته الكنيسة والمجامع المقدسة على دين الله المنزل ، بل أضافت الكنيسة انحرافا آخر لايقل سوءا ولا تشويها للدين المنزل من عند الله ، وذلك بعزل العقيدة عن الشريعة واتخاذ الدين عقيدة فقط ، وترك القانون الرومانى يحكم الحياة .

إن الدين المنزل من عند الله كان دائما عقيدة وشريعة فى ذات الوقت : عقيدة فى الله الواحد الفرد الصمد ، الذى لاشريك له ولا ولد ، وتنظيمات تنظم حياة الناس فى الأرض فى إطار أوامر الله ونواهيه .

فأما العقيدة فقد جاءت واحدة فى جميع الرسالات السماوية لأنها - بطبيعتها - غير قابلة للتغيير ولا التبديل . فالله سبحانه واحد . وكل الرسل المرسلين من عند الله جاءوا بعقيدة التوحيد ـ عقيدة الحق ـ فقالوا لأقوامهم كما يحكى القرآن الكريم عنهم : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » أما الشريعة وما تحويه من تنظيمات فقد تغيرت ـ بحسب أحوال الأقوام الذين أرسل المرسلون إليهم . وانحرافاتهم الخاصة التى كانوا واقعين فيها ـ حتى اكتمل الدين فى الوحى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم نزل قوله تعالى : « اليوم

« ١ » سورة المائدة [١١٦ ـ ١١٧]

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا« ١ » ولكنها – أى الشريعة – كانت دائما هناك ! كانت موجودة فى كل رسالة أنزلت على رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا . وقد أشار القرآن إلى بعض تفصيلاتها فى مثل قوله تعالى :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا« ٢ » أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟« ٣ » . « ٤ »

وقوله : « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ؟! فاتقوا الله وأطيعون » « ٥ »

وقوله : « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون .. »« ٦ »

وما كانت الرسالة المنزلة على عيسى ابن مريم بدعا من الرسالات فى هذا الشأن . بل ينص القرآن الكريم نصا صريحا على أن عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة – وهى حافلة بالتشريعات التفصيلية فى كثير من شؤون الحياة – وليحل لبنى إسرائيل بعض الذى كان قد حرم عليهم من باب العقوبة على ما اجترحوا من السيئات :

« ١ » سورة المائدة [٣]

« ٢ » هذه خاصة بالعقيدة

« ٣ » وهذه تتعلق بالشريعة وكلتاهما متصلة بالصلاة التى يصليها شعيب لله كما هو واضح من استنكار القوم

« ٤ » سورة هود [٨٤ – ٨٧]

« ٥ » سورة الشعراء[١٢٣ – ١٣١]

« ٦ »سورة الشعراء [١٦٠ – ١٦٦]

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم . وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون »« ١ »

كما ينص على أن الله جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، وأمر كل قوم أن يحكموا بمقتضى الشرع الذى نزل عليهم وإلا فهم كافرون وظالمون وفاسقون ، حتى يأتى الرسول الأخير صلى الله عليه وسلم فيحتكموا جميعا إلى شريعته .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور **ومصدقا لما بين يديه من التوراة** وهدى وموعظة للمتقين . **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون»؟!« ٢ »

ورغم أن وجوب تحاكم النصارى إلى ما جاء فى التوراة والإنجيل من تشريعات واضح تمام الوضوح فى الكتب المتداولة بين أيديهم بالرغم من كل ما حدث فيها من تحريف ، فإن الكنيسة زعمت أن القانون الرومانى ـ قانون قيصر ـ له شرعية تبيح اتباعه وهو يحكم بغير ما أنزل الله ، ونسبت هذا الزعم

. ١ . سورة ال عمران [٥٠]
. ٢ . سورة المائدة [٤٤ - ٥٠]

إلى السيد المسيح ، كما نسبت إليه من قبل أنه قال إنه إله وإنه ابن الله .. سواء بسواء !

جاء فى أناجيلهم هذه القصة :

« ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه (أى السيد المسيح) بكلمة ، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودوسيين قائلين : يامعلم ! إنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربوننى يامراءون ؟ أرونى معاملة الجزية . فقدموا له دينارا فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ! فقال لهم : أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا »« ١ »

وليس لنا من سبيل إلى الجزم فى أمر هذه القصة ، هل حدثت بهذه الصورة أم بغيرها أم لم تحدث على الاطلاق . وإن كنا أقرب إلى الشك فيها منا إلى إثباتها . ولكنا نفترض جدلا أن القصة حدثت على هذا النحو ، وأن المسيح تكلم بهذه الألفاظ ، فهل يمكن أن يكون قصده منها هو إعطاء الشرعية لأمر قيصر الذى لايؤمن بالله ورسوله ولايتحاكم إلى شريعة الله ، وقسمة شؤون الحياة بين قيصر وبين الله سبحانه وتعالى بحيث يكون لقيصر نطاق يتصرف فيه على هواه ويطاع فيما يأمر به ، وتكون بقية الشؤون ـ التى لايهتم بها القيصر ـ هى النطاق المتروك لله ؟!

وما الشرك إذن فى أجلى صوره ؟!

إن هذا المعنى يستحيل أن يخطر فى بال المؤمن العادى الذى يؤمن بلا إله إلا الله . فكيف بنبى مرسل من عند الله ؟!

إن أقصى ما يمكن أن تدل عليه القصة ـ على فرض صحتها جدلا ـ أن المسيح عليه السلام يقول لهم : إننا لم نؤمر الآن بقتال قيصر ، فإذا فرض عليكم الجزية ـ ولا قبل لكم اليوم برد سطوته عنكم ـ فادفعوا له الجزية حتى يأتى اليوم الذى يؤذن لكم فيه بالقتال لإخضاع قيصر لشريعة الله . وهذا كما قيل للمؤمنين فى مكة : « كفوا أيديكم واقيموا الصلاة وأتوا الزكاة »« ٢ » حتى جاءهم الاذن بالقتال فى قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله

« ١ » انجيل متى ٢٢ : ١٤ ـ ٢٢

« ٢ » سورة النساء [٧٧]

على نصرهم لقدير » « ١ » ثم جاء الأمر بالقتال لإخضاع الأرض كلها لشريعة الله : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٢ »

ولكن الكنيسة حمّلت هذه القصة ـ على فرض صحتها ـ فوق ما تحتمل، وزعمت أن معناها أن من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض على أن يحكم الله عالم السماء ، أو أن الأبدان لقيصر يفعل بها ما يشاء فى الحياة الدنيا ، ولله الأرواح فى الآخرة ! وهكذا سمحت للعالم المسيحى أن يحكمه القانون الرومانى فى كل شؤونه ماعدا « الأحوال الشخصية » من زواج وطلاق .. الخ .. وأن ينحصر سلطان الله على عباده فى مشاعر الخشوع والتقوى والشعائر التعبدية .. والأحوال الشخصية التى لايهتم بها قيصر إذا ما تركت لشريعة الله ! ... وتم بذلك فصل العقيدة عن الشريعة ، وتم المسخ الكامل لدين الله !

هذا الدين ـ بهذه الصورة ـ لم يكن صالحا للحياة .

فما يصلح دين تشوه عقيدته على هذا النحو ، ثم تفصل الشريعة فيه عن العقيدة وتحصر فى أضيق نطاق .

إن الدين يأتى لإصلاح الأرض وإقامة حياة الناس بالقسط .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » « ٣ »

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا . إن رحمة الله قريب من المحسنين « ٤ »

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط « ٥ »

وهذا الإصلاح الذى يقيمه الدين فى الأرض ينشأ من انصياع الناس لحقيقة ضخمة هى حقيقة التوحيد ، بكل أبعادها وكل مقتضياتها ، فتنضبط بها حركة النفس وحركة الحياة البشرية على السواء .

« ١ » سورة الحج [٣٩]
« ٢ » سورة الانفال [٣٩]
« ٣ » سورة الأعراف [٨٥]
« ٤ » سورة الأعراف [٥٥ ـ ٥٦]
« ٥ » سورة الحديد [٢٥]

التوحيد هو « الميزان » الذى يضبط النفس والحياة .

فالانسان عابد بفطرته ..

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا »« ١ »

وقد تهتدى النفس بميثاق الفطرة وقد تضل عنه . ولكنها ـ بما أودع فى فطرتها ـ تظل دائما تبحث عن الإله ... تبحث عن « المعبود » « ٢ »

ومن ثم فإن الانسان لابد أن يعبد .. يعبد الله أو يعبد شيئا غير الله .

وليس الفارق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وهذا لايعبد . إنما الفارق فى المعبود : أهو الله سبحانه وتعالى ، المستحق للعبادة ، أم غيره من الالهة التى لاواقع لها فى الحقيقة .

وتتعدد المعبودات من دون الله وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، واختلاف مبلغ الجاهلية من « العلم » الأرضى ، وتتوحد عبادة الله فلا تتغير طبيعتها باختلاف الزمان والمكان « ٣ » .

كان الناس فى جاهلياتهم المختلفة يعبدون «الأب» أو يعبدون «الطوطم» أو يعبدون « قوى الطبيعه » المختلفة من رعد وبرق وريح ومطر ، و يعبدون الأفلاك من شمس وقمر ونجوم ، أو يعبدون الأصنام والأوثان ، أو يعبدون البشر من الأنبياء والقديسين والأحبار والرهبان ، أو يعبدون الطبيعة .. ثم عبد الانسان ذاته فى الجاهلية المعاصرة ، ثم تعددت المعبودات فصار اسمها الوطن أو الدولة أو القومية أو المذهب أو الحزب أو الزعيم ... أو الجنس أو الانتاج المادى أو الدولار« ٤ » !

كلها معبودات يتخذها الناس أربابا من دون الله ، وتتحكم فى حياتهم فيسيرون على مقتضى ما تأمرهم به فى الوهم أو الحقيقة .

وفى جميع تلك الأحوال يكون الناس عابدين لأربابهم وخاضعين لما تأمرهم به تلك الأرباب .

« ١ » سورة الأعراف [١٧٢]

« ٢ » فى فصل « الالحاد » فيما يلى من الكتاب حديث أكثر تفصيلا عن هذه النقطة .

« ٣ » يقول علم مقارنة الاديان ان الدين قد « تطور » على مدى التاريخ : والحقيقة ان عقائد الجاهلية هى التى تطورت اما عقيدة التوحيد فلم تتغير من لدن آدم الى محمد صلى الله عليه وسلم والى ان يرث الله الارض وما عليها .

« ٤ » يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار »

أما فى حالة الهدى فيعبد الناس الله وحده بلا شريك ، ويتبعون أوامره ونواهيه ، أى : يحكمون بما أنزل الله .

ويختلف الأمر اختلافا بينا ما بين هذه العبادة وتلك ، أمر النفس وأمر الحياة سواء .

فأما النفس فما أبعد الفارق بين أن تعبد الوهم وأن تعبد الحقيقة !

« وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات »« ١ »

هل يستوى من يخبط فى الظلمات خبط عشواء يبحث عن شىء يظنه ظنا ولا وجود له فى الحقيقة ، ومن يمشى على النور إلى وجهة يعلمها ويتوخاها ويسير قاصدا إليها ؟

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟« ٢ »

أيهما أضبط حركة وأيسر مسيرا ؟!

أيهما أروح نفسا وأكثر طمأنينة ؟!

ثم إن النفس البشرية فى رحلتها على الأرض لتواجه أسئلة ترد - لا محالة - على الفطرة وتطلب الجواب .

من خالق هذا الكون ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

من يدير الكون وينشئ الأحداث ؟

لأى شىء نعيش ؟

أفمن يملك دليل الرحلة يدله إلى معالم الطريق أهدى أم من يخبط خبط عشواء بلا دليل ؟

أيهما أضبط حركة وأيهما أكثر أمنا وطمأنينة ؟!

ثم أيهما أضبط حركة وأكثر طمأنينة .. من له غاية موحدة يهدف إليها يحدوه حاد واحد إليها ، أم من له غايات متعددة متضاربة يحدوه إليها حداة مختلفون كل يدعو الى طريق ؟

« ١ » سورة فاطر [١٩ - ٢٢]
« ٢ » سورة الملك [٢٢]

« ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ؟ »« ١ » .

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » « ٢ »

ثم .. أيهما أكثر كرامة ؟!

من يعبدالله الحق ، ويتحرر – من ثم – من عبادة الأرباب الزائفة كلها ، ويستعلى عليها ، ويحس بوجوده الإيجابى تجاهها ، سواء كانت بشرا طاغين فى الأرض بغير الحق ، أو كانت «قوى » مادية أو معنوية ، أو كانت « حتميات » زائفة كالحتمية المادية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية التاريخية ، أو كانت أهواء وشهوات ذاتية .. أم من يعبد هذه الأرباب الزائفة المتفرقة ويخضع لسلطانها فتستعبده بذلك السلطان ؟!

ثم .. أيهما أكثر كرامة ؟!

من يعبد الإله الذى يكرمه ابتداء ويمنحه الوجود ويمنحه المكانة العالية .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ٣ » .

أم من يعبد الآلهة التى تستعبد أصحابها فتذلها وتسلبها الارادة وتسلبها الوجود ؟

ذلك أمر « النفس » مع عقيدة التوحيد .

الاستبصار والأمن والكرامة وتوحد الهدف وتوحد الطريق .

وإن النفس التى تعبد الله الحق ، وتطمئن بذكره وعبادته ، وتعرف دليل رحلتها على الأرض ، من أين وإلى أين ، لتتوحد طاقتها وتترتب ذراتها كما تترتب ذرات الحديد فى قطعة المغناطيس ، فتصبح طاقة كونية هائلة بدلا من أن تصبح بددا ضائعا فى التيه .

أما الحياة البشرية – حياة المجموع البشرى – فميزانها كذلك هو التوحيد .

من الذى يرسم للبشرية منهج الحياة ؟ من الذى يقول هذا حلال وهذا حرام ؟ هذا مباح وهذا غير مباح ؟ هذا حسن وهذا قبيح ؟ هذا طيب وهذا خبيث ؟!

« ١ » سورة الزمر [٢٩]
« ٢ » سورة يوسف [٣٩]
« ٣ » سورة الاسراء [٧٠]

إنه ـ من جهة ـ حق الاله الحقيقى على عباده ، وليس حق الآلهة المدعاة ، فيما أنه هو الخالق فهو ـ سبحانه ـ صاحب الأمر : « ألا له الخلق والأمر »« ١ »

ثم إنه ـ من جهة أخرى ـ حق العليم الخبير ، وليس حق الجهال المحدودى الآفاق : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » « ٢ »

وفى عقيدة التوحيد تكون الحاكمية ـ أى حق التحليل والتحريم والإباحة والمنع ـ لله وحده دون شريك .

وفى الجاهلية تكون الحاكمية للبشر ، مع الله ، بخلط شىء من التشريع الإلهى مع شىء من التشريع البشرى ، أو من دون الله ، بنبذ التشريع الربانى جملة واتخاذ شرائع كلها من صنع البشر ، سواء كان البشر فردا حاكما بأمره ، أو فردا حاكما بمشورة طائفة غيره من البشر ، أو كانوا كل البشر على السواء ..

وكل ذلك إشراك مع الله وكفر بالله « ٣ » :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » « ٤ »

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » « ٥ »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » « ٦ »

ويختلف الأمر اختلافا بينا ما بين عقيدة التوحيد ، التى تجعل الحاكمية لله ، وعقائد الشرك والكفر التى تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله .

يختلف أولا من ناحية الكرامة البشرية ، ويختلف ثانيا من ناحية الواقع البشرى . فأما من ناحية الكرامة البشرية ففى عقيدة التوحيد ، التى تجعل الحاكمية لله ، يكون الناس عبيدا لله وحده ـ وهو الكريم المكْرِم ـ متحررين من كل عبودية لغير الله ، مستعلين بوجودهم على الطواغيت . وفى عقائد الشرك

« ١ » سورة الأعراف [٥٤]

« ٢ » سورة البقرة [٢١٦]

« ٣ » فى ظل الاسلام يجتهد البشر « المؤمنون » فيما لا نص فيه . ولكن هذا ليس تشريعا من عند انفسهم ، فهم إنما يجتهدون فيما أذن الله لهم أن يجتهدوا فيه ، ولولا إذن الله لهم ما كان لهم أن يجتهدوا ولا يضعوا الأحكام ، فهم ـ بهذا الإذن ـ يضعون الأحكام ولكنهم لا يشاركون فى الحاكمية التى هى حق التحليل والتحريم والاباحة والمنع ، وفضلا عن ذلك فإن الاجتهاد محكوم بالأصول العامة للشريعة لايخرج عن إطارها

« ٤ » سورة الشورى [٢١]

« ٥ » سورة الأعراف [٣]

« ٦ » سورة المائدة [٤٤]

والكفر ، التى تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله . يكون بعض البشر أربابا وهم المالكون المسيطرون المشرعون ، وبعضهم عبيدا لاولئك الارباب . وهم الذين يقع عليهم سلطان الطواغيت .

وأما من ناحية الواقع البشرى فالعدل والرشد هو طابع الحياة فى ظل عقيدة التوحيد التى تجعل الحاكمية لله ، والظلم والتخبط هو طابع الحياة فى ظل عقائد الشرك والكفر التى تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله .

فأما الظلم فينشأ ـ دائما ـ فى الجاهلية من كون الذين يشرعون ـ سواء كانوا فردا أو طبقة « ١ » يشرعون لمصلحتهم الخاصة على حساب مصالح الآخرين .

وأما التخبط فينشأ من عجز البشر عن الإحاطة بالأمر من كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والمادية والروحية .. الخ . وعجزهم عن رؤية النتائج المستقبلة المترتبة على أعمالهم الحاضرة فمهما قدروا وتخيلوا فإن الواقع العملى يأتى دائما مخالفا لما قدروه وتخيلوه فى بعض جوانبه أو فى كل جوانبه ، وتنبت دائما مشاكل جديدة من الحلول المبتسرة التى يواجهون بها مشاكلهم ، لم تكن فى حسبان الذين وضعوا هذه الحلول . وهكذا تظل الحلقة المفرغة : مشكلات قائمة ، وحلول مبتسرة تنبت منها مشكلات جديدة توضع لها حلول مبتسرة جديدة ! وهذا إذا أحسنا الظن بواضعى الحلول وافترضنا أنهم مخلصون فى وضع ما يضعون من حلول وأنهم لا يخططون لإيقاع البشرية فى الخبال لغايات شريرة « ٢ »

بينما تقوم شريعة الله على العدل ، لأن الله ـ سبحانه ـ ليست له مصلحة ذاتية يطلبها من وراء تلك الشريعة ، وهو الغنى الحميد ، مالك الملك كله الذى لا تنفد خزائنه . إنما يريد الله الخير لعباده والبر بهم والزكاة والطهر والنظافة والارتفاع .

« والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » « ٣ »

كما أن شريعة الله تتسم بالرشد ، لأن منزلها ـ سبحانه ـ هو اللطيف

« ١ » لايوجد فى الواقع فرد واحد يحكم بمفرده ، انما يكون الحاكم انما طبقة يمثلها فرد او افراد .
« ٢ » سيأتى فيمابعد حديث عن دور اليهود فى افساد اوروبا .
« ٣ » سورة النساء [٢٧]

الخبير ، الذى يعلم حقيقة النفس البشرية التى خلقها « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » « ١ » ويعلم ما يصلحها وما يصلح لها ، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة الذى لايند عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والذى يحيط علمه بالماضى والحاضر والمستقبل فى كل لحظة من لحظات هذا الوجود كله ، فينزل التشريعات التى يعلم ـ سبحانه ـ أنه يتحقق منها الخير ولا يقع منها الشر ، والتى تكون فى كل لحظة مناسبة لما نزلت من أجله

والتوحيد يشمل ذلك كله .. يشمل العقيدة التى تستقيم بها النفس ، والشريعة التى تستقيم بها الحياة .

إن التوحيد ـ الذى يقوم عليه الدين المنزل من عند الله ـ هو توحيد الله فى ذاته وتوحيده فى صفاته وأفعاله . ومن صفاته التى ينفرد بها ـ سبحانه ـ أنه صاحب الخلق وصاحب الأمر كما مر بنا فى آية الأعراف :

« ألا له الخلق والأمر » « ٢ »

وأن الحكم ـ أى الحاكمية ـ له وحده فى كل شىء .

« إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ٣ »

أما الشرك ـ المقابل للتوحيد ـ فهو يقع إما فى العبادة ـ بمعنى التوجه لغير الله بالشعائر التعبدية مع الله أو من دون الله ـ وإما فى الاتباع ـ بمعنى التحريم والتحليل والمنع والإباحة من دون الله وبغير إذن من الله ـ أو فيهما جميعا كما فى آية النحل :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله **ما عبدنا من دونه من شىء** نحن ولا آباؤنا **ولا حرمنا** من دونه من شىء » « ٤ » .

والتوحيد هو الذى يصلح الأرض ، والشرك هو الذى يحدث الفساد الذى ينهى الله عباده عنه :

« ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا . إن رحمة الله قريب من المحسنين » « ٥ »

« ١ » سورة الملك [١٤]
« ٢ » سورة الأعراف [٥٤]
« ٣ » سورة يوسف [٤٠]
« ٤ » سورة النحل [٣٥]
« ٥ » سورة الاعراف [٥٦]

إذا علمنا ذلك كله ، وهو من بديهيات الدين المنزل من عند الله ، استطعنا أن ندرك مدى التحريف البشع الذى أحدثته الكنيسة فى دين الله المنزل على عيسى ابن مريم ، سواء فى تشويه العقيدة بقضية التثليث وتأليه عيسى عليه السلام ، أو بفصل العقيدة فى ذلك الدين عن الشريعة ، وتقديمه للناس عقيدة منفصلة خلوا من التشريع إلا القليل ، واستطعنا أن ندرك مدى الشرك ـ فى العقيدة والاتباع معا ـ الذى أدخلته الكنيسة على دين التوحيد الذى يلتقى فيه الرسل جميعا من أولهم إلى خاتمهم عليه الصلاة والسلام .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » « ١ »

ذلك الشرك الذى أشار القرآن إلى أحد طرفيه فى هاتين الآيتين :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم « ٢ »

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة .» « ٣ »

وأشار إلى طرفيه معا فى هاتين الآيتين :

« وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله الا هو سبحانه عما يشركون »« ٤ »

وأخيرا نستطيع أن ندرك أن ذلك الدين ـ بصورته المشوهة تلك ـ لم يكن صالحا للحياة .

ومع ذلك فإن الكنيسة ورجالها لم يكتفوا بهذه الخطيئة الكبرى فى حق الدين السماوى ، إنما أضافت إليها خطايا أخرى ومنكرات !

« ١ » سورة الشورى [١٣]
« ٢ » سورة المائدة [٧٢]
« ٣ » سورة المائدة [٧٣]
« ٤ » سورة التوبة [٣٠ ـ ٣١]

ثانيا : طغيان الكنيسة ورجال الدين :

حولت الكنيسة دين الله المنزل إلى روحانيات صرفة أو روحانيات غالبة بقصره على شعائر التعبد ومشاعر التبتل والخشوع والتقوى ، وإبعاد الجانب الذى يحكم الحياة العملية ـ أى الشريعة ـ إلا قليلا منه ، وترك هذا الجانب لقيصر،يتصرف فيه بمقتضى القانون الرومانى غير متقيد بما أنزل الله .

وكان المظنون أن تكون مهمتها تعميق الجانب الروحى ـ الذى قصرت الدين عليه ـ وأن تكون وسيلتها إلى ذلك هى التربية الروحية التى تربط القلوب بالله ، لتحبه وتخشاه .

ولكن الكنيسة لم تكتف بهذا الجانب ـ المنطقى مع تصورها وتصويرها للدين ـ بل مارست سلطانا « دنيويا » هائلا يتنافى مع هذا التصور ، ولا يفسره شىء فى حقيقة الواقع إلا رغبة الطغيان !

بل إنها ـ حتى فى الجانب الروحى البحت ـ قد مارست طغيانها الهائل،فأبت أن تتصل قلوب المؤمنين بربهم مباشرة بلا وسيط ، وأصرت أن تكون هى وحدها – ولا سواها ـ الواسطة التى تتصل القلوب عن طريقها بالله !

ويجدر بنا أن نفصل هذا الطغيان إلى أبوابه المختلفة التى مارستها الكنيسة على العقول والأرواح والأبدان ، مستغلة سلطانها على القلوب ، الذى يصاحب الجانب الروحى عادة فى حياة الناس .

ونحتاج فى هذا الشأن أن نتحدث أولا عن « رجال الدين » ثم نتحدث بعد ذلك عن طغيان رجال الدين ، الذى اتخذ مظاهر متعددة أهمها :

الطغيان الروحى .

الطغيان العقلى والفكرى .

الطغيان المالى .

الطغيان السياسى .

الطغيان العلمى .

(١) رجال الدين :

لكل دين ـ سماوى أو غير سماوى ـ رجال يقومون بتلقين الدين للناس ، وتعليمهم إياه ، ويكونون ـ فى نظر الناس على الأقل ـ ألصق بأمور الدين

وأعرف بها من سواد الناس الذين يكتفون ـ عادة ـ بممارسة ما يتلقونه من أولئك المعلمين دون تعمق فيه . وإذا كان هذا شأن كل دين ـ سماوى أو غير سماوى ـ فان الدين المنزل من عند الله يفترق فى هذا الشأن عن الأديان المصنوعة على يد البشر فى خصلتين اثنتين على أقل تقدير .

الأولى : أن يكون الذين يعلمون الدين للناس أقرب فى سلوكهم إلى حقيقة هذا الدين ومقتضياته أى أكثر وعيا وأكثر إخلاصا وأقرب الى الله ، كما كان المهاجرون والأنصار بالنسبة للجيل الأول من المسلمين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

والثانية : أن يكونوا متفقهين فى أمر الدين ليجيبوا الناس على أسئلتهم التى تخطر لهم بشأنه ، سواء فى الجانب التعبدى المتصل بالعقيدة والشعائر ، أو الجانب العملى المتصل بالشريعة .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » « ١ »

وأمر طبيعى أن يكون مثل هؤلاء الرجال موضع التقدير والاحترام من بقية الناس ، ولكنهم ـ بحكم طبيعة الدين المنزل من عند الله ـ لايكونون موضع التقديس . أولا : لأنهم يعلمون الدين الحق ، والدين الحق يجعل التقديس لله وحده وليس لأحد من البشر ، وثانيا : لأنهم يعلمون الدين بجانبيه : ما يتعلق منه بالعقيدة والشعائر وما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الدنيا بمقتضى الشرع الربانى،فيخاطبون فى الناس جانبهم الروحى وجانبهم العقلى والعملى التطبيقى ، فيظل ارتباط الناس بهم ارتباطا واعيا لا سحر فيه ولا غموض ولا أسرار . ومن ثم لا يصبحون ـ فى حس الناس ـ وسطاء بينهم وبين الله ، وإنما وسطاء بينهم وبين المعرفة الصحيحة بأمور الدين . وفرق بين الوساطتين كبير !

ومن ثم فلا يوجد فى الدين المنزل من يطلق عليهم « رجال الدين » إنما يوجد رجال صالحون من جهة ، وعلماء وفقهاء فى الدين من جهة أخرى . وليس لهؤلاء ولا هؤلاء على الناس سلطان إلا سلطان المحبة والتقدير ، ومكان القدوة الصالحة فى النفوس .

وحقيقة أن موسى عليه السلام ـ بوحى من ربه ـ قد ناط بكل سبط من أسباط

« ١ » سورة التوبة [١٢٢]

بنى إسرائيل الاثنى عشر أعمالا معينة يتوارثونها بينهم ، ومن بينها إقامة الشعائر والنسك مما أوجد فيهم كهانة وكهانا .. ولكن هذا كان أمرا تنظيميا فيما بين الأسباط لربط بنى إسرائيل بعضهم ببعض حتى لايتفرقوا ولا يختلفوا فيما بينهم ، ولم تكن كهانة للدين ذاته ، أى وساطة بين بنى إسرائيل وبين الله .

أما الأديان الموضوعة فلها شأن آخر ..

إنها أولا أديان موضوعة لا تعرف الله الحق ولا تعرّف الناس به . ومن ثم فإن مفهومها الدينى ليس هو المفهوم الصحيح ، والقداسة فيها ليست وقفا على الله وحده كما ينبغى فى الدين الحق .

وهى ثانيا تتكىء على الجانب الروحى : جانب العقيدة والشعائر والنسك ، أكثر بكثير من الجانب العقلى والعملى التطبيقى - إن اهتمت بهذا الأمر على الإطلاق - ومن ثم يصبح ارتباط الناس بهم ارتباطا روحيا ووجدانيا خاليا تقريبا من الوعى ، أو - عند البسطاء من الجماهير - خاليا من الوعى على الإطلاق .

ومن هنا يصبح فى هذه الأديان كهان أو رجال دين يمارسون سلطانا روحيا هائلا على الجماهير ، وتحيط بهم هالة من الغموض والأسرار .. ويصبحون هم الوسطاء بين الناس وإلههم الذى يعبدون !

وقد كان هذا هو شأن المسيحية المحرفة التى وضعتها الكنيسة الأوروبية .

إنها دين وضعى وإن تمسح بالمسيح عيسى ابن مريم وبالوحى الربانى ، وزعم أنه من عند الله .

ومن ثم كانت له كهانة ، وكان له رجال دين .. وكان هؤلاء الكهان - والبابا على رأسهم - وسطاء بين الناس وبين الله !

لقد حاولت الكنيسة أن تسند وجودها وسلطانها إلى المسيح عليه السلام ، إما بتأويل كلمات قالها بالفعل تأويلا يناسب أهدافها ، وإما باختراع كلمات لم يقلها وإلصاقها به ، كما فعلت فى قضية البنوة والتأليه ، وإعطاء قانون قيصر شرعية كشريعة الله .

تزعم الكنيسة أن المسيح قال لبطرس كبير الحواريين : أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل

ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات« ١ » وأنــه قال : « إنى أهب سلطانى لكنيستى »

ورتبت الكنيسة على هذا الزعم أن المكان الذى مات فيه بطرس ـ وهو روما ـ لابد أن يكون مقرا للنفوذ الدينى الذى يبسط ذراعيه على الأرض كلها ممثلا فى الكنيسة ، وأن ما تقوله الكنيسة ـ وعلى رأسها البابا ـ واجب الطاعة لأنه من أمر الله .

ولكن القضية كلها قائمة على أساسين واهيين هاويين :

قائمة على أساس أن المسيح عليه السلام ذو طبيعتين إحــداهما لاهــوتية والأخرى ناسوتية ، ومن ثم فهو إله وبشر فى ذات الوقت ، وهو على هذه الهيئة وسيط بين البشر ذوى الطبيعة الناسوتية الخالصة والاله ذى الطبيعة اللاهوتية الخالصة !! فهو ليس رسولا يبلغ وحى الله للناس ـ كما هو فى الحقيقة ـ إنما هو حلقة وسيطة تمر بها مشاعر الناس وأعمالهم لكى تصل إلى الله ، كما تمر من خلاله كلمة الله إلى الناس !

وقائمة ـ من بعد ـ على أساس أن الكنيسة هى وريثة المسيح ، ومن ثم فإن لها ذات الوضع وذات السلطان الذى كان للمسيح ، فهى مقدسة،و« قداسة » البابا ـ ومن يكل الأمر إليهم من الكرادلة وغيرهم ـ هم الوسطاء الذين تمر بهم مشاعر الناس وأعمالهم لكى تصل إلى الله ، كما تمر من خلالهم كلمة الله إلى الناس !!

وكلا الأمرين لايقوم على أساس فى دين الله ..

فالرسل فى دين الله هم رسل فحسب .

« قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟! » . « ٢ »

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » « ٣ »

« قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلى » . « ٤ »

« قل : لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شـاء الله ولو كنت أعلم الغيب

« ١ » انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر « ١٩ ـ ٢٠ »
« ٢ » سورة الاسراء [٩٣]
« ٣ » سورة آل عمران [١٤٤]
« ٤ » سورة الانعام [٥٠]

لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » « ١ »

وعيسى ابن مريم عبد الله ورسوله :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا : ثلاثة ! انتهوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . لن **يستنكف** المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون . ومن **يستنكف** عن عبادته فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا »« ٢ »

إنما وقع الخلط عندهم من أنهم قالوا : « فى البدء كان الكلمة . والكلمة كان الله » .. فجعلوا كلمة الله هى الله ! وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون آدم كذلك هو الله – نستغفر الله – لأنه كلمة الله : « قال له كن ، فيكون »« ٣ » ولأن الله نفخ فيه من روحه : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »« ٤ » .

أما القولة التى نسبوها إلى المسيح وأولوها على هواهم فهى لا تعنى أن تكون هناك كنيسة بالمعنى الذى صار إليه الأمر فى الكنيسة الأوروبية ولا رجال دين لهم وجود متميز وسلطان على المؤمنين بذلك الدين . إنما هى على فرض صحتها لا تعنى أكثر من قول الله عن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين« ٥ » فهى عزة يمنحها الله للمؤمنين بدينه ، يعتزون بها فى الأرض على الكفار والمنافقين ، وليست سلطانا ذاتيا يمارسونه على المؤمنين ! ولكن على هذا الفهم الخاطىء والتأويل المعوج سارت الأمور فى المسيحية المحرفة فصار لها كنيسة ورجال دين« ٦ » يرأسهم « قداسة » البابا ويرسمهم

« ١ » سورة الاعراف [١٨٨]

« ٢ » سورة النساء [١٧١ ـ ١٧٣]

« ٣ » سورة آل عمران [٥٩]

« ٤ » سورة « ص » [٧٢]

« ٥ » سورة المنافقون [٨]

« ٦ » مر بنا قول المؤرخ الانجليزى ويلز « فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الانسانية اما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة . ديانة الكاهن والمذبح »

ذلك البابا أى يضعهم فى مناصبهم ، وصار لهم على الناس ذلك السلطان المعروف فى التاريخ الأوروبى الذى لم يكن سلطانا عاديا ، وإنما وصل إلى حد الطغيان المتعدد الألوان .

(٢) طغيان رجال الدين :

(أ) الطغيان الروحى :

أشرنا من قبل إلى أن الطغيان الروحى هو من طبيعة الأديان الموضوعة التى تركز على الجانب الروحى . كذلك كان الأمر مع سحرة فرعون . وهم كهنته فى ذات الوقت .. الذين يروى القرآن عنهم .

« فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم « ١ »

وكذلك كان الأمر مع كهنة الديانات الوضعية القديمة كلها . فالكاهن محوط بالأسرار والغموض ، على أساس أن له صلة خفية بالاله المعبود ، ومن ثم ففيه عنصر إضافى غير بقية البشر العاديين يتيح له ذلك السلطان المرهوب على القلوب ، لأنه يملك ـ فى حسهم ـ أن يستنزل رضا الرب وغضبه على السواء ..! وبعد قليل يصبح غضبه ـ فى حسهم ـ كأنما هو غضب الرب ، وكذلك رضاه !

وإذا كان الأمر لم يصل فى المسيحية المحرفة إلى صورة السحر المادى لأن لها أصلا سماويا على أى حال ، فقد كان دور رجال الدين فيها قريبا من دور الكهنة فى الديانات الوثنية الخالصة « ٢ » وكان لهم سلطان روحى طاغ على الناس بوصفهم الوسطاء بينهم وبين الله . فالطفل لايعد مسيحيا حتى يعمد . والتعميد لا يتم إلا على يد الكاهن . ومن ثم تبدأ حياة المسيحى بتلك الوساطة الكهنونية التى تدخله ـ ابتداء ـ فى الدين . ثم يظل حياته كلها مرتبطا بالكاهن . هو الذى يزوجه ، وهو الذى يصلى به صلاة الأحد فى الكنيسة ، وهو الذى يتقبل اعترافه بخطاياه ويتقبل توبته (وإلا فلا توبة ومن ثم لا غفران !) ثم هو الذى يصلى عليه فى النهاية حين يموت . فهو من مولده إلى مماته مرتبط بالكاهن ذلك الرباط الذى يمثل فى حسه الكوة المفتوحة على عالم الغيب ، والصلة التى تصل قلبه

« ١ » سورة الأعراف [١١٦]

« ٢ » من هنا قال من قال من كتابهم « وعلمائهم » الجاهليين إن تاريخ البشرية قد مر فى ثلاث مراحل : مرحلة السحر ومرحلة الدين ومرحلة العلم التى يتخلص الناس فيها من الدين ! وهم يتكلمون عن جاهليتهم هناك .

بالله ! ولا يستطيع مهما كانت حرارة وجدانه أن يعقد صلة مباشرة بالله بعيدة عن سلطان الكاهن أو غير معرضة لتدخله فى أى وقت من الأوقات !

فإذا كان هذا سلطان الشماس الصغير فى القرية (الأبرشية) فما بالك بالأسقف وما بالك بالكردينال !؟

ثم ما بالك برئيس هؤلاء جميعا الذى يجلس على عرش البابوية هناك فى مقر السلطان ؟!

أو تعجب إذن إذا قيل لك إنه « قداسة » - البابا - وإنه المتحدث باسم الرب الاله فى الأرض .. وإنه مقدس الذات ومقدس الكلمات ؟!

ثم هل تعجب - من جهة أخرى - إذا رأيت رجال الدين قد طغوا فى الأرض بغير الحق ، وقد أوتوا على القلوب ذلك السلطان ؟!

إن السلطان بطبيعته يُطْغِى : « كلا ! إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى »« ١ » ولا يحد من هذا الطغيان إلا تقوى الله وصدق الايمان به : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور « ٢ »

فإذا فرغت القلوب من التقوى .. فما الذى يمنع الطغيان ؟

ولقد كانت قلوب أكثرهم خالية من التقوى كما يشهد كتابهم ومؤرخوهم . عباد دنيا .. عباد مال ونساء وشهوات .. لذلك كان الدين بالنسبة إليهم حرفة يحترفونها ، وسبيلا يلجونه ليوصلهم إلى المناصب ذات المكانة الرفيعة فى المجتمع وذات السلطان .

ولذلك كان طغيانهم من أبشع ألوان الطغيان فى التاريخ .. وكان حقا على أوروبا - حين تنورت - أن تخلع هذا السلطان الطاغى وتنسلخ منه ، إحساسا بالكرامة وفرارا من الذل والهوان .. وإن كانت قد تحركت - فى هذا الأمر وفى غيره - حركات هوجاء بعيدة عن المنطق والرشد ، أخرجتها من ضلال إلى ضلال .

يصف تشارلس ديكنز فى قصة المدينتين التى يتحدث فيها - بطريقة روائية - عن مقدمات الثورة الفرنسية والأحوال التى هيأت لقيامها ، مشهدا من مشاهد

« ١ » سورة العلق [٦ - ٧]
« ٢ » سورة الحج [٤١]

ذلك الاذلال الروحى الذى كان يمارسه رجال الدين على الناس ، أو الذل الروحى الذى كان يمارسه الناس لرجال الدين - وكلاهما سواء فى دلالته - فيصف شارعا من شوارع باريس وهى يومئذ غيرها اليوم .. والمطر ينهمر بقوة ، والشارع مملوء بالطين والأقذار والوحل ، وموكب الكاردينال على حصانه يمر فى الطريق ، والناس محتشدة على الصفين ترقب ذلك المشهد بقلوب خائفة واجفة ، وتنتظر اللحظة الهائلة التى يحاذى الموكب فيها رؤوسهم ، فتهوى هذه الرؤوس خشوعا - أو مذلة !! - للموكب الموقر ، وتظل تهوى حتى تلتصق بالأرض .. فى الوحل والطين والقاذورات !

بأبى أنت وأمى يارسول الله !

« لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم» ١ »

« إنما أنا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد « ٢ » .

ولم يكن ذلك هو الباب الوحيد للطغيان الروحى الذى مارسته الكنيسة ورجال الدين .. ففى صلب العقيدة المسيحية كانت هناك أبواب للطغيان ..

فهناك « الأسرار » التى لا يعلم تأويلها إلا الراسخون .. لا فى العلم ولكن فى الكهنوت !

أسرار التثليث .. والعشاء الربانى الذى يتحول فيه جسد المسيح إلى خبز ودماؤه إلى خمر ! وما إلى ذلك من معتقدات وطقوس .

ولئن كانت هذه القضية داخلة فى الطغيان العقلى والفكرى - من حيث حظر التفكير فيها ومناقشتها ، ووجوب التسليم الأعمى بها ، وسنتكلم عنه بهذه الصفة هناك - فإننا نتحدث هنا عن جانبها الروحى . ذلك أنها عندهم من صلب العقيدة .. والمفروض فى العقيدة أن تكون خالصة بين القلب البشرى وبين الله لا يعترضها فى الطريق معترض ، لأنها هى الصلة المباشرة التى تربط قلب المؤمن بالله .. إنما ينزل الله كلماته على رسله لتبين للناس حقيقة الألوهية .. ثم ينعقد الايمان فى داخل القلب البشرى فيتجه مباشرة إلى الله .

وبصرف النظر عما فى تلك « العقيدة » من زيف ما أنزل الله به من سلطان ، فإنها - عندهم - هى العقيدة ! بل هى العقيدة الصحيحة التى لايقبل من أحد

« ١ » رواه البخارى

« ٢ » رواه ابن ماجه

سواها ! وليس المفروض فى العقيدة الصحيحة أن تحتوى على أسرار مغلقة لا يعرف حقيقتها إلا فئة معينة من الناس محدودة العدد محدودة الذوات ! إنما كان يحدث هذا فى الديانات الوثنية السالفة ، حيث الأوهام بديل من الحق ، وحيث الأسرار تحيط بالأوهام ، ليظل الناس خاضعين لها لا يفيقون من سحرها ، ولا يتمردون على كهنتها الذين فى أيديهم - وحدهم - وصل القلوب بالأسرار ، بطريقة خفية لا تدركها الأفهام ولا الأبصار !

وإذ كانت مسيحية الكنيسة فى حقيقتها دينا من صنع الكنيسة ، أو من صنع بولس الذى قدمها لأوروبا فقد احتوت شيئا من طبيعة تلك الديانات الوثنية التى وضعها البشر من قبل ، فتضمنت تلك الأسرار التى لا يملك مفتاحها إلا أصحاب القداسة العليا .. أو هكذا يقولون للناس ! فما يملك مفتاحها أحد فى الحقيقة لأنها وهم لا وجود له على الإطلاق !

ومارست الكنيسة طغيانها الروحى كاملا فى هذا الجانب ، فقالت للناس : لن تؤمنوا بالله حتى تؤمنوا بتلك الأسرار .. ثم قالت لهم إن مفتاح تلك الأسرار عندنا نحن ولن نعطيه إلا لمن نختار !!

(ب) الطغيان العقلى والفكرى :

إذا عدنا لتلك الأسرار ذاتها ، وموقف الكنيسة منها ، وجدنا هذا الموقف ينطوى على لون اخر من الطغيان غير الطغيان الروحى .. مارسته الكنيسة لا على أرواح الناس هذه المرة ولكن على عقولهم وأفكارهم ، حين فرضت عليهم هذه الأسرار فرضا ومنعتهم من مناقشتها ، واعتبرت المناقش فيها أو الشاك فى أمرها كافرا مهرطقا وجبت عليه اللعنة الأبدية .. وخرج من رضوان البابوية فخرج - من ثم - من رضوان الله !

ولقد كانت تلك الأسرار كلها منافية للمنطق ومنافية للعقل . ولا شك أن واضعيها كانوا يعلمون ذلك أو يحسونه على أقل تقدير ، ويحسون أنها لو نوقشت - بالعقل والمنطق - فلن تصمد للنقاش ! وإذ كانوا يصرون عليها ، وعلى أنها هى الحقيقة – تضليلا بوعى أو ضلالا منهم بغير وعى - فلم يكن أمامهم إلا أن يستخدموا سلطانهم الطاغى لمنع المناقشة فى هذه الأمور لكى لا تنكشف عن وهم لا وجود له إلا فى أذهان واضعيه أو لا وجود له حتى فى أذهان واضعيه !

ويذكرنى هذا بحق الاعتراض « الفيتو » الذى تمارسه الدول « الكبرى » فى الجاهلية المعاصرة ! فما إن تشعر إحدى تلك الدول أن نقاشا ما سيحرجها أو يكشف زيف موقفها وبعده عن الحق ، حتى تبادر بإسكات الألسنة باستخدام « الفيتو » فيسكت المناقشون صاغرين !

ولئن كان هذا طغيانا تمارسه القوى الطغيانية التى تسمى نفسها الدول العظمى فى الجاهلية المعاصرة فقد كان طغيان الكنيسة فى جاهلية القرون الوسطى ـ المظلمة فى أوروبا« ١ » ـ أنكى وأشد ، فقد كانت تمارسه فى أمر يمس العقيدة وهى ضرورة بشرية لا غنى عنها للبشر ، الذين خلقوا ـ بفطرتهم ـ عابدين ، والذين تظل فطرتهم ـ بما أودع الله فيها ـ تبحث عن الله لتتجه إليه بالعبادة وتقدسه فى علاه .

وحين كان أى عقل مفكر يتجرأ فيسأل ـ مجرد سؤال ـ عن ماهية هذه الأسرار ، ولو كان سؤاله من أجل الإيمان بها أو الاطمئنان الذى يزيد الإيمان ، كانت الكنيسة تسارع إلى زجره عن هذا الإثم الذى يهم به،والذى يوقعه لاشك فى المهالك ! وتقول له إن هذا أمر خارج عن نطاق العقل . إنما يسلم المؤمن به تسليما بغير نقاش !

وهنا وقفة ربما كانت ضرورية فى هذا الشأن .

فقد يخطر على البال قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » « ٢ »

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله « ٣ »

وقد تعرض هذه القضية من أساسها : هل الدين من شأن العقل أم من شأن الوجدان ؟ وما دور العقل فيه إن كان له دور على الاطلاق ؟ وهل عليه ـ من أجل الايمان ـ أن يسلم تسليما أعمى بكل ما يأتيه عن طريق « الدين » أم له أن يناقش ويطلب الدليل ؟

« ١ » كانت القرون الوسطى مظلمة بالنسبة لأوروبا فهم صادقون فى تسميتها كذلك بالنسبة إليهم ولكن كتابا « مسلمين ! » يستخدمونها على أنها صفة شاملة للعالم كله فى تلك القرون وقد حوت تلك الفترة أشد القرون نورا .. تلك التى استضاءت بالإسلام !

« ٢ » سورة آل عمران [٧]

« ٣ » عن ابن عباس رضى الله عنهما رواه ابو نعيم « انظر صحيح الجامع الصغير » ، الشيخ ناصر الدين الالبانى ٣/ ٤٩

ونبدأ أولا بالنص القرآنى فنجد فيه إشارة إلى المحكم والمتشابه . ويجمع المفسرون والعلماء على أن أصول العقيدة – وكذلك أحكام الشريعة ـ هى من المحكم الذى لايدخل التشابه فيه . وأن الأمور المتشابهة ـ التى لم تحددها الآية ، والتى اختلف المفسرون فى تحديدها ، والتى منها على سبيل المثال الصورة المفصلة لأحوال الجنة وأحوال النار ، وصفة العرش وما إلى ذلك من الأمور ـ ليست من الأصول التى يكفر المختلفون فى تأويلها ، ثم إن الراسخين فى العلم ـ وهم ليسوا فئة محددة كفئة رجال الكهنوت ـ لايزعمون أن عندهم تأويلها ، ولا أن تأويلها سر خاص بهم يحتجزونه عن الناس ثم يطالبونهم بالايمان به بلا دليل . بل تنص الآية على أن الله وحده هو الذى يعلم تأويلها ـ أى حقيقتها ـ لأنه ـ سبحانه ـ هو العليم الخبير الذى يعلم كل شىء على إطلاقه ، إنما الراسخون فى العلم يسلمون فقط بأن الآيات كلها – محكمها ومتشابهها – من عند الله ، ويعلمون أن علم هذه المتشابهات هو عند الله وحده فيؤمنون بها على إطلاقها لأنها منزلة من عند الله ، ولكنهم لايزعمون لأنفسهم خصوصية فى التأويل ، ولا يحتجزون لأنفسهم شيئا من العلم يحجبونه عن الناس .

وهذا أمر يختلف تمام الاختلاف عن موقف الكنيسة الأوروبية فى قضايا العقيدة . فقد جعلت تلك الأسرار من أصول العقيدة ، ثم زعمت أن عندها وحدها مفاتيحها .. ثم قالت للناس : لن نعطيكم المفتاح ! ولكن عليكم أن تؤمنوا بها كما نقدمها لكم دون سؤال ولا نقاش ! وإلا فأنتم زائغو العقيدة مهرطقون .. وعليكم اللعنة إلى يوم الدين !

إن الكنيسة هنا وضعت نفسها فى موضع الإله ، بل افترضت لنفسها على الناس ما لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يفترضه لنفسه على عباده رحمة بالناس ! فالله ـ وحده ـ هو الذى يحق له أن يتعبد عباده بأمور ليس من الضرورى أن يدركوا حكمتها ، ليعلم ـ سبحانه ـ من يطيعه بالغيب . ولكنه ـ من رحمته ـ قد جعل ذلك فى أمور التعبد وليس فى أمور العقيدة التى جعلها الله سهلة وميسرة ومفتوحة بلا ألغاز ولا غموض ، ليستوعبها كل قلب ويطمئن إليها كل قلب . أما الكنيسة فجعلت ذلك فى أمور العقيدة ، وجعلت لنفسها حقوقا أكثر مما افترض الله على العباد !

ثم نعرج على الحديث الشريف فنجد أن فيه نصيحة للبشر أن يتعرفوا على الله سبحانه من خلال آياته الدالة على وحدانيته ، والدالة على تفرده فى كل شىء بلا شريك . وألا يحاولوا أن يتفكروا فى ذات الله لكيلا يضلوا ولا يهلكوا .

هل هو حجر على العقل البشرى أن يبحث وأن يناقش وأن يعرف ؟

كلا ! فالدعوة إلى التفكر واردة فى أول الحديث . « تفكروا فى آيات الله » إنما هو بيان للمنهج الصحيح للتفكير ، ودعوة إلى صيانة العقل البشرى أن تتبدد طاقته فيما لا طائل وراءه !

فماذا يملك العقل البشرى أن يحيط به من ذات الله التى لايحدها زمان ولا مكان ولا بدء ولا انتهاء ؟

وإلى أى شىء وصل العقل البشرى فى أمر الذات الالهية حين خالف النصيحة ومضى يخبط فى الظلمات ؟ إلى أى شىء وصلت الفلسفة فى القديم أو الحديث ، وإلى أى شىء وصل علم الكلام بعد المعاظلات الذهنية التى لا تؤدى إلى شىء إلا إجهاد الذهن بلا نتيجة ؟!

إن العقل ليعجز عن إدراك « الكنه » حتى فى أمور الكون المادى ، فيكتفى بتسجيل الظواهر دون الدخول فى الكنه ، فكيف بالخالق الذى لا تحده الحدود ؟

كلا ! إنها الصيانة وليست الحجر .. ومن خالف النصيحة فليضرب فى التيه !

أما العقيدة فمن ذا الذى حرج على العقل أن يدلى فيها بدلوه ويكون فيها له نصيب ؟

فأما الاسلام فقد دعا العقل دعوة صريحة إلى التفكر والتدبر ليصل فى أمر العقيدة إلى اليقين .. بل نعى على الذين يرفضون التفكير ، اتباعا للهوى ، او اتباعا لما ورثوه من عقائد الآباء والأجداد ، أو إغلاقا للحس والبصيرة ، عن التأمل والتفكير :

« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم »« ١ »

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! أولو

« ١ » سورة الروم [٢٩]

كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟! » « ١ »

وجاء فى وصف عباد الرحمن نفى للصفة الذميمة عنهم وهى إغلاق الحس والبصيرة عن التفكير :

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا » « ٢ »

أى لم يوصدوا عقولهم عن التفكير الذى يؤدى إلى معرفة الحق .

كذلك يوصف المؤمنون بأنهم « أولو الألباب » وأنهم هم الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض فيهديهم التفكر إلى الايمان بالله واليوم الآخر وخلق السماوات والأرض بالحق لا بالباطل :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار »« ٣ »

كما ينعى على الذين لا يتدبرون القرآن ولا يتفكرون فيما يحويه من الآيات :

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »« ٤ »

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ »« ٥ »

والأدلة العقلية والجدل الحقلى كثير فى القرآن :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » « ٦ »

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون » « ٧ »

« أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟! » « ٨ »

ويشهد التاريخ أن « العقل » فى ظل الاسلام قد قام بنشاط فكرى ضخم فى كل اتجاه ، ولكننا نعود فنسأل ، لنحدد بالضبط جريمة الكنيسة الأوروبية فى

« ١ » سورة البقرة [١٧٠]
« ٢ » سورة الفرقان [٧٣]
« ٣ » سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١]
« ٤ » سورة النساء [٨٢]
« ٥ » سورة محمد [٢٤]
« ٦ » سورة الانبياء [٢٢]
« ٧ » سورة المؤمنون [٩١]
« ٨ » سورة الطور [٣٥]

الحجر على الفكر البشرى : ما دور الوجدان وما دور العقل فى قضية الايمان ؟ وهل هناك أمور يختص بها الوجدان وليس للعقل فيها إلا التسليم ؟

إن الدين ـ كما نعرف صورته فى الوحى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يخاطب الانسان كله : وجدانه وعقله فى آن . وقد يكون الوجدان أوسع الأوعية البشرية التى تستوعب أمر العقيدة وقضية الإيمان . ولذلك فإن الخطاب الوجدانى هو الغالب فى السور المكية التى يتركز الحديث فيها على العقيدة . والقرآن يستثير الوجدان البشرى بالطرق على جميع نوافذ القلب والتوقيع على جميع أوتاره ، ثم ـ بعد استثارته ـ يلقى إليه الحقيقة المتعلقة بالعقيدة ، فينفعل بها القلب ، وتتصل منه إلى القرار .. ويكفينا مثال واحد من سورة الأنعام :

« إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « ٢ »

ولكن هذا ليس معناه أن الوجدان يستقل بأمر العقيدة .. وليس معناه أن الدين يفرض على العقل ـ فى شأن العقيدة ـ أمورا لا يستسيغها ولا يتقبلها ، ويطلب منه أن يسلم بها تسليما أعمى بلا دليل .

فأما ما يتصل بالذات الإلهية فنعم .. لا يملك العقل أن يستوعب . والوجدان أقدر على الاستيعاب من العقل المقيد فى تصوره بحدود الزمان والمكان والبدء والانتهاء .

ولكن الدين لم يطالب الإنسان ـ من أجل أن يؤمن بالله ـ أن يتفكر فى الذات الإلهية التى يعجز عن الإحاطة بها ، إنما طالبه بالتفكر فى آيات الله التى

• ٢ » سورة الانعام [٩٥ ـ ٩٩]

تستجيش النفس بدلالاتها الواضحة على تفرد الله سبحانه وتعالى بـالألوهية والربوبية ، فيؤمن الانسان بالله الواحد الذى لاشريك له ، ثم تستقيم حياته بمقتضى ذلك الايمان .

ومن ثم يشترك العقل والوجدان معا فى أمر العقيدة ، كل يؤدى دوره على طريقته .. وفى النهاية يستقر الايمان فى القلب ، ويصبح حقيقة واقعة فى كيان الانسان،تتبدى فى فكره وشعوره وسلوكه على السواء .

وإذن فادعاء الكنيسة أن العقل لا ينبغى له أن يسأل وأن يناقش فى أمر العقيدة ، وإنما عليه أن يسلم تسليما أعمى ويترك الأمر للوجدان ، هو ادعاء ليس من طبيعة « الدين » كما أنزله الله . إنما كان هذا من مستلزمات الأديان الوثنية التى تحوى أوهاما لايمكن أن يسيغها العقل لو فكـر فيها ، فتسكت صوت العقل وتمنعه من التفكير ، بالسحر تـارة ، وبالتهـديد بغضب الآلهـة المدعاة تارات !

وإذا كان هذا الأمر ـ وهو إسكات صوت العقل ومنعه من التفكـير ـ غير مستساغ حتى فى بداوة الانسان أو ضلالة البشرية ، فهو من باب أولى غير مستساغ فى دين تزعم الكنيسة أنه هو الدين المنزل من عند الله ، وأنه يمثل مرحلة راشدة فى تاريخ البشرية !

ولو كانت هذه الأسرار من الدين حقا ، ولو كانت من أمور العقيدة التى يلزم الايمان بها ، ما منع الله الناس أن يناقشوها بعقولهم ليتبينوا ما فيها من الحق ويؤمنوا به ! فإن الله لايقول للناس ـ فى وحيه المنزل ـ آمنوا بى دون أن تفكروا وتعقلوا . ولا يقول لهم : إنى ساضع لكم الألغاز التى لا تسيغها عقولكم ثم أطالبكم أن تخروا عليها صما وعميانا لا تتفكرون ، وإلا طردتكم من رحمتى !

إنما يقول الله للناس من خلال القول الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم « قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى **ثم تتفكروا** »« ١ »

ويندد بهم حين لا يتفكرون ولا يتدبرون : « أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟! » « ٢ »

ويناقش شبهاتهم ، ويطالبهم بوضعها على محك المنطق السليم وأن يأتوا عليها بالبرهان .. حتى يتحصل لهم من الوعى ما ينفى كل شبهة ويجعل العقيدة

« ١ » سورة سبأ [٤٦]

« ٢ » سورة محمد [٢٤]

مستقرة على يقين لا مجال فيه للتردد ولا للشك : « قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . الله خير أم ما يشركون ؟ أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ؟ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ! »« ١ »

ويرتب الايمان على مجىء « البينات » وهى الأدلة الواضحة التى تبين الحق وتزيل الشك : « قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى » « ٢ »

ويقيم الحجة على الناس قبل أن يطالبهم بالإيمان : « رسلا مبشرين ومنذرين **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**» ٣ »

كلا ! لا يطلب الله من عباده التسليم الأعمى ، إنما يطلب منهم التسليم البصير : « قل : هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى « ٤ »

إنما كان الأرباب المزيفون ـ فى المجامع المقدسة وعلى « عرش » البابوية – هم الذين حرموا على العقل أن يفكر ، وفرضوا عليه أن يسلم تسليما أعمى بأمور لا يستسيغها ولا يعقلها ، وإلا كان من الكافرين !

ولم يكن للناس بد تحت هذا التهديد الطاغى ممن فى أيديهم ـ وحدهم ـ الوساطة بين الله وعباده ـ كما يزعمون ! ـ أن يسلموا تسليما أعمى بأسطورة التثليث وأسطورة العشاء الربانى وأسطورة الأب الذى صلب ولده فداء لخطيئة آدم .. وغيرها من الأساطير المفروضة عليهم ، لكى يأمنوا غضب الوسطاء ، المؤدى ـ فى وهمهم ـ إلى غضب الله ، وأن يلتزموا بهذا الحجر البشع على العقول والأفكار عدة قرون .

« ١ » سورة النمل [٥٩ ـ ٦٤]
« ٢ » سورة غافر [٦٦]
« ٣ » سورة النساء [١٦٥]
« ٤ » سورة يوسف [١٠٨]

ولكن .. هل كان من الممكن أن يستمر ذلك إلى الأبد دون أن تتمـرد العقول المكبوتة وتدعو إلى حرية التفكير ؟!

(جـ) الطغيان المالى :

لم يكن « رجال الدين » من أهل التقوى والزهد كما يتوقع من القوم الذين حولوا الدين إلى روحانية غالبة ورهبانية وأمروا الناس أن يكتفوا بعيش الكفاف لكى يدخلوا الجنة ويجلسوا عن يمين الرب فى الآخرة ! وأبلغتهم أنه « من أراد الملكوت فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير عليه » وأن « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله »« ١ » وأن « لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولافرودا للطريق ، ولا ثوبين »« ٢ »ولا أحذية ولا عصا« ٣ » !

إنما كانت الكثرة منهم ممن فتنوا بالدنيا ونسوا الآخرة .

يقول « كرسون » فى كتاب « المشكلة الأخلاقية » .

« كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة ، كل ذلك كان خيرا للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ . إما أساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شىء آخر : البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة فى المجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب». « ٤ »

ويقول « ول ديورانت » :

« أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوروبا . فقد كان دير « فلدا » مثلا يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير ، وكان دير « سانت جول » يملك ألفين من رقيق الأرض ، وكان « ألكوين فيتور »« ٥ » سيدا لعشرين ألفا من أرقاء الأرض ، وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون

« ١ » انجيل مرقص [١٠ - ٢٢]

« ٢ » أى انه يكفى ثوب واحد

« ٣ » إنجيل مرقص : ١٠ ـ ١١

« ٤ » المشكلة الاخلاقية ص ١٦٧

« ٥ » احد رجال الدين

بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية .. وهكذا أصبحت الكنيسة جزءا من النظام الاقطاعى .

« وكانت أملاكها الزمنية ، أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى متمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدرا للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات » « ١ »

وكانت مصادر تلك الأملاك متعددة ، فمنها الأوقاف ، ومنها العشور ، ومنها الهبات ومنها الضرائب ، ومنها السخرة .

فأما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تستولى على أراض زراعية واسعة وتوقفها على نفسها لتنفق منها على الأديرة والكنائس وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية أو الحروب التأديبية التى تقوم بها ضد الملوك والأباطرة الخارجين على سلطانها . وفى ذلك يقول ويكلف وهو من أوائل الذين ثاروا على الفساد الكنسى وطالبوا بالاصلاح الشامل : « إن الكنيسة تملك ثلث أراضى انجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى « ٢ »

كما فرضت الكنيسة على أتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية لا يملكون التملص منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب !

يقول ويلز :

« كانت الكنيسة تجبى الضرائب . ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها ، وهى لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والبر ، بل طالبت به كحق« ٣ » !

وفرض البابا يوحنا الثانى والعشرون بالإضافة إلى ذلك ضريبة جديدة سميت « ضريبة السنة الأولى » وهى دخل السنة الأولى لأية وظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار !

أما الهبات فهى هبات فى ظاهر الأمر فقط ! ولكنها تؤخذ بالإحراج والتوريط ، والترغيب والترهيب ! وخاصة الهبات التى تمنح للكنيسة فى الوصايا التى

« ١ » قصة الحضارة ج ١٤ ص ٤٢٥

« ٢ » فشر : تاريخ اوروبا ج٢ ، ص ٣٦٢

« ٣ » معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٨٩٥

يكتبها الناس قبل موتهم . فقد فرضت الكنيسة على الناس ألا يكتبوا وصاياهم إلا على يد القسيس ! وما دام القسيس حاضرا وقت كتابة الوصية فقد أصبح الواجب - من باب « المجاملة » على الأقل - أن يهب الوصى شيئا من ماله للكنيسة حتى لايكون مجافيا للذوق ! أو حتى يتحاشى ما هو أخطر من ذلك : غضب الأرباب المؤدى إلى غضب رب الأرباب !!

أما السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها على رعاياها بالعمل يوما واحدا فى الأسبوع بالمجان فى أراضى الكنيسة الواسعة . فيعمل التعساء ستة أيام فى الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولأسرهم ، ثم يعملون اليوم السابع - يوم الراحة - سخرة فى أراضى الكنيسة لكى توفر الأخيرة أجور العمال التى كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة إقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة فى طلب المزيد من المال !

لقد كان من السهل على الكنيسة أن تمارس ذلك الطغيان المالى وهى تملك ذلك النفوذ الطاغى على أرواح الناس وعقولهم . فما هى إلا أن تصدر الأمر فيطيع العبيد صاغرين !

(د) الطغيان السياسى :

زعمت الكنيسة أن المسيح عليه السلام قد أعطى قيصر وحكمُه شرعية الوجود ، حين وضعت على لسانه هذه الكلمات : « إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وفسرتها - عمليا - بترك القانون الرومانى يحكم العالم المسيحى بدلا من شريعة الله .

ورغم أن هذا تفسير خاطىء لدين الله المنزل على عيسى ابن مريم رسول الله ، فقد كان مقتضاه - المنطقى - أن تتفرغ الكنيسة لشؤون الآخرة وشؤون الروح ، وتترك قيصر يحكم عالم الأرض وعالم الأبدان .

ولكنها لم تكن فى شىء من سلوكها العملى منطقية مع الذى تقوله بأفواهها أو تعلنه من مبادئها . فقد ادعت لنفسها سلطة دنيوية (أو زمنية Temporal كما يسمونها فى التاريخ الأوروبى) نازعت بها الأباطرة والملوك وأخضعتهم لسلطانها .

ونحن المسلمين لا ننكر - من حيث المبدأ - أن يكون لمن يقوم على أمر الدين فى الأرض سلطان على الأباطرة والملوك ، وإن كنا لا نعرف - فى الاسلام - شيئا

يمكن أن يسمى « الكنيسة » ولا شيئا يمكن أن يسمى « رجال الدين » إنما هم علماء الدين وفقهاؤه . إنما نقصد أننا لا ننكر على الذين يقع على عاتقهم مراقبة إقامة الدين فى الأرض أن يكون لهم على ذوى السلطان سلطة النصيحة والتوجيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولكن ... لأى شىء تكون هذه السلطة وعلى أى شىء تدور ؟!

إنها - فى دين الله المنزل - تكون لتنفيذ شريعة الله ومراقبة الأمور كلها لكى تكون خاضعة لشريعة الله .

فهل من أجل هذا طالبت الكنيسة بأن يكون لها على الأباطرة والملوك سلطان ؟! بل ذلك أبعد شىء عن الحقيقة .

إن الكنيسة - وهى تطالب بسلطانها الطاغى على الأباطرة والملوك - أو حين مارست هذا السلطان بالفعل - لم تطالبهم قط بالانصياع إلى شريعة الله وتطبيق أحكامها على الناس (فيما عدا قانون الأحوال الشخصية الذى لم يجد معارضة من الحكام من قبل !) إنما كانت تطلب - وتمارس - سلطانا شخصيا بحتا ، وأرضيا بحتا ، هو أن يطأطئ الملوك والأباطرة لها الرؤوس وأن يعلنوا أنهم خاضعون لسلطانها !

إن الكنيسة - بذلك - قد أجرمت فى حق دين الله جريمتين مزدوجتين : الأولى أنها عزفت عن تطبيق شريعة الله ، واجبها الأول ، والمبرر الأكبر لوجودها إن كان لوجودها مبرر على الاطلاق ، بينما كانت تملك سلطة تطبيق هذه الشريعة بما كان لها على قلوب الجماهير من سلطان من جهة ، وبما صار لها من سلطان على الملوك والأباطرة فيما بعد ...

والثانية أنها استخدمت سلطانها الذى حاربت من أجل الحصول عليه وأراقت الدماء فى إخضاع الناس جميعا ، ملوكهم ورعاعهم ، لهواها هى ، وجبروتها هى ، فجعلت من رجالها أربابا من دون الله ، وعبدت الناس لهم من دون الله حتى حق عليهم قول الله فيهم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » « ١ » ..

إنها جريمة بشعة - أو جرائم بشعة متراكب بعضها على بعض - من أى زاوية نظرت إليها .

« ١ » سورة التوبة [٣١]

فمن ناحية الدين المنزل شوهته بفصل العقيدة عن الشريعة وتقديمه للناس عقيدة صرفا بلا تشريع أى مسخا مشوها لا يمثل دين الله الحقيقى .. ثم ادعت للناس أن هذا هو الدين ! وزرعت فى عقول الناس تصورا خاطئا بأن الدين علاقة خاصة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة له بواقع الأرض .. فسهلت على الشياطين ـ فيما بعد ـ اقتلاع آثاره من واقع الحياة ، لأنه لم يكن عميق الجذور فى واقع الحياة ! « ١ »

ومن ناحية الواقع أسهمت فى إفساد الأرض بتعطيل شريعة الله ، والسماح للجاهلية الرومانية أن تحكم العالم المسيحى ـ فى صورة قوانين وتنظيمات ـ ومنعت الإصلاح الذى أراده الله للناس حين نزل عليهم الدين ، فنشأت عن ذلك مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية تمثلت فى نظام الاقطاع الذى ساد العالم الأوروبى ـ فى ظل الكنيسة ـ أكثر من عشرة قرون ! وسهل على الشياطين ـ فيما بعد ـ اقتلاع آثار الدين وتحطيمه باسم الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى !

فضلا عما أثارته من المنازعات مع الأباطرة والملوك ، مما أدى بهم ـ فيما بعد ـ إلى الانسلاخ من سلطان الكنيسة الذى يحمل عنوان الدين بالحق أو بالباطل ، وتعميق مفهوم الفصل بين الدين والسياسة الذى كان قائما من قبل بالفعل بتعطيل شريعة الله ، ليصبح عداء كاملا بين الدين والسياسة فى أى صورة من صور السياسة وأى صورة من صور الدين !

يروى التاريخ الكثير عن قصة النزاع بين الكنيسة وبين الأباطرة والملوك .

أصدر البابا « نقولا الأول » بيانا قال فيه :

« ان ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل ، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين ، حكاما كانوا أو محكومين » « ٢ »

وفى القرون الوسطى مارست الكنيسة ذلك السلطان بالفعل على للحكام والمحكومين ، مع وجود فترات من الصراع المتبادل ، حيث يتمرد بعض الملوك

« ١ » سنتحدث عن ذلك فى التمهيد الثانى « دور اليهود فى إفساد أوروبا »

« ٢ » قصة الحضارة لول ديورانت ج ١٤ ص ٣٥٢

والأمراء على سلطة البابا ، ويشتد آخرون فى حربهم للبابوات حتى إنهم ليعزلون البابا أو ينفونه أو يسجنونه ! ولكن السلطة الغالبة كانت للكنيسة ، تستمدها من سلطانها الروحى الطاغى على قلوب الناس ، ومن جيوشها الكثيفة ومن أموالها التى تضارع ما يملكه الملوك وأمراء الإقطاع !

يروى « فيشر » قصة الصراع بين البابا هلدبراند وهنرى الرابع إمبراطور ألمانيا فيقول : « .. ذلك أن خلافا نشب بينهما (بين البابا والإمبراطور) حول مسألة « التعيينات » أو ما يسمى « التقليد العلمانى » فحاول الامبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الإمبراطور وحرمه وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه ، فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد ، فوجد الإمبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته ، ولم يكن فى وسعه أن ينتظر وصول البابا ، فضرب بكبريائه عرض الحائط واستجمع شجاعته وسافر مجتازا جبال الألب والشتاء على أشده ، يبتغى المثول بين يدى البابا بمرتفعات كانوسا فى تسكانيا ، وظل واقفا فى الثلج فى فناء القلعة ثلاثة أيام وهو فى لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافى القدمين عارى الرأس يحمل عكازه مظهرا كل علامات الندم وأمارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم »« ١ »

كما يروى التاريخ قصة مماثلة عن ملك انجلترا هنرى الثانى الذى أصدر دستورا يلغى فيه كثيرا من امتيازات رجال الدين ، الذين كانوا يملكون الكثير ، ولا يدفعون شيئا من الضرائب التى يدفعها الشعب ، بل يفرضون هم لأنفسهم ضرائب خاصة .. فحرمته الكنيسة فأصبح غريبا فى وسط شعبه لا يطاع له أمر .. فأعلن ندمه وتوبته ، وسار إلى مقر رئيس الأساقفة فى كنتر برى يسترضيه ، ومشى على الأرض الصلبة الثلاثة الأميال الأخيرة من رحلته حافى القدمين حتى نزف الدم منهما ، وطلب من الرهبان ـ وقد استلقى على الأرض ـ أن يضربوه بالسياط حتى يرضى عنه الغاضبون !

ولكن سلطان الكنيسة ظل يتداعى فى نهاية القرون الوسطى حتى قام الملوك يعلنون أنهم هم الحكام فى الأرض بمقتضى « الحق الالهى المقدس » وأنه ليس

« ١ » فيشر – تاريخ اوربا ج١ – ص ٢٦٠ .

للبابوات عليهم سلطان إلا السلطان الروحى وحده .

فاستبدلت أوروبا فى الحقيقة طغيانا بطغيان مع فارق واحد ، أن الطغيان الجديد يبعد تدريجيا ويبعد الناس معه عن سلطان الدين ! وفضلا عن ذلك فقد كان انشقاق الملوك عن سلطان البابا يتخذ شكلا قوميا متزايدا ، تسانده العوامل الأخرى - السياسية والاقتصادية - التى أحاطت بأوروبا وشجعت على ظهور القوميات ، التى كان لها دور كبير فى بروز الصراعات الحادة فى أوروبا أولا ، ثم فى العالم كله فى صورة حروب استعمارية فيما بعد ، بالإضافة إلى ما أثبتناه من قبل من تعميق الفصل بين السياسة والدين .

(هـ) الطغيان العلمى :

كان المفروض أن يأتى الحديث عن الطغيان العلمى بعد الحديث عن الطغيان العقلى والفكرى فإنه وثيق الصلة به . ولكنا أخرنا الحديث عنه باعتبارين .

الأول أنه جاء متأخرا فى الترتيب الزمنى إذ حدث فى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بينما كانت ألوان الطغيان الروحى والعقلى والمالى والسياسى قائمة فى العالم المسيحى قبل ذلك بعدة قرون ، والثانى أنه فى الحقيقة لون جديد من الطغيان غير الطغيان العقلى الذى كان سائدا من قبل بمنع المناقشة والتفكير فى أمر الأسرار المقدسة المتصلة بالعقيدة ، فقد كان هذا الطغيان الجديد يفرض على العقول ألا تفكر فى أمور الكون المادى بما تقتضيه الملاحظات والمشاهدات العلمية ، وأن تلتزم بالتفسيرات الكنسية لما جاء من إشارات فى التوراة عن شكل الأرض وعمر الانسان ، ولو خالفت هذه التفسيرات كل حقائق العلم النظرية والعملية على السواء !

بدأت القصة ، أو بدأت الزوبعة حين قال العلماء إن الأرض كروية وإنها ليست مركز الكون ! ويعرف التاريخ الأوروبى من أبطالها ثلاثة أسماء شهيرة غير الأسماء الأخرى التى لم تلمع على صفحات التاريخ ، وهؤلاء هم كوبرنيكوس وجردانوبرونو وجاليليو

الأول عالم فلكى بولندى عاش ما بين ١٤٧٣ و ١٥٤٣م

والثانى فيلسوف إيطالى عاش ما بين ١٥٤٨ و ١٦٠٠م

والثالث عالم فلكى إيطالى عاش ما بين ١٥٦٤ و ١٦٤٢م

وقد قامت قيامة الكنيسة عليهم وعلى غيرهم فأحرقت من أحرقت ، وعذبت من عذبت ، وهددت من هددت بالتعذيب والحرق فى النار إن لم يكفوا عن هذه « الهرطقة » التى تقول إن الأرض كروية وإنها ليست مركز الكـون ! « ١ » بحجة أن التوراة قالت إن الأرض مستوية (أى مسطحة) وإنها هى مـركز الكون ، والانسان مركز الوجود !

ويقول التاريخ الأوروبى إن الكنيسة قـد فزعت فـزعتها تلك حفـاظا على كيانها ، الذى يقوم على الخرافة ويستند إلى انتشار الجهل بين الجماهير،وإنها خشيت على هذا الكيان أن يتصدع وينهار إذا انتشر العلم ، وتبين الناس أن ما تقوله الكنيسة ليس هو الحقيقة المطلقة فى كل شىء .

ولا شك أن هذا ـ فى جملته ـ صحيح .

ولكن هذه المقالة تغفل شيئين مهمين فى هذا الشأن ، أولهما عن غفلة والثانى عن قصد !

أما الأول فهو أن آباء الكنيسة ورجالها كانوا مخلصين فى صيحتهم ـ فى أول الأمر على الأقل ـ لأنهم كانوا يتصورون أن ما جاء فى التـوراة حقيقة ، وأن تفسيرهم له هو الصحيح . وسبب ذلك هو الجهالة التى كانت مخيمة على أوروبا كلها ، وعلى رجال الدين فيها بصفة خاصة ، فقد كانوا من أقل الناس ثقافة ومن أبعدهم عن تعلم العلم الصحيح ـ إن وجد ـ اكتفاء بالمجد الروحى والسلطان الطاغى والأموال الطائلة التى يتمتعون بها بوصفهم « رجال الدين » !

إنما يجوز بالفعل أن يكونوا قد استمروا فى حرب العلم ـ عن وعى وعمد ـ فيما بعد خوفا على سلطانهم أن يتصدع حـين يكتشف الناس أن شيئـا مما يقولونه كاذب لا أساس له ، فيكون وجودهم كله عرضة لأن يوضع مـوضع التساؤل والمساءلة .. فينهار !

أما الأمر الثانى الذى يغفله المؤرخون الأوروبيون عن عمد ـ رغم ظهوره ـ فهو أن هذا العلم الذى قامت الكنيسة بحربه كان آتيا من مصادر إسلامية ، وكان يحمل معه خطر انتشار الإسلام فى أوروبا،ومن ثم انهيار الكنيسة ذاتها حين ينهار الدين الذى تمثله وتدعى حمايته !

« ١ » مات كوبر نيكوس قبل أن يقع فى قبضة محاكم التفتيش أما جوردانوبرونو فقد أحرق حيا وأما جاليليلو فقد سجن حتى أشرف على الهلاك فتراجع ـ ظاهريا ـ عن معتقداته وإن ظل مقتنعا بها فى الحقيقة .

يقول « ألفارو Alvaro » وهو كاتب مسيحى أسبانى عاش فى القرن التاسع الميلادى :

« يطرب إخوانى المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها بل للحصول على أسلوب عربى صحيح رشيق . فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ؟ وأين ذلك الذى يدرس الانجيل وكتب الأنبياء والرسل ؟ واأسفا ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ، ليسوا على علم بأى أدب ولا لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون فى زراية ـ إذا ذكرت الكتب المسيحية ـ بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم »« ١ »

وظاهر من هذا النص إلى أى مدى كان تأثير الإسلام على المسيحيين من أهل الأندلس ، ونستطيع أن ندرك منه كذلك كيف كان تأثير الإسلام على المبتعثين الأوروبيين إلى بلاد الإسلام .

ذلك أنه حين استيقظت أوروبا وبدأت تنهض كان لابد لها أن تتعلم . ولم يكن ثمت علم إلا ما كان عند المسلمين ، وفى مدارسهم .. ومن ثم أرسلت أوروبا أبناءها ليتعلموا فى مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها من أماكن العلم .. فتعلموا هناك الطب والهندسة والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء على أيدى الأساتذة المسلمين فتأثروا بهم ، وتأثروا بالإسلام كذلك ، فجن جنون الكنيسة من تأثير الإسلام الزاحف على أوروبا مع حركة العلم .. ومن ثم قامت تضع السدود بين الإسلام وبين أوروبا ، وكلفت كتابها أن يهاجموا الإسلام ويشوهوا صورته فى نفوس الأوروبيين ، وأن يهاجموا الرسول صلى الله عليه وسلم وينعتوه بكل نعت قبيح ، لمقاومة ذلك « الغزو الفكرى » المتسرب مع المبتعثين العائدين من بلاد الإسلام . وكذلك كانت الحرب المعلنة ضد العلم « المستورد » من البلاد الإسلامية جزءا من هذه الحرب الشاملة ضد الإسلام،وإن كانت قد خصت قضية كروية الأرض بأشد الحرب لأنها وجدت نصا مقدسا فى التوراة تستطيع أن تصعد به المعركة إلى حد الحرق والتعذيب !

« ١ » عن كتاب « حضارة الإسلام » لفون جرونيباوم ص ٨١ ـ ٨٢ من الترجمة العربية .

وأيا كان السبب فقد وقفت الكنيسة من العلم والعلماء ذلك الموقف الشائن الذى ترتبت عليه ـ ككل خطايا الكنيسة وأخطائها ـ نتائج بعيدة المدى فى الحياة الأوروبية حتى اللحظة الراهنة .. فقد بدأ منذ تلك اللحظة الفصام الأحمق بين العلم والدين، الذى مايزال يغشى بدخانه الأسود حياة أوروبا حتى اليوم .

إن جريمة الكنيسة ـ فوق تشويه صورة الدين وتنفير الناس منه ، الذى تلتقى عنده وتنتهى إليه كل جرائمها ـ أنها تفصل بين نزعتين فطريتين سويتين متكاملتين ـ نزعة التعلم ونزعة العبادة ـ وتنشىء بينهما عداوة لا وجود لها فى أصل الفطرة ، وصداما لا ينبغى أن يوجد فى النفس السوية ، فتمزق النفس الواحدة مِزَقاً وتثير فى داخلها القلق والاضطراب .

لقد خلق الله الانسان مفطورا على حب المعرفة كما خلقه مفطوراً على العبادة :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » « ١ »

« وعلم آدم الأسماء كلها » « ٢ »

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » « ٣ »

وفى النفس السوية تتجاور النزعتان وتتكاملان بلا تصادم ولا تضاد . فالفطرة تتطلع إلى ربها لتعبده ، والفطرة تتطلع إلى الكون من حولها تحب أن تتعرف عليه ، وأدواتها هى الحس والعقل :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٤ »

وتلتقى نزعة الإيمان بالغيب والايمان بما تدركه الحواس ، وتؤديان مهمتهما معا فى تشكيل إنسانية الانسان على الصورة التى أرادها الله له ، وكرمه بها وفضله على كثير من الخلق .

ولكن الكنيسة بموقفها الأحمق ـ أيا كانت الأسباب التى دفعتها إليه ـ راحت

« ١ » سورة الأعراف [١٧٢]
« ٢ » سورة البقرة [٣١]
« ٣ » سورة العلق [٣ ـ ٥]
« ٤ » سورة النحل [٧٨]

تفصل بين هاتين النزعتين الفطريتين المتكاملتين، وتقول للناس : إن أردتم الدين فاتركوا العلم .. ومن أراد العلم فقد خرج على الدين ! فتخير الناس بين حاجتين فطريتين لا تغنى إحداهما غناء الأخرى ، ولا يسد إشباع أيهما جوعة الثانية !

وهل كانت هناك نتيجة منتظرة من هذا الموقف إلا أن يترك الناس ذلك الدين الذى يحجبهم عن العلم ويحجر عليه ، وأن يسيروا مع العلم فى تياره الزاخر الذى يأتى كل يوم بجديد ، وإن كانوا مع ذلك لا ينجون من القلق والاضطراب ؟!!

على أن الشر لم يقف عند هذا الحد - وهو بشع فى ذاته - لم يقف عند هجر الدين من أجل العلم ، بل وصل إلى كراهية الدين والنفور منه ، ونفيه نفيا باتا من مجال البحث العلمى على وجه الخصوص .

لا تجد فى الجاهلية المعاصرة حقيقة علمية واحدة تسند بإرجاعها إلى أصل دينى ! بل على العكس . مجرد ذكر الدين أو الله - سبحانه وتعالى - فى مجال البحث العلمى كفيل - عندهم - بالشك فى الحقيقة العلمية ، أو باستهجان المنهج على الأقل ، لأنه منهج غير علمى !! كفيل بإثارة الامتعاض فى جميع الأحوال !

وصدق الله العظيم : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة. وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون» ! ! « ١ »

وإقامة التصور - فى أى مجال من مجالات البحث - على أساس المفهوم الدينى هو عندهم هدم للمنهج العلمى وتشويه له ، وإعطاء حصيلة محوطة بالشك ولو كانت كل الأدلة تؤيدها ! وخذ مثالا لهذا الموقف المعادى للدين ولو كانت الحقائق العلمية متفقة معه ومؤكدة له قول جوليان هكسلى فى كتاب « الانسان فى العالم الحديث » : Man in the Modern World

« وهكذا يضع العلم الحديث الانسان فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان .. ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة فى تفاصيلها أو فى كثير مما تضمنته .. ولكن كان لها أساس جيولوجى متين » ! « ٢ »

« ١ » سورة الزمر [٤٥]
« ٢ » من فصل « تفرد الانسان » ص ٣٦ من الترجمة العربية لحسن خطاب

كذلك نُفِىَ القصد والغاية من أى شىء فى هذا الكون نفيا « علميا » !!

وراح « العلماء » ! يتذرعون بشتى الذرائع لإبعـاد الحديث عن القصـد والغاية من مجال البحث العلمى،كقولهم إن هذا من شأن الفلسفة ، أما العلم فمهمته تسجيل « الحقائق ! » كما هى دون إعـطاء تفسير مسبق لها . أو قولهم إن هذا شأن « الميتافيزيقا » (أى ماوراء الطبيعة) ولكن العلم محصور فى ظواهر الطبيعة يسجلها ويحاول أن يفسرها تفسيرا « علميا ! » أى فى حدود ما تدركه الحواس ..

والحقيقة من وراء ذلك هى إبعاد كل ظل للدين من البحث العلمى انتقاما من موقف الكنيسة التى حاربت العلم باسم الدين !! ذلك أن الحديث عن « الغاية » هو حديث عن الله سبحانه وتعالى وغايته من خلق هذا الكون على الصورة التى خلقه عليها . ثم إنه يتضمن التزاما معينا تجاه الله سبحانه وتعالى ، هو التزام الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان فى هذا الكون .. والعلم الذى نشأ فى ظل العداء مع الدين لايريد أن يلتزم بشىء ألبتة تجاه الدين وتجاه الله ! لأن الالتزام - عندهم - لا يجرى إلا من خلال الكنيسة ، والكنيسة هى الطغيان !

بل بلغ الأمر إلى نفى القصد لا إبعاده عن مجال البحث العلمى فحسب ! وخرجت نظريات « علمية !! » تقول إن الكون وجد بالصـدفة ! وإن الحيـاة ظهرت على سطح الأرض بالصدفة !

بل حين أسند الخلق إلى « الطبيعة » بدلا من الله نفى القصد عن الطبيعة وقـال قائلهم « دارون » إن الطبيعـة تخبط خبـط عشواء ! Nature woks haphazadly

وهذه « الطبيعة » ذاتها ، وتأليهها ونسبة الخلق إليها .. لقد كانت إحدى الخطايا المترتبة على الخطيئة التى اقترفتها الكنيسة من قبل بوقوفها مـوقف العداء من العلم والعلماء ..

إن تأليه الطبيعة - سواء فى مجال العلم أو الفن أو أى مجال آخـر - لهو المهرب الوجدانى الذى لجأت إليه أوروبا لتهرب من إله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه فى كل مجالات الحياة : الروحية والفكرية والمالية والسياسيـة والعلميـة .. الخ ، وتخترع إلهـا آخر له معـظم صفات الله الخـالق البارىء المصور ، ولكن ليست له كنيسة وليست له التزامات !

وإلا فما « الطبيعة » في مجال البحث العلمي على الخصوص ؟

ومن أين لها صفة الخلق ؟ والخلق بهذه الدقة المعجزة التي يتحدثون عنها سواء في الفلك أو الكيمياء أو الفيزياء أو الطب أو علم وظائف الأعضاء أو علم الحياة ؟!

ثم إذا كانت ـ كما يقول دارون ـ تخلق دون قصد معين ولا تدبير ، فكيف خلقت الانسان الذي يتصف بالقصد والتدبير ؟ أي بعبارة أخرى : كيف يخلق الخالق من هو أعلى منه وأكمل وأدق ؟!

ألا إنها أسطورة « علمية ! » ضخمة في عصر العلم ! ومع ذلك فهي العملة السارية في كل كتب العلم الغربي بلا استثناء ! اقرأ في أي كتاب علمي تجد « الطبيعة » Nature مشارا إليها على أنها الخالق الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون !

إنها المهرب الوجداني الذي لجأت إليه أوروبا لتهرب من إله الكنيسة وتجد ما تتعبده في ذات الوقت ، إذ الانسان مفطور على العبادة سواء في ضلاله أو هداه .. أما أن يتحدث عنها الذين يسمون أنفسهم « علماء ! » وبصيغة الجد لا الهزل .. فمهزلة لا يفسرها شيء إلا حقيقة واحدة ، هي أن الانسان حين ينتكس في جاهليته – بعيدا عن الهدى الرباني – يمكن أن يصدر عنه أي شيء على الاطلاق .. مهما كان بعيدا عن المنطق وبعيدا عن المعقول .

ولكن الجريمة الكبرى في هذا الشأن تقع على عاتق الكنيسة بادئ ذي بدء ، التي أقامت ذلك الحاجز من العداء بين الدين والعلم ، الذي ظل يتفاقم حتى وصل ـ على يد الشياطين ـ إلى استخدام العلم ذريعة إلى القضاء على الدين .

ثالثا : فساد رجال الدين :

المفروض في « رجال الدين »ـ إن كان ثمة مبرر لوجود رجال دين على الإطلاق ـ أن يكونوا قدوة صالحة للمؤمنين بالدين ، ونموذجا يحتذى في الفكر والشعور والسلوك .

ولكن رجال الدين الكنسي في أوروبا البابوية لم يكونوا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يحتفلون به !

بل كانت حياة الغالبية منهم حياة ترف وملذات وشهوات !

يقول الله ليحذر المؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ! » « ١ »

كبر مقتا لأنه صد عن سبيل الله .. وأى جريمة أكبر من الصد عن سبيل الله ؟

إن الناس قد يتقبلون من الشخص العادى أن يكذب أو يغش أو يلتوى فى سلوكه .. أو يقع فريسة للشهوات .

أما أن يقع ذلك ممن ينصب نفسه قدوة للناس ، أو ممن يدعو الناس إلى التمسك بالفضيلة والبعد عن الرذيلة .. فهذا الذى لا يستسيغه الناس من جهة ، والذى يصدهم عن القيم الرفيعة من جهة أخرى ، لأنه ييئسهم من قيام تلك القيم فى عالم الواقع ، ويشعرهم أنها مجرد شعارات معلقة فى الفضاء . ويهون لهم من جهة أخرى ارتكاب الرذيلة بكل أنواعها ، لأنه إذا كان دعاة الفضيلة يفعلون ذلك ، فما بالهم هم ، الذين لم يزعموا لأنفسهم ذات يوم أنهم من أصحاب الفضيلة ؟!

لذلك كبر مقتا عند الله أن يقول المؤمنون بألسنتهم ما يخالفونه فى سلوكهم الواقعى .

وهذا الذى كبر مقتا عند الله كان هو السلوك الغالب على رجال الدين الكنسى فى أوروبا البابوية ! مما أدى ـ كما أدت خطايا الكنيسة كلها ـ إلى نبذ الدين فى النهاية والانسلاخ منه .

يقول « ول ديورانت » فى فصل بعنوان « أخلاق رجال الدين » من كتاب « قصة الحضارة » (ج ٢١ ص ٨٣ ـ ٨٦) :

« لقد كان يسع الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أن رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع .. ولكن كثرتهم الغالبة ارتضت ما فى أخلاق زمانها من شر وخير ، وكانوا هم أنفسهم مرآة ينعكس عليها ما فى سيرة غير رجال الدين من أضداد . فقد كان قس الأبرشية خادما ساذجا ، لم يؤت فى العادة إلا قسطا ضئيلا من التعليم ، ولكنه غالبا ما يعيش معيشة يقتدى بها (وإن خالفنا فى هذا رأى الراهب الصالح أنطونينو) لا يعبأ به رجال الفكر ، ولكن يرحب به الشعب .

« ١ » سورة الصف [٢ ـ ٣]

وكان بين الأساقفة ورؤساء الأديرة بعض من يحيون حياة منعمة ، ولكن كان منهم كثيرون من الرجال الصالحين ، ولعل نصف مجمع الكرادلة كانوا يسلكون مسلك أتقياء المسيحيين المتدينين الذى يخزى مسلك زملائهم الدنيوى المرح .

« وانتشرت فى جميع أنحاء إيطاليا المستشفيات وملاجىء اليتامى ، والمدارس وبيوت الصدقات ، ومكاتب القرض وغيرها من المؤسسات الخيرية يديرها رجال الدين . واشتهر الرهبان البندكتيون ، والفرنسيس المتشددون ، والكرثوزيون بمستوى حياتهم الخلقى الرفيع إذا قيس إلى أخلاق أهل زمنهم .. وواجه المبشرون مئات الأخطار وهم يعملون لنشر الدين فى أراضى « الكفار » وبين الوثنيين المقيمين فى العالم المسيحى . واختفى المتصوفة عن أعين الناس وابتعدوا عما كان فى زمانهم من عنف ، وأخذوا يعملون للاتصال القريب بالخالق جل وعلا .

« وكان بين هذا التقى والورع كثير من التراخى فى الأخلاق بين رجال الدين نستطيع أن نثبته بما نضربه من مئات الأمثال . فها هو ذا بترارك نفسه الذى بقى مخلصا لدين المسيح إلى آخر حياته ، والذى صور ما فى دير الكرثوزيين ، الذى كان يعيش فيه أخوه ، من نظام وتقى فى صورة طيبة مستحبة ، ها هو ذا يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى أفنيون . وإن الحياة الخليعة التى كان يحياها رجال الدين الايطاليون والتى نقرأ عنها فى روايات بوكاتشيو المكتوبة فى القرن الرابع عشر إلى روايات ماستشيو فى القرن الخامس عشر ، إلى روايات بنديتلو فى القرن السادس عشر ، إن هذه الحياة الخليعة موضوع يتكرر وصفه فى الأدب الايطالى ، فبوكاتشيو يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات طبيعية كانت أو غير طبيعية . ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم « خدم الشيطان » منغمسون فى الفسق واللواط ، والشره ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقا من رجال الدين .

« وها هو ذا أريتينو الذى لم يتورع عن أية قذارة يسخر من الطابعين بقوله إن أخطاءهم لا تقل عن خطايا رجال الدين ، ويزيد على ذلك قوله : « والحق إنه لأسهل على الانسان أن يعثر على رومة مستقيقة عفيفة من أن يعثر على كتاب

صحيح » ويكاد بجيو يفرغ كل ما عرفه من ألفاظ السباب فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرههم ، وجهلهم ، وغطرستهم ، ويقص فولينجو فى كتاب أرلندينو هذه القصة نفسها ، ويبدو أن الراهبات ملائكة الرحمة فى هذه الأيام كان لهن نصيب فى هذا المرح ، وأنهن كن مرحات رشيقات فى البندقية بنوع خاص حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قربا يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين فى فراش واحد . وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات . ويتحدث أريتينو عن راهبات البندقية حديثا لا تطاوع الانسان نفسه على أن ينطق به . وجوتشياردينى الرجل الرزين المعتدل عادة يخرج عن طوره ويفقد اتزانه حين يصف رومة فيقول : « أما بلاط رومة فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحى أبد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم » .

« ويبدو أن هذه شهادات مبالغ فيها ، وقد تكون غير نزيهة ، ولكن استمعوا إلى قول القديسة كترين السينائية :

« إنك أينما وليت وجهك ـ سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغارا فى السن أو كباراً ـ لم تر إلا شراً ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة .. إنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء .. تخلوا عن رعاية الأرواح .. اتخذوا بطونهم إلها لهم ، يأكلون ويشربون فى الولائم الصاخبة حيث يتمرغون فى الأقذار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور .. ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء .. ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون .

« وهنا أيضا يجب أن نسقط ما يحتويه هذا الوصف من مبالغة ، إذ ليس فى وسع الانسان أن يثق بأن الولى الصالح يتحدث عن سلوك الآدميين وهو غير غاضب .. ولكن فى وسعنا أن نصدق هذه الخلاصة التى يعرضها مؤرخ كاثوليكى صريح .

« وإذا كانت هذه هى حال الطبقات العليا من رجال الدين فإن المرء لايعجب إذا كان من دونهم من الطبقات ومن القساوسة قد انتشرت بينهم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأخذ انتشارها يزداد على مدى الأيام . إلا أن الحياء قد زال

من العالم .. ولقد كان أمثال أولئك القساوسة هم الذين دفعوا إرزمس ولوثر إلى وصفهما المبالغ فيه لرجال الدين حين زارا رومة فى أيام يوليوس الثانى . غير أن من الخطأ أن يظن المرء أن القساوسة كانوا فى رومة أكثر فسادا منهم فى غيرها من المدن . ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين فى كل مدينة تقريبا من مدن شبه الجزيرة الإيطالية . بل إن الحال فى كثير من الأماكن ـ كالبندقية مثلا ـ كانت أسوأ كثيرا منها فى رومة . فلا عجب والحالة هذه إذا تضاءل نفوذ رجال الدين كما يشهد بذلك مع الأسف الشديد الكتاب المعاصرون ، وإذا كان المرء لا يكاد يجد فى كثير من الأماكن أى احترام يظهره الشعب للقسيسين . ذلك أن الفساد قد استشرى بينهم إلى حد بدأنا نسمع معه آراء تحبذ زواجهم ..

«ولقد كان الكثير من الأديرة فى حال يرثى لها . وأغفلت فى بعضها الأيمان الثلاث الأساسية بالتزام الفقر ، والعفة ، والطاعة إغفالا يكاد يكون تاما .. ولم يكن النظام فى كثير من أديرة النساء أقل من هذا فسادا » .

ويقول أيضا فى مكان آخر :

« ... وظل كرسى البابوية عدة سنين بعد ذلك لا ينال إلا بالرشا أو القتل أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنىء . وبقيت أسرة بثوفيلاكت أحد كبار الموظفين فى قصر البابا ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مريوزا أن تنجح فى اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ ـ ٩١١) كما أفلحت زوجته ثيودورا فى تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ ـ ٩٢٨) وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ولكن هذا الاتهام لا يقوم على دليل قاطع .

« .. وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحدا بعد واحد حتى تزوجت جيدو دوق تسكانيا وأخذا يأتمران لخلع يوحنا .. ثم رفعت مريوزا فى عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ ـ ٩٣٥) إلى كرسى البابوية وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث (ص ٣٧٨ ـ ج ١٤)

« .. وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توّجه يوحنا الثانى عشر إمبراطورا فى عام ٩٦٢ ، فلما عاد إلى روما فى عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء رجال الألب دعا يوحنا إلى

المحاكمة أمام مجلس كنسى .. واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة وأنه عين غلاما فى العاشرة من عمره أسقفا ، وأنه زنى بخليلة أبيه وضاجع أرملته وابنة أخيها وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة (ص ٣٧٩ ج ١٤) .

رابعا : الرهبانية وفضائح الأديرة :

« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » « ١ »

يروى عن السيد المسيح أنه قال : « من أراد ملكوت الرب فليترك ماله وأهله وليتبعنى » وأنه قال : « من أراد الملكوت فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير عليه » .

وسواء صحت هذه النصوص أم كانت ألفاظها قد حرفت أو زيد عليها ، فلا شك أن المسيح دعا إلى الزهادة والارتفاع عن متاع الأرض كما دعا كل نبى قبله ، وكما قال صلى الله عليه وسلم من بعده : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه » « ٢ »

ولكن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنشأ عنها رهبانية ، بل لم يتقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرهبانية حين جنح إليها بعض المسلمين كما يتضح من الواقعة الآتية :

« ذهب ثلاثة رهط إلى بيت من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ! فقال أحدهم أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثانى وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال الثالث ، وأما أنا فلا أتزوج النساء . فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأعبدكم وأخشاكم لله ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » « ٣ »

ولكن شيئا ما ـ فى دعوة السيد المسيح ـ قد شجعت على ابتداع الرهبانية

« ١ » سورة الحديد [٢٧]
« ٢ » رواه احمد والترمذى
« ٣ » رواه الشيخان والنسائى

فيما يبدو . فقد بعث السيد المسيح إلى بنى إسرائيل وقد غلبت عليهم مادية كافرة ، يعبدون الذهب ويعيشون للحياة الدنيا ، ولا ظل فى حيـاتهم للإيمان باليوم الآخر،ولا حساب له فى قلوبهم . جفت أرواحهم فلم تعد فيها نداوة الحب ولا إشراقة النور التى تصاحب الايمان بالله .

من أجل ذلك كانت الروحانية هى السمة الغالبة على دعوة السيد المسيح ، وكان الإكثار من الحديث عن الزهد والارتفاع على شهوات الأرض ، لعل الدعوة على هذا النحو تلين القلوب القاسية التى قال الله عنها :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسـوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار . وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون » « ١ »

وهل أدل على هذه القسوة من أن تبيح لهم وحشيتهم أن يقتلوا « الأمميين » فى عيد الفصح ليعجنوا بدمائهم فطيـرة « مقدسـة ! » ثم يأكلوهـا ابتهاجـا بالعيد ؟!

وفَجَرَ بنو إسرائيل فلم يستجيبوا لهذه الدعوة المترفعة التى دعاهم إليها السيد المسيح ، بل سعوا إلى إثارة الحاكم الرومانى « بيلاطس » ليحكم عليه بالقتل صلبا .. لولا أن الله نجاه منهم ورفعه إليه فلم يقتلوه ولم يصلبوه . وقال الله عنهم :

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جـاءكم رسول بمـا لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟ » « ٢ »

ولكن الدعوة المترفعة التى أعرض عنها قساة القلوب تسربت ـ بقدر من الله ـ إلى قلوب أخرى اعتنقتها وأمنت بها وتلقت روحانيتها الندية بالترحيب :

« وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » « ٣ »

وهؤلاء هم الذين ابتدعوا الرهبانية ..

« ورهبانية ابتدعوها . ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله »

وسواء كان الاستثناء فى الآية منقطعا بمعنى : ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ولكن كتبنا عليهم أن يبتغوا رضوان الله (فابتغوا ذلك عن طريق الرهبانية

« ١ » سورة البقرة [٧٤]

« ٢ » سورة البقرة [٨٧] « ٣ » سورة الحديد [٢٧]

التي ابتدعوها) أو متصلا بمعنى : ما كتبناهـا عليهم إلا لأنهم ابتغوا بهـا رضوان الله .. فإن الآية تسجل عليهم أنهم هم الذين ابتدعوها وليس الله هو الذى كتبها عليهم بادئ ذى بدء ، أى أن عيسى عليه السلام لم يأمرهم بها ولم يقل لهم إن الله يريدها منهم . ولكنهم هم تطوعوا بها ـ متأثرين بتعاليم المسيح أو مؤولين لها على هذا النحو ـ فقبل الله منهم ما تطوعوا به ما داموا قد ابتغوا به رضوان الله .

ولكن أيا كان الدافع لهم على ابتداع الرهبانية : التأثر بتعاليم السيد المسيح أو تأويلها على نحو معين كما أول الصوفية الآيات والأحاديث الواردة فى ذم الدنيا فجعلوها ذما مطلقا وفى كل الحالات ، بينما هى واردة فى ذم الدنيا حين تصد عن الايمان بالله أو تصد عن الجهاد فى سبيل الله ..

نقول أيا كان الدافع ، فإن الرهبانية مضادة لدفعة الحياة السوية التى خلقها الله لتعمل لا لتكبت وتحجز عن الحركة والنشاط . فقد جعل الله الانسان خليفة فى الأرض وكلفه عمارتها :

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « ١ »

ومن أجل القيام بأمر الخلافة أى الهيمنة والاشراف والتمكن ، ومن أجل القيام بعمارة الأرض ، أودع الله الفطرة مجموعة من الدوافع المحركة إلى العمل والنشاط ..

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا .. » « ٢ »

وصحيح أن الله سبحانه وتعالى لا يحب لعباده أن ينطلقوا إلى آخر المدى مع هذه الشهوات لأنها عندئذ لاتكون معينا على الخلافة الراشدة ولا على عمارة الأرض على النحو اللائق بالانسان ، بل تكون شاغلا عن الارتفاع وداعيا إلى الهبوط إلى مستوى الحيوان ، وعندئذ يكون الانسان أضل من الحيوان :

« أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » « ٣ »

وصحيح أن الله أحب لعباده أن يتخففوا من متاع الأرض ليفرغوا إلى القيم العليا الجديرة بالإنسان ، ووعدهم على ذلك الجنة ، وجعل ذلك هو الابتلاء الذى

« ١ » سورة هود [٦١]
« ٢ » سورة آل عمران [١٤]
« ٣ » سورة الأعراف [١٧٩]

يخوضه الانسان فى الأرض :

« .. ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » « ١ »

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » « ٢ »

كل ذلك صحيح . ولكن الله لم يحرم متاع الأرض :

« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « ٣ »

إنما وضع حدودا لذلك المتاع يباح فى داخلها ويكون محرما فى خارجها :

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » « ٤ »

« تلك حدود الله فلا تقربوها » « ٥ »

وتلك الحدود هى التى يعلم سبحانه أنها تعين على أمر الخلافة وعمارة الأرض على المستوى اللائق بالإنسان ، دون أن ينشغل الإنسان بها عن قيمه وأهدافه العليا كما بينها الله له على يد رسله وأنبيائه ، وفى الوقت ذاته تعطى قسطا معقولا من المتاع لكيلا ينشغل الإنسان عن الحركة والعمل بلذع الحرمان .

وهناك أفراد ـ أفذاذ ـ يستطيعون أن يتخففوا من متاع الأرض إلى أقصى حد دون أن يشغلهم الشعور بالحرمان عن الحركة والنشاط والعمل بإيجابية كاملة ، أولئك هم الزهاد على بصيرة . وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم إمام الزاهدين ، وهو أكبر طاقة إيجابية حركية عرفتها البشرية ..

ولكن الرهبانية ليست كذلك .. إنها اعتزال .. إنها ترك للحياة الواقعية بكل ما فيها ولياذ بالأديرة المنقطعة عن تيار الحياة . ولقد يتربى الراهب على تعود الحرمان حتى لايعود يحس بلذع الحرمان .. نعم .. ولكنه فى الوقت ذاته يفقد

« ١ » سورة آل عمران [١٤ ـ ١٧]
« ٢ » سورة الكهف [٧]
« ٣ » سورة الاعراف [٣٢]
« ٤ » سورة البقرة [٢٢٩]
« ٥ » سورة البقرة [١٨٧]

إيجابيته الفاعلة فى واقع الأرض ويتخلى عن دوره فى عمارتها ، ويلغى طاقات كيانه فلا يتزوج ولا يعمر وجه الأرض بالنسل ولا ينتج .. إلا مشاعر ذاتية فى طى الكتمان .

لذلك نقول إن الرهبانية مضادة لدفعة الحياة السوية كما خلقها الله .

وإذا كان الله قد قبلها منهم ـ لفترة معينة ـ هى المحدودة بمجىء الرسول صلى الله عليه وسلم مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، وناسخا ما شاء الله أن ينسخ من الشرائع ـ المحلية ـ السابقة ، لينشر فى الناس كلمة الله الأخيرة وشريعته الباقية ..

إذا كان الله قد قبلها منهم لتلك الفترة المحدودة فإنهم وهم مبتدعوها والمتطوعون بها من عند أنفسهم لم يرعوها حق رعايتها !

« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » « ١ »

ولقد كان المتوقع ألا يرعوها حق رعايتها .. أى لا يصبروا على تكاليفها . فهى سباحة دائمة ضد التيار .. تيار الحياة .. وجهد مجهد لايصبر عليه كثيرون ..

أما أن تنقلب ـ وهى المنوطة بالتقوى والزهد والتعفف والارتفاع عن الشهوات ـ إلى مباءة للقذارة الحسية والمعنوية يتعفف عنها الرجل العادى أو الفتاة العادية .. فهذا الذى لايمكن أن يتوقع على الإطلاق !

فإذا كانوا لا يصبرون على تكاليفها فما الذى يجبرهم على المضى فيها وهى تطوع غير مفروض ؟!

أما أن يستمروا فيها عنوانا ولافتة ، ومظهرا خادعا من الخارج ، ثم يحولوها إلى حانات للخمر ومواخير للفساد ، ومباءة للشذوذ الجنسى بين الرجال والرجال والنساء والنساء ، بالاضافة إلى ما يحدث من العلاقات السرية بين أديرة الرجال وأديرة النساء .. فهذا أمر يشده الحس ويبعث على التقزز والنفور .

يقول أصدق القائلين جل وعلا :

« ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها

« ١ » سورة الحديد [٢٧]

حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » « ١ » ،
فاسقون .. بكل معانى الفسق التى تخطر والتى لاتخطر على البال !

خامسا : مهزلة صكوك الغفران :

لم يكف الكنيسة ورجال دينها هذا الفساد كله ، فأضافوا إليه مهزلة مَن أكبر مهازل التاريخ . تلك هى مهزلة صكوك الغفران .

فقد أصدر مجمع لاتيران سنة ١٢١٥ القرار التالى لتقرير أن الكنيسة تملك حق الغفران للمذنبين :

« إن يسوع المسيح ، لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات ، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الأيام الأولى ، فقد أعلم المجمع المقدس وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى والمثبتة بسلطان المجامع ، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها . غير أنه قد رغب فى أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديما والمثبتة فى الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل » « ٢ » .

ولكن الكنيسة لم ترع ذلك التحفظ الوارد فى القرار ، وهو « استخدام هذا السلطان باعتدال واحتراز » فقد كانت راغبة فى زيادة سلطانها - وزيادة أموالها كذلك ! - فعمدت إلى منح المغفرة بصكوك تباع بالمال فى الأسواق !

يقول الصك :

« ربنا يسوع يرحمك يا ...« ٣ » ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وأيضا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة،وأرفع

« ١ » سورة الحديد [٢٧]
« ٢ » محاضرات فى النصرانية ص ١٩٤
« ٣ » يترك فراغ يكتب فيه اسم « المغفور له » كما تملأ الاستمارات فى المصالح والدواوين !

القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر ، وأردك حديثا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح البـاب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح . وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن والروح القدس »« ١ »

وإنها - والحق يقال - لمهزلة فريدة فى التاريخ !

فقد عرفت الديانات الوثنية - من قبل ومن بعد - عملية إرضاء الكاهن ابتغاء رضوان الإله المعبود ، باعتبار أن الكاهن هو الوسيط بين العبد والرب ، وأن رضاه يؤدى - فى وهمهم - إلى رضا الإله ، وغضبه يؤدى إلى غضب الاله . والنذور للأوثان أمر معروف فى التاريخ .. وكان العرب فى الجاهلية يؤدون الشعائر والنسك للأوثان - ومن بينها تقديم النذور - ليقربـوهم إلى الله زلفى .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »« ٢ »

ويجىء الدين المنزل ليصحح العقيدة ويصحح السلوك ، فيجعل الشعائر والنسك لله وحده ، وبين العبد وربه مباشرة بلا وسيط :

« وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه » « ٣ » .

ويكون للرسل - فى حياتهم - خصيصة يختصون بها هى أن دعاءهم يستجاب عند الله حين يدعون بالصلاح أو البركة أو المغفرة لمن يستحق ذلك عند الله :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ؟ » « ٤ » .

أما لمن لايستحق فالدعاء - حتى من الرسل - غير مستجاب :

« ١ » كتاب المسيحية تأليف أحمد شلبى - ص ٢١٤ .

« ٢ » سورة الزمر [٣]

« ٣ » سورة البقرة [٢٧٠]

« ٤ » سورة التوبة [١٠٢ - ١٠٤]

« استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لايهدى القوم الفاسقين »« ١ » .

فإذا كان هذا شأن الرسل - بل شأن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم - فمابالك بالبابا الذى لاحظوة له عند ربه ولا إذن له من الله بقبول الغفران ؟!

بل ما بالك حين يكون الأمر لا عن نية حقيقية فى التوبة يعلمها البابا - تقدس سره ! - بل عن مبلغ من المال ؟ ! بل مابالك والمال - فى أكثر الأحيان - ليس مدفوعا لله على سبيل الصدقة للفقراء والمساكين ، ممايقبله الله من المؤمنين ويحط به من خطاياهم ، وإنما هو لشراء الصك كما تشترى أى سلعة معروضة فى الأسواق ، والمال يذهب إلى خزائن البابوات والكرادلة حتى يكتنزوا بالذهب والفضة التى يكنزونها ، ولايذهب إلى مستحقيه من الفقراء والمساكين ؟!

ولانشك فى أن المهزلة فى بادئ الأمر كانت جادة ! أى أن الذى يشترى الصك كان راغبا فى التوبة ، ظانا أن هذا السبيل يؤدى بالفعل إلى التوبة والمغفرة ورضوان الله ، وكان المال المدفوع يأخذ فى حس صاحبه مكان الصدقة المرفوعة إلى الله. كما أن الكنيسة استخدمت صكوك الغفران فى مبدإ الأمر لتشجيع المقاتلين على خوض المعارك الصليبية ضد المسلمين،فكانت تمنح الصك لمن ينخرط فى سلك الجيوش الصليبية فتحمله الرغبة فى الفردوس الموعود أن يلقى بنفسه فى أتون الحرب التى يرجع منها أو لا يرجع .. وهو غالبا لايرجع !

ولكن الجد فى هذا الأمر الهازل لايمكن أن يستمر !

ولئن استمر البسطاء مخدوعين فى قداسة البابا وقدرته على محو الذنوب من صحيفة الأعمال بما له عند الله من الوساطة والحظوة و« القداسة » .. فقد انكشف الأمر عند العقلاء ولاشك عن أن قداسة البابا قد أصبح تاجرا كبيرا ، وأنه على نسق معظم التجار الكبار مدلس غشاش !! يبيع بضاعة لايملكها ويقبض الثمن لنفسه ليثرى الثراء الفاحش ، ثم ينفق هذا الكسب الحرام فى المتاع الدنس ويغرق به فى الشهوات !

ومع أنها مهزلة مضحكة - ومكشوفة - فقد ظلت قائمة فى المجتمع

« ١ » سورة التوبة [٨٠]

الأوربى – مجتمع الظلمات – فترة غير قصيرة من الوقت ، واتسع نطاقها وكثرت أرباحها حتى فاضت عن مطامع قداسة البابا ، فتنازل عن شيء من الفائض لكبار أعوانه ، فصرح لهم بإصدار صكوك لحسابهم ، استرضاء لهم ، واستعانة منه بهم فى « جلائل الأعمال » !

ولكنها كانت لابد مؤدية إلى نتائجها الطبيعية ، وهى النفور من الدين فى النهاية والنفور من رجال الدين .

فحين يرى الناس الحصيلة المتحصلة من الصكوك تذهب إلى الترف الماجن والمتاع الفاجر الذى يغرق فيه معظم البابوات وكبار رجال الدين ، وحين يرون نفرا من أصحاب الصكوك – وقد ضمنوا مغفرة ماتقدم من ذنبهم وماتأخر – غارقين فى الفساد اتكالا على أن ذنوبهم تمحى أولا بأول بسحر الصك الذى ابتاعوه ، وحين يرون السلطان الطاغى الذى تحصل عليه الكنيسة بأموالها المكدسة التى أصبحت بها أغنى من الملوك وأمراء الإقطاع ينصرف إلى مزيد من الطغيان ومزيد من الظلم ومزيد من التحكم فى رقاب العباد وعقولهم وأفكارهم ..

حين يرون ذلك كله فلا شك أنهم ينفرون فى النهاية **وينسلخون من الدين** الذى ينتج كل تلك الأفاعيل !

يقول ويلز فى كتاب « معالم تاريخ الانسانية »

« ولقد قضت (أى الكنيسة) على هيبتها بعدم مراعاتها لتعاليمها ذاتها الداعية إلى الصلاح والبر . وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التحلة « ١ » ، وكان خاتمة حماقاتها فى القرن السادس عشر بيع « صكوك الغفران » التى بها يمكن افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية . على أن الروح التى دفعتها (أى دفعت الكنيسة) آخر الأمر إلى هذه الفعلة المتبجحة التى كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر » « ٢ » .

« ١ » نظام التحلة نظام كان البابا بمقتضاه يعفى نفسه من التزام الأوامر والنواهى التى تفرضها الكنيسة ذاتها على رعاياها ! وقد أشار إليه ويلز فى فصل سابق فقال « ص ٨٩٦ » : وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هى أيضا أكثر سرفا وبعدا عن الحكمة هى قولها بأن لها « حق التحلة » . ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع فى كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة فى حالات فردية خاصة .. »

« ٢ » ج٣ ، ص ٩٠٥ – ٩٠٦ .

سادسا : محاكم التفتيش :

يقول « ول ديورانت » بعد أن يعدد مباذل البابوات وانحرافات رجال الدين فى النص الذى أشرنا إليه آنفا : « وإذا ماعفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسى والانهماك فى ملاذ المأكل والمشرب فإننا لانستطيع أن نعفو عن أعمالِ محاكم التفتيش »« ١ » .. ولهذه الشهادة دلالتها فى استفظاع تلك الأعمال التى كانت تقوم بها محاكم التفتيش ، ذلك أن الأعمال التى سمح « ول ديورانت » لنفسه أن يعفو عنها هى فى الحقيقة أعمال لاتغتفر من الرجال الذين - فى زعمهم - وهبوا أنفسهم لنشر العقيدة التى يؤمنون بها وتثبيت أركانها فى الأرض .. فكيف بالأعمال التى لم يجد فى نفسه القدرة على العفو عنها ، وهو بهذه الدرجة من التساهل فيما وقع من رجال الدين من انحرافات ؟!

الحقيقة أنها كانت أبشع من أن يعفو عنها أحد فى قلبه ذرة من مشاعر الإنسانية .

يقول ويلز :

« شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة هى محكمة التفتيش البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد فى هذا الإقليم أو ذاك ، ولكن « إنوسنت الثالث » وجد الآن فى عقد الرهبان الدومينيسكيين الجديد أداة قوية للقمع ، ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم . وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنسانى بالنار والعذاب ، وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد فى السيادة على العالم .. وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرا بالملاحدة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى مئة ساحة من ساحات الأسواق فى أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها - وهم فى غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم - تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة ، وتحترق وتخمد معهم فى نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رمادا تذروه الرياح »« ٢ » .

« ١ » قصة الحضارة ج ٢١ « ٨٦ »

« ٢ » معالم تاريخ الانسانية ج٣ - ص ٩٠٨ - ٩٠٩ .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن الكاتب الذى يتفطر قلبه آسى على ضحايا محاكم التفتيش من المسيحيين لايذكر كلمة واحدة عن الفظائع البشعة التى ارتكبتها محاكم التفتيش فى الأندلس وهى تطارد المسلمين لتطرد الإسلام نهائيا من أسبانيا .. وقد كانت تلك الفظائع أفظع ماعرفه التاريخ كله من ألوان الوحشية البربرية ، التى تعد أعمال محاكم التفتيش فى أوربا المسيحية - على شناعتها - هينة لينة بالنسبة إليها ، وبالنسبة لأدوات التعذيب الخاصة التى استخدمت فيها ، فى الوقت الذى كانت أوربا تعلم أنها مدينة للأندلس الاسلامية بكل ماكان فى حوزتها يومئذ من علم يعتد به ، بل مدينة بنهضتها كلها إلى القيم والمبادئ الحضارية التى تعلمتها من هناك .

ونعود بعد هذه الملاحظة إلى ويلز ، ليشرح لنا العوامل التى حدت بالكنيسة إلى اتخاذ العنف ضد أعدائها :

« فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالا مكيفين وفق مذاهب اعتقاديات حتمية وإجراءات مقررة وثابتة .. ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس . فقد نسوا ذلك الأمر ، وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة التى هى قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر .. ونظرا لأن كثيرا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لايحتملون أسئلة ولايتسامحون فى مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها ..

« وقد تجلى فى الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر مايساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التى تنخر بناء مدعياتها بأكمله ، وقد تجعله أثرا بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى . وكانت تتصيد الهراطقة فى كل مكان ، كما تبحث العجائز الخائفات - فيما يقال - عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل الهجوع فى فراشهن » « ١ » .

بهذا الهزال المتفشى فى كيانها ، والقلق المستسر فى أعماقها من بدء يقظة العقل بعد طول سبات،راحت تكيل الضربات المجنونة لكل من يسألها ويناقشها ، أو من يخيل إليها أنه سيسألها ويناقشها ، لتحاول أن تدفع عن

« ١ » المصدر السابق - « ص ٩٠٢ - ٩٠٣ »

نفسها المصير الأسود الذى كان ينتظرها على بعد خطوات من الزمن غير بعيد ..
وينبغى أن نقرر هنا ما كان للاسلام من أثر عميق فى تلك اليقظة التى فزعت منها الكنيسة ، فما كان أى عقل يقترب من الثقافة الإسلامية والحياة الفكرية الاسلامية ليرضى أن يظل عبدا لذلك الطغيان الفكرى والروحى الذى تمارسه الكنيسة أو يتقبل ترهاتها بلا مناقشة . وسواء اعترف المؤرخون الأوربيون بهذا الأثر أم لم يعترفوا (والمنصفون - وهم قلة - يعترفون) فلنعد إلى ويلز مرة أخرى يفسر لنا تلك الحالة النفسية التى ساورت الكنيسة ضد أى لون من المعرفة يأتى من مصدر غير مصادرها .

« كان هذا التعصب الأسود القاسى روحا خبيثا لايجوز أن يخالط مشروع حكم الله فى الأرض . وإنه لروح يتعارض تماما مع روح يسوع الناصرى ، فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ، ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم فى حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل فى كفاية الكنيسة الذهنية .

« ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة السريعى الهياج الحقودين ، الذين من الجلى أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة فى مجالس الكنيسة ، كانوا يضيقون ذرعا بأية معرفة عدا معرفتهم ، ولايثقون بأى فكر لم يصححوه ويراقبوه ، فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذى كانت غيرتهم منه بادية للعيان ، وكان أى نشاط عقلى عدا نشاطهم يعد فى نظرهم نشاطا وقحا »« ١ » ..

وأيا كانت الأسباب فقد كانت محاكم التفتيش وماصحبها من الفظائع عميقة الأثر فى الحس الأوربى ، وسيئة النتائج بالنسبة للحضارة الجاهلية التى انبثقت فى أوربا منذ عهد النهضة .. لقد أصبح عداء « الدين » المتمثل هناك فى الكنيسة ورجالها أمرا « لازما » لكل صاحب فكر حر أو ضمير حى .. لأن هذا العداء هو أبسط تعبير عن الثورة ضد الذل والمهانة التى تفرضها الكنيسة على الكرامة الإنسانية،كما تفرضها على العقل الذى خلقه الله ليفكر لا ليمتهن بالحبس فى داخل سدود وقيود ماأنزل الله بها من سلطان ، إنما هى من صنع بشر يبدو للعقول المفكرة مدى تفاهة تفكيرهم وعجزهم ، وغطرستهم الطاغية فى

« ١ » المصدر السابق ص ٩٠٥ .

ذات الوقت . ولئن كان كل ماارتكبته الكنيسة من الخطايا كان جريمة فى حق الدين ، فإن هذه الخطيئة البشعة كانت ولاشك من كبريات الجرائم التى سجلها التاريخ .

سابعا : مساندة الكنيسة للظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى الاقطاع :

أصبحت الكنيسة – بفضل الهبات والإتاوات والعشور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلك من الوسائل – أصبحت من ذوات الاقطاع . بل كانت أملاكها فى بعض الأوقات تفوق أملاك الأباطرة وأمراء الإقطاع .

ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فوقفت فى صف الظلم تسانده وتذود عنه وتحارب حركات الإصلاح ! وكانت فى ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك !

فهل كان يمكن – عقلا – أن تحارب الإقطاع وهى جزء منه ، بل من أكبر ممثليه ؟!

ولقد بدأت أوربا تتململ من رقدتها – بعد احتكاكها بالعالم الإسلامى – وتطلب الإصلاح .

وقد كان احتكاكها بالعالم الإسلامى عن طريقين عظيمين وشديدى التأثير . أحدهما الاحتكاك السلمى بطلب العلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها من الأماكن القريبة من أوربا ، والآخر الاحتكاك الحربى فى الحروب الصليبية فى المشرق الإسلامى .

وفى كلا الاحتكاكين تفتحت عيون أوربا على عالم مختلف كل الاختلاف عن عالمها ، لا من ناحية العلم والحضارة فقط ، بل من حيث القيم والمبادئ وآفاق الحياة وآفاق التفكير .

فأما العلم فمعروف أن أوربا بدأت نهضتها بالتتلمذ على علوم المسلمين .. ودعك من المكابرة الأوربية المغرورة التى تقول إن المسلمين لم يكن لهم فضل فى ذلك إلا الاحتفاظ بعلوم الإغريق فى الفترة التى غفلت فيها أوربا عنها فى عصورها المظلمة ، فلما استيقظت أوربا – كأنما استيقظت من ذات نفسها !! – استردت بضاعتها القديمة وانطلقت – منها – تبنى حضارتها !

دعك من هذه المكابرة لأن الواقع لايسندها . وتكفى شهادة « روجر بيكون » التى قال فيها من أراد أن يتعلم ، فليتعلم العربية« ١ » !

ولو كان كل فضل المسلمين أنهم احتفظوا بعلوم الاغريق وثقافتهم ما احتاجت أوربا أن تتعلم العربية ، فقد كان يكفيها أن ترجع إلى أصولها الاغريقية باللغة الإغريقية ، وهى لغة لم ينقطع العلم بها حتى فى العصور المظلمة ، فقد كانت إحدى اللغات « المقدسة » ، لغات الكتاب المقدس .

وقد يكون هذا الوصف صادقا على مايسمى « الفلسفة الإسلامية » فقد كانت إغريقية حقا وإن لبست ملابس المسلمين ! فقد كان منهج التفكير فيها إغريقيا وإن تناولت موضوعات إسلامية . وهذه – فى رأيى – هى أضعف نقاط الثقافة الاسلامية على الاطلاق .

أما أن توصف الحركة العلمية والفكرية الإسلامية كلها بأنها إغريقية ، لمجرد أنها استمدت من الثقافة الإغريقية عند البدء فمغالطة متبجحة لايسندها الواقع ، كما لو قلنا إن العلم الحاضر إسلامى كله ولافضل لأوربا فيه ، لمجرد أنه استمد أصوله كلها من المسلمين ! وهذه مغالطة لايقولها أحد منا – ولو قالها لكانت مضحكة غير مقبولة – لأن الله أمرنا – إذا قلنا – أن نعدل .. ولو كان ذا قربى :

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »« ٢ » .

« ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى »« ٣ » .

إن أهم ما أخذته أوربا عن المسلمين كما يعترف المنصفون منهم – وما أقلهم ! – لم يكن العلوم فى ذاتها ، وإن كانت هذه تستحق أن يشار إليها ويشاد بها ، خاصة فى الكيمياء والفيزياء والطب والفلك والرياضيات ، إنما كان المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، وهذا هو الذى يرد إليه – بحق – كل التقدم الذى أحرزته أوربا فى ميدان العلوم فيما بعد ، لأنه شىء جديد لم تكن تحسنه من قبل ، ولأن التقدم العلمى كان مستحيلا بدونه .. ويبقى لأوربا فضلها – بعد ذلك – فى المثابرة والصبر والمتابعة ، بينما ركن المسلمون إلى سبات عميق .

« ١ » انظر كتاب « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » تاليف محمد اقبال ترجمة عباس محمود – ص ١٤٨ من الترجمة العربية

« ٢ » سورة الانعام [١٥٢]　　« ٣ » سورة المائدة [٨]

وأما الحضارة بصورها المادية وقيمها ومبادئها فهذا الذى أيقظ أوربا من سباتها ودفعها إلى طلب الإصلاح للواقع الفاسد الآسن المنتن الذى كانت تعيش فيه .

ويكفى أن نقول بالنسبة للصور المادية للحضارة إن أوربا – لوقت احتكاكها مع المسلمين – لم تكن تعرف الحمامات الخاصة داخل البيوت ! إنما كانت منذ العهد الرومانى تستخدم الحمامات العامة سواء فى تنظيف ملابسها أو تنظيف أجسادها .. إلى حد أن محاكم التفتيش التى أنشئت لمطاردة الإسلام فى الأندلس بأفظع وحشية عرفها التاريخ ، كانت تتعرف على بيوت المسلمين الذين تنصروا ظاهرا للفرار من التعذيب بإحدى وسيلتين : الهينمة الخافتة فى جنح الليل التى كانت تدلهم على قراءة القرآن ، أو العثور على حمام خاص فى البيت ، وكانت هذه علامة مميزة قاطعة ، فمايرتكب هذه الجريمة – جريمة وجود حمام خاص فى البيت – إلا المسلمون !!

أما من ناحية القيم والمبادئ فهذا – فى الواقع – أهم ماأيقظ أوربا من سباتها ..

كانت أوربا تعيش فى ظلمات الإقطاع .. وما أدراك ما ظلمات الإقطاع !

أمير الاقطاعية هو الحاكم المطلق فى إقطاعيته .. لا قانون إلا قانونه .. هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها فى آن . هو المالك لكل شىء والباقون عبيد .. إما عبيد السيد وإما عبيد الأرض يورثون ويباعون ويشترون ، وينتقلون – مع الأرض – من سيد إلى سيد ، لايملكون حق الانتقال من إقطاعية إلى إقطاعية ولو كان يفصل بينهما سور واحد ! عليهم كل ثقيل من التبعات وليس لهم شىء يذكر من الحقوق !

فأما الحقوق السياسية فلا نصيب لهم منها على الاطلاق ولايفكر أحد ولايتصور أحد ، أن يكون لهم مشاركة فى السياسة من قريب ولا من بعيد ..

وكيف يشاركون ؟ وأين هم حتى يشاركوا ؟! إنهم قابعون هناك – فى الإقطاعية – فى بيوتهم الريفية القذرة ، على استعداد أبدا لخدمة سيدهم أمير الإقطاعية ، والشرف لأحدهم أن يندبه الأمير لخدمة خاصة غير بقية الأصفار الآدمية التى تمتلىء بها الإقطاعية ، فذلك تمييز وتكريم أى تكريم !

وكان الإقطاعى بدوره يقوم « برعايـة » هذه القـطع الآدمية المتنـاثرة فى أرضه !

فهو يشهد أفراح زفافهم ويستخدم – فى كثير من الأحيان – حق الليلة الأولى ، أى حق الخلوة بالعروس ليلة عرسها ، قبل أن يتسلمها زوجها ! وبذلك يعيش هو فى عرس دائم متجدد ويتسلم العبيد فضلاته !

وهو يطحن لهم غلالهم فى مطحنه وهو المطحن الوحيد المصرح به فى القرية ، لقاء أجر يحدده هو على مزاجـه ، وكذلك يعصر لهم كرومهم فى معصرتـه ، ليشربوا .. وينسوا !

كما أنه يدافع عنهم ضد أى هجوم من أمير آخر – ومـا أكثر مـايحدث الهجوم – وذلك بتجنيدهم ودفعم إلى القتال .. ليموتوا !

كما يفرض عليهم من الضرائب مايرتاح إليه ضميره ، ومايستريح ضميره حتى تمتلىء خزائنه ، وماتمتلىء حتى تفرغ من جديد !

وهكذا تتنوع ألوان « الرعاية » التى يقدمها لهم .. له منها كل حلوة ولهم العذاب ..

وحين كانوا فى هذه الظلمات ، احتكوا بالمسلمين ، سواء الاحتكاك الحربى أو السلمى الذى استمر عدة قرون .

وجدوا عند المسلمين « دولة » منظمـة ، يحكمها حـاكم يعاونـه معاونـوه ويخضع الناس لحكمه سواسية على درجة واحدة من الخضوع . وكان هذا شيئا جديدا عليهم ، فقد كانت لديهم « دولة » نعم ولكنهم لايتصلون بها – وأنى لهم ؟ – ولاتتصل هى بهم إلا من خلال أمراء الإقطاع ، وأمراء الإقطاع هم حكامهم الحقيقيون المباشرون ، وليس لرئيس الدولة سلطان عليهم فيما يفعلون فى إقطاعياتهم ، إنما سلطانه عليهم محصور فى المال الذى يطلبه منهم – فيأخذونه هم من دماء فلاحيهم ، وتبقى خزائنهم الخاصة لاتمس – وفى المجندين الذين يطلبهم منهم إذا قامت الحرب – وكثيرا ما تقوم – فيقدم الإقطاعى ما استطاع من دماء فلاحيه لكى يرضى الملك أو الإمبراطور عنه ، ويدع يده مطلقة بعد ذلك يفعل بعبيده وأقنانه« ١ » ما يشاء .

ووجدوا قضاء منظما .. أى قضاة يحكمون بين الناس فيماشجر بينهم ،

« ١ » القن هو عبد الأرض ، تحرر من عبودية السيد ولكنه مازال عبدا للأرض لايملك مغادرتها .

يعامل الناس أمامهم على السوية ، ويملك الانسان إذا شاء أن يختصم إلى ذلك القضاء مع واليه أو رئيسه أو من يكون من خصمائه فيحكم القاضى بمايرضى ضميره هو لابهوى السلطان .

ووجدوا شريعة حاكمة .. شريعة ليست هى هوى الإقطاعى .. إنما هى شرائع ثابتة يضبطها الكتاب الذى أنزلت به ويضبطها اجتهاد فقهاء الأمة - وهم ليسوا طرفا فى خصومة مع أحد بعينه ، وليسوا حكاما يجورون بالسلطان - وإنما هم مجتهدون يفسرون النص القرآنى ويستنبطون الأحكام منه ، أو يقيسون عليه ، أو يبحثون عن المصلحة « العامة » لا الخاصة فيما يجتهدون به من الأحكام .

باختصار وجدوا الإسلام ..

وقد كان كل شىء وجدوه جديدا بالمرة عليهم ، فقد كان الذي يعرفونه من قبل هو ذلك الطاغوت الذى يحكمهم فيكون هو الخصم والحكم وهو المشرع والقاضى والمنفذ .. وهو الذى يتصرف فيهم بلا مراجع .. لايسأل عما يفعل وهم يسألون !

كان ذلك هو الذى استجاش أوربا لتتمرد على هذا الظلام الشامل أو الفساد الشامل الذى تعيش فيه .. وتطلب الإصلاح .

وكان الإقطاع - بكل مايشتمل عليه من ظلم سياسى واقتصادى واجتماعى - هو الهدف الاول لمحاولات الإصلاح . وإن كان طلب الإصلاح الذى نشأ من الاحتكاك بالمسلمين شاملا فى الحقيقة كل ميادين الحياة .

عندئذ بدأت أصوات المصلحين تتتابع ، ثم بدأت أنات خافتة تسمع من أفواه « الكادحين » .

فكيف كان موقف الكنيسة الغارقة فى الإقطاع وفى الطغيان ؟!

لقد وقفت تتهدد الثائرين على الظلم ، المتمردين على الطواغيت بأنهم مارقون من الدين ، وأنهم ملعونون عند الله !

ووقفت تحاول تخدير الثائرين على الظلم ، بأن الرضا بالظلم فى الحياة الدنيا هو مفتاح الرضوان فى الآخرة .. فأما العبيد الثائرون والأقنان فقالت لهم إن السيد المسيح يقول : « من خدم سيدين فى الدنيا خير ممن خدم سيدا واحدا » .. وأما المظلومون عامة فقالت لهم إن من احتمل عذاب الدنيا فسيعوضه الله بالجنة فى الآخرة .

ومن هنا قال ماركس قولته الشهيرة : الدين أفيون الشعوب ! وهى قـولة صادقة كل الصدق على دين الكنيسة المحرف ، ولكنها كاذبة كل الكذب حين تطلق على الدين المنزل من عند الله .

لقد كانت خطيئة الكنيسة هنا خطيئة مثلثة .

فهى أولا لم تسع قط منذ تسلمها السلطة إلى تحكيم شريعة الله المنزلة عليهم فى التوراة والإنجيل :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »« ١ » .

والسلطان الذى نازعت فيه الملوك والأباطرة وغلبتهم عليه فترة من الوقت كان – كما أشرنا من قبل – فرصة مهيأة لفرض شريعة الله على أولئك الملوك والأباطرة ، وإزالة الظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى القانون الرومانى من جهة ، والإقطاع من جهة أخرى .. كما فعل الإسلام فى الأرض التى حررها من السيطرة الرومانية – والسيطرة الفارسية كذلك – فألغى فيها حكم الجاهلية إلغاء كاملا ، وحكم فيها شريعة الله ، فعاشت فى ظلال العدل الربانى عدة قرون ، سواء دخل أهلها فى الإسلام أو بقوا على دينهم الذى كانوا عليه قبل الفتح الإسلامى .

ولكن البابوات الذين نازعوا الأباطرة سلطانهم – وغلبوهم عليـه – لم يفكروا أبدا فى تحكيم شريعة التوراة والإنجيل الواجبة التنفيذ – فى إبانها – حتى ينزل الله شريعته الأخيرة فتصبح هى الواجبة التنفيذ .. إنما استخدموا سلطانهم السياسى (أو الدنيوى) كله فى إخضاع الأباطرة لنفوذهم الشخصى وأهوائهم الشخصية ، وأذلوهم بها أيما إذلال !

والخطيئة الثانية هى صد أوربا عن الإسلام حين بدأت تتفتح له عن طريق التأثير المصاحب للمبتعثين الأوربيين العائدين من أرض الإسلام ، وموقفها المتعصب الأحمق ضد الدين السماوى المنزل للبشر كافـة ، وتكليف كتابهـا بتشويه صورة هذا الدين وتشويه صورة رسوله صلى الله عليه وسلم بتصويره

« ١ » سورة المائدة [٤٦ – ٤٧]

بأنه ساحر وأنه كذاب ، وأنه همجى وشهوانى وسفاك دماء .. الخ مما لاتزال أوربا تلوكه بغير وعى إلى هذه اللحظة !

والخطيئة الثالثة أنها لم تكتف بذلك كله بل وقفت موقفا صريحا إلى جانب الطواغيت – وهى ممثلة الدين السماوى ، دين الرحمة والرأفة – وهددت الثائرين على الظلم باللعنة الأبدية وغضب الرب،واتهمتهم بالمروق من الدين !

الخلاصة :

حين يستعرض الانسان هذا التاريخ الحافل بالمخازى والخطايا والأخطاء .. من طغيان روحى وفكرى ومالى وسياسى وعلمى ، وفساد خلقى ، وانحراف فكرى وسلوكى ، ومساندة للظلم فى جميع ألوانه ، وتخذيل للمصلحين وتخدير للمظلومين ، وصد عن سبيل الله ، وتشويه لصورة الدين .. هل نعجب من النهاية التى وصلت الأمور إليها من انسلاخ الناس فى أوربا من ذلك الدين ونفورهم منه ، وثورتهم على رجاله،وإبعادهم له عن كل مجالات الحياة ؟

إن الفطرة البشرية لتثور على الظلم وتمجه ولو احتملته عدة قرون !

وهذا البطء فى قيام رد الفعل هو الذى يغرى الطغاة بالاستمرار فى طغيانهم ، ظانين أن الأمور ستظل فى أيديهم أبدا ، وأنها غير قابلة للتغيير .

ولكن عبرة التاريخ قائمة لمن يريد أن يعتبر .. ومايعتبر إلا أولو الألباب .. أما الطغاة مطموسو البصيرة فأنى لهم أن يعتبروا ؟!

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ؟ »« ١ »

« وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم ! وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال »« ٢ » .

وهذا البطء فى قيام رد الفعل هو الذى أغرى كذلك بعض « العلماء » أن يقولوا إنه لاتوجد فطرة للإنسان ! وإن الإنسان ليس له قالب محدد . وإنما هو يصب فى أى قالب يراد له فيتشكل بشكله ، ويظل قابعا فيه حتى يصب فى قالب جديد« ٣ » .

« ١ » سورة يونس [١٠١]
« ٢ » سورة ابراهيم [٤٥ – ٤٦]
« ١ »سنناقش هذا الزعم فيما بعد ، عند الحديث عن التفسير المادى للتاريخ .

ولله فى خلقه شئون . وتركيبه للنفس الإنسانية على الصورة التى ركبها عليها فيه حكمة ولاشك .. ولكنا نتحدث هنا عن الواقع التاريخى ودلالاته .

إن النفوس تخضع لجبروت الطغيان خوفا وطمعا فى أول الأمر ، لأن الطغاة يحمون جبروتهم بشتى وسائل الحماية من ترغيب وترهيب .. ثم تتبلد النفوس من جهة ، ويأخذ الطغيان صورة الأمر الواقع من جهة ، فيستقر فى الأرض فترة تطول أو تقصر ، هى التى يتخيل الطغاة فيها أنهم باقون أبدا ، مسيطرون أبدا ، لايمكن زحزحتهم ولاتبديل الأحوال التى مكنت لهم فى الأرض .

ثم تبدأ نفوس تتململ .. هى أكثر وعيا وأكثر حساسية أو أصلب عودا أو أكثر مخاطرة .. أو مايكون من الأسباب .

وهنا يلجأ الطغاة إلى جبروتهم مرة أخرى ، ويستخدمون وسائل الإرهاب لوقف هذه الظاهرة « المنكرة » عن الانتشار ، وتأديب الخارجين لكى يكونوا عبرة للآخرين .

ثم يكون هذا ذاته هو بدء النهاية ! يشتد الجبروت وتتولد مقاومة متزايدة له فى داخل النفوس بمقدار مايشتد ويمعن فى الطغيان .

وفى لحظة معينة يحدث الانفجار .. ويكون كالطوفان !

« أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » « ١ »

ولقد بدأت نذر الثورة على الكنيسة ورجال الدين ، وعلى الدين المزيف الذى تقدمه الكنيسة ، بدأت منذ عصر النهضة . وبدأ الكتاب يتمردون على سلطان الكنيسة الطاغى ويهاجمون رجال الدين ، بل يهاجمون كذلك خرافات ذلك الدين الكنسى ومعمياته .

ولكنها كانت أصواتا متناثرة ، فظن القوم أنهم قادرون عليها وعلى إسكاتها .

ولكن سنة من سنن الله كانت تجرى ، ومايستطيع أحد أن يقف سنة الله عن الجريان .

كانت هذه الأصوات تهز النائمين ليصحوا .. تزيل عنهم تبلد نفوسهم .. وتزيل ثقلة « الأمر الواقع » من حسهم ، وتشعرهم أن التغيير ممكن ، وأن هذا

« ١ » سورة الرعد [٤١]

الأمر الواقع ليست له صفة الخلود ، ولاهو كذلك فى منعة من النقد والتجريح .

وبذلت الكنيسة جهدها فى محاولة إسكات هذه الأصوات ، مستخدمة فى ذلك نفوذها على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم ، وسلطانها « التقليدى » الذى كانت تأمر به فتطاع ، وينظر إلى كلمتها على أنها موضع التقديس .. لأنها مرتبطة فى حس الجماهير بالدين .. وما أعظم سلطان الدين على النفوس . كما استخدمت محاكم التفتيش حين اشتد فزعها وخافت على مافى يدها من السلطان .

ولكن رويدا رويدا زادت الأصوات عددا ، وزادت جرأة ، وزادت استخفافا بالجبروت .

علماء .. ومفكرون .. وفلاسفة .. ومصلحون .. وحاقدون ! حاقدون على سلطان الكنيسة الطاغى وماتتمتع به من المزايا بغير استحقاق ..

وكانت العملية بطيئة .. بطيئة .. بطيئة .. !! فقد كان حجم الطغيان هائلا مخيفا ، وكان له فى الأرض تمكن طويل يبلغ عدة قرون .

ولكن فى النهاية حدث الانفجار !

وكان بشعا فى شدة انفجاره ، بشعا فى سرعة اكتساحه ، بشعا فى قسوة الحمم الذى تفجر من بركانه .

كانت الثورة الفرنسية بكل ماتضمنت من ألوان العنف والبطش والقتل وإسالة الدماء ..

واكتسحت الثورة الفرنسية فى طريقها ماكان قد تراكم من المظالم خلال ألف وأربعمائة عام ! وأزالت الطبقتين الحاكمتين الطاغيتين المتحالفتين ! رجال الإقطاع (الأشراف !) ورجال الدين !

ومع ذلك فإن الأمور – فى تلك الثورة – لم تسر فى مسارها الطبيعى ..فعلى الرغم من كل الظلم المتراكم أكثر من ألف عام ، من الإقطاعيين ورجال الدين سواء ، وعلى الرغم من كل الحقد المشحون فى الصدور تجاه هاتين الطبقتين ، وعلى الرغم من وحشية الجماهير حين تتولى هى القيادة .

على الرغم من ذلك كله فقد كان يمكن أن تسير الثورة فى تمردها وقضائها على الظالمين مسارا آخر .. لولا أن يدا خبيثة تدخلت لتتجه بالثورة فى مسار معين ، يخدم أغراضها هى قبل كل شىء آخر .. سواء خدم أو لم يخدم أهداف الآخرين !

تلك هى يد اليهود ..

التمهيد الثانى

دور اليهود فى إفساد أوربا

اليهود لا ينشئون الأحداث كما يزعمون لأنفسهم وكما يتوهم الذين تبهرهم سيطرة اليهود فى الوقت الحاضر .

ولكن لاشك أنهم يجيدون انتهاز الفرص واستغلالها لتنفيذ مخططهم الشرير .

ولحكمة ما أخرج الله هذه الأمة وناط بها دورا تؤديه فى التاريخ .

ومشكلة هذه الأمة كامنة فى جبلتها المنحرفة التى لا تستجيب لدواعى الخير ولا تستقيم على الهدى ولا تشرق روحها ببارقة من نور ..

جحدوا فضل الله عليهم ، وجحدوا أنبياءهم ، وجحدوا كل فضل قدمه إليهم أحد من البشر .. وقابلوا كل ذلك بإنكار الجميل أو الطمع والجشع والحسد وقساوة القلب .

كرهتهم كل الأمم لخصالهم تلك ، فانطووا على أنفسهم ، يملأ نفوسهم الحقد الدفين على الأمم كلها ، يريدون أن يقضوا على كل شعوب الأرض ليبقوا هم وحدهم ، أو يريدون أن يستعبدوا الأمم كلها ويسخروها لمصالحهم .

وعقدتهم الكبرى اعتقادهم أنهم شعب الله المختار . ومن ثم فينبغى أن يكون بقية البشر خدما وعبيدا لهم ، ويكونوا وحدهم هم المسيطرين .

ولقد اختارهم الله حقا ذات يوم وكانوا شعب الله المختار .

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » « ١ »

« ١ » سورة الدخان [٣٠ ـ ٣٣]

ولكنهم عند الابتلاء سقطوا ، وجحدوا تلك النعمة الهائلة فلم يرعوها حق رعايتها ، بل لم يرعوها بشىء على الاطلاق ! « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » « ١ »

فهل ذكروا ؟!

« أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟! » « ٢ »

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم . ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم : لاتعدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف ! بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا .. فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » « ٣ »

تلك صفحتهم السوداء التى أدت إلى نزع العهد منهم ورفع الاختيار عنهم ومنحه لأمة سواهم .

ولقد كان هذا الأمر واضحا ومقررا فى أمنية إبراهيم عليه السلام ورد الله عز وجل عليه :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إنى جاعلك للناس إماما .

« ١ » سورة البقرة [٤٧]

« ٢ » سورة البقرة [٨٧]

« ٣ » سورة النساء [١٥٣ ـ ١٦١]

قال : ومن ذريتى ! قال : لاينال عهدى الظالمين ! » « ١ »

فقد ابتلى الله إبراهيم جملة ابتلاءات كان أشقها وأصعبها أمره له أن يذبح ولده الحبيب إسماعيل ، واستجاب هو وولده للابتلاء العظيم :

« وقال إنى ذاهب إلى ربى ، سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! فلما أسلما ، وتله للجبين ، وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا ! كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين »« ٢ »

فلما أتم إبراهيم الابتلاء وجازه بنجاح كبير كافأه الله على ذلك بجعله إماما للناس . وهنا تحركت فى إبراهيم عليه السلام رغبته البشرية فى أن يكون هذا الفضل مستمرا فى عقبه ، وأن يكون العهد باقيا فى ذريته لا ينقطع ، فهل جامله الله سبحانه وتعالى وهو يصطفيه ويقربه ويجعله خليلا له ، بأن أجابه إلى طلبه على إطلاقه ؟! كلا ! بل جاء الرد حاسما قاطعا : « قال : لاينال عهدى الظالمين ! » ، وكان المعنىّ به هم بنو إسرائيل بالذات .

فلما اختار الله بنى إسرائيل فقد اختارهم للابتلاء : « وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » « ٣ » فكانت نتيجة الابتلاء هى هذا التاريخ الأسود الذى اقترفوه فى الأرض ، والظلم الذى أنذرهم الله أن يرفع عنهم العُهد بسببه ولا يبقيه فى أيديهم .. ونزع العهد منهم بالفعل تحقيقا لسنة الله الجارية التى لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابى أحدًا من البشر . نزع العهد عن « شعب الله المختار » فلم يعد مختارا بعد . ومنح الله فضله ونعمته لأمة أخرى هى التى قال لها : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » « ٤ » وقال عنها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ٥ » .

« ١ » سورة البقرة [١٢٤]
« ٢ » سورة الصافات [٩٩ ـ ١١١]
« ٣ » سورة الدخان [٣٣]
« ٤ » سورة المائدة [٣]
« ٥ » سورة آل عمران [١١٠]

واشتد الحسد والحقد منذ ذلك الحين .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »« ١ » .

ولقد جهدوا جهدهم كله لمحاولة القضاء على الأمة الإسلامية فى مهدها ، حتى يئسوا فانكمشوا إلى حين :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشون » « ٢ » .

ولكن حقدهم ظل معهم ، بل ظل يتزايد على طول الزمان وزاد تصميمهم الخبيث على نشر الشر فى الأرض وسحق كل أمة عداهم .. حتى واتتهم الفرصة السانحة فى العهد الأخير ..

وهنا يخطر سؤال : أليس الله سبحانه وتعالى قد تكفل بقهرهم وتسليط العذاب عليهم إلى قيام الساعة جزاء كفرهم وتبجحهم ؟

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »« ٣ » .

بلى ! ولكن هناك حالات استثنائية فى تاريخهم يشير إليها كتاب الله :

« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس »« ٤ » ..

بحبل من الله وحبل من الناس ترتفع عنهم الذلة - مؤقتا - ويمكنون فى الأرض ، لحكمة وغاية يريدها الله .. ثم يعودون إلى الوعد المستمر :

« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا » « ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » .

والآن هم فى هذه الفترة الاستثنائية التى أشارت إليها الآية الكريمة من سورة آل عمران .

ولئن كان مخططهم هو استعباد البشرية كلها وسحقها تحت أقدامهم ، ولئن كان الإسلام عدوهم الأول الذى يحقدون عليه الحقد الأشد ، فما كانوا - حين بدأوا ينشطون نشاطهم الضارى فى التاريخ الحديث - ماكانوا يجدون

« ١ » سورة البقرة [١٠٩] .
« ٢ » سورة المائدة [٣] .
« ٣ » سورة الأعراف [١٦٧] .
« ٤ » سورة آل عمران [١١٢] .

الفرصة السانحة للانقضاض على الإسلام ، فبدأوا بأوربا ، إذ وجدوها أيسر منـالا لما كـان فى حياتهم من الثغـرات التى أحدثتهـا الكنيسة بحمـاقاتهـا وخطاياها ، فيسرت لليهود أن يخرجوا من أجحارهم ويعيثوا فسادا فى الأرض .

والآن فلننظر كيف تحرك اليهود لتنفيذ مخططهم الشرير ، انتهازا للفرصة السانحة واستغلالا للأحداث الجارية ، لا إنشاء للأحداث كمـا يدعـون عن انفسهم ، وكما يرسمهم من يهول من مقدرتهم الشريرة من أمثال « وليم كار » مؤلف الكتاب الشهير « أحجار على رقعة الشطرنج » الذى ينسب فيه كل أحداث التاريخ لفعل اليهود !

يقول التلمود (١) لليهود : الأمميون (أى كل الأمم غير اليهود) هم الحمير (دواب الحمل) الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار ، وكلما نفق منهم حمار ركبنا حمارا آخر ! ..

وبصرف النظر عن وقاحة التعبير وغلظته فهو واضح الدلالة على هذا الكبر الذى وصفـه الله فيهم : « افكلمـا جـاءكم رسـول بمـا لا تهـوى أنفسكم استكبرتم .. » فإنهم إذا كانوا يستكبرون على الرسل فكيف يكون استكبارهم وغطرستهم وصلفهم على البشر من غير الأنبياء ؟!

ثم يصف لهم التلمود كيف ينبغى لشعب الله المختار أن يعـامل الأمميـين ! « اقتل الصالح من غير الإسرائيليين. ومحرم على اليهودى أن ينجى أحدا من باقى الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون حفظ حيـاة أحد الوثنيين » « ٢ » .

« إذا سرق أولاد نوح ـ أى من غير اليهود ـ شيئا ولو كانت قيمته طفيفة جدا يستحقون الموت ، لأنهم خالفوا الوصايا التى أعطاها الله لهم ، أما اليهود فمصرح لهم أن يضروا الأمى » « ٣ » .

« إن تجارة البغاء بـالأجنبى والأجنبية ليست إثمـا ، لأن الشريعـة براء منهما » « ٤ » .

« ١ » التلمود هو كتاب اليهود « المقدس » غير المنزل ، انما هو من تاليف حكمائهم وله عندهم قداسة اكثر من الكتاب المنزل .!!

« ٢ » الكنز المرصود ص ٨٤ — ٨٥ . د . روهلنج وآخر ، ترجمة يوسف حنا نصر الله ، بيروت

« ٣ » الكنز المرصود ، ص ٧٢ — ٧٣ .

« ٤ » همجية التعاليم الصهيونية ، بولس حنا سعد ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ص ١٧٣ .

وهذه التعاليم أكثر قداسة عندهم من التعاليم الواردة فى كتاب الله المنزل ، التى تدعو إلى البر والخير الذى لم يطيقوه أبدا ولم يطبقوه فى حياتهم أبدا ، إلا قليل منهم ، وهذا هو الذى أشار إليه القرآن الكريم :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ! ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ! « ١ » .

فهم يدّعون على الله أنه أذن لهم أن يعاملوا الأميين (وهم الأمميون فى التعبير الآخر) على هذا النحو ، وهم يعلمون أنهم يكذبون على الله . ثم يطيعون الكذب الذى يعلمون كذبه ، ويعرضون عن الصدق الذى يعلمون أنه الحق !

وإذ كان مخططهم هو استعباد البشرية و« استحمارها » وتسخيرها لمصالحهم ، فقد علموا أن أنجح الوسائل لذلك هى نزع عقائد الأممين وإفساد أخلاقهم .

يقول القرآن عنهم :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » « ٢ » .

ورغم أن هذا القول نازل فيهم ، فقد وعوه وطبقوه على غيرهم !

إن العبرة فى الآية الكريمة أن الأمة التى أنزل الله كتابا من عنده لتحكمه فى شئون حياتها وتجرى حياتها بمقتضاه ثم أعرضت عنه ونبذته ، تفقد آدميتها وتتحول إلى دواب كالحمير . وهو نفس المعنى الذى تحمله الآية : « أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون »« ٣ » .

وإذ وعى اليهود هذه الحكمة من قديم – وان كانوا يستثنون منها أنفسهم باعتبارهم شعب الله المختار ! – فهم يسعون أبدا إلى نشر الفساد فى الأرض ، الفساد العقيدى والفساد الخلقى .. وكل أنواع الفساد :

« ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » « ٤ » .

تقول البروتوكولات :

« ١ » سورة آل عمران [٧٥] .
« ٢ » سورة الجمعة [٥] .
« ٣ » سورة الأعراف [١٧٩] .
« ٤ » سورة المائدة [٦٤]

« يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهـود ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية » « ١ » .

« ومن المسيحيـين أناس قـد أضلتهم الخمـر وانقلب شبـابهم مجـانـين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذى أغراهم به وكلاؤنـا ومعلمونـا وخدمنـا ، ونساؤنا فى أماكن لهوهم والراغبات من زملائهن فى الفساد والترف » « ٢ » .

وهذا هو المخطط الشرير ..

ولقد ظل اليهود قرونا طويلة يسعون إلى تحقيق هذا المخطط ويحلمون باليوم الذى يجردون فيه الأمم كلها من دينها ، ليبقى شعب الله المختار وحده هـو صاحب الكتاب وصاحب الدين .. وعندئذ يتحقق الوعد المزعوم ويحكمون كل البشرية !

ولكن هذا السعى ظل خائبا عدة قرون سواء فى العالم الاسلامى أو العالم المسيحى – رغم كل محاولاتهم الشريرة فى القضـاء عليهما ـ حتى سنحت الفـرصة الكبـرى أمامهم حـين أخذت أوروبـا تنسلخ من دينها وتسعى إلى « التحرر » من ذلك الدين ..

هناك واتت الفرصة المرتقبـة منذ قـرون . لا لأن اليهود دبـروا الأحداث – كما يزعمون فى البروتوكولات – ولا لأن تراكم التخطيط عبر القرون قد أتى ثماره آخر الأمر كما يرى أمثال وليم كار فى كتاب الأحجـار .. ولكن لأن أوروبا هى التى « استحمرت » نفسها لشعب الله المختار حين فرت من الدين « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » « ٣ » .

لو ظلت أوروبا ذات دين وعقيدة ما استطاع اليهود أن يصنعوا ما صنعوا ولا أن يفسدوا ما أفسدوا .

صحيح أن العقيدة التى قـدمتها الكنيسـة ـ أو قدمهـا بولس اليهـودى الأصل ـ إلى أوروبا كانت فاسدة منذ أول لحـظة ، وأن الدين الذى نشرتـه الكنيسة لم يكن هو دين الله المنزل .. وأنه منذ اللحظة الأولى كان يحمل الثغرات ألتى يمكن أن ينفذ منها أولياء الشيطان . ولكن شدة تمسك أوروبا بعقيدتها ـ رغم فسادها ـ قد جمد محاولات اليهود لتنفيذ الخطط الشريرة فترة طويلة ، رغم أنهم لم يكفوا عن المحاولة خلال تلك القرون كما يقول ـ بحق ـ وليم كار فى

« ١ » البروتوكول الرابع   « ٢ » البروتوكول الأول .

« ٣ » سورة المدثر [٥٠ ـ ٥١] .

كتاب « أحجار على رقعة الشطرنج »

لقد كانت العقيدة فاسدة نعم ولكنها كانت تدعو الناس إلى الفضيلة وتحذرهم من حبائل الشيطان وتحذرهم من فتنة الجنس خاصة ، وتصل بهم إلى درجة التزمت والرهبانية ، والجنس من أشد أدوات اليهود فعالية فى إفساد الأمميين !

كانت الأسرة متماسكة،والشباب - فى الغالب - يتزوج مبكرا،والاختلاط محدود ، ودواعى الجريمة محدودة ، والحياة بسيطة أقرب إلى الشظف وعيش الكفاف .. وفى مثل هذا الجو ماذا يملك اليهود مهما كانت براعتهم فى الشر ؟!

لقد كان أقصى ما يفعلون هو جمع المال ، وإقراضه بالربا الفاحش للمحتاجين ، وإيقاع أمراء الإقطاع فى الدين ليستولوا فى النهاية على ثرواتهم .

ولكن تأثيرهم فى مجموع الناس كان معدوما أو ضئيلا إلى أقصى حد ، خاصة واليهود فى أوروبا فى ذلك الحين محتقرون مهينون فوق البغضاء الموجهة إليهم والاضطهاد الحائق بهم على أساس أنهم قتلة المسيح كما يعتقد المسيحيون !

ولكن الحماقات المتوالية للكنيسة والخطايا التى ارتكبتها فى حق الدين وحق الناس هى التى صدعت الكيان الدينى فى النهاية وأوجدت الثغرات الواسعة التى نفذ منها الشريرون .

منذ بدء « النهضة » وجدت الثغرات التى تمناها اليهود وجلسوا فى انتظارها عدة قرون . فقد قامت تلك النهضة منذ مبدئها على أسس إغريقية رومانية غير مسيحية ، بل إنها فى الواقع قامت على أسس مضادة للمسيحية معادية لها ، وإن كانت لم تستطع أن تخوض المعركة الحاسمة مع المسيحية إلا بعد ذلك بأجيال ، ظلت الكنيسة خلالها ذات نفوذ واسع على الجماهير على أقل تقدير .

ويوما بعد يوم كانت تقترب اللحظة التى يمكن أن ينهار فيها سلطان الكنيسة ويصبح دينها الذى فرضته على الناس عديم السلطان أو ضعيف التأثير .

وفى الثورة الفرنسية وقع ذلك الانفجار الحاد ، الذى دوى فى أرجاء أوروبا كلها فأودى بالإقطاع وزلزل كيان الدين .

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن تسير الثورة فى مسار آخر لو لم يتدخل ذلك العنصر الشرير فى توجيه الأحداث وجهة معينة تخدم أهدافه الخاصة بصرف النظر عن أهداف الثائرين !

كانت أهداف الثائرين هى القضاء على ذينك الحليفين الطاغيين المستبدين :

رجال الاقطاع (الأشراف !) ورجال الدين . وكان الإقطاع شرا خالصا فكان ينبغى أن يزول ، وكان الدين الذى تقدمه الكنيسة وتطغى به على الناس يحوى بعض الحقائق وكثيرا من الأباطيل ، فكان يمكن أن تصحح أباطيله ، ويستبدل به الدين الحق ، الخالى أساسا من الأباطيل .

ولكن اليهود حين دخلوا فى الأمر لم يدعوا الفرصة لتصحيح الدين .. وإنما اهتبلوها فرصة سانحة لتحطيم الدين ! وهذا هو الدور الحقيقى الذى لعبوه فى الثورة الفرنسية ، لا أنهم هم الذين انشأوها كما يزعمون فى البروتوكولات ، ويتابعهم فى زعمهم وليم كار فى كتاب الأحجار ..

حقيقة إن المحافل الماسونية المنتشرة فى فرنسا فى ذلك الوقت هى التى قامت بالتحضير للثورة ، وهى التى رفعت شعاراتها الخاصة - الحرية والإخاء والمساواة - شعارات للثورة الفرنسية ، على غير وعى من « الأمميين » الذين قاموا بها ! وإن بعض الخطباء من اليهود اشتركوا فى إلهاب حماسة الجماهير وتفجير الغضب المكبوت .. ولكن هل كان فى طوق اليهود - مهما فعلوا ، ومهما تكن براعتهم الشريرة - أن يشعلوا الثورة لو لم تكن خاماتها موجودة فى النفوس ومستعدة للاشتعال ؟!

أما دخول اليهود فى الثورة فقد كان لتحقيق هدفين كبيرين من أهدافهم الخاصة ، أحدهما كانت الثورة تتجه إليه من تلقاء ذاتها ، والثانى كانت وجهة الثورة فيه تيسر لهم الوصول إلى هدفهم الخاص حين يستغلون الأحداث على طريقتهم الشريرة فى استغلال الأحداث .

فأما الهدف الأول فقد كان تحطيم الإقطاع وهذا كان يوافق هدفا مرحليا خاصا لليهود .

وأما الهدف الثانى فقد كان تحطيم نفوذ الكنيسة ورجال الدين ، وهذا الذى حوله اليهود - لحسابهم الخاص - إلى تحطيم لذات الدين .

كان لليهود أكثر من مصلحة فى تحطيم الإقطاع ، فلا عجب أن يدخلوا فى الثورة التى رأوها متجهة - من تلقاء نفسها - إلى تحطيمه .

كانت الثورة الصناعية تدق الأبواب .. وكان اليهود يقدرون لأنفسهم فيها أرباحا طائلة عن طريق الإقراض بالربا . فمنذ مولدها واحتياجها إلى المال لتمويل الصناعة الناشئة ، سقطت فريسة فى يد اليهود .. وما تزال حتى هذه اللحظة فى أيديهم .

كان المال الوفير الذى يصلح لتمويل الثورة الصناعية فى يد طائفتين اثنتين فى ذلك الحين : طائفة أمراء الإقطاع وطائفة المرابين من اليهود . فأما أمراء الإقطاع فقد رفضوا تمويل الصناعة الناشئة وأبوا أن ينقلوا أموالهم من دورتها الزراعية المألوفة لديهم ، والمضمونة الربح لهم ، إلى عملية جديدة لا يعرفونها ، ولا يطمئنون إليها لعدم تمرسهم بها ، خاصة وأن كثيرا من العمليات الصناعية كان يفلس فى مبدأ الأمر بسبب نقص الخبرة أو عدم توفر الأسواق أو عدم وجود المواصلات الميسرة ؛ أو عدم إقبال الناس على الاشياء المصنوعة بالآلة وتفضيل المصنوعات اليدوية عليها بحكم الألفة الطويلة ، وعلى أساس أن استخدام المصنوعات الآلية سيمحق البركة من حياتهم لأن فيه أصبعا من أصابع الشيطان !

عندئذ تقدم اليهود لتمويل تلك الصناعات مرحبين ، لأنهم ـ على طريقتهم ـ لايخسرون شيئا سواء ربحت الصناعة أو خسرت أو أفلست إفلاسا كاملا ، ذلك أنهم لايشتركون اشتراكا مباشرا برؤوس أموالهم ، وإنما يقرضون أصحاب الصناعات بالربا الفاحش مقابل ضمانات تضمن لهم رجوع أموالهم إليهم مع الفوائد المضاعفة دون أن يتعرضوا للخسائر التى كانت تتعرض لها الصناعة الناشئة فى ذلك الوقت فى كثير من الأحيان .

وفكرة المصرف (البنك) فكرة يهودية بحتة ، تقوم على تشجيع الناس على إيداع أموالهم ـ أو ارتهانها ـ لديهم مقابل إعطائهم صكوكا بها ، بينما يشغلون هم هذه الأموال فى عمليات إقراض ربوية يربحون عن طريقها الكثير ، فيعطون المودعين جزءا من هذه الأرباح ويستأثرون هم بمعظمها دون مخاطرة ولا جهد يذكر !

وهكذا أصبحت لليهود مصلحة أكيدة فى قيام الثورة الصناعية لما تدره عليهم من أرباح لم يكونوا ليحصلوا على مثلها من قبل من أمراء الإقطاع ، بالإضافة إلى الجلوس فى مقعد السيطرة بدلا من الذل المهين الذى كانوا يعاملون به فى عهد الإقطاع حتى وهم يقومون بإقراض المال للطالبين ! واقرأ إن شئت وصفا قصصيا لهذه الأوضاع فى قصة « الزنبقة القرمزية » تأليف البارونة أورتسى حيث يطلب أمير الاقطاعية قرضا من المرابى اليهودى ، فإذا جاء هذا يسلمه القرض المطلوب وهو ينحنى أمامه فى ذلة (ولا ضير عندهم فى التذلل ما دام

وراءه ربح !) إذا الإقطاعى ينهره لأنه يمد يده إليه بالمال ، ويقول له : لا تدنس يدى بلمسها بيدك ! ضع المال هنا (مشيرا إلى مكان معين) وسأتسلمه أنا من ذلك المكان بعد انصرافك أيها اللعين !!

ولكن العقبة أمام الصناعة الناشئة لم تكن عقبة التمويل فحسب ، وهى بالنسبة لهم لم تكن عقبة بل كانت مصدر ربح وفير ، إنما كانت العقبة الكبرى هى توفير العمال اللازمين للصناعة .. فقد كان العمال فى الريف يحتجزهم الإقطاع ، سواء كانوا عبيداً للسيد أو عبيداً للأرض ، أو من العمال الزراعيين الأحرار وهم قلة قليلة إلى جوار العبيد والأقنان ، وكلهم لا يملكون الانتقال إلى حيث تقوم الصناعات ـ بالضرورة ـ فى المدينة ، حيث توجد الأسواق المعقولة لتصريف المنتجات الصناعية . ومن ثم كان لابد من تحطيم الإقطاع لتحرير العبيد ـ عبيد السيد وعبيد الارض ـ وتقرير « حق الانتقال » لكل من يريد ، وهو حق لم يكن قائما فى ظل الإقطاع .

وهذا الهدف ـ وهو تحرير العبيد لتوفير العمال اللازمين للصناعة فى المدن ـ لم يكن فى حساب الثائرين ولا شك يوم قاموا بثورتهم العنيفة ضد مظالم الإقطاع ، ولكنه كان هدفا واعيا للراسمالية القائمة فى أحضان اليهود منذ أول لحظة ، أى أنه كان هدفا واعيا فى تخطيط اليهود ، ومن أجله شاركوا فى الثورة الفرنسية وقامت مؤسساتهم الماسونية لها بدور التحضير ، أو التفجير ! « ١ »

أما الدين فلم تكن قصته كذلك .

كان الثوار ينقمون على رجال الدين طغيانهم الذى أذلوا به الناس عبر القرون ، كما كانوا ينقمون عليهم مساندتهم لأمراء الإقطاع ضد دعوات التحرر من الظلم ، وكانوا يريدون أن يتحرروا من ذلك الطغيان ومن تلك المساندة الظالمة للطغاة ، ولكنهم لو تركوا لأنفسهم دون تدخل الأشرار ، فلربما اكتفوا بقتل من قتلوا من رجال الدين دون التوجه لقتل الدين ذاته ، أو لربما طالبوا بالإصلاح الدينى الذى يدع الناس أحرارا فى عبادتهم ، ويزيل عن البابا ورجال الدين قداستهم ، ويصحح العقيدة من انحرافها ، وينقى الأباطيل والمعميات عنها .

« ١ » اشرنا من قبل أكثر من مرة الى ان مشاركة اليهود فى الثورة او تحريكها للتفجير ليس معناه أنهم هم الذين انشأوها إنشاء كما يزعمون ، لأنهم ما كانوا ليستطيعوا إيجادها من العدم ، ولا كانوا يستطيعون إشعالها لو لم تكن هى من ذاتها قابلة للاشتعال .

ولكن التدبير اليهودى كان يسعى إلى تحطيم الدين فى أوروبا جملة لتحقيق مرحلة من مراحل المخطط الشرير الذى يهدف إلى تجريد « الأمميين » جميعا من عقائدهم وأخلاقهم ، لأجل « استحمارهم » والسيطرة عليهم ، وتسخيرهم لشعب الله المختار ، بالإضافة إلى الانتقام الشخصى من الدين الذى اضطهدهم واستذلهم على اعتبار أنهم قتلوا « الرب » المعبود فى ذلك الدين وصلبوه !

لذلك سعوا بجمعياتهم الماسونيـة المنبثة فى أنحـاء فرنسـا ، وبخطبـائهم وكتابهم إلى توجيه غضب الجماهير المجنونة نحو الدين ذاتـه لا نحو رجـاله فحسب .. وكان أن أعلنت فى « فرنسا الثورة » أول حكومة لا دينية فى العالم المسيحى لا تجعل الدين أساسا لأى شىء فى حياة الناس .

وكانت خطوة جريئة وجبارة بلا شك ، جلس اليهود يفركون أيديهم سرورا بها فى غفلة من الأمميين ، الملتهين ـ حسبما تقرر البروتوكولات ـ بشعـارات « الحرية والإخاء والمساواة » والغارقين فى شرب الكأس حتى الثمالة ، المنتشين بما صار فى أيديهم ـ فجأة ـ من سلطان يقتلون به الملوك والأشراف ورجال الدين ، وكل من حامت حوله شبهة من قـريب أو من بعيد ، أو أشـارت إليه الجماهير المجنونة بأصبعها : خائن ! أو جاسوس !

وهكذا خرج « الأمميون » الثائرون بشىء من النفع المشوب بكثير من الشر ، بينما خرج اليهود بتحقيق أهدافهم كاملة سواء فى تحطيم الإقطاع لترسيخ قدم الرأسمالية المولودة فى أيديهم ، أو تحطيم الدين تمهيدا « لاستحمار » أوروبا وتسخيرها لمصلحة اليهود .

كانت الثورة الفرنسية حدثا ضخما فى حياة أوروبا دون شك ، لا للأسباب التى يدرسونها للأولاد فى المدارس ، ولكن لأسباب أخرى أخطر وأهم .. فقد أطلقت يد اليهود لتحقيق مخططاتهم الشريرة بصورة لم تكن متاحة لهم من قبل فى عهد الإقطاع .. فقد ولد من جراء الثورة الفرنسية والثورة الصناعية التى كانت الأولى تحضيرا وتمهيـدا لها ، مجتمـع جديـد كل الجـدة عن المجتمع الإقطاعى ، استطاع اليهود أن يعيثوا فيه فسادا بكـل قوتهم ، لأنـه ولد فى أيديهم من اللحظة الأولى فاستطاعوا أن يشكلوه على النحو الذى يريدون ، إذ كانوا هم ـ عن طريق البنوك والإقراض بالربا ـ ممولى الرأسمالية وسادتهـا المسيطرين عليها ، والمسيطرين ـ من خلالها ـ على صياغة المجتمع الجديد بكل ما فيه من عقائد وتصورات وأفكار وسلوك .. وإذ كان « الأمميون » فى أوروبا

قد بدأوا ينسلخون من دينهم ويسلمون قيادهم للشيطان !

وسنتحدث فيما بعد عن « الحتميات » التى زعمها التفسير المادى للتاريخ لتفسير الانتقال من طور فى حياة البشرية إلى طور ، وخاصة الانتقال من الطور الزراعى إلى الطور الصناعى ، وسنرى عند الحديث عنها أنها حتميات زائفة ، وأنها ليست هى - أو ليست هى وحدها - التى تحرك حياة البشر على الأرض ، وتنقل خطاها من طور إلى طور ، وأنه لم يكن من الحتم على الإطلاق أن تكون صورة المجتمع الرأسمالى الصناعى هى الصورة التى وجد عليها بالفعل لولا التخطيط الشرير الذى شكلها على هذه الصورة ! « ١ »

استطاع اليهود - بعبقريتهم الشريرة - أن يتسلموا قياد المجتمع الأوروبى الآخذ فى الانسلاخ من دينه بتأثير انحرافات الكنيسة الأوروبيــة وجرائمهــا وخطاياهافينشئوا على أنقاض المجتمع الإقطاعى المنهار مجتمعا جديدا بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد .. وقد سلطوا على هذا المجتمع كل قواهم الشريرة لينشئوه على هذه الصورة ، فوضعوه بين ذراعى كماشة هائلة تعصره عصــرا وتفتت كيانه وتحيله كيانا ممسوخا مشوها بلا قوام !

إحدى ذراعى الكماشة كانت نظريات « علمية ! » زائفة ، تحــارب الدين والأخلاق والتقاليد من كل زاوية مستطاعة ، تحتوى - لاشك - على شىء من الحق ، ولكنها تلبس الحق بالباطل على ديدن يهود من أول التاريخ :

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ؟! » « ٢ »

« يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟! » « ٣ »

وكان أبرز « الأبطال » فى هذه المعركة ثـلاثة من « أسـاطين » اليهود هم ماركس وفرويد ودركايم ..

« ١ » الحتمية الوحيدة فى هذا الوجود كله هى حتمية السنن الربانية . وما حدث بالفعل فى هذا الكون فقد كان محتم الوقوع فى قدر الله . ولكن قدر الله يجرى فى الأرض من خلال أعمال البشر إن خيرا فخير وإن شرا فشر : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » [سورة الروم : ٤١] ولكن قدر الله لايفرض الفساد على الناس ، إنما يرتب على الفساد نتائجه وعلى الصلاح نتائجه : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » [سورة المائدة : ٦٥ - ٦٦] « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانــوا يكسبون » [سورة الاعراف . ٩٦]

« ٢ » سورة البقرة [٤٢]

« ٣ » سورة آل عمران [٧١]

وأما الذراع الأخرى للكماشة فكانت واقعا فعليا يقوم من أول لحظة على عداء مع الدين والأخلاق والتقاليد ، ويظل ينزلق خطوة خطوة ، كل خطوة تؤدى إلى ما بعدها كأنما بصورة تلقائية (ومن طبيعة المنزلق أن يهوى بصاحبه إلى الهاوية مادام قد سار فيه) وتؤدى فى النهاية إلى الانسلاخ الكامل من كل مقومات الدين . وكان اللاعب الأكبر فى هذه العملية الضخمة هو المرأة « المتحررة » اقتصاديا ، والمتحللة فى ذات الوقت من سلطان الدين والأخلاق والتقاليد ..

وفيما يلى نتحدث عن كل من الذراعين الشريرتين ، وآثارها فى إفساد المجتمع الأوروبى .

١ ـ النظريات العلمية

دارون ونظرية التطور

ليس دارون يهوديا ، فقد ولد لأبوين مسيحيين ، ولكن اليهود استغلوا نظريته على نطاق واسع وعملوا على نشرها فى الأرض لما رأوه من إمكان الاستفادة بها فى تحطيم عقائد الأمميين كما تقول البروتوكولات : لقد رتبنا نجاح نيتشه ودارون وإن تأثير أفكارهما على عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد .

فلا عجب إذن أن تجد نظريته تدرس فى معظم مدارس الأرض لا على أنها فرض علمى (كما هى فى حقيقتها) ولا حتى على أساس أنها « نظرية » علمية (أى لم تثبت ثبوتا قاطعا يرشحها لأن تكون حقيقة علمية) بل على أنها حقائق نهائية فى علم الحياة !

ولد دارون فى بريطانيا عام ١٨٠٩ ، وفى سنة ١٨٥٩ أصدر كتابه فى « أصل الأنواع »

وقد كان متخصصا فى علم الحياة ، وأدت به ملاحظاته العلمية إلى أن يكتشف أنه يمكن عن طريق « الانتخاب الصناعى » تأكيد صفات معينة أو إضعافها فى النسل الناتج من زوجين منتخبين بصفات معينة ، وأنه يحدث مثل ذلك فى « الطبيعة » عن طريق الانتخاب الطبيعى أى التزاوج الحر بين الكائنات الحية .. وأن التغيير الناشىء من هذا الانتخاب يمكن أن يصل إلى حد استحداث صفات جديدة لم تكن فى أى من الأبوين كطول المنقار فى بعض الطيور ، أو الألوان الزاهية فى بعضها الآخر،أو غير ذلك من الصفات . فافترض أن مثل هذه التغيرات قد حدثت فى « الطبيعة » من قبل خلال ملايين السنين من عمر الحياة على سطح الأرض ، مما أدى على الدوام إلى ظهور « أنواع » جديدة وأدى كذلك ـ بتراكم التغيرات ـ إلى ظهور « أجناس » جديدة لم يكن لها وجود

من قبل .. ثم تصور أنه من خلال هذه العملية التى سماها عملية « التطور » سارت الحياة فى سلسلة طويلة من الرقى التدريجى بدأت بالكائن الوحيد الخلية وانتهت بالانسان على النحو التالى (باختصار كثير من التفصيلات) :

كائن وحيد الخلية (كالأميبا) ـ فطريات متعددة الخلايا ـ نبات ـ نبات يشبه الحيوان (كالهيدرا) ـ حيوان يشبه النبات (كالمرجان) ـ حيوانات لافقارية ـ حيوانات فقارية دنيا (كالأسماك والطيور) ـ حيوانات فقارية أرقى (كالثدييات الدنيا) ـ الثدييات العليا ـ القردة الدنيا ـ القردة العليا (الغوريلا والأورانج أوتانج « إنسان الغاب » والشمبانزى والجيبيون) ـ الحلقة المفقودة (القرد الشبيه بالإنسان أو الإنسان الشبيه بالقردة العليا) ـ الإنسان .

وقال دارون ـ فيما قال وهو يشرح نظريته : إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق Nature creates everything and there is no limit to its creativity.

وقال كذلك : « إن الطبيعة تخبط خبط عشواء »

Nature works haphazardly

وبصرف النظر عن صحة المعلومات الواردة فى نظريته وصحة تفسيراته لها أو عدم صحتها « ١ » ، فقد أنشأت رجة كبيرة فى المجتمع الغربى ، اهتـزت لها الكنيسة من جهة « ٢ » والدوائر العلمية من جهة أخرى والجماهير من جهة ثالثة .

فأما الكنيسة فقد كفرت دارون ابتداء وقالت عنه إنه زنديق مهرطق مارق من الدين ؛ لأنه ينفى الخلق المباشر من الله للإنسان على صورته (تفسر الكنيسة كلمة « على صورته » الواردة فى التوراة على أن الله قد خلق الإنسان على صورة نفسه ـ تعالى ـ أى على صورة الله) بل ينفى يد الله من عملية الخلق كله كما ينفى الغاية

« ١ » لا ندخل فى نقاش مع نظرية دارون فهذا مجاله الكتب العلمية المتخصصة فى علم الحياة وتفسير الظواهر المتصلة بالكائنات الحية ، ولكنا نذكر فقط أن هناك علماء آخرين لهم قدم راسخة فى مجال البحث العلمى يعارضون دارون معارضة تامة فى تفسيره لظاهرة نشوء الحياة وتطورها .

كما أن علم « الجينات » (المورثات) يميل إلى اعتبار الصفات الخاصة بكل جنس ثابتة وغير قابلة للنقص أو الزيادة مما يعارض فكرة نشوء الأجناس الجديدة من الأنواع المتطورة بتغير صفاتها الوراثية تغيرا جذريا ينقلها إلى جنس جديد (كنشأة الفقاريات من اللافقاريات أو نشأة القرود من الثدييات العليا أو نشأة الانسان من القردة العليا) كما أن « الداروينية الحديثة Neo Darwinism ذاتها تقرر تفرد الانسان عن بقية الحيوانات تفردا جوهريا .

« ٢ » إذا كانت الثورة الفرنسية قد قضت على نفوذ رجال الدين فى فرنسا فليس معنى هذا أن الكنيسة قد فقدت وجودها تماما فى ذلك الحين وخاصة خارج فرنسا .

والقصد،لأنه يقرر أن الحياة قد وجدت على الأرض بالصدفة فى ظروف معينة (لم تتكرر مرة أخرى) ! وأن تفسير الحياة وتطورها بإرجاعها للإرادة الإلهية يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت !

This would be to introduce a supernatural element in a completely mechanical position

وقد جاوبها داروين من ناحيته باتهامها بالجهل والتخريف ومحاربة العلم بحقائقه ونظرياته .

وأما العلماء فقد انقسموا إلى ثلاث فرق . فرقة تؤيد داروين وتتحمس له ، وفرقة تعارضه وتندد به ، وفرقة تحاول التوفيق بين ما تقوله النظرية وما يقوله الدين !

وأما الجماهير فقد وقفت فى مبدأ الأمر موقفا حاسما مع الكنيسة ضد داروين ! فقد عز عليها أن يسلبها داروين إنسانيتها ويردها إلى أصل حيوانى ، وينفى التكريم الربانى الذى كرم به الله الإنسان حين خلقه على صورته ، وزينه بالعقل وميزه بالقدرة على النطق .. ولكنها رويدا رويدا بدأت تغير موقفها ، وتعتنق أفكار داروين ، وتتغاضى عن مسبة الحيوانية التى ألحقها بها فى نظريته ، بل بدأت تهاجم الكنيسة لموقفها من داروين،وترى فى نظريته معولا هداما يهدم ما بقى لها عليهم من سلطان !

هل تم هذا التحول فى موقف الجماهير تلقائيا أم كان وراءه ذلك العنصر الشرير ؟!

وهل كان يمكن ـ لولا ذلك التدخل الشرير ـ أن يتغاضى الناس عن إنسانيتهم المسلوبة وعن كرامتهم الملغاة ، ويعتنقوا نظرية تقرر صراحة أن الانسان إن هو إلا امتداد لسلسلة التطور الحيوانى ، لا قصد من خلقه ولا غاية ، وما يزيد عن القردة إلا ما أضافه التطور خلال مئات الألوف من السنين من تغير عشوائى غير مقصود ؟!

حقيقة إن « العلماء » هم الذين بدأوا باعتناق نظرية داروين ،ثم تبعتهم الجماهير . ولكن هؤلاء وهؤلاء ما كانوا ليفعلوا ذلك لولا عنصران قائمان فى الموقف ، عنصران غير « علميين » ، أحدهما موقف الكنيسة الطغيانى من الأمور كلها ومن العلم والعلماء خاصة ، والآخر هو الدعاية الضخمة التى قام

بها اليهود للنظرية ولإيحاءاتها المصادمة للعقيدة بصفة خاصة .

ومرة أخرى لا نتعرض هنا للنظرية بالنقد . وإن كنا سنشير فيما بعد إلى آراء الدارونية الحديثة نفسها فى هذا الأمر ، بعد ما تقدم العلم كثيرا عما كان عليه أيام دارون ، وكشف عن أشياء لم تكن مكشوفة له فى ذلك الحين ، إنما نتكلم عن إيحاءاتها المصادمة للعقيدة ..

إن النظرية ـ بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها من الوجهة العلمية البحتة ـ لم يكن من الحتم أن تصاغ بالطريقة التى تصادم العقيدة لولا ذلك الصراع القديم الذى قام بين الكنيسة والعلماء،واستمر إلى وقت دارون وما بعده ، وجعل « العلماء » يتعمدون تجريح الدين ورجاله انتقاما مما فعلته الكنيسة من قبل ، كما جعل أوروبا تهرب من إله الكنيسة وتضع « الطبيعة » إلها بدلا منه !

لو قال دارون إن الله حين خلق الحياة على الأرض هيأ لها ظروفا معينة تساعد على وجود الخلية الحية ونموها واستمرارها ، ثم نوع الله الخلائق على نسق معين بدءا من الكائن الوحيد الخلية إلى أكثر الخلائق رقيا وتعقيدا وهو الإنسان ، وإن قمة الإعجاز فى الخلق ـ والخلق كله معجز ـ هو خلق الانسان على هذه الصورة،وإمداده بالمزايا التى تؤهله للقيام بدوره على الأرض« ١ » .

لو قال هذا ، ثم أورد كل ما أورده من التفصيلات العلمية التى أتى بها فى نظريته ـ بصرف النظر عن صحتها أو خطئها من الناحية العلمية ـ فماذا كان يمكن أن يحدث ؟!

كانت النظرية تظل موضع أخذ ورد بين العلماء للاستيثاق من صحة تلك التفصيلات ، كما يحدث مع أى فرض علمى أو نظرية علمية ، حتى تمحص وتثبت حقيقتها،ولكن دون رجة ولا ضجة ولا هزات ..

ولكنه ـ لأمر ما ـ لم يقل ذلك ولم يرد أن يقوله !

« ١ » هذا الذى اثبتته الداروينية الحديثة فيما بعد ، وإن كانت ما تزال فى خصامها التقليدى مع الدين !

إنما قال بدلا منه إن « الطبيعة » هى التى خلقت . وقال إنها تخبط خبط عشواء . وقال إنه يرفض تفسير نشوء الحياة وتطورها بإرجاع ذلك إلى الإرادة الإلّهية لأن ذلك خلط علمى غير جائز ، وإنه بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت !! ثم تحايل على الحرج الذى يواجهه ويواجه كل منكر للإرادة الإلّهية فى قضية الخلق كله ، وخلق الحياة أول مرة من الموات ، والذى يوجه إليه هذا التحدى : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » « ١ » تحايل على ذلك تحايلا سخيفا ـ من وجهة النظر العلمية البحتة ـ فقال إن الحياة نشأت صدفة على الأرض !!

ومن ثم وجدت فيه اليهودية المتربصة فرصة سانحة لتقويض عقائد « الأمميين » وإزالة ما بقى من أثر للدين فى حياة الناس !

وينبغى ـ لكى ندرك دور اليهود فى إفساد أوروبا دون تهويل فى تقدير مقدرتهم الشريرة كما فعل وليم كار ـ أن نقول إن عالما سابقا هو « لامارك « La Marke كان قد قال شيئا قريبا مما قاله دارون ، ولكن اليهود لم يستطيعوا استغلال نظريته لتقويض عقائد الأمميين كما فعلوا بنظرية دارون ، لأن الحدث العظيم الذى رج المجتمع الأوروبى كله ـ وهو الثورة الفرنسية ـ لم يكن قد وقع بعد ، وكان المجتمع – على كل ما كان يحمل من الفساد والظلم ـ ما يزال متماسكا بالصورة التى لا تدع لليهود فرصة الدخول ، فعجزوا يومئذ عن الدخول ! ولكن الرجة التى أحدثتها الثورة الفرنسية – التى اشتركوا هم فى توجيهها وجهة معينة ـ هى التى قربت الهدف وأحدثت الثغرات التى يمكن أن ينفذوا منها . فلما قام دارون تلقفوه وأمسكوا به معولا هائلا لتحطيم كل القيم فى حياة البشرية .

أيا كان القول فى نظرية دارون من الوجهة العلمية ، فقد كانت نظرية محصورة فى « علم الحياة » تحاول أن تفسر نشأة الحياة وتطورها ، فلم تكن نظرية فلسفية ، ولا سياسية ، ولا اقتصادية ، ولا اجتماعية ، ولا نفسية ..

« ١ » سورة الطور [٣٥]

ولكنها انقلبت ـ فى فترة وجيزة من الزمن ـ فأصبحت كل هؤلاء !

وحقيقة أن من أراد أن يستخرج منها إيحاءات فلسفية أو غير فلسفية فإنه يستطيع ..

فالنظرية التى تقرر حيوانية الإنسان وماديته (بمعنى أن الظروف المادية المحيطة به هى التى أثرت فى « تطوره » وإعطائه صورته) والتى تنفى القصد والغاية من خلقه ، وتنفى التكريم الربانى له بإفراده بين الكائنات الأخرى بالعقل والقدرة على الاختيار والقدرة على التمييز فضلا عن المزايا الأخرى « الإنسانية » ..

إن نظرية كهذه يمكن أن تعطى إيحاءات خطيرة فى كل اتجاه ..

فحين يكون الإنسان حيوانا أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى فأين مكان العقيدة فى تركيبه ، وأين مكان الأخلاق،وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية ..الخ ؟!

وحين يكون حيوانا ، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى ، فما مقياس الخطأ والصواب فى أعماله ؟ وكيف يقال عن عمل من أعماله إنه حسن أو قبيح ، جائز أو غير جائز .. بعبارة أخرى كيف يمكن إعطاء قيمة أخلاقية لأعماله ؟

وحين يكون حيوانا أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى،فما معنى « الضوابط » المفروضة على سلوكه ؟ وما معنى وجود الضوابط على الإطلاق « ١ » ؟

كل تلك إيحاءات يمكن أن تستخرج من النظرية لمن أراد أن يصطاد فى الماء العكر ! ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن أحدا لم يصنع ذلك سوى اليهود !! هم الذين استخرجوا هذه الإيحاءات كلها التى لم يقلها دارون ، وربما لم يفكر فيها أبدا ، ولكنهم أسرعوا إلى اقتناصها ، وأنشأوا منها نظريات « علمية » اقتصادية ونفسية واجتماعية .. الخ موجهة كلها لمحاربة الدين والأخلاق والتقاليد ..

وكانت فكرة « التطور » ذاتها من أشد ما لعب به اليهود لزلزلة عقائد « الأمميين » وتقويضها .. فقد ضخموا تلك الفكرة أى تضخيم وصنعوا منها

« ١ » قالت الداروينية الحديثة ـ فيما بعد ـ إن الضوابط موجودة فى الكيان « البيولوجى » للإنسان ، فى تركيب مخه وجهازه العصبى ، وإنه متفرد بهذا عن الحيوان ! ومع ذلك يرفضون الدين !

قذائف يطلقونها على كل معنى « ثابت » فى حياة البشرية من دين أو قيم أو أخلاق .

والحق - مرة أخرى - أنهم لا ينشئون الأحداث ولكنهم يتحينون الفرص ويستغلون الأحداث .

لقد كان الخلل الفكرى فى حياة أوروبا فى ظل سيطرة الكنيسة الفكرية هو الذى رشح للهزة التى أصابت هذا الفكر يوم أطلقت عليه فكرة التطور ، فقد كان كل شىء فى حس أوروبا المسيحية الكنسية ثابتا منذ الأزل وسيظل ثابتا إلى الأبد .. ليست فكرة الألوهية فقط هى التى ينطبق عليها تصور الثبات ، ولا القيم الدينية والأخلاقية وحدها . ولكن الجبال والشجر والحيوان والطير . والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. وكل شىء فى الحياة .

البابا هو البابا ذو القداسة ، يذهب واحد ويجىء الآخر ، ولكن البابوية ذاتها وقداستها أمر ثابت لا يتغير ..

الملوك والأباطرة هم الملوك والأباطرة .. يذهب منهم من يذهب ويجىء من يجىء .. ولكن الملكية ذاتها أمر ثابت لا يتغير ..

الإقطاع هو الإقطاع .. يذهب أمير ويجىء أمير .. بنفس الصورة ، ونفس المعاملة ، نفس السيادة من جهة والعبودية من الجهة الأخرى .. وكلها أمور ثابتة لا تتغير ..

من ثم غلب على الفكر الأوروبى المسيحى الكنسى تصور الثبات فى كل شىء .

فلما وقعت الثورة الفرنسية وأزالت الإقطاع والملكية وزلزلت نفوذ الكنيسة كان ذلك حدثا حادا فى تاريخ أوروبا أثر تأثيرا عميقا فى كل اتجاه ، ولكنه كان قمينا - بعد فترة من الزمن - أن يفقد حدته ، ويستقر على صورة فيها لون من « الثبات » .

ولكن دارون جاء فأطلق قذيفته على أمر لم تهزه حتى الثورة الفرنسية ذاتها ، التى زلزلت كثيرا من الأوضاع فى أوروبا ، فقال إن الخلق ذاته غير ثابت ، وإن الانسان لم يكن إنسانا حين وجد أول مرة بل كان شبيها بالحيوان !

وبين الشد والجذب الذى تعرضت له النظرية أمسك اليهود بالخيط فجذبوه بعيدا بعيدا فى كل اتجاه لكى لا يعود !

وبسرعة - شريرة - وجهوا القذيفة إلى فكرة « الثبات » ذاتها وقالوا - من طريق استخدام فكرة « التطور » - إنه لا شىء ثابت على الإطلاق . وإن طلب

الثبات فى أى شىء : الدين أو الأخلاق أو التقاليد .. الخ ، هو فى ذاته فكرة خاطئة ! فكرة غير علمية ! فكرة مخالفة لطبيعة الأشياء . ثم ظلوا يرددون هذه الأقاويل وينشرونها ويؤكدون عليها ، حتى صارت هى الصبغة المسيطرة على الفكر « الأممى » لايقبلون فيها جدلا ولا مناقشة .. ومن ناقش فهو « الرجعى » « المتزمت » « الجامد » « المتأخر » الذى يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء .. وعقارب الساعة لا ترجع أبدا إلى الوراء !! وستسحقه عجلة « التطور » التى لاتبقى ولا تذر !!

من بين الأسماء « اللامعة ! » التى شكلت الفكر الأوروبى الحديث ثلاثة أسماء على الأقل من « كبار » اليهود : ماركس وفرويد ودركايم ، Marx, Frued ، Durkheim كل منهم قام بدوره فى زلزلة الفكر الأممى وإعادة تشكيله على النحو المطلوب .. وكل منهم قام بدوره فى تحطيم الأعداء الألداء للمخطط اليهودى : الدين والأخلاق والتقاليد .. وكل منهم بنى أفكاره « العلمية ! » على أساس النظرية الداروينية من هنا أو من هناك ..

فأما ماركس فقد أنشأ نظرية اقتصادية أو قل فلسفة مادية كاملة ، بناها على فكرة التطور من جهة وفكرة حيوانية الإنسان وماديته من جهة أخرى . وأما فرويد فقد أنشأ نظرية نفسية لتفسير تركيب النفس الإنسانية ونشاطاتها ، بناها على فكرة حيوانية الإنسان . وأما دركايم فقد أنشأ نظرية اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية بناها على حيواينة الانسان وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة ، وعلى انعدام الثبات فى القيم الاجتماعية من جهة أخرى .

كلهم - كما ترى - « خدم » الفكر الداروينى وأوصله إلى أبعاد لم تخطر على بال دارون على الإطلاق .

ونعرض هنا عرضا سريعا لأفكار كل من ماركس وفرويد ودركايم دون مناقشة تذكر ، لنبين فقط طبيعة الذراع التى حملت اسم العلم والنظريات العلمية من تلك الكماشة الرهيبة التى أحاطت بالأمميين فى أوروبا - وبالعالم كله من بعد عن طريق السيطرة الأوروبية - فذللت الأمميين لركوب شعب الله المختار !

فأما ماركس فسنعود بإذن الله إلى مناقشة تفصيلية لأفكاره ونحن نتحدث عن الشيوعية والمادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . وأما فرويد ودركايم

فيكفينا أن نعرض أفكارهما بغير تفصيل،بالقدر الذى يبين أثرها فى تشكيل الفكر الأوروبى تجاه الدين والأخلاق والتقاليد . وقد ناقشت فرويد ـ من قبل ـ فى أكثر من كتاب وبخاصة فى كتاب « الإنسان بين المادية والاسلام » وناقشت دركايم فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية »

ماركس

ماركس أبو الشيوعية والمادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ وهو صاحب القولة الشهيرة « الدين أفيون الشعوب » وهو يهودى ألمانى ولد عام ١٨١٢ ومات عام ١٨٨٣ .

أخذ ماركس جوهر النظرية الداروينية وأنشأ على أساسه نظرية اقتصادية وتفسيرا للحياة البشرية يحصر الإنسان فى عالم المادة والتطور المادى ويجعل قوانين المادة منطبقة على عالم البشر !! كما يجعل أمور الحياة كلها ، من عقائد ومشاعر وأفكار وأنماط سلوكية ومنظمات ومؤسسات ... الخ .. تبعا للطور الاقتصادى وللأوضاع المادية التى يعيش فيها الإنسان ومجرد انعكاس لها ، لا تسبقها ، ولا تخرج عنها ، ولا دور للإنسان فيها إلا أن يدور مع الطور الاقتصادى ومقتضياته .. لأنها « حتميات » .

وقسم الحياة البشرية بمقتضى هذا التصور إلى خمس مراحل حتمية : هى الشيوعية الأولى والرق والإقطاع والرأسمالية والسيوعية الثانية والأخيرة . وجعل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتميا من جهة ، ومردودا إلى أسباب مادية واقتصادية من جهة أخرى .

فالشيوعية الأولى هى الأصل الذى عاشت عليه البشرية الأولى فى بداوتها ، وجوهرها المميز هو عدم وجود ملكية فردية لشىء على الإطلاق ، قال : ولا النساء أيضا ، فقد كان الجنس يمارس على المشاع ، كل النساء لكل الرجال على السواء ! والأرض ملك للقبيلة بأكملها ، والطعام يتناوله الجميع معا والسلاح مملوك للقبيلة سواء سلاح الصيد أو الحرب .. والحياة ملائكية شعارها التعاون والحب والتناسق والانسجام !

ثم اكتشف الإنسان الزراعة فأدى هذا الأمر المادى البحث إلى الانتقال إلى طور اقتصادى جديد تبدل فيه كل شىء تبدلا كاملا فراحت القبائل القوية تقاتل

القبائل الضعيفة وتسترقها وتشغلها فى فلاحة الأرض فنشأ الرق ونشأت الملكية الفردية وانتهت الفترة الملائكية التى عاشتها البشرية فى فترتها الأولى .

ثم اخترع الإنسان المحراث.ومرة أخرى أدى هذا الأمر المادى البحت إلى الانتقال إلى طور اقتصادى جديد. فقد اكتشف الانسان أنه يستطيع أن يزرع - بهذه الآلة الجديدة - مساحة أوسع بكثير مما كان يمكن زرعه بالآلات السابقة ، فنشأ الإقطاع .. ونشأت معه أفكار وعقائد ونظم ومؤسسات جديدة مختلفة تماما عن السابقة .

ثم اخترع الإنسان الآلة فنشأت الرأسمالية - بسبب مادى بحت - وانتقلت صورة الملكية الفردية من ملكية زراعية إقطاعية إلى ملكية صناعية رأسمالية ، ونشأت أوضاع فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة بالمرة ، فتغيرت الطبقة ذات السيادة فلم تعد هى طبقة الأشراف (أمراء الاقطاع) إنما أصبحت طبقة الرأسماليين أصحاب المصانع وأصحاب رؤوس الأموال ، ولم يعد الشعب فى مجموعه فلاحين إنما صار عمالا صناعيين ، وتغيرت مفاهيم هؤلاء وهؤلاء«وتغيرت نظرتهم إلى كل القيم التى كانت سائدة من قبل فى المجتمع الزراعى .

ثم نشأ الصراع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فنشأت الشيوعية لا لأسباب مادية فى هذه المرة إنما لأسباب اقتصادية - وهى صنو الأسباب المادية فى نقل الناس من طور إلى طور - ولكن فى هذه المرة لا يحدث تطور ينقل الناس إلى طور جديد بعد الشيوعية ، إذ الشيوعية هى المستقر الأخير للبشرية كما كانت بدايتها هى الشيوعية . وتحدث فى داخل الشيوعية تغيرات ولكنها لا تغير المبدأ الرئيسى لها ، وهو إلغاء الملكية الفردية وإقامة الملكية الجماعية بدلا منها .. وفى النهاية - نهاية كل تطور وتغير - تلغى الدولة لانتفاء الحاجة إليها ، ويزيد الإنتاج بالدرجة التى تسمح بتطبيق مبدأ « من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته » ويزول الصراع نهائيا من حياة البشر ، ويعيشون فى حالة من الملائكية كالتى بدأوا بها حياتهم أول مرة .

ويركز ماركس فى كلامه عن مراحل التطور الحتمية وأسبابها المادية والاقتصادية على الانتقال من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية لأن هذا هو الطور الذى كان قائما فى وقته ، ولأنه هو الذى وقع فيه التغيير الضخم الذى أحدثه اليهود فى المجتمع الأوروبى ، فيقول إن من سمات المجتمع الإقطاعى

الزراعى : التدين ، وترابط الأسرة ، وسيطرة الرجل على الأسرة بكل أعضائها ، أى على الزوجة والأولاد ، ويرد هذا كله إلى أسباب مادية واقتصادية، فلا يقول إنه يرجع إلى قيم معنوية ، ولايقول إن هذا - فى ذاته - أمر طيب وفاضل ومستحب أو واجب ، إنما هو انعكاس لأوضاع مادية واقتصادية . فالفلاح - وهو المنتج الرئيسى فى المجتمع الزراعى - يضع البذرة فى الأرض ، ثم لا يستطيع أن يسيطر عليها ولا أن يستعجلها عن موعدها ، ولا أن يقيها من الآفات والتأثيرات الجوية المختلفة ، ومن ثم « يفترض ! » وجود قوة غيبية ، يكل إليها هذا الأمر كله ، الذى يعجز عن التحكم فيه والسيطرة عليه ، ويروح يترضى هذه القوة الغيبية بالعبادات ، والنسك والقرابين ، لكى ترضى عنه وتبارك زرعه ، ولكى يتقى غضبها عليه وانتقامها منه .. ومن ثم يكون التدين قويا، ويكون سمة بارزة للمجتمع الزراعى .

ثم إن الرجل فى المجتمع الزراعى هو المتكسب ، وهو الذى ينفق على الزوجة والأولاد ، ومن ثم يسيطر عليهم ويبسط سلطانه . ويكون سلطانه أشد ما يكون على الزوجة ، فيفرض عليها أن تكون له وحده ، ومن ثم تصبح قضية العفة والمحافظة على العرض ذات قيمة كبيرة فى المجتمع الزراعى ، ويفرض على المرأة أن تحافظ على عرضها (إرضاء لأنانية الرجل المتكسب المنفق) ويضفى على ذلك ثوب الدين والأخلاق ، فتصبح قضية العفة قضية دينية وأخلاقية فى حين أنها مجرد انعكاس لوضع اقتصادى معين يكون الرجل فيه هو المتكسب دون المرأة .

فإذا تحول الناس إلى المجتمع الصناعى المتطور تغير الأمر بالكلية . فالعامل هنا غير محتاج « لافتراض ! » القوة الغيبية التى كان يلجأ إليها العامل الزراعى ! لأنه يتولى عملية الإنتاج بنفسه . فهو الذى يعالج المادة الخامة ويشكلها كما يريد .. ومن ثم يقل التدين إلى أقصى حد فى المجتمع الصناعى .

ومن جانب آخر فإن المرأة تستقل اقتصاديا لأنها تعمل وتتكسب ولا تعود عالة على الرجل كما كانت فى المجتمع الزراعى « المتأخر ».ومن ثم يفقد الرجل سيطرته عليها ولا يعود فى إمكانه أن يفرض عليها أن تكون له وحده ، كما كان يفرض عليها فى المجتمع الزراعى .. فتتحرر من القيود ، وتفقد قضية العفة أهميتها فى المجتمع الصناعى المتطور،لأنه أصبح من حق المرأة أن تهب نفسها لمن تشاء دون سيطرة للرجل عليها ..

وكما أن الوضع « المحافظ » فى المجتمع الزراعى لم يكن فضيلة ولا شيئا مرغوبا فى ذاته ، إنما مجرد انعكاس للطور الاقتصادى،فكذلك لايعد « الانحلال » فى المجتمع الصناعى رذيلة ، إنما هذه وتلك هى السمات المصاحبة لهذا الطور وذاك ، لا توصف فى أى الحالين بأنها فضيلة أو رذيلة . إنما كل شىء فى إبانه هو الصواب لأنه هو الانعكاس الطبيعى للطور الاقتصادى الذى يقرر - وحده - كل العقائد والقيم والمبادئ ،فإذا تغير الطور لم يعد صوابا ما كان صوابا من قبل ، إنما يكون استمراره ظاهرة مرضية ينبغى أن تقاوم وأن تزال .

فالتدين أمر طبيعى فى المجتمع الزراعى ، لا يعيبه أحد ولا يستغربه أحد . ولكنه علامة مرضية فى المجتمع الصناعى لا ينبغى أن توجد ، وإن وجدت فلابد أن تحارب ، لأنها استبقاء لانعكاسات طور لم يعد قائما ، ومن ثم فلابد من إزالتها .

والحفاظ على العرض أمر طبيعى فى المجتمع الزراعى كذلك تفرضه الطبيعة الاقتصادية للطور الزراعى ، ومن ثم لايستغربه أحد ولا يعترض عليه أحد ، فإذا انتقلنا إلى المجتمع الصناعى فقدت القضية أهميتها نتيجة تحرر المرأة اقتصاديا وإنفاقها على نفسها . ومن ثم يصبح من يحافظ على أهمية العفة أو يطالب بالمحافظة عليها « رجعيا » لأنه يريد أن « يرجع » إلى القيم التى كانت مصاحبة لطور اقتصادى سابق ، انتهى عهده ، وصرنا إلى ما هو « أرقى » منه حسب سنة التطور الدائم إلى أعلى ! وهذا سخف لاينبغى أن يتصف به إنسان « متطور » ! فضلا عن أنه مستحيل .. لأن عقارب الساعة لايمكن أن ترجع إلى الوراء ولأن عجلة التطور ستسحق كل من يقف أمامها وتخمد صوته إلى الأبد !

وكذلك الأمر بالنسبة لترابط الأسرة ..

فمن طبيعة المجتمع الزراعى أن تتكاثر الأسرة وهى فى البيت الواحد أو فى بيوت متلاصقة متقاربة ، لا لأن ذلك فضيلة فى ذاته أو شىء مستحسن ، لكن لأن ذلك من طبيعة الطور الاقتصادى ومستلزماته ، لأن رجال الأسرة كلها يتعاونون فى الزراعة ، وكلما كثر أفراد الأسرة زاد إنتاجها الزراعى ، فيحقق ذلك مصلحة اقتصادية للأسرة . أما فى المجتمع الصناعى فكل عامل شخصيته مستقلة لا ارتباط بينه وبين غيره من الناحية الاقتصادية ، ومن ثم تستقل كل أسرة صغيرة - أى الأب والأم والأولاد - ببيت مستقل ، وكلما كبر أحد الأولاد وتزوج استقل بأسرته الصغيرة فى بيت خاص . وتفقد الأسرة الكبيرة ترابطها

ولا يعد ذلك عيبا ولا رذيلة ، لأنه هو الانعكـاس الطبيعى للطور الاقتصادى القائم . بل إن الأسرة الصغيرة ذاتها تتفكك روابـطها بسبب العمـل ، عمل الرجل والمرأة كليهما ، كل فى مكـان ، وعدم ارتبـاط الزوجة بـالبيت وتربيـة النشء ، ولايعد ذلك عيبا كذلك ولا رذيلة ، لأنه لاتـوجد قيم ثـابتة فى حيـاة البشرية . لاتوجد فضيلة ثابتة ولا رذيلة ثابتة إنما الفضيلة ما يوافق الطور الاقتصادى القائم والرذيلة ما لايوافقـه . فكما كـانت العفة هى الفضيلة فى المجتمع الزراعى يصبح التحلل هو الفضيلة فى الطور الصناعى أو هو الأمر الطبيعى على أقل تقدير . وكمـا كانت سيـطرة الأب هى الفضيلة فى المجتمع الزراعى يصبح فقدان سيطرة الأب هو فضيلة المجتمع الصناعى أو هو سمته الطبيعية . وكذلك كانت الأسرة المترابطة قيمة من القيم الاجتماعية المستحسنة فى المجتمع الزراعى ، وتصبح الأسرة المفككة ـ حتى على النطاق الصغير ـ هى القيمة الاجتماعية المستحسنة فى المجتمع الصناعى أو هى السمة الطبيعية على أقل تقدير !

فإذا جاءت الشيوعية ـ وهى المرحلة الحتمية الأخيرة فى حياة البشرية - فلسنا فى حاجة إلى تعديل جذرى فى القيم والعقائد والأفكار .. لأنه هكذا طيب !! تتغير فقط الصورة الاقتصادية فتلغى الملكية الفردية إلغاء كاملا وتصبح الدولة هى المالك الوحيد .. ولكن القيم المباركة التى أنشأها المجتمع الصناعى تظل قائمة ويزاد فيها فقط حتى تصل إلى نهايتها . فالدين يلغى إلغاء كاملا ، ويقضى على البقية الضعيفة الباقية منه فى المجتمع الرأسمالى ، لأن مهمته التى يقوم بها هناك - وهى تخدير الكادحين ليرضوا بالظلم الواقع عليهم ـ تنتهى فى المجتمع الشيوعى الملائكى الخالى من الظلم ، فلايعود للدين حاجة البتة . وتفكك الأسرة تفكيكا كاملا ، لأنها بقية ـ سخيفة ـ من بقايا العهـود الرجعية التى كـانت تمارس فيها الملكية الفردية فتتربى الأثرة فى نفوس الأبوين رغبة فى تـوريث أبنائهم .. فالآن وقد ألغيت الملكية الفردية فالأسرة نشاز فى المجتمع الجديد « المتطور »والأولاد ملك الدولة ، هى التى تملكهم ـ ملكية جماعية ! ـ وهى التى تنشئهم التنشئة الصحيحة ، وليس لأبويهم إلا ولادتهم لحساب الدولة .. وأما العلاقات الجنسية فهى حرة حرية كاملة ، لأننا عدنا ـ عودا على بدء ـ إلى الشيوعية ، إلى تناول حاجات الحياة كلها على المشاع .. وهنا تصل البشرية إلى قمة التطور الذى ليس بعده شىء !

الهدف واضح ولا شك ..

فالنظرية « العلمية ! » تدور كلها حول هذه القيم : الدين والأخلاق والتقاليد .. لتسخيفها وتسخيف المتمسكين بها،ووسمهم بالرجعية والجمود والتأخر،والوقوف فى وجه عجلة التطور التى ستسحقهم ..

إنها تركز كما قلنا على عملية الانتقال من المرحلة الاقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية - التى صاغها اليهود ، كما سنرى ، حسب مخططاتهم الشريرة بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد مستمدة من القيم الدينية - فتقول أولا إنه تطور « حتمى » ومادام حتميا فمنذا الذى يستطيع أن يقف فى طريقه رضى أم أبى ؟! وتحسر على الأيام الخالية والقيم الدارسة أم تسخط عليها ؟! ثم تقول ثانيا إنه تقدم إلى الأمام .. تقدم إلى أعلى .. حسب سنة التطور التى تدفع بالكائن الحى دائما إلى الرقى ! فمن كانت فى نفسه حسرة على ما فات ، أو ضيق « بالتطور » فليعدل من ذات نفسه وليتمش مع التطور ، ولينطلق مع التيار ، فذلك أروح للنفس والأعصاب !

إنها تتناول بالذات عمليات التحطيم التى قام بها اليهود فى المجتمع الجديد الذى ولد بين أيديهم فشكلوه على هواهم ، فتبارك هذه العمليات بالذات ..

قام اليهود بتحطيم الدين ، فيجىء فيلسوفهم - ماركس - فيقول - بصورة « علمية » - إن الدين قد باد تلقائيا من جراء التطور الحتمى الناشىء من الانتقال من طور اقتصادى متأخر إلى طور متقدم ! وإن الدين خرافة لا تليق بالانسان « الصناعى » المتطور ! وإنه قد أخلى مكانه لما هو خير منه وهو « العلم » ! وإن التمسك به - أو الرجوع إليه - أو الدعوة إليه - نشاز غير متجانس مع « طبيعة » المرحلة التطورية التى قطعها الإنسان إلى الأمام .. وذلك فضلا عن تشويه صورة الدين بأنه مخدر يستخدمه الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة عن المطالبة بحقوقها والقيام بالثورة المقدسة ، مستغلا فى ذلك واقع الدين الكنسى ومعمما إياه على كل « الدين » .

وقام اليهود بتحطيم الأخلاق - أخلاق الجنس بصفة خاصة - وأشاعوا الفوضى الجنسية والانحلال ، وحاربوا قيد « العفة » الذى يحول بينهم وبين تنفيذ مخططاتهم الواسعة لتحويل الآدميين إلى دواب تدور فى طاحونتهم ، فيجىء فيلسوفهم فيقول إن قضية العفة إنما أخذت أهميتها من أنانية الرجل فى المجتمع الزراعى « المتأخر » باعتباره هو المتكسب والمنفق ، ثم وضع عليها

وسم الدين والأخلاق ليعطيها أهمية زائدة ، خدمة لأنانيته ، وإنها فقدت أهميتها - الزائفة بالطبع ! - بصورة تلقائية نتيجة التطور الحتمى ، وحلت محلها « فضيلة » من نوع آخر فى المجتمع المتطور ، هى فضيلة « تحرر » المرأة .

وقام اليهود بتحطيم الأسرة ، لأن الأسرة أحد القيود التى تمنع التحلل الخلقى أو تبطئ عجلته ، وتبطئ بالتالى عملية استحمار الأمميين وتسخيرهم لشعب الله المختار ، فيجيء فيلسوفهم فيقول إن ترابط الأسرة كان مجرد انعكاس لوضع اقتصادى متأخر هو الوضع الزراعى الإقطاعى ، وإنها فقدت ترابطها - تلقائيا - من التطور الحتمى الدافع إلى الأمام ، ومن ثم لا تستحق البكاء عليها ولا التحسر ، إنما الأولى السير مع عجلة التطور والرضا بالطور الموجود .

وهكذا تتلخص المهمة « العلمية » للفيلسوف الكبير فى « تغطية » الدور الخطير الذى تقوم به العصابة المفسدة فى الأرض ، فى ثوب « علمى » تتلهى به عقول الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار !

فرويـــد

لايقل فرويد « عبقرية » عن ماركس ولا خطورة فى أداء الدور المطلوب .

ولئن كان دوره الآن قد انتهى « ١ » لأنه تم ! بينما لم ينته بعد دور ماركس لأنه لم يتم بعد ! فليس معنى ذلك أنه لم يعد له أثر فى المجتمع المعاصر بل العكس هو الصحيح . فقد تم دوره لأنه أعطى تأثيره الكامل فى المجتمع ، بحيث لم يعد ذلك المجتمع فى حاجة إلى المزيد ! ولأن الجرعة التى تشربها ذلك المجتمع من « علمه ! » - أو من سمومه - تكفيه عدة قرون !!

هو يهودى نمساوى ، كان يعمل طبيبا ثم تخصص فى معالجة الأمراض العصبية والنفسية ، وأنشأ عيادة خاصة للإشراف على علاج مرضاه ودراسة احوالهم عن كثب ، ثم استنبط من دراساته تصورا خاصا للنفس البشرية

« ١ » انتهى فى اوروبا وأمريكا ، ولكنه - عندنا - لم ينته بعد ! فما تزال معاهد التربية عندنا تقدمه على أنه إمام من ائمة الباحثين فى النفس الانسانية ! وعندما يسافر مبعوثونا إلى أوروبا وأمريكا يعودون حاملين أفكاره لينشروها هنا مع ان القوم قد تجاوزوها هناك !

وتركيبها وتفسيرا لنشاطاتها المختلفة ، تفرد به بين كل « المفكرين » إلى ذلك الحين وربما إلى الوقت الحاضر بصرف النظر عن تلاميذه الناقلين عنه .

ولد عام ١٨٥٦ وعمر طويلا حتى مات فى عام ١٩٣٨ ، وألف نحو ثلاثين كتابا فى الدراسات النفسية من أشهرها : الذات والذات السفلى The Ego and The Id والطواطم والمحرمات Totem and Taboo وتفسير الأحلام Inter-pretation of Dreams وثلاث مقالات فى النظرية الجنسية Three Con-tributions to the Sexual Theory والأمراض النفسية المنتشرة فى الحياة اليومية Psycho pathology of Every Day Life وكلها تدور - من زوايا مختلفة - حول موضوع واحد مكرر فيها جميعا هو التفسير الجنسى للسلوك البشرى .

خلاصة هذا التفسير أن الطاقة الجنسية هى الطاقة العظمى فى الكائن البشرى ، وهى المسيطرة على طاقاته جميعا ، والموجهة لها ، والمسخرة لها كلها لحسابها الخاص !

يولد الطفل بطاقة جنسية وتسيطر عليه - منذ لحظة مولده - تلك الطاقة الجنسية التى ولد بها ، فيرضع ثدى أمه بلذة جنسية ويتبول ويتبرز بلذة جنسية ، ويمص إبهامه بلذة جنسية ، ويحرك أعضاءه بلذة جنسية ..

ثم ينمو الصبى فيحس تلقاء أمه بشهوة جنسية (كما تحس الصبية بالشهوة الجنسية تلقاء والدها) ولكنه يجد أباه حائلا بينه وبين الاستيلاء على الأم التى يشعر نحوها بتلك الشهوة الجنسية ، فيكره أباه الذى يحبه فى ذات الوقت ويصطرع الحب والكره اللذان يحس بهما فى آن واحد تجاه الأب ، فيكبت الكره فى اللاشعور ، الذى تدفن فيه - ظاهريا - كل الرغبات المكبوتة والمخاوف المكبوتة ولكنها تبقى حية فاعلة مؤثرة موجهة لسلوك الإنسان دون وعى ، ويظهر الحب وحده على السطح لأن ذلك هو الذى يعجب المجتمع ! (أى نفاقا !) ولكن القضية لا تنتهى عند هذا الحد ولا على هذه الصورة . فإن الصبى يأخذ فى حس نفسه مكان والده ، تعويضا عن عجزه عن الاستيلاء على الأم بسبب قيام والده حاجزا بينه وبينها ، فيروح ينهى نفسه ويأمرها كما ينهاه أبوه ويأمره ، فينشأ الضمير ، وتنشأ - فى نفس الطفل - القيم الأخلاقية التى يتعاطاها المجتمع ويرضى عنها ، كما ينشأ الدين من ذات العقدة التى سماها عقدة أوديب (ويقابلها عقدة إليكترا عند البنت) وهى العقدة الناشئة من الكبت الجنسى

لشهوة الصبى الجنسية نحو أمه (وشهوة البنت الجنسية نحو أبيها).

وهكذا تنشأ القيم العليا كلها : الدين والأخلاق،والتقاليد المستمدة من الدين ، من تلك العقدة الناشئة من الكبت الجنسى .

وتتركب النفس الإنسانية من طبقات ثلاث :

الطبقة الشهوانية - التى تسيطر عليها الشهوة الجنسية وتوجهها - وتسمى - عنده - الذات السفلى The Id وهى طبقة لاشعورية ، والذات The ego وهى الطبقة الوسطى التى يتمثل فيها الوعى وتصدر عنها كل التصرفات الواعية للإنسان ، والذات العليا Super Ego التى تتمثل فيها الضوابط « ١ » الناشئة من الدين والأخلاق والتقاليد المتداولة فى المجتمع ، وهى لاشعورية أيضا ، وتنشأ من الكبت الواقع على الذات السفلى الشهوانية .

ومهمة الذات هى التحايل الدائم على الذات السفلى لإقناعها بأوامر الذات العليا ، وإن كانت هى شخصيا لاتؤمن بها ! يقول فرويد : « إن مهمة الذات بين الضغط الواقع عليها من الذات العليا والذات السفلى معا تصبح كمهمة السياسى الذى يعرف الحقائق ولكنه يداور ويناور إرضاء للجماهير !! »

ويتحدث فرويد - كثيرا - عن القيم العليا .. عن الدين والأخلاق والتقاليد . يقول فى كتاب « الطواطم والمحرمات Totem and Taboo » إنه حدثت فى البشرية الأولى حادثة هائلة ماتزال تؤثر فى حياة البشرية إلى هذه اللحظة .

ذلك أن « الأولاد » شعروا بالرغبة الجنسية تجاه أمهم ، فوجدوا أباهم حائلا بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه ! وكانت تلك أول جريمة ترتكب فى البشرية الاولى (وليست هى قتل أحد الأخوين لأخيه كما جاء فى الرسالات السماوية)« ٢ » .

ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فقدسوا ذكراه ، فنشأت أول عبادة عرفتها البشرية وهى عبادة الأب (وليس عبادة الله كما جاء فى الرسالات السماوية)« ٣ »

« ١ » هذه تسميتنا نحن ، أما هو فيسميها الكوابت !

« ٢ » « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك له [سورة المائدة : ٢٧]

« ٣ »« ... وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » [سورة طه ١٢٢] « قالا : ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » [سورة الأعراف : ٢٣] « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم [سورة البقرة : ٣٧]

ثم وجدوا أنهم لو تقاتلوا بينهم للاستيلاء على الأم فسيقتل بعضهم بعضا فاتفقوا على ألا يقربها أحد منهم فنشأ أول تحريم فى العلاقات الجنسية وهو تحريم الأم (وليس لأن الله هو الذى حرمها كما جاء فى الرسالات السماوية [١])

يقول : وكل الديانات التالية والحضارات قد نشأت من ذلك الحدث الخطير الذى لم يدع للبشرية منذ وقوعه فرصة للراحة !!

فإذا سألته عن سنده فى هذه القصة التى يبنى عليها تفسيرا كاملا للحياة البشرية بأديانها وحضاراتها من أول التاريخ إلى آخر التاريخ .. فإنه يجيب .. ولا تحسبه عاجزا عن الاجابة !

يقول : إن دارون يقول : إنه فى عالم البقر تتجه الثيران الشابة إلى الأم لمواقعتها ، فتدور بينهم معركة رهيبة ، يفوز فيها أقوى الثيران وأصلبهم عودا ، فيستولى وحده على الأم ويندحر الباقون !

وبتعديل بسيط ـ أو بتحريف بسيط ! ـ تنقل القصة من عالم البقر إلى عالم البشر ، ويقوم عليها تفسير شامل للحياة البشرية !

ويقول عن الأخلاق فى كتاب « الذات والذات السفلى The Ego and the Id

إنها كوابت تكبت المنطلق الطبيعى للطاقة الجنسية. ويقول إنها تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها العادية !

ويقول عن التسامى Sublimation فى كتاب « ثلاث مقالات فى النظرية الجنسية Three Contributions to the Sexual Theory إنه نوع من أنواع الشذوذ !

« فأما ثالث أنواع الشذوذ فإنه يحدث نتيجة عملية التسامى ، حيث تصرف الطاقة الشهوية الصادرة من منابع جنسية فردية فى مجالات أخرى وينتفع بها فى تلك المجالات ، وبذلك يكتسب الانسان قوة نفسية كبيرة من استعداد نفسى هو فى ذاته خطير ! »

ويقول عن العلاقات البشرية فى كتاب الطواطم والمحرمات Totem and Taboo إن الازدواج العاطفى Ambivilence أى الشعور بالحب والكره فى آن واحد تجاه الشخص الواحد .. وكبت الكره فى اللاشعور وإظهار الحب على

---

[١] « حرمت عليكم امهاتكم .. » [سورة النساء : ٢٣] .

السطح لإرضاء المجتمع ، هو الطابع العام للعواطف البشرية ، فالولد يحب أباه ويكرهه ، ويحب أمه ويكرهها ، والأخ يحب أخاه ويكرهه ، والزوجة تحب زوجها وتكرهه .. والصياح الذى يصيحه الناس على ميتهم هو لإخفاء الفرحة الداخلية التى ملأت نفوسهم لموته !!

ويشرح هذه الظاهرة العجيبة Ambivilence فيقـول إنها تتم بـطريقة لاشعورية وإنه لا تدخل فيها الحالات التى يتوجه فيها الإنسان بالحب لشخص معين ثم يكرهه لأسباب واعية معلومة ! إنما هو كره لاشعورى تلقائى ، ينشأ فى ذات اللحظة التى ينشأ فيها الحب ، ثم يكبت فى اللاشعور ويظل يعمل من داخل اللاشعور !

ويقول فى كتاب الطواطم والمحرمات Totem & Taboo إن الكبت هو طابع الحياة البشرية بسبب وجود الدين والأخلاق والمجتمع وسلطة الأب .. وما إلى ذلك من القوى القاهرة .. وكلها تتجه إلى كبت الطاقة الجنسية فتنشأ العقد النفسية والاضطرابات العصبية التى لا تترك صاحبها فى راحة ..

ويقول فى معظم كتبه : إن كل الأطفال « الذكور » يصابون بعقدة أوديب فى أول طفولتهم .

ويقول فى كتاب « ثلاث مقالات Three Contributions » : نحن جميعا مصابون بالهستريا إلى حد ما :

تلك خلاصة آرائه وأفكاره عن النفس البشرية والعلاقات الانسانية .. ولن نتعرض لها هنا بالمناقشة .. « ١ »

إنما نحن هنا نستعرض مكانها من المخطط الشرير ، كما استعرضنا مكان ماركس من قبل .

يريد اليهود أن يشكلوا المجتمع الجديد الذى وقع فى قبضتهم من أول لحظة على أساس أن يكون مجتمعا بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد مستمدة من القيم الدينية .. فيجىء عالمهم النفسانى الكبير ليمسـخ الدين والأخلاق والتقـاليد بطريقة « علمية » !

فالدين نابع من الجنس .. من عقدة أوديب .. من كبت الشهوة الجنسية التى يحسها الطفل الذكر نحو أمه !

« ١ » سبق لى مناقشتها فى كتاب « الانسان بين المادية والاسلام » فى فصلى « فرويد » و« القيم العليا » .

ويجب ـ لكى نفهم اللعبة كاملة ـ أن نتذكر كيف كان إحساس أوروبا بالجنس لنعلم رد الفعل الأوروبى حين يقول لهم فرويد إن الدين نابع من الجنس !

كان الجنس فى حس أوروبا أمرا مستقذرا إلى أقصى حد ، بسبب تزمت الكنيسة فى تفسير تعاليم السيد المسيح ، وبسبب الدعوة إلى الرهبانية . وكانت أعلى درجات التقى والورع تتمثل ـ ابتداء ـ فى الابتعاد عن الجنس ، المباح منه وغير المباح ، وذلك أبرز ما فى الرهبانية . ويصل الأمر فى حسهم إلى اعتبار المرأة فى ذاتها دنسا لايجوز أن يمس ، إلى حد أن واحدا من كتابهم ينصح الناس فيقول : إذا لقيت امرأة فى الطريق فلا تسلم عليها ولو كانت أمك !

وفى هذا الجو يجىء « العالم النفسانى الكبير ! » فيقول إن الدين نابع من الجنس ! فأى هوة مستقذرة يهبط فيها الدين من عليائه ؟!

وهب أن الناس جميعا لم يصدقوا فرويد فى ادعاءاته « العلمية ! » (وإن كانت دعاية اليهود له وترويجهم المدبر لآرائه « ١ » قد جعل بعض الناس يصدقون ، بل يتحمسون فى التصديق !) فإن شيئا ما يحدث فى النفس من قراءة فرويد هو ـ على الأقل ـ إزالة القداسة عن الدين !

إنما تأتى قداسة الدين فى النفوس من أنه شىء منزل من عند الله ، وأنه هو الصلة بين القلب البشرى والإله المعبود ، تلك الصلة العلوية التى ترفع النفس إلى الآفاق العليا ، وتطلق الأرواح ترفرف فى عالم النور .

فإذا جاء « عالم » يقول ، ويظل يلح فى القول ، وتظل الدعاية تلح على قوله : إن الدين أمر أرضى بحت ، ومصنوع فى داخل النفس لا علاقة له بالله ولا برفرفة الأرواح فى الآفاق العليا .. وأكثر من ذلك أنه « معجون » بماء الجنس المستقذر يومئذ فى حس الناس .. فهل تتوقع أن تبقى للدين قداسة فى النفوس ؟!

يقول « يونج Jung » أحد تلميذى فرويد المقربين(والآخر هو أدلر Adler) فى كتاب سماه « ذكرياتى عن فرويد Memorials of Frued » صدر فى الستينات : « لقد قال لى فرويد إننا ينبغى أن نحطم كل العقائد الدينية : We must abolish all dogmas » وقال لى : ينبغى أن نجعل من الجنس عقيدة We must make sex a dogma »

« ١ » انظر البروتوكول الثانى من بروتوكولات حكماء صهيون .

ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ! فالدين ذو القداسة يلقى به فى دنس الجنس ، والجنس المستقذر يرفع إلى مقام الدين !!

ويريد اليهود أن يحطموا الأخلاق وينشئوا مجتمعا منحلا يسهل فيه تسخير « الحمير » لشعب الله المختار .

فأى معول أشد تحطيما للأخلاق من دعوة « العالم النفسانى الكبير » للأولاد والبنات أن ينطلقوا لتلبية نداء الجنس أنى شاءوا بلا حواجز ولا قيود ؟! ومن إدعائه أن الدين الذى يأمرهم بوضع الضوابط لطاقة الجنس هو أمر سخيف لايستحق الاحترام ؟! ومن وصفه للأخلاق بأنها تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها العادية ؟! ومن دعواه بأن أى قيد على الإطلاق يوضع فى طريق الطاقة الجنسية يورث الكبت ويكوّن العقد النفسية والاضطرابات العصبية ؟! وأن التسامى نوع من الشذوذ ؟!

لقد آتت هذه الدعوة ثمارها بالفعل ، وكانت أكبر مشجع للأولاد والبنات أن ينطلقوا مع دافع الجنس بلا حواجز خوفا من الكبت والعقد النفسية ! وأن ينظروا إلى الدين - الذى يحجزهم - على أنه قيد مناف للعلم ، لا يستحق الإصغاء إليه،كما قام علم التحليل النفسى الذى أنشأه فرويد لأهدافه الخاصة« ١ » بعملية التبرير الضخمة للفساد الخلقى الذى حدث بالفعل !

يقول الكاتب الانجليزى « ألدوس هكسلى Aldous Huxley » فى كتابه « Texts and Pretexts » إن المحلل النفسى يقف - لامحالة - إلى جانب المجرم الأخلاقى :

The psycho-analyst is inevitably on the side of the immoralist

وليست هناك حتمية فى الحقيقة ، ولكن هذا هو التحليل النفسى على طريقة العالم اليهودى الكبير !

ويريد اليهود أن ينشئوا مجتمعا متفككا لا روابط فيه ، ذلك أن الروابط - من أى نوع - تبطئ عملية التحلل ، وتبطئ تحويل الأمميين إلى دواب الحمل التى يركبها بنو إسرائيل ويسخرونها لمصالحهم .. فيجيء العالم النفسانى الكبير فيقول بطريقة « علمية » إنه لاتوجد فى حقيقة الأمر روابط بين البشر ! لا بين الولد وأمه ، ولا بين الولد وأبيه ، ولا بين الزوج وزوجته ، ولا بين الأخ وأخيه

« ١ » من عجيب « المصادفات !! » أن معظم القائمين بالتحليل النفسى فى « العيادات النفسية » هم من اليهود !

فضلا عن أن تكون هناك روابط بين الغرباء الذين لاتصل بينهم صلة القربى ! إنما كل إنسان فى الأرض يكره الانسان الآخر فى قرارة نفسه ويتمنى له الزوال !

باختصار لقد كانت مهمة « العالم النفسانى » هى تغطية الفساد الضخم الذى تدبره العصابة الشريرة فى الأرض ، بإعطائه « التبرير العلمى » ! الذى يجعله أمرا طبيعيا لايستنكر ! ويصبح المنكر عليه هو الرجعى المتأخر الذى يصدر عن الجهل بحقائق العلم ، والتمسك بالخرافات السخيفة ، أو المثاليات التى لاتقل عنها سخفا ولا مكان لها فى واقع الحياة !

دور كايم

إميل دور كايم « دورك هايم أو دورك حاييم ! » يهودى فرنسى ولد عام ١٨٥٨ ومات عام ١٩١٧ وتخصص فى علم الاجتماع وله فيه كتب من أشهرها « مقدمة فى علم الاجتماع » .

وقد لاتكون له شهرة عند الجماهير كماركس وفرويد ، ولكن له شهرته الواسعة بين « علماء الاجتماع » ويتتلمذ عليه - أو على فكره - كل من يقوم بتدريس علم الاجتماع فى الجامعات والمدارس فى عالم الأميين إلا من رحم ربك ! وعلى أى حال فقد أدى « مهمته » فى الميدان الذى تخصص فيه ، ووجه حملته - مع زملائه الآخرين من كبار « المفكرين » اليهود - إلى تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد .

أخذ دور كايم عن داروين التفسير الحيوانى للإنسان ، ومدده ليغطى ميدان العلاقات الاجتماعية . ولقد أسلفنا أن داروين نفسه لم يكن عالم اجتماع ولا اقتصاد ولا علم نفس ، إنما كان متخصصا فى علم الحياة ، أى فى مظاهر الحياة فى « أجسام » الكائنات الحية . وحين وصل - فى سلسلة التطور الحيوانى - إلى الإنسان ، وألحقه بعالم الحيوان ، كان يدرس مظاهر الحياة فى « جسم » الإنسان ووظائف أعضائه ، دون أن يتعرض للجوانب الأخرى التى ليست من اختصاصه .

ولكنا قلنا إن نظريته - بالصورة التى قدمها بها ، لا بماتحويه من معلومات علمية بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها من الوجهة العلمية - كانت تحوى إيحاءات معينة لمن أراد أن يستخلصها ويستخدمها ، مبنية كلها على

فكرة حيوانية الإنسان وماديته . وإن أحدا لم يستخلصها ويستخدمها فى الحقيقة إلا اليهود .

ودور كايم واحد ممن فعلوا ذلك فى ميدان تخصصه وهو علم الاجتماع .

وخلاصة آرائه أن الكائن البشرى محكوم « بنزعة القطيع » التى تحكم عالم الحيوان وتسيره دون وعى منه ولا إرادة .

ولئن كان فرويد قد قالها دون مداراة ، حين زعم أن البشرية الأولى قتلت أباها لتستولى على الأم ، مستندا إلى أن دارون قد قال مثل ذلك عن عالم البقر ، فإن دوركايم لم يشأ أن يستخدم المصطلح الحيوانى مباشرة ، فلم يسمها - فى عالم الانسان - « نزعة القطيع » وإنما سماها « العقل الجمعى » ، ونسب إليها فى عالم الانسان كل ماينسب فى عالم الحيوان إلى نزعة القطيع .

وبعض كلامه عن العقل الجمعى معقول ، وتكلم عنه كثير غيره من العلماء والمفكرين وسموه « المشاركة الوجدانية » وهى حقيقة واقعة فى عالم البشر . ولكنه لم يرد أن يستخدم هذا المصطلح لأنه لايخدمه فيما كان يهدف إليه ، ذلك أن للمشاركة الوجدانية حدودا معروفة تقف عندها ، وصورة أو صورا معينة تمارس فى نطاقها ، لاتلغى شخصية الفرد الإيجابية ولا إرادته ، لأنها تصدر عن « الذات » ولاتلغيها ، وقد تكون فى كثير من الأحيان غير إرادية ولكنها لاتلغى الإرادة . إنما هى تأثر معين من شىء خارجى ، يستتبع مشاعر معينة أو أعمالا معينة يقوم بها الإنسان لمشاركة الآخرين فيما يراه من أحوالهم ، ولكنه يظل شاعرا أنه « هو » الذى يقوم بها ، وأنه يقوم بها لأنه يريد - ولو إرادة مؤقتة - أن يشارك الآخرين فيماهم فيه .

أما الصورة التى يريد دور كايم أن يرسمها للبشرية فهى صورة مختلفة ، يريد أن يلغى فيها شخصية الفرد إلغاء كاملا ويلغى إرادته . ليجعله يتقبل مايلقيه إليه « العقل الجمعى » من أوامر وتوجيهات بلا وعى منه ولا إرادة !

يستمد دور كايم أمثلته وقواعده مما قام به « الغوغاء » فى الثورة الفرنسية من قتل وتحطيم وتخريب وقع من أناس « عاديين » لم يحدث منهم القتل والتخريب من قبل ، ولو طلب منهم أفرادا لامتنعوا عنه ، ولكنهم قاموا به فى سرور بالغ بل فى نشوة وحشية وهم فى وسط « المجموع » .

وبصرف النظر عن يد اليهود الخفية فى توجيه الثورة وجهات معينة ، فإن هذه - فى ذاتها - حقيقة : أن « الغوغاء » تقوم بمثل هذه الأعمال حين توجه

إليها ، بينما معظم الأفراد من هذه الغوغاء لو طلب منهم أن يقوموا بها أفرادا لامتنعوا واستنكروا .

وكثير من المفكرين لفتتهم هذه الظاهرة ، وردوها إلى « المشاركة الوجدانية » أو إلى نزعة « مكبوتة » إلى التخريب والتحطيم ينفلت قيادها حين يوجه الغوغاء إلى ذلك،فينطلقون ـ وقد انحلت العقدة ـ يفعلون ما يخطر على بالهم من وحى اللحظة ، متشجعين على الشر بكونهم كثرة غالبة والواقف فى طريقهم قلة مغلوبة .. بل ردها بعضهم إلى « نزعة القطيع » مباشرة ، على أساس أن هذا القطيع البشرى فى حالته الجنونية التى يكون عليها ، بلا عقل ولا وعى ، هو أشبه بالحيوان،تحركه بالفعل نوازع الحيوان،ما دام قد غاب عنه العقل الذى « يعقل » تصرفاته (أى يقيدها) .

وأيا كان الرأى فقد نظر المفكرون إلى هذه المظاهر على أنها حالة خاصة تصيب الجماهير حين تجتمع فى حالة غضب أو استثارة . ولكن دوركايم جعلها قاعدة الحياة البشرية كلها ، والأساس الذى تنبنى عليه كل تصرفاتها ، مستندا إلى الحالتين اللتين يكون الوعى والإرادة فيهما مفقودين تماما أو شبه مفقودين ، وهما حالة الطفل وحالة الغوغاء . فأما الغوغاء فأمرها معروف ، وأما الطفل فإنه يولد ولا حول له ولا قوة ، فيتلقى الأوامر والتوجيهات من أبويه ومن المجتمع المحيط به ، فيتشكل منذ صغره بالطابع الذى عليه المجتمع ، فتصاغ له أفكاره ومعتقداته وأنماط سلوكه دون أن تكون له إرادة فى ذلك ولا رغبة ذاتية ، ولا مشاركة إيجابية فى صياغة تلك الأفكار والمعتقدات وأنماط السلوك .. وهكذا تخرج البشرية جيلا وراء جيل .

ولكنه يلحظ ـ بل يؤكد لغاية معينة فى نفسه ـ أن الأفكار والمعتقدات وأنماط السلوك تتغير من جيل إلى جيل .. وهنا يقتنص الخيط الذى يريده فيقول إن هذا يحدث من تأثير العقل الجمعى ، الذى يتغير على الدوام ولا يثبت على حال !

ويعرّف العقل الجمعى بأنه شىء كائن خارج عقول الأفراد ليس هو مجموع عقولهم ، ولا يشترط أن يكون موافقا لعقل أحد منهم ولا لمزاجه الخاص (عقل من هو إذن ؟!) وأنه يؤثر فى عقول جميع الأفراد من خارج كيانهم ولا يملكون إلا أن يطيعوه ولو على غير إرادة منهم !

ثم يقول إنه دائم التغير .. يحل اليوم ما حرمه الأمس .. ويحرم غدا ما أحله اليوم .. بلا ضابط ولا منطق معقول !

ويقول ـ وهو بيت القصيد ـ إنه لايمكن من ثم تصور ثبات شيء من القيم على الإطلاق : لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد ! وإن النظر إلى هذه الأمور على أنها أمور قائمة بذاتها هو تفكير غير معقول !

يقول : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هى أشياء من الفطرة ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان !

أرأيت إلى العالم الكبير ! إنها ليست فطرية فى الانسان !

وبكلمات قليلة معدودة يلغى العالم الكبير كل مقدسات البشرية !

أما الفرد الممتاز ، نبيا كان أو مصلحا أو قائدا ، الذى يقف فى وجه المجموع ويغير اتجاهه .. فهذا ملغى إلغاء كاملا من حساب دوركايم ـ مهما قالت وقائع التاريخ ! ـ لأنه لايخدم أهدافه ! لأنه ـ من ناحيةٍ ـ يلغى أسطورة « العقل الجمعى » الذى يحكم الناس من خارج كيانهم دون أن يملك أحد الوقوف فى طريقه ، ولأنه ـ من ناحيةٍ أخرى ـ يشير إلى « قيم ثابتة » فى حياة البشرية منها الدين والأخلاق والزواج والأسرة ، لأن كل الأنبياء والمصلحين دعوا إليها وكانوا دعائم فى تثبيتها خلال القرون الطويلة التى عاشتها البشرية قبل أن يأتى القرن اليهودى،الذى يعيث فيه اليهود مفسدين فى الأرض،ويحطمون كل القيم الثابتة فى حياة البشرية !

والإنسان كذلك فى عرف دوركايم شيء لا كيان له ولا فطرة ولا سمات محددة !

لأن « الكيان » أو « الفطرة » يشيران إلى شيء « ثابت » لايمكن تغييره أو « لايجوز » تغييره .. وهذا أمر لايخدم أهدافه ولا أهداف قومه الذين يريدون مسخ الفطر البشرية لأمر فى نفوسهم .

إنما الإنسان وعاء يتشكل بالشكل الذى يراد له ؛ والمريد ، الفعال لما يريد عند دوركايم ، هو العقل الجمعى الذى يتغير على الدوام،ولا يثبت على صورة ولا يثبت على حال !

ولسنا هنا نناقش دوركايم فقد ناقشناه فى غير هذا الكتاب ، إنما نحن هنا نفسره .

لقد أراد اليهود ـ ونفذوا بالفعل ـ إنشاء مجتمع تنعدم فيه « القيم الثابتة » . مجتمع بلا دين ولا أخلاق ولا زواج ولا أسرة ولا تقاليد .

وهنا يأتى « عالم الاجتماع الكبير » للتغطيـة الكاملة عـلى دور اليهود فى تحطيم هذه القيم .

فأولا : ليس الذى يقوم بتحطيم القيم وإفساد المجتمع فئة محددة من البشر يمكن الإشارة إليهم بأعيانهم ويمكن محاسبتهم على ما اقترفت أيديهم ، إنما هو العقل الجمعى ! وأنى لك أن تمسك بالعقل الجمعى وتحـاسبه ، وهـو الذى لايمكن الإمساك به لأنه ليس له مكان محدد ولا كيان محدد ، ثم إنه لايسأل عما يفعل لأنه هو القاهر فوق العباد !!

وثانيا : فإن الذى يقوم به العقل الجمعى (الذى صنعه اليهود بأنفسهم !) ليس « تحطيما » للقيم ، وإنما هو مجرد « تغيير » على سنة العقل الجمعَى فى التغير الدائم وعدم الثبوت على حال ! و « القيم الثابتة » إن هى إلا أسطورة توهمها الناس فى جهالتهم قبل أن يجىء العالم الكبير لتنويرهم .. وقد قال لهم العالم الكبير إنها ليست فطرية فى الإنسان !

وثالثا : إنه لاقبل للناس بوقف التغيير ! لأنه يحدث من خارج كيانهم ! (وقد كان من خارج كيانهم بالفعل ! ولكن لا لأنه « عقل جمعى » ولكن لأنهم تركوا الدين فركبهم الشيطان : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنـوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »« ١ »« وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله . وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم »« ٢ ») ..!

وهكذا قام العالم الكبير بالتغطية على دور اليهود فى الإفساد فى الأرض فى صورة « علم » يدرس فى كل جامعـات الأرض ، ويتربى عليـه « علماء » من الأمميين يتعصبون له كأنما هم واضعوه ، أو كأنمـا هو الحق الذى لايـأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

« ١ » سورة النحل [٩٩ ـ ١٠٠]
« ٢ » سورة النساء [١١٧ ـ ١١٩]

٢- واقع المجتمع الصناعى

لئن كان « علماء » اليهود قد أدوا دورهم « العلمى » فى توهين عرى الدين والأخلاق والتقاليد ، والقول بكل طريقة ومن كل زاوية بـأنها سخف لاينبغى للإنسان المتحضر أن يتمسك به ، وأوهام لاينبغى الاحتفاظ بها فى عصر العلم ، وقيود تعوق الانطلاق ، وصناعة بشرية بحتة من حق البشرية أن تـراجعها وتعدلها أو تلغيها أو تعمل بعكسها « ١ » ..

لئن كان « العلماء » قد قاموا بهذا الدور فقد كانت عصابات أخرى تقوم فى ذات الوقت بعملية لا تقل خطورة ـ بل قد تكون أشد خطورة ـ هى إقامة مجتمع فى عالم الواقع ، منسلخ من الدين والأخلاق والتقاليد ، قائم على غير أساس منها .. وهكذا تجتمع النظريات والواقع على هدف محدد ، يساند بعضها بعضا ويساعد بعضها بعضا ، فالنظريـات تمهد للواقـع وتسنده ، والواقـع يشهد للنظريات ويؤكدها ! وبين ذراعى الكماشة الشريرة يقع « الأمميون » فى أوروبا أولا ، وفى الأرض كلها بعد ذلك ، تعصرهم عصرا وتمسخهم مسخا !

قلنا من قبل إن المجتمع الصناعى قد وقع فى قبضة اليهود منذ اللحظة الأولى بسبب قيام اليهود المرابين بتمويل الصناعة الناشئة عن طريق الإقراض بالربا ، فأصبح فى مكنتهم السيـطرة على هـذا المجتمع وتشكيله عـلى الصورة التى يرغبونها لأن فى يدهم أداة السيطرة الكبرى على ذلك المجتمع وهى رأس المال .

ونريد هنا أن نفصل هذا القول شيئا من التفصيل مستنـدين إلى وقائـع التاريخ .

« ١ » من الأسماء الهامة فى هذا الشأن « فريزر Frazer » واضع البذرة الأولى لعلم مقارنة الأديان وصاحب الكتاب الشهير « الغصن الذهبى The Golden Bough » الذى قال فيه صراحة إن الدين بضاعة ارضية بحتة من صنع البشر ، وإن العقيدة قد تطورت على مر الازمان ، ما بين عبادة الأب ، إلى عبادة الطوطم إلى عبادة قوى الطبيعة ، إلى عبادة الأفلاك ، إلى عبادة الأصنام .. إلى عقيدة التوحيد .. وأعطى الإيحاء بأن عقيدة التوحيد ـ بوصفها صناعة بشرية ـ هى مجرد مرحلة على الطريق .. وأن العلم ـ فى العالم المتحضر ـ يحل فى النهاية محل الدين . وكانت أبحاثه منصبة على القبائل المنعزلة المتأخرة فى أفريقيا وآسيا واستراليا ليستخدمها وسيلة للقول بأن الأديان « السماوية » المتأخرة إن هى إلا امتداد للديانات الوحشية التى عرفتها القبائل الأولى فى بداوتها وخاصة فيما يتعلق بالمحرمات و« بأسطورة ! » الطوفان ، التى قال إنها وجدت عند اكثر القبائل انعزالا واشدها بعدا عن الاتصال بالعالم « المتحضر ! » ومع ذلك قلب دلالتها قلبا كاملا ، فبدلا من أن يقول إن ذلك دليل أكيد على صدقها التاريخى ، قال إنها أسطورة أخذتها الأديان المتأخرة من الأديـان السابقـة !! والغالب انه ـ كداروين ـ لم يكن يهوديا ، ولكن اليهود استغلوا « علمه » استغلالا واسعـا كما صنعـوا مع داروين .. وسيأتى الحديث عنه عند مناقشة التفسير المادى للتاريخ .

كانت الثورة الفرنسية ـ التى كسب فيها الأمميون شيئا من الكسب مشوبا بكثير من الخسران ، وكسب فيها اليهود كسبا خالصا لمخططهم الشرير – أول معول فى تحطيم الإقطاع والتمهيد للثورة الصناعية .. ومن فرنسا انتشرت « مبادئ » الثورة الفرنسية وشعاراتها التى وضعها لها الماسونيون اليهود : « الحرية والإخاء والمساواة »فعمت أوروبا كلها وحطمت أسس الإقطاع فيها ، وحررت « العبيد » ليكونوا غذاء للثورة الصناعية .. ووقودا لها كذلك !

وفرح العبيد المحررون فرحة عظيمة ولا شك بتلك الحرية .. فالحرية دائما محببة إلى النفوس ، والقيد بغيض ولو تبلدت النفوس عليه عدة قرون !

وانطلقوا إلى المدن فى هيئة عمال فى المصانع .. وكانت المدينة فى ذاتها سحرا هائلا فى أنفسهم ، فهكذا ينظر أهل الريف دائما إلى المدينة ولو كانوا فيها غرباء .. أما هؤلاء فقد كانت الغربة بالنسبة إليهم عارضا زائلا ، فسرعان ما أصبحوا سكانا فيها أصلاء . ولقد كانت حرية التنقل فى ذاتها كسبا ضخما طربت له نفوس العمال بعد إذ كانوا مقيدين بالأرض مشدودين إليها لايملكون مغادرتها ولو إلى الأرض الملاصقة لإقطاعيتهم .

ثم لقد أصبحوا أجراء « أحرارا » بعد أن كانوا من العبيد .. صاروا يعملون ويقبضون فى نهاية الأسبوع أجرا نقديا يمسكون به فى أيديهم وينفقونه كيف شاءوا ليس لأحد عليهم سلطان .

وكان لكل هذا نشوة تطرب لها النفوس ..

ولكن هذه النشوة لم تدم طويلا على أى حال .. فقد انكشف الواقع الجديد عن صعوبات لم تكن مقدرة حق قدرها فى بادئ الأمر .. فساعات العمل طويلة ومضنية والأجر مع ذلك قليل إذا قيس بمطالب المدينة وارتفاع أسعار الحاجيات فيها . ففى الريف لم يكن يدفع الناس أجرا للمسكن سواء كانوا أجراء أحرارا أو أقنانا يعملون فى الأرض ، فمساكن القرية تورث جيلا بعد جيل يتربى فيها كل جيل جديد لا يدفع فيها أجرا حتى ولو لم يشعر بملكية حقيقية لها لأنها ملك للسيد الذى يملك الأرض بما عليها ومن عليها ملكية حقيقية أو معنوية .. وفى الريف لا يتكلف الناس لطعامهم وشرابهم كثيرا من المال ، فمن منتجات الألبان ومنتجات الدواجن يأخذون اللبن والزبد والبيض واللحم (فى المواسم على الأقل) ومما يزرعون يأخذون خبزهم وبقولهم وخضرهم فلا يكادون يحسون

أنهم دفعوا فيها شيئا يذكر ، وإن كانوا فى الحقيقة يدفعون جهدهم كله فى عمل مضن طوال العام ، ويدفعون من كرامتهم وإنسانيتهم .

والآن تغير الحال .. كثيرا ..

لم تعد وطأة « السيد » ذات وقع حسى مباشر كما كانت فى ظل الاقطاع ، وإن كانت الوطأة المعنوية قائمة ولا شك .. قائمة فى حاجة العمال إلى العمل من أجل الحياة ، وغطرسة صاحب المصنع وتكبره وتجبره وتقتيره فى الأجور ..

ثم إن العمل ذاته له وطأة .. وهى وطأة حسية إلى جانب السطوة المعنوية لصاحب العمل . فهو عمل متواصل فى إدارة الآلات - وكانت فى مبدأ الأمر تحتاج إلى جهد بدنى كبير فى إدارتها - وليس من نوع العمل الريفى الذى كان مضنيا - نعم - ولكنه مرن فى أدائه إلى حد ما . فأنت فى الحقل حر - نسبيا - فى أن تبدأ عملك بعد الفجر مباشرة أو بعد ذلك بساعة ! وحر - نسبيا - فى أن تشغل المحراث ثلاث ساعات متوالية أو تشغله ساعة بعد ساعة بعد ساعة ! وحر - نسبيا - فى أن تجمع المحصول اليوم أو تجمعه غدا .. وحقيقة إن « السيد » دائما هناك .. ووكيله الذى يشرف على عمل الفلاحين قاعد بالمرصاد يؤز الفلاحين للعمل أزا ولا يتركهم فى راحة .. ولكنه لا يستطيع أن يقف طيلة النهار على رؤوسهم ! ومن ثم يتنفسون بين الحين والحين ، فى حديث خاطف أو قصة مروية .

أما السيد الجديد فلا يتيح شيئا من ذلك .

صحيح أنه ليس له سوط يمسك به هو أو عامله (وكيله Steward) ليهوى به على ظهور العمال إن توانوا عن العمل ، ولكن فى يده سوطا معنويا لا يقل إيذاء وهو الخصم من الأجر أو الطرد من العمل !

ثم إن الأجر - حتى إن سلم من هاتين الآفتين جميعا - ضئيل بالنسبة لمطالب الحياة .

صحيح أنه - من حيث الكم - أضعاف ما كان يحصل عليه فى الريف ، ولكنه إذا وزع على المسكن والملبس والمطعم والمشرب لم يكد يفى بكل ذلك ولو على مستوى الكفاف .

ثم إن هناك أمرا هاما جدا فى هذه الحياة الجديدة كان له خطره البعيد فى تشكيل صورة المجتمع الصناعى الناشئ وإعطائه الطابع الذى يوافق هوى الشياطين .. فإن الأجر الضئيل الذى يتناوله العامل ولا يكاد يفى بحاجته لم

يكن يسمح بحال بإنشاء أسرة فى المدينة ذات التكاليف . ومن ثم جاء العمال عزابا إلى المدينة ـ وهم فى سن الشباب والفتوة ـ أو إن كانوا متزوجين تركوا أسرهم فى الريف وعاشوا فى المدينة كالعزاب ..

وأضيفت إلى متاعب الحياة فى المدينة جوعة الجنس ، وهى جـوعة ليست باليسيرة بالنسبة للشباب فى مثل هذه السن ، وما كان يفد للعمل إلى المدينة إلا الأقوياء ذوو الأجساد .

هل كان ذلك كله من تدبير اليهود أم هم استغلوه ؟!

يستويان ..

والأغلب أنه لم يكن من تخطيط اليهود ، إنما هو من جشع أصحاب الأموال وأصحاب الصناعات يهوداً وغير يهود .. ولكن المؤكد أن « الحل » الذى قدم لهذه الأزمة كان هو الحل اليهودى الخالص الذى يعمل فيه اليهود من قديم ..

كان الحل هو البغاء !

لم يكن هو بغاء « السادة » الذى تعرفه « المدينة » من قديم .. فـالمدينـة الأوروبية كانت دائما تعرف ذلك اللون من البغاء الذى ينفق فيه السادة أموالهم الحرام ـ المغتصبة من دماء الفلاحين والعبيد ـ فى طلب اللذة المحرمة ، وكان اليهـود ذوى صلة تاريخيـة بذلك البغـاء يـوقعـون فى حبـائله السـادة من « النبلاء » ! ويسلبون به ما يقدرون على سلبه من أموالهم ، حتى يلجئوهم إلى الاستدانة منهم بالربا ذى الأضعاف المضاعفة ، ويفلس منهم فى النهاية من يفلس وتئول أمواله إليهم !

ولكن هذا البغاء الجديد كان بغاء « شعبيا » خالصا لقاء دراهم معدودات !

وفرك اليهود أيديهم سرورا فقد أمسكوا بأول الخيط ! الخيط الذى يجر « الأمميين » إلى حيث يريد لهم الشيطان .

وجاءت الخطوة التالية ..

فقد بدأ العمال يضربون عن العمل جماعات .. يطلبون تخفيض ساعات العمل وزيادة الاجور ..

وفى دستور الرأسمالية ـ غير المكتوب ـ أنها ينبغى أن تحتفظ دائما بجيش من العاطلين تستخدمهم حين يضرب العمال العاملون حتى لايتوقف العمل من جهة ، وحتى يضربوا حركات الإضراب من جهة أخرى،فيضـطر العمال إلى الرجوع إلى أعمالهم صاغرين !

ولأمر ما استخدمت الرأسمالية المرأة العاملة لتضرب بها حركات العاملين من الذكور .. وأعطتها نصف الأجر ، وهى تعمل ذات القدر من العمل وذات العدد من الساعات !!

هل كان هذا من تدبير اليهود أم هم استغلوه ؟!

الأغلب أنه لم يكن من تدبيرهم ، وإن كان أشبه بتفكيرهم الشيطانى .. ولكن المؤكد أنهم استغلوه إلى أقصى طاقة الاستغلال،وجعلوه أداة لتنفيذ كل مخططهم الشرير ..

لم يقدم على العمل فى بادئ الأمر إلا أفقر الفقيرات .. فقد كان عمل المرأة فى المصنع عارا هائلا جدا فى حس المجتمع الخارج لتوه من الإقطاع ، لم ينسلخ بعد انسلاخا كاملا من كل قيمه ومثله وأخلاقياته وتقاليده .

كانت المرأة فى الريف تعمل - بالطبيعة - فى بيتها ، فتربى الدواجن وتستخرج من اللبن منتجاته ، وتنسج على المنسج اليدوى .. وما إلى ذلك من الأعمال كما كانت تساعد زوجها فى أعمال الحقل فى حدود معينة .

وكان الريف متعارفا على هذا الأمر من قديم ، وكان يحوط عمل المرأة بسياج معين من الأخلاق ، والتقاليد المستمدة من الدين ، فلا يحدث الاختلاط بالغرباء فى غير ضرورة ، ولا تحدث الفاحشة إلا شذوذا مستنكرا أشد الاستنكار فى ذلك المجتمع المحافظ إلى درجة التزمت . والزواج المبكر يغنى الشباب من الجنسين عن الصلات المحرمة ، ويقيم الأسرة على أساس من القيم المتوارثة النابعة كلها من الدين .

ولكن المرأة التى تركها عائلها وذهب « متحررا » إلى المدينة ، ولم يعد لها عائل غيره ، كانت مضطرة إلى العمل وإلا ماتت جوعا على الحقيقة لا على المجاز ! فما كانت الجاهلية الأوربية التى لاتطبق شريعة الله تعرف ماتصون به المرأة من الجوع والآثار المترتبة على الجوع !

إن شريعة الله قد صانت المرأة فى جميع أحوالها أما وبنتا وزوجة وأختا ، فرتبت لها عائلا يعولها فى جميع حالاتها سواء كان ولدا أو والدا أو زوجا أو أخا أو قريبا من الأقرباء يكلف تكليفا بإعالتها وصيانتها ، ويكون مسئولا عن ذلك أمام الله وأمام شريعة الله ، بحيث يؤخذ من ماله قسرا إن كان ذا مال وحجبه عن الإنفاق ! فإن لم يكن لها أحد يعولها بالمرة - وهو أمر نادر فى مجريات الحياة العادية - فبيت المال فى الإسلام يكفل من لا عائل له ، رجلا أو طفلا أو

أمرأة .. وهكذا لاتوجد امراة فى المجتمع الإسلامى الذى تحكمه شريعة الله تضطر إلى العمل لكى تعول نفسها ، فضلا عن أن تعول سواها كما حدث فى المجتمع الصناعى « المتطور » !

أما فى تلك الجاهلية فقد وجد فى الريف نساء كثيرات بغير عائل،لأن عائلهن تركهن وذهب إلى المدينة ثم عجز عن الإنفاق عليهن .. أو شغله البغاء عن بناء أسرة وتحمل تكاليفها ..

وشيئا فشيئا اضطر هؤلاء النساء إلى الهجرة إلى المدينة للعمل هناك ، حيث التقطهن أصحاب المصانع يضربون بهن حركات العمال المطالبة بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور .. وعاملتهن الجاهلية بتلك الفظاظة الفذة ، فأعطتهن نصف الأجر على نفس العمل ونفس الساعات !

ولكن الأمر لم يقف مع الجاهلية عند هذا الحد .. فالمرأة دائما « صيد » والمرأة المحتاجة صيد ميسر !

وساومها « الرجل » الذى تعمل عنده .. إما أن تفرط فى عرضها وإما أن تعود إلى الجوع الذى فرت منه !

ولم تكن الجوعة فى الحقيقة هى جوعة المعدة فحسب ، وان كانت هذه كافية للسقوط ! إنما كان إلى جانبها الحاجة الفطرية الطبيعية إلى الجنس ، والحاجة إلى اللباس والزينة،وهى بالنسبة للمرأة ليست كلها كماليات ! وسقط من « الرعيل » الأول من العاملات من سقط .. وفتحن الطريق ! ووجد اليهود صيدا سهلا يشغلونه فى صناعتهم العتيقة « العريقة » ! صناعة البغاء .

وكتبت الصحافة الأوربية كثيرا وكثيرا جدا عن البغاء باعتباره « ضرورة اجتماعية » ! وأنه ينبغى أن يكون رسميا وأن يكون تحت إشراف الدولة !!

وإذا علمنا - كما سنذكر فيما بعد - أن الصحافة الأوربية كانت - وماتزال - تحت سيطرة اليهود ، علمنا لحساب من كانت تكتب هذه الصحافة عن البغاء و« تزكيه » !

ولو أن هؤلاء « الأمميين » فى أوربا كانت لديهم ذرة من تفكير لعجبوا على الأقل - ولانقول استنكروا ورفضوا - أن تكون « الدولة » هى حارسة البغاء وحاميته وراعية شئونه !

أى سخرية سخرها اليهود من الأمميين ، وهم يلعبون بهم على هذا النحو

الشائن ؟! ويسقونهم السم فيشربونه بلا روية .. سم يمسخ الأرواح ويذهب بالعقول ..

وأيا كانت التعلات التى قدمت لتبرير البغاء ، وتبرير إشراف الدولة عليه ورعايته ، فهى سخرية المساخر فى الجاهلية المعاصرة ، وقمة من قمم التمكن اليهودى من « الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار » !

ورويدا رويدا أصبح البغاء الرسمى وغير الرسمى حقيقة واقعة فى المجتمع له صفة « الشرعية » الكاملة ، وتتحدث عن « تنظيمه » القوانـين .. وأصبح الذى يستنكر هذه الأوضاع رجعيا متزمتا ، أو جاهلا مخرفا ، أو منافقا تافها ، أو « مثاليا » يعيش فى الأوهام ! وأصبحت هذه هى « الواقعية » الجديدة التى يـدافع عنهـا الكتاب والخـطباء والصحفيـون والقصصيون والروائيـون .. والمحللون النفسانيون !!

غير أن المسألة لم تقف عند هذا الحد ، وإنما « تطورت » كثيرا .. فقد كثر العاملات فى المصانع ، اللواتى يقمن بنفس العمـل ويتناولن نصف الأجـر ، بسبب استمرار هجرة العمال إلى المدينة وترك أسرهم بلا عائل .. فأصبحت لهن « قضية » ! قضية المساواة فى الأجر مع الرجل .. وهى قضية عادلة دون شك ، أيا كانت الظروف التى أدت إليها والملابسات التى أحاطت بها والنتائج التى ترتبت عليها .. فحين يعمل الرجل والمرأة نفس العمل ، ويقومان بنفس الجهد ، فأى مبرر فى الأرض يبرر أن يأخذ أحدهما نصف الآخر « ١ » !

ولكن الجاهلية الأوربية التى لم تحكم قط بما أنزل الله قـد ارتضت هذا الأمر ، ورأت فيه شيئا طبيعيا لايبعث على الاستنكار !

ولكن النساء اللواتى وقع عليهن الغبن رأين - أو رؤى لهن - أن يطالبن بحقوقهن المسلوبة .. نقول : رؤى لهن ، لأن التاريخ يشهد أنه كان هناك دائما محرك يحرك الأمور !

وسواء كان اليهود هم الذين حركوا « القضية » أم قوم طيبون أخـذتهم الشفقة بالمظلومات فطالبوا لهن بحقوقهن ، فلا شك أن اليهود استغلوا الظروف لصالح مخططاتهم ، وشدوا الخيط إلى أقصى مايمكن أن ينشد !

« ١ » ترث المرأة المسلمة نصف ميراث الرجل بمقتضى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [سورة النساء : ١١] ولكن هذا يجرى فى المال الموروث فقط . وحكمته أن الرجل يكلف من ميراثه تكاليف لاتكلفها المرأة من ميراثها . أما المال المكتسب فالأصل الطبيعى فيه هو المساواة . وعلى ذلك تجرى أحكام الاسلام فى التجارة والزراعة والبيع والشراء والرهن والاجارة وسائر المعاملات المالية التى لايختلف فيها مقدار الكسب باختلاف الجنس .

وسارت القضية فى خطوات متتابعة ، كل خطوة تؤدى إلى تاليتها بصورة تبدو طبيعية ومنطقية وتلقائية . وما كانت فى الواقع تلقائية . إنما كان ينفخ فيها الشياطين بصورة تظهرها فى هذا الوضع .

طالبت المرأة بالمساواة مع الرجل فى الأجر فرفضت الرأسمالية الناشئة وأصرت على الرفض ، كأنها تحافظ على وضع طبيعى لايجوز تغييره ولا الخروج عليه ! ورفض « الرجل » كذلك ! كأن طلبها عدوان على حقوقه الشخصية أو عدوان على كيانه الذاتى !

ولم تعد القضية مجرد المطالبة بالمساواة مع الرجل فى الأجر ، بل أصبحت – فى ذات الوقت – قضية ضد « الرجل » الذى يرفض إعطاءها مالها من حقوق فى عنجهية وغطرسة . وظل هذا الأمر يتسع كلما سارت القضية فى مسارها خطوة ، حتى أصبح فى النهاية كأنه هو القضية ! وانقلب الأمر بين شقى النفس الواحدة اللذين خلقهما الله ليكونا سكنا ومودة : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »« ١ » « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »« ٢ » فأصبحت العلاقة هى العداء والصراع والمنافسة ..

وفرك الشياطين أيديهم سرورا بذلك « التطور » .. فأى شىء أفعل فى فك روابط الأسرة وتقطيع أوصالها من إثارة الصراع والشقاق بين ركنيها الأساسيين ؟!

ومانريد أن نتعجل الأحداث !

رفض أصحاب المصانع قضية المساواة فى الأجر ورفضها الرجل كذلك ، فطالبت المرأة – أو طولب لها فى الحقيقة – بأن يكون لها حق الانتخاب حتى يكون لها – كما قيل – تأثير فى اختيار المرشحين للمجالس النيابية فيدافعوا عن حقوقها المسلوبة حين يصلون إلى البرلمان ، وكان الرجل قد نال هذا الحق (حق الانتخاب) قبل ذلك مع نمو الديمقراطية ونمو الحقوق السياسية للشعب« ٣ » .

ورفض الرجل إعطاءها هذا الحق ، ولم يعترف أصلا بأن ذلك حق من حقوقها أو أمر جائز بالنسبة إليها .

« ١ » سورة النساء [١]
« ٢ » سورة الروم [٢١]
« ٣ » سنتكلم عن الديمقراطية فيمابعد .

وتكفل رجال بالدفاع عن « قضية المرأة » : محامون وكتاب وخطباء وصحفيون .. بينما ظل أغلبية الرجال يرفضون فى إصرار . ولكن رويدا .. رويدا .. أخذت المعارضة تلين – أو فى الحقيقة تُلَيَّن ! – بالدق المستمر عليها بكل وسائل الإعلام المتاحة فى ذلك الحين ، وفى مقدمتها الصحافة ، ومن بينها الخطابة والمحاضرة والتأليف .

وظاهرة لين المعارضة بعد اشتدادها فى أول الأمر تكررت فى كل مرحلة من مراحل « القضية » بصورة واحدة تقريبا .. يبدأ « المدافعون » بإثارة القضية فتنهال المعارضة من كل جانب ، وتحتد غضبات « الرجال » إلى حد يخيل للرائى أن الأمر قد انتهى إلى الأبد ، وأن القضية فاشلة لامحالة ! ورويدا .. رويدا تأخذ الأصوات المعارضة تخفت ، والأصوات المدافعة تعنف وتشتد ، حتى يأتى يوم لايجرؤ فيه أحد على المعارضة لأنه يصبح ضد التيار ، ويصبح كلامه مستهجنا ويقابل بالاستنكار ، لأنه رجعى متخلف ، يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء،ويريد أن يقف عجلة التطور الساحقة التى تسحق كل من يقف فى سبيلها !!

كيف يتم الأمر على هذه الصورة ؟!

هل هى صورة طبيعية وتلقائية ؟ أم تدخل فيها أصابع الشياطين ؟!

أما أنها طبيعية – من جانب – فنعم ! فما كان المعارضون يعارضون عن إيمان حقيقى بقيم معينة ، إنما هى عنجهية الرجل من جهة ، وكون ذلك من « التقاليد » الموروثة من جهة أخرى .. والتقاليد إذا فقدت الروح وفقدت المبدأ وفقدت الايمان ، لم تعد قادرة على الصمود فى المعركة ، خاصة إذا كانت معاول الهدم حادة ، وكان المهاجمون أذكياء بل شريرين .

ولكنها من جانب أخر لم تكن طبيعية .

فلو تركت الأمور دون تدخل ودون توجيه ، فلربما كانت التقاليد الموروثة تتغلب ، أو ربما كانت عنجهية الرجل التقليدية تتغلب .. ولكن الذين بيدهم التوجيه الشيطانى كانوا – فى كل مرة – يحولون دون أن تنتهى الأمور إلى هذه النتيجة التى لاتخدم أهدافهم ، وتعطل مجىء اليوم الذى يركب فيه شعب الله المختار على ظهور الأمميين ويلهبها بالسياط !

ولانتحدث هنا عن العدالة : فى أى الجانبين كانت ، ففى الجاهلية لاتوجد

عدالة .. والمتصارعون كلهم كانوا يعيشون فى جاهلية ترفض أن تحكم شريعة الله . وقد تكون بعض الأمور أو بعض الوجهات فى هذه الجاهليـة أعدل من بعضها الآخر ، ولكنها فى النهاية تبتعد عن حقيقة العدل ، لأنها تصلح داء بداء آخر ، وتعالج مرضا فتحدث عدة أمراض ! فلئن كان المدافعون عن « حقوق المرأة » يبدون أكثر عدلا من الذين يحتقرونها ويهينونها ويستكثرون عليها أى حق من الحقوق ، فإن الصورة التى نالت بها حقوقها قد أحدثت من الفساد والظلم ما لم يكن يخطر على بال !

ومرة أخرى لانحب أن نتعجل الأحداث !

طالبت المرأة بحق الانتخاب الذى كان الرجل قد حصل عليه،ومن ثم أصبح للقضية بعد جديد - بعد سياسى - بعد أن كانت مجرد قضية مساواة فى الأجر . ورفض طلبها بشدة فى أول الأمر ، ثم عادت المعارضة فلانت ،وحصلت المرأة فى معظم دول أوربا على حق الانتخاب ..

ولكنها وجدت أن الأصوات الضئيلة التى تدلى بها فى الانتخابات ليس لها وزن حقيقى فى المعركة الانتخابية ، وحتى إن أثرت تأثيرا جزئيا طفيفا فى إنجاح مرشح معين ، ممن يتعهدون - أو يكونون معروفين - بـالتحمس لقضية المرأة والدفاع عنها فى المجالس النيابية ، فسرعان ماينسى المرشح وعوده حين يصـل إلى البرلـمان ، أو تضيع صيحتـه فى زحمة الأعمـال وزحمة الخـطب والكلمات !

عندئذ رؤى لها أن تطالب بحق الترشيح ودخـول البرلـمان .. لكى تسمع صوتها بنفسها للذين يصنعون القوانين (كأنهم لم يكونوا سامعين من قبل) وتشارك بنفسها فى إعداد التشريع،فتضمنه مايحفظ للمرأة حقوقها .

وقامت قيامة المعارضة كما يحدث فى كل مرة ، واشتدت حتى ليظن الرائى أن الأمر لن يتم أبدا .. ثم ظلت أصوات المعارضة تخفت تدريجيا وتلين .. حتى نالت المرأة حق الترشيح .. ودخلت البرلمان !

ويجدر بنا أن نلاحظ ظاهرة « فنية !» فى إدارة المعركة .

لقد كانت الصحافة دائما من أوسع المجالات التى تدور فيها المعركة إن لم تكن أوسعها جميعا .. والصحافة فى أوربا كانت - ومـاتزال - فى أيـدى اليهود ، الذين يوجهون المعركة كلها لحسابهم الخاص . ومع رغبتهم الشديدة فى أن تصل الأمور إلى إخفات صوت المعارضة نهـائيا ، وعـدم السماح لهـا

بالظهور ، فقد كانوا - فى كل مرة - يدعون الصحف تفسح صدرها للرأى المعارض مهما كانت شدة لهجته وقساوة عباراته !

وهذا « فن » بارع ولاشك !

فمن ناحية لم تكن الصحافة هى المجال الوحيد لابداء الرأى ، بل كان إلى جانبه الخطابة والمحاضرة والتأليف . (ولم تكن وسائل الاعلام الأخرى قد اخترعت بعد ، من إذاعة وسينما وتليفزيون ... الخ) فلو أن الصحافة أغلقت أبوابها دون الرأى المعارض - وهوفى حدته - لانكشف للناس تحيزها ، وانكشف اللاعبون من ورائها ، وفشلت اللعبة من أولها ! بل ينبغى أن تبقى الصحافة « حرة ! » فى ظاهرها حتى يطمئن الناس إليها وتصبح أداة جبارة لتشكيل « الرأى » العام على النحو المطلوب .

ومن ناحية أخرى فإن المعارضة والشد والجذب بين الرأى المعارض والرأى المؤيد ، مطلوبان - لذاتهما - من أجل إنجاح المعركة والوصول بها - فى النهاية - إلى الهدف المطلوب !

هب أن الرأى المطلوب إرساء قواعده - وهو إعطاء المرأة حق الانتخاب مثلا - قد ألقى فى الصحف أو فى أى مجال من مجالات الإعلام فلم يأبه بمعارضته أحد ولم يتقدم لمناقشته وتفنيده أحد .. أتراه ينجح أو يصل إلى هدفه ؟ كلا ! إنما يموت لتوه ويغطيه النسيان ! ويكون فى حس الناس أن مجنونا أخرق تقدم برأى شاذ فلم يأبه به أحد !

أما حين تدور المعركة ، بالمعارضة ، وإن اشتدت فى بادئ الأمر ، فهذا هو الضمان أن ينشغل الناس بالقضية ويولوها اهتمامهم ، وهذه هى الخطوة الأولى فى طريق النجاح ! ويكفى - فى مبدإ الأمر - أن تدور المعركة حول الرأى ! فمعنى ذلك أن الموضوع قابل للمناقشة وأن هناك وجهات نظر مختلفة فيه - ولو كان بعضها ضعيفا غاية الضعف - وأن الأوضاع القائمة (المراد إزالتها) ليست حقيقة نهائية مقررة لاتقبل النقاش !

ومادام قد تقرر المبدأ ، وهو أن الأمر قابل للنقاش وليس حقيقة نهائية فمن باب « الحرية ! » ينبغى أن يسمح لكل الناس بإبداء آرائهم سواء كانوا مؤيدين أو معارضين ، ليتاح « للرأى العام » أن يحكم على الأمر !

عندئذ تأتى الخطوة « الفنية » التالية ، وهى الإلحاح المستمر على وجهة النظر المطلوبة ، والتقليل التدريجى من الرأى المعارض ، مهما كان قويا فى

حقيقته فى الواقع الخارجى (أى خارج دائرة الصحافة) ، حتى يخيل للقارئ أن الرأى المعارض قد خفت بالفعل ، وأن الرأى « المطلوب » أصبح هو الرأى الغالب .. وعندئذ تخفت المعارضة بالفعل بتأثير هذا الايحاء،ويتغلب الرأى المطلوب ، ويقال إن « الرأى العام ! » قد اقتنع بالقضية وأصبح من المتحمسين لها ! وترفع المرأة الزائفة أمام الناس فيظن كل واحد أن الآخرين كلهم قد اقتنعوا ولم يبق مترددا أو معارضا إلا هو ! فيقتنع هو الآخر بالإيحاء !

وتبقى - دائما بطبيعة الحال - قلة صلبة فى معارضتها تأبى أن تذوب سواء كانت معارضتها ناشئة عن إيمان حقيقى بمبدإ معين أو حقيقة معينة ، أو لأى سبب آخر .. وهذه يجرى التخلص منها بصورة من الصور ، إما بمحاولة الشراء ، وإما بتشويه السمعة ، وإما بالتصفية البدنية إذا لم تفلح جميع الوسائل فى ثنيها عن موقفها !

وهكذا ارتفعت صيحات المعارضة فى كل مرة طولب للمرأة فيها بحقوق جديدة ، ثم لانت المعارضة أو لينت ، وخفتت الأصوات بعد حين ، وبقى الرأى « المطلوب » وحده مرتفع الراية فى الآفاق ، وقيل إنه « التطور الحتمى » الذى لابد أن يأخذ مجراه ، وإن عجلة التطور ستسحق كل من يقف لها فى الطريق !

دخلت المرأة البرلمان لعبة مسلية أكثر مماهى واقع جدى ! ولم يتغير كثيرا حال المرأة بهذه اللعبة من ناحية « الحقوق » المطلوبة ، ولكنها - من وجوه أخرى - تغيرت كثيرا ولاشك !

كانت « القضية » فى أثناء ذلك قد سارت مسارات شتى ، وطرقت أبوابا جديدة ..

طالبت المرأة - أو طولب لها - بحق التعليم ..

وقد كان تعليم المرأة فى المجتمع الجاهلى الأوربى يتم فى أضيق الحدود .. فأما أصحاب القصور فيعلمون بناتهم فى داخل قصورهم فيأتى المربون والمربيات والمعلمون والمعلمات إلى داخل القصر فيعلمون البنات تعليما « أرستقراطيا » يصنع منهن « سيدات قصور » !

وأما « الشعب » فلايكاد يعرف هذه القضية ، قضية تعليم البنات .. فإنما يتعلمن - داخل البيوت - إدارة البيوت وفنون الطهى وتربية النشء ، وتربية الدواجن والماشية والغزل والنسيج اليدوى وما إلى ذلك من فنون المعاش .

وقليلات من يتعلمن فى المدارس ، أكثرهن يتوقفن عند مرحلة ابتدائية وأقل القليل من يتعلمن فن التدريس أو فن التمريض ..

أما التعليم بمعناه العام فلم يكن يخطر على بال أحـد من الرجال – ولا النساء – يومئذ أنه فى يوم من الأيام يكون !

وما حاجة المرأة إلى التعليم ؟ وما حاجتها إلى العلم ؟ إنما هى لتتزوج وتحمل وتلد وترضـع ، وتكون ربة بيت« ١ » .

ولكن « القضية » المشتعلة مدت لسانا من اللهيب نحو هذا الميدان فاشتعل بنيران المعركة ، واتسعت القضية – التى كانت فى أساسها قضية المساواة مع الرجل فى الأجر – فشملت فى كل يوم أبعادا جديدة لم تكن لها من قبل ، وترتب على هذه التوسعة الجديدة آثار خطيرة لم تكن فى بال أحد من قبل على الإطلاق .

هل كان فى بال المخططين أنفسهم كل هذه الأبعاد ومايترتب عليها من آثار ؟!

ربما لم يكن ذلك كذلك !

ولكن كل خطوة كانت تقربهم إلى أفق جديد يكتشفون أنهم يستطيعون منه إحكام الرمى ، أما الهدف فواضـح لهم من أول لحظة ، وهـو تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد ، وأما الوسائل فهى كل الوسائل المتاحة فى كل لحظة ، حتى تتاح وسائل جديدة فتستخدم على التو !

ولقد أتاح لهم استخدام قضية التعليم وسائل هائلة جدا لتحقيق الهدف المطلوب ، ربما لم تكن كلها فى حسبانهم يوم بدءوا « اللعبة »ولكن كل خطوة كانت تكشف لهم الإمكانيات المتاحة للخطوة التالية فيسارعون إلى التحضير لها حتى إذا جاءت كانوا هم حاضرين !

كانت قضية التعليم من أشد القضايا إثارة للمعارضة فى المجتمع الأوربى الجاهلى .. وكانت عنجهية الرجل فيها على أشدها .. فقد كـان التعليم خلال قرون طويلة حقا للرجل وحده ، لاتنازعه فيه المرأة ولاينبغى لها أن تنازعه فيه .

وصيغت خلال القرون « نـظريات » حـول عقل المـرأة وقابليتهـا للتعلم ، خلاصتها أن المرأة لايمكن أن تتعلم ! هكذا خلقهـا الله ! لا تصلح أساسـا للتعليم ! لا تفهم ! إلا تلك الأشيـاء الصغيرة التـافهة التى تنـاسب عقليتها

« ١ » يلاحظ ان المجتمع الاسلامى انحدر إلى هذه النظرة فى القرون الأخيرة حين بعد عن حقيقة الاسلام ، فأوجد امام الشياطين ذات الثغرة التى نفذوا منها لإفساد المرأة فى اوربا .

وطبيعتها من رعاية النشء (لأن عقلها صغير كعقل الأطفـال فهى أقرب إلى مستـواهم،ومن ثم فهى أصلح لتربيتهم فى سنـواتهم الأولى حتى « يعقلوا » فيتولاهم الرجال !) وإدارة شئون المنزل والغزل اليدوى والنسيج اليدوى وما أشبه ذلك من الفنون ..

أما العلم .. فلا ! تلك مزية الرجل التى حباه الله بها فاختص بهـا خلال القرون ..

أو تجىء المرأة اليوم فتنازعه هذا الاختصاص ؟! وأنى لهـا وهى لم تهيأ أصلا لتلقى التعليم ؟

وماذا تفعل بالتعليم بعد أن تتـزوج وتصبح ربـة بيت ؟ فعندئـذ تستوى المتعلمة والجاهلة ، إذ أن هذا أمر تقوم به الجاهلة خير قيام ولايلزمها من أجله العلم ، ولن تقوم به المتعلمة خيرا منها ، بل قد تتفوق الجاهلة عليها لأنها نالت من الدربة والخبرة فيه مالايتاح للمتعلمة التى تقضى شطر وقتها بعيـدا عن البيت ، وهو الميدان الأصلى للتدريب .

ولقد كان فى هذا الكلام كثير من الأباطيل ولاشك ، وكان متأثرا تأثرا شديدا بالنظرة الكنسية المتزمتة إلى الجنس،وإلى المرأة التى يتمثل فيها الجنس بالنسبة إلى الرجل ، تلك النظرة التى وصلت إلى حد أن « فلاسفة » فى القرن السابع عشر كانت « تتفلسف » فى هذا الشأن فتتساءل : هل للمرأة روح أم ليس لها روح ؟ وإذا كان لها روح فهل هى روح إنسانية أم روح حيوانية ؟ وإذا كانت روحا إنسانية فهل هى من جنس روح الرجل أم من درجة أدنى ؟!

ولكن وجها واحدا للحق كان قائما فى هذا الكلام كله المحتوى على كل تلك الأباطيل ، هو أن التعليم – على النحو الذى كان يراد ويخطط له – كان يشغل المـرأة عن وظيفتها الأسـاسية ويحـولها إلى وجهـات أخـرى تتلقفهـا فيهـا الشياطين !

هل اليهود ينشئون الأحداث على هواهم بتدبيرهم المـاكر كمـا يقول وليم كار ؟!

كلا ! إنما هم يستغلون الأحداث ، ويتربصون لينفذوا من أى ثغرة تعرض لهم فى حياة « الأمميين » ولكنهم لاينشئون الأحداث من عنـد أنفسهم مهما خططوا ومهما دبروا مئات من السنين أو ألوفا من السنين !

فلولا أن الجاهلية الأوربية شغلت المرأة بنصف أجر الرجل ، فمن أين كان

لليهود أن ينشئوا للمرأة قضية ؟ ولولا أن تلك الجاهلية حرمتها من التعليم تحقيرا وامتهانا لها فمن أين كان لليهود أن يوسعوا القضية حتى تشمل تعليم المرأة ، ثم يحدثوا عن طريق تعليمها كل ما أحدثوا من الفساد ؟!

كلا ! إن « الأمميين » هم الذين يتيحون الفرصة - بأعمالهم - ليستحمرهم شعب الله المختار ويركب ظهورهم ، ولولا أعمالهم الخاطئة تلك ما استطاع شعب الله المختار أن يركب ، مهما كان فى قلبه من الغل ، ومهما كان فى عقله من التدبير .

* * *

ونمضى مع قصة تعليم المرأة فنجد المعارضة الثائرة فى أول الأمر ، ثم نجد هذه المعارضة تخفت رويدا رويدا ويمضى ما كان يبدو مستحيلا فى مبدإ الطريق !

عند بدء المعركة طالب المطالبون بإنشاء تعليم لايبعد المرأة إبعادا كاملا عن وظيفتها ، وإن كان يبعدها - دون شك - إلى حد غير قليل ! فقد أنشئ لها تعليم « نسوى » يحوى العلوم التى تعطى للأولاد ، مضافا إليها دروس فى تدبير المنزل ورعاية النشء وبعض الفنون النسوية كشغل الإبرة والتفصيل والخياطة .. الخ ، وكان هذا مجرد خطوة فى الطريق ، حتى يحين الوقت الذى تلغى فيه المواد النسوية إلغاء كاملا ويتم « ترجيل » المرأة .

كذلك طالب المطالبون بتوفير الصيانة الخلقية التامة للفتاة التى تذهب إلى المدرسة ، فتذهب وتعود فى سيارة مقفلة مغطاة بالستائر ، أو يذهب معها ذووها ويعودون بها بحيث لاتتعرض للفتنة فى الطريق !

والحكمة فى هذا وذاك واضحة !

فلو أن المخططين كشفوا عن وجوههم دفعة واحدة ، ودفعوا الفتاة الذاهبة إلى المدرسة للتبرج من أول لحظة ، أو دفعوها للانسلاخ الكامل من أنوثتها فأى أب كان يبعث بابنته إلى المدرسة ، والتيار المعارض جارف والحملة ضد تعليم المرأة قائمة على قدم وساق ؟!

لابد من طمأنة أولياء الأمور طمأنة كاملة فى مبدإ الطريق ، حتى يرسلوا بناتهم إلى المدرسة ، وعندئذ - بعد أن يذهبن بالفعل - يكون لنا معهن دور أى دور !

ورويدا رويدا .. على مدى طويل بطىء« ١ » ظلت المواد النسوية تتضاءل ، بحجة عدم الإثقال على الفتاة .. أو بأية حجة أخرى ! وتقترب المناهج بين البنات والبنين حتى صارت متطابقة تماما فى آخر الأمر .. مناهج رجالية كاملة !!

ورويدا رويدا كذلك وبنفس البطء بدأت فتاة المدرسة تتحلل من القيود الصارمة التى فرضت عليها - بعناية - فى مبدأ الأمر ! فلم تعد السيارة مغطاة بالستائر ، ولم يعد ذووها يوصلونها إلى المدرسة أو يعودون بها إلى البيت !

وجاء الوقت الذى تقدمت فيه الفتيات إلى الشهادة الثانوية على مناهج البنين كاملة بلا زيادة ولانقصان ، وحدثت « المعجزة » ! فنجحت الفتيات فى الامتحان الموضوع أصلا للبنين ، بل تفوقن عليهم فى غير قليل من الحالات !

وحدثت ضجة هائلة - فى الصحافة بصفة خاصة - لم تهدأ من قريب !

ها هى ذى الفتاة التى قلتم عنها إنها لاتفهم ولاتستطيع أن تتعلم .. هاهى ذى التى قلتم عنها إنها أقل ذكاء من الفتى وأقل قدرة على الاستيعاب .. ها هى ذى التى قلتم عنها إنها لاتصلح - إن صلحت على الإطلاق - إلا للمناهج النسوية الخالصة .. هاهى ذى تدخل ذات الامتحان مع الفتى فتجاريه بل تتفوق عليه !

أرأيتم أيها الرجعيون ؟ ! أرأيتم أيها الظالمون ؟! أرأيتم ياجنس الرجال ؟! أيها المغرورون ! أيها المتعصبون !!

ولئن كان نجاح الفتاة قد قوبل بالاستغراب الكامل فى الغرب ، فماينبغى أن يستغرب فى الحقيقة ، فقدرة الفتاة على التحصيل العلمى لاتفترق عن قدرة الفتى حين تتخصص لها وتوليها جهدها .. أما تفوق الفتاة أحيانا فقد كان مرجعه إلى روح التحدى من جهة ، وانقطاع الفتاة للاستذكار فى المنزل بينما الأولاد مشغولون - فى الشارع - بألوان من النشاط لاتمارسها الفتيات فى ذلك الحين !

وليست القضية - كما أثارتها الجاهلية من جانبيها ، جانب المعارضة وجانب التأييد - هى القدرة على التحصيل على ذات المستوى عند كل من الجنسين ، إنما القضية هى الإعداد المناسب لوظيفة كل من الجنسين

« ١ » هناك مثل انجليزى يقول : بطىء ولكنه أكيد المفعول Slow but sure ، وعلى ذات الحكمة يسير اليهود فى تنفيذ مخططاتهم حتى لايتنبه الأمميون من غفلتهم .

واستعداده النفسى بصرف النظر عن قدرته العقلية .

يقول الدكتور ألكسيس كاريل فى كتاب « الإنسان ذلك المجهول L'Homme cet unconnu (ص ١٠٨ - ١٠٩ من الطبعة الثالثة من الترجمة العربية لشفيق أسعد) .

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيمائية محددة يفرزها المبيض .. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسئوليات متشابهة ..

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل .. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها .. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها .. وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى . فليس فى الامكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كماهى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن ولايحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » .

ولكن الجاهلية - من جانبيها كما قلنا - ركزت على المقدرة العقلية أكثر من أى شيء آخر ، فخسر المعارضون حين نجحت الفتاة بل تفوقت أحيانا على الولد ، وهلل المدافعون وأمعنوا فى إثارة الضجة حول قدرة الفتاة التى لاتقف عند حد ، ومساواتها التامة للرجل فى كل شيء !

حقيقة إن قضية الوظيفة والاستعداد النفسى قد أثيرت من جانب المعارضين ، ولكنها أثيرت بروح التحقير والامتهان ، لا على أساس توزيع الوظائف والتكاليف على شقى النفس الواحدة مع المساواة فى الانسانية كما قال رب العالمين ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »« ١ »

« ١ » سورة النساء [١]

« فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض « ١ » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون »« ٢ »

« إنما النساء شقائق الرجال » « ٣ »

لذلك كانت موضع الرفض الكامل من الفريق الذى تصدى للدفاع عن المرأة ، وكانت موضعا لتنديدهم بعنجهية الرجل المتغطرس على غير أساس !

ومانقول إن إثارتها على النحو الصحيح كما شرعها الله كانت ستجدى شيئا فى الدوامة التى أثيرت حول « قضية المرأة » ووجهت توجيها معينا منذ البدء يخدم أغراض الشياطين ، إنما نقول إنه لو كانت الحياة فى المجتمع الأوربى قد سارت منذ البدء على هدى المنهج الربانى لما وجد الشياطين قضية يثيرونها ويلعبون بها على النحو الخطير الذى فعلوه .

وحين نجحت الفتاة فى الدراسة وساوت الولد أو تفوقت عليه أحيانا فهل كان هناك شك فى الخطوة التالية ؟!

طالبت - أو طولب لها - بدخول الجامعة !

ويبدو الأمر طبيعيا جدا ومنطقيا جدا .. بينما تبدو المعارضة قائمة على غير أساس !

وعلى أى حال فقد قامت المعركة المعتادة كما قامت من قبل مع كل خطوة سابقة وكما قامت من بعد فى كل خطوة لاحقة .

قال المعارضون : إن نجاحها فى المرحلة الثانوية لايعتبر دليلا على مقدرتها على الدراسة الجامعية ، فالجامعة شىء آخر غير الدراسة الثانوية !

وقالوا : إن التعليم الجامعى لايناسب طبيعتها (وهى هنا الطبيعة الرقيقة اللطيفة) فهو تعليم جاف لايناسب إلا الذكور !

وقالوا : إن مكان الفتاة الطبيعى هو البيت ، لتكون زوجة وأما وراعية أطفال ، وليس هو الجامعة البعيدة كل البعد عن طبيعتها والمعطلة لها عن وظيفتها طوال مدة الدراسة .

وقالوا : إنها ماذا تفعل بالدراسة الجامعية ؟ وماحاجتها إليها حين تصبح ربة بيت وزوجة وأم أطفال ؟!

« ١ » سورة ال عمران [١٩٥]

« ٢ » سورة النحل [٩٧]

« ٣ » رواه الترمذى

وقالوا : إنها تتزوج - عادة - فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة .. فمتى تذهب إلى الجامعة ؟!

وقالوا : إن ذلك يخالف التقاليد ..

وصمد « المدافعون عن حقوق المرأة » .. لهذه الهجمات كلها ، وكأنهم - الآن - قد أصبحوا يعرفون النتيجة ! إنها مسألة وقت فحسب !

أما المخططون فماكانوا ليكشفوا أوراقهم كاملة من أول لحظة فذلك ينافى « فن » اللعب ، كما أنه قمين بإفساد اللعبة بكاملها !

أيقولون للناس الآن ماذا يريدون أن يفعلوا بقضية المرأة فى المستقبل فيحجم الآباء عن إرسال فتياتهم إلى الجامعة ، بل تحجم الفتيات أنفسهن بالبقية الباقية فيهن من الدين والأخلاق والتقاليد .. والحياء ! الحياء الأنثوى الفطرى الذى خلقه الله ، والذى يخطط لإفساده شعب الله المختار !

كلا ! إنما يترك ذلك للتخطيط البطىء .. بطىء ولكنه أكيد المفعول !

قال المدافعون : إن الفتاة ستثبت جدارتها فى التعليم الجامعى كما أثبتت جدارتها من قبل فى التعليم الثانوى . وكنتم أيها الرجعيون المتزمتون تشككون فى قدرتها على تلقى علوم الأولاد فى المرحلة الثانوية ونجاحها فيها فهزمكم الواقع وأسقط حجتكم وألجم أفواهكم ! وسيتبين لكم غدا أنكم كنتم واهمين بالنسبة للتعليم الجامعى كما كنتم واهمين من قبل بالنسبة للتعليم الثانوى .. فقط اتركوا لها الفرصة لتثبت مقدرتها ! كيف تحكمون على شىء لم تجربوه بعد ؟!

وقالوا : إن الرجل يخشى المنافسة ! يخشى على مكانته « التقليدية » أن تنافسه فيها المرأة فيفقد هذه المكانة ! إنها عقدة النقص ! لو كان الرجل واثقا من نفسه ماخشى المنافسة ! إنه يلجأ إلى « التقاليد » ليحمى امتيازاته ! تلك التقاليد البالية المتعفنة التى ينبغى أن تزول ! التقاليد التى تحتقر المرأة وتمتهنها وتجعلها مستعبدة للرجل ! لاعبودية بعد اليوم !

وقالوا : إن الدراسة الجامعية لاتمنع المرأة عن وظيفتها .. فما الذى يمنعها أن تتزوج ؟ فقط تؤجل الزواج بضع سنوات ! ومن أرادت أن تتزوج وتترك الدراسة الجامعية فمن يمنعها !

وقالوا : إن الدراسة الجامعية - على العكس - توسع مداركها وتوسع آفاقها فتعينها على أداء وظيفتها ! أتريدون أن تكون أمهات أطفالكم جاهلات ؟

أو ليس الخير لكم أن تكون الأم متعلمة فتحسن تربية أولادها ؟!

وقالوا : إن الفتاة يمكن أن تختار من الدراسات الجامعية مايناسب طبيعتها « الرقيقة اللطيفة » فتدرس الأدب فى كلية الآداب .. أليست الفتاة رقيقة المشاعر رقيقة المزاج ؟ أو ليس الشعر والأدب يرقق المشاعر ويوسع الخيال ؟! فأى مانع لديكم ؟! وتدرس الطب لتطبب النساء .. أى مانع لديكم ؟! وتتخرج مدرسة لتعليم البنات .. أى مانع لديكم ؟!

ولكن بقيت - مع كل ذلك - عقبة غير ذلول ..

التعليم الجامعى معناه الاختلاط .. اختلاط الفتيات بالشبان فى الجامعة .. ودون ذلك يحول الدين والأخلاق والتقاليد .. (ولم يفكر أحد - من طرف الجاهلية : المؤيدين والمعارضين - فى عمل جامعات نسوية خاصة بالفتيات !)

وكانت تلك العقبة هى البندقة الصعبة الكسر كما يقولون فى أمثالهم .. فقد تشبث المعارضون بالتعلق بالدين والأخلاق والتقاليد فى وجه قضية الاختلاط ، واحتال المدافعون لتزيين الاختلاط فى بادئ الأمر ، ثم لجأوا فى النهاية إلى الكشف عن وجوههم جهرة ، ومهاجمة الدين والأخلاق والتقاليد مهاجمة صريحة حين أصبح ذلك - بالدق المستمر - أمرا فى حيز الامكان .

قالوا : لاتخافوا ! لن يحدث شىء على الإطلاق !

إنها لاتختلط به فى رقص ولا لهو ! إنها تختلط به اختلاطا « بريئا » فى جو علمى خالص ، تحت إشراف الأستاذ وسمعه وبصره .. الأستاذ هو الوالد والمربى والموجه لكلا الشاب والفتاة فى قاعة الدرس ، وتحت إشرافه التربوى التوجيهى يجلس الفتى والفتاة ساعة من الوقت يتلقون العلم ويتناقشون فى قضايا علمية وإنسانية واجتماعية وفكرية .. فأى جو أطهر من هذا الجو وأقدر على رفع المشاعر وتهذيب الأخلاق ؟! من ذا الذى يخطر له - فى هذا الجو - أن يسىء الأدب أو يسىء إلى الأخلاق أو تخطر فى باله خاطرة من خواطر الفساد ؟!

بل إن الاختلاط ذاته أداة للتهذيب !

الا ترون إلى الشبان فى مجتمعاتهم كيف تجرى بينهم الألفاظ الخشنة والألفاظ الخارجة .. أيجرؤ أحدهم - فى حضرة الفتيات - أن يتلفظ بلفظ خارج ؟

بل إن الاختلاط أداة لنفى خواطر الجنس !

ألا ترون أن صورة المرأة فى حس الرجل - لأنها بعيدة عنه - هى صورة الجنس ؟ وأن صورة الرجل فى حس المرأة - لأنها بعيدة عنه - هى صورة الجنس ؟ .. فإذا التقيا فى هذا الجو الطاهر البرىء .. جو العلم والقضايا الفكرية والإنسانية والاجتماعية ، كف الرجل عن النظر إلى المرأة على أنها « أنثى » وفكر فيها على أنها « امرأة » .. أنها إنسانة .. أنها شريكة فى أمور الحياة .. وكفت المرأة كذلك عن التفكير فى الرجل على أساس الجنس والعلاقات الجنسية ، ورأت فيه الزميل والشريك والإنسان ..

أى تهذيب للجنس أشد من ذلك التهذيب ؟!

وابتلع « الأمميون » الكأس المسمومة .. وشربوها حتى الثمالة !

ولاشك أن الأمميين ماكانوا ليدركوا أبعاد اللعبة بكاملها .. وإلا فإن البقية الباقية من الدين والأخلاق والتقاليد كانت قمينة أن تردهم عن الخوض فى المستنقع الآسن لو رأوه على حقيقته منذ أول خطوة ، مع كل المعركة القائمة ضد الكنيسة ، ومع كل الوهن الذى أصاب الدين فى نفوسهم ، فإن الفطرة ذاتها لتنفر من المستنقع الآسن حين تكون فيها بقية من بقايا السلامة أيا كان مقدارها .. ولكنها لاتعود تنفر منه ، بل تستعذب البقاء فيه إذا غرقت فيه بالفعل وفقدت كل سلامتها ولم يبق لها منها شىء ، وتصبح كدودة الأرض التى تعيش فى الطين العفن ، إذا أمسكت بها لتخرجها أفلتت منك وزادت لصوقا بالطين !

وكذلك سار الشياطين بالأمميين ، يجرونهم خطوة خطوة حتى أغرقوهم فى المستنقع الآسن وجعلوهم يستعذبون البقاء فيه !

احتدمت المعركة كثيرا بالنسبة لدخول الفتيات فى الجامعة .. ولكن النهاية كانت كما كان متوقعـا من سير الأحداث.

دخلت فتيات قليلات فى مبدأ الأمر إلى الجامعات معظمهن فى كليات الآداب .. وكن بلا شك هن أجرأ الفتيات فى ذلك الحين .

وسارت الأمور سيرا « طبيعيا » لفترة من الوقت ، فماكان من الممكن تحطيم التقاليد دفعة واحدة ، وماكان المخططون أنفسهم يرغبون فى العجلة - مع لهفتهم الأكيدة فى الوصول إلى النتيجة - فقد كانوا يعلمون أن العجلة تفسد اللعبة بأكملها ، وتثير التوجس ، وتصدق ظنون المتشككين ، وتؤيد دعاوى « المتزمتين » الذين قالوا من أول لحظة إن دخول الفتاة الجامعة نذير شر عظيم يحل بالمجتمع .

وكان للفتيات حجرة خاصة من أجل راحتهن وزينتهن وخلوتهن .. وكن يهرعن إليها فيما بين المحاضرات لكى لاينفردن بالطلاب فى غيبة الأستاذ ، الذى يتم فى حضوره « الاختلاط البرىء » !

ولكن الأمور لم تظل على هذه الصورة ، وليس من شأنها أن تظل .. وكان المخططون يعلمون أنها لن تظل !

رويدا رويدا بدأت « أجرأ » الفتيات تتلكأ فلا تذهب إلى حجرتها فيما بين المحاضرات .. وبدأ أجرأ الفتيان يلقى إليها بتحية .. ثم حديث .. وجاءت ثانية وثالثة .. وصار من المعتاد أن يبقى الفتيات فى الحجرة لايغادرنها بين الدرس والدرس .. وصار من المعتاد أن تجرى التحية ويجرى الحديث ..

وكان حديثا « بريئا » دون شك ! فمنذا الذى يملك أن يتحدث فى ذلك الحين حديثا غير برىء ؟ وأى فتاة مهما يكن من « جرأتها » تستطيع – فى ذلك الوقت – أن تتلقى حديثا غير برىء وتتقبله أمام الآخرين ؟!

بقية من الحياء ، إن لم يكن هناك دين ولا أخلاق ولا تقاليد !

وهذه البقية من الحياء هى التى عمل الشياطين على قتلها والقضاء عليها ، فماتصلح الخطة كلها إن بقى عند الفتاة شىء من هذا الحياء الفطرى الذى خلقه الله فى الفطرة السليمة سياجا يحمى الفتاة من السقوط والتبذل ، وميز به أنثى الإنسان عن إناث الحيوان« ١ » ، كما جعل للعفة علامة حسية فى جسدها ميزها بها عن إناث الحيوان ، فجعل أخلاق الجنس جزءا لامن التكوين النفسى وحده ، ولكن من التكوين البيولوجى والفسيولوجى كذلك لأنثى الإنسان .

ولكن الجاهلية المعاصرة التى يقودها اليهود ويقودون الناس إليها تأبى هذا التميز الفطرى عن الحيوان ، سواء فى قضية العفة أو فى قضية الحياء .. لأن شعب الله المختار لايريد أن يُبْقِى على شىء من آدمية الآدميين ، لأنهم حينئذ سيرفضون أن يركبهم الشعب المختار ويسخرهم لمصالحه .. سيرفضون أن يكونوا الحمير التى تركبها الشياطين .

لذلك جردوا حملاتهم على الفتاة لتتخلص مما بقى من حيائها ، وتصبح قليلة الحياء !

« ١ » أشرت فى الجزء الثانى من منهج التربية الاسلامية إلى قصة كانت مشهورة فى النصف الأول من هذا القرن ، حيث عثر على فتاة كانت تعيش منذ طفولتها حتى السابعة عشرة من عمرها مع الغزلان ، عارية تماما بغير حياء ، فاستأنسها العلماء ، وظلوا يستردونها إلى الانسانية خطوة خطوة ، فلما بلغت مدى معينا من الحس البشرى أحست – تلقائيا – بحياء الأنثى الفطرى ، وتغير سلوكها عما كانت عليه من قبل وهى تعيش فى عالم الحيوان .

قالوا عن الفتاة التى ماتزال تحفظ فى سلوكها إنها حبيسة التقاليد ! حبيسة القيود الطويلة التى غللتها خلال القرون ! إنها ماتزال غير واثقة فى نفسها ، من تأثير السلطان الطويل الذى مارسه الرجل عليها وأذل به كرامتها ! إنها خائفة .. لأنها متأثرة بتقاليد المجتمع الزراعى المتأخر ! إنها لاتريد أن تعيش عصرها ، الذى حررها من القيود وجعلها مساوية للرجل .. إنها .. إنها .. إنها ..!

وفى الوقت ذاته جردوا حملات التشجيع لكل فتاة خلعت حياءها وأصبحت قليلة الحياء .. فالمجلات تنشر الصور ، وتشيد « بالتحرر » وتكتب التعليقات التى تجعل كل فتاة تتمنى أن لو استطاعت من لحظتها أن تتجرد من حيائها كله لتصبح شهيرة ومعروفة وموضع حديث بين الناس .. والشهرة شهوة لاينجو من جذبها أحد من البشر رجالا أو نساء ـ إلا من رحم ربك ، وبصفة خاصة شهوة نشر الصورة بوسيلة من وسائل الإعلام .. فكيف إذا كانت الفتاة جميلة ؟ والشياطين يبدأون دائما بالجميلات !

ومع كل ذلك فقد استغرق الشياطين قرابة نصف قرن حتى أذابوا أو أزالوا البقية الباقية من الحياء ، كما أزالوا البقية الباقية من الدين والأخلاق والتقاليد .

امتد الاختلاط البرىء كما كان متوقعا من حجرة الدرس إلى فناء الجامعة .. على استحياء أول الأمر .. لاتنفرد فيه فتاة وحدها مع فتى بمفرده ، حتى لاتضيع سمعتها بين الفتيات أنفسهن قبل الشبان .. ثم تقدمت « أجرأ » الفتيات ، أى أقلهن حياء فقبلت دعوة أجرأ الشبان إلى الوقوف أو المسير معها لحظة منفردين فى الفناء ولكن فى غير عزلة عن الجموع ، وفى أدب ظاهر للجميع .

وما هى إلا أن يتعود الطلاب المنظر - والنفس تتبلد على المنظر المكرور حتى تفقد حساسيتها له،مالم تكن تصدر عن عقيدة حية وإيمان حى بقيم ومثل مضادة - ماهى إلا أن يتعود الطلاب حتى يتكرر المنظر بين أزواج متعددين من أجرأ الفتيات وأجرأ الفتيان ، حتى يصبح الأمر عاديا وميسرا لايحتاج إلى « جرأة » فيقتحمه كل فتى وتقتحمه كل فتاة !

وحين يصبح الجميع كذلك أو الأغلبية فلابد - فى طبائع الأشياء - أن يخطو الأمر خطوة جديدة إلى « الأمام » !

إنه - لهذا - جعل الله معيار الخيرية فى أية أمة هو الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر ، ومثار اللعنة على أية أمة الا يتناهى فيها عن المنكر ولايؤمر بالمعروف .

« كنتم خير أمة أخـرجت للناس ، تـأمرون بـالمعروف وتنهـون عن المنكر وتؤمنون بالله »« ١ » .

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بماعصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ماكانـوا يفعلون »« ٢ » .

لأن المنكر إذا نهى عنه توّحدوثه يتوقف فلا يمتد ولايتوسع .. أما إذا سكت عنه فإنه يزداد ، ويظل فى ازدياد حتى يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وعندئذ تفسد الحياة ، وتحل اللعنة التى كتبها الله ..

ولقد أصبح من الأمور المعتادة أن ينتحى فتى وفتاة جانبا من الفناء ليتناجيا لاليتحدثا حديثا عاما بصوت مسموع ! وتبدأ - بطبيعة الحال - قلوب تكون أميل إلى قلوب .. ويكون حديث النجوى هو حديث هذه العواطف التى تتجاوب بها القلوب !

والعواطف - حتى الآن - « بريئة » !

لا لأنها فى طبيعتها بريئة .. ولكن لأنها - حتى الآن - محصورة فى داخل الجامعة لاتستطيع أن تخرج إلى الطريق .. لأن المجتمع لم يتعود بعد أن يرى الاختلاط فى قارعة الطريق ..

لقـد كانت هنـاك طبقـة فـاسـدة - دائمـا - فى المجتمـع هى طبقـة « الأرستقراطيين » أصحاب القصور ، وهـذه يعرف عنهـا الاختلاط « غـير البرىء » وتنشر فضائحها على المجتمع وتتناقلها أفواه الناس .. ولاتبالى ! لأنها - دائما - بتأثير الترف الفاجر الذى تغرق فيه ضعيفة الإحساس بالقيم والمبادئ ، والقيم الخلقية بصفة خاصة .. وانظر إلى امرأة العزيز فى مجتمع آخر وزمان آخر مختلف كل الاختلاف ولكنه يلتقى فى هذه النقطة مع كل مجتمع مترف فى التاريخ .. انظر إليها كيف تصارح نساء طبقتها بالفاحشة ولاتبالى أن يتحدث المجتمع عن « فضيحتها » .. إنما تغضب غضبا « طبقيا » فقط ، لأن ألسنة النسوة تستنكر منها أن تتجه بنزوتها إلى عبد مملوك لها ، وإن كنّ

« ١ » سورة آل عمران [١١٠]
« ٢ » سورة المائدة [٧٨ - ٧٩]

لايستنكرن النزوة فى ذاتها ، ولايعترض عليها لو كانت مـع رجل أو شـاب من « طبقتها »« ١ » !

« وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حبا . إنا لنراها فى ضلال مبين ! فلما سمعت بمكـرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا ، وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ماهذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم ! قالت : فذلكن الذى لمتتنى فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ! ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين »« ٢ » !

ولقد كانت هذه الطبقة فى أوربا تحت تسلط اليهود من قديم كما مر بنا من قبل ، ييسرون لها البغاء المترف فى المدينة ، ويوقعونها فى الدين والربـا ذى الأضعاف المضاعفة ، ويسلبون ثرواتهم عن هذا الطريق .

ثم سنحت لهم الفرصة لإفساد طبقة أخرى من طبقات المجتمع حين تحرر عبيد الإقطاع وجاءوا إلى المدينة شبابا فارهـا بلا أسر ، فيسـرت لهم البغاء الشعبى ووضعت « الدولة » حارسة أمينـة عليه ! وزادت الفـرصة سنـوحا لإفساد هذه الطبقة – طبقة العمال – حين بدأت المرأة التى هجرها عائلها فى الريف تفد للعمل فى المصانع وتفرط فى عرضها لقاء لقمة الخبز ، فصار الفساد فى داخل الطبقة قريب المنال .

ولكن هذا وذاك لم يكن كافيا ، ولم يكن ليحقق مطامع اليهود فى المجتمع الجديد « المجتمع الصناعى المتطور » .

إن « الأرستقـراطية » – سـواء الأرستقراطيـة الإقطاعيـة البائـدة أو الأرستقراطية الرأسمالية الناشئة – لاتستطيع – بفسادها – أن تفسد المجتمـع كله ، لأنها – دائمـا – معزولة فى قصـورها وحفـلاتها المـاجنة الخاصة ، تحتمى فى داخل تلك القصور من العيون المتطلعة ، وتمنع عدواها فى الوقت ذاته عن الناس ، لأن جرثومتها « طبقية » لاتعمل إلا داخل القصـور، ولاتعدى إلا أصحاب القصور !

أما إفساد طبقة العمال – وإن كانوا عددا غير قليل ويتزايد على الدوام – فلم يكن يومئذ ليفسد المجتمع الجـديد ، لأنهم – بعـد – طبقة محتقـرة

« ١ » انظر تفسير الآيات فى « ظلال القرآن »

« ٢ » سورة يوسف [٣٠ – ٣٢]

مـزدراة ، تنظر إليهـا كلتا الطبقتـين العلويتين : الطبقـة الوسطى والطبقـة الأرستقراطية نظرة ازدراء وتعال فلا تنتقل منها العدوى إلى غيرها مهما بلغت هى فى ذاتها من التبذل والفساد ..

ولقد كان المطلوب بالذات هو إفساد الطبقة الجديدة الناشئـة فى المجتمع الرأسمـالى ، التى تسير الأمـور - ظاهريـا على الأقـل - فى ذلك المجتمع الجديد ، وهى الطبقة المتوسطة .

لقد كانت الديمقراطية الناشئة فى المجتمع الرأسمالى الناشئ تنمو تدريجيا ، وكانت فى أثناء نموها تبرز بصورة متزايدة هـذه الطبقة الجـديدة : الطبقـة المتوسطة ، التى لم يكن لها وجود فى المجتمع الإقطاعى ، أو كان وجودها ضعيفا لايؤبه به .

وفى ظل الديمقراطية كانت هذه الطبقة الجديـدة تناضـل لكى تصبح هى الطبقة الحاكمة ، وتنزع السلطان من الذين استقلوا به من قبل وطغوا به على « الشعب » وهم الأغنياء أصحاب الأموال« ١ » .

كانت المجالس النيابية تتجه رويدا رويدا أن تكون غالبيتها من هذه الطبقة ، وكان منها معظم موظفى الدولة فى صورتها الجديدة ، من الموظف الناشئ إلى وكلاء الوزارات والوزراء ، وكان منها بصفة عامة الطبقة المثقفة التى تـوجه أفكار المجتمع وتحدد له اهتماماته واتجاهاته الفكريـة والسياسيـة والخلقية والفنية .. الخ« ٢ » ، وكان منها بصفة خاصة مـدرسو المـدارس وأساتـذة الجامعات ، أى جهاز التربية والتشكيل للمجتمع الجديد ..

باختصار كانت هى الأداة الجديدة للحكم فى ظل الديمقراطية الرأسمالية ، أيا كان المستفيد الحقيقى من هذه الأداة .

لذلك كان لابد فى تخطيط المخططين من إفساد هذه الطبقة بـالذات ، فإن فساد الطبقة الأرستقراطية وطبقة العمال - مـع فائـدته التى لاشـك فيها بالنسبة لليهود - لم يكن ليؤدى الدور المطلوب فى إفساد المجتمع الجديد الذى

« ١ » سنرى من بحثنا للديمقراطية فيما بعد أن الطبقة المتوسطة نالت حقوقا كثيرة لم يكن لها وجود من قبل ، ولكن السلطان الحقيقى ظل فى يد الرأسمالية الحاكمة من وراء الستار .

« ٢ » لاينفى هذا سيطرة اليهود على تشكيل الأفكار فى المجتمع من وراء الستار ، ذلك أن اليهود استخدموا هذه الطبقة المثقفة فى توجيه الشعب إلى الوجهه التى يريدونها هم ، بعد أن سمموا أفكارها على يد علمائهم الكبار فى جميع الاتجاهات .

يراد إفساده بأكمله ،إلا أن تفسد الطبقة المتوسطة التى تقوم بـالدور الأكبر والأخطر فى رسم الصورة الظاهرة لهذا المجتمع ، والتى فى يدها - فى ظاهر الأمر على الأقل - مقاليد السلطان .

والجامعة هى المكان الرئيسى لتخريـج الكثير من أفـراد هذه الطبقـة ، أو البارزين منهم على أقل تقدير . لذلك كان التركيز على أن يبدا الفساد من هناك .. ومن هناك ينتشر فى جميع الأرجاء .

* * *

كان الاختلاط « البرىء » مايزال يجرى داخل أسوار الجامعة ، ولكنه كان يحمل فى أطوائه الجرثومـة التى تقضى فى النهايـة على بـراءته ، فقـد بدأت « العلاقات الخاصة » تنمو بين أزواج من الفتيان والفتيات كما لابد أن يكون .. وبدأت هذه العلاقات الخاصة تضيق بالانحصار داخل الأسوار ، التى تفرض البراءة المصطنعة على وضع هو بطبيعته غير برىء .

وكان لابد أن « يتفجر » الوضع ويخرج إلى الطريق ..

واخذ المجتمع يتعود أن يرى أزواجا من البنين والبنات يخرجون من بناء الجامعة مصطحبين ، فى أدب ظاهر أول الأمر ، ثم يخف الأدب ويقل الحياء بالتدريج .. وأيا كان رأى ذلك المجتمع فى هذه البدعة الجديدة فإنه سرعـان ماتبلد حسه عليها فلم تعد تثير انتباهه ، إلا أن يرى حركة مستهجنة (أى كانت فى ذلك الوقت مستهجنة) كضحكة أو لفتة أو نظرة أو لمسة مما كان - يومئذ - أمرا غير لائق فى الطريق ! ولكنه عاد فتبلد حسه حتى على الحركات التى كان يستهجنها من قبل ، وعزاها - ببساطة - إلى أن هذا الجيل الجديد جيل فاسد لايرجى منه خير ، والقى القضية من حسه ، وتركها لتصبح أمرا واقعا فى المجتمع « الجديد » !

وملأت « الصداقـات » المجتمع .. الصـداقات بـين الفتيان والفتيـات صداقات بريئة - هل فى ذلك شك ؟!

زميل وزميلة .. أحس كل منهما بالميل إلى الآخر والراحة إليه ..

ويلكم أيهـا المتزمتـون ! اليس لكم هم إلا الاعتـراض عـلى الأمـور التى لاتستوجب الاعتراض ؟! الا تريدون أن يبنى البيت السعيد على المودة والحب ؟ هذان فتى وفتاة سيجمع بينهما الزواج السعيد عما قريب ! أليس من الأفضل

أن يتعارفا لتدوم المودة ؟ أم تريدون أن يؤتى له بفتاة لم يـرها قـط إلا ليلة الزفاف ، رأتها أمه أو أخته ، فأعجبتها ، أما هو فلا يعرف شيئا عن شكلها ولا طباعها ولاثقافتها ولانظرتها للأمور ؟!

وهى ؟ أليس من حقها أن تعرف شريك حياتها وتشارك فى اختياره ؟ أليس من الظلم أن تباع بيعا إلى رجل لا تعرفه قبل اللحظة ، لأنه أعجب أبـاها أو أخاها ، أو كان صاحب مال وجاه ، وقد يكون فظاً قاسيا لا قلب له ؟ أليس من الأفضل أن تتعرف إليه عن طريق الصداقة .. الصداقة البريئة .. التى تكشف عن الطبائع وتؤلف الطباع ؟!

* * *

ثم بدأت « البراءة » تذهب رويدا رويدا عن الاختلاط .

بدأت تقع حوادث مشينة .. أى كان ينظر إليهـا فى ذلك الحين عـلى أنها مشينة !

وانبرى المدافعون يدافعون عن الاختلاط . إنه ليس هو السبب فيما حدث ! إنما هى التجربة الجديدة لابد أن يكون لها ضحايا ! إنها تجربة « التحرر » .. تحرر الفتى والفتاة كليهما من القيود العتيقة والتقاليد البالية .. والفتاة بصفة أخص ، فقد كانت هى التى يقع عليها عبء هذه التقاليد البالية .. فإذا وقعت هنا أو هناك حادثة مشينة فذلك رد الفعل للكبت الطويل الذى كان الشباب يعيش فيه ، وللقيود الظالمة التى كانت تعيش فيها الفتاة بصفة خاصة ، فلاترفعوا عقيرتكم أيها المتزمتون تستغلون هذه الحوادث الفردية وتضخمـونها فـوق حقيقتها ! إنها نزوات طارئة ، وسرعان ماتهدأ الأمور وتستقيم حين يصبـح الاختلاط شيئا عاديا فى المجتمع ، وتزول آثار الكبت الماضية ، وآثار التقاليد البالية التى سجنت الفتاة طويلا داخل الجدران . وجعلت التجربة الجديدة - تجربة التحرر - تبهرها فتزل من أجل ذلك بعض الأقدام ! لابد أن نرعى التجربة الجديدة ، ونوجهها بالحسنى إلى الطريق القويم ، بدلا من هذا الصياح الفارغ الذى يتصايح به المتزمتون !

ويمضى الزمن فى طريقه فتتكاثر الحوادث المشينة ، ويخفت صوت المدافعين عن الاختلاط البرىء ، فقد فقد براءته ولم يعد من المقبول ادعـاؤها ولا من الممكن تصديقها !

ولكن .. فلتذهب تلك البراءة إلى غير رجعة ! هل كنا نريدها حقيقة أو ندافع

عنها مخلصين ! إنما كانت هى الطعم المزيف الذى وضعناه ليأتى الصيد .. وقد جاء .. فما حاجتنا بعد للتزييف« ١ » ؟!

ولكن « تطورات » كثيرة كانت تحدث فى تلك الأثناء .. كانت ألسنة اللهب تمد مدا لتحرق أشياء جديدة فى مجالات جديدة ..

طالبت المرأة - أو طولب لها - بحق العمل بعد حق التعليم .

وهل كان فى ذلك شك لمن يرقب سير الأمور ؟

هذه هى الفتاة قد تعلمت على خط الرجل تماما من الألف إلى الياء .. من التعليم الابتدائى حتى الجامعة .. و« أثبتت جدارتها » فى كل مرحلة من هذه المراحل،بل تفوقت على الرجل فى كثير من الأحيان .. فلماذا لاتعمل كما يعمل ؟! ما الذى يمنع ؟!

الدين ؟ الأخلاق ؟ التقاليد ؟!

لقد رفع « الرجل » هذه الشعارات كلها فى وجه المرأة ليصدها عن السير فى هذا الطريق ..

وقال المدافعون كما قالوا كل مرة : إن الرجل يخشى على مكانته التقليدية وتميزه التقليدى ، ويخشى منافسة المرأة له فى ميدانه الوحيد المتبقى له بعد أن تخلى عن تفرده فى جميع الميادين بفعل الكفاح « المر » الذى خاضته المرأة لنيل حقوقها .. وسيتخلى عن هذا الميدان كذلك رضى أم أبى .. لأن خطى « التطور الحتمى » ستجبره فى النهاية على التسليم .

ولكن الرجل لم يتنازل عن تفرده فى هذا المجال بسهولة ، وظل يرفع تلك الشعارات يحاول بها أن يصد المرأة عن اللحاق به فى هذا الميدان ..

هل كان يؤمن حقيقة بالدين والأخلاق والتقاليد ؟

كلا ! إنما هو مجرد سلاح يستخدمه فى المعركة حين يظن أنه سلاح مفيد !

ولكن الشياطين دخلوا مرة أخرى يستغلون الفرصة السانحة أقصى مايستطيعون من استغلال .

دخلوا ليثيروا فى قلب المرأة حقدا جارفا على الدين والأخلاق والتقاليد .. على أساس أن كل ما تطالب به المرأة هو حقوقها المشروعة ، وأن الذى يقف فى سبيل نيلها لهذه الحقوق هو هؤلاء الأعداء الثلاثة : الدين والأخلاق والتقاليد ..

« ١ » رغم أن اسطوانة « الاختلاط البرىء » قد بليت تماما فى أوربا والقيت جانبا ، فقد استخدمت هى هى فى الشرق الاسلامى فيما بعد !

فلتذهب جميعها إذن إلى غير رجعة ، لتنال المرأة حقوقها وتستريح .

وكان هذا لأمر يراد ..

كان يراد إحراج صدرها ضد الدين والأخلاق والتقاليد لتنسلخ هى منها أولا ، ثم لا تربى أبناءها عليها فيما بعد ، لأن ذلك هو الضمان الوحيد لإفساد المجتمع فسادا لارجعة فيه !

لقد جرب المخططون من قبل محاولة إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فلم تنجح التجربة بالصورة المطلوبة .. إن الشاب مهما فسد فى فترة شبابه فإنه يعود إلى مالقنته له أمه فى طفولته من مبادئ الدين والأخلاق والتقاليد ، حتى إذا أخذ يؤسس أسرة أسسها على تلك القيم التى تلقاها من قبل ، ولم تفلح الفترة التى انفلت فيها فى شبابه فى تحويله إلى المسار الجديد ..

وعندئذ أدركوا أنه لابد من إفساد الأم ذاتها لكى لاتلقن أطفالها تلك « المبادئ » التى تعرقل خطوات الشياطين .. وساروا بها تلك المسيرة الطويلة فى طريق الفساد ، ولكن الحواجز - أو بقايا الحواجز - ماتزال تمنعها أو تبطىء خطواتها على الطريق .. فلتكن المعركة إذن حامية بين المرأة وبين الدين والأخلاق والتقاليد ، لكى تحطمها بنفسها ، ولكى تكون فى مناعة كاملة منها حين تصبح أما ذات أطفال .. فلاتبذر فى نفوسهم تلك البذور السامة التى يكرهها شعب الله المختار ، أشد ما يكره من شىء على الإطلاق !

لقد كانت مسألة إقحام المرأة فى ميدان العمل جزءا رئيسيا من الخطة الشريرة .

فإخراجها من البيت لتتعلم ، وإشاعة الاختلاط والصداقات بين فتيان الجامعة وفتياتها ، وتعويد المجتمع على قدر من الفساد الخلقى ، وتحطيم التقاليد التى كانت تمنع ذلك كله .. كل ذلك مفيد ولاشك ، ولكنه ليس كفاية !

مازالت المرأة - بقدر ما - خاضعة للرجل فى الأسرة والمجتمع ، ومازال هذا القدر من الخضوع - على ضآلته بالنسبة لما كان من قبل - عائقا يعوق المرأة عن مزيد من الفساد ، لأن الرجل - بأنانيته كما يقولون ، أو بشىء من التعقل والتفكير وعدم الاندفاع - يعارض فى توسيع مجالات المرأة،ويريد أن يربطها بوظيفتها وببيتها وأولادها ، وذلك كله يعوق خطوات الشياطين .

لذلك كان لابد من إخراج المرأة نهائيا من سيطرة الرجل ، ليتم للمخططين كل مايريدون .

وهل من وسيلة لكسر هذه السيطرة أفعل من أن تعمل المرأة و« تستقل » اقتصاديا عن الرجل ؟

لقد عملت المرأة من قبل فى المصانع ، ولكن الطبقة العاملة كما قلنا لم يكن لها وزن فى توجيه المجتمع .. والفساد الخلقى فى هذه الطبقة - رغم فائدته الجزئية للمخططين - لايكفى وحده ولايؤتى الثمرة المطلوبة ، إنما لابد كما أسلفنا من إفساد الطبقة الوسطى ، أداة التوجيه الجديدة فى المجتمع الجديد .

ولم يقل المخططون للأمميين بطبيعة الحال إنهم يريدون أن يثيروا الخبال فى صفوفهم - بتشغيل المرأة المتعلمة وإبعادها عن بيتها وعن وظيفتها - وما كان من الممكن أن يكشفوا لهم عن لعبتهم ليوقظوهم من غفلتهم ، إنما قالوا لهم إنه « التطور » ! وإنه تطور « حتمى »!وإنه لابد أن يأخذ سبيله رضيه الناس أم أبوه ! أما المرأة فقد قالوا لها إن هذا حقها « الطبيعى » وإنها ينبغى أن تتشبث به ولا تتنازل عنه ولا تتخاذل فى الكفاح من أجله .

وأغريت المرأة بكل وسائل الاغراء لكى تهجر بيتها وتخرج إلى « المجتمع » !

قيل لها إن حبسها على وظيفة الزوجية والأمومة ورعاية النشء هو امتهان لها وإهدار لكرامتها وتعطيل لطاقتها ، وهو فى الوقت نفسه تعطيل للمجتمع عن التقدم ، فمايستطيع المجتمع أن يتقدم ونصفه حبيس وراء الجدران !

وقيل لها إن الرجل هو الذى حبسها على هذه الوظائف أنانية منه ، لتقوم على خدمته ، ولينفرد هو بأمور « المجتمع » ! وإنها منذ هذه اللحظة ينبغى أن تثور على هذا الوضع المهين ، وتقف الرجل عند حده ، وتفرض عليه احترامها ، وتفرض عليه المشاركة فى أمور المجتمع .. وإن الوسيلة لهذا كله هو أن تعمل ، فإنها حين تعمل تصبح مثله تماما فى كل شىء ، فيتنازل عن أنانيته وغطرسته ويحترمها !

ولما قيل إن الدين - لا الرجل - هو الذى خصص للمرأة هذه الوظائف ثارت ثائرتها على الدين ، وتمنت فى قرارة نفسها أن يزول سلطانه على النفوس ، لتتحرر هى وتأخذ مكانتها التى تصبو إليها .. وبذلك جندها الشياطين لمحاربة الدين ، تحاربه لحسابها الخاص ، فتحاربه بحماسة ، وتحاربه بإخلاص ! فيتحقق للشياطين مايريدون من إبعاد « الأم » عن الدين ، لضمان تنشئة الأجيال المقبلة بعيدا عن حماه ..

وفعلت اللعبة الخبيثة فعلها ، وسرت كالسم فى دماء الأمميين .

استقلت المرأة اقتصاديا وتمردت على قوامة الرجل ، كما تمردت على الدين والأخلاق والتقاليد .. وانفلتت - كما أريد لها - بلا ضوابط ولاقيود .

وسارع الشياطين إلى انتهاز الفرصة المتاحة من كل جوانبها .

فالآن فلتنشط بيوت الأزياء وبيوت الزينة ، بعد أن انحلت العقدة الكبرى التى كانت تبطئ خطى الفساد « ١ » .

ولقد كانت الملابس من قبل طويلة وساترة إلى حد ما - برغم مافيها من زينة - لاتبرز « مفاتن » المرأة بشكل مفضوح . فالآن وقد سنحت الفرصة فلتنشط بيوت الأزياء فى إخراج « المودات » التى تكشف رويدا رويدا عن هذه « المفاتن » ولتنشط معها الصحافة لنشر الأمر على أوسع نطاق .

فلتكن هناك مجلات خاصة بالمرأة ، وركن خاص بالمرأة فى الصحف والمجلات غير المتخصصة ، وليكن حديثها عن « المودة » مغريا إلى الحد الذى لاتفلح الضوابط فى مقاومة إغرائه ، خاصة وقد انحلت عقدة الحياء .

ولاشك أن الأحاديث الأولى كانت مهذبة جدا ومتحفظة جدا حتى لاتثير ثائرة المتزمتين من الرجال .. ماذا لوقلنا مثلا : كيف تحافظين على محبة زوجك ؟ كيف تبدين أنيقة فى نظر زوجك ؟ وأرفقنا بالرسوم التى تبعث على الفتنة مجموعة من النصائح للمرأة المتزوجة لكى تحافظ على أناقتها ورشاقتها حتى تحتفظ بحب زوجها ولاتجعله يشرد عنها ؟ وهل يكره الرجل أن تتجمل زوجته من أجله ؟!

ثم .. فلنحذف لفظ الزوج .. فهو لفظ ثقيل استخدمناه للتغطية فقط فى مبدإ الأمر .. ومانريد أن يكون له نصيب أصلا فى هذا المجال .. ثم إنه لم يعد اليوم هو المسيطر .. لقد استقلت المرأة اقتصاديا .. وتستطيع - من كسبها الخاص - أن تنفق ماتنفق على اللباس والزينة ، لا أحد يحرج عليها ، ولا أحد يتحكم - بماله - فى تصرفاتها !

فلنقل فقط : كيف تحافظين على أناقتك .. كيف تبدين جميلة .. ولينظر إليها من ينظر ! زوجها أو غير زوجها ! إنها سائرة بأناقتها ورشاقتها فى الطريق ، ومن شاء فلينظر ومن شاء فليعرض .. إننا نحث فقط على الأناقة والجمال !

ثم فلنكن أكثر صراحة ..

فلنقل : كيف تجذبين نظر « الرجل » أى رجل ! نعم ! وماذا فيها ؟

---

(١) بيوت الأزياء الكبرى كلها يهودية وكذلك بيوت الزينة . واليهود يكسبون منها كسبا مضاعفا : يكسبون أرباحا خيالية لاتدرها الصناعات الأخرى ويكسبون سريان الفساد كالسم فى مجتمع الأمميين .

الا ينبغى أن « ينجذب » نظر الرجل ليختار من بين العابرات الرشيقات المتأنقات واحدة ربما تكون شريكة حياته ؟!

ثم .. فلنكن أكثر صراحة .. فنحن الآن فى وضع يمكننا من أن نقول كل مانريد .. وبغير ستار ..

فلنقل – صراحة – هذا فستان يكشف جمال الساق .. وهذا فستان يكشف مفاتن الصدر« ١ » وليمت بغيظه كمدا من أراد أن يموت من الرجعيين المتزمتين الذين يريدون أن يرجعوا عقارب الساعة إلى الوراء !

وخرجت المرأة فتنة هائجة فى الطريق ! كان مهمتها الأولى هى أن تبرز مفاتنها لكل عين منهومة فى الطريق !

واتسع نطاق « الصداقات » فى المجتمع ، فلم يعد مقصورا على طلاب الجامعة وطالباتها كما كان فى أول الأمر ، فإنما كانت هذه مجرد خطوة على الطريق .. أما اليوم وقد استقلت المرأة اقتصاديا فأى حاجز بقى ؟!

قيل فى البدء إن الصداقة هى مقدمة الزواج .. وإنها ينبغى أن تباح – بصرف النظر عن براءتها أو عدم براءتها – لضمان قيام الزوجية على أسس ركينة فلا تتزعزع فيما بعد !

ثم انجلت الحقيقة عن أنه لا زواج ! فلا الزواج فى نية الفتى العابث ولا فى نية الفتاة !

الصداقة من أجل الصداقة لا من أجل الزواج .. من أجل المتعة . من أجل قضاء « وقت طيب » فى هذه الحياة !

إن المخططين لايريدون أن يكون الزواج هو الذى يحكم علاقة الرجل والمرأة ، أو – على الأقل – لايريدون أن يكون الزواج هو الصورة الوحيدة لهذه العلاقة إن لم يستطيعوا – الآن – أن يقضوا قضاء مبرما على الزواج .

الم تسمع إلى قول دوركايم : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هى أشياء من الفطرة .. ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الانسان ! لقد كان « العالم الكبير » يقوم بدوره – على طريقته – فى تحطيم الزواج والأسرة . والآن تقوم العصابة الأخرى – على طريقتها – بذات الدور .

« ١ » هذه العبارات وامثالها عبارات واقعية ترد فى المجلات التى تتحدث عن « المودة » وعن أزياء النساء .

ينبغى أن تحل « الصداقة » محل الزواج ، وليتم فيها كل مايتم فى الزواج ولكن دون رباط مقدس ولا أسرة ولا أولاد !

تحتجون أيها المتزمتون ؟!

أما قرأتم فرويد ؟ أما قرأتم ما قاله عن الكبت ؟

أتريدون أن تتلفوا أعصاب الشباب وتصيبوه بالعقد النفسية والاضطرابات العصبية ؟

أو .. قولوا لنا ماذا يفعل الشباب بطاقته الجنسية الفوارة ؟

يتزوج ؟ قولوا لنا كيف يتزوج ؟ تعالوا معنا نناقش الواقع ! كم سنة يقضى الشاب فى التعليم حتى يتخرج من الجامعة ؟ وحين يتخرج كم يكون راتبه ؟

أيكفى هذا الراتب الهزيل لتكوين أسرة والإنفاق عليها ؟ إن أمامه على الأقل عشر سنوات حتى يصبح راتبه كافيا ـ مع ارتفاع تكاليف المعيشة ـ للزواج وتكوين الأسرة .. فماذا يفعل فى تلك الأثناء ؟ تريدون أن تحرقوا أعصابه أيها الرجعيون باسم الدين والأخلاق والتقاليد ؟!

* * *

يقول « ول ديورانت » الفيلسوف الأمريكى فى كتابه « مباهج الفلسفة » « ص ١٢٦ ـ ١٢٧ من الترجمة العربية »

« فحياة المدينة تفضى إلى كل مثبط عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ، ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم ، وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية ، ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا ، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة

البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخـلاقى الزراعى ، ولم يعد العـالم المدنى يحكم به « ١ »

ولا يناقش « ول ديورانت » تلك الأسباب التى قال إنها تعطل الشباب عن الزواج الباكر ، إنما يأخذها أمرا واقعا وقضية مسلمة وينظر إلى آثارها كذلك على أنها أمر واقع لا حيلة فيه أكثر من كلمة أسى عابرة يقولها ويدعها تمضى تصيب من تصيب !

ولكن ! أهى حقا كذلك ؟ أهى أمر لا مفر منه ؟

من الذى وضع العوائق فى طريق الزواج ، ثم وضع الصداقة (أو البغاء !) بديلا من الزواج ، ثم زعم أنه تطور حتمى جاء به الطور الاقتصادى الجديد ؟!

إنهم - كلهم - يهود !

ثم سمموا أفكار الأمميين ، فأصبحوا يرددون وراءهم ما يقولون !

لو بقيت الأسرة الكبيرة عـلى ترابـطها وظل الأب ينفق عـلى أولاده حتى يتكسبوا (وهم ينفقون عليه فى كبرته إذا احتاج) وظلت أسعار الحاجيات فى النطاق المعقول ، وجعلت رواتب الخريجين بحيث تكفى لتكوين أسرة أو أعطى الراغبون فى الزواج منحة تمكنهم من إنشاء الأسـرة فأى حتمية كانت تقف فى طريق ذلك كله وتمنع تنفيذه ؟

كلا ! إن القضية كلها أن الشياطين لايريدون ! لايريدون أن يظل للأمميين دين ولا أخلاق ولا أسرة ولا زواج ، لأن هذه كلها « عوائق » تمنع دوران العجلة الشريرة التى تنشر الفساد !

لذلك انشأوا الواقع على هذه الصورة وزعموا أنـه التطور الحتمى . وأن عجلته ستسحق كل من يقف فى الطريق !

ودارت العجلة دورتها فأحدثت كثيرا من الشر .

ولندع ول ديورانت نفسه يصف جانبا من هذا الشر ، كما وجده فى بلاده فى أوائل هذا القرن ، وكما تخيل نتائجـه المقبلة . وإن كان الواقـع الذى حدث بالفعل أفظع بكثير مما تخيله فى ذلك الحين :

- ١ - يلجأ - ول ديورانت - إلى التفسير المادى للتاريخ يفسر به اختفاء العفة من المجتمع الصناعى وانتشار الفاحشة فيه حتى تصبح هى الأصل المعترف به وتصبح العفة مثار السخرية . وليس هذا هو التفسير الحقيقى لذلك التحلل الخلقى الذى حدث فى المجتمع الصناعى ، إنما هو راجع - كما رأينا فى هذا الفصل - إلى ذلك المخطط الشرير الذى يهدف الى إفساد البشرية .

« ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولا عنه . ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم حلقه الانسان . وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ـ وهم فى حمّى الفوضى الصناعية ـ من حمى الزواج ورعايته للصحة .

« ولايقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية .. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقه يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها » ...

« وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة ، قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات ـ وقد أكسبهم المال جرأة ـ أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل فى الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفا للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديما يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنبا ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة » ..

« وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل فى هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين فى ظل الصناعة والتجارة ،

وعودت الجنود الوحشية والإباحية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى . وأصبحت الحكومات فى واد والشعب فى واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها . واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة أو إلى طفيليات فاسدة . ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى « ١ » وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة »..

« لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلابد أن يتغير كل شىء . فقد قل أمن الفرد فى الوقت الذى نما فيه الأمن الاجتماعى . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر جاثما كل لحظة . أما الشباب الذى أصبح أكثر إقداما وأشد غرورا من قبل فهو عاجز ماديا وجاهل اقتصاديا إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشاب على الزواج وجيبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفا (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفى للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب».

« حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية . فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها

---

(١) يشير إلى وسائل منع الحمل والوقاية من الأمراض السرية وهما الأمران اللذان وفرتهما الحضارة ! وإن كانت التقارير الأخيرة تشير إلى أن هذه الأمراض لم يمكن القضاء عليها رغم كل المحاولات المبذولة بل إنها آخذة فى الانتشار الذريع !

الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها ، وقد لايقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب ، فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر مترددا ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا فى مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

« وأخيرا تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا فى كنيسة ، لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثما على إيمانهما المهجور أثر فى قلبيهما ، إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير السياسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكا ، ويتوجهان إلى البيت فى صخب .

« إنه ليس بيتا ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التى يشعران بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا كأنهما فى زنزانة سجن فى حجرات ضيقة لايمكن أن تستبقيهما فيها طويلا ، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئا روحيا كالبيت الذى كان يتخذ مظهرا ويكسب روحا قبل ذلك بعشرين عاما (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شىء مادى فيه من الجفاف والبرودة ما تجده فى مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لاينفذ إليه ربيع ، ولاينبت لهما الصيف الزرع النضر بل سيلا من المطر .. ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر بل المتاعب والذكريات الحزينة .

« وتصاب المرأة بخيبة أمل ، فهى لاتجد فى هذا البيت شيئا يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر .. ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هذا البيت يعزى شعوره ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق .. ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبها عاديا تلك العلاقات

غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد فى هذا البيت ، وليس فيه مابينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب .. فيعتزمان منع النسل .. إلى أن يقع بينهما الطلاق !

« ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح لأنه صلة جنسية لارباط أبوة فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر ، وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف ، فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته ...

« ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده .. فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لايكون النسل مقصودا ، وسيزداد الزواج الحر ، مباحا كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة ، وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة يضحى الحمل أمرا عارضا فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شىء ! »« ١ » .

« ١ » مقتطفات من كتاب « مباهج الفلسفة » من ص١٢٦ - ٢٣٦ .

إن إخراج المرأة من البيت ودفعها إلى العمل فى الخارج - أيا كانت الدوافع التى أدت إليه وأيا كانت النوايا الكامنة وراء ذلك - قد أحدث دمارا عنيفا فى المجتمع ، لا يمكن الإحاطة بكل أبعاده،لأنه مازال يلد شرورا جديدة حتى هذه اللحظة .

إن تخصيص المرأة للبيت لوظيفة الأمومة ورعاية النشء لم يكن ظلما للمرأة ، ولا تحقيرا لها ، ولكن الجاهلية هى التى جعلته كذلك حين عيرت المرأة بأنها تحمل وتلد ولا تصنع غير ذلك !

والجاهلية - دائما - تظلم المرأة وتقسو عليها وتهينها وتعيرها ، ولا ينقذها من ذلك شىء إلا شرع الله ومنهجه المنزل لإصلاح البشرية وإقامة العدل فى الأرض .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط « ١ » »

كل جاهلية من جاهليات التاريخ عيرت المرأة بوظيفتها،وجعلتها تشعر أنها دون الرجل من أجل هذه الوظيفة .. بينما يقول الوحى المنزل من عند الله :

« ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير »« ٢ »

فالوصية هى بالوالدين كليهما ، ولكن التكريم الأكبر هو للأم التى حملته وهنا على وهن .

ويسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أولى الناس بحسن صحابتى قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال أمك : قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك ! « ٣ » والحديث واضح الدلالة على تكريم الأم ووظيفة الأمومة .

أما وهى زوجة فهذا هو المنهج الربانى :

« وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا « ٤ » »

« ١ » سورة الحديد [٢٥]
« ٢ » سورة لقمان [١٤]
« ٣ » متفق عليه
« ٤ » سورة النساء [١٩]

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» ١ «

فالمنهج الربانى الذى خصص المرأة لوظيفتها لم يعيرها بها ويجعلها مهينة من أجلها ، بل كرمها من أجل تلك الوظيفة وأكرمها وهى تقوم بها ، وقال لها إن قيامها بهذه الوظيفة هو سبيلها إلى رضوان الله والجنة ، كما أن القتال فى سبيل الله هو طريق الرجل إلى رضوان الله والجنة،فجعل هذه مكافئة لتلك ، لأن الله يعلم سبحانه أن هذا هو الميزان الصحيح الذى يقيم الحياة البشرية بالقسط ، ويعلم خطورة الدور الذى تقوم به المرأة فى رعاية البيت وتنشئة النشء ، ويعلم كذلك مدى الفساد الذى يمكن أن ينشأ حين تهجر المرأة وظيفتها من أجل أى شىء آخر فى هذا الوجود ، فضلا عن أن يكون هذا الشىء هو مجرد اللهو والعبث والفساد الخلقى !

ولكن الجاهلية التى يسيطر عليها اليهود ويوجهونها قد ضربت بالمنهج الربانى عرض الحائط .. واتبعت وحى الشياطين.فأى شىء أصابها حين فعلت ذلك وأى خبال ؟!

فأما الفساد الخلقى فحدث عنه ولا حرج !

لقد ظل الرجل « يكافح » ضد « حقوق المرأة » ردحا من الزمن غير قليل ويعارض ـ بالذات ـ مزاحمتها له فى ميدان العمل . ولكنه أخيرا لان فى معارضته ، بل كف عنها نهائيا وتحمس لمشاركة المرأة له فى جميع الأعمال ! فهل تغير الرجل حقيقة فى تلك الجاهلية فأصبح ـ فجأة ـ مُؤْثرا عادلا بعد أن كان ظالما مستأثرا يستأثر لنفسه بالمكانة السامية والمنزلة الرفيعة ؟! أو أن المرأة أجبرته بالفعل على احترامها كما زعمت الجاهلية وهى تزين للمرأة أن تقحم نفسها فى كل ميدان كان الرجل يستأثر به من قبل حتى ميدان الفساد الخلقى ؟!

كلا ! إنما حسب الحسبة فوجدها رابحة !

وأربح ما فيها سهولة الحصول على المرأة فى المكتب والمصنع والنادى والشارع والمرقص والملعب .. فى كل مكان !

لم يعد يتعب فى الحصول على لذائذ الجنس ! فهى متاحة له أبدا فى كل

« ١ » رواه الترمذى

لحظة ! بإشارة ومن غير إشارة ! فالمرأة العارية المتبرجة المبرزة « لمفاتنها » أمامه حيث ذهب ، يلقاها حيث توجه .. لا واحدة ولا عشر ولا مئات ! كلهن ! من فيهن بغير تبرج ولا زينة ولا تفتن فى « جذب » الرجل إليها ؟!

فإذا حركته الفتنة لطلب الجنس فما أيسر !

فإن كان دنىء الحس حيوانا فالبغاء الرسمى وغير الرسمى ميسر ، والمحترفات كثير ! وإن كان «مهذبا !» « متحضرا ! » « مترفعا ! » فهناك « الصداقة » وهى متاحة أبدا بحكم الزمالة والاختلاط المستمر ، وفى الصداقة يقضى حاجة الجنس كلها ، ومعها « تقدير » المجتمع لتهذبه وتحضره وترفعه ، وقضائه حاجة الجنس مع الهاويات لا مع المحترفات !

أما هى فقد رضيت بتلقى « عواطف » الرجل ومغازلاته وإطرائه « لجمالها » و « فتنتها » و« رشاقتها » و « جاذبيتها » .. ورضيت كذلك بتلقى نزوات جسده لأنها هى أيضا تطلب الجنس !

أما قرأت فرويد ؟!

ألم يقل لك فرويد فى التفسير الجنسى للسلوك البشرى إن الانسان كله طاقة جنس متحركة تسعى لإثبات الذات عن طريق ممارسة الجنس ؟ وإن التحقيق الأكبر للذات هو الذى يتم عن طريق الجنس ؟!

ألم يقل إن أى حاجز يوضع أمام طاقة الجنس فمعناه الكبت والعقد النفسية والاضطرابات العصبية ؟

وهى أيضا لا تريد لنفسها الكبت ولا العقد ولا الاضطراب ! إنها تبحث عن « الصحة النفسية » وهذا «حقها» الطبيعى !.. والصحة النفسية لا تتحقق - كما قال فرويد - إذا كان هناك حاجز يقف فى طريق الإشباع الجنسى !

فلما قيل لها كما قيل فى كل مرة ، الدين .. والأخلاق ... والتقاليد .. لعنت كل أولئك وطالبت « بحقها » ! حقها فى إبداء عواطفها ! حقها فى أن تهب نفسها لمن تشاء .. فهذا هو التحرر ! هذا هو التحرر !

ألم يقل ماركس إن المرأة فى المجتمع الصناعى تتحرر لأنها تستقل اقتصاديا عن الرجل فتتحرر من سلطانه فتفقد قضية العفة أهميتها ؟!

ما قيمة العفة ؟ من ذا الذى يحرص اليوم عليها ؟!

إن الرجل ذاته قد تبلد حسه ، وفقد عرضه ، ولم يعد يهتم ! بل إنه فى سبيل لذاته الحيوانية الهابطة قد رحب كثيرا بهذا التطور الذى يسر له تحقيق رغباته

دون تحمل أى مسئولية على الإطلاق .. لا مسئولية مخالفة قواعد الأخلاق ومجافاة التقاليد .. فقد ذهبت الأخلاق والتقاليد ، ولا مسئولية تحمل أعباء أسرة فى مقابل الإشباع الجنسى ، فالاشباع قد أصبح بهذا « التطور » متاحا بغير مقابل . ولا المسئولية « الجنائية » « فالصداقة » تمنع الجزاء !

وأما هى فما الذى يمنعها ؟ الحياء ؟! وماذا كان يفعل الشياطين طوال كل هذه السنوات إلا قتل هذا « العدو » الفطرى وإنشاء فتاة « جديدة » « متطورة » قليلة الحياء ؟!

من أجل ذلك « طفح » الجنس .. فى الشارع والغابة والنادى والملعب والمرقص ، والقصة والمسرح (والسينما فيما بعد) وفى المجلة والصحيفة اليومية فضلا عن المجلة المخصصة للصور العارية والاثارة الجنسية ، ووصل إلى درجة التهتك والحيوانية التى يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان !

وبمناسبة ذكر السينما فهى فى أصلها مؤسسة يهودية خالصة فكرة ومالا وتخطيطا وتوجيها .. هدفها العمل السريع على إفساد الأمميين بما للصورة المتحركة من سحر وقدرة على التأثير . وإذا كان الأمميون اليوم « يتنافسون » فى مجال السينما ، ويتسابقون فى تحويلها إلى ماخور كبير ، فعن رضا كامل من الشياطين وتشجيع ! فما أشد ابتهاجهم بهذا التنافس والتسابق ، وما أشد فرحتهم وهم يرون اللعبة المسمومة سارية المفعول ، لاينجو منها فتى ولا فتاة ولا شيخ ولا شيخة ولا طفل ولا طفلة إلا من رحم ربك !

أما التلفزيون ـ آخر المستحدثات ـ فلا يحتاج الى حديث !

فالخلاصة أن وسائل الإعلام كلها قد استخدمت على نطاق واسع لاشاعة الفساد الخلقى والتفاهة والتميع والانحلال فى كل بلاد الأرض .. والشياطين يتفرجون !

*

وأما تفكك الأسرة فحدث عنه كذلك ولا حرج !

لقد كان البيت سكينة وسكنا بالزوجة التى تعمره والأم التى ترعى أطفاله : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ١ » .

وقد جعلها الله آية يتفكر فيها الناس ويتدبرون حكمتها ..

---

١ ـ سورة الروم [٢١]

إنه هكذا فى الفطرة التى فطرها الله يخرج الرجل ليكدح فى خارج البيت ، ثم يعود فيجد السكن والسكينة والراحة الجسدية والعصبية والنفسية التى تمحو عنه آثار الكدح ، وتعده فى الصباح لكدح جديد ..

ويجىء الأطفال فيجدون أما ترعاهم بحنانها الفطرى وجهدها الدؤوب الذى يتسع لمطالبهم المتغيرة المتجددة التى لا تكف .. ويتعلمون فى حضنها معنى الحب ، تتغذى به أرواحهم الغضة فيوازن فى نفوسهم - فيما بعد - مشاعر الصراع التى يثيرها الكدح لإشباع النوازع والرغبات .. ويجدون أبا يحيط هذه الأسرة كلها برعايته وحبه وتوجيهه وقيادته،فيتعلمون تحت قيادته الانضباط والاستقامة على النهج،كما يتعلمون من الأبوين معا معنى التعاون والتراحم والمودة،وكل المعانى « الإنسانية » التى تصنع ذلك « الإنسان » .

ولكن الفطرة - بصورتها تلك - هى العدو الأكبر للذين يسعون فسادا فى الأرض :

« ويسعون فى الأرض فسادا والله لايحب المفسدين » « ١ » .

إنها هى التى تسد فى وجوههم الثغرات بما تحكم من إقامة السدود والحواجز أمام الشيطان،بقدر ما تركز فى نفوس الأطفال من الدين والأخلاق والتقاليد المستمدة من مبادئ الدين ..

أفلا يكون تحطيم الأسرة إذن فرحا عظيما للشياطين ؟

وكان إخراج المرأة للعمل هو المعول الأكبر لتحطيم الأسرة وإن لم يكن هو المعول الوحيد .

فبادئ ذى بدء فقد البيت سكنه وسكينته واصبح كما قال « ول ديورانت » بحق أشبه بالفندق الذى يأوى إليه المكدودون ليقضوا فيه فترة الليل ثم ينطلقون منه فى الصباح كل إلى طريق .

وفقد الأطفال الأم .. الأم المتخصصة لرعايتهم التى يجدون عندها الحنان الفطرى والرعاية اللازمة . فحين تعود الأم العاملة مكدودة كما يعود الرجل ، فإنها لا تجد فى نفسها ولا أعصابها فضلة تمنحها للبيت ، لا للزوج ولا للأطفال .

وعبثا تحاول الجاهلية - أو يحاول الشياطين - أن يقولوا إن الأم الصناعية

« ١ » سورة المائدة [٦٤]

فى المحضن تغنى عن الأم الحقيقية فى البيت ، فالواقع هو الذى يكذب الدعاوى الكاذبة كلها ويفندها « ١ »

ولم يكن غياب الأم عن البيت هو العامل الوحيد فى تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال .. فهناك عنصر آخر لا يقل خطورة هو غياب « سيطرة الأب »

إن وجود « القوامة » فى البيت أمر قرره الله « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »« ٢ » والذى أودع فى الفطرة البشرية سماتها ونوازعها وهو العليم الخبير ، الذى يعلم ما يصلح لهذه الفطرة وما يصلحها .

ومن توفيقاته ـ سبحانه ـ أن أوجد فى نفس الرجل السوى القدرة على القوامة والرغبة إليها ، كما أوجد فى نفس المرأة السوية الرغبة فى قوامة الرجل والاطمئنان إليها :

« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » « ٣ »

ولكن الشياطين أرادوا أن يلغوا هذا كله ، لأن وجوده على هذه الصورة « مفسد » لمخططاتهم،وعائق ضخم فى سبيل الفساد الذى يسعون إليه . لذلك قال « علماؤهم » إنه ليست هناك فطرة ! وإن قوامة الرجل ليست أصلا من الأصول الثابتة فى الحياة البشرية . إنما هى انعكاس لوضع اقتصادى معين ، يتغير ويتبدل حين يتغير الطور الاقتصادى ويدخل الناس فى طور جديد .

وجاءت بقية العصابة ـ بكل وسائل الإعلام التى تملكها ـ فنفخت فى المرأة روح التمرد على القوامة ، بدعوى المساواة الكاملة فى كل شىء .. فهى تقبل الرجل « زميلا » و « صديقا » تمنحه جسدها ويعطيها الإشباع الجنسى . ولكنها لا تقبله قيما فى البيت ولا فى المجتمع ولا فى شأن من شؤون الحياة !

ومن ثم لم يعد للرجل فى الأسرة ذلك السلطان ، إنما أصبح السلطان إما للمرأة التى تريد أن تثبت شخصيتها ، وإما منازعة دائمة بين الرجل والمرأة فى البيت ، كل يريد أن يثبت أنه هو صاحب السلطان ! وكلا الحالين مفسد لترابط الأسرة ومفسد للأطفال .

وأخيرا جدا اعترفت المؤتمرات التى تنعقد لدراسة مشكلة الأطفال الجانحين ويشترك فيها علماء من كل نوع ، فى علم النفس وعلم الاجتماع وعلم

« ١ » اقرا بشأن أطفال المحاضن كتاب « انا فرويد » : « اطفال بلا اسر »
« ٢ » سورة طه [٥٠]
« ٣ » سورة الملك [٣]

الجريمة والقانون .. الخ . اعترفوا بأن غياب سلطة الأب فى البيت والمجتمع سبب من الأسباب الرئيسية فى تشرد الأطفال من ناحية ، وزيادة نسبة الشذوذ الجنسى من ناحية أخرى !!

ومع ذلك فليس عمل المرأة ولا الشقاق الدائم فى البيت ولا غياب سلطة الأب هى الأسباب الوحيدة لتحطيم الأسرة !

فهى - قبل ذلك - محاربة الميل الفطرى إلى تكوين الأسرة من منبعه !

ألم يقل عالمهم دوركايم : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هى أشياء من الفطرة ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الانسان ؟!

ثم جاءت بقية العصابة فوضعت كما قال « ول ديورانت » كل المعوقات فى طريق الزواج وكل المرغبات فى الإباحية الجنسية .

ولقد كانت «الصداقة» بين الرجل والمرأة هى الأداة الكبرى فى يد العصابة لتحويل الفطرة عن مسارها .. فى تلك «الصداقة» يجد الرجل المنحرف الفطرة والمرأة المنحرفة كل مطالبها !

. يجد الرجل - المنحرف - متعة الجنس بلا تكاليف . لا التكاليف النفسية ولا العصبية ولا المادية .. فهو يقضى رغبته بلا معقبات .. لازوجة يتحمل تبعتها ونفقاتها ، ولا بيت مؤثث بما يناسب الأسرة،ولا أطفال يحتاجون إلى الرعاية وتتزايد مطالبهم على الدوام ، ولا التزام كذلك أن « يخلص » لرباط الزوجية لايتعداه !

وتجد المرأة - المنحرفة - كذلك متعة الجنس بلا تكاليف ، لا حمل يرهقها ويفسد «رشاقتها» ولا رضاعة ولا رعاية أطفال ، ولا مسئولية إدارة بيت متعدد التبعات ، وتجد بالإضافة إلى ذلك «زميلا» لا يطالبها بشىء .. فلا هو يطلب القوامة عليها ، ولا هى مكلفة تجاهه بالخضوع لتلك القوامة التى أصبحت تبغضها نفسها ولا تحب أن تدخل فيها .. ولا هى كذلك مكلفة بأن تكون له وحده كما تقتضى شرعة الزواج ! «١» .

فإذا كانت الأمور كذلك فلماذا الأسرة « ووجع الدماغ » ؟!

فأما إن حدث الزواج بعد ذلك كله .. فهناك البيت المفكك وهناك نسبة الطلاق

« ١ » الواقع أن الاخلاص للزوجية لم يعد له وجود من الطرفين ! ولم يعد الزوج ولا الزوجة يجدان حرجا فى « التغيير » بين الحين والحين ، ويتم ذلك بمقتضى « دستور » غير مكتوب عنوانه « متع نفسك » أو « متعى نفسك Enjoy yourself » .

المتزايدة « ١ » وهناك تشرد الأطفال !

وأما عن القلق النفسى والعصبى فتلك تقاريرهم تغنى عن الحديث .. يصيب الجنون من أفراد الشعب الأمريكى أكثر من المصابين بأى مرض آخر من الأمراض الفتاكة .. والعيادات النفسية منتشرة فى غرب أوروبا وأمريكا بدرجة ملحوظة ، ومن « الروتين » المعتاد فى الحياة الغربية أن يذهب الانسان إلى العيادة النفسية مرة على الأقل كل شهر إن لم يكن مرة كل أسبوع لمعالجة القلق النفسى والاضطرابات العصبية ! « ٢ »

وحوادث الانتحار كثيرة كثرة تلفت النظر .

والإدمان على الخمر والمخدرات فى زيادة مستمرة رغم كل المحاولات التى تبذل للحد من الإدمان . والدلالة واضحة ولاشك ، فلو أن الحياة سعيدة ومستقرة ما كان هناك دافع للهروب منها بالخمر والمخدر . إنما يلجأ إلى هذه « المغيبات » من يريد أن يفر من واقع مر لا يستطيع مواجهته ولا يستطيع تغييره ، فيهرب منه فى خيالات مفتعلة تنسيه مرارته لحظات .. ثم يعود أسوأ مما كان فيهرب من جديد !

والجريمة ـ بجميع أنواعها ـ فى تزايد مستمر . ووجود الجريمة ذاته له دلالة ، فإذا زادت حتى أصبحت أصلا من أصول المجتمع بحيث لايأمن الناس على أنفسهم أن تقع عليهم فى أية لحظة جريمة خطف أو سرقة أو قتل أو اغتصاب ، ويحتاجون دائما إلى إجراءات غير عادية لوقايتهم من الجريمة .. فإنها تعنى عندئذ أن الروابط « الانسانية » منحلة فى هذا المجتمع ، وأنه مجتمع مفكك فى حقيقته ، مهما وضع من الروابط السطحية المصطنعة على واجهته الخارجية !

وجرائم الأحداث أمر أسوأ دلالة وأشد خطورة .. وقد صارت مشكلة الأحداث الجانحين مشغلة دائمة للمجتمع الغربى . تجتمع لها المؤتمرات كل عام .. ثم تتزايد كل عام .

إنهم الأطفال المشردون الذين تركتهم أمهاتهم من أجل العمل فى المكاتب

« ١ » : بلغت نسبة الطلاق فى بعض الولايات الأمريكية ٤٠٪ من عدد المتزوجين وهذا غير حالات الهرب من بيت الزوجية وحالات الخيانة مع استمرار الزواج الصورى !

« ٢ » أشرنا من قبل إلى أن القائمين على العيادات النفسية معظمهم من اليهود ، وهم يعالجون الأمراض النفسية بمزيد من الخلل فى النفوس ومزيد من الإباحة الجنسية !

والمصانع والمتاجر ، وللهو والعبث فى الليل ، والذين فقدوا توجيه الأب الحازم لأن الأب ذاته قد فقد كيانه فى معركته مع « المرأة المتحررة »والذين علمتهم السينما والتلفزيون كيف يصبحون مجرمين !

وهذا كله غير ألوان الميوعة والتفاهة التى يعيشها الشباب ، الذى كل همه أن يكسب النقود فى النهار لينفقها فى اللهو والمجون فى الليل ، وغير ألوان « الجنون » العامة التى استولت على حياة الأمميين : جنون السينما ، وجنون التلفزيون ، وجنون الكرة ، وجنون الجنس ، وجنون « المودة » وجنون العرى ، وجنون السرعة ، وجنون التقاليع .... الخ .

* * *

كيف استطاع اليهود أن يحدثوا هذا الشر كله فى الأرض ؟!

إنهم - فى الواقع - لم يكتفوا بإفساد أوروبا وإنما هم فقط بدأوا جولتهم من هناك .. ولكن هدفهم لم يكن مقصورا على أوروبا ، ونشاطهم الشرير لم يقتصر على الغرب ، إنما هم نشروا الفساد فى الأرض كلها عن طريق أوروبا - بعد إفسادها !

ففى خلال القرون الثلاثة الأخيرة كانت القوة السياسية والعسكرية والعلمية والمادية لأوروبا فى تزايد مستمر ، وكانت أوروبا تغلب بقوتها على العالم كله ، والعالم الإسلامى بصفة خاصة ، ومن خلال غلبة أوروبا على الأرض كلها ، وعلى العالم الإسلامى ، نشر اليهود سمومهم فشملت « الأمميين » جميعا - إلا من رحم ربك - وأدخلتهم فى المخطط الشرير الذى يحدد التلمود هدفه ووسائله :

« الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار »

فكيف استطاع اليهود أن يحدثوا هذا الشر كله فى الأرض ؟!

هل هم أولئك « الجبابرة » الذين يصورهم وليم كار فى كتاب « الأحجار » ؟!

هل هم أولئك العباقرة - كما يصورون أنفسهم - الذين لايقف أمام عبقريتهم شىء ولا يحول دونهم حاجز ؟!

هل هم أولئك المخططون العتاة الذين يخططون لألف عام ولمائة عام ولكل يوم من الأيام ، كما يتصورهم المهزومون من الأمميين الذين يقرأون أمثال « البروتوكولات » و« أحجار على رقعة الشطرنج » وغيرها من الكتب التى كان يخفيها اليهود عن العيون فيما مضى - قبل أن تنضج اللعبة وتستوى - وصاروا

هم اليوم الذين ينشرونها على نطاق واسع ليرعبوا بها الأمميين ويوهموهم أنهم يقولون للشيء كن فيكون .. يقرأونها وهم بغير رصيد من عقيدة تحميهم أو قوة تدفع عنهم ، فيقولون لأنفسهم : وماذا نصنع نحن أمام هذا المكر الماكر والتدبير الخبيث ؟!

كلا ! ليس اليهود شيئا من ذلك كله ! لاهم أولئك الجبابرة ، ولا هم أولئك العباقرة ، ولا هم أولئك المخططون العتاة !

ولقد خططوا ودبروا وحاولوا خلال ألفى عام أو أكثر فلم يصلوا إلى شيء مما يريدون .. إنما الذى جعلهم يقدرون فى القرون الثلاثة الأخيرة هو الأمميون أنفسهم ، بما أتاحوا لهم من ثغرات ينفذون منها ، وما أتاحوا لهم من فرص للإفساد .

اليهود لاينشئون الأحداث ولكنهم يجيدون استغلال الأحداث .

وأحوال الأمميين فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة هى التى مكنت لليهود كل هذا التمكين ..

يقول الله تعالى عن اليهود فى كتابه الكريم :

« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس « ١ » »

فالقاعدة الدائمة بالنسبة لهم هى الذلة المضروبة عليهم :

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب « ٢ » .

والاستثناء هو التمكين .

وهم اليوم فى قمة الاستثناء .. بحبل من الله وحبل من الناس .

فأما الحبل من الله فهو مشيئته سبحانه ، التى يجرى بمقتضاها كل ما يجرى من أمور هذا الكون .. فلو لم يشأ الله لليهود أن يتمكنوا اليوم من رقاب الأمميين ما تمكنوا ، ولكنه شاء ذلك سبحانه لحكمة ربما استطعنا فهمها إذا تدبرنا كتابه المنزل ، الذى يحوى تفسير مجريات الأمور كلها فى الحياة البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وأما الحبل من الناس فهذا الذى ينبغى أن نتدبره جيدا لنعرف الحجم الحقيقى للقوة الموهومة « لشعب الله المختار »

قلنا فى التمهيد الأول إن الكنيسة الأوروبية أفسدت فحوى « الدين »

---

١ . سورة آل عمران [١١٢]   ٢ . سورة الأعراف [١٦٧]

بالنسبة لأوربا،فشوهت العقيدة أولا ، وفصلت العقيدة عن الشريعة ثـانيا ، وقدمت الدين عقيدة خلوا من الشريعة إلا القليل ، فضـلا عما اقترفت الكنيسة من الخطايا التى تنفر الناس من الدين .

وينبغى أن ندرك جيدا أن هذه هى نقطة البدء ، التى أتاحت لليهـود أن يفعلوا كل ما فعلوه،وإن كان ذلك قد استغرق عدة قرون !

فيجب أن نلاحظ أولا أن اليهود لم يبدأوا بالعمل فى العالم الإسلامى إنما فى العالم المسيحى . وهذا الأمر له دلالته التى لايجـوز إغفالهـا ، فقد حـاربوا الإسلام حربا شعواء فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وحاولوا – بكل « عبقريتهم » الشريرة وبكل « جبروتهم » وبكل « تخطيطهم » وتدبيرهم وبكل مكرهم ودهائهم ـ أن يقضوا على هذه العقيدة وعلى الدولة التى انبثقت عنها فلم يستطيعوا ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، وقال جل شأنه فى هذا الصدد :

« وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل : موتوا بغيظكم ! إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعلمون محيط » « ١ »

وقال فى شأنهم وشأن غيرهم جميعا :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » « ٢ »

وظل كيدهم ضد الإسلام خلال قرون طويلة محصورا فى استحداث فرق باطنية تتظاهر بالإسلام وهى بعيدة كل البعد عنه ، ولكن هذه الفرق لم تخدع المسلمين ، ولم تستطع الحياة بينهم ، وظلت منبوذة مبعدة لا تؤثر فى جسم الأمة المسلمة ولا فى عقائدها ولا فى خط سيرها ، وظلت الشريعة الإسلامية مطبقة فى الأرض الإسلامية ما يزيد على اثنى عشر قرنا من الزمان .

أما فى أوروبا المسيحيـة فقد كـان الوضـع مخلخـلا مليئا بـالثغرات التى يستطيع اليهود أن ينفذوا منها ويفسدوا من خلالها . والثغـرة الكبرى كمـا أسلفنا كانت تحريف الدين وتشويهه على يد الكنيسة .

« ١ » سورة آل عمران [١١٩ ـ ١٢٠]   « ٢ » سورة المائدة [٣]

إنه حين يكون للأمة دين حقيقى ، معمول به فى واقع الأرض ، فإن اليهود ـ بكل قدرتهم على الشر ـ لا يستطيعون أن يصنعوا شيئا ضد هذه الامة مهما حاولوا ، وإن قاموا بأنواع من « الأذى » بين الحين والحين :

« لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » « ١ »

أى لن يضروكم فى عقيدتكم ، ولن يؤثروا فى دينكم ، ولا فى قيام حياتكم على مقتضى هذا الدين . إنما يؤذونكم فقط بأى نوع من الايذاء ، وفرق بين أن يؤذوا اشخاصكم وبين أن يضروا دينكم أى مقومات حياتكم . فإن القتال نوع من الإيذاء . والسباب نوع من الإيذاء . وتأليب الأعداء نوع من الإيذاء. والعدوان على بعض الأفراد نوع من الايذاء . ولكن تبقى الأمة سليمة ما بقى لها دينها ، أى المنهج الذى تقوم حياتها عليه وتستقيم .

اما فى أوروبا حيث لم يكن هنالك دين حقيقى ، فقد استطاع اليهود أن يضروا ـ لا بالإيذاء فقط ـ ولكن بتغيير قواعد الحياة كلها ، بل بمسخ الفطرة البشرية ذاتها ، وتحويل الناس إلى دواب يركبهم الشعب الشرير .

ومع ذلك فإن اليهود لم يتقدموا للعمل الجاد فى إفساد أوروبا إلا حين بدأت اوروبا تتخلى عن كل القيم المستمدة من الدين .

لقد كان الدين مشوها نعم ، وليس هو الدين المنزل من عند الله . ولكنه كان يحمل شيئا من آثار الدين السماوى .

« ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به »« ٢ »

نسوا حظا ولكنهم لم ينسوه كله . وهذا الجزء الباقى الذى لم يكونوا قد نسوه هو الذى حال بين اليهود وبين أن يعيثوا فسادا فى أوروبا بضعة قرون . كانت هناك الأخلاق ، كانت هناك الأسرة المتينة الرباط ، كان هناك النفور من الفاحشة والحياء الأنثوى الفطرى اللائق بأنثى الانسان والذى يميزها عن إناث الحيوان . وكان هناك الحفاظ الشديد على العفة وصيانة العرض ، وكان هناك تحريم الربا فيما بين المسيحيين بعضهم وبعض ، إلا من وقع فى قبضة

« ١ » سورة آل عمران [١١١]   « ٢ » سورة المائدة [١٤]

المرابين اليهود ، وكان هناك الزهد فى متاع الحياة الدنيا والتطلع إلى الآخرة .. وكان .. وكان ..

ذلك كله حظ من دين الله المنزل لم يكن قد نسى فى « القرون الوسطى المظلمة » فى أوروبا . ورغم أنه لاينفع عند الله ولا يشفع لهم يوم القيامة لأن الله لايرضى بتجزئة دينه أجزاء يؤمن الناس ببعضها ويكفرون ببعضها الآخر على هواهم :

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟! فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »« ١ »

رغم ذلك فإنه - بالنسبة لليهود - كان حاجزا منعهم من القيام بنشاطهم المفسد على نطاق واسع عدة قرون .

فلما أمعنت الكنيسة فى الفساد والإفساد .. لما طغت كل طغيانها الذى تحدثنا عنه ، وحاربت العلم ، وحاربت حركات الإصلاح ، ووقفت مع الطغاة ضد المظلومين .. وحين فسدت أخلاق رجال الدين فصاروا - بوضعهم ذلك - يصدون عن سبيل الله :

« إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »« ٢ »

حين حدث ذلك كله أخذ الناس فى أوروبا ينفرون من الدين وينسلخون منه ، لايفرقون بين ما قدمته لهم الكنيسة من الأباطيل وما أنزله الله من الحق .. ولايسعون فى الوقت ذاته إلى اعتناق الدين الصحيح .. عندئذ وجدت الفرصة التى يترقبها اليهود ليعيثوا فسادا فى الأرض ، وبدأوا ينشطون نشاطهم الشرير الذى ظل يتصاعد من القرن الثامن عشر - على الأقل - إلى القرن العشرين .

مخطط اليهود - كما جاء فى التلمود - أن يستحمروا الأمميين ليركبوهم ويسخروهم لمصالحهم ، فهل استطاعوا - قط - أن يستحمروهم وهم آدميون، أى لهم دين يلوذون به من كيد الشيطان أو حتى آثار من الدين ؟

كلا ! إنما الذى حدث بالضبط أن الأمميين فى أوروبا - بابتعادهم عن الدين وانسلاخهم منه - هم الذين استحمروا أنفسهم للشعب الشيطانى ودعوه أن

---

١ - سورة البقرة [٨٥]
٢ - سورة التوبة [٣٤]

يركب فوق ظهورهم ليوجههم كيف يشاء !

ولنتتبع أحوال أوروبا خطوة خطوة لنرى من أين نفذ اليهود .

لو بقيت أوروبا على بقايا دينها ، ولا نقول اعتنقت الدين الصحيح الذى حاربته تلك الحرب المتعصبة الحمقاء ، فمن أين كان ينفذ اليهود ؟

لو بقيت الأسرة مترابطة متماسكة تقوم على عفة المرأة وقوامة الرجل على البيت فمن أين كان ينفذ اليهود ؟

لو بقى عامة الناس غير مفتونين بالحياة الدنيا ناظرين إلى الآخرة فمن أين كان ينفذ اليهود ؟

لو قام العلم على غير عداء وصراع مع الدين ، فمن أين كان ينفذ اليهود ؟

لو بقى الناس يحرمون التعامل بالربا ويرفضون أن تقوم حياتهم عليه ، فمن أين كان ينفذ اليهود ؟

ثم ..

حين قامت الصناعة بعد اختراع الآلة ..

لو كانت هناك دولة تحكم بما أنزل الله وتطبق منهجه فى الحياة ، وترفض أكل مال الأجير وتحرص على توفيته حقه ، وحقه هو الذى يكفيه للحياة الكريمة هو وأسرته .. فمن أين كان ينفذ اليهود بنشر البغاء « الشعبى » والدفاع عنه، وتولية الدولة حارسة عليه وراعية له ! وقد فعلوا ذلك كله استغلالا لوجود الشباب الفاره من العمال بلا أسر فى المدينة ؟!

لو كانت هناك دولة تحكم بما أنزل الله ، وتقيم لكل امرأة كفيلا يكفلها من ذوى قرباها ، أو من بيت المال حين تفقد كل الكفلاء ، فمن أين كان ينفذ اليهود الذين نفذوا من خلال اضطرار المرأة إلى الهجرة من الريف والعمل فى المدينة ، واضطرارها إلى التخلى عن عرضها فى كثير من الأحيان ؟

وحتى حين اضطرت المرأة للعمل ..

لو كانت هناك دولة تحكم بما أنزل الله ولم تبح تلك التفرقة الظالمة فى الأجر بين الرجل والمرأة التى تقوم بنفس العمل ، فمن أين كان ينفذ اليهود الذين لعبوا لعبتهم الكبرى بقضية المرأة ودمروا بها المجتمع البشرى كله ؟

لو كانت المرأة غير مضطهدة ولا محتقرة ولا مهينة ولا منبوذة فمن أين كان ينفذ اليهود الذين استغلوا هذا الواقع السىء لينفخوا فى قضية المرأة ويمدوها إلى الأبعاد التى وصلت إليها فى كل اتجاه ؟..

لو كانت المرأة تنال حقها من التعليم ، على الأصول الصحيحة التى لا تفسد أنوثة المرأة ، ولا تبعدها عن وظيفتها ، ومع ذلك تعلمها وتثقفها وتجعل منها إنسانة فاضلة متنورة ، فمن أين كان ينفذ اليهود الذين لعبوا بقضية تعليم المرأة وأفسدوا بها المرأة والرجل كليهما إلى أبعد حدود الفساد من أول الاختلاط إلى إباحية الجنس إلى تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال ..؟

« ولو أن أهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ١ »

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما انزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » « ٢ » .

نعم .. لو أنهم آمنوا واتقوا ما استطاع اليهود أن يلعبوا بهم ويستحمروهم لخدمة مصالحهم ..

* * *

« الناس » هم الذين أمدوا اليهود بالحبل الذى مكن لهم فى الأرض فى الوقت الحاضر ..

السينما مؤسسة يهودية أقامها اليهود للإفساد فى الأرض ، فكل فتى أو فتاة أصابه جنون السينما فهو « حبل من الناس » يمد اليهود . يمدهم بالمال الذى يربحونه من هذه التجارة النافقة ، ويمدهم بالفساد فى ذات نفسه فيحقق لهم مخططهم الشرير .

بيوت الزينة والأزياء يهودية .. فكل فتاة أصابها جنون الزينة وجنون « المودة » هى « حبل من الناس » تمد اليهود ، تمدهم بالمال من ناحية – وصناعة أدوات الزينة من اربح الصناعات على الإطلاق – وتمدهم بالفساد فى ذات نفسها وفى الشاب الذى تتولى فتنته بتبرجها فيحققان لهم مخططهم الشرير .

جنون الجنس جنون أطلقه اليهود على البشرية ، فكل فتى أو فتاة أصابه جنون الجنس فهو « حبل من الناس » يمدهم باستعباد نفسه للشهوات التى تهبط به عن أدميته فيصبح فى متناول مخططهم الشرير .

جنون الكرة من أنواع الجنون التى أطلقها اليهود على البشرية . فكل فتى

---

١ - سورة الاعراف [٩٦]   ٢ - سورة المائدة [٦٥ - ٦٦]

« أو فتاة ! » أصابه جنون الكرة فهو « حبل من الناس » يمد اليهود ، يمدهم بتفاهة اهتماماته وانصرافه عن معالى الأمور إلى سفسافها « ١ » وانصرافه عن الاهتمامات الجادة والنظر فيما يحيط به من أحوال ، فييسر لليهود أن يعبثوا عبثهم العالمى والأولاد (والبنات !) مشغولون بالفريق الذى أخفق والفريق الذى فاز !

الربا من أفتك أدوات اليهود وأفعلها فى التخريب . فكل صاحب مال أودعه عند اليهود فى مصارفهم ومؤسساتهم فهو « حبل من الناس » يمـد اليهود ، يمدهم بأرباح طائلة يقوون بها أنفسهم ويتحكمون بها فى اقتصاد العالم كله ، وبالخبال الذى يصيب حياته من الربا :

« الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبـطه الشيطان من المس »« ٢ »

وهذا كله بصرف النظر عن المدد الذى يأتيهم من دول كأمريكا أو روسيا ، فـإن الآية لا تشـير إلى دول بعينها ولا إلى « بعض » النـاس إنما تشـير إلى « الناس » والحاصل اليوم أن المدد يأتى من « جميع الناس » .. إلا من رحم ربك !

« الأمميون » هم الذين استحمروا أنفسـهم « لشعب الله المختـار » وذلك بتخليهم عن الوقاية الطبيعية التى تحميهم من كيد الشيطان .

« إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »« ٣ »

والكنيسة ـ بالنسبة لأوروبا ـ هى المجرم الأكبر الذى أتاح لليهود أن يتلفوا أوروبـا ويشيعـوا فيهـا من ألوان الفسـاد : الفكـرى والروحى والخلقى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى ما لم يجتمع بهذا الحجم وهذه الصورة فى التاريخ : مسخ كامل للفطرة البشرية،ونكسة لم تنتكسها البشرية فى تاريخها كله ، رغم كل الإمكانيات المادية والعلمية المتاحة للبشر ، والتى كانت حرية أن ترتفع « بـالإنسان » إلى الآفـاق العليا بعـد أن يفرغ من قضـاء ضروراتـه الجسدية،فإذا هى تغرقه فى عالم الضرورة وتحبس روحه بل تطمسها،وتهبط بالإنسان إلى درك من الحيوانية يتعفف عنه الحيوان ..

* * *

« ١ » قال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » رواه الطبرانى

« ٢ » سورة البقرة [٢٧٥]　　« ٣ » سورة النحل [٩٩ ـ ١٠٠]

ولكن هناك مسئولية أكبر فى الحقيقة تقع على الأمة المسلمة .

هذه الأمة التى أخرجها الله « للناس » لتكون خير أمة فى التاريخ .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ١ » .

وكلفها أن تكون شاهدة ورائدة لكل البشرية :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » « ٢ » .

هذه الأمة أين ذهبت وأين مضى بها التيار ؟!

فى غير هذا الكتاب «٣» نتحدث عن خط الانحراف الذى انحرف بهذه الأمة عن خطها السوى وانساها رسالتها . ولكنا نقول هنا - بصدد تحديد مسئولية « الأمميين » عما أصابهم من الخبال على يد اليهود - إن الأمة الاسلامية لم تكلف - كالأمم المؤمنة السابقة - أن تؤمن فى حدود نفسها وتستقيم لذات نفسها فحسب ، إنما كلفت - فوق ذلك - أن تهدى البشرية كلها إلى النور الربانى ، وأن تسعى - بجهدها وجهادها - إلى إقامة دين الله فى الأرض كلها ، دون إكراه للناس على اعتناق عقيدة الإسلام ، إنما تحكم شريعة الله فى كل الأرض ، ويخضع الناس جميعا للعدل الربانى المتمثل فى شريعته :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « ٤ » .

« وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٥ » .

وقد ظلت هذه الأمة قائمة برسالتها لنفسها وللبشرية عدة قرون ، كانت فيها ممكنة فى الأرض ، وكانت هى موئل الهداية والنور ، ولم يكن يبرم أمر فى الأرض إلا بإذنها أو برضاها .. وإلا فالحرب قائمة لتأديب المعتدين .. ويومئذ لم يكن لليهود فى الأرض سلطان .

ولكن الأمة التى اختارها الله لتكون شاهدة ورائدة للبشرية ظلت تتراجع حتى أهملت رسالتها العالمية ، بل شغلت عن رسالتها لذات نفسها ، وعندئذ برزت أوربا إلى الوجود قوة ممكنة فى الأرض ، فملأت الفراغ الذى خلفته الأمة الإسلامية بتخليها عن رسالتها ، حسب السنن الربانية التى يدبر الله بها أمور البشر فى الأرض .

«١» سورة آل عمران [١١٠]

«٢» سورة البقرة [١٤٣] .

«٣» انظر كتاب «واقعنا المعاصر» .

«٤» سورة البقرة [٢٥٦] .

«٥» سورة الأنفال [٣٩] .

وحين برزت أوربا فقد برزت بكل جاهليتها ، وبكل الفساد الذى كانت تحمله فى أطوائها نتيجة إفساد الكنيسة لدين الله المنزل ، فأتاحت للشعب الشرير المتربص للإفساد أن يركب،وأن يلهب ظهورها بالسوط ليقودها فى طريق الشيطان .

وزاد الأمر سوءا حين زاد تفريط هذه الأمة فى دينها حتى لم تعد تؤدى شيئا يذكر من رسالتها لذات نفسها ، فضلا عن رسالتها العالمية بطبيعة الحال ، وحينئذ أتيحت الفرصة لأوربا الصليبية أن تقهر العالم الإسلامى،وأن تدخل أرض الاسلام لتدك حصونه من الداخل ، وأتيح لليهود – من خلال الحملة الصليبية الغازية – أن ينشروا سمومهم فى العالم الإسلامى ذاته ، بنفس الوسائل التى نشروا بها سمومهم فى أوربا . سواء كان ذلك بأيديهم مباشرة أو بأيدى الصليبيين الذين يقومون بذات الدور ضد الإسلام لحسابهم الخاص !

ومن ثم دخل « الأمميون » المسلمون فى ذات الدوامة ، وصاروا هم أنفسهم – إلا من رحم ربك – يمدون الحبل لليهود ! وتم لليهود ذلك السلطان الذى أشارت إليه الآية الكريمة على سبيل الاستثناء من الذلة الدائمة المفروضة عليهم : « إلا بحبل من الله وحبل من الناس »« ١ »

الأمة المسلمة إذن هى المسئول الأكبر عما أصاب البشرية كلها من الخبال على يد اليهود . فقد أنزل الله إليها النور ، وأنزل إليها الرسالة الخاتمة وشرفها بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، لالتتلهى بذلك كله ، وإنما لتكون – بكل ثقلها ، وبكل فاعليتها – جهدا دائما وحركة دائمة لنشر النور والهداية فى الأرض .

فإذا تخلت فمن يحمل الرسالة ؟!

وإذا تخلت فأى شىء فى الأرض يحول دون الشعب الشرير المتربص للإفساد ؟!

* * *

وإذا كان تخلى الأمة المسلمة عن رسالتها هو الذى أتاح الفرصة لليهود ليحدثوا فى الأرض كل هذا الشر عن طريق الأمة الجاهلية التى تولت السلطان حين تخلى المسلمون .. فإن عودة المسلمين إلى الاسلام هى التى تنهى دور اليهود فى الأرض وتعيدهم إلى حجمهم الطبيعى :

« ١ » سورة آل عمران [١١٢] .

« ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بماعصوا وكانوا يعتدون »« ١ » . « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »« ٢ »

« وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا . وألقينا بينهم العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فسادا والله لايحب المفسدين »« ٣ » .

ولقد نتساءل عن حكمة الله سبحانه وتعالى فى تمكين اليهود من « الأمميين » فى هذه الفترة الاستثنائية التى تعيشها البشرية اليوم . فنقول بادئ ذى بدء إن الله سبحانه وتعالى : « لايسأل عما يفعل »« ٤ » .. « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »« ٥ » ، فلا نسأله تعالى لماذا لم يجعل الذلة على هذا الشعب دائمة لا استثناء فيها،وهم يستحقون - بصحيفتهم السوداء - أن تكتب عليهم الذلة إلى يوم القيامة .

ولكنا نلمح جانبا من حكمة الله فى قوله تعالى مخاطبا الكفار :

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض »« ٦ » .

والبشرية اليوم قد كفرت كما لم تكفر فى تاريخها كله ، فأنكرت وجود الله جهرة ، ومنعت منهجه أن يحكم حياة الناس فى الأرض ، فاختار الله شر خلقه - اليهود - ليذيق البشرية كلها بأسهم جزاء وفاقا على هذا الكفر الذى ليس له مثيل فى نوعه ولا حجمه فى التاريخ ..

ولنذكر أن دارون ليس يهوديا .. وهو الذى قال : الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق .. الطبيعة تخبط خبط عشواء . إن تفسير النشوء والارتقاء بأنه صادر عن الإرادة الالهية يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت !! فوضع بذلك أسسا « علمية » للفساد الذى يملأ الأرض اليوم !

والله يقول :

« ظهر الفساد فى البر والبحر بماكسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى

---

١ - سورة البقرة [٦١]
٢ - سورة الأعراف [١٦٧]
٣ - سورة المائدة [٦٤]
٤ - سورة الأنبياء [٢٣]
٥ - سورة البقرة [١١٧]
٦ - سورة الأنعام [٦٥]

عملوا ، لعلهم يرجعون »« ١ » .

ومن هنا نرى أن تسليط اليهود على « الأمميين » اليوم ليس خارجا عن سنن الله ووعده ووعيده كما جاءت فى كتابه الكريم . كما نستطيع أن نحكم - من كتاب الله - أنها فترة استثنائية يعودون بعدها فيدخلون فى الأجحار .. حين يعود المسلمون إلى الإسلام .

* * *

ويسأل بعض الناس : أليس اليهود هم أنفسهم فاسدين ومنحلى الأخلاق ؟ وكل الشرور التى أذاعوها فى البشرية ليحكموهم بها هى ذائعة فيهم ؟!

نقول : بلى !! إنهم كذلك !

ولن يهربوا هم من سنة الله التى تكتب الدمار على الناس حين يلجون فى الغواية ويصرون على الفساد .

نعم ولكن لهم دورا - قدره الله - فى إذاقة البشرية الخبال جزاء كفرها وتبجحها بالكفر ، دورا يؤدونه قبل أن يصيبهم الدمار بحكم السنن الربانية ، وقبل أن يرجعوا إلى الذلة والمسكنة كما توعدهم الله إلى يوم القيامة .

إنهم فاسدون نعم ، ولكنهم - بحكم ظروفهم التاريخية - يخططون بوعى حين يجدون الفرصة السانحة للتخريب ، بينما الأمميون يفسدون فقط .. يفسدون بلا تخطيط !

الفتاة اليهودية لا عرض لها ، ولكنها إذ تبيع جسدها تمتص أموال الأممين وتسرق أسرارهم لتعطيها « لشعب الله المختار » ليستفيد بها فى تخطيطه الخبيث . أما الأممية فحين تفسد لهدف معين .. تفسد من أجل الفساد فحسب .

وحين يوضع الأمر على هذه الصورة تكون الغلبة لاشك للفريق الأكثر وعيا ، والذى تربط بينه - رغم فساده - عوامل تاريخية تمنعه من الذوبان السريع .

اما النتيجة الأخيرة فقد بينها كتاب الله .

تنتهى الفترة الاستثنائية - لأنها استثنائية - ويعود القدر المضروب يحكم اليهود :

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »« ١ » .

« ١ » سورة الروم [٤١]   « ١ » سورة الاعراف [١٦٧]

الديمقراطيّة

الديمقراطية Democracy كلمة مشتقة من لفظتين يـونانيتـين Demos (الشعب) و Kratos (سلطة) ومعنـاها الحكم الذى تكـون فيه السلطة للشعب . وتطلق على نظام الحكم الذى يكون الشعب فيـه رقيبا عـلى أعمال الحكومة بـواسطة المجـالس النيابيـة ، ويكون لنـواب الأمة سلطة إصـدار القوانين .

وأول من مارس الديمقراطية هم الإغريق فى مدينتى أثينا وإسبرطة ، حيث كانت تقوم فى كل من المدينتين حكومة (يطلق عليها اصطلاحا اسم « حكومة المدينة » أى الحكومة التى تقوم فى مدينة واحدة مفردة) وكان كل أفراد الشعب من الرجال فى كل من المدينتين يشاركون فى حكم المدينة ، فيجتمعون فى هيئة « جمعيـة عموميـة » فيتشاورون فى كـل أمـور الحكم ، فينتخبـون الحـاكم ويصدرون القوانين ويشرفون على تنفيذها ويضعون العقوبات على المخالفين .
فكان « حكم الشعب » مطبقا بصورة مباشرة فى كـل من المدينتـين ، وكانت التسمية منطبقة على الواقع انطباقا كاملا .

ولكن هذه الصورة من صور الديمقراطية انتهت بانتهاء « حكومة المدينة » فى كل من أثينا وإسبرطة ، وإن ظلت محفوظة فى ذاكرة أوربا ككثير من الأفكار والقيم والمبادئ الاغريقية التى بقيت كامنة فى الفترة التى غلبت المسيحية فيها على أوربا ، ثم عادت إلى الظهور بعد قيام « النهضة » على التراث الاغريقى الممتزج بالتراث الرومانى ، الذى يـطلقون عليـه فى اصطلاحـاتهم Greco-Roman أى إغريقى رومانى .

ولقـد ظل الاقطاع يحكم أوربـا أكثر من ألف عـام فى ظل الامبراطوريـة

الرومانية والقانون الرومانى . ولم تغير المسيحية شيئا من سماته فى هذه الناحية ، لأن الكنيسة لم تحاول تطبيق شريعة الله ، وتركت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية تجرى على ما كانت عليه فى ظل الإمبراطورية الرومانية دون تعديل يذكر ، وحين نازعت الملوك والأباطرة سلطانهم لم يكن ذلك - كما أسلفنا - من أجل إلزامهم بتحكيم شريعة الله ، كما فعل المسلمون فى الأرض التى حرروها من قبضة الرومان فى مصر والشام والشمال الافريقى .. الخ . إنما كان من أجل إلزامهم بالخضوع لهواها هى وسلطانها الشخصى .

وفى ظل الإقطاع لم يكن « للشعب » وجود إلا بوصفه قطعا آدمية لاصقة بالطين ، لا كرامة لها ولاحقوق ..

كان هناك ملوك مستبدون بالحكم يحكمون بمقتضى « الحق الإلهى المقدس » باعتبارهم « ظل الله فى الأرض » فكلامهم أمر ، وأمرهم مقدس ، وما عنّ لهم من أهواء فهى أوامر واجبة التنفيذ ..

ويعاونهم فى تثبيت سلطانهم وتوكيده فى الأرض أمراء الإقطاعيات الواقعة فى ملكهم ، مقابل إطلاق يد هؤلاء الأمراء (الذين يسمون : النبلاء أو الأشراف) فى إقطاعياتهم ، يتصرفون فيها كيف شاءوا دون مراجعة ولا رقابة تضبط تصرفاتهم ، لأن الذين يعيشون على أرض الإقطاعية هم إما عبيد وإما فى حكم العبيد ، وسلطان « الشريف » عليهم سلطان مطلق بحكم « القانون » فهو بالنسبة لهم يمثل السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية جميعا فى آن واحد ، وليس للملك على الإقطاعى إلا مايفرضه عليه من الأموال (بمقدار مايشبع نهمه ومطالبه) وتلك يستخرجها أمير الإقطاع من فلاحيه بالقوة الجبرية ، وإلا « الأنفار » الذين يطلب الملك تجنيدهم فى جيوشه ليموتوا من أجل تحقيق أهوائه ومطامعه .. أى أن سلطة الملك فى النهاية واقعة على أولئك العبيد من خلال سلطة أمراء الإقطاع ، كما تقع عليهم السلطة المباشرة من أمراء الاقطاع لحسابهم الخاص.. وفى جميع الحالات يكون أولئك العبيد - وهم فى النهاية طبقة « الشعب » - بغير سلطان وبغير حقوق ، واقعة عليهم كل الواجبات .

وإلى جانب الملوك والنبلاء كانت سلطة الكنيسة ورجال الدين ، وكانت منصبة فى النهاية كذلك على الشعب . فإلى جانب الخضوع المذل لرجال الدين – وهو حق « مقدس » لهم – كانت هناك الإتاوات والعشور ، والسخرة المجانية فى أرض الكنيسة ، والتجنيد فى جيوش الكنيسة التى كانت توجهها لتأديب الخارجين على سلطانها من الأباطرة والملوك .

وهذه المظالم المتراكمة هى التى تفجرت فى الثورة الفرنسية ، بعد أن هيأ لها فى نفوس الأوربيين الاحتكاك بالمسلمين فى الحروب الصليبية،وفى اللقاء السلمى بين المسلمين وبين المبتعثين من بلاد أوربا لتلقى العلم فى بلاد الإسلام .

ولكن أوربا حين تفجرت ثورتها لم تكن فى وضع يسمح لها آن تستبدل بالجاهلية التى ثارت عليها دين الله الحق ، وشريعته العادلة التى كانت تحكم الأرض من حولها من الشرق والغرب والجنوب ، لأن الحروب الصليبية وحملات التنفير الدينى والثقافى التى قامت بها الكنيسة ضد الإسلام وقفت حاجزا بينها وبين اتخاذ الإسلام عقيدة وشريعة ، فارتدت إلى تراثها الإغريقى الرومانى تبحث فيه عن حلول مشكلاتها ، بدلا من أن تلجأ إلى الإسلام« ١ » .

ووقع اختيار أوربا على « الديمقراطية » بديلا من الإقطاع ، وكانت هناك عوامل كثيرة ترشح لهذا الاختيار .

فطبقة « الشعب » هى الطبقة المكبوتة المسحوقة ، وهى الطبقة الثائرة التى تسعى إلى المشاركة فى السلطان .. والطبقة الرأسمالية هى الطبقة الجديدة التى صار المال فى يدها بدلا من طبقة الإقطاعيين بسبب انتقال الإنتاج – تدريجيا – من إنتاج زراعى إلى إنتاج صناعى بعد اختراع الآلة .. وهذه الطبقة الجديدة تريد أن تنتزع السلطان انتزاعا من الطبقة المالكة السابقة التى كان فى يدها السلطان . لذلك كانت الديمقراطية هى اللعبة المناسبة التى توفق

« ١ » الواقع انها لم تستطع ان تتخلص من الضغط العلمى والثقافى والحضارى للإسلام وإن كانت ازورت عن العقيدة الاسلامية وحاربت الإسلام بلا هوادة . فالقانون المدنى الفرنسى الذى وضع بعد الثورة الفرنسية أخذ اشياء كثيرة من الفقه المالكى الذى كان سائدا فى الشمال الإفريقى ، اقرب بلاد السملمين إلى فرنسا ، والعلوم الإسلامية ظلت تدرس فى الجامعات الاوربية فترة طويلة بعد ترجمتها من العربية إلى لغات أوربا . كذلك اثرت الحضارة الإسلامية كثيرا فى الحياة الاوربية (اقرا إن شئت كتاب « شمس الله تسطع فوق الغرب » للكاتبة الالمانية « زيجريد هونكه » المترجم بعنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » ترجمة فاروق بيضون وزميليه ، بيروت ١٩٦٩ م)

بين رغبة الطبقتين الساعيتين إلى السلطة ، إحداهما وهى الطبقة الرأسمالية تستولى على السلطان الحقيق ، والثانية وهى طبقة الشعب تشارك ـ بقدر ـ فى ذلك السلطان» ١ » وذلك فضلا عن عنصرين أخرين أحدهما إيحاء الفكر الاغريقى القديم وتأثيره على المفكريين الغربيين منذ عصر النهضة ، وهو فكر يحمل صورة « تذكارية » للديمقراطية من ايام أثينا وإسبرطة ، والثانى هو الشعارات التى وضعتها الماسونية اليهودية للثورة الفرنسية وهى : الحرية والإخاء والمساواة ، والديمقراطية هى المنطلق الأنسب لهذه الشعارات ، ومن ورائها يحقق اليهود مايحلو لهم من أهداف .

لذلك كله كانت الديمقراطية هى الإطار المناسب للعناصر المتفاعلة فى أوربا فى ذلك الحين .. فى ظل الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية القائمة فى تلك الفترة من الزمان .

ولم يكن الأمر سهلا مع ذلك ولاميسرا للراغبين .. فقد احتاج إلى صراع طويل مرير حتى استوى على صورته الحالية . وكانت « المكاسب الديمقراطية » تأتى متقطعة وجزئية ، ولا تأتى إلا بعد معارضة طويلة من الذين فى أيديهم السلطان ولايرغبون فى التنازل عنه ، وبعد قيام « الشعب » بالإضراب والعصيان والتمرد ، وتعرض دعاة الحرية إلى السجن والاعتقال والتشريد ، بتهمة إثارة الشغب والتحريض على الإخلال بالنظام .

وبعد نضال وكفاح استمر قرابة قرن من الزمان استقرت الديمقراطية فى صورتها الحالية التى تراها فى دول غرب أوربا وأمريكا ، على اختلاف بينها فى الجزئيات لايؤثر فى صورتها العامة ومبادئها الرئيسية .

* * *

كانت نقطة الانطلاق ، أو نقطتا الانطلاق فى الحقيقة هما : أولا : وجوب إشراف الشعب على أعمال الحكومة ، أى الغاء «الحق الالهى المقدس» وإخضاع الحكومة لرقابة الشعب على تصرفاتها ، وفصل السلطات ، وجعل الحكومة سلطة تنفيذية فحسب ، لا سلطة تشريعية .. وثانيا : إعطاء الشعب حقوقه «الانسانية» التى حرم منها أكثر من ألف عام فى ظل نظام الإقطاع .

« ١ » للشيوعيين دعوى تقول إن طبقة الشعب ظلت مسحوقة ومستعبدة فى ظل النظام الراسمالى - رغم الحرية الصورية - وإن الكاسب الحقيقى والأوحد فى ظل هذا النظام هو الراسماليون . وما نحب هنا أن نتعجل الحديث ، فسيأتى مناقشة ذلك كله فيما بعد .

وفى كلا الميدانين أحرزت الديمقراطية تقدما ضخما بالنسبة لما كان فى عهد الإقطاع،وعهد الحكم بمقتضى الحق الإلهى المقدس .

فقد أصبحت رقابة المجالس النيابية كاملة على تصرفات الحكومة الرئيسية، وبصفة خاصة « الميزانية » التى تمثل موارد الدولة ومصارفها ، والتى كانت من أكبر أبواب المظالم الواقعة على « الشعب » حيث كان الحاكم يفرض من الضرائب مايحلوله ، بمقدار مايروى نهمه إلى المال الذى كان معظمه ينفق على بذخ الملوك والحكام،وأقله يصرف على الصالح العام .

لم يعد من حق الحكومة أن تفرض ضريبة - أى ضريبة - إلا بموافقة المجالس النيابية ، ولم يعد من حقها أن تصرف حصيلة مواردها إلا فى الأبواب التى توافق المجالس النيابية عليها ، ومن ثم أمسكت تلك المجالس بالزمام بعد أن كانت الحكومات مطلقة اليد فى التصرف .. وكثيرا ما كنت تسمع - وماتزال - كلمة « دافعى الضرائب » تتردد فى أروقة « البرلمانات » على ألسنة النواب ، يستصرخون الرحمة على الفقراء دافعى الضرائب ويطلبون التخفيف عنهم ، أو يطالبون أن تنفق الأموال لمصلحة دافعى الضرائب،لأنهم هم الذين ينبغى أن يستفيدوا قبل أى أحد أخر بحصيلة الضرائب التى يدفعونها .

ومن ثم ظلت الضرائب - خلال نمو الديمقراطية - تخفف تدريجيا عن الفقراء وتزاد على الأغنياء،بعد أن كان الحادث هو العكس تماما،حيث كان الأغنياء يستمتعون بالثروات الطائلة ولايدفعون عنها ضرائب على الإطلاق،أو يدفعون ضرائب تافهة لاتكاد تذكر ، ولا تؤثر أى تأثير على ثرواتهم الضخمة ، بينما الفقراء هم الذين يتحملون عبء الضرائب الأكبر ! كما وجه الصرف من موارد الدولة - وأهمها الضرائب بطبيعة الحال - على المشروعات العامة التى تصل فائدتها لأكبر عدد من الناس الذين يوصفون بصفة خاصة بأنهم دافعو الضرائب ، فزاد الإنفاق تدريجيا على التعليم ، وعلى الصحة العامة ، وعلى المرافق العامة من طرق وجسور وخدمات ، وقل الإنفاق فى ذات الوقت على مشروعات الترف التى لاتفيد إلا القلة المترفة من الشعب،بعد أن كانت مثل هذه المشروعات هى الشُغل الأول للحكومات السالفة وتنفق فيها الأموال الطائلة .

ولم تمر قضية الضرائب سهلة حتى فيما يسمى « المجالس النيابية » فقد كانت تلك المجالس فى أول عهدها تمثل الأغنياء أكثر مما تمثل الفقراء،أو تمثلهم دون الفقراء فى كثير من الأحوال ، إذ كانت شروط الترشيح إلى المجالس النيابية

ذاتها موضوعة بحيث لايمر منها إلا أصحاب الثروات ويعجز عنها الفقراء ، لكى يمنعوا منعا من الدخول إلى البرلمانات وإزعاج أصحاب الأموال بصيحاتهم الكريهة إليهم ! ولم ينل الفقراء حق الترشيح إلا بعد جهاد طويل ومرير ، فاستطاعوا - بعد دخولهم - أن يعدلوا نظم الضرائب فى بلادهم ، ويحققوا قسطا من العدالة فى المغانم والمغارم سواء .

ولم تكن المجالس النيابية هى وحدها التى تدور فيها المعركة حول الضرائب ، فقد كانت الصحافة والخطابة والكتب المؤلفة تشارك جميعا فى النقاش والحوار والهجوم والدفاع . وكان من اهم ماقيل فى هذا الصدد إن توحيد نسبة الضريبة على الشىء الواحد بين الفقراء والأغنياء هو ظلم بيّن على الفقراء ، لأنهم يدفعون الضريبة من قوتهم الضرورى الذى لاتقوم حياتهم بغيره ، بينما الأغنياء يدفعون من فائض أموالهم ، أو من فائض الفائض المتراكم عاما بعد عام ! لذلك استحدث فى الأخير نظام الضرائب التصاعدية التى تزيد فيها نسبة الضريبة زيادة مطردة كلما زاد الدخل .. فالألف الأولى غير الألف الثانية ، والثانية غير العاشرة .. فإذا كانت الأولى يخصم منها عشرها ضرائب (على سبيل المثال) فالعاشرة قد يخصم نصفها أو ثلاثة أخماسها .. وهكذا .

أما الضرائب غير المباشرة ، أى الضرائب المفروضة على الأشياء المشتراة او المستخدمة لا على الدخل ، فقد كانت ومازال موضع النقاش فى البلاد الديمقراطية،لأنه لايمكن التمييز فيها بين الأغنياء والفقراء ! لايمكن مثلا أن يقال : إذا اشترى الغنى رغيف الخبز فعليه أن يدفع له ثمنا أكبر مما يدفع الفقير فيه ! إنما يقال فى الحوار إنه ينبغى إلغاء الضرائب أو تخفيفها عن « الضروريات » ورفعها على « الكماليات » ثم يظل النزاع قائما فى تعريف ماهو ضرورى وماهو كمالى من الأشياء . ولكن الاتجاه على كل حال يظل مائلا إلى التخفيف عن الفقراء والزيادة على الأغنياء .

وبالنسبة للإنفاق كذلك لم تكن المعركة يسيرة حتى فى المجالس النيابية ذاتها .. فحين كانت تلك المجالس ممثلة للأغنياء دون الفقراء لم تكن قضايا مثل التعليم الإلزامى ومجانية التعليم تمر بسهولة ! بل كان « نواب الشعب » (هكذا كان اسمهم على الدوام من البدء إلى الختام) كانوا يعارضون فى نشر التعليم حتى يشمل الفقراء من أبناء الشعب ! وكانت تدور مناقشات حادة فى

البرلمانات ، يقال فيها إنه لايجوز تعليم كل الناس ، وإلا فمن أين نأتى بعمال يعملون فى المصانع ؟! فإن ابن العامل إذا تعلم سيستنكف أن يعمل بيديه كما كان يعمل أبوه ! وسيطالب بوظيفة،وأنّى لنا أن ندبر وظيفة لكل متعلم ! ثم من أين نحصل على الخدم ! فسوف يستكبر المتعلمون وسيرفضون الخدمة فى البيوت،فتفسد حياتنا وتتعطل مصالحنا !

وكذلك قضايا الصحة والمرافق العامة ! كان « النواب » المحترمون يعارضون فى تعميمها حتى يستفيد منها الفقراء .. ويقولون إن هذه ليست مسئولية الحكومة ! إنما كل واحد يدبر لنفسه ، وكل واحد حر فيما يصنع لنفسه !

وهكذا .. وهكذا فى كل القضايا « العامة » التى يعود النفع فيها على الشعب « دافع الضرائب » !

وإنما تغير الحال بعد جهاد طويل ، حين ألغيت أو خففت القيود المفروضة على دخول المجالس النيابية فصار هناك من يدافع عن مصالح الفقراء ويطالب لهم بالتعليم الإلزامى المجانى،وبتوفير العلاج والرعاية الصحية ، وتيسير الخدمات العامة ، وأصبحت هذه نقطة بارزة من نقاط الديمقراطية .

* * *

كذلك شملت الرقابة البرلمانية أعمال الحكومة الأخرى غير الميزانية بمواردها ومصارفها ـ وإن ظلت هذه أهم نقاطها ـ فقد كفت المجالس النيابة يد الحكومة تدريجيا عن « الأفراد » أفراد « الشعب » ، فزادت بذلك من « حرية » أولئك الأفراد .

لقد كان الأغنياء ـ بحكم أموالهم ومكانتهم فى الدولة ـ فى حصانة من سلطان القانون وإن كانت الدساتير لا تقول ذلك بصفة رسمية . وقد كان القانون الرومانى ـ الشهير بعدالته ! ـ ينص صراحة على التفرقة القانونية بين السيد والعبد ، فيحيط الأول بضمانات وحقوق كثيرة ، ويخفف عنه العقوبة إذا أجرم ، بينما يحيط الأخير بكثير من القيود ، ويشدد عليه العقوبات على أقل هفوة تصدر عنه .

وألغت الديمقراطيات هذه التفرقة فى نصوصها المكتوبة ، ولكنها ظلت قائمة فى عالم الواقع فترة غير قصيرة ، حتى تراجعت عنها الحكومات خطوة خطوة بجهاد طويل وكفاح قامت به الشعوب ، فأخذت الضمانات والحقوق تتسع

لتشمل فئات جديدة من « الشعب » حتى صارت تشمله كله فى نهاية المطاف .
ويمكن تلخيص هذه الحقوق والضمانات فيما يلى :

حق الانتقال :

لم يكن حق التنقل من مكان إلى مكان مكفولا فى ظل الإقطاع ، فقد كان معظم الناس عبيدا أو فى حكم العبيد ، وكان هذا من المظالم التى قامت الثورة الفرنسية لتحطيمها،وإن تكن الرأسمالية الناشئة كانت ذات مصلحة خاصة - فى نفس الوقت - فى تحطيم هذا القيد ، لتحصل على العمال اللازمين للصناعة ، والذين كانت قيود الإقطاع تحجزهم فى الريف وتمنعهم من الوصول إلى المدينة .

ولكن الأمر لم يتم فى يوم وليلة ، فقد ظل « الفقراء » خاضعين لكثير من القيود فى تنقلاتهم ، تطاردهم الشرطة وتتهمهم بالتشرد وتطالبهم بإثبات أنهم ليسوا مجرمين ! وبإيجاد مبرر مقبول لوجودهم حيث هم موجودون ! بينما الأغنياء يذهبون حيث يشاءون لمجرد أنهم أغنياء ، ومن ثم فهم غير مشبوهين !

ورويدا رويدا أخذت تلك القيود المفروضة على حرية التنقل تذوب ، وأصبح كل إنسان - مهما يكن عمله أو مكانه فى المجتمع - حرا فى أن يتنقل داخل الدولة الواحدة ما دام « مواطنا » فى تلك الدولة . وكانت كلمة المواطن ذاتها من المعانى التى استحدثتها الديمقراطية،فأصبح المواطنون جميعا متساوين - نظريا - فى جميع الحقوق والواجبات بحكم أنهم جميعا مواطنون فى وطن واحد ، وأصبحوا بالفعل متساوين فى كثير من الحقوق . أما المساواة التامة فلنا مراجعة بشأنها فيما بعد .

ونلحظ من لفظة « المواطن » فى اللغات الأوروبية « Citizen » أنها نبعت من المدينة « City » فمن هناك بدأت حركة المطالبة بالمساواة ، ومن هناك طالب المطالبون بأن يتساوى كل السكان - أى سكان المدينة - فى الحقوق والواجبات ، وبعد أن نالت المدينة حقوقها عمم ذلك على جميع السكان فى الوطن كله ، ولكن اللفظة الأوروبية لم تتغير ، وظل اشتقاقها من المدينة باقيا حتى بعد أن اتسع مدلولها فشملت كل السكان .. أما اللفظة العربية فقد ترجمت متأخرة ، حين بدأت الأفكار الديمقراطية تصبح موضع حديث فى البلاد الإسلامية الناطقة بالعربية،فأخذت المدلول الأخير للكلمة ، المتصل « بالوطن » كله لا بالمدينة فحسب .

حق العمل :

فرق بين أن يعمل بعض الناس فى الأعمال التى يستطيعون الحصول عليها وبين أن يكون حق العمل مقررا بمعنى أن كل طالب عمل ينبغى أن ييسر له الحصول على العمل الذى يصلح له .

ولم يكن هذا الحق مقررا من قبل ، واحتاج تقريره إلى جهاد طويل لكى يتقرر نظريا فى مبدأ الأمر ثم عمليا بعد ذلك .. وإن كان من الوجهة العملية لم يتقرر كاملا إلى هذه اللحظة فى الديمقراطيات الرأسمالية لأسباب سنشرحها بعد قليل .

فى ظل الإقطاع الذى عاشت فيه أوروبا أكثر من ألف عام لم يكن « حق العمل » شيئا معروفا ولا كان هناك مجال للحديث فيه . فقد كانت الزراعة هى العمل الرئيسى للمجتمع الإقطاعى ، وسكان القرية أو الإقطاعية يعملون بحكم الأمر الواقع فى أرض الإقطاعية التى يعيشون فيها ، قلوا أو كثروا ، وقلت الأرض أو كثرت ، فالأرض ومن عليها ملك للإقطاعى،يعملون فى حقوله،ويوزع بعض الأرض عليهم مقابل جعل معين ليزرعوها لأنفسهم إن أمكنهم أن يوفوا بالجعل المتفق عليه ، والذى يحدده الإقطاعى حسب هواه دون ضابط معين . فكل من كبر من الأولاد الذكور من سكان القرية فهو يعمل تلقائيا فى الأرض، يعاون أباه وأسرته ويسكن فى بيت الأسرة ، ويأكل من طعامها قل أو كثر ، ويلبس ما تتيح له الظروف أن يلبس من المنسوجات اليدوية التى تنتجها القرية ، والحياة قليلة التكاليف وإن كان الكل يعيشون عيشة الفقر المدقع ولا يجدون غير الكفاف .

أما فى المدينة فقد كان يسكن فريق من موظفى الدولة وهم قليلون ، وفريق من أصحاب الصناعات اليدوية ـ وهى الصناعات الوحيدة يومئذ - وفريق من التجار ، وفريق من أصحاب الحوانيت التى تبيع الحاجيات للناس ، وأصحاب المقاهى والنزول (الفنادق الصغيرة) وفريق من المرابين اليهود ، وفريق من أصحاب الثروات من الإقطاعيين الذين يتنقلون دائما ما بين المدينة وبين بيوتهم ـ أو قلاعهم ـ فى داخل إقطاعياتهم ، وفريق من البغايا اللواتى يعشن على بيع أجسادهن لمن أراد من كل هؤلاء،وبصفة خاصة أصحاب الثروات .

خلاصة القول أن كل واحد من سكان المدينة له عمله الذى يعيش منه ، أوله

ثروته التى تكفل له الحياة هناك بلا عمل .. ولا يتكلم أحد عن حق العمل فى الريف ولا فى المدينة ، لأن الحاجة إليه لم تكن قد برزت بعد فى ذلك المجتمع فى ذلك الحين .

ولكن الثورة الصناعية قلبت هذه الأوضاع كلها وغيرتها ، حين توافد إلى المدينة أعداد هائلة من العبيد المحررين من الإقطاع بعد تحطيمه يبحثون عن العمل فى المدينة ، ولم تكن الصناعات الناشئة تستوعب ذلك العدد كله وقتئذ ، ولا كانت هذه الصناعات مستقرة ومتمكنة ، فقد كان كثير منها يفلس لأسباب مختلفة وتقوم مقامها مشروعات جديدة وهكذا .

ومن طبيعة العامل الذى نزح من الريف إلى المدينة ألا يحب الرجوع إلى الريف ولو بقى عاطلا فى المدينة ! فإنه بعد أن يعيش فى المدينة الفسيحة المتعددة جوانب النشاط ، ويتعود ـ فى حدوده الضيقة ـ على ألوان من المدنية ، لا وجود لها فى الريف ، ويحس « بالحرية » حريته فى أن يتصرف فى أموره الشخصية كيف يشاء دون تدخل أو تحريج من مجتمع المدينة ، بينما مجتمع الريف محكوم أبدا بتقاليده، وبالتعارف الشخصى بين كل أفراده، مما يضيق مجال تلك الحرية .. بعد ذلك كله لايحب أن يرجع إلى الريف الذى « تحرر » منه ، ويفضل أن يبقى متسكعا فى المدينة ولو ضاقت به سبل العيش .

ولكن القضية لم تكن قضية هذا الفرد أو ذاك ، إنما صارت قضية ألوف من هؤلاء العمال وألوف تجتذبهم المدينة والبحث عن فرص العمل فيها ، ثم لا تتسع لهم ، وهى فى الوقت ذاته تكبل أقدامهم « بسحرها » الخاص فلا يفارقونها !

وأصبحت القضية فى حاجة إلى حل .. إلى تقرير « حق العمل » للألوف العاطلين فى المدينة، وإيجاد أعمال تستوعبهم . ولم يكن ذلك يسيرا فى مبدأ الأمر .. ولا تزال كل الحلول التى تقدمها الرأسمالية غير حاسمة تماما فى هذه النقطة ، وإن كان قد حدث تقدم ضخم فى هذا الاتجاه من خلال المعارك التى قامت من أجل الحل ، وتعرض فيها ألوف من العمال للسجن والتشريد والموت جوعا على الأرصفة بلا مأوى ، والموت بالسل وغيره من أمراض سوء التغذية وسوء التهوية وسوء التدفئة فى صقيع أوروبا البارد فى الشتاء ..

لم يكن الحل سهلا لأكثر من سبب فى آن واحد .

ففكرة المسئولية غير قائمة أصلا فى ذهن أحد من الناس ! فالدولة لم تمارس هذه المسئولية من قبل أبدا ، ولا تحس أنها ملزمة بممارستها !

لقد كانت الدولة دائما هى دولة الأغنياء ! تحس بالمسئولية الكاملة عن راحة الأغنياء ورفاهيتهم وصياغة الأمور كلها بحيث تستجيب لمطالبهم وتحقق لهم رغائبهم . أما ذلك الهمل من القطع الآدمية الملقاة هنا وهناك فهؤلاء يتحملون مسئولية أنفسهم ! عليهم هم أن يبحثوا عن حكمة وجودهم وأن يدبروا أمورهم بأنفسهم ! فإن ماتوا جوعا فهذا قدرهم ! مع التظاهر بالعطف على هؤلاء « المساكين » الذين قدر الله لهم الفقر والجوع والمرض والهلاك ، أو مع الشماتة فيهم لأنهم لا يستحقون الوجود أصلا ويستحقون كل ما يحدث لهم !

وكانت المعركة مع « ضمير » دولة الأغنياء طويلة ومريرة حتى تزحزحت عن موقفها العنيد تدريجيا ، ورضيت بأن تتحمل المسئولية عن هؤلاء الفقراء ، وإن كانت المسئولية الكاملة لم تتخذ بعد فى أية دولة من الدول الديمقراطية الرأسمالية .

أما أصحاب المصانع فقد كانوا أبعد عن تحمل المسئولية وأقسى فى معاملة أولئك الفقراء .

إن فكرة المسئولية بعيدة عن ضمائرهم بعدا كاملا ، وقد قاموا منذ أول لحظة على غير أساس إنسانى .. إنما قاموا على أساس تحقيق أكبر قدر من الربح ، بأية وسيلة تحقق ذلك الربح ، وكانت الوسيلة القريبة إلى أيديهم هى تطويل ساعات العمل وخفض الأجور إلى أقصى حد مستطاع « ١ » .

وبصرف النظر عن تأثر الرأسمالية كلها بأخلاق اليهود الذين أشرفوا عليها من بدايتها - واليهود هم عبدة العجل الذهبى من قديم - فإن الرأسمالية فى حد ذاتها نظام جاهلى .. ومن طبيعة الجاهلية أن تظلم المستضعفين. وأن يطغى فيها أصحاب السلطان على من لا سلطان لهم ، إلا أن يحجزهم عن الظلم حاجز قهرى لايملكون قهره بجبروتهم .

ولقد استخدم العمال سلاح الإضراب ضد جشع الرأسماليين فكانوا

« ١ » تقول الشيوعية إن هذا من طبيعة الرأسمالية ذاتها ، ولا علاقة له بالأخلاق » لأن الرأسمالى بطبعه محب للربح ، ساع إليه كما تسعى القطة إلى أكل الفأر ! ! ونقول نحن إنه ليس من طبيعة الرأسمالية فى ذاتها ، إنما هو من طبيعة «الإنسان» حين يطغى ، أى حين لا يلتزم بشرع الله ومنهجه ، وقد كان الإقطاع على نفس الوجهة من قبل مع اختلاف الصورة الظاهرية . فكان الإقطاعى يسعى إلى الربح على حساب إنسانية العبيد وكرامتهم وجهدهم وإن تظاهر بالعطف « الأبوى » على « رعاياه » ! يقول رب العالمين : «كلا ! إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» [سورة العلق : ٦ - ٧] ويقول : «إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد» [سورة العاديات : ٦ - ٨] أما المؤمنون فلهم صفات أخرى سواء كانوا يعيشون فى مجتمع رعوى أو زراعى أو صناعى أو خلاف ذلك !

يضربون عن العمل ويطالبون بخفض ساعات العمل ورفع الأجور « ١ » وهنا تلجأ الرأسمالية إلى « جيش العاطلين » تشغلهم بدريهمات قليلة مستغلة جوعهم وحاجتهم القاسية إلى المال ، لتضغط بهم على العمال المضربين حتى يعودوا إلى أعمالهم صاغرين (ومن هنا كان تشغيل المرأة بنصف أجر ، الذى بدأت منه « قضية المرأة » بادئ ذى بدء ثم استفحلت فصارت قضية مساواة كاملة فى كل شئ)

لذلك كان الجو من أول لحظة بين الرأسماليين والعمال هو جو العداء والصراع لا جو المودة والتراحم ، فلم يكن من المتصور أن يتحرك ضمير الرأسماليين بالشعور بالمسئولية تجاه أولئك «الأعداء» الذين يريدون أن ينقصوا من أرباحهم بالمطالبة بخفض ساعات العمل ورفع الأجور تارة ، والإضراب عن العمل وتعطيله تارة أخرى !

ولم يشعروا بهذه المسئولية عن طيب خاطر أبدا فى يوم من الأيام ! إنما كانوا يتراجعون عن مواقعهم خطوة خطوة تحت تأثير التهديد المستمر .. وكل ما قامت به الرأسمالية من ضمانات للعاطلين إنما كان تحت تهديدين عظيمين : تهديد الإضراب الذى يصيبهم بقدر من الخسائر أكبر مما يتنازلون عنه من فائض أرباحهم للعمال ، وتهديد الشيوعية !

وشيئا فشيئا أخذت هذه الجاهلية تعدل مواقفها من « حق العمل » سواء على مستوى الدولة أو مستوى الرأسمالية الحرة ، حتى قبلت أخيرا مبدأ المسئولية وإن لم تقم به كاملا إلى هذه اللحظة .

وثمة صعوبة أخرى تقف أمام حق العمل الشامل فى الرأسمالية ، هو أن الأعمال ـ بالطريقة التى تقوم بها الرأسمالية ـ لاتتسع لكل الأيدى الراغبة فى العمل أو القادرة عليه ، خاصة وأن التقدم «التكنولوجى» يزيد باستمرار من قدرة الآلة على الإنتاج ويخفض من عدد الأيدى اللازمة لإدارتها ، فتحدث زيادة مستمرة فى الأيدى العاملة الفائضة عن الحجم الذى يحتاج العمل إليه ، وتتعقد المشكلة باستمرار . «٢»

ومهما يكن من أمر فقد قامت الديمقراطية التى تمثل فى الواقع محاولة

---

١ ـ مازالوا يطالبون إلى هذه اللحظة !!

٢ ـ من الحلول التى قامت بها بعض الدول المتقدمة صناعيا منح يومين عطلة بأجر بدلا من يوم واحد فى الأسبوع مع التخفيض المتزايد فى ساعات العمل .

التوفيق بين الطبقتين المتصارعتين فى المجتمع الرأسمالى،وهما طبقة العمال (أى الشعب !) وطبقة الرأسماليين ، قامت بجهد متواصل حتى قررت حق العمل من حيث المبدأ وجعلت الدولة ترضى بتحمل مسئوليتها فى هذا الشأن .

وحين نقول « الديمقراطية » فنحن نقصد فى الواقع كفاح الطبقة المظلومة المضغوطة للحصول على حقوقها،ولا نقصد أن الديمقراطية من ذات نفسها تمنح الحقوق للراغبين ! وإلا فإن النظام البرلمانى فى ذاته - وهو أداة الحكم فى الديمقراطيات - لم يتسع لحقوق الفقراء إلا تحت القهر والضغط .. فإذا كانت هذه الحقوق قد أصبحت اليوم سمة من سمات الديمقراطية فليس لأن الديمقراطية ولدت على هذه الصورة ، أو أنها يمكن أن توجد تلقائيا فى أى بلد على هذه الصورة ! ولكن لأن صراعا حادا نشب ، هو الذى أعطى الأوضاع صورتها الراهنة ، ولو لم يقم ذلك الصراع لبقيت الديمقراطية كما كانت حكما صرفا للأغنياء دون الفقراء !

حق التعليم :

لم يصبح التعليم حقا « للشعب » فى أوروبا إلا بعد كفاح مرير .

ففى ظل الإقطاع لم يكن للتعليم كله شأن يذكر . ولكن السادة على أى حال كانوا يتعلمون فى القصور ما يليق بهم من العلم فى ذلك الحين . يتعلمون اللاتينية والإغريقية والشعر والأدب ونصوصا من الكتاب المقدس وشيئا من الحساب وماشابه ذلك . أما أبناء الشعب فإن تعلموا شيئا من الكتاب المقدس على يد راعى الأبرشية فذلك حسبهم وزيادة ! فما الذى يصنعون بالعلم وهم فى داخل سياج القرية أو الإقطاعية قد لايفارقها الواحد منهم طيلة حياته . إنما يتلقى الصبى منهم « ثقافته » من أحاديث الكبار التى يرددون فيها خبراتهم التافهة عن الأرض والمحاصيل والضرائب والواجبات المفروضة عليهم ، وزواج فلان من أهل القرية أو موت فلان .. وأقاصيص الثراء فى قصر « النبيل » صاحب الإقطاعية وما يقيم فى قصره من مآدب وولائم ، وما يقع منه ومن وكيله من مظالم على العباد !

لذلك كانت الأمية هى الغالبة على « الشعب » وكان المتعلمون قلة نادرة فى كل أبواب التعليم ، معظمهم بطبيعة الحال من أهل المدن ، حيث توجد المدارس ، وحيث أهل المدينة يحتملون نفقات التعليم .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية فرجتا المجتمع رجا وبدلتا

كثيرا من أوضاعه ، ومن بين ما تبدل من هذه الأوضاع تدفق النازحين إلى المدينة من الريف وإقامتهم الدائمة هناك .

وبدأ الطلب على التعليم يتزايد لأنه كان ظاهرا أن للتعليم مهمة يؤديها فى المجتمع الجديد ، وأنه يؤدى إلى تحسين مستوى المعيشة بالنسبة للمتعلمين ، حيث يستطيعون أن يعملوا فى غير الأعمال اليدوية التى تركت للجهلة من العمال الذين لا يحتاجون فى عملهم إلى ثقافة ولا تعليم .

وبدأت صيحات المصلحين تطالب بتعميم التعليم وتوسيع دائرته حتى يشمل عددا أكبر من التلاميذ والطلاب ، وثارت ثائرة « المحافظين » فى المجتمع وفى المجالس النيابية ذاتها ، لماذا نتوسع فى التعليم حتى يشمل أبناء الشعب ؟ إن التعليم حق لعلية القوم لمكانتهم فى المجتمع ، فهم الذين يقودون ويوجهون ويتحملون المسئولية عن الشعب كله .. ثم إنهم هم القادرون على دفع نفقات التعليم ، فلا يكلفون الدولة فى تعليمهم إلا القليل .

أما الفقراء فلماذا يتعلمون ؟ ما حاجتهم إلى العلم ؟ ومن أين لهم النفقات التى يتطلبها التعليم ؟ وما نتيجة تعليمهم وما انعكاسها على المجتمع ؟ إنهم إن تعلموا فسيستنكفون أن يعملوا بأيديهم والمجتمع فى حاجة إلى من يعمل بيديه ، فكيف نلبى حاجات المجتمع إن علمنا أبناء الفقراء ؟!

ثم إن العلم يحتاج إلى أخلاق ! وأبناء الفقراء لا أخلاق لهم ! وسيهبط المستوى الخلقى فى المدارس بسبب دخول أبناء الفقراء ، فلا يصبح لائقا بأبناء العلية الذين يتعلمون - وحدهم تقريبا فى ذلك الحين - فكيف يتلقى أبناء العلية حظهم الضرورى من العلم إذا فتحت المدارس « للغوغاء » ؟

وحتى المستوى العقلى لايمكن أن يكون واحدا بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء ، وسيهبط المستوى التعليمى بسبب دخول أبناء الفقراء الذين يتسمون بالغباء والتخلف العقلى لأنهم من الطبقة الدنيا ! ولو كانوا أذكياء ما بقوا فى تلك الطبقة .. إنما هم بقوا هناك لعجزهم العقلى والنفسى الذى لايمكن شفاؤه !

وشيئا فشيئا تراجعت « الأرستقراطية » عن أفكارها ومواقفها ووافقت على توسيع دائرة التعليم حتى يتسع لعدد أكبر من أبناء الشعب ، وإن كانت عقبة التمويل ظلت توضع أمام كل مطالب بتوسيع التعليمكى يكف عن المطالبة التى تقلق بال الأرستقراطية وتهددها بأن تنزع منها تفردها وتميزها .

وجاء اليوم الذى طالب فيه المطالبون بجعل التعليم إجباريا على نفقة الدولة

واحتدمت معركة حامية حول هذا الشأن لم تهدأ من قريب .

اعترض بعضهم بأن الميزانية لايمكن أن تكفى ولو حولت كلها للتعليم !

واعترض بعضهم بأنه لاتوجد المبانى الكافية ولا المدرسون اللازمون !

واعترض آخرون بأن مستوى التعليم سيهبط لامحالة لأن الفصول ستكتظ بالتلاميذ فلا يمكن توجيه العناية اللازمة إليهم .

واعترضت الأرستقراطية بأنها لن تجد الخدم بعد اليوم ولن تجد العمال الذين يعملون بأيديهم ، وسيعود هذا بالوبال على المجتمع كله !

ولكن دفعة الجماهير والمدافعين عن حقوقهم كانت من القوة بحيث تغلبت على جميع الاعتراضات،وتقرر حق التعليم بعد صراع مرير ، وبعد جهد جهيد بذل فى التغلب على العقبات الحقيقية كقلة موارد الميزانية وقلة المبانى وقلة المدرسين .

واختلفت البلاد فى تحديد مرحلة الالزام التى تتحمل الدولة كل نفقاتها ، هل تكون بسنوات محددة من العمر ، والتلميذ يحصل ما يحصل فى تلك الفترة بحسب قدرته على التحصيل ؟ أم تكون بمستوى تعليمى معين أيا كانت السنوات التى يقضيها التلميذ فيها حتى يكملها ؟ وهل تكون هى المرحلة الابتدائية وحدها ؟ أم الاعدادية أم الثانوية ؟ (ولم تدخل المرحلة الجامعية فى هذا النطاق) كما اختلفت فيما يفعل بالطالب الذى يتكرر رسوبه ، هل يفصل ؟ وإذا فصل أين يذهب ؟ أم يحول إلى تعليم آخر يتناسب مع مقدرته العقلية ... الخ .. الخ . ولكن مبدأ التعليم العام الذى تنفق عليه الدولة تقرر على أى حال ..

وحين كانت هذه المعركة على أشدها كانت معركة المرأة تلاحقها !

فحين تقرر مبدأ التعليم العام كان الحديث فيه عن الأولاد فقط .. أما البنات فيتعلمن – نعم – إن شئن لكن على نفقة آبائهن ، ولا تتحمل الدولة نفقات تعليمهن كلهن !

ولكن المطالبين بحقوق المرأة كانوا لايتوانون عن الملاحقة ، وعن طلب المساواة مع الرجل فى كل شىء !

ومن ثم فقد شمل التعليم العام البنات فى آخر الأمر ، ووضع لهن ذات المناهج المعدة للبنين ، وكان بعد ذلك ما كان من دخول الجامعة والاختلاط والمطالبة بحق العمل كالرجال سواء !

وأيا يكن الأمر فقد اتسمت الديمقراطية بتلك السمة،وأصبح التعليم العام المجانى معلما من معالم الديمقراطية ، ولكن ينبغى أن نذكر فى كل مرة أن صراع الجماهير وضغطهم المستمر هو الذى وسم الديمقراطية بتلك السمة فى النهاية ، ولم تكن كذلك من مبدئها ، ولا كان فى نية القائمين عليها أن تصبح كذلك فى نهاية الطريق !

الحقوق السياسية :

حق الانتخاب ـ حق الترشيح ـ حرية الكلام ـ حرية الاجتماع ـ حق الاحتجاج .

مع نمو الديمقراطية نمت الحقوق السياسية للشعب . بل إن الحقوق السياسية هى فى الواقع أبرز سمات الديمقراطية فى صورتها النهائية التى استقرت عليها .

وخلاصة الحقوق السياسية أن يكون للشعب حق الاشراف على الحكومة وتوجيهها وحق نقدها والاعتراض على أعمالها .. ويتخذ ذلك صورتين متكاملتين إحداهما هى التمثيل النيابى ويحوى حق الانتخاب وحق الترشيح لدخول البرلمان ، والثانية حق الاجتماع وإبداء الرأى خارج البرلمان،ويشمل الصحافة والاجتماعات السياسية والمظاهرات السلمية التى تقام للمطالبة بأمر معين أو الاحتجاج على أمر معين .. وكل هذه الأمور لم يكن للشعب منها نصيب على الإطلاق قبل الديمقراطية ، وحتى حين بدأت الديمقراطية تتخذ شكل التمثيل النيابى فإن « الشعب » لم يكن ممثلا هناك،ولا كان مسموحا له أن يلج هذا الميدان،رغم ما كان مكتوبا فى ديباجات الدساتير من عبارات « الحرية والاخاء والمساواة ! » إنما نال الشعب كل ذلك بالعرق والدماء والدموع ! بالسجن والتشريد والاضطهاد وجميع ألوان المحاربة والمعارضة .. فلما ثبت المطالبون وألحوا فى الطلب وصمدوا أمام الضغط أخذوا يحصلون رويدا رويدا على كل هذه الحقوق ، حتى أصبحت اليوم أمرا مقررا فى الديمقراطية ، بل أصبحت هى السمة البارزة لهذا اللون من الحكم .

وفى ابتداء الديمقراطية كانت العملية كلها تكاد تكون وقفا على الأغنياء ! فقد كان ينص نصا صريحا على أن المرشح ينبغى أن يكون مالكا لنصاب مالى معين ، وأن يثبت ذلك بإثباتات رسمية حتى يباح له أن يدخل المعركة الانتخابية

وفضلا عن ذلك فإن نفقات الدعاية الانتخابية كانت ـ ومازالت ـ فى طوق الأغنياء وحدهم دون الفقراء . كما أن الناخبين أنفسهم كانوا خاضعين لقيود تجعل عددهم ضئيلا وفرصة التأثير عليهم بشتى الوسائل (حتى شراء الأصوات بالمال !) فرصة كبيرة . لذلك كان « نواب الأمة » أبعد ما يكونون عن تمثيل الأمة فى حقيقة الأمر ! « ١ »

ورويدا رويدا ـ تحت تأثير الاحتجاج المستمر من « الشعب » بكل وسائل الاحتجاج ـ خففت القيود على الناخبين والمرشحين كليهما ، فظل النصاب المالى يخفف عن المرشحين وألغى إلغاء كاملا عن الناخبين مع تخفيض السن التى يجوز فيها الترشيح والتى يجوز فيها الانتخاب حتى صارت الآن إحدى وعشرين سنة لهذا وذاك فى معظم بلاد الأرض .

وقد استغرق هذا زمنا طويلا حتى تقرر ، كما احتاج إلى نضال مستمر ، مع التعرض الدائم للمتاعب حتى أصبح اليوم من البديهيات المقررة التى لا تحتاج إلى ذكر . فأصبح من حق أى انسان بلغ إحدى وعشرين سنة أن يكون له صوت انتخابى بشرطين اثنين ، الأول أن يكون مقيدا فى الدائرة التى يريد أن يدلى فيها بصوته والثانى ألا يكون قد صدر ضده حكم فى قضية مخلة بالشرف (والشرف فى عرفهم لايتعارض مع الإباحية الجنسية بطبيعة الحال ولا مع العربدة والمجون ! إنما يتعارض فقط مع الاغتصاب ومع السكر الذى تصحبه جريمة ! كما تعتبر السرقة والغش والاحتيال .. الخ جرائم مخلة بالشرف) كما أصبح من حق أى إنسان بلغ هذه السن ويجيد القراءة والكتابة ولم يصدر ضده حكم فى قضية مخلة بالشرف أن يرشح نفسه للبرلمان (ولا ننسى أن المرأة ظلت تلاحق الرجل فى هذه الحقوق حتى نالتها فى كثير من الديمقراطيات فى الفترة الأخيرة)

وفى داخل البرلمان توضع كل الضمانات التى تتيح للعضو أن يعبر عن رأيه، وأن ينتقد الحكومة سواء أعضاؤها أو رئيسها بما شاء من وسائل النقد وعباراته إلا أن يكون سبا شخصيا صريحا .. ويحاط العضو « بالحصانة البرلمانية » التى تكفل عدم محاسبته على أى عبارة يتفوه بها داخل البرلمان (ما لم تكن سبا شخصيا كما قلنا) . وإن كان يحق للحكومة أن تطلب من البرلمان

« ١ » سنناقش مدى التمثيل الحقيق للأمة فيما يلى من هذا الفصل .

رفع الحصانة البرلمانية عن أحد الأعضاء إذا رات أنه تجاوز الحرية المباحة له ، وعندئذ يقدم للمحاكمة إذا وافق البرلمان على رفع الحصانة عنه (وقد يكتفى بتأديبه بمنعه من حضور عدد من الجلسات أو يطرد نهائيا من البرلمان وتخلو دائرته للانتخاب فيها من جديد)

وبهذه الضمانات يملك العضو - نظريا على الأقل - حرية واسعة وإمكانية ضخمة لتوجيه الحكومة إلى الطريق الذى يرى أنه هو الصواب ، ويملك البرلمان فى مجموعه - نظريا كذلك على الأقل - سلطة توجيه الحكومة وتقييد تصرفاتها وجعل الشعب حارسا على هذه التصرفات .

أما فى خارج البرلمان فالحقوق السياسية تتضمن حرية التعبير عن الرأى - بكل وسائل التعبير - وحرية النقد وحرية الاحتجاج .

فأما التعبير عن الرأى سواء بالتأييد او المعارضة فيأخذ صورة الانتماء الحزبى،أى حرية أى انسان فى الانتماء إلى أى حزب من الأحزاب القائمة - مادامت ليست محظورة بأمر القانون - والكتابة فى الصحف (ووسائل الإعلام الأخرى فى البلاد التى تكون الإذاعة والتلفزيون فيها مملوكين لشركات وهيئات وليسا مملوكين للحكومة،كانجلترا وفرنسا وأمريكا) والخطابة فى المنتديات العامة والخاصة ، والاشتراك فى مظاهرة سلمية بعد الحصول على إذن من السلطات بقيام المظاهرة (وكثيرا ما تقوم المظاهرات بغير إذن ! وعندئذ تتصرف السلطة بما تراه مناسبا : إما أن تعترف بالأمر الواقع إذا رأت أنه لا ضرر من المظاهرة وإما أن تصطدم بها وتفرقها وتقبض على بعض زعمائها وتقدمهم للمحاكمة !)

وأما الاحتجاج فيأخذ صورة الإضراب عن العمل وتشكيل المظاهرات،وهو نوع من التعبير عن الرأى على أى حال وإن كان اكثر خشونة من سابقه ، لأنه يتجاوز النقد إلى الاحتجاج .

ويشمل هذا وذاك حرية الاجتماع ، اى حق الناس فى أن يجتمعوا فى أى مكان ليتدارسوا أمرا معينا أو ليبدوا رايهم فى موضوع معين أو لينتقدوا تصرفا معينا من تصرفات الحكومة أو ليحتجوا على شيء من ذلك كله .

وتكون الاجتماعات عادة فى مقار الأحزاب ، وهذه لا تحتاج عادة إلى طلب تصريح من السلطة مادام الحزب مصرحا به أصلا ، إلا أن يكون دعوة عامة إلى مؤتمر أو اجتماعا مكثفا فى مكان غير مقر الحزب ، أو أوسع من المقر بحيث

يشمله ويشمل امتدادا له فى الطريق العام .

أو تكون فى الجامعات أو فى قاعات المحاضرات العامة ، أو فى الطريق العام ، وهذه تحتاج إلى تصريح مسبق من السلطات .

وكل هذه الحريات ، التى أصبحت اليوم من البديهيات المقررة فى الديمقراطية لم تكن كذلك يوم بدأت الديمقراطية فى الظهور ، بل كانت القيود شديدة جدا والحريات ضئيلة . فلا الصحافة كانت تملك الحرية الواسعة فى النقد ، ولا حرية الاجتماع كانت قائمة ، ولا حرية الاحتجاج ، إنما فرض « الشعب » كل ذلك فرضا على الحكومات بالضغط المستمر والإلحاح الدائب ، والتعرض للسجن والاعتقال والتشريد . ويحفل التاريخ « الديمقراطى » ! بألوان من الاضطهاد ذاقها المدافعون عن هذه الحقوق حتى أصبحت أمرا مقررا و « تقاليد » مرعية فى الديمقراطيات . وإلا فقد كان كل نقد حاد فى الصحف يعتبر خروجا على القانون تصادر الصحيفة من أجله ويمنع صدورها ويحبس محرر المقال والمسئولون عن الصحيفة بسببه ، وكان كل اجتماع يعتبر شغبا ويفرق بالقوة ، وكانت المظاهرات تعتبر عملا غير مشروع يعاقب عليه بالسجن أو الاعتقال أى مدة من الزمن دون محاكمة !

واحتاج الأمر إلى ضغط البرلمانات وضغط الخطباء والكتاب لتعديل القوانين التى تبيح ذلك كله ، وتقييد يد الحكومة فى التنكيل بأعدائها السياسيين أو بالشعب عامة ، حتى « تعودت » الحكومات أن تستمع للنقد وهى ساكتة ، وأن تترك للمحتجين على تصرفاتها حرية الاحتجاج دون أن تتحرك لمطاردتهم أو كفهم عن الاحتجاج والاعتراض .

وإذا قلنا إن مائة سنة على الأقل من النضال المستمر قد استغرقت حتى وصلت بالأمر إلى صورته الحالية لانكون مبالغين فى ذلك ، فإننا ما نزال نرى ذيولا للمعركة حتى وقتنا الحاضر رغم كل ما قررته الديمقراطيات من الحريات ، كان آخرها مظاهرات العنف فى فرنسا منذ سنوات ، وما تقوم به الأحزاب الشيوعية من المعارضة العنيفة فى كل بلد ديمقراطى سمح للأحزاب الشيوعية فيه بالنشاط !

وبصرف النظر عن اتجاه الحرية فى البلاد الديمقراطية « ١ » فلا شك أن

« ١ » سنتكلم عن « اتجاه الحرية » حين نناقش الوجه الآخر للديمقراطية فيما يلى من هذا الفصل .

الحرية السياسية من أبرز ما تشتمل عليه الديمقراطيات ومن أهم ما تشتمل عليه .

* * *

أما الضمانات التى كسبها الشعب فى ظل الديمقراطية فهى ضمانات الاتهام ، وضمانات التحقيق ، وضمانات الحكم ، وضمانات التنفيذ . ولنقل كلمة سريعة عن كل منها لنصف بعد ذلك موقف الديمقراطية منها .

أما ضمانة الاتهام فمقتضاها الا يؤخذ الناس بالظنة وأنهم لا يحبسون ولا يعتقلون إلا بمقتضى تهمة حقيقية تستوجب ذلك . وليس معناها بطبيعة الحال أن كل من اعتقل أو حبس لابد أن يكون مجرما بالفعل،فقد يظهر التحقيق براءته فيفرج عنه . إنما معناها فقط أنه لابد أن تكون هناك قرينة أو شبهة حقيقية على الأقل فى أنه ارتكب محرما بنص القانون ، وليس لمجرد أنه « ضايق » الحكومة بعمل من الأعمال فتنتقم منه بالحبس أو الاعتقال !

وأما ضمانة التحقيق فمقتضاها الا تستخدم مع المتهم أية وسيلة من وسائل الضغط لحمله على الاعتراف بما لايريد أن يعترف به سواء كان الضغط بالتهديد أو بالاغراء (كأن يقال له : إذا اعترفت فسنخفف عنك العقوبة أو سنطلق سراحك ، ويكون هذا للإيقاع به،أو لاستخلاص معلومات معينة منه)

وأما ضمانة الحكم فهى أن يحكم على المتهم بالعقوبة التى يقررها القانون بلا زيادة ، ويكون للمحكوم عليه حق استئناف الحكم ونقضه إذا رأى أنه مجحف به .

وأما ضمانة التنفيذ فهى أن تنفذ العقوبة التى قررتها المحكمة بلا زيادة ، ويكون للمحكوم عليه حق الاحتجاج على أى زيادة يرى أنها وقعت عليه بغير وجه حق .

وككل شىء فى الديمقراطية لم يحصل الشعب على هذه الضمانات فى يسر،ولا كانت من مقررات الديمقراطية حين قامت فى البدء .

فقد كانت الديمقراطية قائمة ـ فى أول عهدها ـ والشعب مطارد مضطهد بلا ضمانات تحميه !

كان من حق الشرطة أن تقبض على أى إنسان وتودعه السجن ، وكان ذلك فى الغالب لإحدى « جريمتين » : الفقر أو معارضة الحكومة ! فأما الفقر فقد كان يبيح للشرطة القبض على أى إنسان بتهمة « التشرد ! » وعليه هو أن يثبت ما

يخالف ذلك ! وليس على الشرطة أن تثبت « الجريمة » ! فالشبهة كافية والقانون ـ الذى وضعه الأغنياء ـ يوافق على ذلك ! ويجعل الناس متهمين حتى تثبت براءتهم ، وذلك حتى يكون « الفقراء » تحت تهديد دائم يمنعهم من الخروج على الأدب اللائق فى حق الأغنياء !

وأما معارضة الحكومة فيالها من جريمة تبيح السجن والاعتقال والتشريد ! وما أيسر التهمة ! التحريض على قلب نظام الحكم ، أو التحريض على كراهية النظام ، أو العيب فى أى ذات من الذوات « المقدسة » التى لايجوز العيب فيها !

وجاهد الشعب ، وجاهد أحرار الفكر جهادا طويلا مضنيا من أجل تغيير هذه الأوضاع كلها ، حتى تقرر فى الدساتير أولا ثم فى الواقع العملى بعد ذلك أن « المتهم برىء حتى تثبت إدانته » وليس مدينا حتى تثبت براءته كما كان الحال من قبل .. وسعى المجاهدون إلى إبطال حق الحكومة فى القبض والاعتقال دون سبب ظاهر ، وأصبح من المقرر الآن أنه فى خلال مدة محددة من الاعتقال تتراوح بين يوم واحد وأربعة أيام فى بعض البلاد لابد أن يقدم المتهم للتحقيق بتهمة واضحة محددة . وحينئذ تحوطه ضمانات التحقيق وهى تشتمل على حقه فى أن يطلب حضور محام عنه أثناء التحقيق لضمان عدم الضغط عليه بالتهديد أو الاغراء . وحقه فى ألا يرد على سؤال المحقق دون أن يتعرض من أجل ذلك للتعذيب ، وحق المحامى فى أن ينبه المتهم فى أثناء استجوابه إلى عدم الرد على سؤال معين باعتبار أن المحامى أدرى منه بالمزالق القانونية التى يمكن أن يستدرجه المحقق إليها دون أن يلتفت إلى خطورتها عليه .. وباختصار أن تكون الأدلة المادية أو القرائن هى عماد التحقيق ، وليس سحب الاعترافات من المتهم عن أى طريق !

وتعتبر هذه الضمانات اليوم من مقاييس التحضر الإنسانى ، وهى جديرة بأن تكون كذلك ، فإن معاملة المتهم تكشف عن مدى احترام إنسانية الإنسان ، وليس مقياس الإنسانية هو معاملة السيد للسيد أو الند للند فهنا تتحكم عوامل أخرى غير احترام الإنسانية فى ذاتها . إنما معاملة « الضعيف » أيا كان سبب ضعفه ، وسواء كان ضعفه عارضا ـ كالمتهم ـ أو دائما كالفقير والمسكين واليتيم .. الخ ، هى التى تكشف ، لأن القوة هنا تغرى بالاستبداد بالضعف .. فإذا امتنع القوى — أيا كان سبب قوته ، وسواء كانت قوته عارضة — من

جاه المنصب - أو دائمة - بسبب آخر - إذا امتنع عن إيذاء الضعيف واضطهاده وإذلاله ، فلن يمنعه إلا الشعور « الإنسانى » وإلا احترام إنسانية الإنسان .. فإذا كان الذى يمنعه فقط هو القانون ، فالقانون إذن يحمل فى طياته احترام إنسانية الإنسان ، حتى لو كان الذين ينفذونه يفتقرون إلى الشعور بالإنسانية .. ومعاملة المتهم بالذات قد تكون أكثر دلالة من غيرها ، لأن الضعيف البرىء الذى لاذنب له قد يجد من براءته سندا للعطف عليه عند ذوى القلوب الرحيمة ، أما المتهم فشبهة الإدانة تحوطه ، وشبهة استحقاقه للعقوبة قائمة ، فإذا وجدت النفس الشريرة ، المتجبرة بالقوة وبالسلطان ، وإذا وجد الحقد الشخصى بالإضافة إلى ذلك ، كان الانزلاق إلى الإيذاء والتعذيب هو الأكثر توقعا . وكذلك كان الحال فى التاريخ كله فى عهود الاستبداد ! المتهم يؤخذ بالشبهة ثم ينكل به تنكيلا دون مبرر حقيقى إلا شهوة الاستبداد ! والشبهة هى مجرد خوف « السادة » على سيادتهم ، ورغبتهم فى إحاطة أنفسهم بسياج يحفظ لهم هذه السيادة ! يستوى فى ذلك أن يكونوا حكاما (فتكون القضية سياسية) أو أغنياء فقط (فتكون القضية جنائية عادية) .

فوضع القيد الذى يقيد السادة فيمتنعون أو يُمنعون عن تعذيب المتهم والتنكيل به ، هو تقرير لجانب من جوانب إنسانية الإنسان ، يحسب لاشك فى الميزان ، لكن الذى ينبغى أن ندركه هو أن السادة لم يضعوا هذا القيد من تلقاء أنفسهم ، إنما أكرهوا على قبوله إكراها بالضغط المستمر عليهم ، والإلحاح فى المطالبة ، والإلحاح فى كشف خبيئة نفوسهم الخبيثة ، بصورة تهدد سلطانهم على الناس ! فإن السلطان - حتى سلطان الجبابرة - يقوم دائما على قدر من الاحترام ، فإذا ذهب الاحترام من النفوس صعب أو استحال استمرار السادة فى سيادتهم وطغيانهم مهما كان لهم من جبروت .

والذى فجرته الثورة - التى انطلق فيها رد الفعل عن المظالم التى استمرت أكثر من ألف عام - كان هو إزالة القداسة عن ذوى القداسة ، سواء من رجال الإقطاع أو من رجال الدين . فلما جاءت الطبقة « المقدسة » الجديدة وهى الطبقة الرأسمالية لم تجد الطريق ممهدا على نفس الصورة التى كان عليها الإقطاع من قبل ، بل وجدت الثوار - سواء بأفكارهم أو بأعمالهم - يقفون لها بالمرصاد ، ويثيرون السخرية من أعمالها فى النفوس ، فتنازلت شيئا فشيئا

عن كثير من مظاهر قداستها (وإن كانت ماتزال بعد تملك الكثير !)« ١ »

أما ضمانات المحاكمة - بعد ضمانات الاتهام والتحقيق - فهى حق المتهم فى إقامة محام يقوم بالدفاع عنه أمام المحكمة ، يختاره بنفسه إذا كان يملك دفع « أتعابه » (أى الأجر الذى يتقاضاه مقابل الدفاع عن المتهم) أو تنتدبه له المحكمة مجانا إذا كان فقيرا لايملك دفع الأتعاب . وحقه فى الامتناع عن الرد على أى سؤال توجهه المحكمة إليه ، وحق المحامى فى منعه من الاجابة على أى سؤال يرى من معرفته بالقانون أن الاجابة عليه تضر بالمتهم ، وحقه فى استدعاء الشهود الذين يرى أن شهادتهم تنفعه فى قضيته ، وحق المحامى فى طلب التأجيل للاستعداد أو لمزيد من الدراسة أو لتقديم أدلة جديدة . ثم حق المتهم فى استئناف الحكم إذا رأى أنه جار عليه أو أوقع عليه جزاء لايستحقه (ويقابله حق النيابة فى استئناف الحكم إذا رأت أنه أقل ممايستحقه المتهم)

وأما ضمانات التنفيذ فهى أولا تنفيذ العقوبة التى قررتها المحكمة دون زيادة عليها ، وثانيا حسن معاملة المجرم داخل السجن فى فترة العقوبة ، فلا توقع عليه عقوبة بدنية ولا إهانة إلا نتيجة إخلاله بنظام السجن ، الذى تتضمنه لائحة معينة تحدد علاقة السجين بسجانيه ، وتوفر له الرعاية الطبية إذا مرض ، ويكون من حقه الشكوى من إدارة السجن إلى النيابة العامة ، ومقابلة محاميه فى السجن إذا عن له مايستدعى ذلك ، وزيارة أهله له زيارة دورية .. وتطور الأمر الآن فى بعض السجون إلى السماح للسجين بزيارة أهله فى منزله فى فترات محددة ، حيث يقضى ساعات بين زوجته وأطفاله - تحت الحراسة - ثم يعود إلى السجن !

تلك خلاصة الحقوق والضمانات التى منحتها الديمقراطية للشعب ، أو بالأحرى استخلصها الشعب لنفسه فى ظل الديمقراطية ، والتى أصبحت اليوم هى مضمون الديمقراطية فى نظر الغرب« ٢ » .

وإذا نظرنا إلى حال « الشعب » فى ظل الإقطاع فلا شك أن الديمقراطية - بالصورة التى صارت إليها - كانت نقلة كبيرة رفعت الشعب من حضيض « اللاشيئية » و« اللاإنسانية » إلى أن يصبح له اعتبار ، ويعامل - فى جانب من جوانب الحياة - معاملة الإنسان .

« ١ » سنتكلم عن ذلك فى مناقشة الديمقراطية

« ٢ » سنتكلم عن مضمون الديمقراطية فى نظر الشيوعيين حين نستعرض الشيوعية .

وأى مقارنة بين الحالين ستثبت على الفور هذه النقلة ، وستثبت أن الإنسان الأوربى ، الخارج من ظلمات الإقطاع ، قد استمتع فى ظل الديمقراطية بجوانب مضيئة ماكانت لتخطر على باله من قبل ، وماكان يتصور وجودها إلا فى أحلام الفلاسفة الحالمين !

* * *

ولكن هذه الصفحة المضيئة ليست هى الصفحة الوحيدة للديمقراطية « الليبرالية » كماتسمى ديمقراطية الغرب ، أى التى تقوم على حرية الفرد فى أن يعمل مايشاء ، تحقيقا للشعار الشهير الذى أطلقته الرأسمالية فى نشأتها « دعه يعمل مايشاء Laissez Faire ، دعه يمر من حيث يشاء Laissez Passer والتى صورتها العامة هى الحرية السياسية وتعدد الأحزاب» ١ »

إنما لها صفحة أخرى قاتمة شديدة القتام . بمقدار ما تتلألأ هذه الصفحة بالنور .

والتطبيق الواقعى للديمقراطية الليبرالية هو الذى يكشف سوآتها ويحدد وزنها الحقيقى فى ميزان الحق .

حين نزلت الآية الكريمة : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » قال صلى الله عليه وسلم : ماصدقتا إلا فى هذه ! أى صدقت كل واحدة فيماتقول عن الأخرى ، وإن كذبت فيما تدعيه لنفسها من فضائل وحسنات .

ويصدق هذا الأمر فيمابين الديمقراطية والشيوعية ، فإن كلا منهما تصدق فيما تقوله عن الأخرى وإن كذبت فيما تدعيه لنفسها من حسنات .

والشيوعية تقول فى هذا الصدد إن « الذى يملك هو الذى يحكم » وإن « الطبقة » التى تملك وتحكم تضع التشريعات لحسابها الخاص على حساب الطبقات الأخرى . وإنه فى الديمقراطية الليبرالية يكون المال فى يد الطبقة الرأسمالية فهى التى تملك ، ومن ثم فهى التى تحكم ، وهى التى تضع التشريعات التى تحمى مصالحها ضد مصالح الطبقة الكادحة .

وهذه القولة صادقة إلى حد كبير .. وتوشك أن تكون صادقة كل الصدق لولا

« ١ » حين يطلق الشيوعيين على الديمقراطية الغربية وصف « الليبرالية » فهم يقصدون به الذم لا المدح ويعنون به الديمقراطية التى يتمتع فيها الرأسماليون بحرية استغلال الطبقة الكادحة . وسنناقش هذه النقطة بعد قليل

أن الطبقة الكادحة لم تستسلم تماما كما كانت قبل ثورتها على الإقطاع ، بل قاومت وقاومت وقاومت .. وحصيلة مقاومتها هى التى أحدثت الفرق بين وضعها فى ظل الإقطاع ووصفها فى ظل الرأسمالية .

ولكن تعال ننظر - رغم ذلك - إلى حقيقة الواقع ، ونسأل - بموضوعية كاملة - لصالح من تجرى الحياة فى ظل الديمقراطية الليبرالية ، ومن هو المستفيد الأكبر ، ولا نقول كما تقول الشيوعية إنه المستفيد الوحيد .

لاشك أن الأمور تجرى - فى عمومها - لمصلحة الرأسماليين !

ورغم كل التنازلات التى أكرهت الرأسمالية على تقديمها للشعب فمازال الغنم الأكبر فى أيديهم ، والفتات فى يد الجماهير .

لانقول - كما تقول الشيوعية - إن المنتج الحقيقى هو العامل وإنه هو الذى يستحق وحده حصيلة الإنتاج ، فتلك مغالطة سنناقشها حين نناقش الشيوعية فى الفصل القادم . ولانقول كذلك - كما تقول الشيوعية - إن أصحاب رؤوس الأموال هم قوم لا عمل لهم إلا التطفل على دماء الكادحين ، بينما هم لايستحقون منها شيئا على الإطلاق لأنهم لايعملون بأيديهم ..

لانقول هذا ولا ذاك .. ومع ذلك فلننظر إلى الفارق الضخم الذى يفرق بين دخول الرأسماليين ودخول العمال .. هل هو فارق طبيعى ؟ هل هو فارق عادل ؟ هل هو فارق لايؤثر فى القيم والمبادئ المتعلقة بإنسانية الإنسان ؟!

كيف جاء هذا الفارق بادئ ذى بدء ؟ هل هو حقيقة نتيجة العبقرية الفذة التى خص الله بها الرأسماليين وحرم منها بقية عباد الله ؟! أم هى مغتصبة اغتصابا بوسائل غير مشروعة ؟!

هل كانت الرأسمالية عادلة منذ البدء فى تحديد أجور العمال ؟ أم كان تحديدها قائما على أسوأ نوع من أنواع الاستغلال ؟ وحتى حين خفضت ساعات العمل ورفعت الأجور بعد الصراع المرير الذى قام به العمال ، فهل حدثت العدالة الإنسانية الواجبة ؟

إن تضخم رؤوس الأموال ينشأ ابتداء من امتصاص دماء العمال وعدم توفيتهم أجورهم .. وقد يكون تحديد الأجر مسألة اجتهادية تختلف من وقت إلى وقت ومن حال إلى حال . ولكن له حدودا عامة لاينبغى ان يخرج عنها ، وهى توفير « الحياة الكريمة » للإنسان الذى يبذل جهده ليعيش .

ويجىء تضخم رؤوس الأموال كذلك من إقامة الحياة كلها على الأساس الربوى الذى يمقته الله :

« الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لايحب كل كفار أثيم »« ١ » .

والذى قال عنه الدكتور « شاخت » الألمانى فى تقرير أعده فى الأربعينيات من هذا القرن إن نتيجته الحتمية هى تزايد رؤوس الأموال فى يد فئة يتناقص عددها على الدوام وزيادة الفقر فى عدد متزايد من الناس !

ويجىء تضخم رؤوس الأموال أيضا من إنشاء صناعات تافهة لايحتاج إليها الانسان الجاد الذى يعيش لأهداف جادة ، بل هى تفسد الأخلاق وتميع الطباع وتشغل الناس بالتفاهات بدلا من شغلهم بآفاق الحياة العليا .. وكل ذلك لأنها أكثر ربحا .. ولأن دورة المال فيها أسرع بكثير من دورته فى الصناعات الحقيقية التى تؤدى هدفا جادا فى حياة الإنسان .. كصناعة السينما وصناعة أدوات الزينة والتفنن فى « المودات » سواء مودات الملابس أو مودات الأثاث فى البيوت أو مودات السيارات فى الطريق .

تلك أدوات التضخم الرأسمالى أو هذه أبرزها .. فأيها أدوات طبيعية ؟ وأيها أدوات عادلة ؟ وأيها أدوات لاتؤثر فى إنسانية الإنسان ؟

ولايقولن أحد : هذه هى الرأسمالية ، ولكننا نتكلم عن الديمقراطية ! فالواقع أنه لايمكن فصل هذه عن تلك !

إن هذه الديمقراطية - بمجالسها النيابية ، بممثلى الشعب فيها - هى التى تصدر القوانين التى تبيح للرأسمالية أن تتصرف على هذا النحو دون أن تتدخل فيها ، بل - فى الحقيقة - دون أن تجرؤ على التدخل فيها !

ومن ناحية أخرى فإن الرأسمالية هى الوجه الاقتصادى للديمقراطية الليبرالية،كما أن الديمقراطية الليبرالية هى الوجه السياسى للرأسمالية !

ولسنا نقول - كماتقول الشيوعية - إن الوضع الاقتصادى هو الذى

« ١ » سورة البقرة [٢٧٥ - ٢٧٦]

يشكل الأفكار والعقائد والنظم والمؤسسات التى تتمشى معه وتخدم أهدافه .

وإنما نقول - ونراه أدنى إلى الصواب - إن الوضع الاقتصادى والوضع السياسى (والوضع الاجتماعى كذلك كما سيجىء) كلها أوجه متناسقة مع النظام أو الفكرة التى تقوم عليها ، وكلها منبثقة من أصل واحد مشترك هو « الإنسان » مستقيما أو منحرفا ، وعلى أى نحو هو منحرف . فأما إن كان مستقيما (أى على النهج الربانى) فهو يصوغ حياته : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والروحية .. الخ على مقتضى المنهج الربانى ، وهو منهج متناسق فى جميع وجوهه ومتكامل بعضه مع بعض . وأما إن كان منحرفا فبحسب نوع انحرافه تكون أوضاعه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والروحية .. الخ ، وتكون متناسقة مع لون الانحراف الذى يقع فيه ذلك « الإنسان » . فليس الاقتصاد هو الذى يصوغ السياسة ولا السياسة هى التى تصوغ الاقتصاد ، إنما هما معا - ومعهما بقية وجوه الحياة - يصوغها الإنسان متأثرا بنوع انحرافه .

والانحراف الذى يتخذ الرأسماليةَ وجهَه الاقتصادى ، والديمقراطيةَ الليبراليةَ وجهَه السياسى ، والتفككَ الاجتماعىّ (كماسيجىء) وجهَه الاجتماعى ، هو أولا انحراف عن شريعة الله ومنهجه المنزل لإصلاح الحياة وإقامتها بالقسط ، وهو من جهة أخرى انحراف الفردية الجامحة التى تريد أن تفعل ماتشاء:Laissez Faire, Laissez Passer (دعه يفعل مايشاء، دعه يمر من حيث يشاء!) هذه الفردية الجامحة تأخذ فى الاقتصاد صورة الرأسمالية ، وتأخذ فى الاجتماع صورة المجتمع المفكك الروابط المنحل الأخلاق . وهى انحرافات متناسقة بعضها مع بعض ، متكاملة بعضها مع بعض ، ولايمكن فصل بعضها عن بعض !

فالذين يقولون نأخذ الديمقراطية صورة سياسية وليس من الضرورى أن نأخذ معها الرأسمالية الجامحة هم واهمون فى محاولة فصل وجه عن هذا النظام عن وجه أخر .. أو هم يتحدثون عن شىء أخر غير الديمقراطية الليبرالية لانعلم صورته على وجه التحديد !

ومهما يكن من أمر فإن الديمقراطية الليبرالية - الموجودة بالفعل ، لا المتخيلة فى الأذهان - هى هذه التى تحتمى بها الرأسمالية وتلعب لعبتها من خلالها . وسنتكلم فى الصفحات القادمة عن أبعاد اللعبة كلها التى تتم من وراء

الصورة السياسية المتمثلة فى الديمقراطية الليبرالية ، ولكننا نقرر هنا حقيقتين تبدوان متناقضتين فى الظاهر ولكنهما فى الحقيقة غير متناقضتين إذا أنعمنا النظر فيهما :

الأولى : أنه من خلال النظام الديمقراطى نال « الشعب » ماناله من حقوق وضمانات :

والثانية : أن الراسمالية هى صاحبة الهيمنة وصاحبة التشريع من وراء اللعبة الديمقراطية بأكملها .

ولإزالة التناقض الظاهرى بين الحقيقتين نقول أولا : إن الشعب نال ما ناله من الحقوق من خلال صراعه وكفاحه ودأبه فى إحراج الراسمالية واقتناص الحقوق والضمانات منها ، فهو ينتزعها منها انتزاعا وهى تتنازل عنها كارهة ومكرهة . وإن يقظة الشعب بدأت منذ ثار على الإقطاع.وليس منذ اتخذ الديمقراطية ! بل الديمقراطية هى ثمرة ثورته فهى نتيجة لاسبب .

ونقول ثانيا : إنه على الرغم من ذلك فقد تركت الراسمالية الثوب – ثوب الديمقراطية – يلبسه الشعب ، ونفذت هى إلى مصالحها من خلاله ، فنالت كل ماتريد من تشريعات تحمى مصالحها وتتيح لها أن تقوم بكل مظالمها ! فإذا كانت قد اضطرت للتنازل عن بعض المصالح تحت ضغط الشعب ، فهى من جهة قد تنازلت عن فتات لايؤثر تأثيرا حقيقيا فى مصالحها ، فماتنازلت عنه هو قطرات من فائض أرباحها ، وماتزال أرباحها تتزايد بصورة جنونية ! وهى من جهة اخرى قد تنازلت عن هذا الفتات لأنها لم تأمن على نفسها إذا ظلت فى موقف التصلب أن تفقد ثروتها كلها وكيانها كله ! ففى نظرها هى أنها القت للكلاب الجائعة بلقيمات تلهيها بها خوفا من أن تأكلها الكلاب ! فخوفا من الشيوعية تنازلت الراسمالية الغربية عما تنازلت عنه ، وخوفا من أن تدمر الإضرابات كل الأرباح !

فلا تناقض إذن بين الحقيقتين ، والراسمالية هى صاحبة النظام كله وهى المستفيد الأول منه ، ولاعليها أن يتزيا الشعب بزى الحرية .. أو الحرية والإخاء والمساواة« ١ » !

« ١ » يقول البروتوكول الأول : إن هتافنا بكلمات - الحرية والمساواة والإخاء - مع جهود دعاتنا المسخرين اجتذب فى كل أنحاء العالم جيوشا جرارة من البشر حملت أعلامنا بكل فخر وحماسة فى حين أن هذه الكلمات الساحرة كانت سوسا ينخر فى كيان سعادة الأمميين . ومعول هدم للأمن والسلام والوحدة لديهم . (تعريب أحمد عبدالغفور عطار)

ولننظر فى هذه الحرية على حقيقتها ..

لاشك أن الفرد فى الديمقراطية الليبرالية حر حرية كاملة كما يبدو (فى الظاهر) فى أن يتخذ قراره دون ضغط من أحد ، وأن يعبر عن رأيه بحرية ، وأن يدعو لرأيه بكل وسائل الدعاية ، وأن يختار المرشح الذى يمثله فى البرلمان والذى يشرف على أعمال الحكومة ويهيمن على تصرفاتها ..

ولكن دعنا نتأمل الحقيقة الكامنة وراء هذا الظاهر .. فمن الذى يصوغ لهذا الفرد أفكاره ، أو - من زاوية أخرى - من الذى يشكل « الرأى العام » الذى يوجه هذا الفرد لاتخاذ قراره !

إنها وسائل الإعلام ! الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون والخطبة والمحاضرة والكتاب .

ودعك - مؤقتا - من أن وسائل الإعلام تشرف عليها اليهودية العالمية وتوجهها الوجهة التى تخدم مصالحها ، فلنا عود إلى هذه النقطة فى مكان آخر من هذا الفصل .

إنما نقول - مؤقتا - إن الذى يملك وسائل الإعلام هو الرأسمالية (بصرف النظر عن ملتها !)

إن الصحافة - وقد كانت وماتزال من أشد وسائل التأثير - لاتستطيع أن تعيش بلا معونة خارجية . فهى تتكلف بالفعل أضعاف الثمن الذى تباع به للجمهور . والثمن الذى تباع به للجمهور لايصل كله إلى أصحاب الصحيفة فهناك فى الوسط وسيطان اثنان على أقل تقدير هما الموزع العام الذى يتكفل بأخذ مجموع النسخ المطبوعة وبيعه للبائع الصغير (أى الذى يبيع مجموعة صغيرة من النسخ) ، ثم هذا الموزع الصغير الذى يبيع للجمهور .. فإذا تصورنا جدلا أن ثمن النسخة للجمهور هو مائة وحدة فإن خمسين وحدة على الأقل إن لم يكن أكثر يتقاسمها هذان الوسيطان ، والباقى هو الذى يرد إلى الصحيفة مع « المرجوع » أى النسخ التى لم يتم توزيعها ولاعائد لها على الإطلاق .. فكيف تغطى الصحافة تكاليفها ثم تربح فوق ذلك أرباحا طائلة ؟
إنها تعتمد - أساسا - على الإعلانات ثم على الإعانات من أى طريق تجىء ..
والإعلانات - بطبيعة الحال - فى يد الشركات والمؤسسات الصناعية أى فى يد الرأسمالية . ومن ثم فإنه يكفى لقتل أى صحيفة « حرة » أى طويلة اللسان تتجرأ على المصالح الحقيقية للرأسمالية ، أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط فى

هاوية الافلاس ! ولا ضير فى الوقت ذاته على الرأسمالية من مناوشات سطحية فى الصحف تنتقد كما تشاء دون أن تصيب الجذور ! بل هو أمر فى صالح اللعبة فى نهاية المطاف !

فإذا كانت الصحافة - التى تؤثر التأثير الأكبر على « الرأى العام » - واقعة فى قبضة الرأسمالية إلى هذا الحد ، فلنا أن نتوقع أن تكون الأفكار التى تصوغها وننشرها هى ماتريده الراسمالية ، أو فى القليل هى مالايتعارض مع المصالح الحقيقة للراسمالية . ومثل الصحافة بقية وسائل الإعلام،فهى واقعة بصورة أو بأخرى فى ذات القبضة الشريرة التى توجه الأفكار وتشكل المواقف للناس !

ولنأخذ ثلاثة نماذج مختلفة من طريقة تشكيل « الرأى العام » فى مسألة سياسية ، ومسألة اجتماعية ، ومسألة اقتصادية تخدم كلها مصالح الراسمالية ويبدو فيها « الرأى العام » كأنما تشكل من تلقاء نفسه واتجه إلى الوجهة التى اتجه إليها !

لنفرض أن المطلوب هو إشعال حرب فى مكان ما على سطح الأرض . وهو أمر يهم الراسمالية من جميع الوجوه المتخيلة ! وأولها بيع السلاح الذى يدر على صانعيه أرباحا خيالية (ونصرف النظر - مؤقتا - عن أن تجار السلاح فى العالم من قديم الزمان هم اليهود)« ١ » ! فكيف يهيأ « الراى العام » لتقبل الحرب أولا ، ثم التحمس لها ثانيا ، ثم المطالبة بها أخيرا !

تبدأ الصحف - وكذلك وسائل الإعلام - فى نشر أخبار قصيرة مثيرة تثير عند الغافلين - والراى العام دائما غافل - نوعا من التطلع والانتباه . ثم يزاد فى طول الخبر ويؤتى بمزيد من التفاصيل .. ثم يصبح الموضوع هو الحديث اليومى فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون .. ثم يزاد فى نغمة الإثارة حتى تشحن النفوس بالوقود .. ثم تأخذ الصحافة فى استطلاع « الرأى العام » (كأنما لم تكن هى التى وجهته) فإذا الراى العام متحمس ! إذن لابد من مطالبة الحكومة بالتحرك ! وإذن تبدأ الحكومة فى الإعداد .. ثم تنطلق شرارة الحرب ، ويباع السلاح ، وتتحقق الأهداف المطلوبة من وراء « المشروع » !

« ١ » من اجل ذلك هم دعاة الحروب دائما .. يقول سبحانه وتعالى « كلما أوقدوا نارا للحرب اطفأها الله » [سورة المائدة ٦٤]

ففى الحرب العالمية الثانية التى امتدت فشملت معظم أرجاء الأرض ، وقتل فيها أربعون مليونا من الشباب فى ميادين القتال غير الذين قتلوا من الرجال والنساء والأطفال بعيدا عن ميادين الحرب بالقنابل المدمرة ، وغير الذين قتلوا بتأثير القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا فى نجازاكى وهيروشيما .. بدأت صحافة الحلفاء (أى الديمقراطيات فى غرب أوربا وفى أمريكا) تتكلم عن هتلر واستعداداته الحربية والأزمات التى يثيرها (وخاصة أزمة ممر دانزج التى اعتبرت الشرارة الأولى للحرب) . وبدأت تكتب عن النازية وعن النظم الدكتاتورية وعداوتها للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان .. وأن على الديمقراطيات التى تشكل « العالم الحر » أن تؤدب هذا الطاغية الذى ينذر بشر مستطير لجميع البشرية !

ومانريد أن نتحدث هنا عن « الحق » فى أى جانب كان .. فقد كان كل ماتقوله صحافة « العالم الحر » عن هتلر والنازية والدكتاتورية حقا ، وكان هتلر بالفعل طاغية جبارا يريد إذلال العالم وإخضاعه لسلطانه ، ويصدر عن جنون عنصرى مرتكز على أفضلية الجنس الآرى وجدارته بأن يحكم العالم كله ! ولكن مافضل « الحلفاء » عليه ؟ أليسوا هم مثله طواغيت - كانوا - يحكمون العالم كله يومئذ ويذلونه باسم حضارة « الرجل الأبيض » وجدارته أن يحكم كل شعوب الأرض ؟ وماذا يملك الرجل الأبيض من المقومات الحقيقية التى تؤهله لذلك السلطان وتجعله وقفا عليه وحده لايشاركه أحد فيه ؟

فقد كان إذن ماتقوله صحافة الحلفاء (وإذاعتهم) حقا بالنسبة للنازية وهتلر ، أما ماكانوا يدعونه لأنفسهم من أنهم هم حماة الحرية وحماة حقوق الإنسان ، فقد تبين كذبه كله عقب الحرب مباشرة حين خرج الحلفاء منتصرين من الحرب فضربوا بكل وعودهم للشعوب عرض الحائط ، بل قالوا لهم فى تبجح : لقد حميناكم من النازية فادفعوا ثمن الحماية .. وثمنها أن يكونوا خاضعين لهم يدورون فى فلكهم ويخدمون مصالحهم .

على أى حال فنحن نتتبع معالجة الصحافة والإذاعة للأمر ..

لقد كان المطلوب تهيئة « الرأى العام » للحرب ، ولأمر آخر لايقل خطرا .. هو إنشاء دولة اسرائيل ..

فلتكتب الصحافة إذن - وجميع وسائل الاعلام المتاحة - عن طغيان هتلر ، وعن وحشيته فى إبادة اليهود وتعذيبهم .. حتى يشحن « الرأى العام »

ويصبح مستعدا للحرب بعد إذ كان نافرا منها أشد النفور .. وحتى يعطف على قضية اليهود بعد إذ كان كارها لهم أشد الكره !

وشيئا فشيئا يصبح حديث الحرب أمرا عاديا ، بل يتحمس الناس للحرب ويضغطون على حكوماتهم أن تدخل الحرب تأديبا للطاغية الذى يستحق التأديب ، والذى إذا ترك وشأنه خرب الأرض ودمر مقومات الحضارة !

وشيئا فشيئا يتعاطف الناس مع اليهود الذين يعذبهم النازى ويحرقهم أحياء فى الأفران« ١ » ! ويصبح « الرأى العام العالمى » مهيأ للدعوة التى تجىء بعد ذلك بضرورة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين« ٢ » !

ثم يشتد الحماس حتى تدخل كل دول الغرب فى الحرب ، ويشتد التعاطف مع اليهود حتى يصبح العرب فى نظر العالم مجرمين إذا أبوا أن يتنازلوا عن أرضهم وديارهم لشعب الله المختار !

* * *

ولنفرض أن المطلوب هو تفكيك روابط الأسرة ونشر الفساد الخلقى وتحريض المرأة ضد قوامة الرجل عليها .

تبدأ الصحافة بمهاجمة الزواج المبكر وذكر مضاره !

إن كلا من الزوجين يكون قليل الخبرة بالجنس الآخر نتيجة عدم الاختلاط ، ثم قليل الخبرة بالحياة لصغر السن وقلة التجربة ، ثم قليل الخبرة بتربية الأولاد .. الذين يجيئون فى أول عهد الزواج فتسوء تربيتهم ! لذلك يلزم تأخير سن الزواج مع إباحة الاختلاط حتى يتحقق التعارف بين الجنسين واكتساب الخبرة اللازمة للزواج ، ويتأخر مجىء الأولاد حتى تزداد الخبرة فتحسن تربيتهم !

ثم يظل الحديث عن ضرورة الاختلاط يلح على الناس حتى يتكون « رأى عام » موافق على الاختلاط بعد إذ كان معارضا له ، ثم يظل الحديث يلح على الناس حتى يتحمسوا له ، ثم يظل الحديث يلح على الناس حتى يبلغ الحماس للاختلاط أن يتهموا كل معارض له بالرجعية والتخلف والجمود والتأخر

. ١ . اتضح فيما بعد أن حوادث التعذيب كانت قليلة جدا . وأن الصحافة الغربية هولت فيها تهويلا ضخما مقصودا لخدمة أهداف معينة بل تقول كاتبة ألمانية من أصل يهودى إن اليهود هم الذين دفعوا هتلر دفعا إلى إيقاع هذا التعذيب عليهم ليستغلوه فى الدعاية لقضيتهم وهى الاستيلاء على فلسطين بحجة أنهم شعب متشرد مضطهد ولابد له من وطن .

. ٢ . يقول وليم كار فى كتاب الأحجار إن اليهود أججوا الحرب كلها من أجل إنشاء وطن لهم وكلامه فى هذه النقطة فيه حق كثير .

ويهددوه بأن عجلة التطور ستسحقه وتقضى عليه !

ثم يقال للمرأة إن الزواج الباكر والانجاب الكثير يفسد رشاقتها ! ويقتل حيويتها ! ويمنعها من مشاركة الرجل فى إدارة شئون المجتمع ! وتظل الصحافة (ووسائل الإعلام الأخرى) تلح على هذا الأمر حتى تخرج المرأة من فطرتها وتنظر إلى الزواج على أنه قيد يعوقها ! وإلى الإنجاب على أنه عدو يفسد جمالها ورشاقتها ، وإلى البيت والانشغال به على أنه إهدار لطاقتها بل إهدار لكرامتها ! وبعد أن كانت - كما هو مركوز فى فطرتها - تفرح بصيحة الطفل لأنها تحقيق لرسالتها وإثبات لأنوثتها المتمثلة فى الاستعداد للحمل والإنجاب ، صارت تمقت صيحة الطفل ، وتكره البيت ، وحتى إن تزوجت تستخدم موانع الحمل لتحافظ على رشاقتها .

ثم يظل تأثير الصحافة ووسائل الإعلام عليها حتى ترى أن من حقها أن « تستمتع » بالحياة استمتاعا حرا دون أن يفرض على استمتاعها قيد خلقى أو اجتماعى أو من أى نوع . فمن حقها أن تمارس الجنس فى حدود الصداقة مع الرجل دون أن ينشأ عن ذلك بالضرورة زواج أو أسرة .. ومن حقها أن تؤخر الزواج حتى تشبع من الاستمتاع الحر .. ومن حقها أن تؤخر الانجاب حتى تشبع من العمل خارج البيت،ومن الرشاقة فى الحفلات وحلبات الرقص .

ويصبح ذلك كله من مقررات « الرأى العام » النسائى على الأقل ، بل النسائى والرجالى كذلك .. (أى من مقررات العقل الجمعى) ! ويصبح المعارض لذلك هو المجنون الأبله ، وهو المتحجر على أوضاع عفى الزمن عليها ولايمكن أن تعود !

* * *

ولنفرض أن المطلوب هو ترويج عملية ربوية كعملية التأمين على الحياة .

تظل الصحافة - ووسائل الإعلام الأخرى - تقص القصص عن أحوال الأسر التى تصيبها كوارث ، حتى توقظ مشاعر الناس لهذه الحالة المنتشرة فى المجتمع (ولا يذكر بطبيعة الحال أن تفكيك الأسرة وتفكيك روابط المجتمع فى المجتمع الصناعى الرأسمالى كانت هى السبب فى وجود هذه الحالة وانتشارها ، لكى لايتنبه الناس إلى المكر الماكر المحيط بهذا الشأن من أوله إلى أخره . ولكى لايتنبهوا أن الحل الحقيقى هو إيجاد التكافل الاجتماعى سواء داخل الأسرة أو

داخل المجتمع أو بتكليف الدولة أن تقوم بكفالة من لا كافل له)« ١ » ثم تروج الصحافة من جانب آخر لشركات التأمين و « الخدمات الجليلة » التى تقوم بها ، وعن حالة الأسر التى أخذ عائلها بنظام التأمين ، فصارت مستقرة لاتهزها الأعاصير !

ويظل إلحاح الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى حتى يصبح الأمر حقيقة منتهية لاجدال فيها ، أن التأمين لدى شركات التأمين واجب على كل إنسان بعيد النظر ، وأنه ضرورة لا غنى عنها فى العالم الحديث ! ولايتحدث أحد عن الأرباح الخيالية التى تربحها شركات التأمين الربوية من الناس ! ولايتحدثون عن الأقساط الربوية التى يدفعها المؤمّنون .. ويصبح ذلك كله أمرا واقعا فى المجتمع ، بل يصبح أمرا « روتينيا » يأتيه كل إنسان دون أن يفكر على الإطلاق انه كان يمكن أن يكون هناك بديل ، أو أنه يجب أن يكون هناك بديل .. ويكون هذا هو « الرأى العام » فى هذه القضية أو هو العقل الجمعى الذى يضع للناس مقررات الحياة« ٢ » !

إذا كانت هذه هى طريقة تشكيل « الرأى العام » الذى تعتمد عليه الديمقراطية - فى ظاهرها على الأقل - فكيف تكون الديمقراطية هى حكم الشعب على الحقيقة ؟!

إن الرجل العادى - الذى يسمونه « رجل الشارع » كأنه لابيت له ولا انتماء له ! - مشغول بأحواله المعيشية الخاصة عن النظر الحقيقى فى الأمور العامة وتكوين رأى مستقل فيها . وذلك لسببين ، احدهما عام لايختص ببيئة معينة ولا زمن معين ، هو أن الأغلبية الكبرى من الناس لاتحب أن تشغل نفسها بالأمور العامة ولاتصبر على التعمق فيها،وليس عندها الأدوات المعينة على ذلك من تفقه وتدبر وبعد نظر وإحاطة بالأسباب والنتائج ، فتحب أن تترك هذه الأمور لفئة معينة من الناس ، تثق فيها وتكل إليها هذه المهمة الخطيرة . والسبب الثانى خاص بهذه الديمقراطية الليبرالية بالذات ، أو هو فى الحقيقة خاص بالجاهليات جميعا ولكنه فى هذه الجاهلية التى يشرف اليهود على

« ١ » هذاهو النظام الربانى الكفيل بالمحافظة على ترابط الأسرة وترابط المجتمع ، والذى يقيم « بيت مال » للمسلمين يكفل من كان منهم فى حاجة إلى كفيل .

« ٢ » إلى حد انه فى العالم الاسلامى ذاته يحارب من يقول إن التأمين - بصورته الربوية الحالية - حرام فى دين الله ! ويتهم بالجهل أو الجمود !

توجيهها أشد ، وهو التلهية الدائمة لرجل الشارع هذا عن أن يلتفت إلى الأمور العامة بنظر مستقل وفكر متفحص ، عن طريق شغله بأمور معاشه من جهة وأمور لهوه و« استمتاعه » من جهة أخرى . نقول إن هذا موجود فى الجاهليات جميعا ، حتى يتفرغ أصحاب السلطان لسلطانهم دون تدخل من يقظة الجماهير ، التى قد تتيقظ فتطالب بحقوقها المسلوبة ، التى يعيش - من سلبها - أصحاب السلطان ! ولكنه فى هذه الجاهلية أشد ، لأن اليهودية - أو إن شئت قل الرأسمالية - تشغل الناس شغلا دائما بأمور المعاش لكى تربح هى ربحها الفاحش ، فاليوم الثلاجة وغدا السيارة وبعد غد تغيير السيارة لأن الجديدة أكثر أناقة أو فيها زر إضافى ليس فى السابقة ! كما تشغلهم باللهو الدائم فاليوم السينما وغدا المسرح وبعد غد حلبة الرقص وبعده النزهة الخلوية .. والليلة موعد مع الصديقة وبعدها صديقة أخرى أو حفل جنسى صاخب .. وهكذا ، لتربح الرأسمالية - أو قل اليهودية - أرباحا مركبة : ربح المال ، وربح إفساد الأمميين ، وربح تلهيتهم عما يدور حولهم من أمور ، ليخطط المخططون وهم فى مأمن كامل من يقظة الجماهير !

إذا كان الحال كذلك على الحقيقة فأين هو « الرأى العام » الحقيقى الذى يوجه السياسة فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ؟! إنه فى الحقيقة أصحاب رؤوس الأموال .. هم الذين يرسمون السياسة ، وهم الذين يشكلون « الرأى العام » عن طريق الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى ، فيصوغونه على النحو الذى يريدون .. النحو الذى يحقق مصالحهم فى النهاية ، ولا بأس أن يَتْرُكَ شيئا من الفتات « للشعب » حتى لايتحول إلى كلاب جائعة تهدد المكتنزين !

حقيقة إن هناك نوابا وتمثيلا نيابيا وهناك برلمان يقول فيه من أراد كل ما يريد أن يقول .

ولكن من هم النواب فى حقيقة الواقع ؟

هل يتاح لأى إنسان أن يصل إلى البرلمان ويوجه الأمور من هناك ، كما هى الصورة النظرية للديمقراطية ؟

إن المعركة الانتخابية فى حاجة إلى تكاليف لايقدر عليها إلا الأغنياء من الناس ، ومتى كان هو من طبقة الأغنياء فما الذى يجعله يفكر فى « طبقة » المساكين ؟ إنهم ليسوا فى نظره مساكين ! إنهم من جهة أولئك « الأعداء » الحاسدون لما فى يده من النعمة ، الطامعون ، الذين يريدون أن ينهبوه

وينتقصوا أرباحه ! وهم من جهة أخرى أولئك « الطفيليون » الذين لايحسنون شيئا ويطمعون فى كل شىء ، « الأغبياء » الذين وقف بهم غباؤهم عن أن يصعدوا إلى القمم التى وصلوا هم إليها ..

وحقيقة إن هناك من الفقراء ومتوسطى الحال من يرشحون أنفسهم وينجحون فى الانتخابات .. ولكن كيف يصلون إلى هناك ؟ إنه لابد من أحزاب تحملهم وتحمل عنهم عبء المعركة الانتخابية وهو عبء باهظ .

فإذا دخل الإنسان الحزب فقد تغيرت أحواله كلها وأصبح إنسانا أخر .. أصبح « محترفا » فى عالم السياسة ، وهو وحزبه فى أحد حالين لا ثالث لهما ، وفى أحد موقفين : إما أن يكون حزبه فى الحكم فهو ملتزم بتأييد الحكومة فى كل ما تصنع ، سواء كان فى دخيلة نفسه مقتنعا بما تفعل أو غير مقتنع . وإما أن يكون حزبه فى المعارضة - أى خارج الحكم - فهو ملتزم بمعارضة الحكومة القائمة فى كل ما تصنع (إلا أن تكون « مصلحة عامة » أى يستفيد منها الراسماليون جميعا !) سواء كان فى دخيلة نفسه مقتنعا بالمعارضة أو غير مقتنع !

وهكذا تسمع صيحات : العدل . والقيم . والمبادئ . والإنسانية .. الخ . من الحزب المعارض طالما هو فى المعارضة ، فإذا وصل إلى الحكم سلك ذات السلوك الذى كان ينتقده ويندد به من قبل ! وصار الدور على الحزب المعارض - الذى كان فى الحكم من قبل - لينتقد من الحكومة القائمة ذات الأعمال التى كان يسوغها لنفسه وهو فى الحكم،ويتصايح بدعاوى الإنسانية والعدالة والقيم والمبادئ !

ومن الأمثلة الواقعية - المضحكة - أن حزب العمال فى بريطانيا ظل وهو فى المعارضة ينادى بضرورة زيادة أجور العمال ، فلما وصل إلى الحكم رفض أن ينفذ ما كان يدعو إليه وهو فى المعارضة - أو عجز عن تنفيذه ! - وسلك ذات السلوك الذى كان يعيبه من قبل على حزب المحافظين،وهو تجميد الأجور خوفا من التضخم !

وصحيح أن هناك « أحرارا » يصلون إلى البرلمان ، ويقولون قولة الحق ، وينتقدون بجرأة ، ويطالبون بحقوق أصحاب الحقوق ، ولكن كم عدد هؤلاء ؟ وما وزنهم فى المجالس النيابية ؟

إن القرارات تؤخذ بالأصوات . ولا ضير فى المبدأ فى ذاته فهو مبدأ عادل .

ولكنه صالح حين يكون أصحاب الأصوات من العدول لا حين يكونون من أصحاب الأهواء ، فأما حين يكونون من أصحاب الأهواء ، الملتزمين بالمعارضة أو الملتزمين بالتأييد بحكم موقف الحزب الذى يتبعونه ، فعندئذ تضيع أصوات القلة من الأحرار فى وسط أصوات الكثرة من المزيفين ! وتنفذ مصالح الرأسمالية كلها من خلال اللعبة الهائلة ، لعبة الحرية والديمقراطية والتمثيل النيابى والبرلمان ! إلا الفتات الذى يتساقط فى الطريق ، أو يُسْقَطُ عمدا للتلهية ، أو يسقط تحت الضغط الشديد !

أما « الحرية » الحقيقية التى تتيحها الديمقراطية وكأنما أنشئت من أجلها ، فهى « الحرية الشخصية » : حرية الإلحاد وحرية الفساد الخلقى ! هنا يلتقى الجميع : المعارضون والمؤيدون والشعب والرأسماليون ، والحكام والمحكومون !

إن الديمقراطية الليبرالية تقيد الحرية حيث ينبغى أن توسع ، وتوسعها حيث ينبغى أن تضيق !

فحين تمس مصالح الرأسمالية فلا حرية على الإطلاق ! ويذكر الناس جميعا قصة مقتل كنيدى رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، حين قتل فى عام ١٩٦٣م لأنه وقف فى طريق مصلحة من مصالح الرأسمالية ، ثم لُعِبَ بقضيته لعبا بحيث لا تنكشف الحقيقة ولا يوقع على المجرمين الجزاء !

فقد كانت سياسة الرأسمالية يومئذ ـ أو قل سياسة اليهود المشرفين على توجيه الجاهلية المعاصرة – هى وضع العالم على « حافة الحرب » من أجل تنشيط صناعة السلاح وبيعه ، وهى – كما قلنا – من أربح الصناعات بالنسبة إليهم . ولكن كنيدى كانت له نظرة أخرى مختلفة ، ينطلق فيها من مصلحة الولايات المتحدة التى هو رئيسها المنتخب لتحقيق مصالحها .. فقد كان رأى كنيدى أن المصلحة القومية للولايات المتحدة تقتضى تهدئة الأحوال العالمية ، لكى يوجه الإنفاق إلى رفاهية الشعب الأمريكى بدلا من توجيهه إلى صناعة الحرب التى لا عائد منها على الشعب .. لذلك سعى إلى مصالحة الاتحاد السوفيتى والاتفاق معه على تهدئة الأحوال العالمية ، وخطا بالفعل خطوة نحو إشاعة السلام ، فمد يده إلى خروشوف الزعيم الروسى القائم بالحكم يومئذ لفتح باب المحادثات التى تؤدى إلى توطيد السلام ، وخطا خروشوف من جانبه خطوة فقبل أن يدخل فى محادثات السلام .

ورغم أن هذا كان تصرفا حكيما من وجهة النظر الأمريكية البحتة ، فضلا عما فيه من إراحة أعصاب العالم من الخوف الدائم من نشوب الحرب ، فإن الرأسمالية الأمريكية ذاتها (أو قل اليهودية) لم توافق عليه لأنه ضد مصالحها الذاتية . لذلك أنشأت إضرابا طويلا فى مصانع الصلب على سبيل الانذار (مع أن هذا الاضراب يضر المصالح المؤقتة للرأسمالية ولكنه يؤدى إلى كسب أكبر بالضغط على كنيدى ليترك سياسة التهدئة التى كان يقوم بها بالاتفاق مع خروشوف) فلما لم يأبه كنيدى بالإنذار،ومضى فى سياسته،هددوه مرة ثانية بإضراب آخر فى مصانع الصلب استمر مدة أطول من الأولى ! ولما لم يرضخ بعد هذا الإنذار الشديد،وأصر على السياسة التى رآها أكثر تحقيقا لصالح الشعب الأمريكى - فضلا عن إراحة العالم من الخوف - قرروا أنه لابد من التخلص منه بإجراء أشد ، فقتلوه ! قتلوه وهو ليس فردا عاديا من أفراد الشعب ، بل هو رئيس الجمهورية المنتخب برضا الشعب ، والمسئول عن مصالح الشعب الأمريكى كله ! قتلوه ثم لعبوا بالتحقيق ، فلم يجد رئيس الجمهورية المقتول ضمانات التحقيق التى تحفظ حقه - وإن كان قتيلا - فى أن يؤخذ له القصاص من قاتله ! ولم تُجْدِ الديمقراطية كلها نفعا فى إقامة العدل فى قضية من القضايا الخطيرة فى التاريخ الحديث .. ومضت القصة كلها كأنها حادث عادى لا يثير الانتباه ولا يستحق الاهتمام ! وطوى التحقيق .. ولما تصل العدالة إلى غايتها حتى اليوم وقد مضى أكثر من عشرين عاما على الحادث العجيب !

وتلك هى الديمقراطية حين تُمس المصالح المباشرة للرأسمالية .

وما كانت مصالح مشروعة حتى نقول إن الذى وقف فى سبيلها كان يستحق الانتقام منه بأية صورة من الصور ، إنما كانت مصالح جشعة مجرمة ، تريد أن تضع العالم كله على حافة الحرب لكى تربح هى من وراء ذلك الربح الحرام .. وفى سبيل ذلك تلغى كل ضمانات الديمقراطية وكل « الحرية » الزائفة التى يتغنى بها الديمقراطيون !

أما حين يكون الأمر مختصا بالفساد فهنا الحرية بلا ضابط ولا حساب !

حرية الانسان فى أن يلحد حرية مكفولة بالقانون !

فرغم أن الدولار الامريكى مكتوب عليه« ثقتنا فى الله In God We Trust ! »

إلا أن القانون ينص على حرية العقيدة . والحرية معناها أن من شاء أن يلحد

ويعلن إلحاده على الناس ويدعو إلى الإلحاد ويسخر من القيم الدينية كلها ومن عقيدة الألوهية ذاتها فمن حقه أن يفعل .. الاتحريج عليه ولاتثريب ! !

وحرية الانسان فى أن يفسد حرية مكفولة بالقانون !

فالسلوك الجنسى مسألة خاصة إلى ابعد حدود الخصوصية لا يتدخل القانون بشأنها أى تدخل إلا فى حالة واحدة هى جريمة الاغتصاب لأنها تقع بالإكراه لا بالاتفاق . أما أى علاقة - على الإطلاق - تقع بالاتفاق فلا دخل للقانون بها ولا دخل للمجتمع ولا دخل لأحد من الناس .. فسواء كانت هذه العلاقة سوية أو شاذة ، وسواء كانت مع فتاة لم تتزوج أو مع امرأة متزوجة ، فهذا شأن الأطراف أصحاب العلاقة وليس شأن أحد آخر ..

والغابات والحدائق العامة مسرح لكل ألوان السلوك الجنسى فضلا عن النوادى والبيوت .. كلها ماخور كبير يعج بالفساد الذى يحميه القانون .. قانون الديمقراطية !

ومن سنوات عقد فى الكنيسة الهولندية عقد « شرعى ! » بين فتى وفتى على يد القسيس ! ومن سنوات اجتمع البرلمان الانجليزى « الموقر ! » لينظر فى أمر العلاقات الجنسية الشاذة ، ثم قرر انها علاقات حرة لا ينبغى التدخل فى شأنها ، كما أعلن أسقف كانتربرى وهو رئيس الأساقفة فى بريطانيا أنها علاقات مشروعة !!

ومن سنوات كذلك عرض على المسرح الأمريكى - وفى التلفزيون - مسرحية تشكل العملية الجنسية بكاملها جزءا منها ، ورأى المشاهدون - أو هم ذهبوا ليروا - رجلا وامرأة يقومان بالعملية الجنسية أمام أعينهم ، ونقلت الصورة - حية - على شاشة التلفزيون .

ومن سنوات كذلك قام فى التلفزيون البريطانى حوار جنسى اشترك فيه عشرات من الفتيات الصغار ، وكان موضوع الحوار هو سؤالهن عن الوضع الذى يفضلنه فى العملية الجنسية ، وأجابت الفتيات بصراحة وقحة يقشعر منها أبدان الذين فى نفوسهم أى قدر من الحياء الفطرى .. أما « المرأة » فهى تتحدث دون حياء !

ولا يقولن أحد إن هذه هى المخططات اليهودية ونحن إنما نتحدث عن الديمقراطية !

إنه لا انفصال بين هذه وتلك '

الديمقراطية بتمثيلها البرلمانى،بوسائل إعلامها،بقواعد « الحرية » التى تقوم عليها ، هى التى تبيح ذلك كله ، وتجعله ضمن دائرة الحرية الشخصية ، وتحميه بكل وسائل الحماية ، وتعطيه الشرعية الكاملة .

فمن أراد نظاما ليس فيه هذا كله فهو على وجه اليقين يريد شيئا غير الديمقراطية الليبرالية كما هى مطبقة فى عالم الواقع ، يريد شيئا لا واقع له بعد ، ولا نعلم على وجه اليقين كيف يكون !

إن الحرية التى تمنحها الديمقراطية الليبرالية هى حرية الحيوان لا حرية الإنسان « ١ » .

ولقد أراد « الثوار » الذين ثاروا فى وجه الطغيان الإقطاعى أن يحرروا « الإنسان » من العبودية التى كانت تستذله وتهبط به عن الوضع الذى يليق بالإنسان .

ولكن اليهودية العالمية التى سيطرت على المجتمع الصناعى منذ مولده أرادت شيئا غير ذلك . « فالإنسان » بالذات هو عدوها الذى ترهبه ، وعدوها الذى تريد أن تقضى عليه . وسنحت لها الفرصة فحققت حلمها القديم فى استحمار الأمميين وتسخيرهم لشعب الله المختار .. فمسخت آدمية أولئك الآدميين وحولتهم إلى أولئك الحمير ..

فما الإنسان بغير عقيدة ؟

وما الإنسان بغير أخلاق ؟

فأما بغير عقيدة فقد قال عنهم الخالق تبارك اسمه : « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل . أولئك هم الغافلون » « ٢ »

وأما بغير أخلاق ولا قيم خلقية ، فالحيوان وحده هو الذى يعيش بغير قيم خلقية لأنه ليس له إلا طريق واحد لا اختيار له فيه ، فلا يوصف عمله بأنه اخلاقى أو غير أخلاقى ، إنما يوصف بأنه عمل غريزى ، فإذا أكلت القطة الفأر أو أتى الكلب أنثاه فى الطريق فلا أحد يقول إن هذه أعمال غير أخلاقية ! أما

---

١ - سنتكلم فى الفصل التالى عن الشيوعية وسنرى أنها منحت الناس هذه الحرية بالذات فى حين حرمت كل الحريات .

٢ - سورة الاعراف [١٧٩]

الإنسان الذى كرمه ربه بالإنسانية،وجعل له طريقين اثنين لا طريقا واحدا ، وأعطاه القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار واحد منهما : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »« ١ » فإنه حين يرفض القيم الخلقية ، ويقول عن إقامة الراسمالية على أساس الربح بصرف النظر عن كون هذا الربح حلالا أو حراما ، جائزا أو غير جائز ، يقول إن هذه مسألة اقتصادية لا علاقة لها بالأخلاق ! ويقول عن تحويل المجتمع كله إلى ماخور كبير إن الجنس مسألة « بيولوجية » لا علاقة لها بالأخلاق ! حين يفعل ذلك فإنه يفقد آدميته فى الحقيقة ويصبح من الدواب .. بالضبط كما يريد له شعب الله المختار !

ولقد كانت الديمقراطية وشعارات الحرية هى اللعبة الكبرى التى نفذت اليهودية العالمية عن طريقها مخططها كله « ٢ » واستحمرت بها الأمميين فى الغرب لحساب الشعب الشيطان .

ولا ينفى ذلك كله ما كسبته الشعوب فى ظل الديمقراطية من حقوق وضمانات تحدثنا عنها من قبل،وقلنا إنها – فى هذا الجانب – تكريم للإنسان وتحقيق لصفة الإنسانية فيه .

فقد قلنا إن الشعوب قد نالت ذلك بنضالها لا بالديمقراطية فى ذاتها ، بل كانت الديمقراطية ذاتها فى جانبها السياسى ثمرة ذلك النضال ، لكن الذى نقوله هنا إن الشياطين – مع سماحهم راضين أو مكرهين بهذه الحقوق وتلك الضمانات – قد أفسدوا إنسانية الإنسان من جانب آخر أو من جوانب أخرى بحيث أصبحت الخسارة فى النهاية أفظع بكثير من كل كسب كسبته الشعوب .

ولسنا نقول إن الإنسان كان أحسن حالا فى ظل الإقطاع قبل أن يحصل على هذه الحقوق والضمانات فى ظل الديمقراطية .. فالجاهلية كلها انحراف وكلها خبال سواء فى ذلك الطور أو ذاك .. ولكنا نقول إن الخير الجزئى الذى أتت به الجاهلية الجديدة قد أفسدت مقابله كثيرا من الخير الكامن فى الإنسان ، بحيث يضيع ذلك الخير الجزئى فى محيط الفساد الواسع الذى ليس له قرار !

ولسنا نقول كذلك إن هذه الحقوق والضمانات ينبغى أو يجوز أن تلغى فى مقابل استرداد الإنسان ما فقد من إنسانيته بفساد العقيدة وفساد الأخلاق !

« ١ » سورة الشمس [٧ – ١٠]

« ٢ » لايمنع هذا – كما سنرى فى الفصل القادم – ان اليهود استخدموا الشيوعية كذلك فيما بعد !

كلا ! فإنه إن فقد هذه الحقوق وهذه الضمانات فما يمكن أن يحافظ على إنسانيته ولو كان على شيء من عقيدة ولو كان على شيء من أخلاق !

كلا ! إن إنسانية الإنسان مفقودة فى الحالين ، وما يكون الإنسان فى الجاهلية إنسانا بحال من الأحوال !

ولكنا هنا على أى حال نقوم الديمقراطية الليبرالية الراسمالية كما هى مطبقة فى عالم الواقع ، فنقول ما لها وما عليها .. فنقول إنها ليست صفحة بيضاء خالصة كما يظن الذين ينظرون من بعيد ولا ينعمون النظر ولا يرون ما وراء الأستار .

ثم نقول إن الصفحة السوداء فيها قاتمة السواد أكثر بكثير مما يظن الذين يأخذون الأمور من سطوحها،فيحسبون الفساد جزئيا قابلا للإصلاح،وقابلا للتعديل بوضع بعض الضوابط هنا وبعض القيم هناك .

إنها من جهة مسرحية ضخمة تمثلها الراسمالية وتضع لها أدوارها وتوهم المشاهدين أن الممثلين يتحركون على المسرح من ذوات أنفسهم وبمقتضى إرادة ذاتية لهم ، بينما هم - كأى ممثلين فى مسرحية - يتحركون بمقتضى الدور المعطى لهم وفى حدوده المرسومة ، لايملكون أن يتجاوزوا المسرح أو يتجاوزوا دورهم فى المسرحية المعروضة عليه .. وإلا طردوا بتهمة الإفساد ! أو عوقبوا عقابا صارما ليكونوا عبرة للآخرين . كما يُطارَد دعاة الحرية الحقيقيون بتهمة الشغب والخروج على القانون وتعريض الأمن القومى للخطر ! وكما قتل كنيدى حين تجرأ جراة لا تليق « بموظف » مسئول فى حضن الراسمالية !

وهى من جهة أخرى أداة ضخمة لإتلاف إنسانية الانسان بإعطاء الفساد الدينى والفساد الخلقى شرعية كاملة ، وجعل ذلك جزءا أصيلا من مفهوم الديمقراطية ومفهوم الحرية .

فتحت هذا الشعار - شعار الحرية - ظل « الإنسان » الأوروبى يجد التشجيع المستمر على التحلل من دينه وعقيدته بوصف أن هذه أمور خاصة يتصرف فيها الإنسان على مزاجه الخاص ، فمن شاء أن يبقى على عقيدة ودين فليبق ، على مسئوليته الخاصة ، وليتلق السخرية الدائمة من المجتمع ومن الكتاب والمفكرين وأهل « الفن » من قصاصين ومسرحيين وإذاعيين وتلفزيونيين ورسامى « الكاريكاتير »،فضلا عن المخذلات الدائمة من حوله ، التى تتفنن فى صرفه عن الدين والعقيدة . ومن شاء أن يلحد فليلحد .. ولن يقف فى سبيله أحد

ولن يحرج عليه أحد،فتلك حريته الشخصية . ولن يجد السخرية حتى من رجال الدين ! إنما يجد منهم محاولة « لطيفة » للتفاهم معه ومحاولة « فاترة » لرده إلى الإيمان « ١ » بينما يجد التشجيع من جهات كثيرة فى الأرض !

وتحت هذا الشعار كذلك ظل يجد التشجيع المستمر على التحلل من أخلاقه وتقاليده ، بوصفها كذلك أمورا شخصية .. فمن شاء أن تكون له أخلاق ـ فى مسائل الجنس بصفة خاصة – فهو حر – على مسئوليته الخاصة ـ وليتلق النقد اللاذع من المجتمع كله ، الذى يعتبره حالة شاذة تحتاج إلى علاج « ٢ » ! ومن شاء أن يتحلل فنعم الرأى له ونعم المسلك ! وسيجد التشجيع الحافل من المجتمع والكتاب والمفكرين وأهل الفن وأصحاب السينما وأصحاب المسرح وأصحاب الاذاعة وأصحاب التلفزيون وأصحاب النوادى وأصحاب المواخير .. هذا بينما توضع الضوابط ـ الصارمة أحيانا ـ على سلوك الإنسان فى كل اتجاه إلا هذين الاتجاهين بالذات !

ومن جهة ثالثة فهى لعبة اليهودية الكبرى لتنفيذ مخططاتها كلها مع إيهام الناس أنهم يتصرفون من تلقاء أنفسهم وحسب رغباتهم الخاصة !

فأما المصالح الرأسمالية اليهودية فتسخر لها الأحزاب السياسية والبرلمانات و « نواب الأمة » ووسائل الإعلام التى تشكل الرأى العام،وتقوم بعملية التزييف الكبرى لأفكار الناس واهتماماتهم بما يحقق تلك المصالح فى نهاية المطاف ، ويحقق انسياب الذهب – معبود اليهود القديم – إلى جيوبهم وقلوبهم،ويتفننون به فى زيادة سيطرتهم على الأمميين .

وأما « المصالح » اليهودية الأخرى المتمثلة فى إفساد عقائد الناس وأخلاقهم ليسهل استحمارهم وتسخيرهم لمصالح الشعب الشرير فهى تتم كاملة من وراء شعار « الحرية » الذى تحدثنا عنه،ومن خلال شعور الناس أن « هذه » هى الديمقراطية !

وهكذا يضيع الخير الضئيل الذى كسبته « الشعوب » بالحقوق والضمانات

« ١ » لسنا هنا نعيب على « رجال الدين » بقدر ما نعيب على النظام الذى وضعهم فى موضع الضعف والاستجداء ! والذى شجع الإلحاد واعطاه من الشرعية ما يجعل المطالبين بالدين يشعرون ان دعوتهم هى التى ليس لها صفة الشرعية،فيتحدثون إلى الناس على استحياء ! ولسنا نرى مع ذلك ان الحل هو أن يعود « لرجال الدين » سلطانهم الكنسى المقيت ، لكن الحل ان يؤمن الناس بدين الله ويحكم الحكام بشريعة الله فيكون كل شىء فى وضعه الصحيح !

« ٢ » الفتاة التى تبلغ الرابعة عشرة فى أمريكا وليس لها صديق تعتبر حالة مرضية يجتمع مجلس العائلة للنظر فيها ويستدعى لها الطبيب النفسى للعلاج !!

فى وسط هذا الشر الهائل الذى يحققه الأشرار من وراء هذا النظام المخلخل الملىء بالعيوب ، والملىء بالثقوب !

* * *

فإذا عرضنا الأمر على الإسلام فهناك قضيتان رئيسيتان من وجهة النظر الاسلامية هما محور الارتكاز فى الموضوع كله،وهما أداة التقويم بالنسبة للديمقراطية أو أى مذهب آخر من المذاهب التى نناقشها فى هذا الكتاب . هاتان القضيتان هما :

أولا : من المعبود ؟

ثانيا : ....

وقد وهّنت الجاهلية المعاصرة التى يوجهها اليهود كلتا القضيتين - والأولى بصفة خاصة - لغاية فى نفوسهم ، وزعمت - بالنسبة للقضية الأولى بصفة خاصة - أنها ليست محور الحياة الإنسانية ولا مقياسها ، بل العكس - فى زعمها - هو الصحيح ! فالإنسان أرقى كلما بعد عن الدين ، وأكثر تأخرا ورجعية كلما اقترب منه ، على أساس أن حياة الناس قد مرت بثلاث مراحل هى السحر والتدين والعلم ، وأن الدين - الذى يمثل المرحلة الوسيطة من حياة البشرية - قد أخلى - أو ينبغى أن يخلى - مكانه للعلم من أجل تقدم الإنسان ورقيه وتحضره !

وأما القضية الثانية فقد زعمت الجاهلية المعاصرة أنه ليس لها مقياس ثابت ! وأن الإنسان ليس له كيان ثابت أو صورة مثلى يقوّم بمقتضاها ، إنما كل عصر له مقياسه ، ومقياسه هو الأمر الواقع فى ذلك العصر ! والإنسان دائم التشكل على الصورة التى يقتضيها - أو يرتضيها - العصر بلا زيادة ! ومن ثم فإنسانية الإنسان أمر لايمكن أن يوضع له ميزان ثابت !

ولكن الاسلام يقوّم الأمور بميزان الله سبحانه وتعالى ، الذى أنزله ليقوم الناس بالقسط .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « ١ »

وميزان الله - وهو الحق - يقول إن قضية « من المعبود » ؟ هى أهم قضية بالنسبة للحياة البشرية كلها فى تاريخها كله ، وإن كل شىء فى الحياة الدنيا

« ١ » سورة الحديد [٢٥]

– فضلا عن الآخرة – يتوقف على جواب هذه القضية:وهى كون المعبود هو الله أم شيئا آخر مع الله أو من دون الله ..

والجاهلية المعاصرة تغفل الحياة الأخرى عن عمد،وتبرز الحياة الدنيا وحدها وتجعلها مجال الاهتمام وموضع التقويم « ١ » ، لأنها لو وضعت اليوم الآخر فى الميزان فقد حُسِمَتْ القضية وانتهت من أول لحظة .. فلن يقول أحد إن الدار الآخرة ستكون للملحدين الذين ينكرون وجود الله ، أو ينكرون شريعته ، أو يكرهون هذه الشريعة ويرفضون تحكيمها فى أمور حياتهم !

لذلك فإن الجاهلية المعاصرة لا تتكلم أبدا عن اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحشر وحساب وثواب وعقاب ! وإن تحدثت عنه فعلى أنه وهم لا حقيقة له ، أو قضية « غيبية » لا ينبغى أن يشغل بها نفسَه الإنسانُ المتحضر،أو الإنسانُ الواقعى ، أو الإنسانُ الذى يحترم عقله ، أو الإنسانُ الذى يحترم العلم ويعيش بروح علمية !!

فإذا أصبحت الحياة الدنيا هى مبلغ الناس من العلم،وهى التى يتجه إليها الاهتمام كله،ضمن المخططون الشريرون أن تسير الأمور كما يشتهون،وأن تسير السائمة من الأمميين فى الطريق الذى رسمه شعب الشيطان المختار .

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » « ٢ »

« ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ،ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لايهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » « ٣ »

« لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »« ٤ »

« ١ » بعض الكتاب يستعمل كلمة « التقييم » بدلا من التقويم ليميز بين التقويم بمعنى تقدير القيمة والتقويم بمعنى إصلاح المعوج والصواب أن الفعل واوى فى كلا المعنيين .

« ٢ » سورة النجم [٢٩ ـ ٣١]

« ٣ » سورة النحل [١٠٦ ـ ١٠٨]

« ٤ » سورة الأعراف [١٧٩]

وإذ كان الهدف الأخير للشعب الشرير هو استحمار الأميين وتسخيرهم لمصالحهم وللعبودية لهم ، فقد وجب أن يبعدوهم بعدا كاملا عن ذكر الآخرة ليكونوا كالأنعام ، ويجعلوا الدنيا هى مبلغ علمهم وغاية همهم « ١ » ليسهل تسخيرهم من جانب العبودية للشهوات ، وهى مصير كل إنسان يعيش بعيدا عن الآخرة وقيمها المؤدية إليها :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين ، والصادقين ، والقانتين ، والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار » « ٢ »

وإذا كانت الجاهلية المعاصرة قد أغفلت ذكر اليوم الآخر لغاية فى نفسها وأبرزت الحياة الدنيا وحدها،وجعلتها غاية كل شىء ومقياس كل شىء ، فنحن لا نجارى تلك الجاهلية فيما اتجهت إليه ، ولا نقرها على تعبيد الناس للحياة الدنيا ، ولكنا نقول إن قضية « من المعبود » ؟ ليست متعلقة بالآخرة وحدها . وإنما هى من صميم قضايا الحياة الدنيا ، وإن الجواب على هذه القضية لا يتوقف عليه مصير الإنسان فى الآخرة وحدها ، بل يتوقف عليه أمر وجوده هنا فى الحياة الدنيا ، وبدرجة أكبر بكثير وأخطر بكثير مما يظن المستعبدون للمخطط الشرير من الأميين المسخرين كالحمير !

إنه بصرف النظر - مؤقتا - عن القيم المتعلقة بالدين ، المستمدة من كون المعبود الواجب العبادة هو الله سبحانه وتعالى وحده بلا شريك (ولنا عود إليها بعد قليل) فإن الجواب على هذا السؤال الخطير : « من المعبود ؟ » يترتب عليه فى الوقت ذاته إجابة على سؤال مهم فى حياة البشر على الأرض وهو : « من المشرع ؟..»

يقول التفسير المادى للتاريخ ، وهو هنا على حق فيما يقول : إن الذى يملك هو الذى يحكم ، وإن الطبقة التى تحكم تضع التشريعات التى تحفظ مصالحها ، ويكون ذلك على حساب الطبقات الأخرى .

« ١ » من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل الدنيا مبلغ علمنا ولا غاية همنا » رواه الترمذى .
« ٢ » سورة آل عمران [١٤ - ١٧]

لذلك فإن قضية « من المشرع ؟ » قضية مهمة بالنسبة للناس على الأرض ، وليست قضية جانبية أو ثانوية يمكن التغاضى عنها لقاء بعض المتاع الأرضى الزائد عن الحد ، كمتاع الجنس المجنون ، أو « متاع » التبذل فى الأرض بلا أخلاق ، الذى قال الله عنه :

« والذين كفروا **يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام** ، والنار مثوى لهم »« ١ »

فهو متاع الحيوان لا متاع الانسان ..

وقضية « من المشرع ؟ » هى التى قامت من أجلها الثورات التاريخية كلها حتى هذه اللحظة بسبب المظالم التى تقع من المشرعين الذين يشرعون لصالحهم وصالح الطبقة التى ينتمون إليها ، فيثور المظلومون ليرفعوا هذا الظلم أو ليحاولوا رفعه على أقل تقدير .

فإذا كانت القضية على هذا القدر من الأهمية ، وكان لها كل هذا الأثر فى حياة الناس على الأرض ـ بصرف النظر عن مصيرهم بعد ذلك ـ فلننظر من المشرع الحقيقى فى الديمقراطية الليبرالية أو فى الحقيقة فى أى جاهلية لا تحكم بما أنزل الله .

إنهم بادئ ذى بدء بشر ، ثم هم بعد ذلك طبقة معينة لها مصالح معينة لا تتحقق بصورتها التى يريدونها إلا على حساب الآخرين .

كان الحاكم فى الإقطاع هو أمير الإقطاعية الذى يملك ويحكم ، ولا معقب من البشر لحكمه ، لأنه هو السلطة الوحيدة ولا أحد غيره يملك شيئا من السلطان .

والحاكم فى الديمقراطية الليبرالية هو الراسمالية التى تملك وتحكم ولا معقب من البشر لحكمها ، وإن كان التشريع ـ نظريا ـ من حق الشعب ، والتعقيب نظريا فى يد الشعب !

الرأسمالية ـ يهودية أو غير يهودية ـ هى التى تدير المسرحية كلها ، وهى التى تضع التشريعات للمحافظة على مصالحها ، على حساب مصالح « الشعب » الذى يقع عليه الظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى كل جاهلية من جاهليات التاريخ .

ولا ينبغى أن تخدعنا الصيحات والشعارات عن حقيقة الواقع ، ولا ينبغى

« ١ » سورة محمد « ١٢ » .

كذلك أن يخدعنا وجود بعض الأصوات « الحرة » فى المجالس النيابية أو فى الصحافة ووسائل الاعلام،فهذا ذاته جزء من « فن » المسرحية كما أشرنا من قبل ، لأن الرأسمالية التى بيدها السلطان ـ يهودية أو غير يهودية ـ تعلم أن هذه الأصوات المتناثرة لن تغير شيئا من الواقع،ولن تحدث تعديلا حقيقيا فى أدوار المسرحية المرسومة ، وهى فى الوقت ذاته دعاية ضخمة للديمقراطية التى من خلالها تتحقق كل مصالح الرأسمالية ! فكلما ارتفعت هذه الأصوات « الحرة » اطمأنتَ الجماهير إلى اللعبة الدائرة واستنامت لها ، وتركت أصحاب السلطان ينفذون من خلال اللعبة إلى كل ما يريدون !

أما الحقوق والضمانات التى نالها الشعب فقد كانت – كما قلنا أكثر من مرة ـ ثمرة نضال الجماهير ولم تكن ثمرة الديمقراطية ! وإذا كانت الرأسمالية قد تنازلت – مكرهة – عن بعض الفتات خوفا من ضياع الأصل كله ، فلم يكن ذلك بفضل النظام البرلمانى ذاته،بقدر ما كان ذلك راجعا إلى نظام الرأسمالية « الحرة »،واعتمادها على العامل الذى يتمتع بقسط محدود من الحرية،لكى تتمكن هى من تحقيق الأرباح الفاحشة التى تحققها .. ولا تستطيع الرأسمالية الحرة أن تزيد سلطانها أكثر مما هو واقع فى أيديها .. وإلا لفعلت ! لأن الدكتاتورية التى تلزم العمال بالعمل تحت ضغط الحديد والنار لايمكن أن تتم بصورة جماعية (أى باجتماع الرأسماليين كلهم بعضهم مع بعض) لأنها تحتاج بطبيعتها إلى تركيز السلطة فى يد فئة محدودة جدا من الناس ، وعندئذ لا يستطيع الرأسماليون ذاتهم أن يوجَدوا ولاأن يكون لهم سلطان ، لأن السلطة التى تستطيع أن تسخر العمال للعمل تحت القهر ، ستلتهم الرأسماليين أنفسهم كما حدث فى الدولة الشيوعية .. ومن هنا تجد الرأسمالية نفسها مكرهة ــ للمحافظة على وجودها ذاته ــ أن تسمح بهذا الفتات المتناثر للشعب ، ويتم ذلك عن طريق هذا اللعبة الطريفة. لعبة الديمقراطية ، تحقق بها الرأسمالية أكبر قدر متاح من الربح ، وتترك للشعب كثيرا من المظالم وشيئا من الفتات !

الظلم هو طابع الجاهلية التى يشرع فيها البشر للبشر بدلا من أن يتحاكم البشر كلهم إلى شريعة الله !

إن المجتمع الجاهلى لابد أن ينقسم بطبيعته إلى فئتين اثنتين : سادة وعبيد سادة فى يدهم السلطان وفى يدهم التشريع وعبيد يقع عليهم السلطان ويقع عليهم التشريع .

وأيا تكن طرافة اللعبة الديمقراطية فهى لا تستطيع أن تخفى هذه الحقيقة.

وهى أن الرأسماليين هم السادة ، هم المشرعون ، وأن الشعب هو العبيد الذين يقع عليهم عبء التشريع .

حقيقة إن « العبيد » فى ظل الديمقراطية الليبرالية هم فى أفضل وضع وجد به العبيد فى أية جاهلية من جاهليات التاريخ (بسبب طبيعة الرأسمالية الحرة ـ كما أسلفنا ـ وعجزها عن تحقيق الربح إلا عن طريق العامل الذى يتمتع بقسط محدود من الحرية) إلا أن هذا لا يغير حقيقة وضعهم ، وهو أنهم عبيد .. عبيد مهما امتلكوا ـ فى المسرحية الطريفة ـ من « مظاهر » الحرية !

إن الحرية الحقيقية لايمكن أن تتحقق فى أية جاهلية تحكم بغير ما أنزل الله « ١ » لأن الحكم بغير ما أنزل الله هو الذى يقسم الناس إلى « أرباب » و « عبيد » ! أرباب يشرعون وعبيد ينفذون . ولا يملك العبيد حرية حقيقية إزاء الأرباب !

إن رد « الحاكمية » لله ، أى التحاكم إلى شريعة الله وعدم التحاكم إلى أى شريعة أخرى غير شريعة الله ، فضلا عن كونه من حق الله على عباده لأنه من الخصائص الخالصة للألوهية : « ألا له الخلق والأمر » « ٢ » فإنه فى الوقت نفسه هو الضمان الحقيقى لحرية البشر فى الأرض ، وعدم تحويل بعضهم إلى أرباب وأكثريتهم إلى عبيد لأولئك الأرباب .

إن إخلاص العبودية لله وحده ـ سواء فى إفراده بشعائر التعبد أو إفراده الحاكمية ـ هو الذى يلغى وجود الأرباب ، ويحرر الناس فى الأرض من عبوديتهم .

ما دام الله وحده هو المعبود ـ سواء بتقديم الشعائر له وحده أو بتنفيذ شريعته دون كل الشرائع ـ فمن أين يوجد الأرباب الذين يتعبدون العبيد؟ !

لا يتحرر الناس الحرية الحقيقية فى الأرض إلا حين يكون الله وحده هو الرب والناس كلهم ـ حكاما ومحكومين ـ عبيدا لله وحده دون شريك .

عندئذ فقط يولد الناس أحرارا ويظلون أحرارا إلى أن تنتهى أجالهم .
وعندئذ فقط يشعر الناس بالاستعلاء ـ استعلاء الإيمان ـ على كل قوة

---

(١) الجاهلية ـ كما جاء استعمال اللفظ فى القرآن الكريم ـ تنشأ أصلا من عبادة غير الله ومن الحكم بغير ما أنزل ويجىء حكم الجاهلية مقابلا لحكم الله فى مثل قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ ! » [المائدة : ٥٠] .

(٢) سورة الأعراف [٥٤] .

فى الأرض بشرية كانت هذه القوة أو مادية أو اقتصادية ، لأنهم يستمدون وجودهم وقوتهم من الله ، والله أكبر .. أكبر من كل قوة فى الوجود .

عندئذ يحدث ما حدث فى صدر الإسلام،والعبودية خالصة لله وحده فى كل مجال من مجالات الوجود .

يقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ، فيقف له سلمان الفارسى يقول : لاسمع لك علينا اليوم ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به !

ويتحاكم على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى القاضى شريح مع اليهودى الذى سرق درعه فيسأله القاضى : يا أمير المؤمنين ! هل من بينة ؟! فيقول على كرم الله وجهه : صدق شريح ! مالى بينة ! فيحكم القاضى بالدرع لليهودى تنفيذا لشريعة الله !

ويستمتع بهذا العدل - الذى يولد الشعور بالحرية - حتى الذين لم يؤمنوا بهذا الدين ولكنهم استظلوا بظله واستظلوا بعدالته ، فيرحل القبطى من مصر إلى المدينة ليشكو إلى عمر رضى الله عنه ضربة عصا لحقت بظهر ولده من ابن عمرو بن العاص حين غلبه الشاب القبطى فى السباق .. وهو الذى كان إلى عهد جد قريب تلهب ظهره سياط الرومان فلا يحس بآدميته المسلوبة ولا يتحرك للشكوى .. ولمن يشكو حتى إذا أراد ؟! ولكن العدل الربانى المتمثل فى شريعة الله هو الذى جعل ضربة العصا توجع الكرامة،وتحرك الرجل ألوف الأميال طلبا للنصفة ورفعا للظلم .. ويجاب الرجل إلى حقه تحقيقا لشريعة الله .

كلا ! لا تتحقق الحرية الحقيقية ولا المساواة الحقيقية ولا الإخاء الحقيقى إلا حين يكون الله وحده هو المشرع ، ولايكون للبشر حق التشريع من عند انفسهم « ١ » . وكل ما ترفعه الديمقراطية من شعارات « الحرية والإخاء والمساواة » إن هو إلا شعارات ! شعارات غير قابلة للتحقيق فى عالم الواقع ما دام بعض البشر يشرعون وبعضهم الآخر - وهم أكثرية الناس - يخضعون للتشريع ، ومادامت الأقلية التى تشرع إنما تشرع لمصالحها الخاصة على حساب الآخرين .

« ١ » اشرنا من قبل إلى ان اجتهاد المجتهدين فى استنباط الأحكام فيما لا نص فيه يتم باذن من الله،وهذا هو الذى يعطيه شرعيته،فلا يعتبر تشريعا يشرعه الناس من عند انفسهم كما تفعل الجاهليات ، فضلا عن كونه محكوما بالأصول العامة للشريعة لايخرج عن إطارها فلا يحل حراما حرمه الله ولا يحرم حلالا أحله الله .

وهب كل الناس شرعوا كما تزعم الديمقراطية فى أقوالها النظرية . وهب كل الناس استطاعوا أن يوفقوا - فى التشريعات التى يضعونها بأنفسهم - بين مصالح الحاكمين والمحكومين فزال الظلم ، وزالت عبودية بعض البشر لبعض ، وهو فرض جدلى لايمكن أن يتحقق ، ولم يتحقق فى أى جاهلية من جاهليات التاريخ التى تحكم بغير ما أنزل الله ، فهل تستقيم الحياة فى الأرض على صورة صحيحة حين يكون البشر هم المشرعين ؟!

أليس البشر - كلهم فى هذه المرة - هم الذين شرعوا فوضى الجنس ؟!

ودعك الآن من أن اليهودية الشريرة هى التى أوحت لأولئك البشر فشرعوا :
« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » « ١ »

دعك من هذه القضية لأن خضوع الديمقراطية لليهودية الشريرة ليس عذرا لها فيما تفعل،بل هو عيب رئيسى من عيوبها ، ولكن خذ الصورة الظاهرة وهى أن هذه الفوضى تمر بالموافقة الإجماعية من الناس ، سواء فى المجالس النيابية أو فى وسائل الإعلام أو فى واقع الحياة .. فهل تستقيم الحياة بتلك الفوضى الجنسية التى شرعها البشر ؟!

أليس البشر - كلهم فى الديمقراطية - هم الذين شرعوا الربا ؟!

ودعك مرة أخرى من أن اليهودية الشريرة هى التى دفعت الناس دفعا إلى تشريع الربا .. فخضوع الناس فى هذا الأمر لليهودية العالمية ليس عذرا لهم،بل هو وزر يحملونه أمام الله يوم القيامة ، وهو - أو مثله - الذى قال الله فيه عنهم :
« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » « ٢ »

أى أطاعوهم فى التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله كما قال العلماء والمفسرون فى تفسير هذه الآية « ٣ » .

دعك من هذا وخذ واقع الحياة فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ، تجد أن الربا يمر بموافقة إجماعية بغير اعتراض .. فهل استقامت الحياة بالربا الذى أحله البشر ؟!

أليس البشر - كلهم فى الديمقراطية - هم الذين وافقوا على « تحرير » المرأة بالصورة التى تم بها ذلك « التحرير » ؟ !

« ١ » سورة الأنعام [١١٢] « ٢ » سورة التوبة [٣١]
« ٣ » انظر ابن كثير والطبرى والقرطبى وابن تيمية وغيرهم .

ودع مرة ثالثة من أن اليهودية الشريرة هي التي وسعت تلك القضية ولعبت بها لإفساد المجتمع البشري كله ، فإن اليهودية الشريرة ما استطاعت أن تفعل ذلك إلا في مجتمع متفسخ أدار ظهره للهدى الرباني فركبته الشياطين .. وخذ الصورة الظاهرة،وهي أن « المرأة المتحررة » .. المتحررة من الدين والأخلاق والتقاليد،بل من الحياء الفطري ذاته ، تمر بموافقة البشر كلهم ورضاهم وطلبهم للمزيد من « التحرر » ! .. فهل استقامت الحياة حين تحررت المرأة على هذه الصورة التي شرعها البشر ؟!

وخذ مئات من التشريعات التي شرعها البشر ـ كلهم في الجاهلية المعاصرة – وانظر آثارها في حياتهم . الجنون والقلق والأمراض النفسية والعصبية والانتحار وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة وتشرد الأطفال وجنوحهم .. إلى جانب الفردية الجامحة وتفكك الأسرة وتفكك المجتمع وقتل المشاعر الإنسانية وتحويل الانسان إلى حيوان آلي ، تدير الآلة نصف حياته وتدير بقيتها الشهوات !

ذلك كله حين يشرع البشر لأنفسهم ، ولو شرعوا كلهم مجتمعين متناسقين بلا تظالم ولا صراع ! ذلك أن البشر ـ بطبيعتهم ـ يتصفون بالقصور والجهل والعجز عن الإحاطة،والعجز عن رؤية النتائج الكاملة المترتبة في المستقبل على أعمالهم الحاضرة .. فحين يتجاوزون الاجتهاد فيما أذن الله بالاجتهاد فيه« ١ » ، ويحلون ويحرمون بغير ما أنزل الله ، تقع تلك الفوضى الضاربة أطنابها ، ويقع ذلك الشقاء المرير الذي يملأ وجه الأرض ..

وهكذا يتبين لنا أن قضية « من المعبود ؟ » ليست قضية غيبية خاصة بالآخرة كما يصورها الجاهليون المحدثون ، ولكنها ـ بالإضافة إلى كونها متعلقة بالآخرة ـ قضية من صميم هذه الحياة الدنيا ، لأنه يترتب عليها تقرير « من المشرع » ؟ أي من واضع منهج الحياة للناس .. وأنه حين لايكون الله هو المعبود وحده بلا شريك،تختل الحياة الدنيا بجملتها ويقع الناس في الخبال .

فإذا قومنا الديمقراطية بهذا الميزان فكيف تكون النتيجة ؟! .

آلله هو المعبود في الديمقراطية الليبرالية وحده دون شريك ؟! أم هناك

« ١ » أذن الله بالاجتهاد للمؤمنين فقط لأنهم أهل لذلك بإيمانهم وتوقيرهم لله وتحكيمهم لشريعته ، أما غير المؤمنين فلا إذن لهم لأنهم لايعترفون أصلا بشريعة الله .

عشرات من الآلهة الزائفة تعبد مع الله أو من دون الله ؟ وكلاهما سواء . فإن عبدت مع الله فهو الشرك ، وإن عبدت من دون الله فهو الكفر .. والشرك والكفر كلاهما كفر !

حقا إن هناك ألوفا من الكنائس تفتح أبوابها يوم الأحد لتستقبل المصلين

ودع الآن جانبا ما فى العقيدة الكنسية من التحريف ، ودع جانبا كذلك مئات الملايين الذين لايذهبون إلى الصلاة أصلا ولايعترفون بوجوبها عليهم .. وانظر إلى هذا المصلى الذى جاء يحضر الصلاة بدافع من « التدين » ما رأيه فى الربا ؟! ماذا لو قام أحد يخبره أن الربا حرام ، ويدعوه إلى استنقاذ أمواله من الربا وعدم التعامل به فى الأخذ والعطاء ؟! كم تكون سخريته ؟ وكيف يكون جوابه ؟ إن الجواب الوحيد الذى يرد به الغربى على هذه الدعوى هو أن الربا مسألة اقتصادية بحتة والدين لا علاقة له بالاقتصاد !

وما رأيه فى علاقات الجنس ؟ ماذا لو قال له أحد الناس إن هذه العلاقات كلها حرام إلا الزواج الشرعى ، ودعاه ليعدل سلوكه ويعدل عن « الصداقات » التى يمارسها .. فماذا يكون جوابه .. أو جوابها لو كانت فتاة ؟! إن الفتاة الأمريكية تقول بملء فيها إن الجنس مسألة « بيولوجية » لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق !

آلله هو المعبود فى الديمقراطية الليبرالية ؟ أم عشرات من الآلهة المزيفة تحكم حياة الناس وتتحكم فيها ؟

الدولار إله« ١ » والإنتاج إله . والصالح القومى إله . والمجتمع إله . و« الرأى العام » إله . والعقل إله . والعلم إله . والانسان إله . والآلة إله . و« المودة »إله. والشهوات إله .. والهوى إله« ٢ » .

كلها تعبد مع الله أو من دون الله . وكلها تعطى إجابة حاسمة بالنسبة للقضية الكبرى فى حياة الانسان ، قضية المعبود : هل هو الله أم شىء آخر غير الله ..

كلها تقول إن المعبود فى الديمقراطية الليبرالية ليس هو الله .

* * *

اما القضية الثانية فهى قضية إنسانية الانسان ..

« ١ » يقول صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار » والناس اليوم فى كثير من اقطار الارض عبيد للدولار .

« ٢ » يقول تعالى : « افرايت من اتخذ إلهه هواه » [سورة الجاثية ٢٣]

وكما ألفت الجاهلية المعاصرة اليوم الآخر من حس الناس لكيلا تفقد شرعية وجودها من أول لحظة ، وألغت الإيمان بالله لكى لايعوق « مصالحها » ومخططاتها .. فكذلك ألغت كل معيار حقيقى لإنسانية الإنسان،لذات الدوافع وذات الأسباب !

لو أقرت الجاهلية المعاصرة أن الانسان يختلف عن الحيوان منذ البدء فى أن لهُ عقيدة واعية فى الله ، وقدرة على الإيمان بما لاتدركه الحواس (أى الايمان بالغيب) وأن أعماله - كلها - تحمل قيمة خلقية ناشئة من أن له طريقين لاطريقا واحدا كالحيوان ، وقدرة على التمييز بين الطريقين وقدرة على الاختيار ، ومن ثم يوصف عمله بأنه خيّر أو شرير ، بينما لايوصف بذلك عمل الحيوان ..

لو أقرت بذلك فكيف تبرر كل ممارساتها التى تقيمها على أساس حيوانية الانسان ؟

ولو أقرت بذلك فكيف تفعل بمخططاتها ومصالحها ؟!

كيف يتحقق للراسمالية ربحها الحرام ، القائم أساسا على الفصل الكامل بين العمليات الاقتصادية وبين الدين والأخلاق ؟ وكيف يتحقق لليهودية مخططها فى استحمار الأمميين وتسخيرهم لشعب الله المختار ؟

كيف يتحقق للراسمالية ربحها من الربا ، ومن الصناعات التافهة التى تميع الطباع وتفسد الأخلاق ، ومن الحروب التى تثيرها من أجل إيجاد أسواق لتصريف فائض الإنتاج .

وكيف يتحقق لليهودية مخططها فى إفساد الرجل والمرأة وشغلهما بمقاذر الجنس عن تنشئة أطفال صالحين يقومون فى شبابهم بإرساء قواعد الحق والعدل وإرساء قواعد الأخلاق ؟ وكيف تقوم بتفكيك روابط الأسرة والمجتمع ، وشغل البشرية كلها بجنون الجنس وجنون السينما وجنون التليفزيون وجنون الكرة وجنون « المودة » وجنون « التقاليع » .. ؟

كلا ! إنها لايمكن أن تقر بذلك ، لا لأنه ليس حقيقة فى ذاته ، ولكن لأن الإقرار به يفقدها شرعية وجودها على التو، ويضر أيما إضرار بمخططاتها ومصالحها .

وإذن فلتقل أى شىء تميع به القضية وتبعد حقيقتها عن الأذهان .

فلتقل إن الحضارة المادية هى مقياس إنسانية الإنسان !

فلتقل إن مقدار استهلاك الإنسان للكهرباء هو مقياس إنسانية الإنسان« ١ » !

فلتقل إن « حرية » الإنسان فى أن يفعل كل مابدا له هو مقياس إنسانية الإنسان !

أو فلتقل إنه لايوجد مقياس ثابت لقياس إنسانية الإنسان !

أو فلتقل صراحة إن الإنسان ليس بإنسان !

المهم أن تكتم الحقيقة عن الناس حتى لايستيقظوا لحقيقتهم : أنهم فقدوا نسانيتهم بالفعل ، وأصبحوا أولئك الحمير الذين يريدهم - ليركبهم - شعب الله المختار !

ولكن الإسلام - دين الله الحق - يقرر الحقيقة ويبرزها ويؤكد عليها : أن الانسان خلق إنسانا من أول لحظة ، وكلف تكاليف الإنسان ، فحمل الأمانة » التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال ، وأنه يحافظ على إنسانيته طالما ظل حاملا للأمانة ، ويفقدها حين يتخلى عن حملها .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »« ٢ » .

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »« ٣ » .

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »« ٤ » .

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها شفقن منها ، وحملها الإنسان »« ٥ » .

« وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون »« ٦ » .

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا »« ٧ » !

« قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف

« فى كتاب « فى النفس والمجتمع » فصل بعنوان « حضارة الكيلو واط » !

« سورة البقرة [٣٠]

« سورة ص [٧١ - ٧٢]

« سورة هود [٦١]

سورة الأحزاب [٧٢]

سورة الذاريات [٥٦]

سورة الأعراف [١٧٢]

عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »« ١ » .

« ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »« ٢ » .

« واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم . إن الله لايحب من كان مختالا فخورا »« ٣ » »

« الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار »« ٤ » .

« قد افلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »« ٥ » .

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ماغضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون »« ٦ » .

« الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب »« ٧ » .

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له »« ٨ » «

هدا هو الإنسان . وهذا مقياس إنسانيته .

إنه ليس حيوانا . إنما هو إنسان من أول لحظة . ومهمته محددة من أول

« ١ » سورة البقرة [٣٨ - ٣٩]
« ٢ » سورة الشمس [٧ - ١٠]
« ٣ » سورة النساء [٣٦]
« ٤ » سورة آل عمران [١٧]
« ٥ » سورة المؤمنون [١ - ١١]
« ٦ » سورة الشورى [٣٧ - ٣٩]
« ٧ » سورة الرعد [٢٠ - ٢١]
« ٨ » سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣]

لحظة . إنه الخليفة فى الأرض ، المسيطر فيها ، المهيمن عليها ، القائم بعمارتها ، ولكن بمقتضى المنهج الربانى المستمد من الهدى الذى يتنزل من عند الله لتنظيم حياة البشر على الأرض،وضبطها بالضوابط الصحيحة لتستقيم . وتلك هى « الأمانة » التى حملها الإنسان وأشفقت من حملها بقية الخلائق التى تخضع لأمر الله بالقهر ولاتقوم بعمل إرادى . أما الإنسان الذى وهب الإرادة والادراك والقدرة على العمل والإنشاء والتعمير ، والقدرة على الاختيار ، فمهمته – أو الأمانة الملقاة على عاتقه – هى عبادة الله طوعا ، وتعمير الأرض بمقتضى منهج الله . وهو « إنسان » طالما هو قائم بهذه الأمانة ، أى عابد لله وحده بلا شريك ، ومعمر للأرض بمقتضى المنهج الربانى المتمثل فى الحكم بما أنزل الله ، والالتزام بما جاء من عند الله . ومواصفاته – أو ضوابط إنسانيته ومعاييرها – هى هذه الصفات الواردة فى الآيات من خشوع فى الصلاة وإعراض عن اللغو ، وأداء للزكاة ، وضبط لشهوة الجنس ، ورعاية للأمانة والعهد ، وصبر وصدق وقنوت وإنفاق واستغفار ، ومغفرة عند الغضب ، وقتال ضد البغى .. الخ .. الخ

هذا مقياس ثابت لإنسانية الإنسان لايطرأ عليه التغيير .

وحقيقة إن هناك متغيرات كثيرة فى حياة البشرية تنشأ من التفاعل الدائم بين العقل البشرى والكون المادى ، واستخلاص طاقات الكون وتسخيرها لمصلحة الإنسان . ولكن هذه المتغيرات كلها لاتغير القيم الثابتة التى تحكم حياة الإنسان ، بل ينبغى أن يحكم الثابتُ المتغيرَ لكى تستقيم الحياة على الأرض ولاتنفلت الأمور من عقالها فيصيب البشرية الخبل والاضطراب .

فهذه الطاقات أولا مسخرة من عند الله للإنسان .

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه »« ١ » .

والجهد الذى يقوم به الإنسان لتحقيق هذا التسخير والأدوات التى يستخدمها ، هى من عند الله كذلك :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »« ٢ » .

« ١ » سورة الجاثية [١٣]

« ٢ » سورة النحل [٧٨]

والشكر يقتضى استخدام هذه الطاقات كلها بمقتضى أوامر المنعم الوهاب .

هـذا من جهة ، ومن جهـة أخرى فـإن استخـدام هـذه الطاقـات يغـير « الصورة » التى يحيا بها الإنسان عـلى الأرض ولكنه لايغـير « الجوهـر » الإنسانى من حيث تكوينه الأصيل ولا من حيث مهمتـه فى الأرض . ومن ثم لاتتحكم الصورة المتغيرة فى الجوهر الثابت ، إنما يتحكم الجوهر الثـابت فى الصورة المتغيرة على الدوام« ١ » .

يقول « رينيه دوبو » فى كتاب « إنسانية الانسان » :

« عاش رجل « كروماجنون Cro-Magnon » فى أكثر انحاء أوربا قبـل حوالى ثلاثين الف سنة ، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة ، ومع أنه كان صيادا بصورة رئيسية ، فقد كان – على مايظهر – مشابها لنا جسما وعقلا . فأدواته وأسلحته تنـاسب حجم أيدينـا الآن . وفنه فى كهـوفه يثـير مشاعرنا ، والعناية التى كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما فى الاهتمام بنهاية الإنسان وآخرته . وكل أثر مدون من آثار إنسان ماقبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة إن الخواص الأساسية للجنس البشرى لم تتغير منذ العصر الحجرى« ٢ » »

وهكذا لايتغير جوهر الانسان بتغير الصورة التى تكون عليها حياته . ومن ثم لاتتغير كذلك ضوابطه ومعاييره .

وحقيقة إن التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى هو ذاته معيار من معايير « الإنسان » .. فقد أنشأ الله الإنسان ليعمر الأرض،وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ليقوم بعملية التعمير ، فإن توانى فى ذلك أو تقاعس فهو مقصر فى جانب من جوانب إنسانيته . ولكن هذا المعيار ليس هو المعيار الأوحد ، ولا هو المعيار الأول . إنما يأتى فى مكانه الطبيعى بعد تقرير المبـادئ والقيم التى تتوقف عليها إنسانية الإنسان . والفارق بينه وبين المعايير الأخرى – معايير القيم والمبادئ – أن القيم والمبادئ يمكن أن تشكل إنسانا ولو كان ناقصا فى جانب التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى ، فهو « إنسان » ولكن ينقصه جانب

« ١ » انظر – ان شئت – تفصيلا لهذه القضية فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » .

« ٢ » ص ٧١ من الترجمة العربية ، تعريب الدكتور نبيل صبحى الطويل ، الطبعة الأولى عام ١٣٩٩ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . و« رينيه دوبو » استاذ بجامعة روكفلر بنيويورك متخصص فى علم الحياة ، حصل على جائزة نوبل فى العلوم عام ١٩٧٦ ، والذى يعطى شهاته قيمتها أنه يدلى بها من زاوية علمية بحتة ، لا فلسفية ولا ادبية ولا دينية !

من الجوانب ينبغى عليه استكماله ليستكمل إنسانيته ، أما التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى - بغير قيم ومبادئ - فلايشكل إنسانا على الإطلاق !

ومصداق ذلك هو « إنسان » القرن العشرين ! الذى هو أقرب شيء إلى « إنسان الغاب »« ١ » !

إنه فى قمة التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى .. ولكنه بمقياس الإنسانية هابط إلى الحضيض !

* * *

إذا قومنا الديمقراطية الليبرالية بالمعيارين اللذين يقوم بهما الإسلام حياة البشر على الأرض ، وهما قضية العبادة وقضية إنسانية الإنسان ، فماذا تكون ياترى حصيلتها فى الميزان ؟!

فأما العبادة فقد تبين لنا أنه ليس الله هو المعبود فى تلك الديمقراطية إنما هو الشيطان . وحيثما لايكون الله هو المعبود فالمعبود هو الشيطان وإن تعددت السبل وتعددت المسميات .

« ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم »« ٢ »

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »« ٣ »

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »« ٤ »

والطاغوت هو كل شيء أو شخص أو نظام يعبد الناس لغير الله ، أو يتعبده الناس من دون الله ، وعبادته فرع عن عبادة الشيطان .

وأما إنسانية الانسان فأين هى على وجه التحديد فى الدوامة الوحشية التى يعيش فيها الإنسان الجاهلى المعاصر ؟

أهى في مباءة الجنس المتدنية إلى أدنى من بعض أنواع الحيوان ؟ « ٥ »

« ١ » إنسان الغاب اسم اصطلاحى لنوع من القردة يعرف علميا باسم « الأورانج أوتان » وسمى إنسان الغاب لأنه يستطيع أن يقف مددا طويلة منتصب القامة كالانسان ولكنه قرد وليس بانسان !

« ٢ » سورة يس [٦٠ - ٦١]

« ٣ » سورة الأنعام [١٥٣]

« ٤ » سورة البقرة [٢٥٧]

« ٥ » بعض أنواع الحيوان - كالجمال - تأبى ممارسة الجنس فى مكان مكشوف . بينما يقع ذلك من « الانسان » فى الجاهلية المعاصرة !

أهى في إدمان الخمر والمخدرات ؟
أهى في الجريمة التى تتزايد نسبتها على الدوام ؟
أهى في تفاهة الاهتمامات والبحث الدائم عن المتاع الحسى الغليظ ؟
أهي فى العبودية للآلة التى أصبحت هي التى تتحكم في حياة الإنسان ؟
أهي فى شريعة الغاب : القوة هى الحق ، والقوى يأكل الضعيف ؟
أهي في المواثيق التى تبرم لتنقض والعهود القائمة على الخداع ؟
أهى في هذا المسخ المشوه الذى فقد إشراقة الروح وعاطفة الإنسان ؟ !

حقا .. هناك الضمانات والحقوق التى ترتبط اليوم بالديمقراطية وتشكل جانبا بارزا من جوانبها .. ولاشك – كما قلنا – أنها تمثل نقلة كبيرة انتقلها « الإنسان » فى مسيرته التاريخية على الأرض . ولكن الشر الذى يحيط بهذا الخير الجزئى ، هو فى الديمقراطية الليبرالية من الضخامة بحيث يذهب في النهاية بكثير من نفع هذا الخير ، لأنه يدمر « الإنسان » كله في نهاية المطاف ، فلا يجدى – حين يسقط الإنسان كله إلى الحضيض – اننا كنا قد رفعنا جانبا من حياته إلى المستوى اللائق بالإنسان !

وليس معنى ذلك أننا ننقص من قيمة تلك الضمانات والحقوق بحال من الأحوال . إنما الذى نعنيه أنها تكون فى وضعها الطبيعى ، وتتحول إلى خير شامل ، حين يكون الإنسان بكامله على مستوى الإنسان .. وهو ماعجزت تلك الديمقراطية عجزا فاضحا عن تحقيقه ، أو قل إن شئت إنه لم يُرَدْ لها أن تحققه منذ البدء ، لأن تحقيقه لايمكّن الجاهلية الرأسمالية من الوجود، فضلا عن التضخم ، ولايمكّن شعب الله المختار من ركوب الأمميين كما يشتهون !

هناك وضع واحد تتحقق فيه كل الضمانات والحقوق التى جاءت بها الديمقراطية على المستوى الأرفع ، مع المحافظة الكاملة على إنسانية الإنسان .. ذلك حين يكون الإنسان عابدا لله ، مطبقا لشريعة الله ، أى حين يحقق الإنسان الإسلام ! عندئذ تتحقق الكرامة الحقيقية للإنسان ، وتتحقق له كل الحقوق والضمانات التى وهبها الله للإنسان لتتحقق له كرامته فى واقع الأرض .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »« ١ »

« ١ » سورة الأسراء [٧٠]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ..« ١ »

فيقرر الله أصل الكرامة لبنى أدم ، ويقرر الرسول صلى الله عليه وسلم حرمة الدماء والأموال والأعراض تحقيقا لتلك الكرامة فى عالم الواقع ، فى التعامل الذى يجرى بين الناس . ثم تتوالى التوجيهات الربانية وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم لتحديد مجالات تلك الكرامة على أوسع نطاق عرفته البشرية فى تاريخها . .

يأمر الله ألا تنتهك حرية المسكن :

« يا أيها الذين أمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بماتعملون عليم »« ٢ »

والتجسس كذلك حرام .

يقول تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولاتجسسوا ... »« ٣ » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة »« ٤ »

وعن عبدالله بن عتبة بن مسعود قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شىء ، الله يحاسبه فى سريرته . ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة »« ٥ »

ولايجوز استراق السمع على الشخص أو مسكنه أو أحاديثه أو كشف سر من أسراره أو الاطلاع على رسائله بغير إذنه .

يقول صلى الله عليه وسلم : « لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فحذفته

« ١ » رواه الشيخان

« ٢ » سورة النور [٢٧ - ٢٨]

« ٣ » سورة الحجرات [١٢]

« ٤ » رواه البخارى وغيره

« ٥ » رواه البخارى

بحصاة ففقأت عينه ماكان عليك من جناح »« ١ »

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان إلى قلبه : لاتؤذوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته فيفضحه ولو فى داخل بيته »« ٢ »

ولذلك ذكر بعض الفقهاء ، أنه لايجوز التجسس على إنسان ولامتابعته للكشف عن أسراره ولادخول مسكنه لتفتيشه إلا بتوفر شرطين :

الأول : ظهور أدلة وعلامات وقرائن على وجود جريمة معينة .

الثانى : أن يكون فى ترك البحث والكشف ودخول المنزل انتهاك حرمة يفوت استدراكها ، كأن يأتى الخبر بأن رجلا خلا برجل ليقتله ، أو بأمرأة ليرتكب فاحشة . فإذا لم يكن الأمر بحيث يفوت استدراكه فلا يجوز البحث والكشف ودخول المنزل .

وفضلا عن ذلك فإن الناس لايؤخذون بالظنة ، دون وجود تهمة جادة من مصدر موثوق به ، لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين »« ٣ » كما لايؤخذ إنسان بجريرة غيره لقوله تعالى : « ولاتزر وازرة وزر أخرى »« ٤ »

وتقييد حرية الانسان غير جائز إلا بحكم شرعى يصدره القاضى .

فالأصل فى الانسان ضمان حريته فى السكن والحركة والتنقل لقوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور »« ٥ »

وتقييد الحرية بغير حكم شرعى – أى بما يسمى الاعتقال أو الحبس الاحتياطى – غير جائز فى الاسلام على خلاف بين الفقهاء بالنسبة لبعض أنواع المتهمين .

فالمتهمون فى عرف الفقهاء ثلاثة أنواع :

النوع الأول : متهم معروف بالتقوى والبر يبعد أن يكون من أهل تلك التهمة. فلا يجوز حبسه من أجل التهمة . بل ذهب كثير من العلماء إلى أن المدعي عليه

« ١ » رواه النسائى

« ٢ » رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه

« ٣ » سورة الحجرات [٦]

« ٤ » سورة فاطر [١٨]

« ٥ » سورة الملك [١٥]

إن ظهر كذب دعواه يعاقب سواء قصد أذاه أو لم يقصد ، وذلك منعا لتسلط أهل الشر والعدوان والسفهاء على أعراض أهل البر والصلاح .

النوع الثانى : المتهم المجهول الحال الذى لايعرف ببر ولافجور ، وهذا اختلف العلماء فى سجنه احتياطيا عند وجود تهمة موجهة له ، فرأى الجمهور جواز حبسه حتى ينكشف أمره ، ورأى البعض عدم جواز حبسه . فأما الذين يرون جواز حبسه فقد قيدوا ذلك بالضرورة ، وبوجود أسباب قوية تدعو إلى ذلك ، ثم اختلفوا فى مدة الحبس فحددها بعضهم بيوم وبعضهم بيومين وبعضهم بثلاثة أيام .. وأوصلها بعضهم إلى شهر كحد أعلى مع التقييد بالضرورة .

النوع الثالث : المتهم المعروف بالفجور والفساد والسيرة الإجرامية ، وهذا يرى جمهور الفقهاء أن يحبس حبسا احتياطيا حتى تثبت براءته إن كان بريئا . وإن كان بعض الفقهاء كابن حزم لايرى جواز حبس أى انسان على الإطلاق بناء على مجرد الاتهام لأن الأصل فى الانسان براءة الذمة .

ولأن الأصل براءة الذمة لايحلف المتهم فى القضايا الجنائية المتعلقة بحق الله تعالى ، بل يذهب بعض العلماء إلى عدم تحليف المتهم فى القضايا الجنائية المتعلقة بحق العبد (انظر مثلا الطرق الحكمية لابن القيم ، ط . دار الكتب العلمية ببيروت ، ص ١٠٠ - ١٠٤)

أما الاكراه على الاعتراف فغير جائز بحال . ولاخلاف بين الفقهاء فى أن الضرب والتعذيب والحبس والقيد داخلة كلها فى الإكراه ، وإن اختلفوا فى التهديد والوعيد فرأى الجمهور أنه داخل فى الإكراه ، ورأى البعض أنه لايكون إكراها إلا إذا صدر من قادر على تنفيذه ، وغلب على ظن المتهم وقوع ماهدد به إذا لم يقر ، وكان المهدد به ضارا بحيث يعدم الرضا أو يفسده ، وكون المتهم عاجزا عن مقاومته .

ولايعتبر إقرار المكره صحيحا لقوله صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولقول عمر رضى الله عنه : « ليس الرجل بأمين على نفسه إذا جوعته أو ضربته أو أوثقته » (انظر المغنى والشرح الكبير ج ٨/ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ج ١٠ ص ١٧٢ طباعة دار الكتاب العربى ببيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) .

تلك ضمانات الاتهام وضمانات التحقيق فى الإسلام« ١ » .

أما ضمانات المحاكمة فقد قررها الإسلام قبل أربعة عشر قرنا .

الضمانة الأولى والكبرى هى الحكم بشريعة الله التى يتمثل فيها العدل الربانى الشامل « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »« ٢ » .

ولايقضى القاضى بالحد إلا اذا استوثق تماما أن المتهم غير معذور فى الجرم الذى ارتكبه ، وإلا فالحكم هو درء الحد بالشبهة لقوله صلى الله عليه وسلم : «ادرءوا الحدود بالشبهات »« ٣ » .

« سرق غلمان لابن حاطب ابن أبى بلتعة ناقة لرجل مزنى فأتى بهم عمر فأقروا فأمر كثير ابن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولى رده ، وقال لابن حاطب : والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه ، لحل له ، لقطعت أيديهم . فإذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك .. ثم التفت إلى المزنى فقال : يامزنى ! بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال بأربعمائة . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة ! »« ٤ » .

فحكم عمر رضى الله عنه أولا بدرء الحد لقيام شبهة الجوع دافعا للسرقة . وحكم ثانيا بعقاب « الفاعل الأصلى » وهو صاحب الغلمان الذى استخدمهم ولم يشبعهم فدفعهم الجوع إلى السرقة ، فغرمه ضعف ثمن الناقة .

كما أوقف عمر حد السرقة عام الجوع تطبيقا للمبدأ ذاته : ادرءوا الحدود بالشبهات .

ومن الضمانات أن القاضى لايقضى بعلمه وإنما بالقرائن والأدلة وشهادة الشهود العدول . ولا يقضى القاضى وهو غضبان ، ولايقضى وهو معرض لأى عارض يؤثر فى قدرته على الحكم الصحيح .

وكذلك ضمانات التنفيذ قررها الإسلام ، وزاد فيها ضمانة لم يتضمنها أى قانون أرضى حتى هذه اللحظة،وهى رد الاعتبار الكامل للمجرم بعد تطبيق الحد عليه .

فأما فى التنفيذ فلايجوز تعدى العقوبات المقررة شرعا . قال صلى الله عليه

« ١ » رجعت فى الكلام عن ضمانات الاتهام وضمانات التحقيق الى بحث لم ينشر للدكتور محمد سعد الرشيد الاستاذ بقسم القضاء بجامعة ام القرى بعنوان « حقوق الإنسان فى الإسلام » .

« ٢ » سورة المائدة [٤٤]

« ٣ » رواه عبدالله بن عباس .. ورد فى كتاب الكامل لابن عدى وفى مسند الامام ابى حنيفة للحارثى .

« ٤ » رواه الطبرانى

وسلم : « من جلد حدا فى غير حد فهو من المعتدين »« ١ »

وأما فيما بعد التنفيذ فيكفي هذان المثالان لتقرير تكريم الاسلام للانسان وإن هبط فى لحظة عابرة مادام قد كفر عنها بالعقوبة التى وقعت عليه وبالتوبة إلى الله :

« حدثنا قتيبة بن سعيد .. عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب فقال اضربوه . قال أبو هريرة فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه . فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقولوا هكذا . لا تعينوا عليه الشيطان »« ٢ »

وجاء فى قصة ماعز بن مالك : « فأمر به فرجم ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه الخبيثة حتى رجم رجم الكلب .. فسكت عنهما ، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجليه ، فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن ذان يارسول الله . قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ! فقالا : يانبى الله من يأكل من هذا ؟! قال : فما نلتما من أخيكما آنفا أشد من أكل منه » .

تلك ضمانات الإسلام التى سبق بها الديمقراطية بأكثر من ألف عام .

وأما الحقوق فقد قررها الإسلام كذلك فى وقت مبكر كانت أوروبا والعالم كله يعيش فى الظلمات .

فأما الحقوق السياسية التى تفاخر بها الديمقراطية فقد كان الإسلام أول من أزال « القداسة » عن الحاكم بإفراد الله بالألوهية والربوبية ، فلا يعبد إلا الله ولا تطبق شريعة الا شريعة الله .

جاء الإسلام والحكام ذوو قداسة حقيقية لا مجازية . بعضهم توجه إليه شعائر التعبد كقيصر وكسرى ، وكلهم يشرعون فتسرى شريعتهم فى الرعية أمرا غير مردود .

وجاء الإسلام ليقول : لا إله إلا الله . ولا معبود إلا الله . ولا حاكم له حق التشريع إلا الله .

وعندئذ تقررت الحرية السياسية الحقيقية للناس .

« ١ » رواه الطبرانى

« ٢ » رواه الطبرانى

ليست الحرية كامنة فى مجلس نيابى أو عملية تصويت شعبية ، إذا كان نتيجة ذلك كله أن تتحكم فئة معينة من الناس فى رقاب بقية الناس . إنما الحرية الحقيقية مرتبطة بتحديد من له حق التشريع .. فإذا كان البشر هم الذين يشرعون فلا حرية فى الحقيقة،إنما عبودية مقنعة من جانب وربوبية زائفة من جانب .. وإذا كانت الحاكمية لله فهنا يتجرد الحكام من الربوبية ويصبحون عبيدا لله كبقية العباد .

إن الذى جاء به الإسلام أعظم بكثير فى تقرير حرية الإنسان من كل ما أتت به الديمقراطية بعد الصراع الممتد الذى قامت به الشعوب لاستخلاص حقوقها من الطغاة . فمازال الحكام فى الديمقراطية - من وراء ستار - يشرعون ، فيشرعون لمصالحهم على حساب الآخرين . من خلال المسرحية الطريفة المتمثلة فى حق الانتخاب وحق الترشيح ووجود نواب وبرلمانات .

إن الذى صنعه الإسلام هو سلب الحكام أصلا حق التشريع . وبذلك وحده تكف أيديهم عن إيقاع الظلم بالمحكومين ، وبذلك وحده يتحرر الناس فيشعرون بالعزة الحقيقية إزاء الحكام .

لقد قال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » « ١ »

فقال أبو بكر الخليفة الأول رضى الله عنه : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » وقال مثل ذلك عمر رضى الله عنه .

ووقف عمر رضى الله عنه يخطب الناس فقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا . فقال له سلمان الفارسى : لاسمع لك اليوم علينا ولا طاعة ! فلم يغضب عمر العربى القرشى أمير المؤمنين لهذه المقالة من سلمان الفارسى . ولم يأمر بالقبض عليه واعتقاله ، إنما قال له : ولمه ؟ قال سلمان : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به وأنت رجل طوال لا يكفيك البرد الذى نالك كبقية المسلمين ! فلا يغضب عمر العربى القرشى أمير المؤمنين مرة أخرى من هذه المقالة من سلمان ، إنما ينادى ابنه عبدالله فيقول له : نشدتك الله هذا البرد الذى ائتزرت به أهو بردك ؟ فيقول : نعم ! ثم يقول موجها خطابه للناس : إن

« ١ » سورة النساء [٥٩]

أبى رجل طوال لايكفيه البرد الذى ناله كبقية المسلمين ، فأعطيته بردى ليأتزر به ! عندئذ يقول سلمان : الآن مر ! نسمع ونطع !

ولم يكن سلمان متمردا على السمع والطاعة الواجبة للحاكم المسلم ، إنما كان يريد فقط أن يستوثق - لله - من كون عمر رضى الله عنه قائما بتنفيذ شريعة الله على الوجه الأكمل ، وكان عمر يعلم دافع سلمان إلى مساءلته فيرضى - لله - بهذه المساءلة التى لم يقبلها على نفسه حاكم فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ولا فى غيرها من نظم الحكم على الإطلاق !

ويقول عمر : إذا أحسنت فأعينونى ، وإذا أسأت فقومونى ! فيقول له سلمان : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف ، فيقول عمر - راضيا لله - الحمدلله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بحد سيفه !!

تلك هى الحرية السياسية فى الإسلام ! منشؤها عبادة الله وحده دون شريك ، التى يترتب عليها نزع القداسة عن الحكام فى الأرض ، كما يترتب عليها نزع حق التشريع من الحكام بستار أو بغير ستار .. فيحس المؤمن الذى يعبد الله حق عبادته بعزة الاستعلاء التى تسنده أمام الحكام .

خطب عمر الناس فقال : لا تغالوا فى المهور . فقامت له امرأة من عامة المسلمين فقالت يوسع الله وتحرج انت ؟! إن الله يقول « وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » ! قال عمر : أخطأ عمر وأصابت امرأة !

وصحيح أن الله قد ترك أمورا للاجتهاد البشرى ، يضع البشر فيها تشريعات تلائم ما يجدّ من الأحوال ، ولكن هذه أولا محكومة بالأصول العامة للشريعة وليست متروكة للهوى البشرى كما يحدث فى الديمقراطيات .. وهى ثانيا اجتهادات يقوم بها أولو العلم من فقهاء الأمة الذين يقر الناس لهم بالقدرة على الاجتهاد ، وليست لأى إنسان يفتى فيها بعلم أو بغير علم كما يحدث فى البرلمانات عند التصويت على أى قرار ، إذ تؤخذ القرارات بأغلبية الأصوات ، وتتكافأ أصوات الذين يعلمون والذين لا يعلمون !

وتبقى الأمور الجارية التى تدخل فى باب « السياسة » وهذه يلزم الحاكم أن يستشير فيها ثم يتحمل مسئوليته بعد الاستشارة ؛ بشرط الا يخالف نصا من الكتاب والسنة أو ما أجمع عليه العلماء ، ولا يصادم أصلا من أصول الشريعة العامة .

* * *

أما حق التعليم فقد نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نصا ، بل جعله فريضة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »« ١ » (وعلى كل مسلمة لأنها داخلة فى النص) ودون الدخول فى تفصيل مايكون من العلم فرض عين وما يكون غرض كفاية ، فإن التعليم لم تكن له مشكلة فى العالم الإسلامى ، إلا فى العصور المتأخرة حين بعد الناس عن حقيقة الإسلام . أما فى عصور الازدهار فقد كان الإقبال شديدا على التعليم ، وكانت الدولة والمجتمع والأفراد يتعاونون فى توفير العلم لكل راغب مجانا ، بلا تكاليف ، بل كانت الدولة تجرى المعاشات للطلاب لتعينهم على طلب العلم دون مشغلة بأمر القوت ، وكانت أوقاف المسلمين الذين يقفون أموالهم على التعليم تكفل المأوى والملبس والمطعم للطلاب فضلا عن التعليم « ٢ » .

* * *

أما حق العمل أو الإعاشة الذى أكرهت الدول الديمقراطية عليه إكراها بسبب المطالبة المستمرة من العمال ، وبسبب الخوف من الشيوعية ، فقد قرره الاسلام ابتداء دون مطالبة من أحد ، ودون صراعات فى المجتمع .

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قواعد مسئولية الدولة عن جميع رعاياها إما بإعطائهم فرصة كريمة للعمل ، وإما بإعالتهم من بيت المال . جاءه رجل يسأله فأعطاه دراهم وقال له اذهب فاشتر حبلا وفأسا واحتطب وبع ما تحتطب للناس . ثم أمره أن يعود إليه ليخبره بما كان من أمره . وكان يوزع أموال الزكاة والغنائم والفىء على المحتاجين بمقتضى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »« ٣ » .

« واعلموا انما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » « ٤ » .

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » « ٥ » .

« ١ » رواه ابن ماجه

« ٢ » ظل الأزهر يفتح ابوابه لطلاب العلم الف سنة كاملة معتمد على اوقاف المسلمين ومثل الأزهر كثير من الجامعات الاسلاميه القديمة فى العالم الإسلامى كله .

« ٣ » سورة التوبة [٦٠]

« ٤ » سورة الأنفال [٤١]   « ٥ » سورة الحشر [٧]

ورغم قلة الموارد فى أول أيام الدولة الإسلامية فإن المبدأ قد تقرر واضحا محددا وهو أن الدولة مسئولة عن جميع رعاياها بقدر ما تسمح مواردها . وعلى الرغم من أن التكافل فى الإسلام ليس مهمة الدولة وحدها ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتكافل فى داخل الأسرة وحدد لذلك نظاما دقيقا توزع التركات بمقتضاه ، كما وزع التكاليف داخل الأسرة بحيث تشمل مجموع أفرادها ، كما أمر بالتكافل فى داخل المجتمع ، وحض القادرين على كفالة غير القادرين ... على الرغم من ذلك فإن مسئولية الدولة ظلت قائمة ، لا يسقطها عنها وجود التكافل فى داخل الأسرة وفى داخل المجتمع . بل تصل الحساسية فى قلب عمر رضى الله عنه أن يقرر مسئولية الدولة لا عن الآدميين الذين يستظلون بظلها فحسب ، بل عن كل كائن حى ، فيقول قولته الشهيرة : لو عثرت بغله بالعراق (أو قال بصنعاء) لكنت مسؤولا عنها لم لم أسو لها الطريق ! ثم يصل الأمر فى أيام عمر بن عبدالعزيز أن يقول يحيى بن سعيد : بعثنى عمر على صدقات افريقية فاجتبيتها فبحثت عن فقراء أعطيها لهم فلم أجد فقد أغنى عمر بن عبدالعزيز الناس ! فاشتريت بها عبيدا فأعتقتهم !

وجاء فى كتاب « الأموال » للإمام الحافظ أبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤هـ : (ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨) وحدثنى سعيد بن أبى مريم عن عبدالله بن عمر العمرى عن سهيل بن أبى صالح عن رجل من الأنصار قال : كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن ـ وهو بالعراق ـ « أن أخرج للناس أعطياتهم » فكتب إليه عبدالحميد : « إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال » فكتب إليه : « أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه » فكتب إليه : « إنى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال » . فكتب إليه بعد مخرج هذا : « أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على أرضه . فإنا لانريدهم لعام ولا لعامين » .

وجاء فيه [ص ٧٣٨] :

« قال : حدثنى يحيى بن بكير قال : سمعت الليث بن سعد يقول : كتب عمر ابن عبدالعزيز : « أن اقضوا عن الغارمين » . فكتب إليه : « إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث » فكتب عمر : « إنه لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له

الأثاث فى بيته . نعم ! فاقضوا عنه فإنه غارم ! » .

إلى هذه الدرجة العجيبة يصل الاسلام فى تقرير مبدأ مسئولية الدولة عن جميع أفرادها ، ويصل التنفيذ العملى فى صدر الاسلام لهذا المبدأ قبل أن يثور الثائرون ويطالبوا بهذه الحقوق بأكثر من ألف عام . ومازال الديمقراطيات - رغم كل خوفها من الشيوعية ، وكل خوفها من تمرد العمال - لا تصل إلى تقرير هذا الحق كاملا كما قرره الإسلام .

* * *

وأما حق التعبير عن الرأى فإن الإسلام لم يكفله حقا للناس على حكامهم بل جعله واجبا على الناس لله ! يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة » قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ورسوله وخاصة المسلمين وعامتهم » « ١ » فجعل إبداء النصيحة واجبا . وإبداء النصيحة هو التوجيه إلى الصواب والنهى عن الخطأ أيا كان الذى وقع الخطأ منه حاكما أو محكوما .. وهذا - فى صورته الدينية - هو هو التعبير عن الرأى الذى سعت الشعوب لانتزاعه انتزاعا من قبضة الحكام الكارهين ، مع فارق رئيسى ، أنه هنا إبداء الرأى مخلصا لله ، لتقويم ما اعوج من أحوال المجتمع ، لا احترافا للتأييد أو احترافا للمعارضة بحسب موقع الحزب الذى ينتمى الإنسان إليه من الحكم ! ولا لهوى شخصى أو بغض شخصى .

ويطلب الإسلام من كل مسلم أن يكون له موقف ويكون له رأى ، ليتمكن مجموع الأمة من القيام بأخطر مهمة تقوم عليها خيرية الأمة واستحقاقها للوجود وللفلاح ، بينما تقع اللعنة على الأمة إن أهملتها ، الا وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « كنتم خير أمة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ٢ »

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » « ٣ »

وفى الجانب الآخر :

« ١ » رواه مسلم .

« ٢ » سورة آل عمران [١١٠]

« ٣ » سورة آل عمران [١٠٤]

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » « ١ »

ولذلك يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلم الا يكون إمعة ، لا رأى له ولا موقف سوى مجاراة « الرأى العام » !! يقول عليه الصلاة والسلام : « لايكن أحدكم إمعة ، يقول إذا أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أو أساءوا ألا تظلموا » « ٢ »

وهذا كله بطبيعة الحال ضد مصلحة « الحكام » ما لم يستقيموا على النهج !

فليس من مصلحة الحكام أن تكون شعوبهم متيقظة لأعمالهم ، مبادرة بنقد الخاطئ منها عن طريق « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ولكن الإسلام لا يعمل لمصلحة الحكام كما تعمل الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية لصالح الرأسمالية رغم كل المسرحية الطريفة ـ مسرحية الحرية ! ـ إنما يعمل الإسلام لمصلحة كل الناس ، لأنه نزل لهداية كل الناس ، وليقوم الناس كلهم بالقسط :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « ٣ »

بل يشدد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن توجيه النصح للحكام – لا مجرد إبداء الرأى من أجل إبداء الرأى فحسب كما تصنع الديمقراطية فى أكثر أحوالها ـ فيقول صلى الله عليه وسلم : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » « ٤ »

ويقول صلى الله عليه وسلم : « سيد الشهداء حمزة،ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » « ٥ »

وهكذا يتبين أن ما جعلته الديمقراطية حقا مكتسبا وناضلت الشعوب من أجله ، جعله الإسلام واجبا ، وقرره قبل الديمقراطية بأكثر من ألف عام ، وقرره على طريقة أفضل وأصدق وأعمق .. ككل شيء قرره الإسلام .

« ١ » سورة المائدة [٧٨ ـ ٧٩]
« ٢ » رواه الترمذى .
« ٣ » سورة الحديد [٢٥]
« ٤ » رواه أبو داود والترمذى .
« ٥ » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد

ولكن الاسلام أعطى هذه الضمانات والحقوق كلها مع المحافظة التامة على إنسانية الإنسان ، وهنا مفرق الطريق بين الإسلام والجاهليات جميعا ، ومن بينها هذه الديمقراطيات !

لقد كرم الله الإنسان ابتداء كما أسلفنا :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ١ »

وكل ما فرضه الإسلام من الفرائض والتكاليف ، وكل ما قرره من الحقوق والواجبات منظور فيه إلى « تزكية » الإنسان ، وهى جزء من التكريم المراد للإنسان ، بل هى قمة ذلك التكريم .

فعبادة الله وحده دون شريك ـ فضلا عن كونها حقا لله على عباده ـ هى فى الوقت ذاته تزكية للإنسان وتكريم . فالإنسان كما قلنا آنفا عابد بطبعه لابد أن يعبد ، ولايوجد إنسان لايعبد . إنما الفارق بين إنسان وإنسان يأتى من توجيه العبادة إلى الله الحق ، أو توجيهها إلى إله زائف لايستحق أن توجه العبادة إليه .

والإنسان فى أعلى حالاته وأكرم حالاته حين يكون عابدا لله الحق ، وهو أسفل سافلين حين ينتكس من عبادة الله إلى عبادة غير الله من الآلهة المدعاة ، التى تهبط بالإنسان من إنسانيته المكرمة ، فيصبح كالدابة التى لا تعى ، بل يصبح أسوأ وأضل :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » « ٢ »

فعبادة الله الواحد ، وإفراده بالألوهية والربوبية التى يفرضها الإسلام حقا خالصا لله تعالى ، هى فى الوقت ذاته رفعة للإنسان وتكريم ، وفلاح فى الدنيا والآخرة سواء ، وتزكية ترفع الإنسان إلى عليين :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » « ٣ »

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى

« ١ » سورة الإسراء [٧٠]
« ٢ » سورة الأعراف [١٧٩]
« ٣ » سورة البقرة [٢٥٧]

الظلمات ليس بخارج منها ؟ » « ١ »

« والعصر ، إن الانسـان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » « ٢ »

« إن الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين .. » « ٣ »

فمن باب رفع الانسان إلى مقام الإنسانية الكريمة يـربط الإسـلام قلوب المؤمنين بالله ، ويجعل صيانة العقيدة والمحافـظة عليها أول واجبـات الإمام المسلم والدولة المسلمة .

• ومن باب رفع الإنسان إلى مقام الإنسانية الكريمة كـذلك يربى الإسـلام المسلمين على الأخلاق الفاضلة التى تنظف المشاعر وتنظف السلوك ، وتنفى عن النفس خبثها ، وتصونها عن التردى إلى مستوى الحيوان ، فيفرض النظافة فى الأعمال كلها : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فـأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فـأحسنوا الذبحـة ، وليحـد أحـدكم شفـرتـه وليـرح ذبيحته »« ٤ »

فإذا كان الأمر أمر عبادة موجهة إلى الله فالإسـلام يطهـرها من الريـاء والنفاق . وإن كان أمر معاملات تجرى بين الناس بعضـهم وبعض فقد فرض الإسلام فيها النظافة الكاملة فى كل شىء :

فى التعامل المالى حرم الربا والاحتكار والسرقة والغصب والنهب والسلب والغش والخديعة وأكل مال الأجير ، كما لعن السرف والترف وكنز المال .« ٥ »

فى التعامل السياسى حرم الظلم الناشئ أصلا من قيـام البشر بالتشـريع لأنفسـهم ، كما حرم كل تعامل لايقوم على العدل .

فى التعامل الاجتماعى حرم الغيبة والنميمة والغمز واللمز والتجسس ، كما بغض فى الفرقة والتباغض والتحاسد ، واهتمام كل إنسان بنفسه وعدم المبالاة بالآخرين « ٦ » .

« ١ » سورة الانعام [١٢٢]

« ٢ » سورة العصر

« ٣ » سورة المعارج (١٩ - ٢٢)

« ٤ » انظر فصلا بعنوان « وليرح ذبيحته » فى كتاب « قبسات من الرسول »

« ٥ » هذه كلها هى أدوات الراسمالية فى التضخم .

« ٦ » هذه الأخيرة هى سمة الحياة الغربية .

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »« ١ » « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »« ٢ » . « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »« ٣ » .

فى التعامل الجنسى حرم الفاحشة بجميع أنواعها وحرم مايؤدى إلى الفاحشة من خلوة أو تبرج أو تكسر أو خلاعة أو اختلاط بغير موجب .

فى كل شىء هناك أخلاق .. وهذا هو اللائق بالإنسان ..

وحين يكرم الإسلام الإنسان على هذا النحو ، وينظف مشاعره وسلوكه على هذه الصورة ، فإنه يعطيه ما أعطاه من حقوق وضمانات ، فتكون فى مكانها الطبيعى ، تكملة للتكريم ، وتوكيدا للتكريم ، لا كالذى تصنعه الديمقراطية الليبرالية ، التى تعطى بالفعل الضمانات والحقوق ولكنها تدمر الإنسان كله فى نهاية المطاف !

* * *

هذا هو الاسلام ، وهذه هى الديمقراطية فى نظر الإسلام ..

ومن ثم فلا سبيل إلى مزج الإسلام بالديمقراطية ! ولاسبيل إلى القول بأن الإسلام نظام ديمقراطى ! أو أنه يتقبل النظام الديمقراطى أو يسايره ، لمجرد وجود شبه عارض فى بعض النقاط !

إن هذا الالتقاء العارض بين الديمقراطية والإسلام فى الحقوق والضمانات وفى مبدأ الشورى لايجوز أن ينسينا حقيقتين مهمتين :

الحقيقة الأولى : أنه لاينبغى لنا – من الوجهة العقيدية – أن نقرن النظام الربانى إلى نظام جاهلى ، فضلا عن أن نحاول سند النظام الربانى بنسبته إلى النظام الجاهلى ، أو أن نتصور أننا نمتدح النظام الربانى بأن نقول إنه يحمل نقط التقاء مع النظام الجاهلى !

إنها الهزيمة الداخلية تندس إلى أفهامنا دون أن نحس ، وتجعلنا نعتقد أن النظام الربانى فى حاجة إلى دفاعنا نحن عنه وتبريره ! كما تجعلنا نعتقد أننا نمتدح النظام الربانى بأن نقول للناس إنه يحتوى على الفضائل التى تحتوى عليها النظم السائدة اليوم !

« ١ » رواه الحاكم والطبرانى .
« ٢ » رواه الشيخان .
« ٣ » متفق عليه .

إنها الهزيمة التى أصابت المسلمين فى مواجهة الغرب الظافر المتغلب ، الذى غلب على بلاد الإسلام . وماكانت لتوجد فى نفوسنا لو أننا واثقون فى أنفسنا مستعلون بالإيمان كما وجهنا الله :

« ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » « ١ »

الهزيمة التى نشأت فى الحقيقة من الخواء الذى أصاب المسلمين فى القرون الأخيرة .. الخواء من حقيقة الإسلام .. فلما جاءت الهزيمة العسكرية أمام الغرب كانت كالضربة القاضية التى بهرت المهزومين وهزتهم من الأعماق . وماكانوا لينبهروا – رغم الهزيمة العسكرية – لولا ذلك الخواء الداخلى من حقيقة الاسلام « ٢ »

إنه لاينبغى لنا من الوجهة العقيدية أن نقرن الإسلام إلى الجاهلية فى أى صورة من صورها ، إلا إذا قلنا كما قال الله فى كتابه المنزل :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » « ٣ »

والحقيقة الثانية : أن هذا الشبه العارض فى بعض النقاط لايجوز أن ينسينا الفارق الضخم فى القاعدة . إن القاعدة التى يقوم عليها الإسلام تختلف اختلافا جذرياً عن القاعدة التى تقوم عليها الديمقراطية .

فى الإسلام يعبد الله وحده دون شريك ، وتحكم شريعة الله عنوانا على التوحيد ، وتحقيقا له فى عالم الواقع . وفى الديمقراطية يعبد غير الله ، وتحكم شرائع البشر عنوانا على عبادة غير الله وتوكيدا لها فى عالم الواقع .

وفى الإسلام يزكى الإنسان ليحتفظ بإنسانيته فى أحسن تقويم،وفى الديمقراطية ينكس الإنسان فيهبط أسفل سافلين .

تلك فروق جوهرية فى القاعدة ، فما قيمة اللقاء العارض فى بعض النقاط أيا كانت القيمة الذاتية لتلك النقاط ؟!

على أننا – من الوجهة التاريخية البحتة – لايجوز أن نقرن الإسلام إلى الديمقراطية وهو سابق على تلك الديمقراطية بأكثر من ألف عام ! إنما ينبغى

« ١ » سورة آل عمران [١٣٩] .

« ٢ » تحدثنا عن أسباب هذا الانبهار فى كتاب « واقعنا المعاصر » كما تحدثنا عن أسباب انتشار المذاهب الهدامة فى العالم الإسلامى .

« ٣ » سورة المائدة [٥٠] .

- إن أردنا ! - أن نقول إن الديمقراطية هى التى تحمل بعض المشابه من الإسلام فى بعض النقاط ، لا أن الإسلام هو الذى يحمل مشابه من الديمقراطية .. فاللاحق هو الذى يلحق بالسابق فى عرف التاريخ !

* * *

وفى العالم الاسلامى كتاب ومفكرون ودعاة مخلصون مخدوعون فى الديمقراطية . يقولون نأخذ ما فيها من خير ونترك ما فيها من شرور .

يقولون نقيدها بما أنزل الله . ولا نبيح الإلحاد ولا نبيح التحلل الخلقى والفوضى الجنسية !

إنها إذن لن تكون الديمقراطية .. إنما ستكون الإسلام !!

إن الديمقراطية هى حكم الشعب بواسطة الشعب . إنها تولى الشعب سلطة التشريع . فإذا ألغى هذا الأمر أو قيد بأى قيد فلن تكون هى الديمقراطية التى تقوم اليوم بهذا الاسم .

واسألوا الديمقراطيين ! قولوا لهم : نريد أن نحكم بما أنزل الله ، ولايكون للشعب ولا ممثليه حق وضع القوانين إلا فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة ولا إجماع من علماء المسلمين !

قولوا لهم : نريد أن ننفذ حكم الله فى المرتد عن دينه ، وحكم الله فى الزانى والسارق وشارب الخمر ..

قولوا لهم : نريد أن نلزم المرأة بالحجاب ، ونمنع التبرج،ونمنع العرى على الشواطئ وفى الطرقات . ونريد فى الوقت ذاته أن نكون ديمقراطيين !

اسألوهم وانظروا ماذا يقولون !

سيقولون على الفور : إن هذه ليست الديمقراطية التى نعرفها .. ففى الديمقراطية يشرع الناس فى جميع الأمور لايلتزمون فى شىء منها بغير ما يريده الشعب (نظريا على الأقل ! وإن كانت الحقيقة كما أسلفنا أن الرأسماليين هم الذين يشرعون من وراء الستار !)

سيقولون إن الديمقراطية لا تتدخل فى « الحرية الشخصية » للأفراد ! فمن شاء أن يرتد عن دينه فهو حر ! ومن شاء أن يتخذ صديقة أو خليلة فهو حر . ومن شاءت أن تكشف عن صدرها أو ظهرها أو ساقيها فهى حرة ! ومن شاءت أن تخون زوجها فهى حرة ما لم يشتك الزوج !

سيقولون : ابحثوا عن اسم آخر لما تريدون .. اسم غير الديمقراطية !

فإذا كان كذلك فلماذا نصر نحن على تسمية نظامنا الذى نريده باسم الديمقراطية ؟! لماذا لا نسميه الإسلام ؟!

* * *

ويقول بعض الناس مخلصين : إنما نريد أن يلتزم الحاكم - المسلم - برأى الشعب فيما ليس فيه نص .. وهذا هو لب الديمقراطية الذى نريد أن نطعم به الحكم الإسلامى ، لنمنع طغيان الحكام !

ومانريد هنا أن ندخل فى الخلاف الفقهى القائم حول الشورى فى الإسلام وهل هى ملزمة لولى الأمر أم غير ملزمة .. فهذا يخرج بنا عن موضوع الكتاب .. إنما نقول فقط إن هذا أمر اجتهادى ليس فيه نص .. فالنص يلزم بالشورى ذاتها . ولكن لايوجد نص يقول إن الشورى ملزمة أو غير ملزمة . ولذلك اختلف الفقهاء ..

ومادام الأمر اجتهاديا فمن حق أى جيل من أجيال المسلمين أن ينظر فيه ، وينظر فى وجه المصلحة فيه .. فيوم نكون جادين فى تطبيق الإسلام ، فعندئذ يجتمع علماء الأمة وينظرون فى الأمر ، ويقررون على ضوء الظروف القائمة وقتها إن كانت المصلحة تقتضى جعل الشورى ملزمة أو غير ملزمة .. وتلتزم الأمة وحكامها بمايراه علماؤها المجتهدون ، فإذا رأى علماء الأمة أن المصلحة تتحقق بالتزام الحاكم بنتيجة الشورى كان هذا الاجتهاد ملزما لأولياء الأمور .

أما أن نستعير « ترسا » من آلة أجنبية عن الإسلام لنركبه فى النظام الإسلامى لمجرد ظننا أنه صالح ومفيد ، فليس هذا هو التفكير السديد . إن الإسلام نظام متكامل . وحاجات المسلمين ومصالحهم تتحقق من داخل النظام لا من خارجه . فلنعزم أولا أن نكون مسلمين حقا ، ملتزمين بما أنزل الله ، ثم لننظر بعد ذلك مايفتح الله به علينا من الحلول :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين »« ١ » .

* * *

وينظر أناس إلى البغى والطغيان القائم فى بلاد الإسلام فيقولون : أليست الديمقراطية خيرا من هذا البغى ؟ على الأقل نستطيع أن نتنفس ونحن آمنون ! لايجىء حاكم فيعتقل من يعتقل ، ويعذب من يعذب ، ويقتل من يقتل دون أن

« ١ » سورة العنكبوت [٦٩]

يجرؤ أحد على معارضته بسبب عدم وجود نظام ديمقراطى ، فلو أننا اتخذنا الديمقراطية - مع تحكيم شريعة الله - أمنا من طغيان الحكام .

ويبدو هذا القول وجيها لأول وهلة .. ففى النظم الديمقراطية القائمة فى الغرب لايطغى الحكام بهذه الصورة ، ولايعتقلون الناس بعشرات الألوف ، ولايعذبونهم فى السجون ، ولايقتلون أحدا بالتعذيب داخل الأسوار ، مماتعرض له الدعاة المسلمون فى أكثر من مكان فى العالم الإسلامى ..

ولكن القضية إذا أنعمنا النظر فيها لاتبدو بهذه الوجاهة التى تبدو عليها للوهلة الأولى .

فلا يوجد نظام فى الأرض - حتى النظام الربانى - يعمل من تلقاء نفسه دون قيام البشر على حراسته ، أو يعطى الضمانات للناس دون أن يحرص الناس على التمسك بهذه الضمانات .

والديمقراطية ليست نظاما آليا يحمل ضماناته فى طياته ويطبقها من ذات نفسه ! إنما هى - ككل نظام - تعتمد على البشر الذين يقومون بالتطبيق .

وانظر إلى تاريخ الديمقراطية فى بلادها التى تطبقها وتتمتع بضماناتها . إنه تاريخ نضال مستمر وثورات ودماء ! والذى أعطى الضمانات - كما أشرنا أكثر من مرة فى هذا الفصل - لم يكن هو الديمقراطية فى ذاتها ، إنما كان نضال الشعب وثورته على الظلم ، وتحمله التضحيات والضحايا فى سبيل الحصول على حقوقه . وبهذا النضال نال الشعب مانال من حقوق وضمانات .

ولكن تعال الآن فحاول تطبيق الديمقراطية فى بلاد لم تناضل ولم تتجه للنضال من أجل الحريات والضمانات والحقوق . فماذا تفعل الديمقراطية للناس ؟! هل تصون لهم حقوقهم وتعطيهم ضماناتهم ؟

إن الديمقراطية ليست ثوبا يشترى جاهزا ويلبس ، إنما ينبغى أن يفصل تفصيلا على قد لابسه ! لابد من « المعاناة » التى تعطى ثمرة التجربة !

حين ثار المصريون ثورتهم « الوطنية »« ١ » عام ١٩١٩ ، كان تشرشل وزيرا فى وزارة المحافظين القائمة يومئذ فى بريطانيا ، فجاءت أخبار الثورة فى الصحف فسأل تشرشل : ماذا يريدون ؟ (يعنى المصريين) قالوا له : يريدون دستورا وبرلمانا ! فقال تشرشل : أعطوهم لعبة يتلهون بها Give them a toy

---

« ١ » كانت ثورة إسلامية فى منشئها ولكن سعد زغلول حولها إلى ثورة وطنية (انظر فصل « القومية والوطنية » فيما يلى من الكتاب وانظر فصل « آثار الانحراف » فى كتاب « واقعنا المعاصر ») .

وكـانت كلمة صـادقة من ذلك الداهيـة الساخـر المتغطرس to play with : الخبيث .

ولست أقول إن النظم الطغيانية التى حلت محل تلك الديمقراطيات المزيفة هى خير منها ! كلا ! وألف مرة كلا ! فالطغيان الذى يعتقل عشرات الألوف ويعذبهم أبشع تعذيب عرفته البشرية ، ويقتل منهم من يقتـل فى محاكمـات صورية أو داخل الأسوار بالتعذيب ، هو شر خالص لاخير فيه .

ولكنى أقول فقط إن البديل ليس هو الديمقراطية.. إنما هو الإسلام !

فإذا كانت العودة إلى الإسلام اليوم تحتاج إلى جهاد طويل وتضحيات ، وإلى تربية جادة على حقائق الإسلام ، فإن الديمقراطية كذلك ! إنها لن تعطى ثمارها – فى الجانب الخيّر منها – إلا بجهاد وتضحيات ، وتربية جادة تربى جيلا من الناس يحرص على حريات الديمقراطية وضماناتها ، ويأبى أن تزيف إرادته التزييف الغليظ الذى كان يحدث باسم الديمقراطية فى بلادنا . وإلا فستظل لعبة يتلهى بها الناس كما قال ذلك الخبيث .

فإذا كان لابد من التربيـة فى الحالتـين ولابد من الجهـاد والتضحيات فى الحالتين ، أفليس الأولى أن يكون الجهد فى سبيل الخير الحقيقى ، الخير الذى لايعود على المسلمين وحدهم إنما يعود على البشرية جمعاء ، وهو خير الدنيا والآخرة فى ذات الوقت ؟!

ولقائل أن يقول ، إن التاريخ السياسى الإسلامى ملىء بالمظالم ، وهو يحمل اسم الاسلام .

ونقول نعم ! إن هذا صحيح !

ولكن ماسببه على وجه التحديد ؟!

ظلم من الحكام .. نعم .. ولكن أين كانت الأمة الإسلامية ؟ ولماذا سكتت على الظلم ، ولم تأطر حكامها على الحق أطرا كما أمرها زعيمها وقائدها صلى الله عليه وسلم ؟

إنها استنامت للظلم تفريطا فى حقوقها وواجباتها التى قررها الإسلام ..

أفلو كـانت الديمقراطيـة هى الحاكمـة بدلا من الإسـلام كان المفـرطون لايفرطون ؟!

وهل الأمة التى ضيعت الإسلام كانت ستحافظ على الديمقراطية ؟!

إن القضية أن هذه الأمة تحتاج أن تربى من جديد على حقيقة الإسلام .. وبغير ذلك لاينصلح حالها ولايستقيم .

ومن كان يرى أن مشوار الإسلام مشوار طويل ، وأن مشوار الديمقراطية أقصر منه وأيسر ، فنحن نقول له إن الديمقراطيات ذاتها فى سبيلها إلى الانهيار ، بما تحمل فى طياتها من عوج وانحراف قائم فى أصل النظام .

وسيبقى الإسلام ..

سيبقى لأنه دين الحق ..

ولأن الله تكفل بحفظه ..

ولأنه هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن ينقذ البشرية كلها من ضلالها البعيد الذى لجت فيه ..

ولأن هناك مؤمنين بهذا الدين يجاهدون لتكون كلمة الله هى العليا ، والله هو الذى وعدهم بالتمكين :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا »« ١ »

. ١ . سورة النور [٥٥]

الشيوعيّة

أولًا : المادية الجدلية

ثانيًا : المادية التاريخية

ثالثًا : المذهب الاقتصادى بين النظرية والتطبيق

تمهيد

ليست الشيوعية مذهبا اقتصاديا بحتا كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس حين يسمعون لفظة الشيوعية ، وإن كان لها ولا شك مذهب اقتصادى محدد متميز ، إنما هى تصور شامل للكون والحياة والانسان ولقضية الألوهية كذلك ، وعن هذا التصور الشامل ينبثق المذهب الاقتصادى . ثم إنها من جهة أخرى مذهب اقتصادى واجتماعى وسياسى وفكرى مترابط متشابك لايمكن فصل بعضه عن بعض .

ومن ثم فلا يمكن عزل المذهب الاقتصادى وحده بعيدا عن التصور الشامل الذى ينبثق عنه ، أو بعيدا عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية المصاحبة له .

وسواء كان الوضع الاقتصادى وحده هو الأصل الأصيل والأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية المصاحبة له مجرد انعكاس له كما تقول النظرية الشيوعية ، أم كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية أصيلة فى صدورها عن التصور الشامل كأصالة الوضع الاقتصادى كما نزعم نحن ..

ففى جميع الحالات لايمكن فصل المذهب الاقتصادى وحده ، وعزله عن التصور الشامل الذى انبثق عنه ، ولا عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية المصاحبة له ، كما أنه لايمكن تركيبه على تصور آخر ، ولا على أوضاع سياسية واجتماعية وفكرية مغايرة . وليس هذا خاصا بالشيوعية إنما هو من طبيعة كل تصور ، وكل أوضاع ناشئة عن ذلك التصور .

وليس معنى هـذا أن التصور الواحـد لايمكن أن ينبثق عنـه إلا صـورة اقتصادية وسياسية واجتماعية وفكرية واحدة محددة السمات والتفصيلات ، فسوف نرى فى أثناء العرض والمناقشة أن ذلك غير صحيح . ولكن الذى نعنيه أن هناك اتجاهات عامة تربط بين المـذهب الاقتصادى السيـاسى الاجتماعى الفكرى وبين التصور الذى ينبثق عنه ذلك المذهب . وأن هذه الاتجاهات العامة لابد أن توجد فى كل صورة من الصور الاجتماعية السيـاسية الاقتصـادية الفكرية التى يمكن أن تنبثق عن ذلك التصـور ، وإن اختلفت فيما بينهـا فى الدرجة أو فى التفصيلات والسمات الخاصة .

وبديهى أن التصور الشيوعى للألوهية والكون والحياة والانسان هو تصور مادى بحت .. فهم يسمون نـظريتهم العامـة « الماديـة الجدليـة » ويسمون تفسيرهم للتاريخ « التفسير المادى للتاريخ » ومن أقوالهم :

لا إله . والكون مادة .

وحدة العالم تنحصر فى ماديته .

المادة سابقة فى الوجود على الفكر .

لم يكن هناك وقت لم تكن المادة موجودة فيه ، وليس هناك وقت لاتكون المادة موجودة فيه ..

الإنسان نتاج المادة .

الفكر نتاج الدماغ والدماغ مادة .. الخ

* * *

وحين نتكلم عن الشيوعية فلابد أن نتكلم عن أمور ثلاثة رئيسية هى المادية الجدلية،والمـادية التـاريخية،والمـذهب الاقتصادى الشيـوعى مع الأوضـاع السياسية والاجتماعية المصاحبة له .

ولكنا نحب أن نشير فى هذا التمهيد إلى أن ماركس ـ أو الشيوعيين بصفة عامة ـ ليسـوا هم الذين ابتدعـوا الاتجاه المـادى . وإنما الحق أنهم قمتـه ومنتهاه .

وليسوا هم الذين ابتدعوا « الجدلية » تفسيرا للحياة البشرية أو الوجود عامة بما فيه الكون المادى والحياة البشريـة ، إنما « الجـدلية المـادية » أو « المادية الجدلية » هى التى يمكن أن تعتبر ابتداعهم الخاص .

الاتجاه المادى قديم فى الحياة الأوروبية قدم النهضة الأوروبية إن لم نقل

إن له جذورا أعمق من ذلك فى بعض اتجاهات الفلسفة الإغريقية القديمة واتجاهات الحياة الرومانية قبل المسيحية .. وقد قامت النهضة الأوروبية كما سبق أن بينا على أساس معاد للدين .. كما أنها رجعت إلى الأصول الإغريقية الرومانية تستمد منها ، بدلا من الأصول الدينية المسيحية التى كانت منسلخة منها منقلبة عليها .

وحين قامت النهضة انقلب اتجاه التفكير فى أوروبا من ناحيتين اثنتين على الأقل ، كلتاهما تعضد الأخرى . فقد كان الفكر الأوروبى فى فترة المسيحية الكنسية قائما على أصول دينية ـ بصرف النظر عما وقع فيها من تحريف عن الأصل الصحيح ـ أى أن مصدرها ـ فى حسهم ـ هو الله والوحى الربانى : ثم إن هذا الفكر كان متجها إلى الآخرة على أساس أن الخلاص الحقيقى هناك ، وأنه لا خلاص فى الحياة الدنيا .. أما فكر النهضة فقد كان « إنسانيا » من جهة ، وموجها إلى الحياة الدنيا من جهة أخرى . إنسانى لابمعنى أنه مشغول بالقيم العليا الإنسانية،أو « بالإنسان » كما ينبغى أن يكون فى صورته الكريمة اللائقة بإنسانيته ، ولكن بمعنى أن الإنسان ـ وليس الله ـ هو الذى ينبغى أن يكون مصدر المعرفة ، وأن الفكر الإنسانى ـ لا الوحى الربانى ـ هو المرجع الذى يرجع إليه الإنسان فى النظر إلى أمور حياته ومتطلباتها . وفى الوقت ذاته كان هذا الفكر موجها إلى النظر فى الحياة الدنيا ومقتضياتها لا إلى الآخرة ومقتضياتها .

يقول رايوبرث عن عصر النهضة :

« وامتاز ذلك العصر بشعور الإنسان فيه بشخصيته المطلقة وبمعارضته للسلطة وذويها ، وذهابه شوطا بعيدا فى اعتبار العالم كله وطنا له .. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القرون الوسطى .. ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء « الإنسانيين » ... وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون « نمو الفردية » أعنى الرأى القائل بأن الإنسان ينبغى أن يفكر بنفسه لنفسه . وهو رأى كان قد أهمل فى عصر عبودية العقل » « ١ »

« ١ » كتاب مبادىء الفلسفة ، ترجمة محمد امين ـ دار الكتاب العربى بيروت ص ١١٩ ـ ١٢٠

ويقول جرين برينتون عن الحركة الانسانية وفنونها :

« إنه طالما كانت العصور الوسطى فى الواقع عصورا دينية ، وطالما أن عصر النهضة يعنى على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية إن لم نقل الزندقة ، فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة ، أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية .. » « ١ »

هذا الاتجاه المنسلخ من الدين ، المتجه إلى المادية ، لم يقفز دفعة واحدة من الروحانية الدينية إلى المادية اللادينية ، ولا استقام نحو هدفه فى طريق واحد خال من الذبذبات . ولكنه كان فى كل قفزة يتجه إلى المادية أكثر ، ويبعد عن الله أكثر ، وإن عاد فهى عودة مؤقتة سرعان ما يتخلص منها ويمضى مبعدا فى الطريق المنسلخ عن الدين . فقد انفصلت الفلسفة عن الدين بادئ ذى بدء ونبذت البحث فيما « وراء الطبيعة » كما كانوا يطلقون على أمور الغيب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى وخلقه لهذا الكون ، والغاية من هذا الخلق ، والوحى الربانى المتضمن للقيم الدينية التى ينبغى أن يتبعها الإنسان من أجل الخلاص فى الآخرة . واتجهت الفلسفة إلى دراسة « الطبيعة » والكون المادى ، والإنسان باعتباره كائنا موجودا فى الطبيعة ، لا بوصفه كائنا قد خلقه الله لغاية معينة وهدف يؤديه . وكان التقدم العلمى الذى حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة التى ساعدت على اتجاه الفكر الأوروبى ذلك الاتجاه من خلال المذهب العقلى والتجريبى .

يقول برينتون عن المذهب العقلى :

« فالمذهب العقلى يتجه إلى إزالة الله ومافوق الطبيعة من الكون،ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلى نحو الكون ..« ٢ »

ويقول الدكتور محمد البهى عن المذهب التجريبى :

« إن تحصيل الانسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لايكون إلا بالتجربة الحسية وحدها ، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية . ففى العالم الحسى تكمن حقائق الأشياء . أما انتزاع المعرفة

« ١ » كتاب منشأ الفكر الحديث ـ ترجمة عبدالرحمن مراد ص ٢٧

« ٢ » المصدر السابق

مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية ، والبحث عن العلة فى هذا المجال ، فأمر يجب أن يرفض . ولهذا تكون كل نظرية أو كل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة فيما وراء الحس نظرية أو فكرة مستحيلة » « ١ »

وهكذا يتفق المذهب العقلى مع المذهب التجريبى فى البعد عن الله وتجنب البحث عن الغاية من الخلق ، والنظر فى « الطبيعة » بدلا من النظر فيما وراء الطبيعة أى فى عالم الحس بدلا من عالم الغيب .

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق !

فقد اكتشف نيوتن بعض ما سمى عندهم « قوانين الطبيعة » التى يجرى الكون المادى بمقتضاها . وكشف عما يسمى عندهم « قانون السببية » أى القانون الذى يفسر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة . وقد كان هذا فى أوروبا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة ، أى نفى الأسباب الغيبية « ٢ »

يقول برينتون :

« إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة فى هذا العالم ». ويمضى فيقول : « الإله فى عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة . ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعنى بها الكون ـ لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد ، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد . أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة هذه ليجروا عليها . وإنه ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية الضخمة ، الذى لايستطيع إذا ما أراد التدخل فى شؤون عمله » « ٣ » !!

ويقول :

« واكن ثمة أناس ذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا فكرة الإله فكرة شريرة ، وخاصة إذا ما كان إله الكنيسة الكاثوليكية . وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسم الملحدين . وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود لمسيح أو لإله المسيحية ، ويقولون إن الكون ليس إلا مجموعة متحركة ذات نظام معين يمكن فهمه باللجوء إلى السببية المعتمدة على أسس العلوم الطبيعية » « ٤ »

« ١ » الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٩٧

« ٢ » انظر حديثا عن السببية ودورها فى الفكر الاوروبى فى فصل « العقلانية » من هذا الكتاب .

« ٣ » منشأ الفكر الحديث ص ١٥١

« ٤ » المصدر السابق ١٥٢

ويقول راندال :

« إنه لأقرب إلى الطبيعي والمعقول أن نشتق من صور المادة كل شيء موجود لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها ، ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا ، ونراها فاعلة متحركة ، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع ، من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روحى لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته ، كائن يعجز بحكم الجوهر المنسوب إليه أن يفعل أى شيء أو أن يحرك أى شيء » ١ » !!

هكذا سار الاتجاه المادى الملحد بخطوات حثيثة حتى جاء القرن التاسع عشر ، فظهرت الفلسفة الوضعية التى تقول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل ، واعتبارها هى الأصل الذى ينبثق عنه كل شيء .. والذى يبعث الأفكار فى العقل البشرى ، وكان من أهم فلاسفتها « أوجست كومت » و « فرباخ »

ويذكر الدكتور محمد البهى فى تلخيصه الجيد للفكر الغربى فى تلك الفترة فى كتابه « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » أن هذه الفلسفة التى تدعو إلى سيادة الطبيعة ، إن لم نقل عبادتها ، قد قامت فى جو معين حيث تولدت الرغبة فى نفوس كثير من العلماء والفلاسفة لمعارضة الكنيسة التى كانت تملك نوعا خاصا من المعرفة تستغله فى معارضة خصومها وهى المعرفة الدينية ، فقام هذا الفريق من العلماء والفلاسفة بالهجوم الشديد عليها باسم العلم ، وقامت هذه الفلسفة الوضعية على أساس تقدير الطبيعة وحدها مصدرا للمعرفة اليقينية .. ثم يقول : « ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة فى نظرها هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الإنسان ، وهى التى توحى بها وترسم معالمها .. هى التى تكون عقل الإنسان . والإنسان ـ لهذا ـ لايملى عليه من خارج الطبيعة ، أى لايملى عليه مما وراءها ، كما لايملى عليه من ذاته الخاصة .. إذ ما يأتى من (ماوراء الطبيعة) خداع للحقيقة وليس حقيقة !! وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا !!

« وبناء على ذلك يكون « الدين » وهو وحى (أى ما بعد الطبيعة) خداعا ! هو وحى ذلك الموجود الذى لايحدده ولا يمثله كائن من كائنات الطبيعة .

« هو وحى الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية . وكذلك « المثالية العقلية » وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى . إذ هى تصورات الإنسان من نفسه من

« ١ » تكوين العقل الحديث ج١ ، ص٤٣٩

غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التى يعيش فيها وتدور حوله » « ١ »

« إن عقل الانسان فى منطق هذه الفلسفة ـ أى ما فيه من معرفة ـ وليد الطبيعة التى تتمثل فى الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية .. إنه مخلوق ، ولكن خالقه هو الوجود الحسى . إنه يفكر ، ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به . إنه مقيد مجبر ، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية . ليس هناك عقل سابق على الوجود المادى ، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الوحى .. عقل الانسان ومعرفته يوجدان تبعا لوجود الإنسان المادى . هما انطباع لحياته الحسية المادية التى يتنفسها » « ٢ »

* * *

أما الجدلية فقد سبق إليها « فيشته » و « هيجل »

وقد كان الأصل فى التفكير الجدلى « الديالكتيكى » هو البحث عن تصور فلسفى يسمح بوجود المتناقضات فى الكون والحياة ويفسرها . ذلك أن المنطق اليونانى القديم (الذى يسمى المنطق الصورى Formal logic) ينفى وجود التناقض فى الكون والحياة ، ويقيم تفكيره على أساس أن الشىء ونقيضه لايمكن أن يجتمعا . فوجود أى شىء هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه .

ولكن الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة ـ وإن كان قد رجع إلى الفكر الإغريقى يستمد منه ـ كانت له التفاتات مختلفة عنه فى مجالات متعددة . حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى ـ عصر سيادة العقل فى الفكر الأوروبى المسمى عندهم « بعصر التنوير » – قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض فى الكون والحياة ويحاولون تفسيره ، من أبرزهم « فيشته » و« هيجل » . فأما فيشته « ١٧٦٢ ـ ١٨١٤م » -- كما يقول الدكتور محمد البهى فى كتابه السابق الذكر ـ فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة« ٣ » .. وأما « هيجل » « ١٧٧٠ ـ ١٨٣١ » فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة ، ثم

« ١ » الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى الطبعة الثامنة ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

« ٢ » المصدر السابق ص ٢٩٩

« ٣ » كان هذا قبل ظهور الفلسفة الوضعية المادية التى قالت بسيادة الطبيعة مقابل العقل والدين . والواقع أن الفلسفة الوضعية قامت ردا على الفلسفة العقلية التى سادت فى عصر التنوير .

لدعم فكرة الألوهية من جديد ، وتأكيد الوحى كمصدر أخير للمعرفة ، لأنه يعتبر الله سبحانه عقلا .» « ١ »

واستخدم هيجل مصطلحات خاصة به ، هى الدعوى ومقابل الدعوى وجامع الدعوى ومقابلها ، وتصور أن هناك فكرة مطلقة أطلق عليها اسم العقل المطلق — وهو الله عنده — انبثقت عنه الطبيعة وهى تغايره تماما ، لأنها مقيدة ومتفرقة وهى عنده العقل المقيد . ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه الشىء ونقيضه وهو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها ، وهو جامع الدعوى ومقابلها .

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق ، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة . إذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين : جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله ، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة .. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق ولا تحديد عقل الطبيعة ، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى « ٢ »

وأما المنبع الثالث لفكر ماركس بعد الجدلية التى أخذها من هيجل ، والمادية التى أخذها من كومت فهو دارون ونظرية التطور .

جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق . ويؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية . وأن التطور ذاته — الذى أنشأ الحياة فى المادة الميتة أول مرة ، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان — هو نتيجة أسباب مادية بحتة ، وأنه يتم مستقلا عن إرادة الكائن الحى ، وبصورة حتمية لايملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها .

* * *

ماذا بقى من فكر ماركس لم يسبق إليه ؟!« ٣ »

ومع ذلك فلم يكن عمل ماركس هو مجرد التجميع للأفكار السابقة والمعاصرة فلقد أنشأ فلسفة مترابطة متكاملة — أيا كانت مصادرها الأولية — تشمل كل

« ١ » عن الفكر الاسلامى الحديث ص ٢٨٩ بتصرف

« ٢ » عن المصدر السابق ص ٢٩٠ — ٢٩١ بتصرف

« ٣ » هيجل وكومت سابقان عليه ودارون معاصر له .

القضايا المحيطة بالإنسان ، وتشملها جملة وتفصيلا على نحو غير مسبوق فى الفكر الغربى . وليس هنا مجال تقويم هذه الفلسفة فى جملتها وتفصيلاتها « ١ » ولا مجال السؤال عن كونها - فى صورتها التى قدمها بها ماركس - كانت قمينة أن يلتفت إليها ويحتفى بها ، أم تترك « لتمر » كما مرت فلسفات كثيرة من قبل ، لتصبح فيما بعد «كلاما» يدرسه طلاب الفلسفة فى الجامعات . أم تهاجم الهجوم الذى يقضى عليها ويجبها من منبتها .. لولا ذلك السند الضخم الذى لقيته من العناصر التى سعت لإقامة الشيوعية فى الأرض والدعاية لها فى الآفاق « ٢ » .

إنما نحن هنا فى مجال تقديم الشيوعية كما قدمها أصحابها ، من خلال الموضوعات الثلاثة الرئيسية : المادية الجدلية والمادية التاريخية والمذهب الاقتصادى بين النظرية والتطبيق .

« ١ » سيأتى تقويم النظرية تاليا فى هذا الفصل ، بعد عرض خطوطها العريضة كما يقدمها أصحابها .
« ٢ » سيأتى الرد على هذا السؤال ضمنا فى أثناء مناقشة النظرية .

أولًا : المادية الجدلية

المادية الجدلية تصور خاص لقضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان يقوم على أساس مادى بحت ، على أساس أن المادة هى الشىء الوحيد الأصيل فى هذا الكون ، وأن كل ما فى الكون ومن فيه منبثق من المادة ومحكوم بقوانين المادة ، ولا وجود له خارج نطاق المادة . كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض فى طبيعة المادة ، ومن ثم فى كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانات بما فى ذلك الكيان الإنسانى ، فهو كيان مادى من جهة ، ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى ، وتلك هى حقيقة كل أفكاره ومشاعره ، وكل نظمه ومؤسساته ، وكل قيمه ومبادئه ، وكل حركته خلال التاريخ .

وقد قلنا فى التمهيد السابق إن ماركس لم يكن هو مبتدع الجدلية أو التفكير الجدلى على العموم ، فقد أخذ هذا التفكير عن هيجل ، ولكنه خالفه فيه مخالفة أساسية ، إذ قال هيجل إن الفكرة هى الأصل وهى سابقة فى وجودها على المادة ومسيطرة عليها ، وقال ماركس إن المادة هى الأصل وهى سابقة على الفكرة ومسيطرة عليها .

يقول ماركس : « لايختلف منهجى الجدلى فى الأساس عن منهج هيجل فقط ، بل هو نقيضه تماما ، إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة ، هى مبدعة الواقع الذى ليس سوى الصورة الظاهرية للفكرة ، أما أنا فأعتقد على العكس ، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان » « ١ »

ومن ثم سميت جدلية هيجل الجدلية المثالية وجدلية ماركس الجدلية المادية أو المادية الجدلية .

أما أصل التسمية - فى لغتها الأصلية - فهى مأخوذة عن الإغريقية ، ومستمدة من الحوار الفلسفى الإغريقى Dialogos الذى كان يمثل وجهتى نظر مختلفتين تتجادلان حتى تتبين الحقيقة من خلال الجدل . وغالبا ما تكون الحقيقة مزيجا من وجهتى النظر المختلفتين ، ولكن يظهر جليا فى أثناء الحوار

« ١ » أصول الفلسفة الماركسية تأليف جورج بوليتزر وآخرين تعريب شعبان بركات ، ج١ ص٣٦ نقلا عن رأس المال لماركس .

(أو الجدل) أن إحدى وجهتى النظر تأخذ فى التراجع المؤدى إلى التسليم ، بينما تأخذ وجهة النظر الأخرى فى التفوق حتى تتغلب فى نهاية الأمر ، وإن كانت فى غلبتها لا تلغى الأخرى تماما بل تبقى منها بقايا تظهر فى الحقيقة النهائية .

والمادية الجدلية ـ كما سنبين فيما بعد ـ تتصور الأحداث ـ سواء كانت طبيعة (مادية) أو بشرية ـ على هذا النحو ذاته ، حيث تكون هناك قوة فى اتجاه معين وقوة أخرى مناقضة لها فى الاتجاه المضاد ، ثم يحدث الصراع الذى ينتهى بانهزام القوة الأولى ـ وإن كانت لاتزول تماما ـ وتغلب القوة الثانية وإن كانت غلبتها ليست تامة . ومن ثم فإن استعارة « الجدل » من ذلك الحوار الفلسفى مناسبة لذلك التصور ومعبرة عنه .

يقول ستالين فى تعريف الجدلية « الديالكتيك » :

« أخذت كلمة« ديالكتيك » . من الكلمة اليونانية « دياليجو » ومعناها المحادثة والمجادلة . وكان الديالكتيك يعنى فى عهد الأولين : فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف المتناقضات التى يتضمنها استدلال الخصم ، وبالتغلب عليها . وكان بعض الفلاسفة الأولين يعتبرون أن اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الآراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة.فهذا الأسلوب الديالكتيكى فى التفكير ، الذى طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة ، أصبح هو الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة .

« إن حوادث الطبيعة بموجب هذه النظرية هى متحركة متغيرة دائما وأبدا ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة نتيجة القوى المتضادة فى الطبيعة » « ١ »

ويقول كاريوهنت : « الجدلية إذن هى فكرة ونقيضها ، ثم تآلف النقيضين . فالفكرة تؤيد القضية ، والنقيض ينكرها ، أو بتعبير هيجل ينفيها . أما تآلف النقيضين فيحتضن ما هو حقيقى : الفكرة ونقيضها ، وبهذا يقربنا خطوة نحو الحقيقة . ولكن حالما يتعرض تآلف النقيضين إلى فحص أدق ، نجدها هى أيضا ناقصة . وهكذا تعود العملية فتبدأ من جديد بفكرة أخرى بنفيها ونقيضها ، ثم يجرى التوفيق بينها بتآلف جديد للنقيضين .

« وبهذه الطريقة المثلثة يمضى الفكر حتى يصل فى النهاية إلى المطلق .

« ١ » المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لستالين ص ١٤ ـ ١٥ من الترجمة العربية

وعندئذ يمكننا أن نواصل التفكير إلى ما لانهاية دون أن نشهد أى تناقض . وعلى هذا يطلق اصطلاح الجدلية على عملية التنازع والتوفيق التى تجرى ضمن الواقع ذاته داخل الفكر البشرى بشأن الواقع »« ١ »

وسنعرض هنا الخطوط العريضة للمادية الجدلية كما قدمها أصحابها من خلال النقطتين التاليتين :

أولا : المادة : أزليتها وأبديتها وأسبقيتها فى الوجود على الفكر .

ثانيا : قوانين المادة التى تحكم « الطبيعة » وتحكم الحياة البشرية كذلك .

* * *

أولا: المادة: أزليتها وأبديتها، وأسبقيتها فى الوجود على الفكر.

جاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لسبركين وياخوت » (ترجمة محمد الجندى ص ٣٩ من الترجمة العربية)

« .. فليس للكون نهاية ولا حدود . العالم أبدى وليس له أى بداية ولن يكون له أى نهاية « ٢ » ومن هنا فأى عالم « غيبى » غير مادى غير موجود ولا يمكن أن يوجد . وفى واقع الأمر إنه إذا لم يوجد شىء غير المادة فلا يوجد غير عالم مادى واحد . وهذا يعنى أنه عند الأشياء والظواهر المختلفة فى العالم المحيط بنا ، هناك خاصية واحدة توحدها هى ماديتها »

ويقول ستالين فى كتابه « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ٢٩ من الترجمة العربية) :

« وتقوم المادية الفلسفية على مبدأ آخر ، وهو أن المادة والطبيعة والكائن ، هى حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك أو الشعور وبصورة مستقلة عنه . وأن المادة هى عنصر أول ، لأنها منبع الإحساسات والتصور والإدراك ، بينما الإدراك هو عنصر ثان مشتق ، لأنه انعكاس المادة : انعكاس الكائن . وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت فى تطورها درجة عالية من الكمال . أو بتعبير أدق : إن الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير . فلا يمكن بالتالى فصل الفكر عن المادة دون الوقوع فى خطأ كبير »

« ١ » الشيوعية نظريا وعمليا لكاريوهنت ص ٢٨ من الترجمة العربية .

« ٢ » يقصد أنه أزلى أبدى وليس أبديا فقط كما جاء فى التعبير .

وجاء كذلك فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادة التاريخية » (ص ٤٢ من الترجمة العربية) :

« وجدت الطبيعة ليس فقط قبل الناس وإنما عموما قبل الكائنات الحية ، وبالتالى مستقلة عن الإدراك . وهى الأولية . أما الإدراك فلم يستطع التواجد قبل الطبيعة فهو ثانوى »

وجاء فيه كذلك (ص ٣٠ ـ ٣١ من الترجمة العربية) :

« يقول لوموسوف : إنه فى الطبيعة لا ينشأ شىء من لا شىء . ولا يختفى أبدا بلا أثر . ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادة (الطبيعة) قد وجدت دائما ، لأننا إذا سلمنا بأنه فى وقت من الأوقات لم يكن هناك شىء فى العالم ، أى لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ ؟ ولكن ما إن توجد المادة فهذا يعنى أنها لم تنشأ فى أى وقت من الأوقات ، بل وجدت دائما وستوجد دائما ، فهى أبدية وخالدة . ولهذا لم يمكن أن تخلق فلا يمكن أن يخلق ما لايمكن إفناؤه ، وبذلك فالمادة لم تنشأ أبدا بل وجدت دائما وستوجد دائما فهى أبدية »« ١ »

وجاء فى كتاب « المادية التاريخية » تأليف ف . كيلى م . كوفاللزون،« ترجمة أحمد داود ومراجعة الدكتور بدر الدين السباعى (طبع دار الجماهير بدمشق ١٩٧٠م ، ص ٥٠٠ من الترجمة العربية) :

« ثم إن العلم إذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة ، يطرد فى تطوره الإله من الطبيعة ويدحض خطل المثالية ، ويؤيد صحة النظرة المادية إلى العالم . والعلم يتفق مع المادية فى بحثه عن الحقيقة فى الحياة ذاتها وفى الطبيعة ، ويفسر ظواهر الطبيعة والمجتمع معتمدا على القوانين الموضوعية ، وهذا مايدل على أن العلم الحقيقى ذو طابع مادى . إن العلم مادى بطبيعته وبجوهره ، والمثالية غريبة عنه وعدوة له » .

وجاء فى كتاب « أصول الفلسفة الماركسية » (تأليف جورج بولتيرز وآخرين ، تعريب شعبان بركات ، إصدار المكتبة العصرية ببيروت ، ج١ ص٢٠٦ من الترجمة العربية) :

« ولقد أثارت النزعة المادية الجدلية هذه الصعوبات ، وفقدت فكرة « الله » كل محتواها ، ولم يعد النقاش حول وجود الله أو عدم وجوده ـ ذلك النقاش

---

١ . يقصد انها ازلية ابدية .

الذى أثار النزعة الالحادية الساذجة غير الماركسية ـ يثار كما أثير سابقا ، لقد أصبح الله كما قال لابلاس : فرضية لا نفع فيها ..

« ولا شك فى أن فكرة الله والعواطف الدينية موجودة ، وهى تتطلب تفسيرا ، وبدلا من القول بأن الانسان كائن « إلهى » يجمع فى ذاته العنصر الطبيعى « ١ » والعنصر الالهى ، كما يجمع عنصر الموت والخلود فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى ، يجب القول بأن « الله » و« الديانة » هما ظاهرتان إنسانيتان ، لأن العنصر الالهى هو من إبداع الانسان وليس الانسان هو من إبداع الله .

ويقول ماركس فى كتاب « بؤس الفلسفة » (ترجمة أندريه يازجى ، طبع دار اليقظة العربية بسوريا ومكتبة الحياة بلبنان ص ١٢٣ ـ ١٢٤ من الترجمة العربية) :

« إن العزة الالهية والهدف الالهى هى الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ . والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئا »

ويقول إنجلز فى كتابه « لود فيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » (إصدار دار التقدم بموسكو ص ١٦ من الترجمة العربية) :

« فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة، فهى الأساس الذى نمونا عليه . نحن الناس نتاجها أيضا . وخارج الطبيعة والإنسان لايوجد شىء . أما الكائنات العلوية التى ولدت فى مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاس خيالى لوجودنا نحن » .

تكفينا هذه النصوص « ٢ » لبيان الفكرة .

فواضح منها أنهم يعتبرون المادة هى الأصل الذى انبثقت منه كل الكائنات ، الحية منها وغير الحية ، بما فى ذلك الإنسان . وأنها جميعا قد انبثقت عنها بطريق الخلق .

أى أن المادة هى الخالق الذى أنشأ الحياة وأنشأ الإنسان . وأنشأ كل ما يحتوى عليه عالم الإنسان من أفكار ومشاعر .

أما المادة ذاتها فلم تخلق ، إنما كانت دائما موجودة وستظل دائما موجودة ،

« ١ » يقصدون المادى .

« ٢ » قام بجهد تجميع هذه النصوص وغيرها مما جاء فى هذا الفصل « احمد العوايشة » فى رسالته لماجستير بعنوان موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ ، باشراف وإشراف الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميدانى .

أى أنها أزلية أبدية ، موجودة بذاتها ومنشئة لغيرها .

وأما الله - الأزلى الأبدى الخالق البارئ المصور المريد الفعال لما يريد - فهو عندهم خرافة ابتدعها خيال الإنسان . والحقيقة الوحيدة هى المادة ، والوحدة التى تجمع الكون هى ماديته .

* * *

ثانيا: قوانين المادة التى تحكم الطبيعة وتحكم الحياة البشرية كذلك .

للمادة عند الماديين قوانين ثابتة تحكمها هى : الترابط والحركة والتطور والتناقض .

١ - الترابط فى الطبيعة :

يقول ستالين فى كتاب « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٥ - ١٦ من الترجمة العربية) :

« إن الديالكتيك - خلافا للميتافيزقية - لايعتبر الطبيعة تراكما فرضيا للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض ، أو أحدها مستقل عن الآخر ، بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا ، ومتماسكا ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطا عضويا ، ويتعلق أحدها بالآخر ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة .

« لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن أى حادث من حوادث الطبيعة لايمكن فهمه إذا نظر إليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به . إذ أن أى حادث فى أى ميدان من ميادين الطبيعة ، يمكن أن ينقلب إلى عبث فارغ لا معنى له إذا نظر إليه بمعزل عن الشروط التى تكتنفه . وعلى العكس ، يمكن فيهم أى حادث من الحوادث وتبريره إذا نظر إليه من حيث ارتباطه ارتباطا لا ينفصم بالحوادث المحيطة به ، أى إذا نظر إليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التى تحيط به »

(ويلاحظ من كلام ستالين فى تعرضه للميتافزيقيا أن الميتافيزيقا التى كانت عندهم - والتى كانوا يواجهونها بالمادية الجدلية - كانت تفترض أن كل شىء من الأشياء قائم بذاته ولا صلة له بغيره من الأشياء ، وأنه لا ترابط فى النظام الكونى بين أجزائه المختلفة) .

٢ ـ الحركة فى الطبيعة :

جاء فى كتاب « أصول الفلسفة الماركسية » (ج ١ ص ٤٩ من الترجمة العربية) :

« وفى الطبيعة لا يلعب الكون الدور الحاسم رغم أنه موجود وإنما تلعب هذا الدور الحركة والتطور والتغير . هذه الحركة ملازمة داخليا للمادة كخاصة جذرية لا تنفصل عنها ، ولا داعى لوضع السؤال التالى : من أين حصلت المادة على هذه الحركة ؟ لأنها موجودة منذ الأزل ، ولهذا لا داعى للسؤال الذى يقول : من الذى اكسب المادة الحركة ، ما دامت لا تنفصل عنها ، وتعتبر شكلا من أشكال وجودها »

وجاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ٣٤ من الترجمة العربية) :

« ما قيل يعنى أنه لايوجد فى العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها ، فهى تشمل كل شىء ، وفى كل مكان يمتد فعلها ، ولايوجد شىء غير المادة المتحركة المتطورة ، وما يتولد عنها ، ولايمكن أن يوجد . وهذا يعنى أنه لايوجد غير عالم مادى واحد . ولهذا بالتحديد يشير إنجلز إلى أن وحدة العالم تنحصر فى ماديته . وبعبارة أخرى أن العالم واحد لأنه مادى »

ويقول ستالين فى كتاب « المادية الديالكتيكية » (ص ١٦ من الترجمة العربية) :

« إن الديالكتيك ـ خلافا للميتافيزيقيا ـ لايعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود . حالة ركود واستقرار . بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين . حالة تجدد وتطور لا ينقطعان.ففيها دائما شىء يولد ويتطور وشىء ينحل ويضمحل »

ويستشهد ستالين (ص ١٧ من الترجمة العربية من الكتاب السابق) بإنجلز حيث يقول الأخير : « إن الطبيعة من أضأل الأجزاء إلى أكبر الأجسام : من حبة الرمل إلى الشمس ، من البروتوزوا (الخلية الحية الابتدائية) إلى الإنسان ، هى فى حركة دائمة من النشوء والاضمحلال ، هى فى مد لا ينقطع . فى حركة وتغير مستمرين وأبديين » .

٣ ـ التطور فى الطبيعة :

يقول ستالين (ص ١٨ من الترجمة العربية لكتاب المادية الديالكتيكية) :

« إن الديالكتيك ـ خلافا للميتافيزيقية ـ لايعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة ، لا تؤدى التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطورا ينتقل من تغييرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغييرات ظاهرة وأساسية أى إلى تغييرات كيفية . وهذه التغييرات الكيفية ليست تدريجية بل هى سريعة فجائية ، وتحدث بقفزات من حالة إلى أخرى ، وليست هذه التغييرات جائزة الوقوع ، بل هى ضرورية ، هى نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية ، ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن من الواجب فهم حركة التطور ، لا من حيث هى حركة دائرية ، أو تكرار بسيط للطريق نفسه ، بل من حيث هى حركة تقدمية صاعدة وانتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة ، وتطور ينتقل من البسيط الى المركب . من الأدنى إلى الأعلى » ..

ويستشهد ستالين (ص ٢٠ ـ ٢١ من الترجمة العربية من الكتاب السالف الذكر) بقول إنجلز :

« يمكن القول إن الكيمياء هى علم التغيرات الكيفية الناشئة فى الاجسام عن تغييرات كمية . وكان هيجل نفسه يعرف ذلك فى عهده . لنأخذ الأوكسجين فإذا جمعنا فى جزيئه ثلاث ذرات عوضا عن اثنتين كالعادة حصلنا على جسم جديد هو « الأوزن » الذى يختلف اختلافا بينا برائحته وبتأثيراته عن الأوكسجين العادى . وماذا نقول عن مختلف تراكيب الأوكسجين مع الأزوت أو مع الكبريت ؟ إن كل تركيب منها يعطى جسما مختلفا من حيث الكيفية عن جميع الأجسام التى تعطيها التراكيب الأخرى ..» .

٤ ـ التناقض فى الطبيعة :

يقول ستالين (ص ٢٢ من الترجمة العربية من الكتاب السابق ذكره) :

« إن نقطة الابتداء فى الديالكتيك ـ خلافا للميتافيزيا ـ هى وجهة النظر القائمة على أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية ، لأن لها جميعها جانبا سلبيا وإيجابيا ، ماضيا وحاضرا ، وفينا جميعا عناصر تضمحل أو تتطور . فنضال هذه المتضادات ، اى النضال بين القديم والجديد ، بين مايموت ومايولد ، بين ما يفنى ومايتطور ، هو المحتوى الداخلى لحركة التطور . هو المحتوى الداخلى لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية . ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن حركة التطور من الأدنى إلى الأعلى لا تجرى بتطور

الحوادث تطورا تدريجيا متناسقا ، بل بظهور التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث ، بنضال الاتجاهات المضادة التى تعمل على أساس هذه التناقضات » .

وجاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » لسبركين وياخوت (ص ٧٢ من الترجمة العربية) :

« فينحصر جوهر قانون وحدة صراع الأضداد فى أن جميع الأشياء والعمليات تلازمها جوانب داخلية متناقضة ، موجودة فى وحدة لا تنفصم ، وفى صراع مستمر فى نفس الوقت ، وصراع الأضداد هو بالتحديد المصدر الداخلى والقوة المحركة للتطور »

وجاء فى ص ٧١ من الترجمة العربية :

« نأخذ مجال الطبيعة الحية . هنا نرى بوضوح دور التناقض الجدلى كمصدر للتطور . من لايعرف أن الأطفال يشبهون الآباء ولكنهم ليسوا نسخة منهم تماما . فالنمطية والجمود مع ذلك لاوجود لهما . يرجع هذا أولا وقبل كل شىء إلى أن قانون الوراثة يعمل إلى جانب نقيضه ـ قانون التغير ـ وهو يضمن « عدم تشابه » و « عدم تكرار » وتغير كل الأجسام وتطورها . والوراثة بدورها تثبت هذه الخواص فى السلالة ، بخلاف ذلك يمكن أن تختفى التغييرات . وهكذا يسوق الصراع الأبدى بين القوتين المتضادتين : القابلية للتغير والوراثة ، عملية تطور الطبيعة الحية . ويحدث اختيار طبيعى نتيجة للصراع بين هذين الضدين . تولد القابلية للتغير قسمات جديدة مفيدة . أما الوراثة فتجمعها فى السلالة . ونتيجة لذلك تتولد أنواع جديدة من الكائنات الحية . وليست القوة الخارجية ولا الرب ، إنما التناقضات الداخلية الطبيعية هى المصدر والمحرك الداخلى لعملية تطور الطبيعة الحية »

تلك هى قوانين المادة ..

وليس بنا ـ سواء هنا فى مجال العرض أو فى مجال المناقشة التى تتلوه ـ أن نتعرض لهذه القوانين ومدى صحتها من الوجهة العلمية . إنما الجانب الذى يهمنا أكثر من أى شىء أخر فى مجال بحثنا هو قولهم إن قوانين المادة بحذافيرها تحكم الحياة البشرية فى جميع أشكالها وشتى ألوان النشاط فيها .

فأما عن الترابط فقد قالوا إن هناك ارتباطا لاينفصم بين الأفكار والمشاعر وبين الأوضاع والتغيرات المادية .

يقول ستالين (ص ٢٣ وما بعدها من الترجمة العربية لكتاب المادية الديالكتيكية) :

« فإذا صح أن ليس فى العالم حوادث منعزلة ، إذا صح أن كل الحوادث مترابطة فيما بينها ويكيف بعضها البعض الآخر بصورة متبادلة ، فمن الواضح أن كل نظام اجتماعى وكل حركة اجتماعية فى التاريخ لا ينبغى الحكم عليها من ناحية « العدالة الأبدية » أو من ناحية أية فكرة أخرى مقررة سلفا ، كما يفعل المؤرخون على الغالب ، بل ينبغى لنا أن نبنى حكمنا على أساس الظروف التى ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطتين بها . إن نظام الرق يكون فى الظروف الحاضرة خرقا وبدعة مضادة للطبيعة ، ولكن نظام الرق فى ظروف المشاعية البدائية الآخذة بالانحلال ، هو حادث مفهوم ومنطقى ، لأنه يعنى خطوة إلى الأمام بالنسبة لنظام المشاعية البدائية .

« إن المطالبة بإقامة الديمقراطية البرجوازية فى ظروف القيصرية والمجتمع البورجوازى مثلا فى روسيا سنة ١٩٠٥ كانت شيئا مفهوما وصحيحا وثوريا تماما لأن الجمهورية البرجوازية كانت تعنى إذ ذاك خطوة إلى الأمام .. ولكن المطالبة بإقامة الجمهورية الديمقراطية البرجوازية فى ظروف الاتحاد السوفياتى الحاضر ، تكون خرقا ، وشيئا رجعيا ومضادا للثورة ، لأن الجمهورية البرجوازية هى خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى الجمهورية السوفياتية . كل شىء يتعلق بالظروف ، بالمكان والزمان .

« ومن الواضح أن وجود علم تاريخى وتطور هذا العلم شيئان مستحيلان بدون هذا الفهم التاريخى للحوادث الاجتماعية ، فمثل هذا الفهم يمنع علم التاريخ من أن يصبح فوضى احتمالات وكوم أخطاء سخيفة » .

ويقول ماركس (ج ١ ص ٣٠ من الترجمة العربية لكتابه الأيدلوجية الألمانية) :

« إن نتاج الأفكار والتصورات والوعى مختلط بادئ الأمر - بصورة مباشرة ووثيقة - بالنشاط المادى والتعامل المادى بين البشر ، فهو لغة الحياة الواقعية . إن التصورات والفكر والتعامل الذهنى بين البشر تبدو هنا على اعتبارها إصرارا مباشرا لسلوكهم المادى ، ينطبق الأمر نفسه على الانتاج الفكرى كما يمثل فى لغة السياسة ولغة القوانين والأخلاق والدين والميتافيزيا .. إلخ عند شعب بكامله ، فالبشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم .. حتى الأشباح

فى العقل البشرى هى تصعيدات ناتجة بالضرورة عن تطور حياتهم المادية ، التى يمكن التحقق منها تجريبيا والتى تعتمد على قواعد مادية ، ومن جراء ذلك فإن الأخلاق والميتافزياء وكل البقية الباقية من الأيدلوجيـة ، وكذلك أشكـال الوعى التى تقابلها ، تفقد فى الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتى فهى لا تملك تاريخها ، وليس لها أى تطور ، إن الأمر على النقيض من ذلك ، فالبشر إذ يطورون إنتاجهم المادى وعلاقـاتهم الماديـة ، هم الذين يحولون فكـرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع الواقع الذى هو خاصتهم . فليس الوعى هو الذى يعين الحياة ، بل الحياة هى التى تعين الوعى » .

ويقول إنجلز (ص ٣٢١ من الترجمة العربية لكتابه : انتى دوهرنج) :

« فإنه ينبغى البحث عن الأسباب الأخيرة لسـائر التبـدلات الاجتماعيـة والثورات السياسيـة ليس فى أدمغة البشر . ليس فى فهمهم النـامى للحقيقة والعدالة الأبديتين ، بل فى التبادلات الطارئة على أساليب الانتاج والمبادلة » .

وأما عن الحركة فقد قالوا إن الحياة البشرية تتحرك لأنها من أشكال المادة :

يقول مؤلفا كتاب « المادة التاريخية (ص ١١ من الترجمة العربية) :

« والمادية التاريخية ـ خلافا للعلوم الأخرى ـ لا تدرس فقط هذه القوانين الخاصة أو تلك من قوانين تطور أشكال معينة لحركة المادة ، وإنما هى تدرس القوانين العامة الشاملة للحركة المادية ، والمجتمع هـو أيضا شكـل لحركـة المادة » .

أما التطور الذى قالوا إنه يحدث فى المادة فقد بنوا عليه تطورا حتميـا فى المجتمع البشرى ، ومن ثم نفوا الثبات فى أى وضع من الأوضاع ولا قيمة من القيم :

يقول ستالين فى كتابه : « المـادية الديـالكتيكية » (ص ٢٥ من التـرجمة العربية) :

« وبعد . إذا صح أن العالم يتحرك ويتطور دائما وابدا . إذا صح أن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور ، اصبح من الواضح أن ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة « غير قابلة للتغير » ولا مبادئ أبدية للملكية الخاصة والاستثمار ! وليست هناك « افكار أبدية » عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكى الأرض ، والعمال للراسماليين »

ويقول (ص ٢٦ ـ ٢٧ من الترجمة العربية لكتابه المادية الديالكتيكية) :

« وبعد . إذا صح أن الانتقال من التغيرات الكمية البطيئة إلى تغيرات كيفية وفجائية وسريعة هو قانون للتطور فمن الواضح أن الثورات التى تقوم بها الطبقات المضطهدة هى حادث طبيعى تماما ولا مناص عنه .

« وبالتالى فالانتقال من الراسمالية إلى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النير الراسمالى يمكن تحقيقها لا بتغيرات بسيطة بطيئة ، ولا بإصلاحات ، بل فقط بتغير كيفى للنظام الراسمالى ؛ أى بالثورة » .

ويقول موريس كورنفورث فى كتاب « مدخل إلى المادية الجدلية » (ص ١٠٧ من الترجمة العربية لمحمد مستجير مصطفى) :

ونجد هذا القانون عن تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية فى المجتمع كذلك . فقبل أن يوجد نظام الراسمالية الصناعية حدثت عملية من تراكم الثروة فى شكل نقود فى أيدى قلة (عن طريق نهب المستعمرات أساسا) ومن تكون بروليتاريا لاتملك شيئا عن طريق تسييج الأرض وطرد الفلاحين . وعند نقطة معينة من هذه العملية ، حين تراكمت النقود الكافية لتزويد المنشآت الصناعية براس المال ، وحين تحول عدد كاف من الناس إلى بروليتاريا لتقديم العمل اللازم ، نضجت الظروف لتطور الراسمالية الصناعية ، عند هذه النقطة ولد التراكم فى التغيرات الكمية مرحلة كيفية جديدة فى تطور المجتمع .

« وتحدث التغيرات الكيفية عموما بفجائية نسبية ـ بوثبة . إن شيئا جديدا يولد فجأة ، رغم أن إمكانياته كانت تحويها عملية التحول التدريجى للتغيرات الكمية المستمرة التى حدثت من قبل » .

أما التناقض فقد أثبتوه من قبل للمادة ، وحيث إن حركة المجتمع البشرى جزء من حركة المادة فقد احتوت على التناقض بداهة من منشئها المادى التاريخى ، وجرى التناقض فى كل حركة من حركات البشر على الأرض فى صورة صراع طبقى :

يقول ستالين (ص ٢٧ من الترجمة العربية لكتاب المادية الديالكتيكية) :

« إذا صح أن التطور يجرى بانبثاق التناقضات الداخلية وبالنزاع بين القوى المتضادة على أساس هذه التناقضات ، وأن غاية هذا النزاع هى قهر هذه التناقضات ، والتغلب عليها ، فمن الواضح أن اتصال البروليتاريا الطبقى هو حادث طبيعى تماما ولا مناص منه .

« وبالتالى لاينبغى إخفاء تناقضات النظام الرأسمالى بن ينبغى إبرازها

وعرضها ، ولا ينبغى خنق النضال الطبقى بل ينبغى القيام به إلى النهاية ».

« وإذن لأجل اجتناب الخطأ فى السياسة ينبغى اتباع سياسة بروليتارية طبقية حازمة ، لا سياسة إصلاحية تقول بالتناسق بين مصالح البروليتاريا ومصالح البرجوازية ، ولا سياسة تفاهمية تقول بإدماج « الرأسمالية فى الاشتراكية » وهذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية الماركسية لدى تطبيقها على الحياة الاجتماعية . على تاريخ المجتمع » .

إلى هنا كنا نتناول المادية الجدلية ، وقد أوردنا من كلامهم ما يبين وجهة نظرهم بالقدر الذى يكفى لتتبع المناقشة التى ستأتى فيما بعد .

والآن ننتقل إلى الكلام عن المادية التاريخية . والحقيقة أن هناك ارتباطا وثيقا بين المادية الجدلية والمادية التاريخية بحيث يصعب الفصل بينهما . وهم أنفسهم يقولون ذلك .

جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ١٢ من الترجمة العربية) :

« إن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تظهران كعلم واحد ، وكفلسفة متكاملة ، فلا المادية التاريخية معقولة بدون المادية الديالكتيكية ، ولا المادية الديالكتيكية ممكنة بدون المادية التاريخية ، فبماذا نفسر ذلك ؟

« أولا : بأنه لايمكن وضع نظرة مادية ديالكتيكية عن العالم ككل ، إذا لم يتوفر التفسير المادى للحياة الاجتماعية . إذا لم يكن قد اكتشف أن المجتمع هو أيضا شكل لحركة المادة وخاضع فى تطوره لقوانين موضوعية كقوانين الطبيعة المادية والديالكتيكية غير ممكنة بدون المادية التاريخية .

« ثانيا : لأن الاجابة الصحيحة عن المسألة الأساسية فى الفلسفة حول أولوية المادة وثانوية الوعى غير ممكنة بدورها بدون توضيح سبب وكيفية ظهور الوعى الانسانى والدور الذى لعبه فى ذلك التطبيق العملى الاجتماعى التاريخى للناس ، إذ أن الاجابة عن هذا السؤال تقدمها المادية التاريخية »

وجاء فى نفس الكتاب (ص ١٣ ـ ١٤ من الترجمة العربية) :

« إن تحريف المادية الديالكيتية يؤدى حتما إلى تشويه المادية التاريخية . إن المادية التاريخية لا تتوافق مع أية فلسفة أخرى غير المادية الديالكتيكية . إن الاعتراف بالمادية التاريخية مع نكران المادية الديالكتيكية ليس إلا زيفا خالصا وسفسطة مقززة « ١ »

« ١ » فى الترجمة كلمة « مقرفة » بدلا من « مقززة » وقد رأينا هذه أنسب !

ثانيا : المادية التاريخية

المادية التاريخية كما هو واضح من التسمية ، محاولة لتفسير التاريخ البشرى على الأسس المادية التى أوردناها فى شرح المادية الجدلية ، أى على أساس أن المادة أزلية أبدية، وأنها هى الخالقة لكل ما فى الكون من مخلوقات ؛ وأن الإنسان نتاج المادة ، والفكر نتاج المادة ؛ وأن قوانين المادة هى بذاتها التى تحكم حياة البشر الاجتماعية ، وأن الوضع المادى والاقتصادى هو الذى يكيف شكل الحياة البشرية فى أى وقت من أوقاتها وفى أى طور من أطوارها ؛ وأنه هو الأصل الذى تنبثق منه الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التى ينشئها البشر فى حياتهم ، وأنه يأتى دائما سابقا لها ولاتجىء هى سابقة له بحال من الأحوال ، لأن المادة تسبق الوعى ولايمكن للوعى أن يسبق المادة ؛ وأن الوضع المادى والاقتصادى فى تطور دائم ، ومن ثم فإن الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التى تنبثق عنه دائمة التطور كذلك ، بحكم ارتباطها بالوضع المادى والاقتصادى وانبثاقها عنه .

وربما يحق لنا أن نبدأ الحديث عن المادية التاريخية من نقطة صلتها بالداروينية ونظرية التطور ، لأن ذلك قد يلقى الضوء على بعض مفاهيمها .

قدم دارون تفسيرا معينا لتطور « الحياة » من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان ، قرر فيه جملة « مبادئ » تأثرت بها المادية الجدلية والمادية التاريخية ، كان من جملتها :

أن « الطبيعة » تخلق كل شىء ولاحد لقدرتها على الخلق .

وأن الطبيعة تخبط خبط عشواء ، أى أنه ليس لها مقصد معين من الخلق ولا غاية .

وأن الظروف المادية المحيطة بالكائن الحى هى التى تحكم حياته كما تحكم تطوره .

وأن الكائن الحى ليس حرا فى اختيار طريقة حياته ولا طريقة تطوره وإنما ذلك مفروض عليه من خارج كيانه من الظروف المادية المحيطة به .

وأن الإنسان ليس خلقا قائما بذاته إنما هو نهاية سلسلة التطور الحيوانى السابق لوجوده .

وأنه فى « تطوره » الأول الذى أوصله إلى حالته الراهنة كان محكوما بذات

الظروف المادية التى حكمت خط التطور السابق له .

وأنه لاوجود لشىء « ثابت » فى عالم الأحياء ، لأن قانون « التطور » هو الذى يحكم الحياة والأحياء . يحكمها من خارج كيانها ودون خضوع لاراداتها ، وبصورة حتمية .

ولعله قد اتضح الآن كم أخذت المادية الجدلية والمادية التاريخية من الداروينية ونظرية التطور.ولكن فلننظر فى أقوالهم هم لنرى ماذا يقولون فى هذا الشأن .

يقول كورنفورث (ص ٢١ من الترجمة العربية لكتاب « مدخل إلى المادية التاريخية ») :

« وتقدم المادية التاريخية أساسا للعلم الأجتماعى بنفس الطريقة التى تقدم بها نظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعى أساسا للعلم البيولوجى ، فأيا كان النوع الذى يدرس فإنه قد تطور عن طريق الانتقاء الطبيعى وهذا يحدد كل طبيعته . وبالمثل ، أيا كان المجتمع الذى يدرس فإنه أصبح ما هو عليه بتكيف علاقات الانتاج مع الإنتاج ، والأفكار والمؤسسات مع علاقات الإنتاج » .

وجاء فى كتاب أصول الفلسفة الماركسية (ج ١ ص ٣٧ من الترجمة العربية) :

« وكان للاكتشافات الثلاثة التالية أثر كبير فى ذلك :

١ ـ اكتشاف الخلية الحية التى تتطور عنها الأجسام المعقدة .

٢ ـ اكتشاف تحول الطاقة من حرارة وكهرباء ومغناطيس وطاقة كيميائية ، فهى صور مختلفة نوعيا لحقيقة مادية واحدة .

٣ ـ نظرية التحول عند دارون فلقد أظهرت هذه النظرية اعتمادا على الحفريات ، وعلم تربية الحيوان ، أن جميع الكائنات الحية (ومنها الإنسان) هى ثمرات التطور الطبيعى »

وجاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٦ من الترجمة العربية) :

« وبذلك أعد تطور العلم - وخصوصا الاكتشافات الثلاثة فى العلم الطبيعى : قانون حفظ الطاقة ، ونظرية التكوين الخلوى للكائنات الحية ونظرية التطور لداروين ـ المقدمات العلمية لانتصار النظرية المادية الجدلية عن العالم ، التى وضعها كارل ماركس وفردريك إنجلز »

وسيتناول حديثنا عن المادية التاريخية أمرين : التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة .

أولا : التفسير المادى للتاريخ :

من الطبيعى أن تكون الفلسفة التى يقوم عليها التفسير المادى للتاريخ فلسفة مادية بحتة ، سواء فى نظرتها إلى « الإنسان » الذى تؤرخ له أوحركة هذا الإنسان على الأرض خلال التاريخ ، والعوامل التى تؤثر فى هذه الحركة .

والحق أن التفسير المادى للتاريخ لا ينكر وجود « القيم » فى الحياة البشرية ولا يفسر الحياة طعاما وشرابا وملبسا ومسكنا وجنسا فقط .. لكن الحق إلى جانب ذلك أنه ينفى نفيا قاطعا ـ كما ورد من كلامهم فيما سبق ـ أن تكون هذه القيم ثابتة ، أو أن تكون قائمة بذاتها ، أو أن تكون سابقة فى وجودها على الأوضاع المادية والاقتصادية ، أو أن تكون فى أى وقت من الأوقات منشئة لأوضاع مادية واقتصادية لم تكن قائمة من قبل ..

تبدأ النظرية من أن الانتاج المادى هو أساس الحياة البشرية كلها وأساس التاريخ البشرى :

يقول ماركس (ص ٣٧ من الترجمة العربية لكتابه « الأيدلوجية الألمانية ») :

« وليس لنا بد مع الألمان المجردين عن أية مقدمات من أن نبدأ بتقرير المقدمة الأولى للوجود البشرى بكامله وبالتالى للتاريخ بأسره ، الا وهى المقدمة التى تنص على أنه لابد للبشر من أن يكونوا فى مركز يمكنهم من العيش ، كما يكون فى مقدورهم أن يصنعوا التاريخ . بيد أن الحياة تشتمل قبل كل شىء على المأكل والمشرب والمسكن والملبس وأشياء عديدة أخرى . وهكذا فإن العمل التاريخى هو إنتاج الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات . إنتاج الحياة المادية بالذات .. وبالفعل فإن هذا العمل عمل تاريخى . شرط أساسى للتاريخ بكامله . لابد فى اليوم الحاضر مثلما كانت الحال قبل آلاف السنين من تحقيقه يوما فيوما ، وساعة فساعة لمجرد الإبقاء على الحياة الإنسانية »

وقوى الإنتاج المادى من ثم هى أهم عنصر فى الحياة .. وهى المقياس الذى يقاس به كل شىء :

جاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٥١ من الترجمة العربية) :

« وهكذا فإن القوى المنتجة تعبر عن علاقات مادية بين المجتمع والطبيعة ، ومستوى تطور هذه القوى دليل على درجة سيطرة البشرية على قوى الطبيعة ، وبدوره يتحدد المستوى نفسه قبل كل شيء بأدوات العمل وتزويد الإنتاج بالطاقة وتنظيم التكنولوجيا العملية الإنتاجية وتطور العلم ، وكذلك بمستوى استخدام المنتجين المباشرين للقيم المادية للمنجزات العلمية » .

والعمل ـ العمل الذى يؤدى إلى الإنتاج المادى ـ هو محور الحياة ..

. يقول إنجلز « يقول الاقتصاديون إن العمل هو مصدر كل ثروة . وإنه لكذلك فعلا . مع الطبيعة التى تقدم له المادة التى يحولها إلى ثروة ، ولكنه أكثر من ذلك أيضا إلى ما لا نهاية . إنه الشرط الأساسى الأول لكل حياة بشرية . وإنه لكذلك إلى درجة ينبغى علينا معها ـ بمعنى ما ـ أن نقول « إن العمل قد خلق الانسان ذاته » (عن كتاب : نصوص مختارة ، فردريك إنجلز ص ١٢٣ من الترجمة العربية) .

وعلاقات الإنتاج هى التى تصور شكل الحياة البشرية فى أى طور من أطوارها .

جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ٦٠ من الترجمة العربية) :

« وبما أن أسلوب الانتاج هو الذى يحدد نمط حياة الناس فى هذا المجتمع أو ذاك فإن جميع ظواهر الحياة الأخرى تتعلق بأسلوب الإنتاج وتكون نابعة منه ومشروطة به » .

ويقول ماركس فى كتاب « بؤس الفلسفة » (ص ١١٢ ـ ١١٣ من الترجمة العربية) :

« ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الإنتاجية . ولدى تحقيقنا لقوى إنتاجية جديدة يغير الناس نوع الإنتاج ، وعند تغييرهم لنوع إنتاجهم ، وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم ، فإنهم يغيرون كل العلاقات الاجتماعية . إن الطاحونة التى تدار باليد تمثل لك مجتمعا يتحكم فيه السيد الإقطاعى ، وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعا تتحكم فيه الصناعة الرأسمالية .

« إن نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الاجتماعية لتطابق إنتاجهم المادى ، تراهم ينتجون أيضا المبادئ والأفكار واللوائح لكى تطابق علاقاتهم الاجتماعية ، وهكذا فإن هذه الأفكار وهذه اللوائح ليست أبدية كالعلاقات التى تعبر عنها . إنها إنتاج تاريخى وفترة انتقال » .

ويقول ستالين فى كتاب « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ٤٩ - ٥٠ من الترجمة العربية) :

« الخاصية الأولى للإنتاج أنه لايقف أبدا مدة معينة فهو دائما فى حالة تغير ونمو ، وعلاوة على ذلك فإن أسلوب الإنتاج يؤدى بصورة حتمية إلى تغير النظام الاجتماعى بأسره وتغير الأفكار الاجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية .

« إن المجتمع ذاته وأفكاره ونظرياته ، وآراءه ومؤسساته السياسية تتعلق من حيث الأساس بأسلوب الإنتاج فى المجتمع،أو - بعبارة أبسط - كل نمط من المعيشة يطابقه نمط من التفكير .

« ومعنى هذا أن تاريخ تطور المجتمع هو قبل كل شىء تاريخ تطور الانتاج وتاريخ أساليب الإنتاج التى تتعاقب خلال العصور . تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج بين الناس »

ويقول ماركس فى كتابه « الأيديولوجية الألمانية » (ج ١ ص ٣٩ من الترجمة العربية) :

« وهكذا فإنه من الجلى تماما مذ البداية أن ثمة رابطة مادية تجمع البشر بعضهم بعضا ، تتحدد بحاجتهم ونمط إنتاجهم ، وهى قديمة قدم البشر أنفسهم ، وإن هذه الرابطة لتتخذ على الدوام أشكالا جديدة ، وبذلك تمثل « تاريخا » حتى دون أن يوجد بعد أى هراء سياسى أو دينى يحقق - علاوة على ذلك - التماسك بين البشر » .

* * *

ينقسم التاريخ البشرى - بناء على القواعد السالفة الذكر - إلى خمسة أطوار رئيسية :

المشاعية الابتدائية ، والرق ، والإقطاع ، والراسمالية ، ثم الاشتراكية المهدة للشيوعية .

فبالنسبة للمشاعية الابتدائية :

جاء فى كتاب المادية التاريخية (ص ٢٢٥ من الترجمة العربية) :

« وهكذا فقد كان القطيع البدائى أول شكل انتقالى للمجتمع الذى حدث فيه تكوين الانسان . ولقد ظهر هذا القطيع عندما انفصل الإنسان عن عالم الحيوان وبدأ بإنتاج أدوات العمل ، وما زال باقيا (يقصد وظل باقيا) إلى أن تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجى البطىء » .

ويقول سيجال فى كتاب « لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ » (ص ٨ ـ ٩ من الترجمة العربية) :

« لقد كان هذا النظام المشاعى البدائى ضروريا للمجتمع الإنسانى فى تلك المرحلة من التطور . فلقد كان من المستحيل على المجتمع لو عاش افراده حياة منعزلة مبعثرة أن يخترع الأسلحة والأدوات البدائية وأن يحسنها فيما بعد . ولم يستطع الناس أن يحرزوا انتصاراتهم الأولى فى ميدان الكفاح ضد الطبيعة إلا بفضل حياتهم التعاونية . لقد كان اتحادهم فى بطن مشاعى هو قوتهم الرئيسية » .

ويقول (ص ١٥ من الترجمة العربية) :

« ولاتزال بقايا المشاعية البدائية موجودة حتى أيامنا هذه لدى عدد من الشعوب فى شكل مشاعية بدائية تملك الجماعات الزراعية فيها الأرض ملكا مشتركا ، وتوزع حصصا منها على أعضائها للتصرف فيها بصورة مؤقتة . وليس يمكن بعد هذا أن يوضع موضع الشك وجود المشاعية البدائية كنقطة بدء فى تطور الشعوب كلها .

ويقول (ص ٩ من الترجمة العربية) :

« لقد كان تطور مستوى قوى المجتمع المنتجة هو الذى يحدد ظروف النظام المشاعى البدائى . ومن الخطأ التصور أن الناس البدائيين هم الذين أوجدوا هذا النظام عن وعى منهم،فلقد تشكل وتطور بصورة طبيعية ودون علاقة بإرادة الناس ووعيهم »

ثم انحل هذا الطور وانتهى بصورة حتمية .

جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ١٦١ من الترجمة العربية) :

« ومع ظهور الإنتاج الفردى ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية والطابع الفردى لعملية الإنتاج ، هذا التناقض الذى يحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الإنتاج ، وهذه هى الأسباب الرئيسية التى أدت إلى القضاء على النظام البدائى كحتمية طبيعية »

وحين انحلت المشاعية البدائية بظهور الزراعة وجدت الطبقات ، ووجد صراع الطبقات ، الذى هو صراع على المصالح المادية :

يقول كورنفورث فى كتاب « مدخل إلى المادية التاريخية » (ص ٣٠ ـ ٣١ من الترجمة العربية) :

« إنما صار تاريخ الانسان فقط هو تاريخ الصراع الطبقى لتغير ظروف الإنتاج مع نشوء الزراعة ، ثم التغير الهائل فى المجتمعات الرأسمالية »

وجاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٦٢ من الترجمة العربية) :

« والمصالح الأساسية للفئات الاجتماعية والطبقات البشرية هى أولا وقبل كل شىء مصالح مادية اقتصادية تحدد فى نهاية الأمر المصالح السياسية والقانونية والأخلاقية والدينية والجمالية والعلمية والفلسفية وغيرها »

ويقول ماركس فى كتاب « الأيديولوجية الألمانية » (ص ٥٦ من الترجمة العربية) :

« إن أفكار الطبقة السائدة هى فى كل عصر الأفكار السائدة أيضا . يعنى أن الطبقة التى هى القوة المادية السائدة فى المجتمع هى فى الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة . إن الطبقة التى تتصرف بوسائل الإنتاج المادى تملك فى الوقت ذاته الإشراف على وسائل الإنتاج الفكرى،بحيث إن أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج الذهنى تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة »

من المشاعية البدائية انتقل الناس إلى الرق :

يقول إنجلز فى كتاب أنتى دوهرنج (ص ٢١٧ من الترجمة العربية) :

« وإن تطبيق العبودية فى الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الحين قد كان خطوة كبرى إلى الأمام ! »« ١ »

ذلك أنه من الحقائق الواقعة أن الإنسان قد انبثق من الحيوان ، وبالتالى فلم يكن له بد من استخدام وسائل بربرية تكاد أن تكون وحشية من أجل تخليص نفسه من البربرية » !« ٢ »

ونشأ الرق من منبعين أساسيين : الحرب والدَّين ذلك أن المدين الذى يعجز عن السداد كان يتحول إلى رقيق .

يقول ماركس : « كان الصراع الطبقى فى المجتمع القديم - وبالدرجة الأولى - صراعا بين الدائنين والمدينين ، وقد انتهى فى روما إلى زوال المدَين من طبقة العامة وتحوله إلى عبد (نقلا من كتاب لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ ص ١٧ من الترجمة العربية) .

---

١ ، ٢ ، التعجب من عندنا .

وفى مجتمع الرق ظهرت الدولة ونمت الثقافة وظهرت الفلسفة وتقدمت البشرية تقدما كبيرا يعزوه الماديون إلى الصراع الطبقى !

جاء فى كتاب المادية التاريخية (ص ١٦٣ من الترجمة العربية) :

« إن تطور الصراع الطبقى والمعارف النظرية أدى إلى ظهور الفلسفة ، وحدثت اختلافات مهمة على صعيد الدين ، الذى تحول تدريجيا إلى أداة روحية لاستعباد الجماهير ، وبهذا فإن انقسام المجتمع إلى طبقات يحدث انقلابا جذريا فى البنيان الفوقى وفى حياة المجتمع الروحية كلها ، وفى المجتمع العبودى بالذات ظهرت لأول مرة كل الأشكال الراهنة للوضع الاجتماعى » .

وكانت معاملة الرقيق فى أوروبا بالبشاعة التى يعرفها التاريخ . ولم تفلح ثورات العبيد فى تحسين أحوالهم ولا رفع الرق عنهم . ولكن لأسباب مادية واقتصادية بحتة بدأ عهد الرق ينهار .

يقول إنجلز فى كتاب « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ من الترجمة العربية) :

« لكن هذه العبودية المشرفة على الموت كانت لا تزال من القوة بحيث تجعل كل عمل من أعمال الإنتاج يبدو وكأنه عمل عبودى وضيع لا يليق بمقام الرومان الأحرار ...

« إن المسيحية ليست مسؤولة قط عن هذا الزوال التدريجى للعبودية القديمة ، إذ هى قد جنت من ثمار العبودية فى الإمبراطورية الرومانية خلال قرون من الزمن ، ولم تفعل فيما بعد شيئا لا لمنع المسيحيين من المتاجرة بالرقيق ـ سواء الألمان فى الشمال أو تجار البندقية على البحر الأبيض المتوسط ـ ولا لحظر التجارة بالرقيق الزنوج فى السنين الأخيرة . وإنما زالت العبودية لأنها لم تعد تدر ربحا قط . لكنها بزوالها خلفت وراءها لسعتها السامة وذلك بوسمها عمل الأحرار فى الإنتاج بميسم الضعة ، فكان ذلك بمثابة الزقاق المسدود الذى وجد العالم الرومانى نفسه فيه ، كانت العبودية مستحيلة من الناحية الاقتصادية وكان عمل الأحرار مستهجنا من الناحية الأخلاقية . لم يعد فى وسع الأول أن يظل أساس الانتاج الاجتماعى وكان الأخير لايزال غير قادر على أن يكون أساسا لهذا الانتاج ، لم يكن ينفع فى هذا الحال سوى ثورة كاملة » « ١ »

---

١ ـ لم يقل لنا كيف كانت هذه الثورة .

هذا من جهة .. ومن جهة أخرى كان اختراع المحراث الحديدى أهم تحول أدى إلى ظهور الاقطاع .

يقول سيجال فى كتابه « لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٢١ من الترجمة العربية) :

« كان نظام الرق شكلا اجتماعيا ضروريا من أشكال تطور القوى المنتجة فى مرحلة من مراحل التاريخ ولكن هذا التطور كان بدوره سببا لانحطاط هذا النظام »

جاء الاقطاع بصورته الأوروبية المعروفة .. وكانت الطبقتان المسيطرتان فيه هما طبقة كبار الملاك وطبقة رجال الدين ، وبقية الشعب مسخر لصالح كلتا الطبقتين .. وأخذ الاقطاع جولته التاريخية « الحتمية » حتى تطورت أدوات الإنتاج باختراع الآلة وتعقدت علاقات الإنتاج القائمة وصارت غير مناسبة للمرحلة الاقتصادية الجديدة .

جاء الإقطاع نتيجة ظروف مادية واقتصادية . فمن الناحية المادية كان اختراع المحراث الحديدى وتطور زراعة الأرض نتيجة إدخال أدوات جديدة اكثر صلاحية من أهم الأسباب التى أدت إلى ظهور الاقطاع ، ومن الناحية الاقتصادية كان لابد من تغيير علاقات الإنتاج بعد أن أصبح الرقيق ـ بحالته التى كان عليها ـ عاجزا عن الإنتاج،أو بعبارة أخرى عاجزا عن تلبية مصالح السيد الاقتصادية ،لكثرة تمرده وهربه نتيجة المعاملة البشعة التى كان يتلقاها من السيد أو وكيله .

وفى النظام الإقطاعى يملك السيد الأرض ولكن الفلاح الذى يعمل لحساب السيد يمكن أن يمتلك قطعة صغيرة من الأرض ـ بالقدر الذى يسمح به الإقطاعى ـ وله نصيب من الإنتاج ـ يحدده الاقطاعى كذلك ـ يعيش منه هو وأسرته .

ولكن نصيب الفلاح - فى مجموعه ـ كان أضأل من أن يوفر له الحياة الكريمة أو الحياة الصحية ، وكان هو وأسرته يعيشون فى حالة من الضنك الشديد ، وكثيرا ما كان الفلاحون يموتون بالمئات والألوف نتيجة الجوع أو الإصابة بالسل أو نتيجة الأوبئة الفتاكة .

وبدأ نضال الفلاحين ضد الاقطاعيين لرفع الظلم الفاحش الواقع عليهم ،

ولكنهم كانوا أضعف من أن ينالوا شيئا من الاقطاعيين المحصنين بقلاعهم المزودين بجيوش تحميهم ، كما أنه لم يكن للفلاحين تجمع ذو هدف محدد يخوض معركة منظمة ضد الاقطاعيين ، لذلك باءت ثوراتهم بالاخفاق . ولكن من خلال التطور المادى والإقتصادى أخذ الإقطاع ينهار لتحل محله الرأسمالية .

نشأت الرأسمالية (التى يسميها الشيوعيون البرجوازية لنشاتها فى المدينة Bourjois) نتيجة عدة عوامل أهمها اختراع الآله التى أخذت تحل بالتدريج محل الإنتاج اليدوى ، كما اتسعت الكشوف الجغرافيـة وزاد حجم التجارة الأوربية« ١ » ، كما أن ظاهرة العمل المأجور - أى تأجير العامل جهد يده من أجل الحصول على مطالب الحياة - كانت قد بدأت توجد فى المدن وإن كان حجمها فى بادئ الأمر لم يكن كافيا لتشغيل الحركة الصناعية الناشئة فقامت الثورة التى أدت إلى تحطيم الاقطاع .

يقول سيجال فى كتاب « لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ » (ص ٢٢ من الترجمة العربية) :

« وهكذا نرى أن الاقطاعية التى كانت متوافقة عند نشأتها مـع مستوى القوى المنتجة فى المجتمع صارت متناقضة مع القوى المنتجة المتنامية ، وصار إلغاؤها ضرورة تاريخية » .

وفى ظل الرأسمالية حدث تقدم عظيم فى مجالات كثيرة منها المجال العلمى والمجال التكنولوجى لأن الرأسمـالية تسعى دائمـا لزيادة الإنتـاج من أجل الربح . كما نشأ تنظيم جديد للعمل يتعاون فيه مجموعة كبيرة من الناس فى العمل الواحد بدلا من العمل الفردى . ونشأ تحسين للطرق والمواصلات من أجل تصريف الانتاج الصناعى فى داخل البلاد وخارجها . كما كان الاستعمار وسيلة للحصول على موارد رخيصة ومجالا لتصريف فائض الإنتاج . ونشأت

« ١ » نحن هنا - كما سبقت الاشارة - نعرض الأفكار ولا نناقشها ، ولكن لابد لنا هنا من تعليق بمناسبة الكشوف الجغرافية وزيادة حجم التجارة الأوربية يغفله المؤرخون الأوربيون عامدين ، ويستغل إغفالهم ذلك كل الذين يحبون طمس العنصر الدينى وآثاره فى التاريخ البشرى . فان الحقيقة أن الحروب الصليبية الحديثة التى بدأت بعد طرد المسيحيين للمسلمين من الأندلس ، وملاحقتهم لمحاولة القضاء عليهم فيما وراء الأندلس ، كانت هى السبب الحقيقى للكشوف الجغرافية ، وأشهر مثال على ذلك أن فاسكوداجاما - الذى كشف لأوربا طريق رأس الرجاء الصالح - قال عند وصوله إلى جزر الهند الشرقية « الآن طوقنا رقبة الاسلام ولم يبق إلا جذب الحبل ليختنق فيموت » وقد كان الاستعمار الصليبى لبلاد الاسلام أهم العوامل فى تنشيط التجارة الأوربية وإتاحة الفرصة للرأسمالية النامية لتستكمل نموها الظالم الجبار .

« الأمم » فى أوربا وحل الحكم الدستورى محل الحكم الملكى المطلق . ولكن هذا كله كان على حساب طبقة العمال المضطهدة ، التى تبذل الجهد الحقيقى فى عملية الإنتاج ولا تنال إلا أقل القليل .

يقول إنجلز فى كتاب « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (ص ٢٧٩ من الترجمة العربية) :

« ولما كان استغلال طبقة من قبل طبقة أخرى هو أساس الحضارة ، فإن نموها كله يسير فى تناقض مستمر . كل خطوة إلى الأمام فى الإنتاج هى فى الوقت ذاته خطوة إلى الوراء فى أحوال الطبقة المضطهدة أى الأكثرية العظمى . كل ماهو خير للبعض لابد أن يكون شرا للاخرين . كل تحرر جديد لاحدى الطبقات يعنى دائما اضطهادا جديدا لطبقة أخرى . وأعظم دليل على هذا نجده فى إدخال الآلة (يقصد الرأسمالية) التى يعرف العالم بأسره اثارها الآن »

ويقول كور نفورث فى كتاب « مدخل إلى المادية التاريخية » (ج ١ - ص ٧٣ من الترجمة العربية) :

« والسمة الأساسية لزيادة قوى الإنتاج التى نشأت فى إطار الرأسمالية هى تشريك العمل (يقصد جعله مشتركا بدلا من أن يكون فرديا) فلقد حلت محل الإنتاج الفردى الصغير قوة العمل الاجتماعى الذى يتعاون الناس فيه معا فى منشآت إنتاجية كبيرة تستخدم آلات تعمل بالطاقة . لكن هذه السمة تعوقها علاقات الإنتاج الرأسمالية التى تجعل التاريخ ملكا للرأسماليين ، وتجبر الإنتاج الاجتماعى على أن يخدم الربح الخاص »

وجاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ١٧٤ من الترجمة العربية) :

« إن تغيير علاقات الإنتاج الإقطاعية إلى علاقات رأسمالية يؤدى إلى إعادة تركيب البناء الفوقى الذى يؤدى بدوره مع ملاءمته للقاعدة الجديدة إلى تغيير وجه المجتمع كله » .

وجاء فيه ايضا (ص ٢٤١ - ٢٤٢ من الترجمة العربية) :

« إن عصر الرأسمالية الصاعدة هو عصر نشوء الأمم . والماركسيون يذهبون إلى أن الأمة لم توجد قبل الرأسمالية لأن الشروط الاقتصادية اللازمة

لنشوئها كانت لاتزال معدومة» ١ » إن تكوّن الشعب من اختلاط مجموعات جغرافية مختلفة اتحدت فى الأرض واللغة والثقافة كان المنطلق لتكوين الأمة ، مع أنه ليس ضروريا أن تتألف الأمة من شعب واحد ، فكل الأمم الحديثة نشأت وتنشأ نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة . وهكذا فإن الأمة كشكل لتجمع الناس نشأت من متطلبات الإنتاج الرأسمالى وتنشأ على أساسه ، وهى تنشأ لأنها ضرورية من أجل تطور الإنتاج الرأسمالى الضخم »« ٢ »

وتأخذ الرأسمالية دورها ثم يجىء التطور الحتمى ..

يقول سيجال فى كتابه « لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ » (ص ٣٦ – ٣٧ من الترجمة العربية) :

« غير أن الرأسمالية – عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة – تبدو يوما فيوما أقل قدرة على السيطرة عليها . وأجدى برهان على ذلك هو تلك الأزمات التى تأتى على نحو دورى فتزعزع النظام الرأسمالى وتدمر جزءا من القوى المنتجة . وهكذا تصبح الرأسمالية أكثر فأكثر عائقا فى طريق تطور هذه القوى التى ولدتها هى ذاتها ، ومن هنا يتبين أن إلغاء الرأسمالية بالطرق الثورية واستبدالها بالشيوعية (يقصد استبدال الشيوعية بها لأن الباء تدخل على المتروك) أى بمجتمع دون طبقات تكون وسائل الإنتاج فيه ملكا مشتركا يصبح ضرورة تاريخية » .

والسبب الرئيسى فى ذلك هو التناقض المتزايد بين مصالح الرأسمالية ومصالح العمال (طبقة البروليتاريا) الذى يؤدى فى النهاية إلى ثورة طبقة البروليتاريا على طبقة الرأسماليين لنزع السلطة منها وإنشاء مجتمع بلا طبقات ، وتوزيع الإنتاج على الجميع دون استغلال طبقة لطبقة .

ولايتم ذلك دفعة واحدة . فهناك مرحلة انتقالية ينتقل فيها الناس من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، ثم إن المرحلة الاشتراكية تمهد للمرحلة الأخيرة وهى الشيوعية حيث يتحقق مبدأ « من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته » .

تنقضى المرحلة الأولى فى الكفاح لإزالة الطبقة المستغلة والقضاء عليها . حتى

« ١ ، ٢ » نقول دون مناقشة للفكرة – ولكن للتذكرة فقط – إن هذا قد يكون صادقا على نشأة الأمم فى أوربا مع الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر الميلادى . ولكن قبل ذلك بأحد عشر قرنا برزت إلى الوجود أمة قال عنها خالقها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وانظر المناقشة فى مكانها فيما بعد .

يمكن تأصيل المبادئ الجديدة المبنية غلى إزالة الطبقات وتحويل الملكية من ملكية فردية إلى ملكية جماعية ، والعمل على زيادة الإنتاج لكى تتحقق المرحلة الأخيرة التى لايمكن الوصول إليها إلا بزيادة هائلة فى الإنتاج تمكن كل إنسان أن يأخذ بحسب حاجته فى الوقت الذى يعمل حسب طاقته .

ثانيا : التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة :

يقصد بالتفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة أمران فى آن واحد . الأول : أنها ليست « قيما » قائمة بذاتها ، ولايمكن النظر إليها على هذا النحو ، ومن ثم فليس لها ثبات ولا قدسية . والثانى : أنها فى ذات الوقت انعكاس للأحوال المادية والاقتصادية القائمة فى أى وقت من الأوقات . وكل وضع مادى أو اقتصادى قائم هو الذى ينشئ « الأفكار » المتعلقة بالدين والأخلاق والأسرة ، وتتغير هذه الأفكار تغيرا حتميا كلما تغير الوضع المادى أو الاقتصادى . وإليك أقوالهم فى كل أمر من هذه الأمور الثلاثة :

١ - الدين :

يقول إنجلز (ص ٢٨١ من الترجمة العربية لكتاب أنتى دوهرنج) :

« ومهما يكن من شىء فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية » (يقصد قوى خارقة) .

ويقول كذلك (ص ٢٨٢ من نفس الكتاب) :

« من الأزمنة الموغلة فى القدم - إذ وصل الفكر بالناس وهم بعد فى جهل تام ببنياتهم الجسدية الخاصة ، وتحت تأثير أحلامهم ، إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسادهم ذاتها ، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت - منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكارا عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجى .

« وعلى هذا النحو تماما - عن طريق تشخيص القوى الطبيعية - ولدت الآلهة الأولى التى اتخذت خلال التطور اللاحق شكلا غير أرضى أكثر فأكثر ، إلى أن حدث أخيرا عملية تجريد .. فنشأ على نحو طبيعى خلال التطور العقلى أن تولدت فى عقل الناس من الآلهة المتعددين ذوى السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض ، فكرة الاله الواحد المنفرد فى الديانات التوحيدية »

ويستشهد مؤلفو كتاب « أصول الفلسفة الماركسية (ج ١ . ص ٢٩٦ - ٢٩٧ من الترجمة العربية) بهذه القولة لإنجلز :

« إن الدين يولد من نظريات الإنسان المحدودة ، وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريبا أمام الطبيعة المعادية ، التى كانوا لايفهمونها ، وهى محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى بالمجتمع الذى لايفهمونه ، والذى كان يبدو لهم أنه تعبير عن إرادة سامية . وهكذا كانت الآلهة - وهى الكائنات المهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع - انعكاسا ذاتيا لعجز الناس الموضوعى أمام الطبيعة والمجتمع ، وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الوهمى : الاعتقاد بوجود آلهة متعددة ، ثم الاعتقاد بوجود إله واحد » .

وجاء فى كتاب « نصوص مختارة ، فردريك إنجلز » (جمع جان كانابا ، ترجمة وصفى البنى ، ص ١٧٧ - ١٧٨ من الترجمة العربية) :

« أما المجالات الأيدلوجية التى تحوم أعلى فى الفضاء كالدين والفلسفة .. الخ ، فإنها مؤلفة من بقية - تعود إلى ماقبل التاريخ وقد وجدها العهد التاريخى أمامه فالتقطها - لما نسميه اليوم غباء . إن هذه التصورات المختلفة الخاطئة عن الطبيعة ، وعن تكوين الإنسان ذاته ، وعن الأرواح ، وعن القوى السحرية ، ليس لها فى الغالب إلا أساس اقتصادى سلبى ، فالتطور الاقتصادى الضعيف لعهد ماقبل التاريخ تكون فيه كتكملة - ولكن كذلك على نحو جزئى كشرط أو حتى كسبب - تصورات خاطئة عن الطبيعة » .

هذا عن نشأة الدين (أى فى فترة الشيوعية البدائية) أما عن تطوره نتيجة تغير الأوضاع المادية والاقتصادية فإنه فى عهد الرق والإقطاع استغل لتخدير الكادحين حتى لايشعروا بالظلم الواقع عليهم ، ولتمنيتهم بنعيم الجنة تعويضا عن عذاب الدنيا .

جاء فى كتاب أصول الفلسفة الماركسية (ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ من الترجمة العربية) :

« لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق ، ولذلك وجد رقيق فى أوربا فى العصر الوسيط .. ولقد علمت الكنيسة الأرقاء أن يطيعوا سيدهم . واضطرت الأسياد المحاربين حقا إلى احترام « هدنة الله » وهددتهم بالنار الأبدية ، ولكنها بهذا الإجراء قد أنقذت قبل كل شىء المزروعات الضرورية لحياة المجتمع ، كما

حفظت الإنتاج وأمنت تفشى المجاعة واندلاع نار الثورة . وهكذا تحمى فى النهاية الإقطاعية ضد تصرفات الإقطاعيين المغالية» [١]

ويقول موريس كورنفورث (ص ١١٧ - ١١٨ من الترجمة العربية لكتابه : « مدخل إلى المادية التاريخية ») :

« وفى أوج الإقطاع فى أوربا الغربية كانت للكنيسة الكاثوليكية مكانة هائلة ، وسادت العقيدة الكاثوليكية الفلسفة والأدب والفنون ، ولقيت هذه العقيدة مساندة السلطة الزمنية - مساندة الحكام الإقطاعيين ودولهم والقوانين - ولايمكن تفسير الحماس القاسى الذى كانت الكنيسة تلاحق به الهراطقة وتلقى فيه مساندة الحكام بمجرد الهوس الدينى فلماذا وجد هذا الهوس ؟ لقد استقرت العقيدة الكاثوليكية كجزء أساسى فى النظام الاجتماعى وأحست الكنيسة عن حق - كمالك كبير للأرض إلى جانب كبار ملاك الأرض الآخرين - بخطر التمزق الاجتماعى الكامن خلف كل هرطقة »

ويقول إنجلز عن الحروب الدينية التى سادت فى العصور الوسطى (ص ١٦٩ - ١٧٠ من الترجمة العربية لكتاب المادية التاريخية) :

« إن مايسمى بالحروب الدينية .. كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية ، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما .. ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية ، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف شعار دينى ، فلم يبدل هذا شيئا من الأمر ، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام » .

أما فى عصر الرأسمالية فقد ضعف الدين فى أوربا ، وهذا تفسيرهم لهذه الظاهرة :

يقول جورج سول فى كتاب « المذاهب الاقتصادية الكبرى » (ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ص ٤٩ - ٥١ من الترجمة العربية) :

« فإذا كانت المصادر القديمة قد أخطأت فى نظراتها إلى العالم الطبيعى أما كانت كذلك مخطئة فى نظراتها إلى السلوك البشرى ؟ أصبح كل شىء موضع التساؤل والشك ، وعلى ذلك سمى العلم فلسفة ، ولم يعد هناك تمييز بين

---

[١] « يفهم من هذا النص ان الكنيسة قامت بدور مزدوج : إخضاع الرقيق للسادة من جهة ، ومنع السادة من إساءة معاملة الرقيق من جهة أخرى . لكن الغالب فى كلام الشيوعيين أن يؤكدوا الدور الأول ولا يشيروا إلى الدور الآخر . وعلى أى حال فقد ربط النص عملية تعميق الدين فى النفوس بأسباب وغايات اقتصادية .

الميادين التى عنى كل منهما بفحصها ، وأخذ الكتاب والمتفلسفون يعيدون البحث فى النظم البشرية تماما كما كانوا يفعلون بالنسبة إلى الأشياء غير البشرية . وهم فى تصرفهم هذا كانوا يسلمون بأن الإنسان جزء من الطبيعة وليس كائنا منفصلا عن بقية المخلوقات أوجدته العناية الإلهية وتولت رعايته .

« وأصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والأسباب بالنسبة إلى السلوك البشرى – سواء أكان مرغوبا فيها أم غير مرغوب – عن طريق قوانين الطبيعة ، بدلا من البحث عنها فى إرادة الله كما قالت الكتب المقدسة أو المذاهب الكنسية . ومعنى هذا – بتعبير آخر – أن علينا أن نسترشد فى أعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى .

« وصار لزاما على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه فى الطبيعة . أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان – وإن لم يكن فى الواقع كما هو أغلبهم – فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها ، وليس بوسيلة مباشرة ! وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شىء له وجود فحسب ، وإنما هو شىء ينبغى أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلا على نقص التقوى والأخلاق » .

ويقول كورنفورث (ج ٢ ، ص ١٠٧ من الترجمة العربية لكتاب أصول الفلسفة الماركسية) :

« ومع ظهور البرجوازية برزت أفكار دينية وفلسفية جديدة . ففى مجال الدين بدأ التأكيد على ضمير الفرد وعلاقة الفرد المباشرة بالله ، ودعا الفلاسفة إلى سيادة العلم والعقل ، ومن هذه الزاوية أخضعوا الأفكار الاقطاعية للنقد المدمر ، ودرسوا من جديد أسس المعرفة ، وحاولوا أن يبينوا كيف يمكن توسيع المعرفة ووضع الإنسانية فى طريق التقدم ، وكانوا فى ذلك يخدمون البرجوازية الجديدة فى التخلص من الإقطاع ودعم الراسمالية » .

ولكن البرجوازية أحست بأن نبذها للدين خطر عليها فعادت إلى احتضان الدين وتسخيره لمصالحها .

يقول كورنفورث (ج ٢، ص ١٠٧ – ١٠٨ من الترجمة العربية) :

« ولهذا رأينا البرجوازية حينما شعرت بالتهديد ، أعادت الدين عن قصد وتبنته – بعد أن سخرته لخدمة حاجاتها – فقوته ودعمته وجعلته جزءا

لايتجزأ من البناء الفوقى الرأسمالى ، ثم أعلنت أن التعليم الدينى والتعليم العلمانى يتمم كل منهما الآخر »« ١ »

أما الشيوعية فموقفها من الدين واضح .

جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ٨٠ من الترجمة العربية) :

« إن الدين لايتولد من القاعدة فى الظروف الاشتراكية ، وإنما يوجد كجزء من مخلفات القديم ، كبقية من البنيان الفوقى للتشكيلات السابقة ، سوف يتم القضاء عليها فى عملية بناء الشيوعية ، ويتضمن البرنامج الجديد للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى تأكيدا على ضرورة استخدام مختلف وسائل التأثير الفكرى للقضاء على الخرافات الدينية ، ومن أجل نشر تربية علمية » .

وجاء فى كتاب « أصول الفلسفة الماركسية » (ج ١ ص ٢٩٧ من الترجمة العربية) :

« ولهذا كان الفلاح فى روسيا القديمة - وقد أرهقه الفقر وفقد كل أمل فى المستقبل - يستسلم للإرادة الإلهية . ولقد جاءت الثورة الاشتراكية فوضعت فى يد المجتمع السيطرة على قوى الإنتاج ، ومكنته فى نفس الوقت من إدارة المجتمع بصورة علمية ، كما زادت سيطرته على الطبيعة ، فوجدت عندئذ الظروف الموضوعية لتنمحى من وعى الناس الأفكار الدينية التى ولدتها ظروف موضوعية أخرى »

« واخيرا يقول ماركس قولته الشهيرة : « الدين أفيون الشعوب » .

٢ - الأخلاق :

يقول إنجلز (ص ١١٤ - ١١٥ من الترجمة العربية لكتابه أنتى دوهرنج) :

« وهكذا فإننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية ، نهائية ، وثابتة أبدا ، بحجة أن للعالم الأخلاقى أيضا مبادئه الدائمة التى تنهض فوق التاريخ وفوق الفوارق بين الأمم .. إننا ننادى على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت

« ١ » قد يكون هذا حقا بالنسبة « للتخطيط » الرأسمالى ، ولكننا لانرى له أثرا واقعيا فى المجتمع الغربى المتحلل .

حتى هذا التاريخ ، فى آخر تحليل ، نتاجا لأوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة فى زمنها » .

ويقول (ص ١١٥) :

« ومادام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقية ، فإن الأخلاق كانت على الدوام أخلاقا طبقية ، فهى إما أن تبرر سلطة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، وإما أن تمثل – حالما تحوز الطبقة المضطهدة مايكفى من القوة – التمرد على تلك العقيدة ، ومصالح المضطهدين المقبلة فى الوقت نفسه »

وفى مجال التطور الأخلاقى المرتبط بتطور الأوضاع الاقتصادية تجىء مثل هذه الأقوال :

جاء فى كتاب « النظرية الماركسية اللينينية : فى المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » تأليف ايرزرين ورفيقه (ترجمة خيرى الضامن ، ص ٤٣٩ من الترجمة العربية) :

« لقد ولدت علاقات الإنتاج الجماعية فى النظام المشاعى البدائى عادات وتقاليد جماعية وأخلاقا جماعية عند الناس البدائيين ، وعندما واجه الناس فى مجرى تطور القوى المنتجة علاقات أصبح فيها التمتع الشخصى ببعض الأشياء أكثر سهولة لعملية الإنتاج ، تغيرت آراء الناس أيضا ، وأصبحت الملكية الشخصية لبعض الأشياء .. وهى الملكية التى كانت تعتبر فى المراحل السابقة لا أخلاقية ، أو غير طبيعية وغير معتادة على أقل تقدير ، أمرا لا ضير فيه ، ولايتعارض مع المصلحة العامة »

وجاء فى كتاب المادية التاريخية (ص ٤٥٧ من الترجمة العربية) :

« إن أخلاق مجتمع عهد الرق هى أول شكل للأخلاق الطبقية ، فقد كانت أخلاق مالكى الأرقاء هى السائدة فى ذلك المجتمع ، وهى إذ نشأت على أساس العلاقات الاقتصادية للنظام الرقى ، كانت تعكس العلاقات القائمة بين الأرقاء ومالكيهم بالدرجة الأولى . إن الخاصية المميزة لهذه الأخلاق هى أنها كانت لاتعترف بالعلاقات الإنسانية إلا بين الأحرار من الناس . لقد كان الرقيق خارج الأخلاق ، وهو سلعة وشىء ، وأداة ناطقة .. ولهذا فقد كانت الأخلاق تسمح بظلمه وجلده وقتله ، ولم تكن تلك المعاملة الوحشية للرقيق لتوقظ أى « تأنيب ضمير » لدى مالكه . وكانت الأخلاق تبررها ، لكن هذا التبرير لم يكن إلا

ضرورة اقتصادية املتها العلاقات الرقية لذلك العصر« ١ »

وجاء فى نفس الكتاب (ص ٤٥٧ - ٤٥٨ من الترجمة العربية) :

« ومع الانتقال إلى الإقطاعية صارت الأخلاق الإقطاعية هى السائدة ، فهى لاتنظر إلى القن كشىء ، وإنما كإنسان من الدرك الأسفل (العظم الأسود) بينما كانت تنظر إلى ممثلى الطبقة السائدة كبشر من الصنف الممتاز (العظم الأبيض) وإلى جانب هذا فقد كانت الأخلاق الإقطاعية تخفى ظلم الإقطاعيين الوحشى للفلاحين وتقنّع الشكل الإقطاعى للاستغلال . ولقد كانت تصور بنفاق كبير علاقة السيد بفلاحيه كعلاقة الأب ببنيه ، يوجههم ويرعاهم ويتحمل المسئولية عنهم .

« إن دين المجتمع الإقطاعى قام بتفسير الأخلاق السائدة وبوضع الأسس لها ، إذ صور مطالبها وحدودها التى تعبر فى الواقع عن مصالح المستغلين كأوامر إلهية . والأخلاق الإقطاعية التى ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة السوداء » ٢ »

أما فى ظل الرأسمالية فقد حدث تقدم ظاهرى يخفى المضمون الحقيقى للأخلاق الطبقية الاستغلالية .

جاء فى نفس الكتاب (ص ٤٥٨ - ٤٥٩ من الترجمة العربية) :

« ومع هذا فقد أحرز التقدم الاجتماعى خطوة إلى الأمام على صعيد الأخلاق ، فالأيديولوجيون البرجوازيون إذ يناضلون ضد الأيديولوجية والأخلاق الإقطاعيتين ، ناضلوا فى سبيل حرية الفكر ، وحرية النشاط من أجل تحرير الفرد من كل القيود الإقطاعية الممكنة . ولكنه مع انتصار الرأسمالية يتكشف المضمون الحقيقى لأفكار الحرية والمساواة والإنسانية البرجوازية . فالمساواة البرجوازية شكلية ، وهى تخفى تبعية العامل للرأسمالى ، والاستغلال الشديد الوطأة للمنتج المباشر . المقيد اقتصاديا من قبل الرأسماليين بقيود أقوى من أية قيود حديدية أخرى . إن الحرية البرجوازية هى تمتع الرأسماليين

« ١ » هذا الكلام صادق ولاشك . ومع أننا هنا فى مجال العرض لافى مجال المناقشة فاننا نشير فقط مجرد إشاره ـ ضرورية فى هذا الموضع ـ إلى أن الأخلاق التى يتحدث عنها الماديون هذا الحديث هى الأخلاق الجاهلية أى غير المستمدة من المصدر الربانى . وهذه يصدق عليها مايقال عنها فى الغالب . ولكنهم فى كلامهم لايفرقون بين الأخلاق الجاهلية والأخلاق الربانية .

« ٢ » هذا أيضا صحيح . ولكننا نشير فقط إلى أن « الدين » الذى ارتكزت عليه الأخلاق الاقطاعية لم يكن هو الدين المنزل من عند الله . كما سبق بيان ذلك فى التمهيد الأول من هذا الكتاب . إنما كان دينا جاهليا من صنع الكنيسة .

بحرية نشاط المؤسسة ، وفى الاستيلاء على عمل الآخرين . وهى بالنسبة للبروليتارى بيع قوة عمله أو الموت جوعا . والإنسانية البرجوازيةُ ايضا هى إنسانية مجردة . فالرأسمالية فى الواقع لاتخلق الشروط الواقعية لتطور وازدهار الشخصية . وأكثر من ذلك فهى تحول كرامة الإنسان إلى قيمة تبادلية ، والعلاقات بين الناس إلى علاقات نقدية ، قاضية على أى نوع من الصلات بين الناس إلا صلة المصلحة المكشوفة ، صلة الدفع الخالى من العلاقات الإنسانية .

« إن مبدأ الفردية هو السائد فى سلوك البرجوازى إلا انه ليس من مصلحة البرجوازية أن تعلن عن مصالحها الجشعة بصورة سافرة ومكشوفة . إن البرجوازى يسعى لتبرير أنانيته وفرديته فى الوعى الأخلاقى ، إذ يصور السعى لبلوغ أهدافه الجشعة كاهتمام بالمصلحة العامة . وهنا تتجلى الفردية الحيوانية « كحرية الفرد » ويتجلى استعمار العمال « كانقاذ للمحرومين من الجوع » و« كتقديم الخبز للجائعين » ويتجلى إنتاج السلع من أجل الحصول على الأرباح « كتأمين المواد الضرورية للمجتمع » ، ويتبدى استعباد الشعوب الأخرى كعملية « تمدين » لها .

« ولهذا فإن مايمز الأخلاق البرجوازية هو طابعها المنافق عندما تتقنع شريعة الغاب فى عالم الملكية الخاصة بستار من تعاليم الأيدلوجيين البرجوازيين »« ١ »

وأما أخلاق الشيوعية فلندعهم هم يصفونها بأقلامهم .

جاء فى نفس الكتاب (ص ٤٧١ - ٤٧٢ من الترجمة العربية) :

« إن الماركسية تنتقد دونما تحفظ محاولات علماء الاجتماع البرجوازيين ، والبرجوازيين الصغار ، لجعل الاشتراكية قائمة على « أساس أخلاقى » أى بناء نظرية الاشتراكية على أساس المبادئ الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة والحق المطلق وغيرهما ، دون أن ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى . وبهذا المعنى فى الواقع ليس فى الماركسية مثقال ذرة من الأخلاق كما يقول لينين .

« إن الظلم وغيره من وجهة النظر الماركسية ليس أساسيا وإنما هو نتيجة

---

١ - هذا ايضا صحيح . وواضح - كما أشرنا فى فصل « الديمقراطية » - أن الرأسمالية نظام جاهل بحت

للرأسمالية . والاشتراكية لاتحتاج إلى أساس أخلاقى . وإنما إلى أساس علمى » ..

وجاء فيه أيضا (ص ٤٦٥ - ٤٧٦) :

«إن أهم مبادئ الأخلاق الشيوعية هى العلاقة الشيوعية نحو العمل ، والاهتمام برعاية وزيادة الأموال الاجتماعية . وفى العلاقة نحو العمل بالذات وقبل كل شىء ، يتجلى الإطار الروحى الجديد للناس الذين تربوا فى المجتمع الاشتراكى . وتتلاءم مع الأخلاق الشيوعية تلك العلاقة الشريفة الطيبة نحو العمل . العلاقة نحو العمل كإبداع وكأسمى واجب للفرد تجاه المجتمع .

« إن الأخلاق الشيوعية تدين المهملين والمتقاعسين والطفيليين . إن إرادة العيش على حساب الآخرين تتناقض مع أساس المجتمع الاشتراكى ، ومع أخلاقه » .

ومن ناحية أخرى يقول إنجلز :

« إن الأخلاق التى نؤمن بها هى كل عمل يؤدى إلى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للأخلاق المعمول بها »« ١ »

ويقول لينين :

« يجب على المناضل الشيوعى الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل . فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية »« ٢ » .

ويقول أيضا :

« إذا لم يكن المناضل الشيوعى قادرا على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقا للظروف مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع فإنه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا »« ٣ »

٣ - الأسرة :

لايختلف تفسيرهم للأسرة عن تفسيرهم للدين والأخلاق من حيث إنها انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية ، ومن حيث إنها متطورة على الدوام ، وليست « قيمة » ثابتة ولاقائمة بذاتها .

« ١ ، ٢ » عن كتاب « اشتراكيتهم وإسلامنا » تاليف بشير العوف ص ٣٦ - ٣٧ .

« ٣ » المصدر السابق (ص ٣٧)

يقول جان فريفيل فى كتاب « المرأة والاشتراكية » ترجمة جورج طرابيشى (ص ١٧ من الترجمة العربية) :

« لاتشكل الأسرة كيانا اجتماعيا خالدا ، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون ، وهذا التطور يتحدد فى التحليل الأخير بالعامل الاقتصادى »

ثم يرسمون خطا تطوريا للأسرة يعتمد فى مراحله الأولى على ما اكتشف من أحوال القبائل المتأخرة فى مختلف قارات الأرض ، أو مايتصورونه من أحوالها فى بعض الأحيان (كحديثهم عن أسرة الجيل) .

ويقسمون أطوار الأسرة إلى : أسرة الجيل ، وأسرة الشركاء ، والأسرة الزوجية والأسرة الوحدانية .

فأما أسرة الجيل (التى يتصورونها تصورا) فقد كانت العلاقات الجنسية مباحة فيها بين جميع أبناء الجيل الواحد أى بين الاخوة والأخوات ، ومحرمة فى مادون ذلك أى بين جيل الآباء وجيل الأبناء .

يقول إنجلز فى كتاب « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (ترجمة اديب يوسف ص ٥٦ - ٥٧ من الترجمة العربية) :

« فى هذه المرحلة (أسرة الجيل) تصنف المجموعات الزواجية تبعا للأجيال ، جميع الأجداد والجدات ضمن حدود الأسرة هم أزواج وزوجات بالتبادل ، وكذلك الأمر فى أولادهم : الآباء والأمهات ، كما أن اولاد هؤلاء يؤلفون هم أيضا حلقة ثالثة من الأزواج والزوجات المشتركين . ويؤلف أولاد هؤلاء أعنى أولاد الأحفاد للأجداد والجدات حلقة رابعة ، وهكذا : فى هذا الشكل من الأسرة يحرم السلف والخلف فقط - الآباء والأولاد - من حقوق وواجبات زواج أحدهم بالآخر .

« إن أسرة الجيل قد انقرضت وحتى اخشن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لاتمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت عنها »« ١ »

ويقول (ص ٥٣ - ٥٤ من الترجمة العربية) :

« ولئن كان ثمة أمر أكيد فهو أن الغيرة عاطفة نشأت فى عهد متأخر نسبيا ، وهذا يصدق على مفهوم « المحرم » لأن الأخ والأخت لم يكونا وحدهما يعيشان فى الأصل كما يعيش الزوج والزوجة ، بل إن العلاقات الجنسية بين الآباء

---

١ . كيف نتثبت إذن ؟!

والأولاد مسموح بها أيضا لدى شعوب عديدة حتى اليوم» ١ «وقبل اختراع المحارم (لأن المحارم اختراع حقا ، بل اختراع ثمين جدا) لم يكن الوصال الجنسى بين الآباء والأبناء ليثير من الاشمئزاز أكثر مما يثيره الوصال بين اشخاص من أجيال مختلفة - كذلك الذى يحدث فعلا اليوم حتى فى أكثر البلاد تظاهرا بالتزمت - من دون أن يثير النفرة الشديدة »

ثم يقول (ص ٥٨ ومابعدها) :

« إذا كان التقدم الأول يتألف من حرمان الآباء والأولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة ، فإن التقدم الثانى يتألف من حرمان الاخوة والأخوات منها .. وقد حدثت هذه الخطوة بالتدريج ، مبتدئة فى أقرب الاحتمالات» ٢ « بحرمان الاخوة والأخوات الطبيعيين (أى من جهة الأم) من العلاقات الجنسية ، وذلك فى حالات متفردة فى أول الأمر ، ثم أصبح حرمانهم بالتدريج هو القاعدة ، وتنتهى هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الاخوة والأخوات الأباعد »

« فى جميع أشكال الأسرة الجماعية لايعرف من هو والد الولد معرفة أكيدة ، اما والدته فتعرف معرفة أكيدة .

« وفى اغلبية الحالات يبدو» ٣ «أن مؤسسة العشيرة قد انبثقت مباشرة من أسرة الشركاء »

ويقول عن المرحلة التالية ، مرحلة الأسرة الزوجية (ص ٧٢ - ٧٣ من الترجمة العربية) :

« فى هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة ، لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال ، وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادرا لأسباب اقتصادية فقط ، وفى الوقت ذاته يطلب من المرأة الإخلاص التام طوال فترة العيشة المشتركة ، فإذا زنت عوقبت بقسوة .. غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أى الطرفين ، فيرجع الأولاد إلى أمهم كما كان الأمر فى السابق » .

ثم يقول عن المرحلة الأخيرة - وهى الأسرة الوحدانية - (مقتطفات من ص ٩٥ - ١٠٢ من الترجمة العربية) :

« ١ » لانعرف مدى صحة هذا الكلام من الناحية العلمية .

« ٢ » الأمر إذن أمر احتمالات .

« ٣ » يبدو يعنى أنه ليس مؤكدا .

« إن الأسرة الوحدانية مبنية على سيطرة الرجل ، وهدفها الصريح إنتاج أولاد لايشك فى صحة أبوتهم ، هذه الأبوة التى لابد منها لكى يرث الأولاد فى يوم ما ثروة أبيهم ، بوصفهم ورثته الطبيعيين» ١ » وتختلف الأسرة الوحدانية عن الأسرة الزوجية فى أن رباط الزواج أمتن جدا منها ، ولايعود حله الآن رهنا برضى أى من الطرفين بل يصبح الرجل - كقاعدة عامة - هو وحده الذى يستطيع الآن حل هذا الرباط وتسريح زوجته .

« كانت الزيجة الوحدانية تقدما تاريخيا عظيما ، لكنها فى الوقت ذاته دشنت هى والرق والثروة الخاصة (يقصد الملكية الفردية) ذلك العهد القائم إلى اليوم ، الذى يكون فيه كل تقدم تقهقرا نسبيا أيضا . العهد الذى يدرك فيه بعض الناس مصلحتهم وتطورهم بشقاء الناس الآخرين واضطهادهم .

« كانت الزيجة الوحدانية أول شكل للأسرة مبنى لا على أحوال طبيعية (يقصد كتلك التى كانت أيام الشيوعية الجنسية) بل على أحوال اقتصادية ، أى على انتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة البدائية ، الطبيعية النشأة » .

أما الأسرة فى ظل الشيوعية ، فهى كالدين والأخلاق ..

جاء فى كتاب « المرأة والاشتراكية » (ص ٥١ من الترجمة العربية) .

« يقول إنجلز : إن العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لاتعنى إلا الأشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخل فيها . وهذا سيكون ممكنا بفضل إلغاء الملكية الخاصة ، وبفضل تربية الأولاد على نفقة المجتمع ، وبنتيجة ذلك يكون أساسا الزواج الراهنان قد ألغيا . فالمراة لن تعود تابعة لزوجها ولا الأولاد لأهلهم ، هذه التبعية التى ماتزال موجودة بفضل الملكة الخاصة »

ويقول إنجلز فى كتابه « أصل الأسرة » (ص ١١٨ من الترجمة العربية) :

« فبانتقال وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة لاتبقى الأسرة الفردية هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع ، وينقلب الاقتصاد البيتى الخاص إلى صناعة اجتماعية ،

« ١ » يقول الماديون إن الوراثة والنسب قبل ذلك كانت عن طريق الأم . وإن الرجل - حين زادت ثروته وزاد نفوذه - قام بانقلاب تاريخى . فحول الوراثة والنسب إلى طريق الأب . ليورث ثروته لأبنائه . فلزمه أن يتأكد من بنوة أبنائه له :

وتصبح العناية بالأطفال وتربيتهم من الشئون العامة . فيعنى المجتمع عناية متساوية بجميع الأطفال سواء كانوا شرعيين أم طبيعيين . وبذلك يختفى القلق الذى يستحوذ على قلب الفتاة من جراء « العواقب » التى هى فى زماننا أهم حافز اجتماعى - اقتصادى وخلقى - يعوقها عن تقديم نفسها بلا حرج لمن تحب . أفلن يكون هذا سببا كافيا لازدياد حرية الوصال الجنسى شيئا فشيئا ، ومن ثم لنشوء رأى عام أكثر تساهلا فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء ؟! »

كلام صريح لايحتاج إلى تعليق !

تقويم النظرية المادية

المادية الجدلية والمادية التاريخية كما تبين من العرض السابق شيئان مترابطان فى الفكر الشيوعى لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، ولا يفهم أحدهما فهما صحيحا بمعزل عن الآخر .. والحقيقة أن المادية الجدلية هى القاعدة التى تقوم عليها المادية التاريخية ، والمادية التاريخية هى التطبيق التفصيلى للمادية الجدلية ، أو أن العلاقة بينهما تشبه العلاقة بين العظام والأنسجة الحية فى الكائن الحى .. لذلك يجدر بنا أن نناقشهما معا مجتمعين ، بدلا من أن نناقش كلا على حدته ، فنضطر إلى التكرار فى أكثر من موضع من مواضع الحديث .

وإذا أخذنا نناقش المادية الجدلية والمادية التاريخية فيجدر بنا أن نركز الحديث على قضايا أساسية معينة ، تندرج تحتها القضايا الأخرى كلها . وهذه القضايا الرئيسية هى : التفسير المادى للخالق ، والتفسير المادى للإنسان ، والتفسير المادى للقيم المحيطة بحياة الإنسان فى الأرض .

فإذا اتضح لنا وجه الحق فى هذه القضايا الرئيسية فإن القضايا الفرعية المترتبة عليها تكون أيسر فهما وأقل حاجة إلى النقاش .

أولا : التفسير المادى للخالق :

المادة أزلية أبدية : « لم يكن هناك وقت لم تكن المادة فيه موجودة . ولا يجىء وقت لا تكون فيه موجودة » .

والمادة هى الخالق . هى التى خلقت الحياة والإنسان : « الإنسان نتاج المادة »

أى شيء من صفات الله لم يلحق بالمادة ؟ إلا القصد والتدبير والحكمة . وإلههم الذى يدعونه لا حكمة له ولا قصد ولا تدبير !

* * *

لا شك أن ماركس وإنجلز وأضرابهما لم يكونوا أول الملحدين فى أوروبا . فقد كانت موجة الإلحاد قد تفشت من قبل بين العلماء والمفكرين من جراء مفاسد الكنيسة وعبثها بدين الله .

ومن قبل قال دارون : إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق . وقال : إن الطبيعة تخبط خبط عشواء !

ومذهب عبادة الطبيعة - لايزيد كما أشرنا من قبل - على أن يكون مهربا وجدانيا من إله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه وتستذلهم وتبتز أموالهم وتحجر على عقولهم وأفكارهم ، إلى إله آخر له معظم خصائص الإله الأول ، ولكن ليست له كنيسة ولا التزامات ، وعباده أحرار فيما يصنعون بأنفسهم لا سلطان لأحد عليهم .. إلا الهوى والشهوات !

ولكن « الطبيعة » على أى حال كانت تمثل فى وجدان عبادها شيئا حيا ، مبهما غير محدد السمات ، يرون « مظاهره » فى الجبال والأنهار والأشجار والأزهار والمطر والرياح والبرق والرعد والإنسان والحيوان .. أما القدرة على الخلق وإعطاء كل شيء صورته التى هو عليها ، وتنسيق وظائف كل كائن بما يلائم ظروفه .. إلى آخر تلك الصفات التى هى فى حقيقتها صفات الخالق « الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » « ١ » .. فقد كانت تضفى على الطبيعة بصورة أقرب إلى خيال الفن منها إلى واقعية الفكر فضلا عن واقعية العلم .. صورة سحرية مبهمة غامضة لا تستطيع أن تمسك بها أو تحددها ، وكلما حاولت تحديدها أفلتت منك ، لأنها بطبيعة الحال وهم لاحقيقة له ، وعبادها أنفسهم لم يخرجوها من دائرة الوهم إلى نور الفكر المحدّد للسمات والصفات .

ورغم أن الكلمة جرت على ألسنة العلماء كأنها حقيقة فلا شك أنها كانت عندهم - كما كانت عند غيرهم - مهربا وجدانيا أكثر مما هى عقيدة حقيقية .

كانت وثنا يلجأون إليه ؛ يلقون إليه بحيرتهم ودهشتهم كلما فاجأهم سر من أسرار الكون العجيبة التى تشهد أن لا إله إلا الله .. فيهربون عنده من الإقرار

---

١ - سورة طه [٥٠]

بما يجول فى صدورهم ولا يريدون الإقرار به حتى فى سرهم وخلوتهم مخافة أن تلحق بهم الكنيسة فتوقعهم فى قبضتها ! ويحسبون أن الاحتماء بهذا الوثن سيخلصهم من حيرتهم وينقذهم منها وهيهات !

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » « ١ »

ولو أنهم كاشفوا أنفسهم بدلا من مغالطة أنفسهم بالوهم ، لسألوا أنفسهم هذا السؤال البدهى القريب : ما الطبيعة على وجه التحديد ؟ وأين تكمن قدرتها على الخلق ؟ فى أى مكان منها ؟ أم ليس لهذه القدرة مكان ولا حيز ؟

فإذا لم تكن محسوسة ولم يكن يحدها المكان ولا الحيز ، وكانت « غيبا » لا تدركه الأبصار ، إنما تدرك آثاره فقط ومظاهره ، فما الذى يبرر فى منطق العقل أن نعدل عن الاسم الحقيقى ، اسم الله ، ونلجأ إلى مسميات ما أنزل الله بها من سلطان ؟ أو ـ إن كان الله فى منطق الإلحاد لا حقيقة له ـ فما الذى يبرر ـ فى منطق العقل أو فى منطق العلم ـ أن يقول قائل إنه ليس حقيقة حين يكون اسمه الله جل جلاله ، ثم يكون هو ذاته حقيقة حين يكون اسمه « الطبيعة » ؟!

أهو الخوف من الكنيسة وطغيانها ؟

أو هو البغض لها والحقد عليها ؟

فليكن !

فلنهجر الكنيسة ونفر منها إلى الله الحق ، وهو إله لا كنيسة له فى الحقيقة ولارجال دين !

ولكن أوروبا الجاهلية لم ترد أن تدخل فى الإسـلام .. ففرت من جـاهلية الكنيسة إلى جاهلية لا تقل سوءا ولا انحرافا .. إن لم تكن أشد !

هذه هى الطبيعة التى « تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق » والتى « تخبط خبط عشواء » ! لم تكن قط فى يوم من الأيام « حقيقة علمية » إنما كانت مهربا من أزمة فكرية روحية فى ذات الوقت ، واجهت أوروبا وحدها ـ لظروف محلية عندها ـ ولم تواجه الفكر البشرى فى مجموعه ولا الضمير البشرى !

أما المادة الأزلية الأبدية الخالقة فما قصتها ؟

وكيف نناقشها مناقشة « علمية » ؟!

دع جانبا ما صار يعلمه صغار الطلاب فى المدارس من أن القول بأن « المادة

« ١ » سورة النمل [١٤]

لا تفنى ولا تستحدث » لم يعد صحيحا من الوجهة العلمية ، وهو القول الذى تصيدوه تصيدا فى نهاية القرن الماضى ليبنوا عليه تفسيرا « علميا ! » للكون والحياة والإنسان ، ولقضية الألوهية كذلك !

ودع جانبا ما صار يعلمه طلاب الجامعات من البحوث الجيولوجية والفيزيائية من أن الكون المادى « حدث » ذات يوم ولم يكن موجودا من قبل ، وأن عمر هذا الكون المادى فى سبيله أن يحدد تحديدا علميا دقيقا على ضوء المعلومات التى ترسلها الأقمار الصناعية التى تدور حول الشمس وغيرها من الأفلاك .

دع ذلك جانبا ، فلم يكن ماركس وإنجلز ولينين مطالبين بثقافة علمية أكبر من ثقافة عصرهم الذى وجدوا فيه « ١ » . ولكنهم مسئولون ولا شك مسئولية كاملة عن تلك الفرية التى لا يقوم عليها أى دليل علمى ، وهى أن المادة هى التى تخلق ، وأن من بين خلقها الإنسان !

ما الدليل العلمى على هذه الفرية ؟

متى شوهدت المادة وهى تخلق ؟ وكيف تخلق ؟!

يقول جورج إيرل دافز عالم الطبيعة : « فالمنطق الذى نستطيع أن نأخذ به ، والذى لايمكن أن يتطرق إليه الشك هو أنه ليس هنالك شىء مادى يستطيع أن يخلق نفسه » « ٢ »

إن المؤمنين بالله ورسله يقولون إن الله ينشئ الخلق من العدم ، وإنه يقول للشىء كن فيكون . وهم لايزعمون أنهم يدركون الكيفية التى يخلق الله بها الخلق . ولكنهم لا يقولون إن الله مادة ، وإن المادة تخلق المادة ، لأن هذا خبل لايقوله عاقل .

إن المؤمنين بالله ورسله لم يروا الله جهرة ، لأنه سبحانه وتعالى : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » « ٣ » ولكنهم رأوا من آثار قدرته ما يدل عليه :

« إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر

« ١ » العجيب هو إصرار أتباعهم على الأقوال المزيفة بعد أن أثبت العلم بطلانها !

« ٢ » من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٤١

« ٣ » سورة الأنعام [١٠٣]

حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه.انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « ١ »

« أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لايعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »« ٢ »

ورأوا من آثار هذه القدرة ما يدلهم على أنه إله مقتدر ، حكيم مدبر ، لا يخلق شيئا عبثا ، ولا يخلق شيئا بالباطل ...

« الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ » « ٣ »

« وكل شيء عنده بمقدار » « ٤ »

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا »« ٥ »

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون »« ٦ »

والشيوعيون لا يؤمنون بذلك كله . فلا نحاسبهم بمنطق الإيمان.لكنا نحاسبهم بمنطق « العلم » الذى يزعمون أنهم يقيمون عليه نظرياتهم وتطبيقاتهم كلها جميعا !!

أى منطق وأى علم يقول إن المادة يمكن أن تخلق المادة ؟

« ١ » سورة الأنعام [٩٥ - ٩٩]
« ٢ » سورة النمل [٦٠ - ٦٤]
« ٣ » سورة الملك [٣]
« ٤ » سورة الرعد [٨]
« ٥ » سورة ص [٢٧]
« ٦ » سورة المؤمنون [١١٥]

بل أى منطق وأى علم يقول إن الخالق - أيا كان هو - يمكن أن يخلق ما هو أرقى منه ؟ وكيف يسيطر المخلوق على الخالق ؟!

يقولون إن الإنسان نتاج المادة ! فكيف نتج عن المادة ؟ من الذى أنتجه ؟ وكيف استطاع - وهو ناتج عن المادة - أن يسيطر عليها ويتحكم فيها ؟!

وإذا قلنا إن المادة « تطورت » فأصبحت مادة حية ، ثم تطورت فصارت إنسانا ، فهل هذا يحل الإشكال من الوجهة العلمية ؟!

كيف تطورت ؟! ما الذى جد على طبيعتها - فجأة - فتطورت إلى مادة حية بينما هى كانت - فى زعمهم - موجودة على صورتها منذ الأزل ؟! وحين تطورت فلماذا لم تتطور كلها إلى مادة حية ! لماذا بقيت كميات هائلة من المادة لم تتطور من قبل ولا من بعد ؟! ولماذا حدث التطور فى اتجاه الحياة بالذات ؟ ولماذا حدث مرة واحدة ثم توقف ، فلم تعد ذرة واحدة من المادة الجامدة تتحول إلى خلية حية مهما بذل معها من التجارب ومهما تغيرت من حولها الظروف ؟

وحين تطورت المادة الحية - تلقائيا ! - فأصبحت - فى أعلى حالات تطورها - إنسانا ، فلماذا توقفت فى التطور عند الانسان ولم تتطور إلى ما هو أعلى منه ، مع أن التطور - فى زعمهم - قانون من قوانين المادة ، والقوانين لا تتوقف عن العمل ، وإلا فهى ليست قوانين !

❊ ❊ ❊

ومن ناحية أخرى كيف تسنى للمادة المتطورة - التى هى الإنسان - أن تسيطر وتتحكم فى المادة التى نتجت عنها مع أن هذا ليس من قوانين المادة ! فالقانون - المزعوم - هو تطور المادة، وليس سيطرة المتطور من المادة على غير المتطور منها !

وهكذا نصل - علميا - إلى ذات الطريق المسدود، سواء سرنا مع المادة الازلية الأبدية عن طريق الخلق أو طريق التطور الذاتى ، ولا نجد هذا « العلم » يفسر لنا شيئا على الإطلاق !

إننا لن نستطيع - مهما حاولنا - أن نمسك بهذا الهراء لنضعه على مائدة البحث العلمى . لأنه لايتماسك حتى يوضع على مائدة البحث ! وإنما نستطيع أن نفهمه فى حالة واحدة . إذا أخرجناه تماما من دائرة العلم ، ونظرنا إليه من زاوية الهدف المقصود منه . وسنجد أن هذه هى الوسيلة الصحيحة والميسرة

لفهم كل « معطيات » المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . إنها - فى الغالبية العظمى منها - ليست منطقية فى ذاتها ولكنها منطقية مع الهدف المقصود منها . أى أن النتيجة المطلوبة توضع أولا ، ثم تساق الأدلة إليها سوقا وتحشر إلى جانب بعضها البعض حشرا ، سواء كانت متناسقة أو متنافرة ، وسواء كانت مؤدية بالفعل إلى النتائج المطلوبة أم غير مؤدية ! إنما تلوى رقاب الأدلة ليا لتؤدى - بالقوة - إلى الهدف المطلوب ، ثم يقال للناس إنها نظرية « علمية » وتفسير « علمى » !

المطلوب أولا هو نشر الإلحاد الكامل الذى لا رجعة منه ، وإزالة أى أثر من آثار الدين يمكن أن يكون مندسا هنا أو هناك ، وإزالة أى أثر لتوقير « الخالق » من النفوس .

فحتى تسمية الخالق بالطبيعة - وهو المهرب الذى هربت به أوروبا من إله الكنيسة كما أشرنا من قبل - لم يبد كافيا فى نظر المخططين لاستحمار الأمميين ، وكان فى حاجة إلى خطوة « تقدمية » أخرى تتقدم به نحو الهدف المطلوب .

فمع الإلحاد المتمثل فى نفى الخلق عن الله ونسبته إلى الطبيعة كانت ما تزال هناك « وجدانات » تنبض تجاه ذلك الخالق تخرج أحيانا فى صورة فن ، وأحيانا فى صورة توقير لقوة أعلى من الإنسان . ويخشى إذا بقيت الأمور عند هذا الحد أن تتعقل البشرية ذات يوم وتكف عن مغالطة نفسها ، وتعود إلى الله !« ١ »

ولكن يراد إزالة هذه البقية الباقية تماما .. فيتحول الخالق إلى مادة ... ويقال للناس : لا إله ! والكون مادة !

فإذا انتفى وجود الله تماما - بزعمهم - ولم يعد هناك إلا المادة،فالمادة لا تثير الوجدان ولا تستحق التوقير ، ومن ثم يتخلصون من ذلك العدو المرهوب ، الذى لايخافون من شىء على الإطلاق خيفتهم منه .. ألا وهو الدين !

والمطلوب ثانيا - كما سنرى فى الحديث عن القضية الثانية - هو تحقير الإنسان وإزالة الكرامة عنه . فإنه إذا أحس بكرامته فسيصعب ركوبه كما تركب الحمير ، لأنه سيكون معتزا بإنسانيته غير قابل للانسياق كالدواب .

ووسائل التحقير كثيرة كما سنراها فى القضية الخاصة بالتفسير المادى

---

١ - عاد بعض علماء الجاهلية المعاصرة بالفعل كما سيجىء بعد قليل .

للإنسان .. ولكن فى مقدمتها جميعا نفى الخلق عن الله سبحانه وتعالى – ونفى وجود الله فى الحقيقة ـ وجعل « الخالق » أو « المنتج » للإنسان هو المادة !

إن الإنسان يستمد وجوده من إلهه وخالقه ، ويستمد قَدْرَه من قـدر ذلك الإله .

فحين يكون الخالق المعبود هو الله الحكيم المقتدر يكون الإنسان رفيع القدر بتكريم الخالق له ـ سبحانه ـ ومستعليا بالإيمان بخالقه العلى العظيم . أما حين يتدنى الخالق حتى يصبح هو المادة ، فإن الإنسان يتدنى معه حتى يصل أسفل سافلين !

وقد هبطت البشرية هبوطا مستمرا منذ تفلتت من عبادة إلهها وخالقها ، وكانت ـ حين نفت الخلق عن الله ونسبته إلى الطبيعة – قد بلغت مستوى كبيرا من الهبوط . ولكنه لم يكن كافيا فى نظر المخططين بكل ما فيه من حيوانية وتبذل خلقى : فأرادوا له مزيدا من الهبوط ، فهبطوا بالاله الخالق دركات حتى جعلوه هو المادة ، وجعلوا الإنسان نتاج تلك المادة ، فأى كرامة تبقى لهذا المخلوق ـ حتى فى حس نفسه ـ حين يعرف أنه من نتاج المادة أو أنه نتاج تطور المادة ؟

لا كرامة ولا آدمية .. وهذا هو المطلوب !

***

ولسنا نحن بحمد الله فى حاجة إلى أقوال البشر نستدل بها على وجود الله وعلى وحدانيته ، فعندنا كتابنا الذى نؤمن به ، هو حسبنا فى كل قضية من قضايا الحياة ، وقد بسط القرآن قضية الألوهية بسطا لا يحتاج إلا إلى تدبره بعقل مفتوح وقلب مفتوح .

ولكنا مع ذلك نأخذ شهادة على البشرية الضالة من علمائها فى هذا القرن الذى نعيش فيه .

يقول « رسل تشارلز إرنست » أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا :

« لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس أو تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات .. ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول

على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين .. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات من طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذى خلق الأشياء ودبرها .

« إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانا راسخا » « ١ »

ويقول « إيرفنج وليام » (دكتوراه من جامعة أيووا وإخصائى وراثة النباتات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) :

« إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها ، والتى لا يحصيها عد ، وهى التى تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا ـ بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها ـ كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكوّن الحياة .. » « ٢ »

ويقول « ألبرت ماكومب ونشستر » المتخصص فى علم الأحياء :

« ولقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء . وهو من الميادين العلمية الفسيحة التى تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التى تسكن هذا الكون .

« انظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظيرا فى روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار ، بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ، ويتم ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم ـ وهو المادة التى تدخل فى تركيب جميع الكائنات الحية .

---

١ ـ من مقال « الخلايا الحية تؤدى رسالتها » من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٧٧

٢ ـ ص ٥٢ من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » .

فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها . ولكنه خلق الحياة ، وجعلها قادرة على صيانة نفسها ، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل ، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التى تعيننا على التمييز بين نبات وأخر .. إن دراسة التكاثر فى الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارا لقدرة الله » « ١ »

ثانيا : التفسير المادى للانسان :

بعد أن فرغنا من قضية مادية الخالق نتحدث عن قضية مادية الإنسان ، وذلك لازم لنا قبل أن نناقش التفسير المادى لمختلف نواحى النشاط الإنسانى ومجالات حياته ، كالدين ، والأسرة ، والقيم المعنوية ، والمبادئ الفكرية ، والنظم والمؤسسات .

ولا شك أن الماديين قد تأثروا بالداروينية فى تصويرها المادى الحيوانى للإنسان ، أو هم فى الحقيقة قد استغلوا النظرية - إذ وجدوها صالحة للاستغلال - فى تشويه صورة الإنسان الكريمة العالية الوضيئة المشرقة ، وتصويره فى صورة هابطة تخدم أغراض المخطط الشرير ، إذ تحجب عن الإنسان مجالات رفعته وإشراقه ، وتوحى إليه بالهبوط فيهبط ، وتنطمس بصيرته فيصبح كما يريدون .

ولكن الحقيقة أن دارون نفسه - رغم نفيه الخلق المباشر للإنسان على صورته الإنسانية ، وإلحاقه إياه بسلسلة التطور الحيوانى - لم يهبط به إلى المستوى الذى وضعته فيه المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . وأن هذا التفسير المادىّ إنما هو خطوة « تقدمية » فى المخطط الهادف إلى استحمار البشرية كلها للشعب المختار !

كان الإنسان عند دارون كائنا حيا تطور عن القردة العليا مع فاصل تطورى تصوره ولم يعثر عليه فسماه الحلقة المفقودة ، وهى الحلقة الوسيطة بين القرد والإنسان . كما كان الإنسان عنده متأثرا بالبيئة المادية فى تطوره من الحالة القردية إلى الحالة الإنسانية،لأن ظروف البيئة المادية هى التى أحدثت سلسلة التطور من أول الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان .

« ١ » ص ١٠٥ - ١٠٦ من المصدر السابق

لكنه لم يكن قط فى التصور الداروينى مادة ، ولا كانت قوانين المادة منطبقة عليه ، فمنذ تحولت المادة الميتة إلى مادة حية - بصورة لم يشأ داروين أن يتعرض لها ، بل تهرب منها لكيلا تلجئه إلى الاعتراف بالإرادة الإلهية فى إخراج الحى من الميت - منذ ذلك الحين صارت لها قوانين خاصة تحكمها غير قوانين المادة الميتة ، هى قوانين الحياة .

وكانت تلك بديهية عند داروين وعند الناس جميعا ، لا يخالجهم فيها شك لأنها أوضح من أن يثور فيها الشك . ولئن كان داروين قد رد الانسان إلى المرتبة الحيوانية (على أساس جسده) مغفلا تفرد الإنسان « ١ » ، فإنه على أى حال قد ارتفع بالكائنات الحية جميعا بما فيها الإنسان - بل هو فى قمتها - عن مجال المادة ، وجعل مجال الحديث عنها هو علم « الحياة » الذى يختلف اختلافا بينا عن علم « المادة » .

أما التفسير المادى للتاريخ فلم يشأ أن يقف بالإنسان - فى الهبوط - عند مرحلة الحيوانية التى أوقفه فيها داروين ، إنما دفعه دفعات أخرى إلى أسفل ، ليتردى فى مهاوى المادية الحالكة حيث يعود إلى التراب ، صرفا بغير روح ، ويصبح قانونه هو قانون التراب !

وحدة العالم تنحصر فى ماديته . والإنسان نتاج المادة . فإذا قيل وما الفكر؟ فالفكر نتاج الدماغ ، والدماغ مادة !!

منطق « علمى » عجيب ، غاية فى العجب فى الحقيقة !

فلتكن وحدة العالم منحصرة فى ماديته كما كان العلم الناقص يقول على أيام ماركس وإنجلز ولنين قبل تفجير الذرة واستخلاص « الطاقة » من داخلها .. فما صلة ذلك بالإنسان ؟!

الكون المادى مادة . والحياة حياة ، والإنسان إنسان !

وليكن الدماغ مادة .. فهل كل مادة تنتج الفكر ؟!

وإذا كان الأصل فى الفكر هو مادة الدماغ ، فهل يختلف مخ الطفل الوليد عن مخ الانسان الناضج ، من حيث تركيبه « المادى »؟! فلماذا لايفكر الطفل بينما يفكر الانسان الناضج؟ولماذا يفكر الطفل - حين يبدأ يفكر - على نحو مختلف عن تفكير الإنسان الناضج من جميع الوجوه ؟ هل هناك عناصر « مادية » تضاف

---

(١) أثبتت الداروينية الحديثة Neo-Darwinism . كما سيجىء فى أثناء المناقشة تفرد الإنسان حتى من الناحية البيولوجية البحتة التى خدعت داروين فجعلته يلحق الإنسان بعالم الحيوان .

إلى مخ الطفل فيصبح مخ إنسان ناضج ؟ وما تلك العناصر على وجه التحديد ؟!

وأمخاخ الناس جميعهم ـ من حيث التركيب المادى ـ متشابهة إن لم تكن متماثلة .. فلماذا يختلف تفكير شخص عن شخص آخر اختلافا تاما مع عدم وجود اختلاف فى « المادة » التى يصدر عنها هذا الفكر وذاك ؟!

وحين يكون الإنسان متدينا ثم يصبح شيوعيا ـ مثلا ـ فهل تتغير « مادة » مخه ، بحيث لو كشفنا على مخه لأبصرنا تغيرا معينا ملموسا طرأ عليه،فاسود ـ مثلا ـ بعد ابيضاض ، أو زادت فيه كمية النحاس ونقصت كمية الفوسفور ؟!

أى سخف فى هذا « العلم » يبعث الغثيان ! .

والشيوعية تقول إن الانسان سيد هذا الكون« ١ » ، فكيف يخلق الكون سيده كما تساءلنا من قبل ؟ ثم كيف يكون السيد من نفس مادة المسود بلا زيادة ؟! ما الذى يجعله سيدا إذن إذا كان من نفس التركيب ؟!

إن المؤمنين بالله ورسله يؤمنون بأن الإنسان من مادة هذا الكون :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون »« ٢ »

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين »« ٣ »

ولكنهم يؤمنون بأن هناك شيئا آخر غير الطين هو الذى جعل الإنسان إنسانا وميزه على بقية الخلق . ذلك هو النفخة العلوية فيه :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »« ٤ »

فإذا جرده الشيوعيون من نفخة الروح وجعلوه طينا فحسب ، فكيف يفسرون سيادة الطين على الطين ، أو سيادة جزء من المادة على بقية المادة المماثلة لها تماما فى التركيب ؟!

وكيف يكون هذا منطقا « علميا » تبنى عليه نظرية علمية وتفسير علمى للحياة البشرية ؟!

« ١ » يقول الشيوعيون ذلك لا إيمانا حقيقيا بتلك الحقيقة ، ولكن لينفوا فقط ألوهية الله لهذا الكون وكل مافيه بما فى ذلك الإنسان . فإذا أخرجوا الإنسان – بزعمهم – من مجال العبودية لله بقولهم إن الإنسان سيد هذا الكون ، عادوا فردوه أسفل سافلين ، تحكمه « الحتميات » وتمرغه المادة فى الوحل ! ولكننا نأخذهم بكلامهم على أى حال !

« ٢ » سورة الحجر [٢٦]

« ٣ » سورة ص [٧١]

« ٤ » سورة ص [٧١ – ٧٢]

وهل حدث خلال الوف الملايين من السنين أن خرجت قطعة من المادة فسودت نفسها أو زعمت لنفسها سيادة على بقية المادة المتفقة معها فى جوهرها وأعراضها ؟

أم لابد بداهة ان تكون قطعة المادة التى سودت نفسها أو منحت السيادة على بقية المادة ، متميزة فى تركيبها عن بقية المادة،وزائدة عنها بنوع من الزيادة أيا كان ؟

فإذا كان ذلك كذلك فكيف تكون قوانين المادة العادية منطبقة بحذافيرها على قطعة المادة التى تميزت عنها فى تركيبها وزادت عليها زيادات ؟

أليست الزيادة التى اقتضت التميز والسيادة – أيا كان نوعها – تقتضى أن يكون لها معاييرها الخاصة وقوانينها الخاصة ؟

وهل يكفى أن يقول الإنسان بلسانه – كما يقول التفسير المادى للتاريخ – إن الإنسان هو أعلى « تطور » حدث فى عالم المادة ، إذا كان سيعود فيلغى هذا « التطور » ويعامل الإنسان بقانون المادة البحت بلا تغيير ؟

ماقيمة التطور إذن – إذا سلمنا جدلا بأن الإنسان مادة متطورة – بل ماقيمة « أعلى درجات التطور » إذا كنا سنعود فنعامل المادة المتطورة بقوانين المادة غير المتطورة ؟

وما هذه الحيرة والبلبلة : مرة نعامل الإنسان على أنه أعلى درجات التطور فى عالم المادة ، ومرة نعامله بقوانين الطين مجردة عن كل زيادة . أم هذا هو « الإنسان الطينى » الذى يصفه ويتكلم عنه التفسير المادى للتاريخ !

* * *

انطباق قوانين المادة الجامدة على الإنسان أسطورة « علمية » غير مسبوقة فى تاريخ الفكر البشرى ، تسجل « براءة » اختراعها والحق يقال للماديين الشيوعيين ، وإن كانت لاتحمل « براءة » على الإطلاق !

إنها مجرد هراء يتلبس بزى علمى مزيف ، لايمكن تفسيره إلا إذا أخرجناه تماما من دائرة العلم ، ونظرنا إليه من زاوية الهدف المقصود منه،كما أسلفنا من قبل ونحن نتحدث عن التفسير المادى للخالق .

والمقصود – من ناحية – هو مسخ الإنسان وتشويهه والهبوط به إلى الدرك الأسفل – أسفل درك يمكن أن يصل إليه – ليتحقق المخطط الكبير ، مخطط استحمار الأمميين لحساب الشعب المختار .

والمقصود - من ناحية أخرى - هو القول بأن هناك متناقضات متصارعة فى حياة البشر على الأرض ، وأن صراع المتناقضات سيؤدى فى النهاية - عن طريق التطور الحتمى - إلى الشيوعية (وهى آخر مخترعات المخطط اليهودى بعد الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية لاستحمار الأمميين ووضعهم بصورة نهائية فى قبضة الشعب المختار) .

فإذ كان هذا هو المقصود ، فلنقل إذن إن الانسان مادة ، وإن التناقض والتطور من قوانين المادة . وإن قوانين المادة تنطبق على الإنسان ، وإن التناقض وصراع المتناقضات حادث فى عالم الانسان ، ومؤد فى النهاية - عن طريق التطور الحتمى - إلى الشيوعية !

وهى كما ترى لفّة طويلة ما كان الشيوعيون أنفسهم فى حاجة إليها - حتى وهم يريدون أن يسوقوا الناس سوقا إلى الشيوعية - فقد كان يكفيهم لهدفهم الأخير أن يقولوا إن الحياة البشرية مليئة بالمتناقضات التى يصارع بعضها بعضا ، وإن هذا الصراع لابد أن يؤدى فى نهاية المطاف إلى غلبة الشيوعية وتحول البشرية كلها إليها .

كان هذا يكفى .. لولا أن الهدف الأول - كما قلنا - هو مسخ الإنسان والهبوط به إلى الدرك الأسفل ، فلزم أن يلحق الإنسان بالمادة ويرتبط بقوانين المادة،خشية أن ينفلت ذات يوم من القبضة الشريرة إذا بقيت له صفة الآدمية ، ومن صفات الآدمية حرية الاختيار! وحتى لايرتفع رأس واحد من بين الأمميين يقول « انا إنسان » !

وهذا هو المنطق الحقيقى الذى يفسر التفسير المادى للتاريخ ، حيث يعجز أى تفسير علمى عن تفسير هذا التفسير !!

إذا فهمنا ذلك « السر » لم يعد يكرثنا كثيرا أن نناقش قضية التفسير المادى « للإنسان » مناقشة موضوعية مطولة . لكنا نقول فقط إن « إنسانية » الإنسان.. لا ماديته ولاحيوانيته ، أظهر من أن يجادل فيها المجادلون .. ولكنه الهوى الذى يتخذ الزى العلمى المزيف : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن »« ١ » .

ولقد كان دارون هو الذى وجه اللطمة الكبرى لإنسانية الإنسان حين زعم

---

١ . سورة المؤمنون [٧١]

انه حيوان ، وأنه نهاية سلسلة التطور الحيوانى بلا زيادة . فاليوم ينقض العلم الداروينى ذاته مقالة دارون ، ويؤكد على إنسانية الإنسان .

يقول « جوليان هكسلى » وهو عالم داروينى ملحد متبجح بالكفر ، فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World » .

« وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، لكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفى حالات كثيرة لامثيل له . ولايزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام .

« وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا ، قدرته على التفكير التصويرى ، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية ، فقل : استخدامه الكلام الواضح ..

« ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة .

« ومن أهم نتائج تزايد التقاليد – أو إذا شئت – من أهم مظاهره الحقيقيه مايقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ..

« وإن التقاليد والعدد لهى الخواص التى هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية .. وهذه السيادة البيولوجية فى الوقت الحاضر خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .. ولم يتكاثر الإنسان فحسب ، بل تطور ، ومد نفوذه ، وزاد من تنوع سبله فى الحياة .

« وهكذا يضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان . ومع ذلك هناك فروق ، وفروق هامة بعض الشىء ، بالنسبة لنظريتنا العامة . فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس . ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية فى معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية . ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة فى تفاصيلها أو فى كثير مما تضمنته ولكن كان لها أساس جيولوجى متين» ١ » .

---

١ - جوليان هكسلى عالم ملحد ، لايقر بوجود الله ! وهو يرى الحق امامه ويكاد يسلم به ، ولكن تأخذه العزه بالاثم فيحاول النكوص عما يفرضه الحق الواضح المبين .. ولكن يكفى على اى حال أن يقر بأن وجهة النظر الدينية لها أساس جيولوجى متين ' فما ينتظر من رجل ملحد أن يذهب إلى أبعد من هذا المدى فى الاعتراف بحقائق الدين '

« ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى ، التى لامثيل لها بين المخلوقات الأخرى .. ومعظمها واضح معروف . ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهى من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيرا ، لأن الجنس البشرى - كنوع - فريد فى صفاته البيولوجية الخالصة . ولم تلق تلك الصفات من العناية ماتستحق ، سواء من وجهة نظر علم الحيوان ، أو من وجهة نظر علم الاجتماع .

« ... وأخيرا فإن الإنسان لامثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره .

« ... وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حى مسيطر لهى التفكير المعنوى ..

« .... يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان فى العقل أعظم بكثير مما يظن عادة .

« ... ولهذه الزيادة فى المرونة نتائج أخرى - سيكلوجية - يتناساها رجال الفلسفة العقلية ... والإنسان فريد أيضا فى بعضها . وقد أدت هذه المرونة مثلا إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى لابد أن يتعرض للصراع النفسى .

« ... وفى الحقيقة إن منع النزاع بين طرق العمل المتعارضة لظاهرة عامة جدا ، وذات منفعة بيولوجية ، وهى ليست إلا خاصية العقل البشرى الذى مكن الإنسان من التخلص من هذا النزاع .

« ... وعندما نصل إلى المستوى الإنسانى نجد تعقيدات جديدة ، لأن من خصائص الإنسان كما رأينا التغلب على شدة الغريزة ..

« ... وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان - والتى يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية - تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« ... ولكن لايكفى هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط .. ففى الحقيقة أن

معظم اوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . ولذلك فهى مثلها فذة من الناحية البيولوجية .

« ثم إن التخاطب والألعاب المنظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم ، كلها نتائج ثانوية (لخصائصه الأصلية) والصعوبة فى الواقع هى إيجاد نشاط للإنسان لايكون فريدا . بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسى زينها الإنسان بكل المحسنات الفريدة .

« وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد .. وبذلك قد يكون الإنسان فريدا فى أحواله أكثر مما نظن الآن »« ١ » .

ويقول رينيه دوبو فى كتابه « إنسانية الانسان » (ترجمة نبيل صبحى الطويل ص ١٣٨ - ١٣٩ من الترجمة العربية) :

« وأكثر السلوك فى الحيوانات بما فيها العليا غريزى لاصلة له بالعقل والحجى . ومن النادر - إن لم يكن من المستحيل - أن تجد هذا السلوك متوجها نحو المستقبل البعيد الذى يحاول الحيوان التكهن به والسعى لإيجاده . وبالمقابل فإن ردود فعل الإنسان لأكثر الإشارات المحيطية تتأثر بعمق بتكهناته عن المستقبل ، سواء كانت هذه التكهنات مبنية على الخوف أو الحقائق المعلومة أو الرغبة فى الإنجاز ، أو فقط على الآمال الحالمة . والحقيقة أن ميل الإنسان لتخيل الأشياء التى لم توجد بعد ، أو التى لن تقع بدون إرادة وعمل حر يقوم به ، هى الناحية البارزة التى تميزه بوضوح تام عن الحيوان ، وهى التى تسهم كثيرا فى تعقيد بنيته النفسية التى أعيت الأطباء .

« ومن أبرز النواحى المميزة للإنسان ميله للسمو على الدوافع البيولوجية البسيطة ، فعنده الاستعداد لتحويل العمليات العادية فى وجوده إلى أعمال وأعراض ومطامح ليس لها ضرورات بيولوجية، وربما تكون متعارضة مع استمرار حياته . أكثر من ذلك أن الإنسان يميل ليرمز لكل شىء يحدث له ثم يتفاعل مع هذه الرموز كما لو أنها إثارات محيطية حقيقية ، فرد فعل شخص معين على عامل محيطى ، مشروط فيزيولوجيا ونفسيا بتجاربه الذاتية الماضية » .

« ١ » ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبدالحليم منتصر - مقتطفات متفرقة من ص ١ - ص٣٦

ويقول (ص ١٤٠ من الترجمة العربية) :

« ويتمتع الإنسان بقدر كبير من الحرية فى الاختيار والتقرير .. فهو المتميز فى كونه قادرا على الاختيار والتمحيص والتنظيم .. ومن هذه يأتى الإبداع » .

ويقول (ص ١٦٤ من الترجمة العربية) :

« ومن المعروف أن كل مظاهر الحياة مشروطة بالوراثة وتجارب الماضى وعوامل البيئة ، إلا أنه من المعروف أيضا أن الإرادة الحرة تمكن البشر من السمو على ضوابطه « التحديدية البيولوجية » . فالقدرة على الاختيار بين الأفكار وأساليب الأفعال المختلفة يمكن أن تكون أهم صفات الإنسان . لقد كانت فى الغالب - ولاتزال - محددا هاما فى تطور الإنسان . وأكثر مايستنكر فى علوم الحياة كما تدرس الآن هو أنها تجاهلت متعمدة أهم ظاهرة فى حياة الإنسان .. ألا وهى الحرية » .

ويقول (ص ١٦٩ من الترجمة العربية) :

« حرية الإنسان تعنى - من ضمن ماتعنيه - قدرته على التعبير عن إمكانياته الكامنة وقدرته على الاختيار واستعداده لقبول المسئوليات . كل هذه وأمثالها من النشاطات التى تضم الاختيار والتقرير لتسمو على التحديدية الجبرية التى تسم عمليات الآلة » .

« ويقول (ص ٢٦٢ من الترجمة العربية) :

« ويدرك البشر العالم بحواسهم . ومن التناقض أن كثيرا مما يقدرونه فى العالم من حولهم لايعتمد على هذا الإدراك الحسى . والواقع أن كثيرا من بنى الانسان ضحوا بوجودهم المادى على مذبح قيم غير مادية تدركها الروح ولايحسها جسم اللحم والدم » .

هذا مايقوله « العلم » ...

فأى هاوية سحيقة تلك التى يهوى بالإنسان إليها ذلك التفسير المادى للإنسان ، حين ينزع عنه مقومات إنسانيته الأصيلة ، ويرده إلى المادة ، ويجعل قوانينها هى قوانينه ؟!

اى إلغاء لحرية الإنسان وكرامته .. وأى تحقير له أشد من هذا التحقير ؟!

ماذا علمنا أن هذا هو المطلوب ..

إلغاء الحرية لكى لايختار الأمميون لأنفسهم طريقا غير الذى يرسمه لهم شعب الله المختار . وإلغاء الكرامة لكى لايستنكفوا من العبودية التى يريد أن

يفرضها عليهم ذلك الشعب . والتحقير لكى لايرفعوا رؤوسهم بالتمرد على التسخير الذى يسخرهم إياه .

إذا علمنا أن هذا هو المطلوب ، أدركنا الهدف « الضخم » الذى يحققه التفسير المادى للإنسان !

ثالثا : التفسير المادى للقيم الإنسانية :

منذ جعل الإنسان مادة فقد الغيت فى الحقيقة كل القيم على الفور ، ولم يعد لها مكان فى حياة الإنسان . فأنى للمادة – مهما تطورت – أن يكون لها قيم ، روحية أو نفسية أو خلقية ؟! ولكن الشيوعية ماكانت تملك أن تتجاهل وجود القيم فى التاريخ البشرى ، فكان لابد من أن تعطيها تفسيرا ما .. يفسدها ويشوهها ليقضى عليها فى النهاية . والتفسير المادى للقيم هو الأداة التى اختارتها الشيوعية لأداء جريمتها الكبرى ، فهى تتظاهر بإعطاء تفسير لتلك القيم ، بينما ذلك التفسير فى الحقيقة يلغى القيم إلغاء باتا ويقضى عليها من منبتها !

ومع ذلك فسنتجاهل هذه الحقيقة ، ونأخذ الأمر كأنه جاد ، ونستعرض التفسير المادى للقيم الإنسانية ونناقشه مناقشة موضوعية !

يتمثل التفسير المادى للقيم الإنسانية فى مجموعة من الخطوات أو مجموعة من النقاط نجملها فيمايلى :

١) تضخيم العامل المادى والاقتصادى وجعله أساس كل شيء فى حياة الإنسان .

٢) اعتبار القيم المعنوية كلها مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى .

٣) نفى وجود قيم ثابتة بحكم التطور الذى يغير القيم كلها كلما تغير الوضع المادى والاقتصادى .

٤) السخرية بالدين وتسخيفه وتهوين شأنه ورده إلى أسباب مادية واقتصادية .

٥) السخرية بالحق والعدل الأزليين ، والقول بخضوع الناس للحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية .

ولنأخذ فى شيء من التفصيل لكل نقطة من هذه النقاط .

١- تضخيم العامل المادى والاقتصادى :

يتبين لنا من العرض الذى عرضناه من أقوال المفكرين الشيوعيين

والمؤسسين للفكر المادى إلى أى مدى يعتبر أولئك المفكرون العامل المادى والاقتصادى أساسا لكل شىء فى حياة الإنسان . ويكفينا أن نعود إلى قولتى ماركس وإنجلز فى هذا الشأن :

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لاغنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم .. فأسلوب الانتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة .. ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » (كارل ماركس) .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج ومايصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لايجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الانتاج والتبادل »(فردريك إنجلز).

وهما قولتان واضحتا الدلالة فى أن الأصل فى اعتبارهم ليس هو « إنسانية » الانسان ، ولا القيم المعنوية التى ينبغى أن تقوم عليها حياته ، إنما هو الوضع المادى والاقتصادى الذى يكون الناس عليه ، لأن هذا الوضع هو الذى يحدد مشاعر الناس وأفكارهم وعقائدهم ، كما يحدد نوع المؤسسات التى تقوم فى حياتهم ووظيفة كل واحدة من هذه المؤسسات .

ومن خلال تفسيرهم للتاريخ البشرى يتبدى مدى تعمق هذه الفكرة فى تصورهم .

فالشيوعية الأولى – كما يصفونها« ١ » – حالة من الهدوء والاستقرار والسعادة والتعاون الأخوى ، وهى كلها قيم معنوية سببها الوحيد هو عدم وجود ملكية فردية ، وقيام الحياة على الملكية الجماعية أو المشاعية . وهو سبب اقتصادى بحت .

وتحول نظام الأسرة من التبعية للأم إلى التبعية للأب ، ومن ثم سيطرة الأب على الأسرة بجميع أفرادها من زوجة وأطفال ، يرجع إلى سبب اقتصادى مادى بحت هو ظهور الملكية الفردية مع اكتشاف الزراعة واكتشاف الرجل أنه يمكن أن يورث أبناءه مما يملكه !

« ١ » سنتحدث عن الشيوعية الأولى فيما بعد .

وتحول البشرية من حالة الشيوعية الأولى إلى الرق يرجع إلى ذات السبب الاقتصادى المادى وهو اكتشاف الزراعة ونشأة الملكية الفردية ، فعندئذ استرقت القبائل القوية القبائل الضعيفة وأجبرتها على العمل فى الأرض لحسابها .

وتحول الناس من الرق إلى الإقطاع سببه هو اكتشاف المحراث - وهو سبب مادى ترتبت عليه نتائج اقتصادية - إذ اكتشف الإنسان أنه يستطيع باستخدام المحراث أن يزرع مساحة أكبر بكثير مما كان يزرعه بالأدوات البدائية السابقة ، فنشأت المزارع الكبيرة التى يستخدم فيها رجل واحد مجموعة كبيرة من البشر عبيدا للأرض أو أجراء يعملون لحسابه ويكونون تحت سيطرته .

وتحول الناس من الإقطاع للراسمالية سببه هو اختراع الآلة - وهو كذلك سبب مادى ترتبت عليه نتائج اقتصادية - فقد تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية رأسمالية ، وصار صاحب رأس المال يستخدم مجموعة كبيرة من البشر أجراء - بأجر ضئيل - يعملون لحسابه ، وينتجون إنتاجا يستولى عليه هو ويربح من بيعه أرباحا طائلة يزيد بها رأس ماله وقدرته على استخدام الأجراء لحسابه .

وتحول الناس أخيرا إلى الشيوعية سببه الصراع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على ملكية الإنتاج - وهو سبب اقتصادى بحت - وينتهى ذلك الصراع بالقضاء على طبقة الرأسماليين وحلول العمال محلهم فى الملكية والسيطرة جميعا .

وبالاضافة إلى هذه الخطوط العريضة فى حياة البشرية ، التى ترجع كلها - فى اعتبارهم - إلى أسباب مادية واقتصادية بحتة ، فإن الخطوط الأكثر دقة ترجع كلها كذلك إلى أسباب مادية واقتصادية .

فوجود الدين فى المرحلة الإقطاعية وضعفه وتقلصه فى المرحلة الرأسمالية والشيوعية سببه أن طبيعة الإنتاج فى العهد الإقطاعى - أى الإنتاج الزراعى - تجعل الإنسان متدينا ، لأن الإنسان لايملك - فى العملية الزراعية - إلا وضع البذور فى الأرض وتغذيتها بالماءوالأسمدة ، ولكنه لايملك إنبات البذرة ولا استعجال نموها ولاحماية المحاصيل من عوارض الجو والآفات ، فيتوهم - أو

يفترض – وجود قوة خفية (غيبية) ينسب إليها القدرة على كل العمليات التى لايقدر هو عليها من إنبات وإنماء وحماية ، ويروح يتعبدها ويتقرب إليها بالقرابين لكى ترضى عنه وتحفظ له محصوله الذى يعيش عليه . بينما لاتحتاج طبيعة الإنتاج فى المرحلة الراسمالية والشيوعية إلى افتراض تلك القوة الخفية الغيبية ، لأنه إنتاج صناعى ، يسيطر العامل فيه على عملية الإنتاج من أولها إلى آخرها ، وليس فيها جانب خفى كعملية الإنبات والإنماء ، ولا جانب خارج عن قدرة العامل كالعوارض الجوية والآفات ، ومن ثم لايحتاج الإنسان إلى عبادة شىء خارج عن نطاق الإنسان ، فيتضاءل وجود الدين حتى ينتهى تماما فى النهاية .

ووجود أخلاقيات الجنس فى العهد الزراعى ، والحفاظ الشديد على العرض ، وإعطاء العفة الجنسية أهمية بالغة ، ووجود الغيرة فى نفس الرجل على زوجته ، كل ذلك راجع إلى سبب اقتصادى بحت ، هو أن الرجل فى المجتمع الزراعى هو المنتج الأصلى وهو المتكسب وحده وهو الذى ينفق على زوجته وأسرته ، ومن ثم تدعوه سيطرته – الاقتصادية الأصل والمظهر – إلى التحكم فى المرأة وفرض أخلاقيات الجنس عليها ، فيفرض عليها العفة قبل الزواج وبعده ، ويفرض عليها أن تكون له وحده حين يتزوج ، ومن ثم تصبح العفة فضيلة خلقية واجتماعية يحرص المجتمع عليها ويشدد فى شأنها ويعطيها تلك الأهمية البالغة . بينما تفقد العفة وأخلاقيات الجنس قيمتها – ووجودها – فى المجتمع الصناعى لسبب اقتصادى كذلك ، وهو تحرر المرأة اقتصاديا ومشاركتها للرجل فى العمل وتكسبها بنفسها ، وذلك يحررها من كونها عالة على الرجل .. فيفقد الرجل سيطرته عليها ، ولايعود يحق له أن يطالبها بالعفة قبل الزواج ولا بعده ، ولا أن يطالبها بأن تكون له وحده بعد زواجها – تلك المطالبة التى كانت قائمة على أسباب اقتصادية بحتة – ومن ثم لاتعود العفة تعتبر فضيلة فى المجتمع الصناعى ، ولا يهتم الناس بوجودها ، وتصبح حرية المرأة فى أن تتصرف فى نفسها هى الأمر الشائع فى المجتمع .

كذلك الأمر مع الأسرة .. فوجود الأسرة الكبيرة المترابطة فى المجتمع الزراعى هو ظاهرة اقتصادية بحتة ، سببها حاجة العمل الزراعى إلى تكاتف الأيدى العاملة وتعاونها ، وترتب زيادة الربح على زيادة الأيدى العاملة التى تعمل فى وحدة متجانسة . بينما يرجع تفكك الأسرة فى المجتمع الصناعى إلى

فردية الإنتاج وفردية الإنفاق . فأسلوب العمل ذاته يجعل كل فرد يعمل مستقلا عن الآخرين ، ثم إن كل عامل يعمل يتناول أجره بمفرده مستقلا عن الآخرين .. ومن ثم لاتؤدى الأسرة الكبيرة مهمة اقتصادية فى حياة المجتمع الصناعى ، فتتفتت وتحل محلها الأسرة الصغيرة المكونة من الأب والأم ، والأطفال .. ثم تتفتت هذه بدورها لأسباب اقتصادية كذلك ، وهى عمل المرأة فى المصانع والوظائف وغير ذلك ، فيصبح رباط الزواج ذاته واهيا يمكن أن ينحل فى أية لحظة ، بل يمكن أن يلغى إلغاء كاملا فى أى وقت ، وتحل محله العلاقات الجنسية الحرة ، وتصبح هى الأساس فى المجتمع الجديد .

٢- اعتبار القيم المعنوية كلها مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى :

هذه النقطة فى الحقيقة تحصيل حاصل بالنسبة للنقطة السابقة ، فحين نقول إنهم يضخمون العامل المادى والاقتصادى ويجعلونه أساس كل شىء ، فمعنى ذلك من جهة أنهم يصغرون من القيم الأخرى - غير المادية - ولا يعطونها المكانة اللائقة ، ومن جهة أخرى أنهم يعتبرونها نابعة من القيم المادية ومترتبة عليها .

ولكنا نريد أن نلفت النظر فى هذه النقطة إلى مزيد من تحقير القيم المعنوية ينشأ من القول بأنها مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى . فمعلوم أن البشرية قد تعلقت - منذ مولدها - بالقيم العليا من صدق وعدل وخير وفضيلة وأمانة ونظافة سلوك .. الخ .. وسواء مارس الناس هذه القيم والفضائل بالفعل أم بعدوا عنها فى سلوكهم العملى كل البعد أو ناقضوها مناقضة صريحة ، فإنهم يتغنون بها فى فنونهم وآدابهم ، ويعجبون بها إذا رأوها ممثلة فى سلوك واقعى ، مالم يكونوا مرضى القلوب بصورة غير معتادة ، ينفرون من الخير ويهشون للرذيلة والانتكاس لأن رؤية الخير تذكرهم بانتكاسهم فيكرهونه ، ورؤية الرذيلة تغطى مواقفهم فيهشون لها ، كالذين قال الله فيهم :

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ! »« ١ » .

وتعلق البشرية بالقيم العليا - ولو لم تمارسها بالفعل فى سلوكها الشخصى

---

١ . سورة النساء [٨٩]

– يعتبر في ذاته عقبة في سبيل استحمار الأمميين وتسخيرهم لما يراد تسخيرهم له .. ولم يكتف المخططون بإبعاد البشرية عن هذه القيم في عالم الواقع ، ولهم الحق ألا يكتفوا ! فمادام هذا التعلق باقيا في النفوس فهي عرضة أن تعتدل من انتكاستها في أية لحظة وتحول هذا التعلق النظري – أو المتمني – إلى تعلق واقعي يتخذ صورة سلوكية مطبقة في عالم الواقع ، وعندئذ يفسد المخطط كله ، ويضيع التعب الذي بذل فيه !

لذلك ينبغي أن يزال تعلق البشرية بتلك القيم بكل وسيلة ممكنة . ومن بين الوسائل المؤدية إلى ذلك أن يقال إنها ليست قيما قائمة بذاتها ، إنما هي مجرد انعكاس لقيم أخرى أو أوضاع أخرى هي وحدها صاحبة الأصالة وهي وحدها الجديرة بالاهتمام .

هنا يذكرنا ماركس بفرويد !

ففرويد – في اختصاصه – يهدف إلى ذات الهدف الذي يسعى إليه ماركس ! ويريد – مثله – أن يصرف الناس عن التمسك بالقيم العليا لأنها عدو مشترك لكل من يسعى لإفساد البشرية واستعبادها لشعب الله المختار .. ومن ثم ينفي أنها قيم قائمة بذاتها ويقول إنها انعكاس لشيء آخر ! فالدين ناشيء عن عقدة جنسية هي عقدة أوديب ، والتسامي ناشيء من الكبت ، كما أنه لون من ألوان الشذوذ !

وإذا كان فرويد قد رد القيم كلها إلى الجنس ليحقرها ويذهب عنها مالها في نفوس الناس من توقير وإعجاب وتطلع ، فإن ماركس وأصحابه قد ردوها إلى القيم المادية والأوضاع الاقتصادية لذات الغاية .. فمعلوم أن الناس تحتقر القيم المادية ولو شغلت بها في حياتها الواقعية مشغلة كاملة ! فيجيء ماركس فيرد إليها القيم العليا كلها فيذهب التوقير عنها في التو ويذهب الإعجاب والتطلع ، وتفرغ من مضمونها الحقيقي وتصبح صورة شاحبة لايتعلق بها قلب ولاترتبط بها مشاعر ! ويصبح التوقير والتعلق كله موجها إلى القيم المادية والأوضاع المادية ، وما أضيق النفس حين تنحصر في هذا المحيط الضيق ، وما أخسرها حين تغلق كل منافذ النور ، وتفتح ذلك المنفذ الواحد الذي يتعامل مع الإنسان الطيني وحده ، ولا يتعامل مع الإنسان المتكامل الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه لتسجد له الملائكة الأطهار !

٣- نفي وجود قيم ثابتة بحكم التطور الذى يغير القيم كلها كلما تغير الوضع المادى والاقتصادى :

لم يكتف الماديون فى تحقير القيم الإنسانية بقولتهم السابقة ، التى تنفى الأصالة عنها وتجعلها مجرد انعكاس لقيم أخرى - مادية - بل مضوا شوطا آخر فى تحقيرها فقالوا إنها ليست ثابتة ، إنما هى دائمة التغير كلما تغير الوضع المادى والاقتصادى !

بمعنى آخر : يا أيها المثاليون المغفلون« ١ » ! إنكم تبحثون عن سراب لاوجود له فى الحقيقة ، حين تتكلمون عن الحق ، والعدل ، والخير ، والفضيلة ، والجمال ، والصدق ، والأمانة .. الخ .. إنها كلمات جوفاء يملؤها كل جيل بما يحلو له ، ولكنها هى فى ذاتها ليست شيئا ثابتا محددا يمكن التعرف عليه !

هنا يذكرنا ماركس بدور كايم !

العقل الجمعى هو الذى يضع القيم والنظم والتقاليد والأخلاق .. وهو لايثبت على حال ، يحل اليوم ما حرمه بالأمس ، ويحرم غدا مايحله اليوم !

نفس الهدف ونفس الوسيلة .. كل فى اختصاص من اختصاصات « العلم » !

فالعلم الماركسى يقول إنه كلما تغير الوضع المادى أو الاقتصادى تغيرت معه جميع القيم وجميع المعايير .

تغيرت صورة الملكية من ملكية جماعية فى الشيوعية الأولى الى ملكية فردية ، فنشأ الرق ثم الإقطاع ثم الرأسمالية ، وكان كل منها - فى حينه - صوابا ! لأنه هو الاستجابة الطبيعية للوضع المادى والاقتصادى .. الاستجابة التى لايمكن أن يوجد غيرها ، لأنها انعكاس « حتمى » للأوضاع ، ومن ثم فلا ينبغى أن توصف بالخير أو الشر ، ولاينبغى أن ينظر إليها أصلا من زاوية خلقية ولابمعيار خلقى ثابت ! إنما مقياس كل شىء هو ذاته .. ووجود الشىء بالفعل هو مبرر وجوده ! ثم يتغير كل شىء حين يتغير الوضع المادى والاقتصادى فيصبح الوضع السابق خطأ بعد أن كان صوابا ! وتصبح محاربته واجبة بعد أن كانت قبل ذلك غير ذات موضوع !

---

١ - « يستخدم الماديون كلمة المثالية فى الذم لا فى المديح ! ويقصدون بها الأشياء التى لايمكن تحقيقها فى الواقع ومن ثم فهى سخف لاينبغى أن يؤبه له !

وأخلاقيات الإقطاع - مثلا - من التدين وسيطرة الأب على الأسرة ، والمحافظة على العفة والغيرة على العرض ، وترابط الأسرة ، والتعاون الجماعى .. كلها أخلاقيات نابعة من الوضع المادى والاقتصادى ومتناسبة معه ، ولكنها ليست قيما قائمة بذاتها توصف بأنها خير ويوصف عكسها بأنه شر .. إنما هى فقط صواب فى وقتها لأنها هى الاستجابة الطبيعية للوضع المادى والاقتصادى .. ثم إنها تصبح بعد ذلك خطأ ، أو تصبح غير ذات موضوع حين تجىء الرأسمالية ويتكون المجتمع الصناعى « المتطور » ! بل تصبح رجعية وجمودا وتأخرا تنبغى محاربته والتحرر منه ، لأنها لم تعد تستجيب للأوضاع الاقتصادية الجديدة ، التى هى المعيار الوحيد الذى تقاس إليه الأمور .

ومحاولة القول بأن الدين قيمة ذاتية فينبغى أن يوجد على الدوام ، أو أن العفة قيمة ذاتية ينبغى أن تظل قائمة فى كل مجتمع هى سذاجة وغفلة ومثالية من جهة ، ومن جهة أخرى هى مخالفة لما هو كائن ولما ينبغى أن يكون ، لأنه لا وجود لمثل هذه القيم « فى ذاتها » إنما تستمد وجودها من الباعث الذى ينشئها وهو الوجود المادى والاقتصادى .. وهذا الباعث دائم التغير لم يثبت - ولايمكن أن يثبت - على حال ، فكيف يثبت ما ينشأ عنه من قيم وأخلاقيات ومعايير ؟!

٤- السخرية بالدين :

من بين كل القيم يحظى الدين بالقسط الأكبر من سخرية الماديين الشيوعيين ، ويبدو حنقهم منه واضحا وثورتهم عليه عظيمة ، ورغبتهم فى تحطيمه والقضاء عليه شديدة إلى أقصى حد .

فأما أسبابه وبواعثه فهى مادية واقتصادية بحتة : الجهل بطبيعة الكون المادى ، والعجز عن السيطرة على البيئة . لذلك كان موجودا طوال فترة الشيوعية الأولى والرق والإقطاع ، ثم خفت حدته فى المجتمع الصناعى الرأسمالى لولا أن الرأسماليين - بعد الإقطاعيين - يستخدمونه مخدرا للجماهير الكادحة لكيلا تتيقظ إلى حقيقة الظلم والهوان الذى تعانيه فتتمرد عليه وتثور من أجل حقوقها المسلوبة .

ولقد كان « واجب الزوال » منذ بداية العهد الصناعى لزوال بواعثه المادية والاقتصادية . فمن جهة كان العلم قد بدأ يتقدم ويكشف كثيرا من مجاهيل

الكون المادى التى كانت تلجىء الناس من قبل إلى افتراض وجود إله ! فأما بعد اكتشاف « قوانين الطبيعة » فلم يعد هناك مبرر للدين ، فقد حل محله العلم . ومن جهة أخرى فإن الوضع الاقتصادى الذى كان ينبعث منه سيطرة الأب فى الأسرة وسيطرة السيد فى المجتمع كان يتناسب كذلك مع سيطرة الرب الاله فى الكون والحياة . فإذا زال هذا الوضع فينبغى أن تزول كل آثاره ومن بينها الدين .. وعلى أى حال فإذا كانت حاجة الرأسماليين إلى تخدير الجماهير الكادحة قد عوقت زوال الدين فترة من الوقت ، فقد جاءت الشيوعية فألغت الرأسمالية وألغت المهمة الأخيرة التى كانت باقية للدين - وهى مهمة التخدير - فأصبح - من جميع الوجوه - غير ذى موضوع . تقدم العلم ، وزادت السيطرة على البيئة ، ولم يعد الناس فى حاجة الى مخدر .. فلماذا يبقى الدين ؟!

يذكرنا هذا بقولة مماثلة « لجوليان هكسلى » فى كتاب « الانسان فى العالم الحديث » .

كان الجهل والعجز هما السبب فى وجود الدين . وقد تعلم الانسان اليوم وسيطر على البيئة ، فآن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل - فى عصر الجهل والعجز - على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله !

والحق أن الدين عدو لدود للمخططين ، كما أنه عدو لدود للماديين الشيوعيين .

فأما عدواة المخططين له فأمرها ظاهر . فالعقبة الكبرى فى سبيل استحمار الأمميين هى أن يكونوا ذوى عقيدة وأخلاق مستمدة من الدين . ولقد عرف اليهود ذلك خلال القرون الطويلة من حربهم الدائمة للبشرية وتربصهم بها ، وعرفوا - بالتجربة - أنه طالما كان للأمميين عقيدة وأخلاق فلا نتيجة لكل مايبذلونه من جهد وكل مايضعونه من تخطيط ، وعرفوا أن نجاح مخططاتهم كلها مرهون بمدى نجاحهم فى القضاء على هذا العدو المرهوب .

وأما عداوة الماديين الشيوعيين (وهم جزء من المخطط الكبير) فقد نشأت - إلى جانب اشتراكهم فى السبب السابق باعتبارهم جزءا من المخطط الكبير - من تجربتهم الخاصة ، أن الدين - مع انه فى أوربا بقايا دين محرف من كل زواياه - يعوق تكوين « الحقد الطبقى » الذى هو عمادهم الأول فى تحويل الناس إلى الشيوعية ! فقد عانوا فى زحفهم على أوربا من أن الفلاحين بصفة خاصة لايستجيبون لهم بالسرعة الكافية حين يحاولون تحريك « الحقد

الطبقى » فى نفوسهم ، وذلك من آثار بقايا الدين فى نفوسهم ، وأن الكنيسة — ممثلة الدين — وقفت فى صف الإقطاعيين والرأسماليين ضد الدعوة الشيوعية ، مستعينة بالدين فى « تخدير » الجماهير عن الثورة ، وإزالة الحقد الطبقى أو تأخير تجمعه فى النفوس ليكون وقودا للثورة .

من أجل ذلك « يتفننون » فى محاربة الدين بكل وسائل الحرب ، ومن بين وسائل الحرب التسخيف والتهوين والتحقير .

٥- السخرية بالحق والعدل الازليين ، والقول بخضوع الناس للحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية :

كما يسخر الماديون بالدين ويسعون إلى تحقيره بكل الوسائل ، يسخرون كذلك « بالحق والعدل الأزليين » كما يسميهما فردريك إنجلز ، ويقولون إنهما من المثاليات التى لاوجود لها ولاتأثير لها فى عالم الواقع . وإن البشرية لم تقم قط عليهما ولايمكن أن تقوم عليهما فى يوم من الأيام !

إنما الذى يسير حياة البشرية من مبدئها إلى منتهاها هو « الحتميات » المادية والاقتصادية والتاريخية ، التى لاتوصف بأنها حق ولا عدل — ولا خلاف ذلك — إنما توصف — كما أسلفنا — بأنها صواب مادامت فى موضعها التاريخى الصحيح .

ويكره الشيوعيون كراهية شديدة أن تنتقد مراحل الرق والإقطاع والرأسمالية من جهة أنها « ظلم » مخالف للحق والعدل ، أى أن تنتقد من منطلق أخلاقى أو أى منطلق قائم على القيم المعنوية .. ويصرون على أن ينتقد الإقطاع والرأسمالية من الزاوية الاقتصادية ومن زاوية الحتمية التاريخية .

ويعجب الانسان أشد العجب من هذا الموقف الغريب . فهم يشنون هجوما حادا على الإقطاع والرأسمالية بصفة خاصة ، فإذا أنت شاركتهم فى شن الحملة عليهما من زاويتك الخاصة (الدينية والأخلاقية) رفضوا رفضا باتا وجاهروك بالانكار !

ولكن العجب يزول إذا علمنا السر فى رفضهم وإبائهم . فهم بادئ ذى بدء يريدون القضاء على القيم المعنوية من منبتها ، وبخاصة القيم الدينية ، فكيف يقبلون منك موقفا — ولو كان فى صفهم — يرتكز على تلك القيم ويحييها فى النفوس !! إن مجرد قبوله معناه أن لهذا المنطلق شرعية الوجود ، ومعناه الاعتراف بأنه منطلق صحيح لأنه يهاجم الظلم ويقف منه موقف المعاداة .. وأى

شيء يمكن أن يقبله المخططون إلا هذا ! لأن معناه أن يوافقوا على إحياء ذات الشيء الذى يسعون إلى قتله جاهدين !

ثم إن هناك أمرا أخر لايقل أهمية ..

إذا أنت جعلت المحك الذى تقيس إليه الإقطاع والرأسمالية هو الحق والعدل ، فماذا يكون موقفك من الشيوعية ؟ ألست قمينا أن تضعها على ذات المحك فترى أنها تخالف الحق والعدل كذلك ؟ فتروح تبحث عن حل آخر يقوم على الحق والعدل ؟!

الأولى إذن أن يقفلوا عليك الطريق من أوله ، ويسخفوا لك الحق والعدل « الأزليين » ، ويقولوا لك إنه لاوجود لهما ولا أثر لهما على الإطلاق فى حياة البشرية .. إنما الذى يسير حياة البشرية هو « الحتميات » وهذه تؤدى إلى الشيوعية المطلوبة فى نهاية المطاف !

ليس الأمر إذن أمر حقائق علمية أو تاريخية تقول إن الحق والعدل لا وجود لهما فى حياة البشرية ، وإنه ينبغى أن يسخفا ويسخر منهما ! بدليل أنهم حين يتحدثون عن الشيوعية يقولون إنها هى الحق وهى العدل ! وهى التى ينبغى أن تسود البشرية ! فهم إذن يثبتونهما ولكن بشرط أن يكونا خاليين من الدين والأخلاق .. أى فى الحقيقة خاليين من الحق والعدل !

أما « الحتميات » فهى جوهر المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ .

فالمراحل الخمسة التى تمر بها البشرية وهى الشيوعية الأولى ، ثم الرق ، ثم الإقطاع ، ثم الرأسمالية ، ثم الشيوعية الثانية والأخيرة .. هذه المراحل حتمية !

والانتقال من مرحلة إلى تاليتها هو انتقال حتمى كذلك ، وعلى ذات الترتيب الذى رسمه التفسير المادى للتاريخ ، لاتسبق أمة مرحلتها ولاتتأخر عنها ، لأنها قدر حتمى !

وتغير القيم والمعايير والعقائد والأفكار والمشاعر مع تغير الطور الاقتصادى هو تغير حتمى ، لايمكن الوقوف فى طريقه ولا تغيير مساره ولا تعديله ، بحكم أن القيم والمعايير والعقائد والأفكار والمشاعر هى مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى وليست شيئا قائما بذاته ، والانعكاس لابد أن يتغير حتما إذا تغير المعكوس !

ومن بين الحتميات كذلك قيام الصراع الطبقى مادامت هناك ملكية فردية .

فحين كانت الشيوعية الأولى قائمة لم يكن هناك صراع بين البشر . ومنذ وجدت الملكية الفردية نشب الصراع ، وظل قائما فى مرحلة الرق والإقطاع والرأسمالية ، حتى إذا جاءت الشيوعية الثانية والأخيرة وألغيت الملكية الفردية زال الصراع إلى الأبد وحل محله الحب والوفاق والوئام وعاد البشر إلى الحالة الملائكية التى كانوا عليها أول مرة .

تلك خلاصة دعاواهم فى التفسير المادى للقيم الانسانية .

فإذا وضعنا هذه الدعاوى على مائدة البحث وجدنا فيها قليلا من الحق وكثيرا من المغالطات .

فأما أهمية العامل الاقتصادى فى حياة الناس فأمر لاينبغى لعاقل أن ينكره . أما إفراده بالأهمية ، وجعله أساس كل شيء ، وجعل كل شيء مجرد انعكاس له ، والقول بأنه هو المحرك الوحيد - أو حتى المحرك الأساسى - لحياة البشر ، فأمر مبالغ فيه إلى حد الاعتساف الذى يجعل جانب الحق الضئيل يضيع فى وسط الأضاليل .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما »« ١ »

أى تقوم حياتكم عليها .

والتشريعات التى تنظم تداول المال فى القرآن والأحاديث النبوية كثيرة بصورة ملحوظة ، توحى بأهمية الحياة الاقتصادية وأهمية تنظيم العلاقات المتعلقة بالمال .

وحين دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أمر ببناء المسجد ثم أمر ببناء السوق . وفى ذلك دلالة واضحة كذلك على أهمية الحياة الاقتصادية فى حياة الأمة . وأنها أمر من أمور العبادة كبناء المسجد سواء .

ولكن المبالغة فى تقدير أهميتها أمر لايستند أولا إلى حقيقة علمية ، ثم هو مفسد للتصور وللسلوك على السواء .

فقد احتاج الماديون - من أجل إعطاء الجانب المادى والاقتصادى أهمية مبالغا فيها - إلى مجموعة من المغالطات والافتراءات لاتقوم على أى دليل علمى ، أولها مادية الخالق وثانيها مادية الإنسان .

---

١ - سورة النساء [٥]

فإذا ثبت علميا - كما ثبت اليوم - أن المادة حدثت ولم تكن موجودة من قبل ، وأنها ليست ازلية أبدية كما زعم التفسير المادى للتاريخ ، فقد انهار الأساس الأول الذى افترى افتراء من أجل إقامة التفسير المادى للقيم الإنسانية .

وإذا ثبت علميا - كما هو ثابت منذ قيام شيء اسمه العلم فى حياة الإنسان - أن الكائن الحى - كل كائن حى بله الإنسان - يسير على نمط مخالف للمادة غير الحية ، وإذا ثبت علميا كذلك - كما هو ثابت من أبحاث الداروينية الحديثة ذاتها - أن الإنسان متفرد عن الحيوان حتى فى كيانه الحيوى (البيولوجى) البحت ، فضلا عن كيانه العقلى وكيانه النفسى وكيانه الروحى وكل شيء فيه ، فقد انهار الأساس الآخر الذى افترى افتراء من أجل الهدف ذاته .

وإذا علمنا أن قصة « تطور » المادة إن هى إلا مهرب - غير علمى - يهرب به الماديون من مواجهة قضية خلق الحياة من الموات ، فضلا عما أثبته العلم من أن الموات ذاته مخلوق ، وأن الكون المادى قد أنشئ من غير وجود سابق ، أى أنشئ من العدم .

إذا علمنا ذلك فقد انهارت كل « مقومات » التفسير المادى للقيم الإنسانية القائمة على أساس ان المادة ازلية أبدية خالقة (أو متطورة ينتج من تطورها النبات والحيوان والإنسان) وأن الإنسان هو نتاج المادة فحسب .

والتفسير الأصوب فيما يتعلق بالقيم الإنسانية والحياة الإنسانية بأسرها هو أن نرجع فيها إلى « الإنسان » . إلى النفس الإنسانية التى هى محور النشاط كله الذى يقوم به الإنسان .

فإذا رجعنا إلى الإنسان كما نراه فى عالم الواقع لا فى صورته المفتراة بغير دليل علمى ، فسنجد للجانب الاقتصادى مكانا واسعا فى حياته ، ولكنا سنجد فى ساحة نفسه مساحات أخرى واسعة لايشغلها الاقتصاد ، وإنما تشغلها قيم أخرى أصيلة اصالة المادة واصالة الاقتصاد ، وسنجد كذلك ظاهرة أخرى لاتقل عن ذلك اهمية ، هى أن الإنسان وحدة متكاملة ، تتفاعل فيها كل العناصر والمكونات لتعطى فى النهاية تعبيرا شاملا هو محصلة العناصر جميعا والمكونات جميعا . وان اى محاولة لتفسير الإنسان بعنصر واحد من عناصره ، أو على ضوء عنصر واحد من عناصره ، هى محاولة ساذجة جدا لاتليق بأى « نظرية »

تتعـرض لتفسير السلوك البشـرى ، وأن « العلماء » الذين يستحقـون هذا الوصف ينبغى أن يكونوا أثقل وزنا وأكثر أمانة من أن يعطوا هذه التفسيرات الساذجة ، مهما تكن الأغراض الخفية الكامنة وراء هذه التفسيرات .

وسواء كان العنصر الواحد هو الاقتصاد كما قال ماركس ، أو هو الجنس كما قال فرويد ، أو العقل الجمعى المسيطر علي الأفراد من خارج كيانهم كما قال دوركايم ، فكلها أضأل وأكذب من أن تفسر الحياة الإنسانية الواسعة الجوانب المتعددة ألوان النشاط . ويكفى أن نجمع هذه التفسيرات الثلاثة بعضها إلى جانب بعض ليتضح لنا أن دعوى كـل واحد منهم أن تفسيـره هو التفسـير « العلمى » الصحيـح هى دعوى كـاذبة وإن اشتملت عـلى شيء من الحق ، فـالاقتصاد جـانب مهم ، والجنس جانب مهم ، وخضـوع الفـرد للتيـارات الجماعية جانب مهم ، ولكن أيا منها لايستقل وحده بتوجيه « الإنسان » ووضع معاييره وقيمه كلها جميعا . وأن التفسير الحق للإنسان ونشاطه وقيمه يشمل هذه الأمور الثلاثة كلها ، ويشمل غيرها مما أغفله - عمدا - كل واحد من « المفسرين » الثلاثة العظام ! وأننـا - لكى ننشىء تفسيرا حقيقيـا للحياة الإنسانية - لاينبغى أن نغفل شيئا من مكونات الإنسان على الإطلاق ، أو أن نفسر شيئا أصيلا فى حياة الإنسان من خلال شيء آخر .

ماذا لو فسرنا الجنس - مثلا - من خلال الاقتصاد ، فعزونا المشاعر الجنسية إلى عوامل اقتصادية ؟! أى تفسير مضحك يكون هذا التفسير ؟!

كذلك لو فسرنا الاقتصاد من خلال الجنس ، فقلنا إن الدافع الجنسى هو السبب فى جميع العمليات الاقتصادية التى يقوم بها الإنسان ؟!

أى تفسير مضحك يكون هذا التفسير ؟!

والسبب فى كونه مضحكا وساذجا ومرفوضا بادئ ذى بدء هو أن كلا من الاقتصـاد والجنس عنصر أصيل فى كيـان الإنسـان عـلى ذات الدرجـة من الأصالة . فنفى أصالة أيهما وتفسيره من خلال الآخر هـو الذى ينشئ تلك السذاجة المضحكة ، مع أن هناك ترابطا وتشابكا لاشك فيه بين الاقتصـاد والجنس فى حياة الإنسان ، ذلك أنهما - مع أصالة كل منهما - يصبان فى المجرى الكبير الذى يشكل فى النهاية حياة الإنسان . ولكن ترابطهما وتشابكهما فى المجرى الكبير لاينفى أن كلا منهما رافد مستقل ذو سمات قائمة بذاتها وذو دفعات قائمة بذاتها .

كذلك - على نفس المستوى - تكون محاولتنا تفسير الدين والقيم العليا كلها على أسس مادية اقتصادية كما يقول ماركس ، أو أسس جنسية كما يقول فرويد ، أو أسس من العقل الجمعى المستقل عن كيان الأفراد والمغاير لكيان الأفراد كما يقول دور كايم .

هى محاولة ساذجة مضحكة ولو ألف فيها ألف كتاب ، ولو قامت الأبواق اليهودية تروج لها من خلال ألوف الأفواه !

«النفس الإنسانية» هى الأصل الذى نرجع إليه لتفسير أحوال الإنسان فى الأرض ، وتفسير ألوان نشاطه المختلفة .

وكون هذه « النفس » قابلة للتشكل فى أشكال شتى لايعنى أنه ليس لها كيان محدد ، ولا حدود تقف عندها فى تشكلها . إنما هذه المرونة فى قابليتها للتشكل هى ذاتها جزء من مقومات الخلافة التى خلق الله الإنسان ليقوم بها فى الأرض .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

فقد علم الخالق اللطيف الخبير الحكيم المدبر - لا ذلك الخالق الأصم الذى يدعيه الماديون ، ولا ذلك الذى يخبط خبط عشواء الذى يدعيه دارون - أن تفاعل هذه النفس البشرية مع الكون المادى سينشئ أشكالا مختلفة من الحياة فى الأرض ، بحسب درجة علم الإنسان بهذا الكون المادى،ودرجة سيطرته عليه . وقدرته على استخراج طاقاته واستخدامها فى عمارة الأرض ، لذلك جعل - بحكمته - هذه النفس قابلة للتشكل لتوائم تلك الأشكال المتغيرة ، بينما الحيوان والنبات أقل قدرة بكثير على التشكل لأنه لايحمل أمانة ولايقوم بخلافة ولا عمارة .

أفينقلب هذا التكريم الربانى والتفضيل إلى نقيصة يوصم بها الانسان فى التفسير المادى للتاريخ،فيقال،إنه لا « كيان » لهذه النفس البشرية ولا سمات محددة ، وإنها تأخذ سمتها وسماتها من الوضع المادى الذى تكون فيه ؟

إن الحمار لايمكن إلا أن يكون حمارا مهما أوقعت عليه من الضغوط لتغيير طبيعته ! أفيكون الإنسان أقل أصالة من الحمار فى عرف التفسير المادى للتاريخ ، فى الوقت الذى يزعمون فيه أنه « أعلى تطور فى عالم المادة » ؟!

إن قضية أصالة « الإنسان » ، ووجود سمات أصيلة فيه تحدد طبيعته « الإنسانية » هى قضية فوق الشك ، أيا كان المدخل الذى ندخل إليها منه .

ولكنا نختار ثلاثة مداخل رئيسية مما يناسب هذا البحث :

أولا : هل التغير الذى يحدث فى حياة الإنسان حين تتغير أوضاعه المادية والاقتصادية هو تغير فى « القشرة » السياسية والاقتصادية والاجتماعية أم تغير فى « جوهر » الإنسان ؟ .

ثانيا : لماذا يثور الإنسان بين الحين والحين ؟ وعلى أى شىء يثور ؟ وإلى أى شىء يهدف من ثورته ؟

ثالثا : لماذا تظهر عليه أعراض المرض النفسى حين يتناول غذاء « حضاريا » لايناسب طبيعته ؟

فبالنسبة للقضية الأولى نجد بادئ ذى بدء أن دواعى التغيير المادى ذاتها نابعة من « نفس » الإنسان وليست نابعة من المادة المحيطة بالإنسان ، فهذه المادة - بمعنى الكون المادى على اتساعه وبمعنى البيئة القريبة المحيطة - موجودة بالنسبة للحيوان كوجودها بالنسبة للإنسان على السواء . فلماذا لا تثير بالنسبة للحيوان الرغبة فى التعرف على خواص المادة والرغبة فى استخدام حصيلة المعرفة فى تغيير البيئة المحيطة ، بينما تثير هاتين الرغبتين بالنسبة للإنسان ؟!

هل الفرق كائن فى المادة أم إنه كائن فى الإنسان ؟! وإذا كان كائنا فى الانسان كما هو بدهى ، افليس هذا خطا ثابتا من خطوط النفس البشرية يحدد سمة من سماتها الأصيلة التى لا تتغير بتغير « القشرة » الخارجية ولا بتغير الظروف المادية والاقتصادية ؟

صحيح أن حصيلة التفاعل المستمر بين الإنسان والمادة المحيطة به تحدث تغييرا فى البيئة وتغييرا فى صورة الإنتاج،فيصبح رعويا أو زراعيا أو صناعيا أو .. ؟ ولكن كم يغير هذا التغيير من طبيعة الإنسان الأصيلة ؟

نترك مؤقتا قضية الملكية الفردية لأننا سنفردها بحديث خاص ، نثبت فيه من واقع التطبيق الشيوعى ذاته أن نزعة الملكية الفردية لم تمت فى نفوس الناس ولا أمكن إحلال الملكية الجماعية محلها .. ونشير إلى بقية الدوافع :

هل تغيرت دوافع الإنسان الأصيلة ؟ حبه للحياة .. رغبته فى المتاع .. رغبته فى الجنس .. رغبته فى البروز وإثبات الذات .. رغبته فى المعرفة .. رغبته فى إطالة عمره على الأرض .. رغبتـه فى السيطرة على البيئة .. رغبته فى الاجتماع بالآخرين .. رغبته فى الانتماء .. رغبته فى التحسين المستمر لأحواله .. رغبته فى

الأمن .. رغبته فى الاستقرار .. رغبته فى الذرية ..

نعم ، تغيرت الصورة التى يحقق بها هذه الدوافع ، ولكن هل تغيرت طبيعة الدافع ؟

إنه من السذاجة غير « العلمية » أن ينظر الإنسان إلى تغير الصورة فينسى ثبات الجوهر « ١ » .

ونعود إلى النص الذى نقلناه عن رينيه دوبو فى كتاب « إنسانية الإنسان » ص ٧١ من الترجمة العربية :

عاش رجل « كروماغنون Cro- Magnon » فى أكثر أنحاء أوروبا قبل حوالى ثلاثين الف سنة ، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة ، ومع أنه كان صيادا بصورة رئيسية كان - على ما يظهر - مشابها لنا جسما وعقلا ، فأدواته وأسلحته تناسب حجم ايدينا الآن ، وفنه فى كهوفه يثير مشاعرنا . والعناية التى كان يوليها لدفن موتاه تكشف انه شاركنا بشكل ما بالاهتمام بنهاية الإنسان وآخرته ، وكل اثر مدون من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة أن الخواص الأساسية للجنس البشرى لم تتغير منذ العصر الحجرى »« ٢ » .

فتغير « القشرة » السياسية والاقتصادية والاجتماعية للإنسان - حتى إن سلمنا جدلا أنه ينبع من التغير المادى وحده ، ونحن لا نسلم بذلك - لايعنى أنه أصبح إنسانا آخر . ولا يعنى أن الإنسان الرعوى غير الإنسان الزراعى غير الإنسان الصناعى من حيث الجوهر .

وليس معنى ذلك - من جهة أخرى - أن أى نظام مثل أى نظام آخر ، وأنه لا يختلف حال الإنسان أى اختلاف بتغير النظم عليه . كلا ! ما نقصد ذلك . ولكنا نريد أن نؤكد أنه ليس الوضع المادى هو الذى يحدث التغيير الجوهرى فى حياة الإنسان ، أو هو المعيار الذى تقوّم به حياته .

إنما يحدث تغير جوهرى فى حياة الإنسان بحسب معيار آخر مختلف تماما . هو نوع العبادة التى يعبدها ، ونوع التشريع الذى ينظم حياته ، هل يعبد الله الحق أم يعبد آلهة زائفة ، وهل يتحاكم إلى شريعة الله أم إلى شرائع جاهلية من صنع البشر .

« ١ » انظر - إن شئت - حديثا مفصلا فى هذا الموضوع فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » .

« ٢ » ترجمة الدكتور نبيل صبحى الطويل طبع مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩

ذلك هو الذى يحدث التغيير الجوهرى فى حياته ، سواء كان فى الحالة الرعوية أو الحالة الزراعية أو الحالة الصناعية او الحالة الذرية (إن كانت هذه تعتبر تحولا فى طريقة الإنتاج على المدى البعيد !) أو فى أى حالة من الحالات المادية على الإطلاق . والسبب فى ذلك أن الإنسان ـ بخلقته ـ ذو طريقين مختلفين كل الأختلاف من حيث الأسباب والنتائج والوسائل والأهداف .

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « ١ »

« وهديناه النجدين » « ٢ »

« « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » « ٣ »

وهو فى الوضع السوى حين يعبد الله وحده ويحكم شريعته ، وفى الوضع المقلوب حين يعبد غير الله ويحكم شريعة غير شريعة الله . ولا يستوى الوضع السوى بطبيعة الحال مع الوضع المقلوب ، والفارق بينهما فارق جذرى وجوهرى . أما التغيرات المادية والاقتصادية فهى تغير الصورة نعم ، ولكنها لا تغير الجوهر .

ومن هنا يكون للبشرية ـ فى كل أوضاعها المادية والاقتصادية ـ حالتان اثنتان فحسب ، إما سوية معتدلة وإما مقلوبة ، بصرف النظر عن الوضع المادى والاقتصادى ذاته . أى أنه يكون رعويا فى حالة اعتدال أو رعويا على الوضع المقلوب ، ويكون زراعيا فى حالة اعتدال أو زراعيا على الوضع المقلوب ، ويكون صناعيا فى حالة اعتدال أو صناعيا على الوضع المقلوب . ويكون ما شاء الله له أن يكون من الأوضاع المادية والاقتصادية على حالتين اثنتين : مهتديا فتستقيم حياته ، أو ضالا فتضطرب حياته وتختل .

والذى درسته المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ هو خط الضلال البشرى من الشيوعية الأولى إلى الرق إلى الاقطاع إلى الراسمالية إلى الشيوعية الثانية ـ كما سنشير فيما بعد ـ ولم يدرسا قط خط الإيمان التاريخى سواء عن عمد أو غير عمد « ٤ » لذلك التفت التفسير المادى للتاريخ إلى التغيرات الجزئية التى حدثت فى الانتقال من كل طور اقتصادى إلى الطور الذى تلاه ،

« ١ » سورة الشمس [٧ ـ ١٠]

« ٢ » سورة البلد [١٠]

« ٣ » سورة الانسان [٣]

« ٤ » نقول نحن إنه عن عمد . ولكن يستوى فى النتائج ان يكون عن جهل او عن عمد !

وركز عليها ، وضخمها ، حتى بدت اختلافات جوهرية فى حياة الانسان !
والسبب فى ذلك أنه لم يقارن أبدا بين الصورتين المتغايرتين تغايرا جوهريا : صورة الإيمان وصورة الضلال على جميع الأطوار المادية والاقتصادية . إذن لتبين له أن الفوارق الحقيقية ليست قائمة بين الاقتصاد الرعوى والاقتصاد الزراعى والاقتصاد الصناعى ، إنما هى بين الاقتصاد الرعوى - والحياة الرعوية بجملتها - على خط الإيمان وعلى خط الضلال ، والاقتصاد الزراعى - والحياة الزراعية بجملتها - على خط الإيمان وعلى خط الضلال ، والاقتصاد الصناعى - والحياة الصناعية بجملتها - على خط الإيمان وعلى خط الضلال . ولتبين له كذلك أن الحياة بجملتها على خط الايمان - فى الحالة الرعوية والحالة الزراعية والحالة الصناعية - ذات سمات أساسية مشتركة، هى قيامها على الحق والعدل والترابط الإنسانى والأخوة وغلبة المحبة على الصراع (مهما يكن فى داخلها من هزات واضطرابات ناشئة من إخفاق الناس فى تطبيق المنهج الربانى بالصورة الواجبة) وأن الحياة بجملتها على خط الضلال - فى الحالة الرعوية والحالة الزراعية والحالة الصناعية - ذات سمات أساسية مشتركة. هى قيامها على الظلم والطغيان والصراع على متاع الأرض القريب .

***

القضية الثانية ، أو المدخل الثانى لقضية أصالة الانسان ووجود سمات جوهرية أصيلة فيه لا تتغير بتغير الوضع المادى والاقتصادى هو ظاهرة الثورات فى التاريخ البشرى .

لماذا يثور الإنسان إذا لم يكن له كيان أصيل ينبغى أن يكون عليه ؟
بعبارة أخرى : إذا كان الانسان قابلا للتشكل الدائم بحسب الوضع المادى والاقتصادى دون أن يكون له شكل ثابت أو حدود ثابتة يرجع إليها، فلماذا يثور على أى وضع من الأوضاع يكون قد تشكل به فى أثناء رحلته التاريخية على الأرض ؟

يقول التفسير المادى للتاريخ - ويحسب أنه قد حل القضية بذلك - إن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية هى الجواب ! هى التى تفسر سبب الثورات . فإنه إذا انتهى الدور التاريخى لأى طور من الأطوار الاقتصادية ووصل الصراع الطبقى إلى درجة « النضوج » حسب الحتمية التاريخية والحتمية المادية والاقتصادية ، أى بمقتضى الحركة التاريخية للمادية الجدلية .. إذا حدث ذلك كله حدثت الثورة التى تهدم النظام المنهزم - ماديا

واقتصاديا وتاريخيا - وتشيد النظام المنتصر - ماديا واقتصاديا وتاريخيا - وتمكن له فى الأرض .

وببساطة نقول : إن هذا لا يفسر كل الثورات التى حدثت فى التاريخ . ودع جانبا الآن ظهور الإسلام وتمكنه فى رقعة فسيحة من الأرض ورقعة فسيحة من التاريخ ، فسنفرد له حديثا خاصا فى الرد على التفسير المادى للتاريخ بجملته ، ولكنا نستشهد عليهم من نظريتهم !

فهم يقولون إن الثورات **الناجحة** هى التى توافق سير الحتمية التاريخية فتاتى فى إبانها الصحيح ، وتكون متوافقة مع الظروف - أو الحتميات - المادية والاقتصادية ويكون الصراع الطبقى فيها قد نضج إلى الحد الذى ينجح الثورة . أما الثورات التى لا توافق خط سير هذه الحتميات ، ولا يكون الصراع الطبقى فيها قد نضج إلى الحد المعقول ، فإنها تفشل مهما بذل فيها من الضحايا !

ياسبحان الله ! إذن فليس السبب فى قيام الثورات هو هذه الحتميات ! إنما التوافق مع هذه الحتميات - كما يقولون - هو الذى يؤدى إلى **نجاح** الثورة . أما قيامها فلابد أن يكون له سبب آخر أغفله - عامدا - التفسير المادى للتاريخ !

لابد أن يكون السبب كامنا فى « الإنسان » ! فى كيانه الأصيل . فى كراهيته للظلم ، وتطلعه إلى الحق والعدل الأزليين ، سواء تحقق العدل فى عالم الواقع أم لم يتحقق لسبب من الأسباب !

* * *

القضية الثالثة أو المدخل الثالث هو ظهور الأعراض المرضية فى حياة الإنسان حين تكون « الحضارة » التى يعيش فيها غير مناسبة لكيانه السوى .

والشاهد الحى على ذلك هو المجتمع الأوروبى فى الجاهلية المعاصرة .

لقد زعم التفسير المادى للتاريخ أن أخلاقيات المجتمع الزراعى من شدة « التدين » إلى سيطرة الأب فى الأسرة والحفاظ على العرض والاهتمام بالعفة الجنسية والترابط التعاونى .. إلخ كانت مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى فى الطور الزراعى ، وليست قيما أصيلة قائمة بذاتها ، وأنه حين تغير الطور الاقتصادى ودخل الناس فى العصر الصناعى فإن من طبيعة الطور الاقتصادى الجديد أن يضعف التدين ، وتزول سيطرة الرجل بسبب تحرر المرأة اقتصاديا ، وتزول غيرته على عرضه ، وتفقد قضية العفة أهميتها ، وتتفكك الأسرة .. الخ ، ويكون هذا كله هو الانعكاس الطبيعى للوضع الاقتصادى

الجديد .. ومن ثم تكون « الأخلاقيات » الجديدة المضادة تماما للأخلاقيات الزراعية هى المناسبة للوضع الجديد ، وينشىء الطور الجديد عقائده وأفكاره وأخلاقياته فتستجيب لها النفوس وتتكيف معها بصورة طبيعية !

ولكن هذا الذى يقوله التفسير المادى للتاريخ يكذبه الواقع أشد التكذيب .

فأما ضعف المشاعر الدينية ، وزوال سيطرة الأب ، وفقدان قضية العفة أهميتها ، وتفكك الأسرة ، وممارسة الحرية الكاملة فى علاقات الجنس فقد حدثت حقا ، سواء كان سبب ذلك هو « التطور الحتمى » المصاحب لتغير الطور الاقتصادى كما يقول التفسير المادى للتاريخ ، أم كان سببه التخطيط الشرير الهادف إلى إفساد البشرية لاستحمارها واستعبادها كما نزعم نحن ..

أما الاستجابة « الطبيعية » فلم تحدث على الإطلاق !

إن رد الفعل الذى حدث من ذلك كله هو انتشار القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والاضطرابات العصبية وإدمان الخمر والمخدرات واتساع نطاق الجريمة وجنوح الأحداث والشذوذ الجنسى .

ومؤتمراتهم وإحصائياتهم هى الشاهد على ذلك ..

ودلالة ذلك واضحة ..

فلو أن النفس البشرية ليس لها كيان محدد ولا صورة ينبغى لها أن تكون عليها ، ما حدث رد الفعل المرضى الذى حدث بالفعل فى حياة الناس، ولاستجابت استجابة « طبيعية » للشكل الذى شكلت به ، سواء كان الذى حدد الشكل هو التطور الحتمى أو التخطيط الشرير ..

إنما هذه الاستجابة المرضية معناها أن الحضارة التى قدمت للناس - تحت أى ظل وأى عنوان - هى حضارة لا تناسب الكيان البشرى السوى ، لا تناسب مقومات النفس البشرية الأصيلة . لا تناسب الوضع السليم الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، لمفارقتها للقيم الإنسانية الصحيحة .

وإذن فهناك قيم معينة ، أصيلة وثابتة ، ينبغى أن تكون قائمة فى حياة الناس أيا كان الطور الاقتصادى الذى يعيشون فيه . وحين تخالف هذه القيم فإن الحياة تضطرب وتختل ولا يعود لها ميزان .

ويكفينا هذا لإثبات أن القيم العليا هى أشياء قائمة بذاتها ، ومطلوب وجودها فى الحياة البشرية لأن هذه الحياة لا تستقيم بدونها . كما يكفينا هذا لنفى تلك الأسطورة القائلة بأن الوضع الاقتصادى هو الأصل الوحيد الذى

تنشأ منه كل القيم وكل الأخلاق ! وإن كنا نقرر من باب إحقاق الحق أن الوضع الاقتصادى يتخذ أهمية بالغة فى كل جاهليات التاريخ ، بحيث يبدو أنه هو المسيطر ، وأنه هو الأساس ، إذ تتوارى القيم الأخرى كلها وتحتجب ، فتبرز القيم المادية وتصبح هى الأساس ! ولو أن التفسير المادى للتاريخ اكتفى بأن يقول إنه يفسر الجاهليات البشرية لكان أقرب إلى الصواب ، أما أن يزعم أنه يفسر « التاريخ » .. كل التاريخ .. فزعم واسع يكذبه التاريخ ! ومع ذلك فالجاهليات ذاتها ـ كما سنبين ـ لا يستوعبها استيعابا كاملا ذلك التفسير الجاهلى للتاريخ !

إذا اكتفينا بهذا القدر فى مناقشة القضايا الرئيسية فى التفسير المادى للتاريخ ، وهى قضية مادية الخالق وقضية مادية الإنسان وقضية مادية القيم الانسانية ، فلا بأس أن نستعرض بعض القضايا المترتبة عليها . ونختار من بينها قضية « الدين » وقضية « الأسرة » وقضية « الشيوعية الأولى » وقضية « الملكية الفردية » وقضية « التطور » وقضية « الحتميات » وكلها من القضايا ذات الأهمية الخاصة فى التفسير المادى للتاريخ .

* * *

١ ـ التفسير المادى للدين :

يقول التفسير المادى للتاريخ إن الانسان الأول تدين لأنه كان جاهلا بقوانين الطبيعة من حوله ، فصنع من قوى الطبيعة آلهة ، فالبرق إله والرعد إله والريح إله والمطر إله .. الخ . ولأنه كان جاهلا بالبيئة وغير قادر على السيطرة عليها ، فجعل من أشجارها وحيوانها آلهة معبودة يستمطر رضاها ويتوقى غضبها ، ويقدم لها الصلوات والقرابين .. ومصدرهم فى كثير من هذه الأمور هو « فريزر » فى كتاب « الغصن الذهبى » الذى استغلوه استغلالا كاملا كما استغلوا دارون من قبل ، وإن كانوا هم يشيرون إلى أبحاث « مورجان »« ١ » ولا يشيرون إلى فريزر !

أما فى العهد الإقطاعى ـ أو الزراعى ـ فالناس متدينون لأن عملية الإنتاج تشتمل على جانب لايملك الإنسان السيطرة عليه ، وهو جانب الإنبات والإنماء

« ١ » مورجان باحث امريكى تخصص فى دراسة احوال القبائل الامريكية البدائية وهو متاخر عن ماركس ولذلك يشيرون إليه على اعتبار ان ابحاثه ايدت اقوال ماركس التى قالها غير متاثر باحد"

والآفات والعوارض الجوية،فيتخيل قوى غيبية يسند إليها إخراج الزرع من الأرض وإنضاجه وحمايته ، فيتعبدها ويسترضيها لتحفظ له المحصول الذى تقوم حياته عليه .

ثم يزول الجهل والعجز بالتقدم العلمى والتكنولوجى فيتعرف الإنسان رويدا رويدا على قوانين الطبيعة ، ويسيطر تدريجيا على البيئة ، فتقل حاجته إلى « افتراض » القوى الغيبية . وحين تصبح عملية الإنتاج مادية بحتة فى العصر الصناعى ويسيطر العامل على كل خطواتها من أول استخراج المادة الخامة إلى تشكيلها فى صورتها النهائية .. فعندئذ تزول الحاجة إلى التدين نهائيا وينتهى دور الدين فى حياة البشرية .

ومن جانب أخر فإن الطبقة الحاكمة سواء فى الإقطاع أو فى الرأسمالية تستخدم الدين - الذى هو أسطورة لا حقيقة لها - فى تخدير الجماهير الكادحة لترضى بالظلم فى الأرض طمعا فى الجنة فى الآخرة .

ونقول بادئ ذى بدء إنه من التعسف تفسير ظاهرة وجدت فى جميع العصور وجميع الأجيال بتفسير خاص فى كل جيل من الأجيال ! إنما ينبغى - من الوجهة العلمية البحتة - أن نبحث عن أسبابها فى الأصول الثابتة لا فى المتغيرات !

إن دلالة خمسين قرنا - على الأقل - من تاريخ البشرية المكتوب ، فضلا عن قرون أخرى غير مكتوبة لا يعلم عددها إلا الله ، لايمكن أن تلغى بجرة قلم مهما يكن جبروت هذا القلم وطغيانه ! ولايمكن أن تلغى لأن جيلا واحدا أو جيلين قد تنكرا للدين لأسباب معروفة ومرئية وغير خافية على الذين يبحثون عن الحق ويحبون أن يهتدوا إليه !

فى كل تلك القرون التى لا يعلم عددها إلا الله كانت ظاهرة التدين قائمة ، فلماذا نقول إن سببها فى الجيل الفلانى كان كذا وفى الجيل الفلانى كان كذا وفى الجيل الآخر كان أمرا أخر ؟!

أهذه هى طريقة « البحث العلمى الموضوعى » وتلك هى مناهجه ؟!

هل يمكن مثلا أن نرد الدافع الجنسى إلى أسباب مادية،أو إلى أسباب تختلف فى جيل عنها فى جيل أخر ؟ أليس وجود هذا الدافع على مدى التاريخ البشرى يجعلنا نقول إنه فى أصل الفطرة،لا هو مكتسب ولا هو راجع إلى أسباب خارجية فى البيئة المحيطة بالإنسان ؟!

فلماذا نقول عن التدين ـ الذى وجد على مدى التاريخ البشرى - إنه راجع إلى البيئة وإلى أسباب متغيرة ، وليس أصلا من أصول الفطرة ؟

أمن أجل أن جيلا من البشر أو جيلين قد تفشى فيهما الإلحاد ؟!

لقد تفشت الرهبانية فى المجتمع المسيحى عدة قرون ، وكان ينظر إلى التخلص من الدافع الجنسى أو كبته أو قهره على أنه قمة الارتفاع النفسى والروحى ، فهل يلغى هذا العارض الذى تفشى فى مجتمع معين لفترة معينة كل دلالة التاريخ ، ويجعلنا نقول إن أسبابا معينة فى البيئة هى التى توجد دافع الجنس،وإنه يمكن أن يزول من الوجود فى يوم من الأيام ؟!

لماذا إذن نفرق بين ظاهرتين متشابهتين بل متماثلتين فنعطى إحداهما تفسيرا ونأبى على الأخرى ذلك التفسير ؟

كلا ! إن الهدف واضح ، وهو أن الشيوعية ـ اليهودية المنشأ ـ تريد أن تقيم مجتمعا بشريا على الإلحاد الكامل والبعد الكامل عن الدين ، فتروح تزعم أن الدين ليس من الفطرة ، وأن أسبابا معينة فى البيئة أو فى موقف الإنسان من البيئة هى التى انشأت ظاهرة التدين فيما مضى من التاريخ ، وأن هذه الأسباب الآن قد زالت فينبغى للدين أن يزول !

إن وجود عوامل خارجية فى الكون المادى وفى البيئة المحيطة بالإنسان تبعث مشاعر التدين فى الإنسان أمر نعلمه ونقره ..

إنها ذلك الكون ذاته بضخامته المعجزة ودقته المعجزة .

إنها ظاهرة الحياة والموت التى تبهر حس الإنسان وتثير عجبه وتطلعه .

إنها ظاهرة حدوث الأحداث وجريانها من ليل ونهار ونور وظلمة وولادة وموت وصحة ومرض وغنى وفقر واجتماع وافتراق .. الخ .

إنها ظاهرة عجز الإنسان عن السيطرة الكاملة على الكون مهما بلغ من سيطرته ، وعن الإحاطة الكاملة بأسراره مهما بلغ من علمه ، وعجزه الكامل عن الخلق والإنشاء من العدم « ١ »

إنها هى التى نبه إليها رب العالمين فى كتابه الكريم ليوقظ وجدان البشر إلى تفرد الله بالألوهية والربوبية ووجوب إفراده بالعبادة والنسك وتحكيم شريعته فى الأرض :

« ١ » سنعاود الحديث عن هذا الموضوع بتفصيل اكثر عند الحديث عن الإلحاد .

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « ١ »

« هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » « ٢ »

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » « ٣ »

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا الوانه . إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ افلا تذكرون ؟! وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم » « ٤ »

« أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟ أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون : إنا لمغرمون ! بل نحن محرومون ! أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ؟ أفرأيتم النار التى تورون ؟

« ١ » سورة البقرة [١٦٣ ـ ١٦٤]
« ٢ » سورة غافر [٦٨]
« ٣ » سورة آل عمران [٢٦ ـ ٢٧]
« ٤ » سورة النحل [١٠ ـ ١٨]

أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم » « ١ »

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لايوقنون ! أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ؟! » « ٢ »

نعم .. هناك عوامل خارجية فى الكون المادى وفى البيئة المحيطة بالإنسان تبعث مشاعر التدين وتوقظها ، ولكنها لا تنشئها من العدم . إنما هى موجودة هناك فى أعماق الفطرة ، وهذه العوامل توقظها فقط ، لأن الله جعل الفطرة هكذا بحيث تستيقظ حين تتلقى إيقاعات الكون المادى وإيقاعات الأحداث الجارية فى محيط الإنسان ، فتمضى تبحث عن الخالق سواء اهتدت فى بحثها أم ضلت عن السبيل .

ودليلنا على ذلك هو التاريخ البشرى كله ، لا ينقص من دلالته وجود جيل أو جيلين نافرين جاحدين شذا عن الطريق .

ودليلنا من العالم الشيوعى ذاته هو جاجارين رائد الفضاء الأول ، الذى ولد فى الشيوعية وتربى فيها على الإلحاد الكامل وإنكار وجود الله ، فلما صعد إلى الفضاء هزته روعة الكون ، فكان تصريحه الأول للصحفيين عند هبوطه إلى الأرض : « عندما صعدت إلى الفضاء أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله » « ٣ » !

ودلينا عليه من الجاهلية المعاصرة كذلك أولئك العلماء الذين تعمقوا فى دراسة أسرار الكون فهداهم علمهم إلى أنه لايمكن تفسير عجائب الكون إلا بالتسليم بوجود الله ، مما نقلنا فقرات منه فى هذا الفصل من قبل ونحن نتحدث عن التفسير المادى للخالق .

* * * *

الدين إذن مركوز فى الفطرة :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » « ٤ »

« ١ » سورة الواقعة [٥٨ ـ ٧٤]
« ٢ » سورة الطور [٣٥ ـ ٣٧]
« ٣ » زيفت الدولة تصريحه فيما بعد ولكن العبرة بتصريحه الأول .
« ٤ » سورة الأعراف [١٧٢] .

والعوامل التى توقظ الفطرة فتبعثها تبحث عن الله باقية ما بقى الانسان فى الأرض . لا تتغير مهما بلغ من علم الانسان أو سيطرته على البيئة .

ومن أجل ذلك بقيت ظاهرة التدين قائمة خلال التاريخ البشرى كله ، بصرف النظر عن هذا الجيل الممسوخ الذى دفعته عوامل معينة - معروفة - إلى مغالبة الفطرة والتبجح بإنكار وجود الله .

والذى الغاه تعلم الإنسان وسيطرته على البيئة لم يكن هو الدين الصحيح ، إنما كان بعض انحرافات الجاهلية وتصوراتها الساذجة . فحين توهم البشر - فى بعض جاهليتهم - أن المطر إله والريح إله والرعد إله والبرق إله ، وأن وجه الأرض مملوء بالأرواح الشريرة التى يؤثر فيها السحر ، أو حين توهموا - فى طور آخر - أن بعض الحيوانات آلهة تعبد - كبقرة الهند والعجل أبيس فى مصر الفرعونية وغيرها - أو حين توهموا فى طور ثالث أن بعض الأجرام السماوية آلهة كالشمس والقمر والنجوم .. كانت هذه كلها أوهاما ساذجة يمكن أن يمحوها العلم،أو يمحوها زيادة سيطرة الإنسان على البيئة .

اما الدين الصحيح - وهو عبادة الله الخالق وحده بلاشريك - فقد وجد منذ بدء البشرية وظل قائما إلى هذه الساعة،لم يؤثر فيه العلم ولا سيطرة الإنسان على البيئة،لأنه لم ينشأ من الجهل العارض أو العجز العارض كما يزعم التفسير المادى للتاريخ ومن لف لفه من الملحدين ، إنما نشأ من حقيقة أزلية هى وجود الله الخالق البارئ المصور ، وكون الانسان مخلوقا خلقه الله ، وأودع فى فطرته أن يتوجه لعبادة الله ، وإن كان قد أودع فى فطرته فى الوقت ذاته قدرة على الاختيار بين طريق الهدى وطريق الضلال .

وفى عهود البشرية السحيقة حين كانت أقوام تعبد الأب ، أو تعبد الطوطم ، أو تعبد قوى الطبيعة . أو تعبد الأفلاك ، أو تعبد الأصنام كان هناك مؤمنون يعبدون الله وحده بلا شريك ، فيتقدمون إليه وحده بالعبادة والنسك ، ويطبقون شريعته فى واقع حياتهم .

فإذا كان نمو العلم ونمو سيطرة الإنسان على البيئة قمينا بأن يلغى أساطير الجاهليات المختلفة فى أمر الدين ، فليس من شأنه أن يلغى الدين ذاته ، المركوز فى الفطرة ، الذى ينبثق حتى فى الجاهلية المعاصرة الملحدة الكافرة ، فيعلن صوت الفطرة رغم كل الحواجز التى تريد أن تخنق ذلك الصوت .

وأما كون الإقطاع والرأسمالية يستخدمان الدين مخدرا للجماهير لترضى

بذل العبودية فى الأرض طمعا فى جنة الله فى الآخرة ، فتلك كانت حقيقة واقعة فى الجاهلية الأوروبية الحديثة ، وقامت الكنيسة ذاتها بجزء من المؤامـرة التى تهدف إلى تخدير الجماهير لكيلا يثوروا على الظالمين ...

ولكن ما علاقة ذلك بحقيقة الدين ؟

إن الدين ـ ككل شىء آخر فى عالم البشر ـ يمكن أن تشوه صورته وأن يساء استغلاله . فهل نلغى الدين الصحيح من أجل الصورة الزائفة ، أو من أجل سوء الاستغلال ؟ أم نحاول تصحيح الصورة ومنع الاستغلال ؟

ثم ما الحيلة إذا كان الانسان عابدا بطبعه ، فإن لم يعبد الله عبد من هو دونه ، وهبط نتيجة لذلك أسفل سافلين ؟!

كلا ! ليس التفسير المادى للدين حقيقة « علمية » ولا يمت بأية صلة للعلم أو النظر العلمى . إنما هو « شهوة » قائمة على غير دليل . شهوة بعض الناس فى نشر الإلحاد فى الأرض لغاية فى نفوس الشياطين ! « ١ »

٢ ـ قضية الأسرة :

كل الذين يتكلمون ضـد الدين والأخلاق يتكلمـون ضد الأسـرة كذلك . والعلاقة واضحة . فالدين والأخلاق والأسرة كلها من « الضوابط » التى تقف فى سبيل المخططات الرامية إلى إفساد البشرية واستحمارها :

« والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » « ٢ »

إن الأسرة هى الضابط الطبيعى ضد فوضى الجنس ، والذين يريدون إفساد البشرية لايريدون أن يكون هناك ضابط للفـوضى الجنسية،سـواء كان هـذا الضابط هو الدين والأخلاق ، أو كان هو التنظيم الطبيعى الذى تنشئه الأسرة بنوع علاقاتها ونوع مسئولياتها .

والشيوعيون ـ بصفة خاصة ـ لهم حقد خاص على الأسرة لأكثر من سبب فى وقت واحد .

فالأسرة ـ كما يقولون ـ تثير مشاعر الأثرة فى الوالدين ، وتقوى نزعة الملكية الفردية من أجل توريث الأولاد ما يملكه الوالدان . وهم يريدون القضاء على

« ١ » سنتحدث عن هذه الغاية مرة أخرى فى فصل « الإلحاد » .
« ٢ » سورة النساء [٢٧]

الملكية الفردية ، فيكرهون ـ بالتالى ـ كل نظام أو فكرة يقف فى طريق القضاء عليها .

ثم إن النظام الشيوعى ـ كما سنرى ونحن نناقش المذهب الاقتصادى فى صورته التطبيقية ـ يريد أن يجعل الولاء للدولة وحدها دون أحد آخر ، ويريد من الأفراد أن يذوبوا ذوبانا كاملا فى « النظام » و « الدولة » و« الحزب » و« الزعيم » فلا يكون لهم ارتباط بشىء آخر خلاف هذه الولاءات الضرورية للنظام . ومن ثم فإنهم يكرهون الأسرة لأنها ـ بداهة ـ ارتباط قائم بذاته مستقل عن الدولة ، ولو كان مواليا لها فى ظاهر الأمر أو واقعا تحت الضغط البوليسى للدولة .

فإذا كان النظام الشيوعى ـ بالإضافة إلى ذلك ـ يصل إلى حد تجنيد الشعب كله فى التجسس بعضه على بعض ليأمن قيام أى تجمع مضاد ، أدركنا أن حنقه على الأسرة لابد أن يكون أشد ، لأن الولاء الفطرى داخل الأسرة هو نوع من التجمع ، مهما يكن صغيرا فإنه يمكن أن يكون نواة لتجمع أكبر ، وهو فى جميع الأحوال حائل دون الجاسوسية الدقيقة على كل فرد من أفراد الشعب .

وبالإضافة إلى ذلك كله فإن من الضمانات التى يعتمد عليها النظام الشيوعى تربية الأولاد منذ نعومة أظفارهم على الولاء الكامل للنظام والدولة والحزب والزعيم .. وهذا يقتضى الإشراف الكامل عليهم منذ ولادتهم،حتى لا توجد « جرثومة » واحدة مفردة يمكن أن تنشر العدوى فى نطاق أوسع . والأسرة ـ أو مشاعر الارتباط الأبوى ـ عائق من عوائق هذا الإشراف الدقيق الذى يعتمد عليه النظام ، لأنها تجعل ولاء الأطفال ـ أو جزءا منه على الأقل ـ مرتبطا بأعضاء الأسرة من الآباء والاخوة .

لذلك كله تكره الشيوعية الأسرة كراهية خاصة مركزة،وسط الكراهية العامة التى يتوجه بها إلى الأسرة ذلك المخطط الشرير الذى يهدف إلى إفساد البشرية واستحمارها .

ولكن أصحاب المخطط يحبون ـ دائما ـ أن يغلفوا مخططهم بالعلم والنظريات العلمية،ليكون ذلك أدعى إلى تقبل الناس له وعدم اعتراضهم عليه . و « العلم » فى الجاهلية المعاصرة يقوم مقام « السحر » فى الجاهليات البدائية التى كانت تؤمن به وتتعامل معه ، ويدخل النفوس بسهولة ويتمكن منها فى لحظات .. ولو كان قائما على غير أساس ! إذ يكفى أن تقول عن أى شئ إنه نتيجة « أبحاث علمية » حتى ينصاع الناس صاغرين ، دون أن يتوقفوا حتى ليتساءلوا : أحق هو؟! أم دعوى بلا دليل !

و« العلم » الذى يحارب الماديون به الأسرة يأخذ البشرية بطولها من أولها إلى آخرها !

ففى البدء كانت الشيوعية الجنسية فلم تكن هناك « أسرة » بالمعنى المتعارف عليه .

وفى بقية التاريخ كانت الأسرة قائمة لأسباب اقتصادية ومتوافقة مع تلك الأسباب الاقتصادية .

وفى نهاية التاريخ - التى يريدونها أو يتخيلونها أو يخيلونها للناس - تنتهى مهمة الأسرة وتزول من الوجود .. على أسس « علمية » !

فأما الشيوعية الجنسية فسنتحدث عنها فى الفقرة القادمة ، ولكنا نقول هنا إن كل ما قالوه فى وصفها لايستند إلى دليل علمى حقيقى إنما هو استنباطات مغرضة من أحوال القبائل المتأخرة التى عثر عليها فى آسيا وأفريقيا وأستراليا فى القرنين السابقين .

وأما قيامها لأسباب اقتصادية فيكفينا أن نشير فيه إلى ما شرحناه من قبل فى مناقشة التفسير المادى للقيم الإنسانية من أن الاقتصاد والأوضاع الاقتصادية جانب مهم فى حياة الإنسان ، ومؤثر من المؤثرات القوية فيها ، ولكن هذه الحياة أوسع وأشمل من أن تفسر بجانب واحد أو عامل واحد مهما يكن من سعته وقوة تأثيره . إنما المؤثرات كلها - على اختلاف كل منها عن الآخر وأصالته الذاتية - روافد تصب فى المجرى الكبير الذى يشكل حياة البشرية . والاقتصاد واحد من هذه المؤثرات ورافد من الروافد ، ولكنه ليس وحده الذى يتحكم فى حياة الناس ، وليس هو الذى يفسرها ، إنما التفسير الأشمل والأصح أن النفس البشرية بكاملها هى التفسير الصحيح للحياة البشرية بكاملها . والنفس تحوى - ولا شك - عناصر كثيرة غير العناصر المادية حتى فى ضلالها وجاهليتها !

يقول خالق هذه النفس سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » « ١ »

هذا السكن وهذه السكينة عنصر هام فى نشأة الأسرة واستمرارها مدى التاريخ البشرى كله ، وهو سبب نابع من « الفطرة » التى تحب هذا السكن

---

١ - سورة الروم [٢١]

وهذه السكينة بصرف النظر عن الدافع الجنسى الذى يمكن أن يتحقق بأية وسيلة .

ولا يتناف هذا مع كون الأسرة تكوّن ترابطا اقتصاديا من نوع ما . فليس هناك فى النفس البشرية تناقض ولا تنافر بين عناصرها المختلفة ، ولا يلزم من وجود أحدها نفى الآخر ولا نبذه كما تقول التفسيرات الضيقة المعتسفة ، ولا يلزم من قوة أحدها أن يكون سائرها تابعا له أو نابعا منه كما تقول تلك التفسيرات ، إنما توجد كلها - مع قوتها وأصالتها - جنبا إلى جنب ، متفاعلا بعضها مع بعض فى الكيان البشرى الكبير ، الذى كرمه الله بعوامل شتى ، وهذا التعدد وهذه السعة هى ذاتها من عوامل التكريم ، لأننا لانجدها - بهذه الصورة - فى الكائنات الأدنى من الإنسان .

والأسرة - كما ثبت من التجارب غير المتحيزة - ضرورة لتنشئة الأطفال الأصحاء من الوجهة النفسية . ومهما حاولت المحاضن أن تدعى أنها تقوم مقام الأسرة الطبيعية فى هذا الشأن فهى واهمة فى ذلك أو مغالطة ، فإن فى مقدور المحاضن أن تعطى رعاية صحية كاملة « للجسد » وتوجيها عقليا مبنيا على قواعد العلم (أيا كان مبلغ هذا العلم من الصحة) ولكنها لا تستطيع قط أن تعطى الرعاية النفسية المطلوبة للتنشئة الصحيحة للأطفال ، بسبب غياب الأم المتخصصة التى يشعر الطفل بملكيتها - وحده - ملكية كاملة « ١ »

ولسنا نقول مع ذلك إن الإنسان لجأ إلى تكوين الأسرة لأنه وجد فيها نوعا من التنظيم الاقتصادى أو وجد أنها الطريقة المثلى لتنشئة الأطفال .

إنما نقول إن الله العليم الخبير الذى يعلم أن الأسرة هى التى تحقق التنشئة السليمة للأطفال حين تتخصص الأم فيها لهذه المهمة الخطيرة ، قد جعل الحنين إلى تكوين الأسرة جزءا من الفطرة ، تشعر فيها بالسكن والسكينة ، وتشعر فى خارجها بالقلق وفقدان السكينة ولو حققت كل مطالب الجنس وكل الاكتفاء الاقتصادى ؛ ثم نظم سبحانه وتعالى العلاقات الاقتصادية داخل الأسرة بحيث تكون المرأة مكفولة كفالة كاملة دون أن تحتاج إلى العمل خارج البيت،لكى تستطيع التفرغ لمهمتها الأصلية ، فكلف الرجل بإعالتها - لا تفضلا ولكن تكليفا - وكلفها هى رعاية شؤون البيت والأطفال ، ثم جعل فى فطرة كل

« ١ » انظر كتاب « اطفال بلا اسر » لأنا فرويد ، وانظر نتائج المؤتمرات التى تعقد فى امريكا وغرب أوروبا لدراسة ظاهرة جنوح الأحداث .

منهما وتركيبه العصبى والنفسى ميلا لهذا التكليف وقدرة عليه . وشعورا بتحقيق الذات عن طريقه .

ذلك هو الوضع السليم للأسرة كما انشأها الله .

فأما الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق فيكرهون أن يستمعوا لهذا القول ويشمئزون منه بدعوى أنه كلام غير علمى !

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » « ١ »

فيقول دوركايم : « ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان ، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف ، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان » « ٢ » .

متى أوقفنا التاريخ على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان . وكيف أوقفنا على ذلك ؟! أم لهم تاريخ سرى غير التاريخ العلنى الذى يعرفه جميع الناس . ويعرفون فيه أن هذه الأشياء كلها مركوزة فى الفطرة ؟!

ويقول التفسير المادى للتاريخ إن الأسرة بحجمها وتبعاتها ووظائفها وعلاقاتها هى مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى ، ومن ثم فهى « تتطور » تطورا حتميا يمكن أن يفضى بها إلى الزوال !

والتجربة الواقعية تغنينا عن الخوض فى النظريات . فالنظريات تظل نظريات حتى يصدقها الواقع أو يكذبها . وما يقوله دوركايم أو التفسير المادى للتاريخ اقل فى الحقيقة من أن يسمى نظرية ، لأنه فرض معتسف لا دليل عليه من الواقع . ولكن حتى لو كان يرتقى إلى حد أن يكون نظرية فهذا هو واقع الجاهلية المعاصرة يكذبه .

فالرجل والمرأة كلاهما فى الجاهلية المعاصرة يحققان كل ما يخطر على بالهما من متاع الجنس بلا قيود . لا قيود خلقية ولا قيود اجتماعية ولا قيود قانونية ولا قيود فكرية ثم إنهما يحققان وجودهما الاقتصادى كل على حدته ، فالرجل

« ١ » سورة الزمر [٤٥]

« ٢ » كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى الطبعة الثانية ص ١٧٣ .

يتكسب والمرأة تتكسب ، ويتولى كل منهما الانفاق على نفسه وعلى بهيمية الجنس التى يمارسها من كسبه الخاص دون حاجة إلى المعونة الاقتصادية من الآخر ، ومن ثم يتأخران كثيرا جدا فى الزواج وتكوين الأسرة . أو يلغيان ذلك من حسابهما إلغاء كاملا ، ويعيشان فى حالة « صداقة » مستمرة،أى فى حالة مخادنة غير مقيدة بالرباط المقدس ، أو فى حالة فوضى جنسية لا ترتبط حتى برباط المخادنة غير المقدس .

فلماذا لا يستريح الرجل ولا المرأة إلى هذه الأوضاع التى تحقق كل مطالب الجنس وكل مطالب الاقتصاد ؟! بل لماذا يشقى الرجل والمرأة كلاهما ويبدو الشقاء فى صورة الاضطرابات العصبية والنفسية والقلق والجنون والانتحار وإدمان الخمر وإدمان المخدرات ؟

الجواب عندنا هو أن الرجل والمرأة كليهما قد فقدا السكن والسكينة اللذين جعلهما الله فى الأسرة ولم يجعلهما فى أية علاقة خارج الأسرة،ولو حققت كل مطالب الجنس وكل مطالب الاقتصاد .

فمن لم يعجبه هذا الجواب واشمأزت نفسه منه لأنه يذكر الله وحده وفطرة الله وحدها ومنهج الله وحده ، فليأت من عنده بالجواب الذى يريد ، ولكن عليه بالبرهان ، لا أن يطلق الدعوى بلا دليل على طريقة دور كايم أو على طريقة التفسير المادى للتاريخ !

« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » « ١ »

« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » « ٢ »

فهذا - وحده - هو المنهج العلمى الصحيح .

٣ - الشيوعية الأولى :

يزعم التفسير المادى للتاريخ أن الشيوعية كانت هى الطور الأول للبشرية ، وانها كانت شيوعية شاملة ، تشمل كل نواحى الحياة البشرية بما فى ذلك الجنس . فكانت القبائل البشرية الأولى تعيش فى حالة من المشاعية الجنسية الكاملة ، مع مشاعية الأرض ومشاعية الطعام .. الخ .

ودليلهم على وجود الشيوعية الأولى - بهذه الصورة - هو ما اكتشف فى

---

١ - سورة الأنعام [١٤٨]
٢ - سورة البقرة [١١١]

القرنين الماضيين من أحوال القبائل البدائية التى كانت تعيش فى أفريقيا وأسيا واستراليا منعزلة تماما عن تيار المدينة لايعرفون شيئا عن العالم من حولهم ، ولا يعرف العالم شيئا عنهم . فقد وجدوا تلك القبائل تعيش عيشة جماعية .. أرض القبيلة ملك مشترك لها جميعا لا ينفرد فيها أحد بملكية خاصة ، والطعام مشترك بينهم سواء كان صيدا بريا أو بحريا أو غير ذلك ، يطهى للقبيلة كلها وتأكل منه القبيلة كلها دفعة واحدة . وأسلحة الصيد والحرب ملك للقبيلة كلها كذلك . وقال فريزر ـ وهو مرجعهم الأكبر فيما زعموا من أحوال البشرية الأولى ـ إنه اكتشفت بعض القبائل تمارس ألوانا من الشيوعية الجنسية ، إما كل النساء لكل الرجال على المشاع ، وإما مجموعة معينة من النساء لمجموعة معينة من الرجال داخل القبيلة الواحدة .

ونستطيع أن نتصور بالفعل ـ على ضوء أحوال هذه القبائل التى اكتشفت فى القرنين الأخيرين ـ أن حياة القبائل الأولى كان فيها قدر كبير من المشاركة الجماعية فى المسكن والمطعم وأدوات الصيد وأدوات الحرب .

ففى النظام القبلى تكون القبيلة هى « الوحدة » التى يعيش الأفراد فى داخلها ، ويمارسون الحياة من خلالها . وفى وقت متأخر جدا من بداوة البشرية ـ وقت كانت قد قامت فيه « حضارات » كثيرة فى بقاع مختلفة من الأرض ـ كان الشاعر العربى يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

فيعبر بذلك عن انسياحه الكامل فى القبيلة وعدم استقلاله بذاتيته حتى مع علمه أن قبيلته تكون أحيانا على الرشد وأحيانا على الغى ، وليست راشدة فى جميع أحوالها .

فإذا كان هذا فى حياة العرب قبيل الإسلام ، فلنا أن نتصور أن القبائل التى وجدت فى تاريخ سابق على ذلك كثيرا كانت على ذات الصورة من التمركز فى القبيلة ، وانسياح كيان الأفراد فى كيان القبيلة الكلى فى السلم والحرب والرشد والغى على السواء !

فإذا أضفنا إلى ذلك أنه فى بداوة البشرية الأولى لم يكن هناك شىء يمتلك ـ إلا القليل النادر ـ أمكننا أن نتصور كذلك أن الملكية الفردية لم تكن قائمة فى ذلك

العهد السحيق على صورتها التى قامت فيما بعد .

فالخيام - إن كانوا من ساكنى الخيام - يسكنها مجموع أفراد القبيلة ويتعارفون فيما بينهم على أن فلانا يسكن فى هذه الخيمة وفلانا الآخر يسكن فى تلك . ولكن شعور كل فرد من أفراد القبيلة لا يتجه إلى ملكيته الخاصة للخيمة ، إنما يتجه إلى اعتبار مجموع الخيام كلها ملكا للقبيلة بأجمعها ، فيقول فى نفسه : هذه خيام قبيلتى ! لأن الوحدة يومئذ ليست هى الفرد إنما هى القبيلة ، والفرد لا يمارس حياته فردا إنما يمارسها من خلال القبيلة . فيتحدث - حين يتحدث - بضمير الجمع ، فيقول : ذهبنا وجئنا وصنعنا كذا وكذا .. لأن هذه الأعمال كلها تتم بالفعل بصورة جماعية .

كذلك الطعام لا تتصور فيه الملكية الفردية فى ذلك العهد السحيق .

فالطعام فى غالبيته صيد ، سواء كان صيد بر أو بحر ، والصيد يحتاج إلى مجموعة من الأفراد تقوم به - من الشباب بصفة خاصة - ولا يقدر عليه فرد واحد . فإذا جاء الصيد وتم طهيه على يد المختصين - أو المختصات - فى القبيلة ، فعندئذ تتجمع الوحدة التى يمارس الأفراد من خلالها وجودهم فتتناول وجبة الطعام الجماعية ، ثم يلقى الباقى - إن بقى منه شىء - لأنه إن بقى ينتن ولا يصلح للطعام ، فلم تكن وسائل الحفظ قد اكتشفت فى ذلك العهد السحيق من بداوة البشرية .

ومن أجل كون الوحدة هى القبيلة وليست الفرد - وهو أصل نفسى واجتماعى وليس اقتصاديا بحتا - فإن القبيلة كلها تدخل فى السلم أو تدخل فى الحرب ، فلا يتصور كذلك أن تكون هناك ملكية خاصة للسلاح داخل القبيلة ، لأنه لايستخدم إلا بصورة جماعية من خلال تلك الوحدة التى يمارس الأفراد من خلالها نشاطهم كله . فإذا تصورنا أن السلاح كله - رماحا أو سهاما أو عصيا أو ما أشبه - يوضع فى مخزن واحد مشترك ، وأنه حين ينادى على الحرب وتدق طبولها يهرع المقاتلون من افراد القبيلة إلى ذلك المخزن المشترك فيتناول كل منهم نصيبه من السلاح ، حتى إذا عادوا أعادوا السلاح إلى موضعه المشترك .. إذا تصورنا ذلك فلا نكون بعيدين عن الصواب . وحتى لو تصورنا أن شخصية الفرد قد نمت فى داخل القبيلة شيئا من النمو فى عهد متأخر فصار له سلاحه المستقل ، فإنه لن يستخدمه إلا باذن من القبيلة ، وفى المواضع التى توجهه إليها القبيلة فحسب .

أما الشيوعية الجنسية والمساواة الكاملة والحالة الملائكية المزعومة التى توصف بها الشيوعية الأولى فمسألة لايقوم عليها الدليل !

كل دليلهم بالنسبة للشيوعية الجنسية هو ما رواه الرحالة المكتشفون من وجود أنواع منها فى تلك القبائل التى اكتشفت فى افريقيا وأسيا واستراليا على حالة بدائية بعيدة عن كل صور المدنية .

ولنسلم جدلا بصحة كل ما رواه أولئك الرحالة ، وأنهم وصفوا الحقيقة كاملة بغير تهويل ولا تزييف .. فما دلالة روايتهم ؟

بعض القبائل **لاكلها** ، وجدت فيها أنواع مختلفة من الشيوعية الجنسية لا نوع واحد محدد . فهل يصلح هذا دليلا على أن كل القبائل التى عاشت فى بداوة البشرية مارست الشيوعية الجنسية الكاملة ؟!

إننا نؤمن بادئ ذى بدء بأن الله أرسل هداة من البشر ينظمون لأقوامهم طرائق معيشتهم بمقتضى الوحى الربانى الذى أخبر عنه آدم وحواء يوم سكنا هذه الأرض ، وأن بعض الناس آمنوا واهتدوا وبعضهم تنكب الطريق :

« قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »« ١ » .

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة »« ٢ »

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » « ٣ »

فليس البشر كلهم أمة واحدة على الهدى ولا على الضلال .

ولكن الشيوعيين لايؤمنون بالله ولا برسله ولا بوحيه .. فلننظر فى أدلتهم « العلمية الموضوعية » !

لو وجدنا كل القبائل المتأخرة المنعزلة عن العمران تمارس لونا واحدا من المشاعية الجنسية لقلنا إنه ربما كان هذا هو الحال الذى كانت عليه البشرية فى أول عهدها ، ولم نقطع مع ذلك بأن هذا أمر يقينى . لأن الشذوذ والانحراف يطرأ دائما على الناس فى أثناء مسيرتهم التاريخية ، ولا يدل وجوده فى أى جيل على أنه كان موجودا فى أجيال سابقة .

« ١ » سورة البقرة [٣٨ ـ ٣٩]

« ٢ » سورة النحل [٣٦]

« ٣ » سورة فاطر [٢٤]

ألم تقع الفاحشة الشاذة من قوم لوط غير مسبوقة ؟ فهل نقول إن وجودها وتفشيها في قوم لوط دليل على أنها وجدت منذ أول البشرية ووجدت على سبيل الشمول ؟!

وهب أن إنسانا بعد مائة عام أو ألف عام قلب في صحف القرن العشرين فوجد صور النساء العاريات في الشواطئ وفي الشوارع وفي البيوت ، وقرأ عن التمثيليات التي تمارس فيها العملية الجنسية كاملة على المسرح وتنقلها شاشة التلفزيون ، فحكم بناء على ذلك بأن العرى أصل من أصول البشرية ، وأن الممارسة العلنية للجنس هي الأصل الذي مارسته البشرية في تاريخها كله .. أيكون هذا استدلالا « علميا » موضوعيا تبنى عليه نظريات علمية لتفسير السلوك البشري ؟!

كذلك قصة القبائل المتأخرة التي عثر عليها في مختلف بقاع الأرض ، لا تدل ممارستها للشيوعية الجنسية على أن هذا هو الأصل الذي كانت عليه البشرية في بداوتها ، ولو كانت كلها تمارس تلك الشيوعية ، فما بال إذا كان الواقع أن بعضها فقط هو الذي يمارس الشيوعية وبعضها لايمارسها ؟ وما بال إذا كانت القبائل التي تمارسها لاتمارسها على صورة واحدة ؟!

إنما لجأ الشيوعيون إلى اعتساف الدليل ، والزعم بأن الشيوعية الجنسية كانت قائمة في البشرية الأولى ، لأنهم كانوا في مبدأ أمرهم يروجون لهذه الشيوعية في نظرياتهم وتطبيقاتهم ، ويريدون أن يجعلوها قاعدة الحياة عندهم ، ترغيبا « للزبائن » من الشباب الذي يعاني الحرمان الجنسي لأي سبب من الأسباب ! فلما رأوا فيما بعد أن هذا الأمر يستغل في الدعاية ضدهم والتنفير منهم عادوا،فعدلوا النظرية وإن كانوا لم يعدلوا تعديلا جوهريا في التطبيق ، واحتجوا - كأنما ذلك يعطيهم الحجة - بأن الشيوعية الجنسية قائمة على نطاق واسع في المجتمع الرأسمالي ! يقول البيان الشيوعي الذي أصدره ماركس وإنجلز :

« ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء فهي تقريبا كانت دائما موجودة . ولا يكتفي البرجوازيين بأن تكون تحت تصرفهم نساء البرولتاريين وبناتهم - هذا عدا البغاء الرسمي - بل يجدون لذة خاصة في إغواء بعضهم لنساء بعض .

« ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات »

وهو حق يراد به باطل ! فوجود الشيوعية الجنسية فى المجتمع الرأسمالى الذى أشرف اليهود على توجيهه حقيقة واقعة . ولكن وجودها ليس حجة لمن يريد لها أن تستمر ، وخاصة إذا كان من « الثائرين » على النظام الرأسمالى ، الذين يريدون - بالثورة الدموية - أن يعدلوا ما ينطوى عليه من الفساد ! إلا أن يكون هذا اللون من الفساد مطلوبا بالذات ، يراد الإبقاء عليه وترويجه - وتلك هى الحقيقة - فعندئذ تعتسف له الأدلة وتقام له الأسانيد ! ولكنها أسانيد باطلة لاتثبت للتمحيص العلمى .

وأما المساواة الكاملة والحياة الملائكية التى يصفون بها الشيوعية الأولى فأمر كذلك يعوزه الدليل .

فالمعروف أن شيخ القبيلة - على الأقل - شخص متميز فى كل أموره وأوضاعه ، بما فى ذلك ملبسه الذى يميزه عن أفراد قبيلته للوهلة الأولى،إذ لابد أن يتميز ولو بريشة زائدة يضعها على راسه،يعرف منها القريب والبعيد أنه هو الرئيس الذى تقدم له فروض التوقير والاحترام . والريشة مجرد رمز ، ولكنها ترمز إلى تمييز حقيقى واسع المدى بين شيخ القبيلة وبقية افرادها . وسواء كان التمييز قائما على القوة الجسدية أو الخبرة والحنكة وبعد النظر ، أو السن ، أو الشجاعة وحسن البلاء فى الحرب ، فإن شيخ القبيلة يتمتع دائما بمكانة متفردة ، وغالبا ما يتمتع كذلك بعدد اكبر من النساء !

ثم إن الشبان الأقوياء من القبيلة ، أو الماهرين فى الصيد أو الشجعان فى الحرب لابد أن يتميزوا بحكم الأمر الواقع ، أى بحكم مواهبهم ، وتكون لهم عند شيخ القبيلة منزلة خاصة ، ومن حقه أن يمنحهم من الامتيازات ما يشاء ، فإرادته أمر ، وأمره مطاع !

والزعم بأنه لاتوجد امتيازات ولا فوارق فى تلك الحياة البدائية لمجرد عدم وجود ملكية فردية زعم يكذبه الواقع المشهود من احوال القبائل ذاتها التى يستمدون منها أدلتهم ! فلماذا يأخذون الدليل التعسفى حين يريدون ، ويتركون الدليل الواضح حين يكون مخالفا لأهوائهم ومزاعمهم ؟ إنما نستدل من أحوال هذه القبائل - إذا أردنا استمداد الأدلة منها - على أن المساواة ليست أصلا من أصول الحياة البشرية،وأن الأصل هو التمايز بين الناس

باختلاف مواهبهم ، سواء كان تمايزا عادلا - أى قائما على مسببات صحيحة - كما يحدث فى المجتمعات المستقيمة - أى المهتدية بالهدى الربانى - أو كان تمايزا ظالما كما يحدث فى المجتمعات الجاهلية كلها بلا استثناء .

إنما يتعسفون فى إنكار الدليل الواضح فى هذه القضية لأنهم يريدون تحقيق هدفين على الأقل بإعلان مبدأ المساواة . الأول هو ترغيب « الزبائن » من المقهورين المغلوبين على أمرهم فى مجتمعاتهم - وهم الكثرة الكاثرة من أفراد الشعب - ليقبلوا على الشيوعية ويعتنقوها ، فزعموا لهم أنهم سيطبقون المساواة الكاملة فى مجتمعهم الشيوعى : وسندوا هذا الزعم بأن المساواة هى الشأن الطبيعى فى الشيوعية ، سواء الشيوعية الأولى أو الآخرة !

والهدف الثانى أنهم - لأمر فى مخططهم - كانوا يسعون إلى نزع الملكية الفردية جميعا،فزعموا للناس أن الأصل فى البشرية هو المساواة المطلقة فى كل شىء،وأن الذى أفسد المساواة هو الملكية الفردية . وأنهم سيلغون الملكية الفردية لتحقيق المساواة فى مجتمعهم الملائكى الجديد . « ١ »

وأيا كانت أهدافهم الظاهرة أو الخفية فليس هناك سند علمى لوجود المساواة المطلقة فى الشيوعية الأولى ، على فرض وجود تلك الشيوعية بالصورة التى يصفونها !

وأما الصورة الملائكية فى تلك الشيوعية الأولى فلم يأتوا لها بسند على الإطلاق .

وما بنا من حاجة إلى مناقشة دعوى لا يقوم عليها دليل !

إنما عليهم أن يثبتوا - إن استطاعوا - انه لم تقع منافسات بين شباب القبيلة الواحدة على الحظوة بالمنزلة الخاصة عند شيخ القبيلة وما يترتب على ذلك من امتيازات . وأنه لم تقع منافسات ومشاجرات تؤدى إلى القتال أحيانا بين شباب القبيلة على « امتلاك » امرأة معينة لأنها فى نظر المتقاتلين عليها أجمل من غيرها من النساء .

ثم عليهم أن يثبتوا أخيرا أن الحروب لم تكن تقع بين بعض القبائل وبعض ، وأنها كانت تعيش فى حالة من الإخاء والسلام والمحبة كما يعيش الملائكة الأطهار !

« ١ » سنرى عند مناقشة التطبيق الواقعى للشيوعية انهم عجزوا عن تحقيق المساواة الكاملة فتراجعوا عنها. وعللوا تراجعهم بأنهم ما زالوا فى مرحلة الاشتراكية ولم يصلوا إلى التطبيق الشيوعى بعد .

فإن لم يثبتوا ذلك ـ ولن يثبتوه ـ فنحن نقول إن أحوال القبائل كما رواها التاريخ ، وكما ظهرت فى القبائل المكتشفة فى القرنين الماضيين هى حياة التنافس الدائم والتنازع الدائم والصراع .. فلماذا نترك دلالة الواقع ونرسم صورة من الخيال ؟!

إنما أرادوا ـ كما أسلفنا ـ أن ينزعوا الملكية الفردية جميعا ويركزوا الملكية فى يد الدولة التى يسيطرون هم عليها فى واقع الأمر . فزعموا للناس ان المصائب كلها نشأت من الملكية الفردية بعد زوال الشيوعية الأولى ذات الطابع الملائكى ، وأنهم عائدون بالبشرية إلى ملائكيتها المفقودة بنزع الملكية الفردية جميعا فى الشيوعية الثانية ! وذلك ترغيبا « للزبائن » المحرومين من الملك ، الحاقدين على الملاك ـ وهم أكثرية الناس فى المجتمعات الإقطاعية والرأسمالية ـ حتى يعتنقوا الشيوعية ويؤازروها ، ويكونوا مددا لها وسندا فى كل مكان فى الأرض !

٤ ـ الملكية الفردية :

أشرنا فيما سلف اكثر من إشارة إلى قضية الملكيـة الفرديـة ووضعها فى التفسير المادى للتاريخ . ومع ذلك أفردنا لها حديثا خاصا لشدة أهميتها سواء فى التصور المادى أو فى التطبيق الشيوعى .

يرى أصحاب التفسير المادى للتـاريخ أن الملكيـة الفرديـة هى سبب كل الشرور التى حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية فتلغيها وتلغى معها الشرور الناشئة عنها .

وينشأ الشر من أن الذى يملك هو الذى يحكم ، وحـين يحكم فإنـه يضع التشريعات التى تخدم مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .

ويرى الماديون كذلك أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية فى النفس البشرية بدليل فترة الشيوعية الأولى التى لم تكن فيها ملكيـة فرديـة . إنما هى أمـر مكتسب ، اكتسبته البشرية بعد أن اكتشفت (أو تعلمت) الزراعة ، حيث أدى ذلك إلى انتهـاء فترة الشيـوعية الأولى ودخـول البشـريـة فى مـرحلتى الرق والاقطاع . ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية .

ويرون أن الصراع الطبقى الذى يدور عليه تاريخ البشرية كله فيمـا بين الشيوعية الأولى والشيوعية الأخيرة قائم كله على الملكية الفردية ومتعلق بها ،

وأن هذا الصراع لايزول من الأرض إلا بإزالة السبب المتعلق به أى إزالة الملكية الفردية فى جميع صورها .

* * *

بعض هذا الذى يراه أصحاب التفسير المادى للتاريخ صحيح ولا شك ، ولكن صحته قائمة فى نطاق محدد لا تتعداه إلى التعميم المطلق . وفضلا عن ذلك فإن المغالطات والأوهام حول الملكية الفردية أكثر بكثير من الحقائق الواردة حولها مع كون هذه الأخيرة محددة فى نطاق معين وليست مطلقة الصحة فى جميع الحالات .

فكون الذى يملك هو الذى يحكم ، وكونه حين يحكم يشرع لصالحه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .. هذا صحيح صحة كاملة ، ولكن فى نطاق الجاهليات وحدها التى تحكم بشرائع البشر ولا تحكم بشريعة الله .

وحقيقة أن الجاهليات تحتل القسم الأكبر من التاريخ البشرى ! ولكن وجود نظام إيمانى تحكم فيه شريعة الله بدلا من شرائع البشر حقيقة موضوعية . والأمانة العلمية تقتضى استثناءه من القاعدة العامة التى يضعها التفسير المادى للتاريخ . ولو أن التفسير المادى للتاريخ وضع هذا الاستثناء وأشار إليه ما كان لنا عليه اعتراض فى هذه النقطة بالذات (وإن كانت لنا عليه اعتراضات فى مواضع أخرى أشرنا إلى بعضها فى حينها ونشير إلى بعضها الآخر فيما بعد) فتاريخ الجاهليات بالفعل تاريخ ظالم شديد الظلم،ينقسم فيه الناس دائما إلى سادة وعبيد ، سادة يملكون ويحكمون ويشرعون ، وعبيد لايملكون شيئا ولا يحكمون ولا يشرعون ، إنما تقع على عاتقهم الأعباء التى يلقيها عليهم الحاكمون .

وانقسام المجتمع إلى سادة وعبيد (أو إلى الذين استكبروا والذين استضعفوا كما جاء فى القرآن الكريم) يتصل بالفعل بقضية الملكية الفردية ، ولكن حصره فى هذه القضية ، أو فى النطاق المادى والاقتصادى بصفة عامة هو حجب للحقيقة الأصلية التى تنشأ عنها تلك الحقيقة الفرعية التى يركز عليها التفسير المادى للتاريخ .

الحقيقة الأصلية التى لايحب الماديون ذكرها على الإطلاق،ولا يؤمنون بها كذلك . هى قضية الألوهية وقضية العبودية . قضية الإله وما ينبغى له على عباده . والعباد وما ينبغى عليهم تجاه إلههم وخالقهم ، ثم ما يترتب على مخالفة

هذه المقتضيات من خلل فى حياة البشرية .

إن من حق الله على عباده أن يعبدوه (بالمعنى الشامل للعبادة الذى يشمل الاعتقاد بوحدانيته ، وتوجيه الشعائر التعبدية إليه وحده ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ، وعدم الاحتكام فى أى أمر من أمور حياتهم إلى شريعة غير شريعته) وذلك بمقتضى أنه إلههم وخالقهم : «ألا له الخلق والأمر» «١» .

فيما أنه هو الخالق فهو صاحب الأمر . ولا يحق لأحد أن يكون صاحب الأمر إلا أن يكون هو الخالق ، أو يكون خالقا مع الله . ولذلك يدور الجدل والحوار كله مع الكفار فى القرآن بشأن قضية عبادة غير الله على محور واحد : هل أولئك الذين تطيعون تشريعهم من دون الله هم الخالقون ؟ أم لهم شرك فى الخلق ؟ فإن لم يكونوا خالقين ، ولا لهم شرك فى الخلق ، فليس لهم أن يحلوا أو يحرموا مع الله أو من دون الله .

«قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار» «٢»

«قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات أم أتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا «٣»

ولم يكن ذلك فى أمر العبادة بمعنى الاعتقاد فقط ، أو بمعنى التوجه إلى الله بشعائر التعبد فقط . إنما كان كذلك فى أمر العبادة بمعنى اتباع ما أنزل الله :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » « ٤ » .

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون » « ٥ » .

وحين دخل عدى بن حاتم (وكان نصرانيا) على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتخذوا أحبارهم

«١» سورة الأعراف [٥٤]

«٢» سورة الرعد [١٦]

«٣» سورة فاطر [٤٠]

«٤» سورة الشورى [٢١]

«٥» سورة الأعراف [٢]

ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » « ١ » فاحتج عدى بن حاتم على الشق الخاص بعبادة الأحبار والرهبان فقال : يارسول الله ما عبدوهم ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم يحلوا لهم الحرام فأحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه ؟ قال : بلى ! قال : فتلك عبادتهم إياهم !

وحين يخرج الناس على عبادة الله فإنهم يخرجون على مقتضى عبوديتهم ، فيصيبهم جزاءُ ذلك الخروج خبالاً فى الدنيا وجحيماً فى الآخرة .

وخبال الدنيا هو انقسام المجتمع إلى فريقى السادة والعبيد : السادة يملكون ويحكمون ويشرعون من عند أنفسهم،فتكون تشريعاتهم لصالح أنفسهم على حساب العبيد . والعبيد ـ الذين رضوا بالعبودية لغير الله فأصبحوا عبيدا لبشر مثلهم ـ تقع عليهم التكاليف ويقع عليهم الظلم ويقع عليهم الحرمان .

ومن ثم تكون الملكية الفردية وبالا فى الجاهلية .. لا لأنها بطبيعتها كذلك .. ولكنها لأنها تصبح عندئذ أداة الظلم التى تمكن للسادة فى جعل أنفسهم أربابا للعبيد .

والسادة والعبيد كلاهما فى الجاهلية قد رفضوا العبودية لله فتلقفتهم الشياطين : وجزاؤهم فى الآخرة جهنم وبئس القرار . أما فى الدنيا فيستمتع السادة متاع الحيوان :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم »« ٢ »

أما العبيد ـ أى الذين لا يملكون ـ فلهم ذات الجزاء فى الآخرة لأنهم نكلوا عن عبادة الله ورضوا بعبادة العبيد ، وفى الوقت ذاته لهم فى الدنيا البؤس والشقاء والظلم يتجرعونه جزاء رضاهم باستعباد أنفسهم لأولئك الأرباب من دون الله .

أما حين يستقيم الناس على أمر الله ، فيعبدونه وحده بلا شريك ، ويرفضون العبودية لأحد مع الله أو من دون الله ، أى يرفضون التوجه بشعائر التعبد لغير الله ، ويرفضون أن يتلقوا التشريع من عند احد غير الله ، فعندئذ يكونون قائمين

---

١ ـ سورة التوبة [٣١]

٢ ـ سورة محمد [١٢]

بمقتضى عبوديتهم لله الحق ، فيصيبهم جزاءً ذلك بـركةً فى حيـاتهم فى الدنيا ورضوانا من الله فى الآخرة .

« ولو أن أهـل القرى آمنـوا واتقوا لفتحنـا عليهم بـركـات من السمـاء والأرض »« ١ »

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل عليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » « ٢ » .

ومن البركات التى تصيبهم فى الدنيا نجاتهم من أن يكونوا عبيدا للأرباب الزائفة فى الأرض ، وشعورهم بالعزة الحقيقية التى يستمدونها من الاستعلاء بالإيمان ، فلا تذل نفوسهم لطغاة الأرض،ولا يسمحون لأحد أن يجعل من نفسه ربا يشرع بغير ما أنزل الله ، لأنهم يستمدون العزة والقوة ممن هو أكبر منهم وأعلى ... الله أكبر .

ومن البركات كذلك الرخاء الذى يسبغه الله على الأرض المؤمنة من خيرات السماء التى يفيضها عليهم ، ومن تكافل الأمة المؤمنة فيما بينها ، فلا يستمتع فريق بالخيرات وحده ويظل فريق في الحرمان .

وعندئذ توجد الملكية الفردية ولايوجد معها الظلم والشر الذى يصاحبها فى الجاهلية . لأن الذى يملك هنا لايحكم ! أى لا يضع تشريعات من عنده يصوغها لمصلحته على حساب الآخرين .. إنما تكون الحاكمية لله ، هو الذى يحل ويحرم . وهو الذى يضع التشريعات التى يخضع لها الحاكم والمحكوم سواء ، والتى يتوفر فيها العدل الحقيقى لأنها منزلة من عند رب الجميع الذى لايحابى احدا من البشر على حساب احد .

وقد تقع المظالم فى ظل المنهج الربانى من سوء التطبيق لما أنزل الله ، ومن جور الحكام الذى يحدث من عصيانهم لله . وحكمهم فى بعض القضايا بغير ما أنزل الله ، وإن كانوا لا يضعون تشريعات من عند أنفسهم تخالف ما أنزل الله ، ولا يجعلون مخالفاتهم تشريعا يلزمون به الناس،وإلا لكفروا بذلك كفرا صريحا وخرجوا من ملة الاسلام . وعندئذ نلحظ أمرين هامين : الأول : أن حجم الظلم

---

١ ـ سورة الاعراف [٩٦]
٢ ـ سورة المائدة [٦٥ ـ ٦٦]

الذى يقع على مجموع الأمة أقل بكثير من الظلم الذى يقع فى الجاهليات التى لا تحكم بما أنزل الله . والثانى : أن الأمة مطالبة بكف هذا الظلم ومنعه من الاستمرار،وإلا فهم آثمون فى حق الله ، كما أنهم آثمون فى حق أنفسهم « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره،ثم إنه تخلف من بعد ذلك خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون.فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن،ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » « ١ »

وهكذا يتبدى لنا أن الشر لا ينجم من الملكية الفردية فى ذاتها ، فيكون العلاج هو بترها من منبتها ، إنما ينجم من طبيعة الجاهلية التى لا تحكم بما أنزل الله ، فيكون العلاج هو القضاء على الجاهلية وتحكيم شريعة الله ، وعندئذ تبقى الملكية الفردية التى شرعها الله لتستجيب للفطرة التى خلقها الله . تبقى على النحو الذى شرعه الله ، وبالحدود والضوابط التى أنزلها الله .. ولا ينشأ الظلم الذى حرمه الله !

* * *

وقد أقفل الماديون كل باب للاصلاح ، وقالوا لا إصلاح على الاطلاق إلا بإلغاء الملكية الفردية إلغاء باتا لا هوادة فيه ، فلما قيل لهم إن ذلك مضاد للفطرة ردوا ـ « علميا » كعهدهم فى كل شئ ـ فقالوا أولا إن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية ، وإنما هى مكتسبة ، وقالوا ثانيا : إنه لا توجد « فطرة » إنما تنشأ المشاعر والأفكار والمواقف انعكاسا من الوضع المادى وتبعا له ، ولا شئ منها ثابت على الإطلاق !

وبصرف النظر عن التناقض الضمنى بين القول الأول والثانى ، لأن الأول يتضمن الاعتراف بوجود نزعات فطرية فى النفس البشرية وإن نَفَى الملكية الفردية من بينها . والثانى ينفى وجود نزعات فطرية على الإطلاق .. بصرف النظر عن هذا التناقض نقول إن ادعاءهم بأن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية هو مجرد ادعاء ليس عليه دليل علمى واحد .. إلا ذلك الدليل « غير العلمى » وهو وجود الشيوعية الأولى . التى افترضوها كأنها حقيقة مؤكدة ثم راحوا يستنبطون منها كل ما يراود مزاجهم من التصورات والتطبيقات،سواء فى نزع

« ١ » أخرجه مسلم .

الملكية الفردية أو في إباحة الفوضى الجنسية وتفتيت الأسرة أو في غير ذلك من المجالات .

ولقد ناقشنا تلك الشيوعية من قبل : ورأينا أولا أنه لا يوجد دليل يقيني عليها ، ورأينا ثانيا أن أوصافها المزعومة ليست كلها منطبقة على المصدر الذي استمدوا منه كل افتراضاتهم،وهو القبائل المنعزلة التي عثر عليها في العهود الأخيرة . ولا على ما هو معلوم عن أحوال القبائل القديمة من سجلات التاريخ .

ولكنا نفترض أن ما يقولونه صحيح كل الصحة فيما يتعلق بعدم وجود ملكية فردية في المأكل والمسكن لدى القبائل الأولى التي كانت في بداوة البشرية ، فما الدلالة « اليقينية » التي يمكن استنباطها من هذا الوضع ؟

إننا لا نستطيع أن نستنبط من ذلك يقينا أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية ! وذلك من أقوالهم ذاتها ! فهم أنفسهم يقولون إنه بمجرد اكتشاف الزراعة ظهرت الملكية الفردية ! فكيف ظهرت ؟!

إن القول بأن الزراعة هي التي أنشأت الملكية الفردية بذاتها - من عند نفسها لا بدافع من النفس البشرية - هو قول ساذج غبي لا يثبت للبحث العلمي ولو رددوه في كل كتبهم بلا استثناء .

إنما الذي يناسب البحث العلمي أن نقول إن الأرض كانت موجودة من قبل ولكنها لم تستثر حاسة الملك عند الناس لأنه لم تكن هناك فائدة تتحقق من امتلاكها ، وبمجرد ظهور الفائدة تحركت الحاسة التي كانت موجودة من قبل في حالة كمون ، فنشطت وتحركت للعمل .

وقد تكرر هذا في التاريخ أكثر من مرة .

فالحيوانات قبل استئناسها كانت موجودة ، ولكنها لم تستثر حاسة الملك لأنه لا فائدة تتحقق من امتلاكها وهي على تلك الصورة . ولكن بمجرد أن أمكن استئناسها ، وظهرت الفائدة منها ، سعى الناس إلى امتلاكها ملكية قبلية أولا ثم ملكية فردية بعد ذلك حين نمت شخصية الفرد واستقل بوجوده الذاتي عن القبيلة . ولم يكن للزراعة دخل في هذا الأمر على الإطلاق ! إنما يرجع الأمر إلى أصلين كبيرين : الأصل الأول : هو وجود الفائدة من التملك أو عدم وجودها ، والأصل الثاني هو درجة النمو الاجتماعي الذي يكون عليه الفرد . وهل هو فرد في قبيلة أم فرد في تجمع أكبر من القبيلة . فحين يكون فردا في قبيلة تكون القبيلة هي « الوحدة » النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يمارس

الفرد من خلالها وجوده،فلا تكون الملكية للفرد ولكن تكون للقبيلة فى مجموعها ، ثم تتناحر القبائل فيما بينها على الملكية إذا كانت الجاهلية هى التى تحكمها . وحين يكون فردا فى تجمع أكبر من القبيلة يكون وجوده الفردى أكثر بروزا،إلى أن يصبح فردا فى أمة فتكون ذاتيته الفردية فى أبرز أوضاعها ، ثم يتناحر الأفراد - من خلال وجودهم الفردى أو وجودهم الطبقى - إذا كانت الجاهلية هى التى تحكمهم .

وعلى ذلك نقول إن الشيوعية الأولى - على فرض وجودها - ليست دليلا يقينيا على عدم وجود نزعة فطرية للتملك ، إنما هى دليل فقط على عدم وجود نشاط ظاهر لهذه النزعة فى تلك الفترة ، لأنها نشطت بالفعل بمجرد وجود حوافز تستثيرها .

ونقول ثانيا إن هذه النزعة يمكن أن تهذب إلى درجة عالية جدا توشك أن تحولها إلى نزعة جماعية كما صنع التهذيب الإسلامى بالأنصار حتى جعلهم يؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويقتسمون معهم كل ما يملكون من متاع الحياة الدنيا ، حتى قال الله فيهم .

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » « ١ »

ولكن هذا التهذيب لا يلغى النزعة الفطرية من أساسها،إنما يرفعها إلى أنبل صورها مع الإبقاء على أصلها . ولو كان الله منزل هذا الدين ... الذى هذب النفوس إلى هذا الحد الرفيع،يعلم - سبحانه وتعالى - أن إلغاءها بدلا من إبقائها وتهذيبها أنفع للإنسان،أو أنسب لطبيعته،لشرع سبحانه إلغاءها . ولكنا نجد التشريعات كلها والنصوص كلها تؤكد وجودها فى فطرة الإنسان ، ولكنها فقط تعمل على تهذيبها إلى أقصى ما يملك البشر من آفاق التهذيب . وهذا نموذج من النصوص التى تحوى الإثبات والدعوة فى ذات الوقت إلى التسامى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى

---

١ - سورة الحشر [٩]

من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » « ١ » .

فإذا كان الماديون لايؤمنون بهذا الحديث كله ويشمئزون من ذكره ، فإننا نقول لهم أخيرا إن نزعة الملكية الفردية يمكن أن تقهر قهرا كاملا كما حدث فى ظل الشيوعية . ولكن هذا أيضا لا يزيلها من منبتها ! والدليل على ذلك شيئان حدثا فى التطبيق الشيوعى ذاته يهدمان النظرية من أساسها ، ويؤكدان أن الملكية الفردية نزعة فطرية أصيلة فى النفس البشرية .

الشىء الأول هو تراجع الشيوعيين ـ فى التطبيق ـ عن مبدأ الإلغاء الصارم البات لكل نوع من أنواع الملكية الفردية ، الذى بدأوا به حياتهم التطبيقية ، ولجوءهم إلى تمليك الأشياء الشخصية،وسماحهم بالعمل الإضافى - بعد أداء وحدة العمل الإجبارية ـ لمن أراد أن يعمل ، فى مقابل اجر إضافى يمكن أن تشترى به أشياء شخصية يمتلكونها مدى حياتهم .

ولولا أن الشيوعيين وجدوا نزعة الملكية الفردية ذات وجود قاهر ـ رغم كل القهر البوليسى الذى تمارسه الدولة ـ ما تراجعوا هذا التراجع تحت اى ضغط من الضغوط ، لأنه تراجع عن أصل جذرى من أصول النظرية ، يمكن أن يؤثر فى النظرية ذاتها على المدى الطويل !

والشىء الثانى هو تناقص الإنتاج الزراعى المتواصل فى ظل الملكية الجماعية نتيجة لضعف الحافز إلى العمل !

وقد يسأل سائل : ولماذا حدث ذلك فى الإنتاج الزراعى وحده ولم يحدث فى الانتاج الصناعي الذى تقدم تقدما كبيرا فى ظل « النظام » ؟ ونجيب السائل بأن الإنتاج الصناعى ـ وخاصة فى ظل التكنولوجيا الحديثة ـ يمكن ان يخضع للرقابة الصارمة ، ويمكن أن يحدد فيه العامل المهمل بدقة متناهية ، لأن عملية الإنتاج ذاتها توزع العمل توزيعا دقيقا على مجموعة العمال الذين يقومون به ، بحيث يقوم كل منهم بعملية واحدة محدودة تتكرر بذاتها مع كل قطعة من قطع الإنتاج .. فيمكن ـ بسهولة ـ عند مراجعة الإنتاج أن يعرف العامل المقصر حين يقع تقصير . وعندئذ يقدم لمحاكمة عاجلة ، بتهمة التخريب والخيانة ... الخ ،

---

١ ـ سورة آل عمران [١٤ - ١٧]

وقد يحكم عليه بالإعدام ، وينفذ فيه الحكم فورا على رؤوس الأشهاد ، نكالا لما بين يديها وما خلفها ، وإرهابا لمن تحدثه نفسه بالتقاعس والإهمال . أما الإنتاج الزراعى فلا يمكن مراقبته وضبطه بهذه الصورة مهما كانت شدة الرقابة وصرامتها .. ولذلك تناقصت الغلة عاما بعد عام ، حتى صارت روسيا ـ التى كانت من قبل من الدول المصدرة للقمح ، والتى أضيف إليها أوكرانيا ، حقل القمح الخصب فى أوروبا ـ صارت روسيا هذه تستورد القمح من أمريكا بكميات متزايدة !

ولقد زعموا أن هذا ناشئ من الآفات الزراعية !!

ولكن العلاج الذى وضعه خروشوف يكشف عن أن الآفات الزراعية لا علاقة لها بالموضوع ! فإن خروشوف لم يأمر بزيادة الأبحاث الخاصة بوقاية الزروع من الآفات ، ولكنه أمر بإتاحة الملكية الفردية لقسم من المحصول ، وللدار التى يقيم فيها الفلاح ! فظهر جليا أن نقص المحاصيل كان راجعا إلى ضعف الحافز على الإنتاج نتيجة مقاومة الحافز الفردى وقهره ، وأن العلاج هو الاعتراف ـ ولو جزئيا ـ لهذا الدافع بحق الوجود !

ويغنينا هذا عن مزيد من الجدل النظرى الذى لا يصل ـ مع الماديين ـ إلى نتيجة !

« وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » « ١ »

* * *

يقيم الماديون تفسيرهم للحياة البشرية على أساس أن الصراع الطبقى هو قوام هذه الحياة منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى حتى يعودوا إلى الشيوعية الثانية ، وأن هذا الصراع الطبقى متعلق بالملكية الفردية فلا يزول من الأرض حتى تزال الملكية الفردية .. وبمجرد أن تزول الملكية الفردية يرجع الناس إلى الحياة الملائكية التى كانوا عليها أيام الشيوعية الأولى وتستريح البشرية من الصراع ..

وكما قلنا مع الملكية الفردية نقول مع الصراع الطبقى ..

« ١ » سورة الاعراف [١٤٦]

صحيح ما يقولون .. ولكنها صحة محددة بنطاق معين ، وليست صحة مطلقة ..

صحيح بالنسبة للجاهليات .. ففى الجاهليات يصدق القول بأن الذى يملك هو الذى يحكم ، وحين يحكم يشرع لصالح نفسه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .. ومن ثم ينشأ صراع بين الطبقات ، ويدور الصراع حول متاع الأرض ، لأن الجاهلية مفتونة أبدا بمتاع الأرض ، ولأنه فى غياب القيم العليا لا يبقى للناس إلا متاع الأرض يتصارعون حوله ويتقاتلون عليه .

أما فى النظام الربانى فليست هناك ـ بادئ ذى بدء ـ طبقات ! ومن ثم فلا يوجد صراع طبقى !

ومن كان فى شك من هذه الحقيقة فليرجع الى تعريف « الطبقة » وتعريف « الصراع الطبقى » عند الماديين أو عند غيرهم سواء .

الطبقة مجموعة من الناس يجمع بينهم وضع اقتصادى معين،ومن ثم تجمع بينهم مصالح اقتصادية معينة ، ويشملهم وضع تشريعى معين ، فهم إما الطبقة التى تملك ، ومن ثم فهى التى تحكم ، وإما الطبقة التى لا تملك ومن ثم فهى لا تحكم ، وإنما يقع الحكم عليها .

وبيان ذلك من عهود الرق والإقطاع والرأسمالية كالآتى :

فى عهد الرق كان الناس طبقتين رئيسيتين : طبقة السادة وطبقة العبيد . السادة يملكون كل شىء ، ويملكون جميع الامتيازات،والعبيد من بين « الأشياء » التى يملكها السادة ، لا حقوق لهم ، والسيد يتصرف فيهم كما يشاء .

وفى عهد الإقطاع فى أوروبا كان الناس ثلاث طبقات رئيسية : طبقة الأشراف (أمراء الإقطاع) وطبقة رجال الدين وطبقة الشعب . وكان الأشراف ورجال الدين متحالفين كأنهما طبقة واحدة ، وكانا يملكان ويحكمان كل فى دائرته واختصاصه ، والشعب لا يملك ولا يحكم،وإنما يقع عليه عبء الطبقتين السالفتين جميعا .

وفى عهد الرأسمالية انقسم الناس إلى طبقتين رئيسيتين : طبقة أصحاب رؤوس الأموال وطبقة العمال . وفى ظاهر الأمر ـ من خلال مسرحية الديمقراطية والتمثيل النيابى ـ يبدو أن الشعب ـ الذى لا يملك – صاحب سلطان ولكن الحقيقة المستترة وراء المسرحية أن الحاكم الحقيقى هو المالك

الحقيقى ، أى أن الطبقة الرأسمالية هى التى تحكم وطبقة العمال هى التى يقع عليها الحكم .

وفى كل مرة من المرات الثلاث كان يثور صراع طبقى بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة ؛ يؤدى إلى تغير مستمر فى الأوضاع . فالصراع الأول حرر عبيد السيد وحولهم إلى عبيدٍ للأرض أو أقنان . والصراع الثانى حرر عبيد الأرض وحولهم إلى عمال صناعيين . وأما الصراع الثالث فقد أدى إلى الشيوعية . وفى الشيوعية تقول النظرية إن طبقة « البروليتاريا » أى الطبقة الكادحة هى التى تملك وتحكم ، وتبيد الطبقات الأخرى جميعا فينتهى الصراع الطبقى بإبادة الأطراف التى يمكن أن تصارع البروليتاريا فى أى وقت من الأوقات .

فى النظام الربانى لايوجد شىء من هذا كله !

حقيقة إنه توجد ملكية فردية ويوجد فى المجتمع أغنياء وفقراء .. ولكن لا الأغنياء طبقة ولا الفقراء طبقة ، ولا هؤلاء ولا هؤلاء يحكمون !

فالثروة فى المجتمع الاسلامى دائمة التنقل من جيل إلى جيل بحيث لا تكون « طبقة » دائمة من أفراد معينين أو أسر معينة تتوارث وضعا اجتماعيا معينا . فأى فقير يمكن أن يتحول إلى غنى ، وأى غنى يمكن أن يتحول إلى فقير ، فلا يحجزه شىء عن أن يكون هذا أو ذاك ، بحسب تصرفه الشخصى من ناحية ، وبسبب حركة المواريث الدائمة التى تفتت الثروة من مكان وتجمعها فى مكان آخر .

ثم إن أى إنسان قد يتسلم السلطة ، ولكنه حين يتسلمها لا يحكم بهواه ، إنما يحكم بشريعة الله ، وهذه تقوم على أن إنسانية الانسان مستمدة من كونه إنسانا ، لا من كونه غنيا أو فقيرا أو مالكا أو غير مالك ، ثم إنها تطبق على الجميع بصورة واحدة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا الأمة الاسلامية : « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » « ١ » .

وقد يقع الظلم كما قلنا من قبل من سوء التطبيق لشريعة الله ، ومن جور

« ١ » رواه البخارى .

الحكام الذين يحكمون فى بعض الأمور بغير ما أنزل الله ، ولكن يظل الظلم الواقع على مجموع الأمة أقل بكثير مما يقع على الأمم التى لا تحكم بما أنزل الله ، ثم يظل من واجب الأمة المسلمة أن تقاوم الظلم وترد الظالم إلى الصواب ، وإلا فهى آثمة فى حق الله كما أنها آثمة فى حق نفسها .

وحين يشتد الظلم فيثور المسلمون ـ وقد حدث هذا أكثر من مرة فى التاريخ الإسلامى ـ فهو ليس صراعا « طبقيا » بالمعنى الذى يشير إليه التفسير المادى للتاريخ ، لأنه لايوجد طبقة تريد الإطاحة بطبقة أخرى لتأخذ مكانها فى السلطة والتشريع . إنما يطالب الثائرون بالعدل ، أى بتطبيق شريعة الله فى المواضع التى خولفت فيها شريعة الله . وما أبعد هذا عن الصراع الطبقى كما يفهمه التفسير المادى للتاريخ !

إنما يوجد الصراع فى النظام الربانى على أسس مختلفة تماما عن الصراع الطبقى الذى هو محور الحياة فى الجاهلية (إن صدقنا التفسير المادى للتاريخ فى إرجاعه كل الصراعات فى الأرض إلى الصراع الطبقى ، وسنرى الآن أن هذا غير صحيح) .

الصراع الذى أمر الله المؤمنين بخوضه هو هذا الصراع :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » « ١ »

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » « ٢ »

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٣ »

صراع لا علاقة له على الإطلاق « بالطبقات » ولا بالملكية الفردية ! إنه صراع الحق والباطل ، الذى يقول الله فيه :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت

- ١ - سورة البقرة [٢٥١]
- ٢ - سورة الحج [٤٠ ـ ٤١]
- ٣ - سورة الأنفال [٣٩]

فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » « ١ »

وهو صراع لا يتوقف أبدا ما دام هناك حق وباطل .

ونعود إلى التفسير المادى للتاريخ فنجده يحصر الصراع كله فى الصراع الطبقى ، ويحصر أسباب الصراع فى الملكية الفردية ، ثم يزعم أن الصراع سيتوقف حين تزول الملكية الفردية ..

وبصرف النظر عن أن دلالة التاريخ تقول إنه قامت فى الأرض ـ سواء فى الجاهليات أو فى الاسلام ـ صراعات كثيرة غير قائمة على الصراع الطبقى وغير منبعثة من الملكية الفردية ، فإنه يهمنا فى ختام هذه الفقرة أن نكشف عن زيف الدعوى القائلة بأن إلغاء الملكية الفردية سيقضى على الصراع ...

فالشيوعية قد ألغت الملكية الفردية ..

فيم إذن قام الصراع بين لنين وتروتسكى ، وبين ستالين وبيريا ، وفيم المؤامرات الدائمة التى يعلن عن تصفيتها والتغلب عليها ، أو تكون نتيجتها الإتيان بزعيم مقدس جديد بدلا من الزعيم المقدس الهالك أو المدحور ؟!

وفيم الصراع بين شِقّى المعسكر الشيوعى : روسيا والصين ؟!

أولم تلغ الملكية الفردية ؟! فلماذا إذن بقى الصراع ؟!

أولا يدلنا ذلك ـ على أقل تقدير ـ على أن إلصاق الشرور كلها بالملكية الفردية تعسف غير « علمى » أقرب إلى الدعاية الغوغائية منه إلى حقائق الواقع وحقائق العلم ؟!

٥ ـ التطور :

يزعم التفسير المادى للتاريخ أن الحياة الإنسانية فى تطور مستمر إلى الأمام ، وأن كل مرحلة من مراحل التاريخ الخمس كانت أرقى من سابقتها ، أى أنها تعتبر مرحلة « تقدمية » بالنسبة لما سبقها ، فمرحلة الرق أرقى من مرحلة الشيوعية الأولى ، ومرحلة الإقطاع أرقى من مرحلة الرق ، والرأسمالية أرقى من الإقطاع .. والشيوعية أرقى من الرأسمالية ..

وهذه القضية حين تطلق على هذا النحو تكون محل مآخذ كثيرة .

فلو أن التفسير المادى للتاريخ حدد التقدم بميدان العلم والتكنولوجيا لكان هذا معقولا وصحيحا بصفة عامة .. وإن كان اعتبارنا لصحته قائما على أساس

« ١ » سورة النساء [٧٦]

آخر غير الذى يقيم عليه التفسير المادى تصوراته .

فالتفسير المادى كما شاهدناه يجعل المادة هى الأساس .. ونحن نقول إن النفس البشرية هى الأساس فى كل ما يتعلق بالإنسان ، وإن تعامل الإنسان مع المادة ، وكل ما ينشأ عنه من نتائج هو جانب - واحد - من جوانب النفس الإنسانية والحياة الإنسانية .

والتقدم العلمى والتكنولوجى المستمر فى حياة الإنسان ليس قائما على المادة ، إنما هو قائم على تفاعل الإنسان مع الكون المادى من حوله . فلولا أن فى الإنسان نزعة فطرية إلى المعرفة ، ونزعة فطرية إلى استخدام ثمار المعرفة فى تحسين أحواله المعيشية ، ما حدث التقدم العلمى ولا التكنولوجى رغم وجود المادة الدائم من حول الإنسان !

وإذا كانت المادة موجودة حول كل الكائنات الحية ومع ذلك لا تثير فيها الرغبة فى المعرفة العلمية المنظمة ولا الرغبة فى استخدام ثمار المعرفة فى تحسين أحوالها المعيشية .. إلا الإنسان .. فهل يكمن الفرق فى المادة أم فى الإنسان ؟!

تلك بديهية يعمى عنها التفسير المادى للتاريخ ، لا لأنه عَمِىٌّ عنها فى الحقيقة ! لكن لأنها تفتح الباب الذى لا يحبون له أن ينفتح أبدا ، وهو « إنسانية » الإنسان . لأن هذا الباب يمكن أن يؤدى إلى تثبيت « القيم » التى يريدون تحطيمها : الدين والأخلاق،والتقاليد المستمدة من الدين،بوصفها صادرة عن الفطرة الإنسانية أو متمشية معها !

سَدًّا لهذا الباب يقولون إن المادة هى الأصل - لا الإنسان - لأنك لاتستطيع أن تحاسب المادة على شىء من القيم أو تطالبها بشىء منها ! وهو قول - كما أسلفنا - لايمكن فهمه على أساس « العلم » إنما يفهم فقط حين تخرجه من الدائرة العلمية وتنظر إليه من زاوية الهدف المطلوب تحقيقه !

فحين نسلم بالتقدم المستمر فى ميدان العلم النظرى والتطبيقى (مع التغاضى عن وجود ذبذبات فى خط التقدم) فإننا نسلم به على أساس أنه نابع من عوامل موجودة فى فطرة الإنسان وتكوينه ، أودعها فيه الخالق ليعينه فى مهمة الخلافة فى الارض :

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »« ١ »

« ١ » سورة هود [٦١]

« علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم »« ١ »

« وعلم أدم الأسماء كلها »« ٢ »

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »« ٣ »

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه »« ٤ »

« وأتاكم من كل ما سألتموه »« ٥ »

أما افتراض التقدم فى كل جوانب الحياة فقول ينقضه الواقع .

والقضية كلها راجعة إلى أصل المقياس . فإذا أخذنا الحياة المادية — أو بالأحرى التفسير المادى للإنسان — جاز أن نقول ذلك ، فالسيارة لاشك أسرع وأرقى من ركوب الجمل والحمار ، وناطحة السحاب أرقى من الخيمة والكوخ ، و« الفستان » الأنيق المطرز أرقى من قطعة الجلد التى كانت تلبسها امرأة الغابة ، والمكتب الفاخر أرقى من جلسة الكاتب القديم الذى كان يجلس القرفصاء ويسند الورق إلى ركبتيه !

أما إذا جعلنا مقياسنا « إنسانية » الإنسان ، أى القيم والاعتبارات التى ميزت بين الإنسان والمادة وبين الإنسان والحيوان ، فالأمر يختلف اختلافا بينا ، والصورة لن تكون تقدما مستمرا ، ولكن تذبذبا مستمرا بين الصعود والهبوط ، وأسوأ ذبذباتها الهابطة هو الجاهلية المعاصرة فى كل أرجاء الأرض .

إن فكرة التطور المستمر إلى أعلى هى فكرة داروينية ولاشك . وقد تأثر الماديون تأثرا بالغا بالداروينية فى أكثر من موضع من تصوراتهم ونظرياتهم . ولكن دارون كان يتحدث عن أجسام الكائنات الحية ووظائفها الحيوية ، ولم يتحدث عن شىء غير ذلك . أما الماديون فقد أمسكوا خيوط من الداروينية فمدوها مدا واسعا لتخدم أغراضهم الخاصة ، وزعموا أنها صحيحة لمجرد كون الأساس الذى بنوا عليه — وهو التطور — صحيح !

وبصرف النظر عن صحة الداروينية أو عدم صحتها ، فالانسان — منذ

---

١ - سورة العلق [٤ - ٥]
٢ - سورة البقرة [٣١]
٣ - سورة النحل [٧٨]
٤ - سورة الجاثية [١٣]
٥ - سورة ابراهيم [٣٤]

نشأته - له مقاييسه الخاصة التى يختلف فيها عن كل الكائنات من حوله .
ولقد مرت بنا شهادة الداروينية الحديثة بشأن تفرد الإنسان فى كل جوانب تكوينه وجوانب حياته . ومن بين جوانب تفرده أنه متفرد كذلك فى معاييره،فلا تنطبق عليه معايير المادة الجامدة ولا معايير النبات ولا معايير الحيوان .

ومعيار الإنسان - الذى تفرد به بين المخلوقات - أن له طريقين : طريق الهدى وطريق الضلال ، وأنه صاعد إذا سار فى طريق الهدى وهابط إذا سار فى طريق الضلال ، لأن طريق الهدى هو الذى يؤكد على « القيم الإنسانية » التى جعلت الإنسان إنسانا من مبدإ حياته ، وطريق الضلال هو الذى يجانب تلك القيم ويضيعها .

وخط التاريخ البشرى - كما هو معلوم من التاريخ - خط متذبذب على الدوام بين طريق الهدى وطريق الضلال ، ولذلك فهو متذبذب على الدوام بين الصعود والهبوط ، بين الرفعة والانتكاس ، وليس خطا صاعدا على الدوام، متقدما على الدوام كخط التقدم العلمى والتكنولوجى . وليست المسألة أن هذه وجهة نظر وتلك وجهة نظر أخرى على مستوى واحد من احتمال الصحة والخطأ ! فإن مادية الإنسان لايوجد عليها دليل علمى واحد ، بينما توجد عشرات الأدلة ومئاتها على إنسانية الإنسان . ومن ثم يتضح طريق الخطأ وطريق الصواب !

إنما أراد الماديون أن يثبتوا التطور المستمر « التقدمى » فى حياة الإنسان لسببين رئيسيين :

الأول : أن يقولوا إن الفساد الخلقى والتحلل الدينى الذى وجد فى المجتمع الصناعى كان خطوة « تقدمية » .

والثانى : أن يقولوا إن الشيوعية خطوة تقدمية .

فمن أراد أن يكون « تقدميا » فلينبذ بادئ ذى بدء دينه وأخلاقه، ثم ليكن شيوعيا فى نهاية المطاف !

ولا هذا ولا ذاك حقيقة علمية ، إنما هى الأهواء والشهوات .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن »« ١ » .

« ١ » سورة المؤمنون [٧١]

٦) الحتميات :

يقوم التفسير المادى على الحتميات : المادية أى المستمدة من قوانين المادة الحتمية ، والاقتصادية المستمدة من الوضع الاقتصادى ، والتاريخية المستمدة من المرحلة التاريخية التى يوجد فيها الإنسان من المراحل الخمس الكبرى : الشيوعية الأولى أو الرق أو الإقطاع أو الرأسمالية أو الشيوعية الثانية .

والحتميات الثلاث على أى حال مؤد بعضها إلى بعض بحيث نستطيع أن نتعامل معها كأنها حتمية واحدة : مادية اقتصادية تاريخية ، فإنها كلها أوجه لشىء واحد ، وكل حدث من أحداث التاريخ واقع - لامحالة - تحت ظل الحتميات الثلاث .

ولسنا هنا بصدد مناقشة علمية لهذه الحتميات ، فسنرى فيما يلى من الحديث أنها ليست حتميات بحال من الأحوال ! وما يكذبه الواقع لايحتاج أن ندخل معه فى نقاش ، لأن صوت الواقع أصدق من النظريات والفروض .

ولكنا نلفت النظر إلى قضية معينة فيما يتعلق بالحتميات ، هى قضية « الإنسان » .. أين مكانه فى هذه الحتميات ؟ موجود هو أم غير موجود ؟ وإذا كان موجودا فما دوره إذا كان كل شىء يتم بمقتضى الحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية ؟

يقول ماركس : « فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لاغنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم » فإذا كانت مستقلة عن إرادة جميع الناس فمن إذن واضعها ؟ وأى مقياس تقاس به لنقول إنها خطأ أو صواب ؟ وما مسئولية الإنسان الأخلاقية فيها لنقول إن هذا الإنسان خيّر وذاك شرير ؟ أم لا خيّر ولا شرير وكلهم سواء ؟!

إن قضية الحتميات خطيرة فى الواقع أخطر مما تبدو للوهلة الأولى ، لأنها تعنى الإلغاء الكامل لكيان الإنسان الإيجابى ذى الإرادة وذى الفاعلية ، وإلغاء القيم الأخلاقية كلها ، وإلغاء المسئولية أو « الأمانة » التى يحملها الإنسان .

مادام كل شىء مرصودا مكانه على خط سير التاريخ البشرى فما قيمة العمل الإنساني ؟ ما الفرق بين أن يعمل أو لايعمل ؟ وما الفرق بين عمل وعمل ؟ وما قيمة الوجود الإنسانى فى التاريخ البشرى إذا كان الإنسان بهذه السلبية ، يصنع الأشياء بينما هى مستقلة عن إرادته ، كلعبة « خيال الظل » التى تتحرك

فيها الدمى أمام عين الناظر بينما هى فى الحقيقة غير متحركة بذاتها ، إنما تحركها اليد التى تختفى وراء الستار !

وليس بنا أن نلغى أثر الضغوط التى تقع على الإنسان من خارج كيانه وتؤثر فى حركته ، سواء كانت ضغوط المادة بمعنى الكون المادى على اتساعه وبمعنى البيئة المحيطة بالإنسان ، أو ضغوط الأوضاع الاقتصادية ، أو ضغوط المجتمع .. أو أى نوع من الضغوط يقع خارج كيان الإنسان الفرد، ويؤثر فيه على غير رغبته ..

ليس بنا أن ننكر شيئا من ذلك كله .. ولكن هذا ليس مايقوله التفسير المادى للتاريخ فى قضية الحتميات .. إنما يقول ذلك التفسير إن كل حياة الانسان مرسومة له من خارج كيانه ، ومستقلة عن إرادته ، لا يملك أن يقف فيها موقفا يخالف ماتفرضه الحتميات . حتى مشاعره لايملكها ! إنما يكونها له الوضع الاقتصادى على غير إرادة منه : « ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ولكن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » (ماركس) « إن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لايجوز البحث عنها فى عقول الناس أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، إنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » (إنجلز) .

وحتى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل لاتنسب إلى « الإنسان » ! كأنما تحدث تلقائيا بغير فاعل !! وكأنما عقل الإنسان ومشاعره ليست - على الأقل - جزءا من عوامل التغيير !

ما الإنسان إذن ؟

إنه مجرد « أداة » فى يد جبارة ماردة هى الحتميات !

ليس الانسان هو الذى يصنع التاريخ ، ولكن التاريخ « بحتمياته » هو الذى يصنع الإنسان !

ألا ما أبأس الإنسان فى ظل التفسير المادى للتاريخ ! وما أهون شأنه ! وما أهون دوره كذلك ! دور الاستسلام الكامل للحتميات التى تصنع له حياته وتصنع له تاريخه « مستقلة عن إرادته » !

وماذا يساوى - مع الجبروت القاهر لهذه الحتميات التى لاتستجيب لشفاعة ولا تحفل ضراعة - أن يكتب فى سطر من سطور هذا التفسير أن الإنسان هو سيد هذا الكون ، إذا كان كل سطر من سطور هذا التفسير يجعله

عبدا ذليلا خاضعا لذلك الجبار الذى لايلتفت مرة واحدة لهذا الانسان ، ولايعيره اهتمامه، ولايرحم ضعفه، ولايقيله من عثرته ؟!

* * *

ثم .. « من » الذى يصنع التغيير فى حياة الإنسان ؟! و « ما » الذى يصنعه ؟! وكيف صار للإنسان تاريخ ؟!

يقولون : هى المادة وقوانين المادة ..

وما بنا من حاجة أن نعود إلى السؤال الذى سألناه من قبل : مابال المادة وقوانينها لاتصنع هذا التغيير فى حياة الحيوان ! إنما نقول إن خصائص « الانسان » التى تفرد بها هى التى تصنع تاريخه ، وتصنع التغيرات فى هذا التاريخ . فلولا رغبة الإنسان فى المعرفة - تلك الرغبة المركوزة فى أعماق كيانه - ولولا رغبته فى استخدام ثمار المعرفة فى تحسين أحواله المعيشية فى شتى جوانبها ، المادى منها وغير المادى ، ولولا قدرته على تخيل صورة معينة لأشياء لم توجد بعد فى عالم الواقع ، وبذل الجهد فى محاولة إيجادها فى الواقع ..

لولا هذه « الخصائص » التى تفرد بها الإنسان ، هل كان يمكن أن يكون للإنسان تاريخ ؟!

إن الحيوان ليس له تاريخ .. ولن يكون له ..

فالحمار الذى عاش قبل عشرة آلاف سنة هو الحمار الذى يعيش اليوم ... لم يغير شيئا فى واقع حياته ، ولا يملك أن يغير .. ليس له ماض يرجع إلى تجاربه ، ولامستقبل يسعى إلى تحقيقه . ليس له « ذكريات » ولا « آمال » ولا « تطلعات » تتجاوز شخصه إلى أشخاص غيره من الحمير ، أو تتجاوز لحظته الحاضرة إلى الغد القريب أو البعيد .

ولكن الإنسان - بخصائصه المتفردة - لم يكن كذلك منذ مولده ، إنما كانت له دائما « تجربة » واعية يختزنها فى كيانه فردا وجماعة ويجعلها نقطة ارتكاز ينطلق منها إلى التجربة التالية .. وكانت له دائما ذكريات فردية واجتماعية ، وآمال وتطلعات ، فردية واجتماعية كذلك ، ترسم له - إلى جانب الشهوات والضرورات المركوزة فى كيانه - خط رحلته فى هذه الأرض .

ومجمل تاريخه هو مجمل ذلك كله .

وحين يخترع آلة جديدة فهذا الاختراع نابع من صميم نفسه .. من تجاربه الواعية ، ومن ذكرياته وآماله وتطلعاته .. إنه لاينشئها عبثا ، ولاتنشأ هى فى

حياته بطريقة ذاتية ، إنما يخترعها لتلبى رغبة من رغباتـه الكامنـة ، لأداء ضرورة من ضرورات حياته ، أو لتحسين وضع من أوضاعه ، أو لتحقيق أمر من « الكماليات » بالنسبة له فى تلك اللحظة ، يتحول إلى ضرورة بعد فترة من الوقت ، فيسعى من جديد إلى تحسينه أو البحث عن كماليات جديدة ..

وصحيح أن الآلة الجديدة تحدث تغيرا فى حياته ، قد لايكون منظورا كله وقت التفكير فى اختراعها ، أو لايكون شىء منه منظورا على الإطلاق .. ولكن هنا ينبغى أن نتذكر أمرين مهمين :

الأول : أن الآلة قد اخترعت فى الأصل تلبية لحاجة فى نفس الإنسان يسعى إلى تحقيقها ، ولم تظهر إلى الوجود من تلقاء نفسها ، ولا اخترعها الإنسان عبثا بغير غاية ، ولافرضت عليه فرضا من خارج كيانه .

الثانى : أن التغيير الذى تحدثه الآلة لايجرى على مزاج الآلة ذاتها ، فهى فى ذاتها لا إرادة لها ولا وعى ولا توجيه ، لأنها « مادة » والمادة هكذا .. لا إرادة لها ولا وعى ولاتوجيه ! إنما يجرى التغيير - جزئيا على الأقل - على مزاج « الإنسان » ، وحسب الوضع الذى يعيش فيه . ولا نقصد الوضع الاقتصادى وحده - كما يقول التفسير المادى للتاريـخ - إنما الوضـع كله : الروحى والفكرى والمادى على السواء . فاختراع المحراث الحديدى أدى إلى الإقطاع فى أوربا ، لا لأن المحراث الحديدى يؤدى - بطبيعته - إلى الإقطاع ، ولكن لأن ظهوره فى الجاهلية القائمة يومئذ يمكن أن يؤدى إلى ذلك ، بمعنى أن أطماع ذوى السلطان من الجاهليين يومئذ تجد فى المحراث أداة تمكنها من السيطرة بالصورة التى وقعت فى الإقطاع الأوربى . ولم يكن ذلك ليحدث - بهذه الآلة ذاتها - لو أن القوم هناك كانوا يحتكمون إلى شريعة الله ، إنما كان الوضع الفكرى والروحى الناشئ من اعتناق العقيدة الصحيحة والتحاكم إلى الشريعة الصحيحة يحدث - بهذه الآلة ذاتها - وضعا ماديا واقتصاديا مختلفا عما وقع فى جاهلية القرون الوسطى المظلمة فى أوربا . والآلة التى تدار بالطاقة أدت إلى ظهور الرأسمالية فى أوربا،لا لأن تلك الآلة - بطبيعتها - تؤدى إلى الرأسمالية ! فهى فى روسيا لم تـؤد إلى الرأسماليـة ! ومعلوم أن التصنيع الحقيقى لم يتم فى روسيا إلا بعد دخولها فى الشيوعية ! ولكن لأن ظهورها فى ذلك الوقت - فى الجاهلية القائمة وقتئذ - يمكن أن يؤدى إلى ذلك ، بمعنى أن ذوى السلطان فى تلك الجاهلية يمكن أن يجدوا فيها أداة إلى

السيطرة على النحو الذى تم فى الراسمالية الغربية اليهودية .. ولم يكن ذلك ليحدث - بهذه الآلة ذاتها - لو أن شريعة الله كانت هى الحاكمة فى حياة الناس . إنما كان الوضع الفكرى والروحى الناشئ من اعتناق الناس للعقيدة الصحيحة وتحاكمهم الى الشريعة الصحيحة يحدث - بتلك الآلة ذاتها - وضعا ماديا واقتصاديا مختلفا عن الوضع الراسمالى ، على الأقل بالقدر الذى استطاعت به العقيدة الشيوعية والفكر الشيوعى أن يحدث - بالآلة نفسها - وضعا ماديا واقتصاديا مغايرا للوضع الراسمالى !! ولا عبرة بالقول إن الشيوعية لم تنشأ إلا من تناقضات الراسمالية ، فان الذى حدث بالفعل هو أن تطبيق الشيوعية فى روسيا لم ينشأ من تناقضات الراسمالية هناك ، إنما نشأ - بصرف النظر عن التخطيط اليهودى - من « اعتناق » النـاس للعقيدة الشيوعية ، ذلك أن روسيا قد قفزت رأسا من الاقطاع إلى الشيوعية !

كلا ! ليست هى الحتمية المادية وإنما هو « الإنسان » ! الإنسان بكامله ..

وصحيح كما أسلفنا أن الإنسان يواجه دائما ضغوطا من الكون المادى ومن الأوضاع المحيطة به ، سياسية كانت أو اقتصادية او اجتماعية .. الخ ولكنه فى النهاية هو الذى يقرر .. يقرر أن يخضع للضغوط ويستنيم لها أو يتمرد عليها ويسعى إلى تغييرها . وهو يقرر ذلك دائما على هدى « العقيدة » التى يعتقدها ، سواء كانت عقيدة صحيحة أو فاسدة .

وقد لايستطيع فى كل حالة أن يغير كل الأوضاع بالعقيدة التى يعتقدها . ولكن ذلك لايرجع إلى كون العقيدة لا وزن لها ولا اعتبار ، ولا إلى كونها هى نابعة من الوضع المادى والاقتصادى القائم ، متأثرة به غير مؤثرة فيه ، لاحقة له غير سابقة عليه كما يزعم التفسير المادى للتاريخ ، إنما الأسباب ترجع فى مجموعها إلى « الإنسان » ذاته : هل هو صادق فى اعتناق هذه العقيدة ؟ وإلى أى مدى من الصدق ؟ وهل عنده العزيمة اللازمة لتحقيق متطلبات تلك العقيـدة ، أم إن شهوات الأرض وثقلة الأرض أثقل فى حسه من متطلبـات العقيدة ؟ .. ومن الشهوات شهوة الحرص على الحياة وعدم تعريض النفس للأخطار ، وشهوة حب السلامة والأمن والاستقرار ، وهى الشهوات الغالبة على أكثر الناس فى الأرض . وهى التى تؤدى بهم إلى الوقوع فى الجاهلية ، والخضوع - من ثم - لطغيان الطواغيت .

فخضوع الأكثرية الساحقة من الناس لطغيان الطواغيت خلال التاريخ البشرى ليس حتمية مادية ولا اقتصادية ولا تاريخية خارجة عن إرادة الناس .. إنما هو من عند أنفسهم . إنه واقع عاشته البشرية بالفعل فى جاهليتها كلها ، لابسبب حتمى ، ولكن نتيجة لعدم استقامتها على الطريق .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »« ١ »

على أن الحتميات المزعومة - بصورتها الديالكتيكية - ليست حقيقة حتى بالنسبة للجاهلية !

فقد تنبأ ماركس بحسب حتمياته أن بريطانيا ستكون أول دولة تقع فى الشيوعية لأنها - على عهده - كانت أكثر الدول الرأسمالية تقدما ، فتنبأ بأن الصراع الطبقى « سينضج » فيها قبل غيرها فيحولها إلى الشيوعية .

ويعلم الناس فى كل الأرض أن بريطانيا مازالت حتى هذه اللحظة « ٢ » دولة رأسمالية . كما أن وريثتها التى ورثتها فى التقدم الصناعى الرأسمالى - وهى أمريكا - دولة رأسمالية كذلك .

وقال ماركس وحواريوه إن المراحل التاريخية حتمية ، وترتيبها كذلك حتمى . وإنه لايمكن لأى مجموعة من البشر أن تسبق طورها التاريخى ، لأن كل طور له أداة مادية أو اقتصادية يتم التحول عن طريقها ، فلا يمكن التحول دون وجود هذه الأداة ، فلابد أن يمر البشر بالمراحل التاريخية الخمس بصورة حتمية : من الشيوعية الأولى إلى الرق إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الشيوعية الثانية .

ويعلم الناس فى كل الأرض أن أكبر دولتين شيوعيتين وهما روسيا والصين قد قفزتا مباشرة من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الشيوعية دون وجود أداة التحول التاريخية وهى الصراع الطبقى بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وأن كلتا الدولتين لم تدخل المرحلة الصناعية إلا بعد دخولها فى الشيوعية !

أين الحتميات إذن ؟!

إنما هى من أولها لآخرها قصة مدعاة ، للإيحاء للناس بأن الشيوعية هى النهاية الحتمية لكل البشرية ، فخير لهم أن يدخلوها طائعين بدلا من أن يدخلوها كارهين !

« ١ » سورة الأعراف [٩٧] .

« ٢ » صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٨٣ .

ومن أجل هذا الهدف الدعائى البحت تختلق التفسيرات « العلمية » وتلفق النظريات !

التفسير الجاهلى للتاريخ

كنا إلى هذه اللحظة نناقش التفسير المادى للتاريخ ، فنجد فى كل مرة ثغرة تؤدى إلى ضلالة من ضلالات هذا التفسير . وقد آن لنا أن ندعوه باسمه اللائق به ، فنسميه « التفسير الجاهلى للتاريخ » !

والسبب فى هذه التسمية أولا : أنه لايتعامل إلا مع جاهليات التاريخ . مسقطا إسقاطا تاما فترات الهدى فى التاريخ البشرى ، وأهمها بطبيعة الحال فترة الإسلام .

وثانيا : أنه يفسر التاريخ من زاوية جاهلية بحتة . أى على أساس القيم الجاهلية وهى القيم المادية الخالصة . فهذا شأن معظم الجاهليات التاريخية ، أنها تبرز القيم المادية والاقتصادية وتهمل ماعداها من القيم الإنسانية العليا . لا لأنها غير موجودة فى الحقيقة ولكن لأنها هى تفتقدها بسبب كونها جاهلية .

ولأن هذه القيم المادية الجاهلية ليست هى كل مافى الحياة البشرية ، فإن التفسير الجاهلى للتاريخ يعجز عجزا تاما عن تفسير أى فترة من حياة البشرية تقوم على قيم أخرى غير القيم الجاهلية .

وأشد مايعجز التفسير الجاهلى عن تفسيره هو الإسلام !

ولقد شغل الإسلام رقعة فسيحة من الأرض ، ورقعة فسيحة من التاريخ . وأى تفسير يتجاهله فهو تفسير غير علمى ، وأى تفسير يعجز عن تفسيره فهو غير صالح لتفسير التاريخ البشرى .

ونحن نتحدى التفسير الجاهلى للتاريخ أن يفسر لنا هذه الظاهرة التى شغلت هذه الرقعة الفسيحة من الأرض ، وهذه الرقعة الفسيحة من التاريخ ، وكانت واقعا مشهودا استمر وجوده عاملا فى الأرض أكثر من عشرة قرون ، ومازال قائما حتى اليوم ، ومازال قادرا على أن ينبعث من جديد بعد أن اعترضته فترة من الخمود .

لماذا ظهر الإسلام فى تلك الفترة من التاريخ البشرى ، وكيف ظهر على هذه

الصورة المخالفة للبيئة فى أكثر سماتها ، والمخالفة لكل حتميات التاريخ المزعومة ؟!

أما نحن فنؤمن أنه من عند الله وأنه نزل بقدر من الله، فى الوقت الذى اختاره الله ..

وأما هم فإنهم لايؤمنون بالله .. فليفسروا لنا إذن هذه الظاهرة العجيبة فى التاريخ !

فليفسروا لنا كيف ظهر رجل فى تلك الصحراء فى تلك الحقبة السحيقة من الزمن قبل أربعة عشر قرنا يدعو إلى عبادة الله الواحد بلا شريك ، ونبذ الأرباب الزائفة كلها ، سواء كانت أصناما محسوسة ، أو بشرا تضفى عليهم القداسة الزائفة فتسجد لهم الناس كالملوك والأباطرة ، أو بشرا يشرعون للناس من عند أنفسهم بغير سلطان منزل من عند الله ، أو عرفا جاهليا ، أو وهما تبتدعه رؤوس الناس وتتعبده بالوهم ، ويحرر البشرية بذلك – فى نصاعة وحسم – من حكم الطواغيت ، ومن كل عبودية مذلة لكرامة الإنسان ، برد العبودية إلى المعبود الحق الذى يكرم البشر بعبادته ، وتتحرر عقولهم ووجدانهم ومشاعرهم كما يتحرر كيانهم كله ، فينطلقون أحرارا فى الأرض ينشرون الحق والعدل ، ويحطمون الطواغيت المستبدة بالبشر فى صورة نظم ودول وجيوش ، ويقيمون مجتمعا إنسانيا يتمتع المؤمنون فيه بالأخوة الإنسانية على قدم المساواة ، ويتمتع غير المؤمنين بهذا الدين بالعدل الربانى دون إكراه على اعتناق العقيدة .

وفى الوقت الذى كانت الديانات كلها – سواء كانت سماوية محرفة أو وثنيات من صنع البشر – تقيم بين البشر وربهم وسطاء من الكهنة و « رجال الدين » أو من الأصنام والأوثان ، أو من الأرواح الخيرة أو الشريرة .. يجىء هذا الداعية فيلغى كل وساطة بين العبد والرب ، ويربط القلب البشرى بالله مباشرة بلا وسيط :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » « ١ » .

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » « ٢ »

وفى الوقت الذى يتجبر فيه الأغنياء على الفقراء فى كل الأرض يجىء هذا

« ١ » سورة غافر [٦٠]
« ٢ » سورة البقرة [١٨٦]

الداعية فيلغى سلطان الأغنياء المتجبرين ، لا على أساس الحقد الطبقى ، ولكن على أساس الحق والعدل الأزليين ، فلا يزيل « طبقة » ويحل محلها « طبقة » ، ولايعطى السلطان للفقراء بوصفهم فقراء ، بل ينزع السلطان من البشر جميعا ، أغنيائهم وفقرائهم على السواء ويرده إلى الله ، ويقدم شريعة يخضع لها الناس جميعا حكاما ومحكومين ، ليست من صوغ هؤلاء ولا هؤلاء ، شريعة تتعامل مع « الإنسان » من حيث هو إنسان ، فتلبى جميع احتياجاته الروحية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية ، وترسم له المنهج المتكامل الذى تستقيم به الحياة وتتوازن وتترابط ، على نحو غير مسبوق من قبل ولا ملحوق من بعد فى كل ما كان من دساتير البشرية إلى اليوم .

وفى الوقت الذى كان « الدين » فى كثير من بقاع الأرض أو فى كل بقاع الأرض يرتبط فى نفوس الناس بالخضوع والاستكانة - لا لله وحده المعبود الحق - بل لأوضاع ظالمة فى المجتمع ما أنزل الله بها من سلطان ، ويرعى الكهنةُ ورجالُ الدين هذا الذل وينمونه فى نفوس الناس باسم الدين فيخضعونهم للمتجبرين من ذوى السلطان ، يجىء هذا الداعية فيقول للناس إن من رضى بالظلم فى الدنيا وهو قادر على إزالته أو الخروج من سلطانه فلا مكان له عند الله فى الآخرة وله عذاب عظيم ، ويصبح اسمهم « ظالمى أنفسهم » : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا »« ١ »

وفى الوقت الذى تهان فيه المرأة وتحتقر ، يدعو إلى تكريمها ورعايتها ويبرز إنسانيتها .

وفى الوقت الذى يسام فيه الرقيق أقسى أنواع المهانة والخسف يدعو لتحرير الرقيق وإحسان معاملته على أساس إنسانى .

وفى الوقت .. وفى الوقت .. وفى الوقت ..

ثم ليفسروا لنا كيف استطاع هذا الرجل أن يربى على هذه المبادئ أمة ..

« ١ » سورة النساء [٩٧ - ٩٩]

أمة كانت مجموعة من القبائل المتناثرة المتناحرة تأبى أن تتحد وتتآلف مع وجود كل العناصر التى تدعو إلى التآلف .. وحدة الأرض ، ووحدة اللغة ، ووحدة العقائد ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة الجنس .. ومع ذلك تحول بين توحدهم ثارات الجاهلية ونزاعاتها التافهة التى لاتساوى لحظة واحدة من الصراع ! ومن هذا الشتيت المتناثر لايبنى هذا الرجل أمة - أى أمة - وإنما أمة فريدة فى التاريخ ، أمة عقيدة .. أمة لاتقوم على رابطة الأرض ، ولا رابطة الدم ، ولا رابطة اللغة ولا رابطة المصالح القريبة ، إنما تقوم على رابطة العقيدة ، فيجتمع فيها العربى القرشى ، والحبشى والرومى والفارسى ، على قاعدة واحدة من المساواة فى الانسانية والمساواة فى العقيدة ، ويكون التمايز بينهم على قاعدة جديدة كل الجدة على تلك البيئة بل على البشرية كلها يومئذ « إن إكرمكم عند الله أتقاكم »« ١ »

أمة تقوم على الأخوة فى الله : « إنما المؤمنون إخوة »« ٢ »

أمة تقوم على التكافل : « ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »« ٣ » .

أمة تقوم على العدل الربانى « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »« ٤ »

باختصار .. أمة فريدة فى التاريخ ..

وليفسروا لنا كذلك كيف انساحت هذه الأمة فى أرجاء الأرض بهذه السرعة المذهلة ، لا غازية للأرض ، ولا مستعبدة للناس ، ولكن ناشرة لتلك العقيدة التى تزيل القداسة عن البشر وتوجه العبادة لله وحده ، وتدعو إلى الأخوة والتكافل ، وتدعو إلى تحرير المرأة وتحرير الرقيق .. فتنتشر هذه المبادئ كلها بالسرعة المذهلة التى تفتح بها الأرض !

فليفسروا لنا هذا كله بمقتضى تفسيرهم الجاهلى للتاريخ !

أى تغير مادى حدث فى الجزيرة العربية - بل فى العالم أجمع - أدى إلى ظهور هذا الرجل صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة ونشرها هو وأتباعه من بعده فى أرجاء الأرض ؟!

« ١ » سورة الحجرات [١٣]
« ٢ » سورة الحجرات [١٠]
« ٣ » سورة الحشر [٩]
« ٤ » سورة النساء [٥٨]

أى تغير اقتصادى حدث فى الجزيرة العربية - بل فى العالم أجمع - أدى إلى ظهوره ؟

أى حتمية تاريخية يمكن أن ينشأ عنها هذا الحدث الضخم ، الذى ماتزال ضخامته قائمة حتى اللحظة ؟!

البيئة هى البيئة .. ماتغيرت قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولابعد بعثته لعدة قرون ..

الوضع الاقتصادى هو الوضع الاقتصادى : البيئة الرعوية فى الجزيرة العربية برمتها ، والبيئة التجارية فى مكة والمدينة ..

أما التاريخ .. فلننظر حتميات التاريخ ..

بعد سبعة قرون من مولد هذه الدعوة قامت فى أوربا حركة تحرير العبيد .. وحين قامت فإنها لم تحرر العبيد تماما وإنما حررتهم من قبضة السيد ليكونوا عبيدا للأرض .. وبعد عشرة قرون كاملة بل أكثر حررتهم الثورة الفرنسية من جحيم الإقطاع ! والاسلام حررهم قبل ذلك بعشرة قرون !

بعد اثنى عشر قرنا من مولد هذه الدعوة أو أكثر قامت فى أوربا حركة تحرير المرأة ، التى أعطت المرأة بعض الحقوق التى كفلها لها الإسلام ، ومازالت بعض الحقوق لم تحصل عليها إلى هذه اللحظة .

بعد اثنى عشر قرنا من مولد هذه الدعوة بدأت الدعوة إلى « الديمقراطية » القائمة على الشورى ونزع السلطة الطاغية من الحكام ، وهى الدعوة التى أعطت الناس حقوقا وضمانات لم تكن لهم فى عهود الإقطاع ، وإن كانت « الطبقة » المالكة ماتزال هى الحاكمة من وراء الستار .. بينما أعطي الإسلام كل الضمانات وكل الحقوق قبل ذلك باثنى عشر قرنا مع رد السلطة إلى الله لا إلى المالكين من عباد الله !

بعد أربعة عشر قرنا من مولد هذه الدعوة ماتزال العنصرية البغيضة قائمة فى الأرض ، تقوم على أساسها دول وتقوم من أجلها حروب ، ويعامل « الملونون » فيها على أيدى البيض تلك المعاملة الزرية التى يعرفها الناس فى أمريكا وجنوب افريقيا وفى كل مكان : بينما الإسلام - قبل أربعة عشر قرنا - قد صهر الأجناس والألوان واللغات والشعوب فى أمة واحدة على قدم المساواة حين ربطهم بالعقيدة الواحدة فى الله .

بعد أربعة عشر قرنا من مولد هذه الدعوة مايزال مبدأ كفالة الدولة لجميع أفراد شعبها غير تام التطبيق فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ، والدولة الشيوعية التى تطبقه تطبقه على حساب كرامة الإنسان ، وتستذل الناس بلقمة العيش لكى يخضعوا للسلطان ، بينما قرر الإسلام هذا المبدأ منذ أربعة عشر قرنا مع المحافظة التامة على إنسانية الإنسان وكرامته .

ويطول بنا المقام إذا مضينا نعدد المواضع التى سبق بها الإسلام كل حتميات التاريخ المزعومة ، أو التى تفرد بها فى التاريخ !

فكيف يفسر لنا التفسير الجاهلى للتاريخ ظهور الإسلام وانتشار الإسلام والمبادئ والقيم التى أقرها الإسلام ؟!

هل الوضع المادى والاقتصادى هو الذى غير الناس فى الجزيرة العربية والأرض التى فتحها الإسلام ، أم إنها العقيدة،وإيمان الناس بالله ، وبالحق والعدل الأزليين ؟! وهى أشياء ليست فى المادة ، ولا هى من صنع المادة ، إنما هى فى عقول الناس وقلوبهم ومشاعرهم !

وكيف تغير « أسلوب التبادل » فلم يعد رقا ولم يعد إقطاعا إنما صار تكافلا وأخوة فى المجتمع ؟ ألأسباب مادية أم لعقيدة ملأت النفوس فبعثت الناس يغيرون أسلوب التبادل ليخضعوه لشريعة الله التى تمنع الظلم وتحكم بالعدل ؟!

هل كان وجود الناس هو الذى حدد شعورهم أم إن شعورهم هو الذى حدد أسلوب وجودهم ؟!

ماذا يادعاة التفسير الجاهلى للتاريخ ؟!

لقد كان الإسلام وسيظل أمرا ربانيا لاينطبق عليه أى تفسير يفسر التاريخ البشرى بالقيم الجاهلية الأرضية ، مادية كانت أو اقتصادية . ولكنا نأخذ من الإسلام عبرا لدعاة التفسير المادى ودعاة كل تفسير غير التفسير « الإنسانى » للإنسان .

الإسلام أمر ربانى .. نعم ..

ولكن الذين قاموا بالإسلام بشر ..

ولقد زعم التفسير الجاهلى للتاريخ أن البشر لايتحركون ولايتغيرون ولايغيرون إلا بسبب تغيرات مادية أو اقتصادية .. وأنهم لايمكن أن يتحركوا بشىء معنوى : فكرة أو عقيدة أو قيم أو مبادئ ، لأن هذه كلها تأتى لاحقة

للتغير المادى والاقتصادى ومنبثقة عنه .. فوجود الإسلام فى الأرض بالصورة التى تم بها يعلمنا غير ذلك تماما ..

يعلمنا ان العقيدة : إيمان الناس بالله ، وإيمانهم بالحق والعدل الأزليين ، يمكن ان يحدث تغييرا فى الأرض أضخم بكثير من أى تغيير حدث نتيجة التغير المادى أو الاقتصادى ..

ويعلمنا أكثر من ذلك أن نوع التغيير الذى تحدثه العقيدة يختلف اختلافا جذريا عن التغير الذى يحدث - لأسباب مادية واقتصادية - بلا عقيدة .. الإسلام نشأة جديدة للإنسان ، على أسس من القيم العليا والمبادئ الرفيعة ، بينما التغيرات الأخرى مجرد تغير جزئى من حالة إلى حالة ، لايغير شيئا جذريا فى الإنسان ، وقد يؤدى به إلى الانتكاس والدمار ..

ويعلمنا قبل ذلك وبعد ذلك أن الإنسان ليس مادة .. ولكنه « إنسان » ! وأن النظام الذى يتعامل معه على أنه إنسان أفضل بكثير وأعلى بكثير ، وأكثر فاعلية بكثير من النظام الذى يتعامل معه على أنه مادة ، أو على أنه حيوان !

التفسير الإسلامى للتاريخ

ليس هنا فى الحقيقة مجال الحديث المفصل عن التفسير الاسلامى للتاريخ فذلك موضوع يحتاج إلى بحث مستقل تبسط فيه الفكرة ، وتؤخذ لها النماذج من التاريخ البشرى فى شتى عهوده وشتى أحوال البشر فيه .

ولكنه يحسن بنا ونحن بصدد الحديث عن التفسير الجاهلى للتاريخ عرضا ومناقشة أن نلم على الأقل بالخطوط العريضة للتفسير الإسلامى ، لأنه يكاد يكون الوجه المقابل لذلك التفسير فى كثير من الأسس التى يقوم عليها .

وأحسب أننا ألمحنا إلى بعض هذه الخطوط فى أثناء مناقشة التفسير المادى ، فالآن نحاول تجميع هذه الخطوط فى عرض سريع ، وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى الأسس العامة دون تفصيل .

من البديهيات أن التفسير الاسلامى للتاريخ يتعامل مع الإنسان ابتداء على أنه إنسان ، لا مادة ولا حيوان . وأن التاريخ هو تاريخ الإنسان . أى أن العنصر الفعال فيه هو الإنسان .. الإنسان بمجموعه لا جانب واحد منه . فقد كتب الإنسان هذا التاريخ بكل جوانبه مجتمعة - سواء فى حالات الهدى أو حالات الضلال . كتبه بروحه وجسمه وعقله . كتبه باقتصادياته واجتماعياته

وسياسياته . كتبه بالتعامل مع الكـون المادى ، ومـع الأفكار والقيم ، ومـع الأحلام والرؤى ، ومع الواقع والخيال . كتبه بدوافعـه الداخلية وتـطلعاتـه وطموحاته كما كتبه بالضغوط الواقعة عليه من خارج كيانه ! ضغـوط الكون المادى والضغوط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية .. كتبه بكل ذرة من كيانه . وكل سطر من سطور هذا التاريخ أو إنجاز من إنجازاته فهو صادر من كيان الإنسان كله ، وهو أصيل فى صدورة عن مجموع هذا الكيان لا عن جانب واحد من هذا الكيان .

يتعامل التفسير الاسلامى مع الانسان على أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، مترابطين متماسكين متفاعلين ، يتكون منهما معا كيان موحد .

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » « ١ »

هذا هو تكوين الإنسان : قبضـة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، امتزجتا امتزاجا كاملا وترابطتا وتفاعـل كل منهمـا مع الآخـر فأصبـح من حصيلتهما ذلك الانسان الذى نعرفه ونتعامل معه فى واقع الحياة .

إنه ليس قبضة طين خالصة كما كان قبل النفخة العلوية فيه ، وليس روحا خالصة طليقة من قبضة الطين ، إنما هو الأمران معا فى وحدة مترابطة تختلف فى خصـائصها اختـلافا جـذريا عن قبضـة الطين الخالصـة ونفخـة الروح الخالصة ، وإن كانت تحمل بين الخين والحين بعض المشابه من هذه وتلك ، حين تجنح جنوحا شديدا نحو عالم الجسد أو عالم الروح ، ولكنها حتى فى تلك الحالات لاتكون مماثلة أبدا لأى من العنصرين منفصلين .

فى لحظة الشهوة الجامحة غير المنضبطة يكون أقرب إلى قبضة الطين ، لأنه يتعامل بجسده أكثر من أى جانب آخر من جوانبه ، ومع ذلك لايكون أبـدا جسدا خالصـا كالحيـوان،لأن فيه ـ عـلى الأقل ـ قـدرا من الوعى والارادة والاختيار حتى فى هذا العمل اللاصق بالطين ، بينما الحيوان لايعمل بوعى ولا إرادة حرة ولا اختيار .

وفى لحظة الرفرفة الشفيفة المشرقة المهومة يكون أقرب إلى نفخة الروح ، لأنه ينطلق بروحه من إطار الحس المحدود . ومع ذلك لايكون أبدا روحا خالصة

« ١ » سورة ص [٧١ ـ ٧٢] .

كالملائكة لأن له جسدا لا يستطيع أن يتخلص من وجوده ، وعقلا لايكف تماما عن التفكير . انظر إلى أعلى لحظة وجود عرفها بشر فى تاريخ الأرض ، لحظة الوحى المتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل كان صلى الله عليه وسلم روحا خالصة وهو يصافح جبريل عليه السلام ويتلقى منه . استمع إلى قوله تعالى :

« لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »« ١ »

فقد تحرك العقل وتحرك اللسان ، خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفوته حفظ شيء من التنزيل الربانى ، فطمأنه الله أنه لن يضيع منه شيء لأنه سبحانه وتعالى هو المتكفل بحفظه وجمعه وقرآنه (أى قراءته) وبيانه .

هذا هو الإنسان بعنصريه المكونين له : قبضة الطين ونفخة الروح .

وكل محاولة لتفسيره بواحد من عنصريه دون الآخر هى محاولة مضللة لا تؤدى إلى حقيقة . سواء فسر من جانب قبضة الطين أو من جانب نفخة الروح .

والجاهليات فى التاريخ كله تجنح دائما إلى تفسير الإنسان ـ سواء نظريا أو عمليا أو هما معا ـ بجانب واحد من جوانبه ، أو بجانب غالب بحيث يسحق الجانب الآخر ويقهره ويكاد يلغيه .

الجاهليات المادية تبرز جانب الجسد ، وجانب الحس ، وجانب المادة ، فإذا أخذت شيئا من النفخة العلوية أخذت جانب العقل وأبت جانب الروح ، وسخرت العقل ـ من ثم ـ فى شهوات الجسد ومطالب الحس وعالم المادة ففقد علويته ورفعته ، وأسفّ مع قبضة الطين ، وأنشأ عمارة مادية للأرض خالية من إشراقة الروح .

والجاهليات الروحية تبرز جانب الروح ، وتهمل الجسد وتكبته وتقهره وتحتقره وتقوم بتعذيبه من أجل رفعة الروح ، كما تفعل الهندوكية والرهبانية ، كما أنها تهمل عالم الحس وعالم المادة ، فلايقوم الإنسان بعمارة الأرض ، ولا يقاتل الشر والطغيان ، ولايجاهد لإقامة الحق والعدل ، اكتفاء بلذة « الفناء » فى عالم الروح ، التى يتم من خلالها « الوجود » !

والجاهلية المعاصرة ـ كما هو واضح ـ جاهلية مادية مغرقة فى المادية ،

« ١ » سورة القيامة [١٦ ـ ١٩] .

سواء فى المعسكر الشيوعى أو المعسكر الرأسمالى . قاعدة الحياة مادية بحتة ، وقيم الحياة مادية بحتة ، وعمارة الأرض على أساس مادى بحت . والتفسير المادى للتاريخ هو واقع الحياة هنا وهناك . وإن كانت النظرية ـ فى الحقيقة ـ ملكا للشيوعيين . والنظرية أسوأ بكثير حتى من التطبيق ! ففى التطبيق يتعامل كلا المعسكرين مع الإنسان على أساس أنه حيوان ، أو على أساس أنه آلة فى بعض الأحيان وحيوان فى سائر الأحيان .. أما فى النظرية فينفرد المعسكر الشيوعى بالتعامل مع الإنسان على أنه مادة تنطبق عليه قوانين المادة ، لأن الشيوعية خطوة « تقدمية » فى المخطط الكبير الهادف إلى تسخير الأمميين لشعب الله المختار .

* * *

من قبضة الطين ونفخة الروح أنشأ الله الإنسان وقال للملائكة إنه سيجعله خليفة فى الأرض :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » « ١ »

والخلافة تتضمن الهيمنة والسيطرة والقدرة على الإنشاء والتعمير والقدرة على التمييز والاختيار .. فأمده الله بالأدوات الصالحة للخلافة :

« وعلم آدم الأسماء كلها ... » « ٢ »

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » « ٣ » .

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٤ »

« ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين ؟ » « ٥ »

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « ٦ »

« هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها » « ٧ »

« ١ » سورة ابقرة [٣٠]
« ٢ » سورة البقرة [٣١]
« ٣ » سورة العلق [٣ ـ ٥]
« ٤ » سورة النحل [٧٨] .
« ٥ » سورة البلد [٨ ـ ١٠]
« ٦ » سورة الشمس [٧ ـ ١٠]
« ٧ » سورة هود [٦١]

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه » « ١ »

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » « ٢ »

وجعل الله للإنسان هدفا شاملا يشمل هذا كله هو عبادة الله ، على المعنى الشامل للعبادة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « ٣ »

« قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » « ٤ »

العبادة هى حق الله على جميع مخلوقاته ، حق الخالق على المخلوق .. ولكن الله فرض على كل نوع من مخلوقاته عبادة تناسب تكوينه . « فالمادة » لها عبادة ، والملائكة لها عبادة ، والإنسان له عبادة .. تشترك جميعا فى أنها عبادة وأنها « سجود » وأنها « تسبيح » ولكن تختلف فى الطريقة .

« ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس .. » « ٥ »

« تسبح لله السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » « ٦ » .

واختص الإنسان بلون من العبادة يناسب اختصاصه بالخلافة ، ويناسب تكوينه من جسد وعقل وروح .

فهو يعبد الله بالسجود والتسبيح على نحو معين علمه الله إياه على يد رسله وخاتمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعبده بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى المنزل من عند الله لتنظيم حياة الناس فى الأرض وإقامتها بالقسط .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « ٧ »

ففى صلاته وتسبيحه ونسكه هو عابد لله ، وفى مشيه فى مناكب الأرض وأكله

---

١ - سورة الجاثية [١٣]
٢ - سورة الملك [١٥]
٣ - سورة الذاريات [٥٦]
٤ - سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣]
٥ - سورة الحج [١٨]
٦ - سورة الاسراء [٤٤]
٧ - سورة الحديد [٢٥]

من رزق الله بالضوابط التى أقامها الله من حلال وحرام هو عابد لله . وفى زواجه وإقامة أسرته ورعايتها فى حدود الضوابط والتوجيهات الربانية هو عابد لله . وفى طلبه العلم سواء للتعرف على أوامر ربه ونواهيه ، أو للقيام بعمارة الأرض على المنهج الربانى هو عابد لله . وفى إقامته شريعة الله فى الأرض هو عابد لله . وفى قتاله لتكون كلمة الله هى العليا هو عابد لله .. وذلك معنى قوله تعالى : « قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » « ١ »

* * *

فإذا تبين ذلك تبينت مهمة الإنسان فى الأرض وطبيعة عمله فيها .

ليست مهمة الإنسان أن يأكل ويشرب ويمارس الجنس على طريقة الحيوان وإن كان هذا جزءا من نشاطه وعمله فى الأرض ، ولكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان ، أى ملتزما بما أنزل الله من توجيهات وضوابط ومتقيدا بالحلال والحرام .

وليست مهمته هى الإنتاج المادى وحده ، وإن كان هذا جزءا من نشاطه وعمله فى الأرض،لكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الآلة ، أى واعيا مدركا لأهدافه العليا ، ملتزما فى الإنتاج بالضوابط الربانية التى تحدد الحلال والحرام والحسن والقبيح والمباح والمكروه والمندوب .

مهمته هى « العبادة » بمعناها الشامل الذى يشمل العقيدة الصحيحة ، وشعائر التعبد ، والنشاط الحيوى فى شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية .. الخ ملتزما فى ذلك كله بمنهج الله

وفى جميع الأحوال فعمله ذو طبيعة أخلاقية لاصقة به لايمكن فصلها عنه فهو إما خيرٌ وإما شرير . ولايوجد عمل واحد من أعماله خارج عن نطاق الأخلاق ، سواء كان سياسة أو اقتصادا أو اجتماعا أو فكرا أو فنا ، إلا أن يكون عملا من أعمال الطبيعة غير الإرادية لا يحاسب عليه الإنسان .

وتنشأ القيمة الأخلاقية من كون الإنسان ثنائى الوجهة لا مفرد الاتجاه ، ومن كونه قادرا على التمييز بين الوجهتين واختيار إحداهما .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » « ٢ »

---

١ - سورة الانعام [١٦٢ - ١٦٣]

٢ - سورة الشمس [٧ - ١٠]

والأخلاق ، سواء فى الطعـام والشراب والملبس والمسكن والجنس ، أو فى السيـاسة ، أو فى الاقتصـاد ، أو فى الفكر ، أو فى الفن .. الخ ، هى « القيم العليا » التى يتقيد بها « الإنسان » فى تصرفاته ، والتى يسعى لإقامة الحياة البشرية على أساسهـا ، والتى يكون إنسـانا بقـدر ما يحـرص على أدائهـا وإقامتها ، ويفقد من إنسانيته بقدر ماينفلت منها ويتهاون فيها .

وعلى هذا النحو تكون « إنسـانية » الإنسـان،وتكون كـذلك « كرامتـه »، فالتكريم الربانى للإنسان لم يكن عبثا .

« ولقد كرمنـا بنى أدم وحملناهم فى البـر والبحر ورزقنـاهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ٢ »

إنما يشمل التكريم والتفضيل ـ فيما يشمل ـ هذا العنصر الأخلاقى الذى تقوم عليه حياة الإنسان ، وتقوّم به أعماله كذلك ، لتفترق عن حياة الحيوان ، وتفترق من باب أولى عن تصرفات المادة التى لا وعى لها ولا إرادة ولا إدراك ، إنما تتصرف بالقهر الكامل المفروض عليها من إرادة الخالق ، الذى أنشأها وأجرى أمورها على النحو الذى تجرى عليه ، لا تملك فكاكا منه ولا تعـديلا عليه . وشتان بين ذلك وبين الوضع الكريم الذى وضع الخالق فيه الإنسان ، إذ أعطاه القدرة على التمييز والاختيار ، وجعله مقابل ذلك مسئولا عن تصرفاته بمقتضى تلك « الأمانة » التى حملها ، بينما أشفقت « المادة » من حملها :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فـأبين أن يحملنهـا وأشفقن منها ، وحملها الإنسان .. » « ٣ »

* * *

وتختلف أحـوال البشر اختلافـا جذريـا بحسب الطريق الذى يختارونـه لأنفسهم . ولا يقتصر الاختلاف على مصير الإنسان يوم القيامة إما إلى الجنة وإما إلى النار ، بل يختلف الأمر فى الحياة الدنيا كذلك .

أول اختلاف أنهم إذا اختاروا طريق الله ، طريق الخير ، فعبدوا الله وحده بلا شريك ، وساروا فى حياتهم بمقتضى المنهج الربانى،فقد نجوا بادئ ذى بدء من عبودية بعضهم لبعض ، وتحققت لهم العزة والكرامـة والمساواة التى لا تتحقق أبدا إلا حين ينزع من البشر حق التشريع،ويصبحون كلهم عبيدا لله على

« ٢ » سورة الاسراء [٧٠]
« ٣ » سورة الأحزاب [٧٢]

قدم المساواة ، خاضعين كلهم لشريعة الله .. ونجوا من الظلم الذى يسم الجاهليات جميعا حين يحكم البشر بشرائع من صنع أنفسهم ، فإنه يحدث دائما فى تلك الجاهليات أن طبقة معينة هى التى تحكم ، وحين تحكم فإنها تدير الأمور بالطريقة التى تحقق مصالحها على حساب مصالح الآخرين .

* * *

ثم إن حياتهم تتسم بالنظافة والاستقرار والطمأنينة والبركة .

النظافة المستمدة من أخلاقيات لا إله إلا الله . من الالتزام بالحلال والحرام . من ضبط الدوافع لترتفع عن حيوانية الجسد إلى إنسانية الإنسان ، الذى يمارس الحياة بجسمه وروحه فى آن .

والاستقرار المستمد من تطبيق الشريعة الربانية الحكيمة المحكمة التى لا تخبط فيها ولا انحراف . وليس معنى الاستقرار الجمود عن الحركة ، ولا معناه كذلك الخلو الكامل من المشكلات . إنما معناه استقرار الأسس التى تقوم عليها الحياة . أما الحياة ذاتها فلا تكف عن الحركة الفاعلة ، ولا تخلو من أمور تجد فى حياة الناس تحتاج إلى جهد يبذل لحل مشكلاتها وتقويمها بمقتضى منهج الله .

أما الكدح ذاته فهى من سمات الحياة الدنيا :

« يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » « ١ »

« لقد خلقنا الانسان فى كبد » « ٢ »

ولكن هناك كدحا يتم فى إطار أسس مستقرة وراشدة ، فيكون كدحا مثمرا متمشيا مع الغاية التى خلق من أجلها الإنسان وهى « العبادة » بمعناها الشامل الواسع ، التى تتضمن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى .

وهناك كدح يتم فى غير هذا الإطار الراشد المستقر ، فيكون كدحا مؤديا إلى البوار وإن حقق منافع على المدى القصير .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » « ٣ »

أما الطمأنينة فمصدرها ذكر الله :

---

١ - سورة الانشقاق [٦]
٢ - سورة البلد [٤]
٣ - سورة هود [١٥ - ١٦]

« الا بذكر الله تطمئن القلوب »« ١ »

والاطمئنان إلى قدر الله :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا »« ٢ »

« ما اصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم »« ٣ »

وإحساس الإنسان أنه يصارع مايصارع من القوى فى الأرض وهو مستند إلى الله الذى هو أكبر من القوى جميعا وأعلى :

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم »« ٤ » .

وحتى حين يمسهم السوء بقدر من الله فهم مستعلون بالإيمان :

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ! فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وابقى . قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ! إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ! إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . والله خير وأبقى ! »« ٥ »

وأما البركة فمصدرها رعاية الله وإغداقه على المتبعين لمنهجه بعد أن تنتهى فترة الابتلاء والتمحيص .

« فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »« ٦ »

ومصدرها ارتفاع مشاعر الناس عن التكالب على متاع الأرض ، الذى يحدث الجوعة الدائمة التى لاتشبع ، واللهفة الدائمة التى لاتستقر ، وحين ترتفع

« ١ » سورة الرعد [٢٨]
« ٢ » سورة الطلاق [٣]
« ٣ » سورة التغابن [١١]
« ٤ » سورة ال عمران [١٧٣ - ١٧٤]
« ٥ » سورة طه [٧١ - ٧٣]
« ٦ » سورة نوح [١٠ - ١٢]

المشاعر - بغير رهبانية ولا حرمان - يحدث الرضا النفسى الذى هو عنصر البركة الأصيل .

ومصدرها كذلك الأخوة والتكافل فى المجتمع المسلم الذى يجعل الناس شركاء فى الخير لايختص به فريق دون فريق ..

أما إذا اختار الناس طريق الشر ، فأشركوا بالله فى العبادة أو كفروا به جهرة ونبذوا عبادته وأعرضوا عن شريعته ، فأول مايقعون فيه هو عبودية بعضهم لبعض ، وانقسام المجتمع إلى سادة وعبيد . سادة يملكون ويحكمون ويشرعون ، وعبيد ينفذون وهم أذلاء مهينون .

ثم إن حياتهم تتسم بالاضطراب والقلق ، وفقدان النظافة ، والعبودية للشهوات .

الاضطراب ينشأ من الرؤية البشرية القاصرة ، العاجزة عن الاحاطة ، المحجوبة عن الغيب ، التى تتصرف فى كل لحظة بمقتضى تلك اللحظة ، دون أن تدرك الآثار الكاملة التى تنشأ عن تصرفها حتى تقع تلك الآثار بالفعل فى نفس الجيل أو فى جيل لاحق ، فيكتشف الناس الخلل الذى أصابهم ، فيروحون يعالجونه بعلاج جديد يثير مشاكل جديدة !

والقلق ينشأ من الدخول فى حومة الكدح - حومة الصراع - دون سند من قوة أعلى يطمئن الإنسان إلى نصرتها أو تعويضها له عما يفقده فى أثناء الصراع ..

وفقدان النظافة ينشأ من عدم الالتزام بمنهج الله .. عدم الالتزام بالحلال والحرام . الذى ينتج عنه اندفاع الناس مع شهواتهم وعدم الارتفاع بها ، فتهبط هى بهم إلى المستنقع المنتن الذى تعيش فيه كل الجاهليات .. وتلك هى العبودية للشهوات ، التى لم تنج منها جاهلية من جاهليات التاريخ ، حتى التى جنحت إلى الروحانية والرهبانية .. ففى الجاهلية الهندية الجانحة نحو الروحانية كانت ظاهرة « بغايا المعبد ! » ظاهرة معروفة ، وفى الرهبانية حدث ما أسلفنا ذكره من الموبقات !

أما التقدم المادى والعلمى فخط قائم بذاته خلال التاريخ البشرى غر متعلق بالهدى ولا بالضلال :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا »[1] »

---

(١) سورة الأسراء [٢٠]

منشؤه تلك الرغبة الفطرية التى أودعها الله قلب الإنسان ، التى تدفعه إلى التعرف على خواص المادة وخواص الكائنات الحية من حوله ، ومحاولة استخدام هذه المعرفة فى التحسين المستمر لأحواله المعيشية . وهى رغبة كما قلنا لاتتعلق بالهدى ولا بالضلال .. ومن ثم فجعلها هى المقياس لتقدم الإنسان يؤدى إلى نتائج باطلة .

فقد يحدث - كما حدث فى وقت نشأة الأمة الإسلامية - أن يكون الحاملون للهدى الربانى ، المتبعون لمنهج الله ، متأخرين فى مبدإ أمرهم من الناحية العلمية والتكنولوجية ، قليلى الحظ من العمارة المادية للأرض ، ويكونون مع ذلك فى أعلى درجات الرفعة الإنسانية ، كما كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير أمتى القرن الذى بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم .. »« ٢ » فلا يمنعهم هذا التأخر المؤقت فى ميدان العلم النظرى والتطبيقى أن يكونوا أروع نماذج للبشرية فى أوج ارتفاعها . ولكنهم - بحكم الانطلاقة الهائلة التى تحدثها النشأة الجديدة فى كيانهم - لابد أن يتجهوا بعد فترة من الزمن إلى العمارة المادية وتظهر إنجازاتهم فيها كما حدث للمسلمين فى العهد الأموى والعباسى .

بينما يحدث كثيرا أن يكون قوم فى قمة العمارة المادية للأرض ولكنهم فارغون من القيم العليا ، فتزداد حياتهم خللا وانحدارا كلما أوغلوا فى العمارة المادية ، كما هو حادث فى الجاهلية المعاصرة .

ومن ثم لايصلح التقدم المادى - وحده - معيارا من معايير التاريخ .

حقيقة إنه جزء من مهمة « الخلافة » التى خلق الله الإنسان ليقوم بها فى الأرض ، بحيث يكون الإنسان المتقاعس فى هذا الجانب - مع القدرة عليه - مقصرا فى أداء جزء من مهمته . ولكن العبرة ليست فى مجرد أداء هذه المهمة ، إنما فى الطريقة التى تؤدى بها : هل هى متفقة مع المنهج الربانى ، أى متقيدة بالحلال والحرام ، ونظافة المشاعر ونظافة السلوك ، والأمانة والعدل ، وسائر القيم العليا التى تكون الجوهر الحقيقى لإنسانية الإنسان ، أم غير متفقة مع ذلك المنهج ، أى غير متقيدة بالحلال والحرام والنظافة الحسية والمعنوية والأمانة والعدل .. أى غير محققة لإنسانية الإنسان .

« ٢ » رواه مسلم .

فالتقدم العلمى والتكنولوجى ضرورى لعمارة الأرض ، ومن ثم فهو واجب على أى مجموعة من البشر يضمها تجمع معين . ولكن لابد له من شروط يقوم عليها،وإلا فقد كثيرا من اعتباره،وتحول إلى أداة سلبية تدفع الإنسان إلى الدمار !

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم « ١ » ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »« ٢ »

وليس من الضرورى أن يتم التدمير بمجرد ظهور الفساد واستشرائه .. فإن من سنن الله أن يمد للقوم الظالمين – مع ظلمهم – ويمكن لهم ، ويفتح عليهم أبواب القوة فى كل اتجاه .. ليزدادوا فسادا وانحرافا ، ويزدادوا استحقاقا للتدمير ..

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »« ٣ »

بينما من سنن الله مع المسلمين الا يمكن لهم فى الأرض إلا وهم مستقيمون على طريقه ، فإذا انحرفوا زال عنهم التمكين حتى يعودوا إليه .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا : يعبدوننى لايشركون بى شيئا » « ٤ »

* * *

ويقيم الناس فى حياتهم علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية ليس بعضها نابعا من بعض ولا بعضها تابعا لبعض .. إنما الأصح أن نقول إنها – كلها – أوجه متعددة « لموقف » معين ، فى اتجاهات مختلفة ولكنها مترابطة ..

فالموقف الواحد : على طريق الله أو على غير طريقه ، يتجسم فى كيان سياسى اجتماعى اقتصادى معين ، وفكرى وروحى وخلقى وفنى كذلك .. أى فى جميع

« ١ » أى بالتدمير عليهم لما كذبوا الرسل ولم يستجيبوا لهم .
« ٢ » سورة الروم [٩]
« ٣ » سورة الأنعام [٤٤ – ٤٥]
« ٤ » سورة النور [٥٥]

الاتجاهات ، وتكون كلها - فى المعتاد - متناسقة بعضها مع بعض ، إلا أن يكون هناك اختلال فى الشخصية - شخصيــة الجماعــة - فيكون بعض نشاطها من منبع معين وبعضه من منبع مخالف ، كما هو حاضر « المسلمين » اليوم فى كل الأرض ، يعيشون بعض جوانب حياتهم على تراثهم الذى « ورثوه » وبعض جوانبها الأخرى من الجاهلية المعاصرة ، فى القيم والأفكار والمشاعر وأنماط السلوك .. وهو وضع شاذ فى حياة المسلمين وفى حياة البشرية كذلك .

وتختلف صورة الكيان الاقتصادى باختلاف مدى التقدم العلمى والمادى للجماعة البشرية ، فينتقل من اقتصاد رعوى إلى زراعى إلى صناعى .. الخ .. ولكن العبرة لاتكون بمقدار التغير فى « الصورة » إنما العبرة « بالموقف » الذى تنبثق منه الصور جميعا وتجسده .. وهو لايخرج عن أحد موقفين : إما موقف إيمانى قائم على المنهج الربانى ، وإما موقف جاهلى مجاف للمنهج الربانى . أى أن العبرة ليست بكون المجتمع رعويا أم زراعيا أم صناعيا ، إنما العبرة فى كونه رعويا مؤمنا أم رعويا جاهليا ، وزراعيا مؤمنا أم زراعيا جاهليا ، وصنـاعيا مؤمنا أم صناعيا جاهليا .. وهذا هو الذى يحدد مركزه فى التاريخ الأرضى ، فضلا عن مركز أفراده فى اليوم الآخر« ١ » .

وعلى ذلك فإن القيم فى المنهج الربانى لاتتغـير مع تغـير الصورة . فيـظل المجتمع المسلم - فى جميع أطواره الاقتصادية - عابدا لله ، بمعنى الاعتقاد الصحيح فى الله ، وأداء الشعائر التعبدية لله ، وتحكيم شريعـة الله . ويظل متمسكا بأخلاقيات لا إله إلا الله سواء فى علاقات الجنس ، أو علاقات المال ، أو علاقات الولاء والسلم والحرب .. الخ ، أى ملتزما بالحلال والحرام وبســائر ماأنزل الله .

أما فى « الموقف » الآخر غير الايمانى فلا معيار لشىء ، لأن القيم ذاتها غير قائمة على أساس واضح .. ولهذا يعبث بها من أراد أن يعبث كما عبث اليهود بكل القيم فى المجتمع الغربى مع الثورة الصناعية وزعموا أن عبثهم ذلك حتمية وقانون !

« ١ » فى اليوم الآخر يحمل كل إنسان مسئوليته الخاصة : « الا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » [سورة النجم : ٣٨ - ٤١] « لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم أتيه يوم القيامة فردا » [سورة مريم : ٩٤ - ٩٥] « يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » [سورة الانفطار : ١٩] ولكن مسئولية كل إنسان الاجتماعية داخلة فى مسئوليته الخاصة التى يحاسب عنها يوم القيامة . هل سعى إلى إقامة المنهج الربانى وامر بالمعروف وجاهد المنكر بيده أو بلسانه او بقلبه ام نكل عن ذلك جميعا ..

وصحيح أن هناك سمات مشتركة تصنعها «البيئة» فى المجتمع الرعوى أو الزراعى أو الصناعى قد يتشابه فيها المؤمنون وغير المؤمنين. ولكن هذا الشبه العارض لايجوز أن ينسينا أن الذى يحدد المركز الحقيقى للإنسان فى الدنيا أو الآخرة هو «الموقف» الذى يتخذه، وليست المظاهر الثانوية التى قد تتوافق أو تتعارض بغير تأثير حاسم فى حياة الناس.

* * *

وتقوم فى حياة الناس على الأرض صراعات متعددة ..

فأما فى المجتمع الايمانى فالصراع هو دائما الصراع بين الحق والباطل يأخذ صورا شتى.

صورة منه هى القتال ضد النظم والحكومات والجيوش الكافرة لإزالتها من طريق الدعوة،باعتبار أن وجودها ذاته عائق واقعى يمنع الناس من الاستجابة إلى دعوة الحق .. فأما إذا أزيلت فلا إكراه على اعتناق العقيدة الإسلامية. ولكن تحكم شريعة الله ليستظل بعدالتها الناس جميعا ولو لم يدخلوا فى العقيدة الصحيحة.

وصورة منه هى مجاهدة عوامل الانحراف فى المجتمع الإسلامى ذاته، عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وصورة منه هى مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، اللاصقة بالشهوات، حتى تصير إلى النفس اللوامة التى أقسم بها الخالق جل جلاله، لأنها تنهى النفس عن الهوى.

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة »« ١ »

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى »« ٢ »

وأما فى المجتمع الجاهلى فالصراع لايدور أساسا بين الحق والباطل، وإن كانت تدور بين الحين والحين صراعات بين جوانب جزئية من الحق وجوانب جزئية من الباطل. إنما يدور الصراع أساسا بين قوى الباطل المختلفة. ويتخذ صورا شتى:

صورة منه هى عدوان أمة على أمة بدافع شهوة الغلبة والتوسع والعدوان

« ١ » سورة القيامة [١ ـ ٢]

« ٢ » سورة النازعات [٤٠ ـ ٤١]

والاستزادة من متاع الأرض عن طريق العدوان . إما بتأسيس إمبراطوريات أو « دول عظمى » ! تبتلع الدول الصغرى وتستذلها لصالحها ، وإما بحروب دائمة بين الجيران وغير الجيران .

وصورة منه هى الصراع داخل المجتمع بدافع شهوة السلطة أو شهوة الملك او شهوة الجنس أو شهوة البروز أو غيرها من الشهوات ، على هيئة صراع طبقى وصراع فردى .

ويتلخص الفارق بين نوعى الصراع فى الآية الكريمة :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » « ١ »

والطاغوت هو كل ما يستعبد الناس له من دون الله .

***

والتفسير الإسلامى للتاريخ واقعى واقعية الإسلام .

فمن ناحية يقدر أن الصورة المثالية للتطبيق الإسلامى ليست هى الصورة الدائمة . وأن الضغوط المادية والاقتصادية وضغوط الشهوات البشرية يمكن أن تؤثر فى التطبيق الواقعى فتنزله من صورته المثالية إلى صورة أدنى . ومن ناحية اخرى يقدر أن الحكام يمكن أن يطغوا بسلطان الحكم وسلطان المال الذى فى أيديهم فيجوروا ويظلموا،رغم قيامهم بتطبيق شريعة الله فى المواضع التي لاتخص سلطانهم وامتيازاتهم التى يصنعونها لأنفسهم .

ولكن التفسير الإسلامى - الذى يفسر التاريخ بحسب السنن الربانية - يقول إن هذه الأمور كلها هى انحرافات عن المنهج الربانى الصحيح ، ليس لها إلا إحدى صورتين ، وإحدى نتيجتين :

إما أن تكون فى حيز محدود ، فلا يصيب الظلم أو الفساد رقعة كبيرة من الأمة بسبب تأثير العقيدة فى النفوس من ناحية ، وتأثير تطبيق الشريعة فى حصر الظلم فى الحيز المحدود المحيط بالحكام من ناحية أخرى . وعندئذ تستطيع الأمة أن تعيش فترة طويلة حتى والفساد فى داخلها ، وتكون برغم هذا الفساد الجزئى أفضل وأنظف وأعلى من الجاهلية ... وإما أن تزيد رقعة الفساد عن الحد المعقول ، وعندئذ تدركها سنة الله التى لاتتخلف ولا تحابى أحدا ، فتنهار الأمة حتى وهى تحمل اللافتات الإيمانية ، لأنها تكون عندئذ لافتات مزيفة لا

« ١ » سورة النساء [٧٦]

رصيد لها من الواقع . والسنة الربانية – الحتمية التى لاتتبدل ولا تتحول - لاتتعامل مع اللافتات المرفوعة إنما تتعامل مع الواقع الحقيقى .

وفى جميع الحالات لايغفل التفسير الإسلامى للتاريخ ضغوط « الواقع » المادى والاقتصادى التى يعنى بها التفسير المادى للتاريخ ، وتأثيرها فى نفوس الناس ومشاعرهم . ولكن يختلف الأمر كثيرا ما بين وجود العقيدة وعدم وجودها .

الضغوط المادية والاقتصادية دائما موجودة ودائما ذات ثقل .. ولكن العقيدة ترفع الإنسان بمقدار تمكنها من نفسه وفاعليتها فى حياته ، فأما إن كانت على درجة عالية من التمكن والعمق والفاعلية فانها ترفع الإنسان **فوق** الضغوط المادية والاقتصادية ، فينجو من ثقلها كله ، ويصوغ حياته بمقتضى القيم التى يؤمن بها ولايحيد عنها .. وهؤلاء هم أفذاذ التاريخ .. وأما إن كانت موجودة ولكنها على درجة من التمكن والفاعلية أقل ، فإنها على الأقل ترفع الإنسان فتضعه إزاء الضغوط ، فيصارعها وتصارعه ، ويغلبها مرة وتغلبه مرة ، ويكون ضغطها عليه محسوسا ولكنه ليس قاهرا .. وهذه هى الحالة العادية للمؤمنين،سواء فى صورة مجتمع أو فى صورة أفراد .

أما فى غياب العقيدة فالإنسان فى معظم حالاته واقع **تحت** الضغوط المادية والاقتصادية،لايملك أن يرفع رأسه إزاءها ولا أن يرتفع عليها ، فتكون هى القاهرة وهو المقهور تحتها .. وتلك هى الحالة التى ركز على شرحها التفسير المادى للتاريخ ، وأجاد فى شرح كثير من تفصيلاتها (بصرف النظر عن مغالطاته المكشوفة فى تفسير الدين والأسرة وأخلاقيات الجنس ، وفى تصوير المخطط اليهودى لافساد أوربا فى الثورة الصناعية على أنه تقدم وتطور ، وأنه حتمى !) .

ولكن هذا التفسير أخفق فى أمرين :

أخفق أولا فى إعطاء التفسير الصحيح لتلك الحالة التى ركز عليها ، إذ قدمها على أنها هى الوضع الدائم والطبيعى للبشرية،ولم يعطها تفسيرها الحقيقى ، وهى أنها وضع منتكس للإنسان بسبب جاهليته ، لابسبب أن المادة بطبيعتها رب قاهر والإنسان بطبيعته عبد للمادة !

أما إخفاقه الأكبر فهو – كما أسلفنا – إخفاقه فى تفسير الإسلام ، وهو الوضع الصحيح للإنسان :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون »« ١ »

* * *

ويقول التفسير الإسلامى للتاريخ إن هناك سننا ربانية تحكم حياة البشر على الأرض ، وإنها سنن دائمة غير قابلة للتبديل ولا التحويل :

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » « ٢ »

وسنة الله هى الحتمية الوحيدة فى هذا الكون ، والكون كله خاضع لهذه الحتمية بمافى ذلك الإنسان .

ولكن هناك فارقا أساسيا - بالنسبة للإنسان - بين حتمية السنن الربانية وبين الحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية التى يزعمها التفسير المادى للتاريخ .

إن حتمية السنن الربانية لاتفرض سلوكا قهريا معينا على الإنسان ، ولاتقع بمعزل عن إرادته . إنما هى تفرض نتائج حتمية على السلوك الذى يتخذه الانسان باختياره .

« ظهر الفساد فى البر والبحر **بما كسبت أيدى الناس** »« ٣ »

« ولو أن أهل القرى **آمنوا واتقوا** لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن **كذبوا** فأخذناهم بماكانوا يكسبون » « ٤ »

« وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه »« ٥ »

« **فلما نسوا ماذكروا به** فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون« ٦ » .

« **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها** ، نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون »« ٧ » .

« ١ » سورة الروم [٣٠]
« ٢ » سورة فاطر [٤٣]
« ٣ » سورة الروم [٤١]
« ٤ » سورة الاعراف [٩٦]
« ٥ » سورة الجن [١٦]
« ٦ » سورة الأنعام [٤٤]
« ٧ » سورة هود [١٥ - ١٦]

« إن الله لايغير مابقوم **حتى يغيروا ما بانفسهم** »« ١ »

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان **فكفرت بأنعم الله** فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بماكانوا يصنعون »« ٢ »

نبراس واضح : يختار الإنسان سلوكه ثم تترتب على اختياره نتائج حتمية الوقوع . ويغيرُ الإنسان ماهو عليه فيغير الله له . إن كان فى نعمة فكفرها يغير الله حاله إلى سوء ، وان كان فى سوء فغيره يغير الله حاله إلى الخير .

وتفسح السنن الربانية الرقعة فلاتحصرها فى الحياة الدنيا وأحداثها ، إنما تمدها إلى اليوم الآخر ، الذى يتحقق فيه الجزاء الكامل ، وتكتمل صورة الحق التى لم تكتمل فى الحياة الدنيا :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ؟ »« ٣ »

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينها باطلا .. ذلك ظن الذى كفروا »« ٤ »

فقد يقع الظلم من إنسان ، ويظل ظالما حتى الموت دون أن يأخذ جزاءه فى الحياة الدنيا ، وقد يقع الظلم على إنسان فيظل مظلوما حتى الموت دون أن ينتقم الله له من ظالمه فى الحياة الدنيا . ولكن هذا ليس آخر المطاف .. إنما آخر المطاف يوم « يوفيهم الله دينهم الحق »« ٥ » فينال الانسان جزاءه الكامل على الموقف الذى اتخذه والطريق الذى اختاره ، سواء كان قد عجل له بشىء من الجزاء فى الحياة الدنيا أو أجل له كله إلى يوم الحساب .

وفرق كبير بين وضع « الإنسان » فى التصور الإسلامى والتصور الذى يقدمه التفسير المادى للتاريخ ، وبين حجم الإنسان وحجم فاعليته فى كلا التصوريين . ففى التصور الإسلامى هو حقيقة « إنسان » يمارس مسئوليته فى الأرض . يمارس حمل الأمانة التى اختصه بها الله بين المخلوقات . وهو فى التصور الآخر شبح غير محدد الكيان،أو أداة لا حرية لها ولا اختيار .

* * *

وأخيرا فإن الإنسان فى تطوره التاريخى له كيان ثابت وصور متغيرة على الدوام .

« ١ » سورة الرعد [١١]
« ٢ » سورة النحل [١١٢]
« ٣ » سورة المؤمنون [١١٥]
« ٤ » سورة ص [٢٧]
« ٥ » سورة النور [٢٥]

فأما الكيان الثابت فمصدره الفطرة . وأما الصور المتغيرة فمصدرها التفاعل الدائم بين هذه الفطرة وبين الكون المادى ، ومحاولة الإنسان الدائبة تحقيق التسخير الربانى لما فى السموات والأرض من أجل الإنسان :

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه »« ١ »

والفطرة البشرية ذات مرونة تسمح لها بالتشكل المستمر ، بمايناسب القدر الذى يتم تسخيرة من طاقات السماوات والأرض . ولكن هذه المرونة - وهى مزية ميز الله بها الإنسان ليعينه على دور الخلافة فى الأرض - ليس معناها انعدام الشخصية الإنسانية ، أو السلبية الكاملة ، أو عدم وجود كيان محدد للإنسان . إنما معناها فقط عمق هذه الشخصية وسعتها وتعدد جوانبها . بحيث تستطيع أن تستوعب أشكالا متعددة من الحياة ، وتبذل ألوانا متعددة من النشاط .

وحقيقة إن هذه المرونة تجعل الإنسان يحتمل كثيرا من الضغوط ، ويتشكل تحتها بصور تخالف ماهو مفروض أن يكون عليه فى حالته السوية ، مما يغرى الطغاة على طول التاريخ البشرى أن يضغطوا على شعوبهم ويستعبدوهم . ولكن هذا ليس معناه عدم وجود حدود حاسمة للكيان البشرى يقف عندها فى تشكله . أو فى خضوعه للضغوط الواقعة عليه ، فإنه فى النهاية يثور ..

ومعنى ثورته أن احتماله للتشكل الخاطئ الذى فرض عليه بالضغط قد انتهى ، وأنه يريد أن يصحح وضعه بمايناسب كيانه الطبيعى .. وسواء نجحت الثورة أو فشلت فدلالتها ثابتة فى الحالين .. والنجاح والفشل مسألة ظروف مواتية أو غير مواتية ، ومسألة إعداد وتنظيم أو فوضى وارتجال . أما الثورة فمعناها أن شيئا مخالفا لطبيعة الإنسان قد فرض عليه بالقوة،وهو يريد أن يرده عنه ليعود إلى وضعه الطبيعى .

وفى التاريخ البشرى ثورات كثيرة فاشلة وناجحة ، هى محاولات دائمة لدفع ضغوط مفروضة وتصحيح أوضاع خاطئة .. وكل ثورة تحدث « شيئا ما » فى حياة البشرية يغير خطاها إلى خط جديد .. ولكن تظل البشرية تتخبط مادامت بعيدة عن المنهج الربانى ، فتحل مشكلة بمشكلة جديدة ، وتتخلص من ضغط لتقع فى ضغط من نوع آخر ، كما خرجت من الرق إلى الإقطاع ، ومن الإقطاع

« ١ » سورة الجاثية [١٣]

إلى الرأسمالية ، ومن الرأسمالية إلى الشيوعية . ولاسبيل لها إلى التصحيح الحقيقى لأوضاعها إلا بالدخول فى المنهج الربانى ، الملائم للفطرة السوية ، المنزل من عند خالق هذه الفطرة ، العليم بمايصلحها ومايصلح لها . وهو منهج ثابت القيم والأركان كثبوت هذه الفطرة ، ويسمح فى الوقت ذاته بتغير الصورة على الدوام بمايلائم النمو الدائم للحياة البشرية . ولكنه لايسمح بالصورة المنحرفة لأنها تمرض الفطرة ، وتؤدى إلى الفساد فى الأرض . ومن أجل ذلك يجعل القواعد الثابتة هى التى تحكم المتغيرات ، ولايسمح للمتغيرات بتغيير القواعد الثابتة .

ولاتزال البشرية تهتدى فتستقيم حياتها ، وتضل فتصيبها السنه الربانية التى تترتب على الضلال . ولكن لاتوجد حتمية واحدة للهدى ولا حتمية واحدة للضلال . إنما الانسان هو الذى يقرر لنفسه :

« ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » « ١ »

« والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »« ٢ »

تلك لمحة سريعة عن التفسير الإسلامى للتاريخ فى مواجهة التفسير الجاهلى ، قد لاتكون كافية لإبراز ملامحه .. ولكنها تكفى على أى حال لرؤية الهوة العميقة التى يضع التفسير المادى فيها الإنسان .

ثالثاً : المذهب الاقتصادى بين النظرية والتطبيق

أشرنا فى التمهيد إلى أن الشيوعية ليست مذهبا اقتصاديا بحتا كما يجرى الحديث عنها أحيانا ، ولكنها تصور شامل للكون والحياة والإنسان ولقضية الألوهية كذلك ، وتفسير شامل لذلك كله على أساس مادى .

بعبارة أخرى فإن المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ جزء من « النظرية » الشيوعية لا ينفصل عنها . ولذلك لم يكتف ماركس أو إنجلز أو غيرهما من الكتاب الشيوعيين بأن يتحدثوا عن الشيوعية كمذهب اقتصادى ،

« ١ » سورة الشمس [٧ - ١٠]
« ٢ » سورة العصر [١ - ٣]

إنما جعلوا حولها هذه الفلسفة الشاملة لتفسرها - أو لتبررها - سيان .

وهـذا الذى صنعه مـاركس وإنجلز والمفسرون الشيـوعيـون هـو الأمـر الطبيعى ، الذى يتجافاه أو يتجاهله الذين يتحدثون عن الشيوعيـة كمذهب اقتصادى بحت . ذلك أنه لايوجد مذهب اقتصـادى مجـرد ، ليس له ارتباط بتصور شامل عن الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية !

ورغم أننا لا نوافقهم فى زعمهم أن الأوضاع الاقتصادية والمادية هى الأصل الدائم الذى تنبثق منه الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، والفنيـة .. الخ ، فإننا نرى - كما أشرنا من قبل - أن هناك ارتباطا بين هذه الأمور كلها، لأنها أوجه مختلفة لقضية واحدة،أو لموقف معين من قضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان .

وسواء أخذنا بوجهة النظر هذه أو تلك فإن النظرية الاقتصادية لايمكن أن تقف وحدها مجردة عن فلسفة شاملة تربطها بالقضايا الأخرى كلها ، سواء كانت هذه النظرية شيوعية أو رأسمالية أو إسلامية ..

وقد نجد فى التحليل الأخير أن الفلسفة المحيطة بالنظرية الشيوعية لا تختلف كثيرا - فى جوهرها - عن الفلسفة المحيطة بالنظرية الرأسمالية !

فكلتاهما فلسفة مادية حيوانية لا ترتفع بالإنسـان عن مستوى المـادة أو مستوى الحيوان ، وتعتبر الوضع المادى والاقتصادى هو الأصل الذى يشكل الحياة .. وكلتاهما تبعد المنهج الربانى كلية عن أن يحكم الحياة أو يسيـطر عليها . وكلتاهما تبيح الفساد الخلقى وتسمح له أن يستشرى فى الأرض !

ولكنا سنجد - على الأقل - فرقا فى الدرجة بين هذه وتلك !

فالشيوعية أشد إمعانا فى إبعاد المنهج الربانى إلى حد النص الرسمى على الإلحاد فى صلب الدستور : « لا إله . والكون مادة » وأشد إبعادا للإنسان عن إنسانيته ، باعتبارها إياه مادة خالصة،لا خليطا من المادية والحيـوانية كمـا تصنع الرأسمالية .

إن الفارق الوحيد - الذى يرونه جوهريـا ولا نراه كـذلك - هو فى « من يملك » ؟ وهـو فارق فى « القشـرة » الاقتصاديـة والسياسيـة والاجتماعيـة والفكرية أكثر مما هو فارق فى الأصل الذى تغطيه هذه القشرة . لأن النزاع انحصر كما هو ظاهر فى « من يملك » ولم يتجاوزه إلى النظر فى المالكين أنفسهم ، ونظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية ، وهل هى نظرة صحيحة

أم خاطئة ، وهل هم – بمعيار القيم الإنسانية - مرتفعون أم هابطون .

فإذا وجدنا - بالمعايير الربانية - أن المالكين كلهم سواء في الجاهلية المعاصرة . كلهم جاهليون ، كلهم نابذون للمنهج الرباني معادون له مصرون على إبعاده عن حياتهم ، فإن الفوارق الجزئية بينهم بعد ذلك تظل فوارق ثانوية. وليست جوهرية كما قد ينظرون إليها فيما بين بعضهم وبعض ، وخاصة في لحظات التنازع والخصام .

وصحيح أن « مظهر » الحياة يختلف كثيرا فيما بين الرأسمالية والشيوعية ، على الأقل من الناحية الاقتصادية والناحية السياسية ، ولكننا نضرب مثلا لتقريب الصورة فحسب .. إذا دخلت مكانا تحسب أن فيه « أدميين » فوجدت أنه عبارة عن حظيرتين كبيرتين ، الدواب في إحداهما طليقة « سائبة » وفي الأخرى مربوطة مقيدة . فليس الذي يبدهك للوهلة الأولى هو أن هذه سائبة وهذه مقيدة ، إنما الذي يبدهك أنك وجدت الدواب حيث كنت تتوقع وجود الآدميين ، ولابد – بطبيعة الحال – أنك ستلحظ الفارق بين مجموعة الدواب هذه وتلك ، وقد تلحظه لأول وهلة ، ولكنك لا تعيره اهتماما كبيرا طالما أنت ناظر إلى قضية وجود الدواب في مكان الآدميين . أما إذا ألقيت هذه القضية جانبا فسيتضخم في حسك ولا شك ذلك الفارق الشكلي ، وستروح تبحث ، أيهما الأولى : أن تكون جميعها سائبة أم جميعها مقيدة !

تشبيه تمثيلي لتقريب الصورة فحسب .

فمن وجهة النظر الإسلامية لا يفترق الوضع الرأسمالي كثيرا عن الوضع الشيوعي . كلاهما وضع جاهلي يحكم بغير ما أنزل الله . كلاهما ينفر نفورا تاما من إدارة شؤون الحياة بمقتضى المنهج الرباني . كلاهما لا يعترف على الإطلاق بأن حق التشريع ، أي حق تقرير الحلال والحرام والحسن والقبيح والطيب والخبيث ، هو حق الله وحده ، إنما يقوم كلاهما على أن هذا الحق هو حق البشر وحدهم من دون الله .. ثم يختلف هؤلاء البشر فيما بينهم بعضهم يذهب إلى اليمين ، وبعضهم يذهب إلى اليسار ، وكلاهما يتنكب الطريق .

* * *

بعد هذه المقدمة الضرورية ، التي نخلص منها بنتيجتين رئيسيتين : الأولى أن الشيوعية ليست مذهبا اقتصاديا بحتا يمكن تجريده بمفرده ، إنما هي تصور شامل للكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية،ثم مذهب اقتصادي

مبنى على هذا التصور ومرتبط به بحيث لا يمكن فصله عنه . والثانية أن الفارق بين الفلسفة الشيوعية الخاصة بقضايا الألوهية والكون والحيـاة والإنسان والفلسفة الرأسمالية المتعلقة بهذه القضايا ذاتها فارق ثانوى من وجهة النظر الإسلامية ، لأنه فارق فى « القشرة » وليس فى الجوهر الحقيقى ...

بعد هذه المقدمة نأخذ فى الحديث عن المذهب الاقتصادى فى الشيوعية ، مبتدئين بالنظرية ثم معقبين بالتطبيق .

النظرية الشيوعية

تقوم النظرية الشيوعية على مجموعة من الأسس والمبادئ يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

١) إلغاء الملكية الفردية إلغاء باتا وإحلال الملكية الجماعية بدلا منها .

٢) إلغاء الطبقات بإقامة دكتاتورية البروليتاريا وإبادة الطبقات الأخرى

٣) كفالة الدولة لجميع « المواطنين » في مقابل تكليف القادرين منهم بالعمل رجالا ونساء .

٤) المساواة في الأجور .

٥) إلغاء الدين .

٦) تطبيق مبدأ « من كل بحسب طاقته ، ولكل بحسب حاجته » .

٧) إلغاء الصراع من المجتمع البشرى بإلغاء الباعث عليه وهو الملكية الفردية .

٨) إلغاء الحكومة في المستقبل ، وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة .

ونحاول فيما يلى بسط كل واحد من هذه المبادئ في إيجاز دون تفصيل

١ - إلغاء الملكية الفردية :

أسلفنا القول في مناقشة المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ أن الشيوعيين يعتبرون الملكية الفردية هى المسئولة عن كل الشرور التى خاضتها البشرية منذ تركت مرحلة الشيوعية الأولى حتى دخلت مرحلة الرأسمالية ، وأنها كانت خلال ذلك التاريخ كله مثار « الصراع الطبقى » الذى يبعث الأحقاد والاضطرابات في المجتمع البشرى . وأنه لابد من إزالتها والرجوع بالناس إلى الملكية الجماعية التى كانوا عليها في الشيوعية الأولى لكى تستريح البشرية من الصراعات والأحقاد وتعيش في طمأنينة وسلام .

ويرى الشيوعيون أن الشيوعية الثانية والأخيرة التى يدعون إليها هى الحل ،وهى طريق الخلاص . لأنها ستلغى الملكية الفردية إلغاء باتا وتحل الملكية الجماعية محلها ، فلا يملك أحد شيئا من وسائل الإنتاج وأدواته ملكية فردية . سواء كان الإنتاج زراعيا أو صناعيا ، إنما تكون الملكية جماعية .

وليس معنى الملكية الجماعية أن أى مجموعة من الناس يملكون أو يمكن أن يملكوا ما تحت أيديهم من وسائل الإنتاج وأدواته ملكية مشتركة ، كأن يملك العمال المصنع الذى يعملون فيه ، أو يملك الفلاحون المزرعة التى يفلحونها (كما يتبادر أحيانا إلى أذهان السذج الذين يستمعون إلى الدعاية الشيوعية فيتصورونها على غير حقيقتها) إنما معناها أن « الدولة » هى المالك الوحيد للإنتاج كله ، بوسائله وأدواته وناتجه ، فهى التى تملك المصانع وإنتاجها كما تملك المزارع ومحاصيلها . وتقول النظرية إن الدولة تقوم بذلك نيابة عن الشعب ، أو عن طبقة « البروليتاريا Proletariat » (ومعناها الطبقة الكادحة) التى يفترض فيها حسب النظرية أنها هى المالك الحقيقى ! ذلك أن النظرية الشيوعية تقول إن المنتج الحقيقى لأى سلعة هو العامل الذى يبذل الجهد لإنتاجها . ولكنه فى ظل الإقطاع والرأسمالية لايملك الناتج الذى أنتجه بجهده ، إنما هو يبيع جهده للإقطاعى أو الرأسمالى الذى يشترى هذا الجهد بأبخس الأثمان ويستمتع وحده بفائض القيمة (وهو الفرق بين ثمن المادة الخامة مضافا إليه أجر العامل وبين سعر السلعة فى السوق) وعلى هذا يعتبر الإقطاعى والرأسمالى مستغلا لجهد العامل وظالما له ، ويعتبر العامل فى وضع غير إنسانى لأنه مستَغَلّ لحساب إنسان آخر ، وهذا فى شرعة الشيوعية غير جائز لأن الجريمة الكبرى فى حق الإنسان هى أن يكون مستَغَلاً من قبل إنسان آخر . أما فى الشيوعية فليس هناك استغلال من إنسان لإنسان لأن الكل مالكون ، وإن كانت الدولة من الوجهة العملية هى التى تدير هذه الملكية ، وهى التى توزع الناتج على « المالكين الحقيقيين » !

وسنتحدث عن طريقة التوزيع فيما بعد . إنما نكتفى هنا بالقول بأن الدولة هى المتصرف الحقيقى فى جميع الأمور .

ويقول الشيوعيون كما أسلفنا إن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية (بل إنه لاتوجد نزعات فطرية على الإطلاق) وإن الملكية الجماعية هى الأصل فى حياة الإنسان بدليل الشيوعية الأولى . إنما اكتسب الإنسان تلك النزعة الشريرة فيما بعد اكتشاف الزراعة . وإنه ينبغى تطهير الناس من هذا الشر الذى اكتسبوه ، وإعادتهم إلى الحالة التى كانوا عليها أول مرة بجعل الملكية ملكية جماعية .

٢ - إلغاء الطبقات :

منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى التى لا ملكية فردية فيها ، أو بعبارة أخرى منذ بدأت الملكية الفردية بدأ ظهور الطبقات فى المجتمع . اذ انقسم الناس إلى مالكين وغير مالكين . واستغل المالكون ما فى أيديهم من الملك لاستغلال الآخرين الذين لايملكون . فأصبحت الملكية سلطة استغلالية ، وأصبحت الطبقة المالكة هى التى تحكم ، وبما أن السلطة فى يدها فقد صارت تحكم بما يناسب مصالحها على حساب الطبقة التى لا تملك (ومن ثم لا تحكم) واستمر هذا الوضع بصورة سافرة فى عهدى الرق والإقطاع ، وبصورة مقنعة فى ظل الرأسمالية . وتقرر الشيوعية أن هذا كان ظلما فاحشا بالنسبة لطبقة الكادحين الذين هم المنتجون الحقيقيون ، إذ بدلا من أن يملكوا نتيجة جهدهم فإن طبقة السادة التى تستغلهم هى التى تستمتع وحدها بثمرة هذا الجهد ، بينما يظلون هم فى الحرمان والذل والهوان ، وليس أقل الذل أن يضطروا إلى بيع جهدهم للمستغل الذى يعملون عنده أو يعملون لحسابه .

ثم تقرر النظرية أن هذا الظلم الفاحش لا سبيل إلى إزالته إلا بإزالة النظام كله ، نظام الطبقات القائم على الملكية الفردية .

فطالما كان هناك ملكية فردية فهناك طبقات . وطالما كان هناك طبقات فهناك ظلم . والسبيل هو إلغاء الطبقات المستغِلّة (أى المالكة) والإبقاء على الطبقة الوحيدة المنتجة ، وهى طبقة الكادحين (البروليتاريا) لأن الطبقات الأخرى طبقات طفيلية لا تستحق البقاء ، كل عملها أن تمتص دماء الكادحين وهى لا تتعب ولا تبذل جهدا ، إنما تسرق الجهد لتعيش به حياة ترف وكسل وخمول بينما المنتجون الحقيقيون فى شقاء وكدح وعناء .

والطريق المؤدى إلى ذلك هو الثورة . وهى ثورة حمراء تراق فيها دماء غزيرة حتى يستتب الأمر لطبقة البروليتاريا فتصل إلى السلطة وتبيد الطبقات الأخرى إبادة ، ثم تلغى الملكية الفردية حتى لا تظهر من جديد طبقة مالكة تستغل الكادحين .

ويسمى نظام الحكم الذى ينشأ من هذه الثورة « دكتاتورية البروليتاريا » لأن البروليتاريا لابد أن تحكم بالديكتاتورية ما دامت المعركة ما تزال قائمة بين الشيوعية وأعدائها .

وحكمة الديكتاتورية أن أعداء الشعب لا ينبغى أن تترك لهم أى ثغرة ينفذون منها للقضاء على النظام الصحيح (وهو الشيوعية) لأنهم ـ بطبيعة الحال ـ لن يرضوا عن النظام الذى يحرمهم من امتيازاتهم الطبقية ، فهم أعداء ألداء له . وما دام هناك دول رأسمالية وإقطاعية ما تزال قائمة فى الأرض فإن أعداء الشعب سيتعاونون معها ، أو أن هذه الدول ستستغلهم ضد النظام . ولا ينبغى التهاون فى هذا الأمر لحظة واحدة ، ولا التراخى مع أعداء النظام ـ أعداء الشعب ـ بل لابد من مقاتلتهم بكل شدة . والسبيل إلى ذلك هو أن تتولى الدولة كل السلطات فى يدها ، وتقبض على الأمر بيد من حديد .. إلى أن يأتى الوقت الذى ينتهى فيه الأعداء من الوجود ، وعندئذ لاتزول الديكتاتورية فقط بل تزول الحكومة كذلك لانتهاء الحاجة إليها .

٣ ـ كفالة الدولة لجميع المواطنين :

تقوم الشيوعية على مبدأ كفالة الدولة لجميع المواطنين على أساس أن هذا واجب الدولة تجاه المواطنين ، وحق المواطنين على الدولة . ويندد الشيوعيون بالرأسمالية خاصة التى تحتفظ دائما بجيش من العاطلين لتضرب به حركات العمال الذين يتمردون على الظلم ويطالبون بحقوقهم ، وبالإقطاع الذى يترك الناس يموتون جوعا ليكتنز الإقطاعى ويسمن من دماء الكادحين .

وفى « المنيفيستو » أى الاعلان الشيوعى الذى أعلنه ماركس أوجب على الدولة أن تكفل لكل فرد من أفراد المجتمع ضروراته الأساسية وهى الطعام والملبس والمسكن والجنس ، باعتبارها حقوقا طبيعية ، وضرورات ينبغى إشباعها ، وتعتبر الدولة مقصرة إذا قصرت فى تحقيق شىء من ذلك لأى فرد من المواطنين .

وفى مقابل كفالة الدولة لجميع المواطنين فإنه ينبغى على كل قادر على العمل أن يعمل ـ رجالا ونساء ـ ومن لا يعمل لا يأكل . فكما أن الكفالة واجبة على الدولة فالعمل واجب على الفرد مادام قادرا عليه ، ولا يعفى من ذلك أحد على الاطلاق إلا الأطفال حتى يبلغوا السن التى تؤهلهم للعمل ، والعجزة من الرجال والنساء الذين لا يقدرون على أى نوع من أنواع العمل فأولئك تكفلهم الدولة بلا مقابل .

وبما أن الدولة هى ـ من الوجهة العملية ـ المالك الوحيد والمسيطر الوحيد على الإنتاج، فهى التى تحدد لكل فرد فى المجتمع نوع العمل الذى يقوم به ومكانه

كذلك مقابل كفالة الدولة له . وتحدد الدولة صلاحية أى إنسان لنوع معين من العمل بحسب اختبارات تجريها على الأفراد لتحديد مواهبهم وقدراتهم . أما مكان العمل فتحدده الدولة حسب احتياجاتها بوصفها المشرفة على الإنتاج كله .

والمرأة - كالرجل - لابد أن تعمل فى أماكن العمل خارج البيت .

وكونها زوجة وأما لايتعارض مع هذا المبدأ . فهى تأخذ الإجازة المقررة فى حالات الحمل والوضع ، أما الأطفال فتتولاهم المحاضن لا الأمهات .

ومن ثم فإن أى أم - بعد تمضية الإجازة المقررة للوضع - تأخذ وليدها إلى المحضن وتذهب هى إلى العمل ، حتى تتسلمه مرة أخرى بعد العودة من العمل .

وتقوم المحاضن بتقديم الرعاية المطلوبة للأطفال ، حتى تنتهى أمهاتهم من العمل . حتى إذا كبروا تولت المدرسة ما كانت تتولاه المحاضن من قبل .

وبذلك لا تشغل المرأة بشؤون الأطفال عن واجب العمل خارج البيت .

وتتولى الدولة كفالة الأفراد بتقديم الطعام لهم مقابل بطاقات تموينية موحدة ، وتقديم الملابس مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف على المنوال ذاته ، كما تعد سكنا لكل فرد . أما الجنس فتطلق فيه الحرية للأفراد ينشئون علاقاتهم الجنسية على النحو الذى يحلو لهم . وكانت النظرية قائمة فى الأصل على أساس الشيوعية الجنسية الكاملة باعتبار أن هذه هى الصورة التى كانت عليها الشيوعية الأولى ، وأن هذا هو الأصل فى العلاقات الجنسية . ثم قام لنين بتعديل النظرية فاستبدل بالشيوعية الجنسية الكاملة نظرية « الكوب » التى تقول إن الكوب الذى يشرب به كل إنسان يصبح ملوثا ، وكذلك الجنس لابد أن تنظم علاقاته لكى لا يصبح ملوثا كالكوب الذى يشرب به الجميع ! (وكان هذا بعد الدعاية المضادة التى قامت ضد الشيوعية الجنسية من المعسكرات المعادية) فصارت هناك مكاتب للزواج والطلاق تقوم فقط بتسجيل ما يحدث من الزيجات والانفصالات ، وفى إمكان أى زوج من البشر : رجل وامرأة ، أن يذهبا فى أى وقت إلى مكتب الزواج ليسجلا زواجهما ، كما أن فى إمكانهما فى أى وقت أن يذهبا إلى مكتب الطلاق ليثبتا انفصالهما ، ولا يترتب على ذلك أى إجراءات تقيد حرية العلاقات الجنسية .

٤ ـ المساواة فى الأجور :

تقوم النظرية الشيوعية على أساس مبدأ المساواة بين جميع الأفراد فى المجتمع ، لأن هذه هى الصورة التى كانت عليها البشرية فى الشيوعية الأولى ، وهى ـ عندهم ـ الأصل الذى تستمد منه كل المبادئ التى ينبغى أن تعود إليها البشرية .

تقول النظرية إن أول صورة للوجود البشرى هى التعبير الطبيعى عن هذا الوجود ، وإن أى انحراف طرأ بعد ذلك لا ينبغى أن يعتد به ، بل ينبغى أن تعود البشرية فتصحح أوضاعها بالرجوع إلى الصورة الطبيعية التى كانت عليها أول مرة .

وفى الشيوعية الأولى كان جميع الأفراد متساوين فى الحقوق والواجبات ، وفى المأكل والملبس والمسكن والجنس ، فينبغى أن تكون هذه هى الصورة الدائمة للبشرية . ولكن التطور الذى حدث بعد اكتشاف الزراعة غير هذا المبدأ الجميل ، وأخل بالمساواة التى كانت قائمة فى المجتمع الشيوعى الأول . فأصبح بعض الناس مالكين وبعضهم غير مالكين ، فاختلفت الحقوق والواجبات بين المالكين وغير المالكين ، وأصبحت للمالكين امتيازات اقتصادية (ومن ثم سياسية واجتماعية) تميزهم عن غير المالكين .

ولكن عدم المساواة ليس أصلا من أصول الوجود البشرى ، ومن ثم فهو ظلم ينبغى إزالته . وطريقة إزالته ـ بعد إلغاء الملكية الفردية وأيلولة الاشراف على الإنتاج إلى الدولة ـ أن تسوى الدولة بين أجور جميع العاملين ، لكى تتحقق المساواة التامة فى كل شىء ، ويزول الظلم الذى عاشت فيه البشرية عدة قرون .

ومن أجل تقرير هذه المساواة قررت وحدة عمل إجبارية ينبغى على كل قادر أن يقوم بها ، وتصرف للعامل بمقتضاها كل حاجاته الأساسية من مسكن وملبس ومطعم على قدم المساواة .

وعلى هذا النحو تحقق الشيوعية الثانية ما كان قائما من المساواة فى الشيوعية الأولى ، وتلغى الفوارق والامتيازات الطبقية التى أحدثتها فترات الظلم فى الحياة البشرية ، وهى فترات الرق والإقطاع والرأسمالية .

٥ ـ إلغاء الدين :

تعتبر الشيوعية الدين أمرا واجب الإلغاء من اعتبارات عدة .

أحد الاعتبارات أنه خرافة .. ونحن الآن فى عصر العلم . فقد كان الباعث الأول على الدين هو جهل الانسان بالطبيعة من حوله ، وعجزه عن السيطرة عليها . فتخيل وجود قوى خفية تسيطر على هذا الكون وتجرى الأحداث فيه . وراح يسترضى هذه القوى ليدفع أذاها عنه فتقرب إليها بالشعائر التعبدية وتقديم القرابين .

ولما كانت البشرية اليوم قد شبت عن الطوق ، وتعلمت من العلم ما تعرف به قوانين الطبيعة وتسيطر به على البيئة فقد آن أن تتخلص من هذه الخرافة غير اللائقة بالإنسان المتعلم .

الاعتبار الثانى أنه كان ناشئا من طبيعة الوضع المادى والاقتصادى فى العهد الزراعى ، حيث كان جزء من عملية الإنتاج خارجا عن سيطرة الإنسان ، فتخيل وجود قوة غيبية نسب إليها الهيمنة على ذلك الجزء الخارج عن سيطرته وراح يتعبدها لاجتلاب رضاها وصرف أذاها وغضبها عنه ، وسماها الله .

والآن تغير الوضع المادى والاقتصادى وأصبحت عملية الإنتاج كلها منظورة وكلها تحت سيطرة العامل الذى يقوم بالإنتاج ، فلم تعد هناك حاجة لافتراض تلك القوة الغيبية التى أصبحت الآن غير ذات موضوع .

الاعتبار الثالث أن الدين يخالف المعتقد الشيوعى القائم ـ فى نظرهم ـ على أسس علمية ، وهو أن المادة هى الأصل ، وهى سابقة فى الوجود على الفكر . إذ يقوم الدين على أساس أن المادة مخلوقة ، وبالتالى فليست هى الأصل ، وليست سابقة على الفكر ، ومن ثم وجب إلغاء الدين لأنه يصادم التصور الشيوعى ، الذى ينبغى أن يبقى وحده ويلغى كل ما سواه .

الاعتبار الرابع أن « الدين أفيون الشعب » فقد كان المستغلون من الاقطاعيين والرأسماليين يستخدمونه لتخدير الجماهير لكى ترضى بالظلم الواقع عليها ولا تتمرد عليه ، مقابل الحصول على نعيم الجنة فى الآخرة . وبصفة خاصة فقد كان الدين يستخدم ضد الشيوعية بالذات . فحين يقوم الشيوعيون بالدعوة إلى الشيوعية يستخدم الدين لوقف هذه الدعوة ومحاربتها .

فالآن بعد قيام المجتمع الشيوعى الذى ليس فيه مستغلون ، ينبغى إلغاء ذلك المخدر الذى كانوا يستخدمونه إذ لم تعد هناك حاجة لاستخدام المخدر . ومن جهة أخرى فقد وجب القضاء على ذلك العدو اللدود الذى يستخدم ضد « العقيدة » الجديدة ومحوه من الوجود .

٦ ـ من كل بحسب طاقته ولكل بحسب حاجته :

كان هذا المبدأ من ضمن المبادئ النظرية التى وضعت فى أول الأمر لتقوم الشيوعية عليها .. ومقتضى هذا المبدأ أن الناس فى ظل التطبيق الشيوعى سيرتفعون بمشاعرهم وسلوكهم إلى صورة مثالية تجعل كل إنسان يبذل أقصى ما فى طاقته من جهد من تلقاء نفسه دون ضغط عليه ولا إلزام،ولكن من جراء حبه للنظام وللمزايا التى يحققها له،وشعوره بالاستقرار والطمأنينة والسعادة فى ظله ، وفى الوقت ذاته لايأخذ من الإنتاج ـ الذى يشارك فيه الجميع ، كل بحسب طاقته - إلا بمقدار ما يحتاج إليه فحسب ، فلايزيد عن الحاجة بدافع الجشع والطمع الناشئين أساسا من الحياة فى مجتمع طبقى يمارس الملكية الفردية والصراع الطبقى . فإذا زالت الأسباب زالت الأعراض .. أى أنه إذا ألغيت الملكية الفردية وألغيت الامتيازات الطبقية بإزالة الطبقات كلها إلا الطبقة الكادحة فإن الجشع والطمع يزولان من نفوس الناس بزوال الأسباب الدافعة إليهما ، وعندئذ يأخذ كل إنسان من الإنتاج العام بقدر مايحتاج إليه فحسب ، ويترك الباقى للمحتاجين غيره من الناس .

ولكن عند التطبيق تعدلت النظرية شيئا من التعديل ، فلم يلغ هذا المبدأ إلغاء كاملا ولكنه أجل إلى أجل غير محدد بزمن معين ، ولكنه مرهون بزيادة الإنتاج - بوسائل التقدم العلمى ـ إلى الحد الذى يمكن معه تطبيق المبدأ .

وقيل فى تفسير ذلك إننا بعد لم نصل إلى مرحلة الشيوعية إنما نحن فى مرحلة التطبيق الاشتراكى . ومن أسباب ذلك أننا مشغولون بالمعركة الدائرة ضد أعداء الشيوعية ، وهذا يستوجب توجيه جزء من الإنتاج إلى إنتاج حربى لمنع الأعداء من التغلب علينا أو عرقلة خطواتنا، وهذا يعوق زيادة الإنتاج إلى الحد الذى يكفى كل احتياجات الناس ويفيض عليها،بحيث لا يؤثر على عدالة التوزيع أن يأخذ كل إنسان منه بقدر ما يريد . ومن ثم فإنه فى مرحلة التطبيق الاشتراكى لابد أن تظل الدولة قائمة على التوزيع ، لتعطى كل إنسان نصيبه من الإنتاج بحسب كمية الإنتاج الموجودة بالفعل ، كما تشرف الدولة على الإنتاج لتضمن قيام كل إنسان بالجهد المطلوب منه .

ولكن حين تتحقق الشيوعية يتحقق ذلك المبدأ فيبذل كل إنسان ما فى طاقته من الجهد من تلقاء نفسه ، ويأخذ ما يحتاج إليه من الإنتاج ، مكتفيا من تلقاء نفسه بلا رقيب .

٧ - إلغاء الصراع :

حين تلغى الملكية الفردية ينتهى الصراع . تلك من مقررات المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ .. وقد أشرنا إلى ذلك مرارا ، وما كان بنا من حاجة إلى إفراد هذه النقطة بالحديث بعد أن أشرنا إليها عند الكلام على الملكية الفردية وموقعها من النظرية الشيوعية . ولكنا نريد أن نزيد هنا فى هذه العجالة أن النظرية الشيوعية تتنبأ بحلول هذا العهد السعيد الذى يزول فيه الصراع نهائيا من حياة البشرية ويصبح المجتمع البشرى مجتمعا ملائكيا يسوده الوئام والسلام ، وذلك حين تنتشر الشيوعية فى أرجاء الأرض كلها ، وعندئذ يتحقق الفردوس المفقود فى واقع الأرض وتستقر الأمور فى الأرض إلى آخر الزمان .

٨ - إلغاء الحكومة :

من تنبؤات الشيوعية كذلك إلغاء الحكومة فى مستقبل البشرية .

ونظريتهم فى ذلك أن الحكومة موجودة الآن لأنها تؤدى مهام معينة لابد من أدائها فى المجتمعات الحالية،حتى المجتمعات الشيوعية ذاتها (أى الاشتراكية باعتبار أننا لم نصل بعد إلى مرحلة الشيوعية الكاملة) ولكن الحكومة ليست أصلا من أصول المجتمع البشرى بحيث تلازمه فى جميع أطواره . وسيأتى اليوم الذى تلغى فيه الحكومة إلغاء تاما يوم تنتهى المهام التى تؤديها .

فحين تعم الشيوعية الأرض كلها وتصبح هناك حكومية عالمية واحدة ، يأتى وقت لا تعود هذه الحكومة ذاتها لازمة ، لأن مهمة الدفاع عن الشيوعية ستنتهى ، وهى إحدى المهام التى تضطلع بها الحكومة .

ثم إنه لن يكون هناك صراع يحتاج إلى تدخل الحكومة بالقوة لحسمه ، فتسقط مهمة أخرى من مهام الحكومة الحالية .

ثم يزيد الإنتاج فيصل إلى الحد الذى يجد فيه كل إنسان طلبته دون أن يؤثر ذلك على احتياجات الآخرين ، فلا يعود هناك موجب لتدخل الحكومة فى التوزيع .

وتكون مشاعر الناس قد ارتفعت بتأثير الحياة فى ظل التطبيق الشيوعى ، فيبذلون غاية جهدهم دون حاجة إلى رقابة مفروضة عليهم من خارج ضمائرهم .

وكذلك لايتنازعون فيما بينهم - بعد إلغاء السبب الوحيد فى النزاع

والصراع ، وهو الملكية الفردية ـ فيستتب الأمن تلقائيا نتيجة سيطرة مشاعر المحبة والاخاء والتعاون بين الناس .

وهكذا تسقط كل مهام الحكومة الحاضرة .. فتسقط إلى غير رجعة !

* * *

ذلك عرض موجز لأهم المبادئ والأسس التطبيقية التى تقوم عليها الشيوعية ، لم نر داعيا إلى التوسع فيه بعد ما توسعنا فى مناقشة الأسس الفكرية التى تقوم عليها النظرية . ويتبين من هذا العرض أن الشيوعية ليست مذهبا اقتصاديا مجردا يمكن نزعه بمفرده وتركيبه فى أى نظام آخر لا يشترك معه فى قاعدة التصور . فقد تبين من هذه النقاط أنها لا تقتصر على المجال الاقتصادى ، بل تمتد إلى المجال السياسى والاجتماعى والدينى والفكرى .. الخ .

وبصرف النظر عن قولهم إن هذه المجالات كلها إن هى إلا انعكاس ـ حتمى ـ للوضع الاقتصادى ، وقولنا إن هذه المجالات كلها أوجه مختلفة ـ ولكنها متلازمة ـ لموقف معين من قضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان ، فإن الشيوعية ـ على القولين ـ لم تكن ولن تكون نظاما اقتصاديا بحتا مقطوع الصلة ببقية المجالات . إنما هى نظام شامل للاقتصاد والسياسة والاجتماع والدين والفكر والفن .. مترابط كله على أساس تصور معين .. مادى بحت .

بين النظرية والتطبيق

نضرب الذكر صفحا عن التناقض بين سخرية الشيوعيين بالحق والعدل الأزليين ، وبين قولهم فى النظرية الشيوعية إن استغلال إنسان لإنسان ظلم ينبغى إزالته .. وبين نفيهم أن هناك أصلا ثابتا للكيان البشرى ينبغى أن يرد إليه ويقاس به ، وقولهم إن صورة الحياة فى الشيوعية الأولى ـ بكل ما تحويه من ملكية جماعية ومساواة ولا طبقية وتعاون .. الخ ـ هى الأصل الذى ينبغى أن تعود البشرية إليه ، والذى تسعى الشيوعية الثانية إلى الرجوع إليه لتعيش البشرية فى سلام !

نضرب صفحا عن ذلك التناقض لأننا قلنا فى مناقشتنا للتفسير المادى للتاريخ إنه ليس مبادئ حقيقية يؤمنون بها عن اقتناع « علمى » إنما هى مجرد وسائل

لغايات . والغايات هى المطلوبة . والأدلة تساق سوقا وتحشر إلى جانب بعضها البعض حشرا سواء كانت متناسقة مع الغايات أو غير متناسقة .. ولا حرج عليهم أن تتناقض الأدلة ! فإذا كانت الغاية هى القول بأن الأوضاع الاقتصادية هى الفاعلة وليس الحق والعدل قيل ذلك ، وإذا كانت الغاية هى نفى الملكية الفردية بوصفها نزعة فطرية قيل إنه لا فطرة ولا أصل ثابتا للانسان ، وإذا كانت الغاية تبرير مجىء الشيوعية الثانية قيل إن الشيوعية الأولى تمثل الأصل الذى ينبغى أن تعود إليه البشرية .

❊ ❊ ❊

ندع هذا جانبا لأنه لن يزيد الصفحة سوءا . إنما نشير بادئ ذى بدء إلى أن النظرية الشيوعية - والتطبيق كذلك - قد نقضا كل « القشرة » السياسية والاقتصادية والاجتماعية للراسمالية ، وأنشأ قشرة مختلفة عنها « ١ » فيما عدا أمرين اثنين : إقصاء الدين عن الحياة،والفوضى الجنسية ، فقد رضيت عنهما الشيوعية رضاء تاما وزادت فى جرعتهما حتى نصت على الإلحاد نصا فى الدستور السوفيتى ، فقالت : « لا إله . والكون مادة » ونصت على الفوضى الجنسية نصا ودافعت عنها .. وحين اضطرت إلى تعديلها فى النظرية على عهد لنين فإنها لم تغير شيئا حقيقيا فى التطبيق .

من هنا نفهم كيف أن الشيوعية خطوة « تقدمية » إلى الأمام !

ونأخذ الآن فى الحديث عن التطبيق الشيوعى ، ومدى التزامه بالنظرية من جهة ، ومدى « عدالة » هذا التطبيق من جهة أخرى .

فأما من حيث إلغاء الملكية الفردية فقد تم ذلك وبصورة حادة فى المرحلة الأولى من التطبيق على عهد لنين وجزء من عهد ستالين . أما إحلال الملكية الجماعية محلها فقد تكشف عن أسطورة ضخمة ليس لها وجود حقيقى ! فلا أحد من طبقة البروليتاريا يملك شيئا فى الحقيقة أو يحس بملكية شىء . إنما الدولة - كما نصت النظرية - هى المالك الحقيقى لكل شىء . والدولة - عند التطبيق - شىء والشعب شىء آخر . ومهما قيل من « نيابة » الدولة عن البروليتاريا فى الملكية والإشراف عليها فهو مجرد كلام للاستهلاك النظرى . أما الواقع فهو أن الدولة أصبحت كابوسا ثقيلا بدكتاتوريتها البشعة التى لاتدع

« ١ » قلنا من قبل إن الاختلاف بين الراسمالية والشيوعية هو اختلاف فى القشرة وليس فى الجوهر .

للناس فرصة للإحساس بوجودهم فضلا عن أن يحسوا بأنهم يملكون شيئا على الإطلاق !

فجو الإرهاب الدائم الذى تمارسه الدولة على الشعب بحجة المحافظة على النظام من أعدائه ، وجو الجاسوسية الذى يعيش فيه الشعب إلى حد أن الوالد لايأمن ولده ولا الزوج يأمن زوجته ولا الأخ يأمن أخاه - ضمانا ألا يجتمع اثنان على سر خشية أن يكون السر مؤامرة على « النظام » - هذا الجو الذى يمكن أن يؤخذ فيه الإنسان بالظنة فيحاكم ويحكم عليه بالإعدام أو الاعتقال فى ثلوج سيبيريا أو بأى عقوبة أخرى « رادعة » .. هو جو لايسمح بوجود « التعاطف » بين الشعب والدولة ، ذلك التعاطف الذى يحس فيه أن الدولة نائبة عنه فى الملكية والإشراف عليها .. فالنيابة لاتكون بالحديد والنار والتجسس .. إنما يخضع الشعب للدولة بعامل الإرهاب المسلط عليه ، ويفقد فى النهاية أى شعور بملكية شىء على الإطلاق ! ولايبقى له إلا شعوره بالحرمان !

ولاينسى المصريون ما شاهدوه فى أسوان أيام كان « الخبراء الروس » يعملون فى السد العالى ، فقد كانوا يعيشون بطبيعة الحال فى جو مختلف عن النظام الذى ألفوه فى روسيا . فكان أشد ما عجبت له زوجات أولئك « الخبراء » أن الشراء حر فى الأسواق ، وأن الإنسان يستطيع أن يشترى بقدر ما يريد ، أو بقدر ما تتسع نقوده .. فكن يذهبن إلى بائعى الخضر والفواكه فيسألن فى عجب : هل نستطيع أن نأخذ بقدر ما نريد ؟! فإذا قيل لهن : نعم ! لم يصدقن ! حتى وجدن بالممارسة الفعلية أن ذلك ممكن بالفعل !

وليست المسألة هى العجب من اختلاف النظام ، فهذا أمر طبيعى . وكل إنسان يفاجأ بنظام يختلف عما ألفه وتعود عليه سيعجب فى بادئ الأمر حتى يألف . ولكن المسألة هى اللهفة على الشراء ، ودلالتها على مدى الإحساس بالحرمان ، والفرحة الغامرة بالتخلص من هذا الحرمان ولو إلى أمد محدود ! وتكفى هذه التجربة الواقعية للكشف عن حقائق كثيرة فى أن واحد ، عن الملكية الفردية والملكية الجماعية .. وعن النظام !

على أن الذى يعنينا هنا ليس هو البحث فى مدى تحقق تلك الأسطورة التى يطلق عليها اسم « الملكية الجماعية » حين تكون الدولة هى المالك الحقيقى ويكون الشعب كله محروما من الملكية ! إنما الذى يعنينا أكثر هو الأسطورة

التى تقول إن تلك الملكية الجماعية المزعومة يمكن أن تحل محل الملكية الفردية .

لقد زعمت النظرية الشيوعية أن الأصل فى الإنسان هو الملكية الجماعية ، وأن الملكية الفردية هى انحراف شرير وقعت فيه البشرية بعد اكتشاف الزراعة ، وأن الشيوعية الثانية سترد الإنسان إلى أصله « فيستمتع » بالملكية الجماعية،ويشفى من هذا الانحراف الخطير الذى أفسد إنسانيته وأشاع الظلم فى المجتمع البشرى لقرون عديدة من الزمان !

ثم فرضت « الدولة » الأمر فرضا بالحديد والنار ..

فهل شفيت النفوس من الداء وسلمت من الانحراف ، وارتدت إلى أصلها الملائكى المزعوم ؟!

إن الذى حدث بالفعل ـ وأشرنا إليه من قبل ـ أن « النظام » تراجع فى عهد ستالين ثم فى عهد خروشوف عدة تراجعات .

ففى المرحلة الثانية من عهد ستالين كان « النظام » فى حاجة إلى زيادة الإنتاج ، ومن ثم أعلن ستالين أنه من أراد من العمال ـ بعد وحدة العمل الإجبارية الأولى ـ أن يقوم بوحدة ثانية إضافية فسيكون له عليها أجر إضافى يستطيع به أن يحسن أحواله المعيشية فيشترى أنواعا من الطعام أفخر ، أو كميات أكبر ، وأنواعا من الملابس أرقى مما توفره وحدة العمل الإجبارية .

وموضع الدلالة أن الدولة حين احتاجت إلى زيادة الإنتاج لم تجد وسيلة إليه إلا إثارة الحافز الفردى والالتجاء إليه . ولو كانت ترى ـ أو تعتقد فى دخيلة نفسها ـ أنه يمكن زيادة الإنتاج دون الالتجاء للحافز الفردى لفعلت ، خاصة وهى تملك الحديد والنار وتستخدمهما ـ بإسراف ـ فى جميع المجالات ، ذلك أن الالتجاء للحافز الفردى ـ أيا تكن مبرراته التى تلقى أمام الناس ـ هو تراجع عن أصل من أصول النظرية ، وهو الأصل القائل بأن الملكية الفردية ليست شيئا فطريا وأن الأصل فى الناس هو الملكية الجماعية !

موضع الدلالة إذن أن كل بطش الدولة لم يستطع أن « يشفى » الناس من الحافز الفردى ويضع الحافز الجماعى مكانه . ومعنى ذلك أن الحافز الفردى ـ الوثيق الصلة بالملكية الفردية ـ عميق عميق فى الفطرة إلى حد لا يمكن انتزاعه ، ولو استخدمت فى انتزاعه كل وسائل البطش والإرهاب .

ثم حدث فى فترة حكم خروشوف أن تزايد نقصان المحاصيل الزراعية (وكان هذا التناقص قد بدأ فى عهد ستالين ذاته ولكنه لم يكن محسوسا

بالصورة التى ظهر عليها أيام خروشوف) حتى إن روسيا بدأت تستورد القمح من أمريكا بكميات متزايدة . وكان علاج خروشوف للأمر هو تمليك الفلاحين جزءا من المحصول لأنفسهم ، وتمليكهم الدار التى يسكنونها وما تحويه من الأثاث والأدوات وما يمكن أن يشتروه لأنفسهم من هذه الأشياء .

وهو تراجع صريح عن مبادئ الشيوعية ، دلالته واضحة .. وهى أن الملكية الجماعية لم تستطع - بكل وسائل القهر - أن تحل محل الملكية الفردية .. وأن العلاج الوحيد الذى يضطرون إليه جولة بعد جولة هو الإذعان لهذا الدافع الفطرى الذى نفوا - فى النظرية - وجوده ، وجادلوا بكل أنواع الجدل ليثبتوا أنه غير أصيل فى النفس البشرية ، وأنه « مرض » يمكن « الشفاء » منه !

والتجربة التى تمت - فى العالم الشيوعى ذاته وعلى يد الدولة الشيوعية ذاتها - تغنينا عن الالتفات إلى كل الجدل الفارغ الذى يجادل به الشيوعيون فى أمر الملكية الفردية والحافز الفردى .

أما إنشاء مجتمع غير طبقى ، وإلغاء جميع الطبقات ماعدا طبقة البروليتاريا، وإقامة دكتاتورية البروليتاريا .. فقد اختلف التطبيق فيها اختلافا واسعا عن النظرية !

ولسنا نتحدث هنا عن « محاسن » إنشاء مجتمع غير طبقى ، ولاكون هذا الأمر واجبا أو غير واجب ، ممكنا أو غير ممكن « ١ » إنما نتحدث عن الواقع التطبيقى لنرى مقدار قربه أو بعده عن الشىء الذى قالوا إنه واجب أن يكون .

لقد زالت طبقة الاقطاعيين نعم ، وحال تطبيق الشيوعية فى الدولتين الشيوعيتين الكبيرتين دون ظهور الطبقة الرأسمالية ، وماكان منها موجودا فى الدول الأخرى التى اعتنقت الشيوعية فقد أزيل إما بنزع الملكية الفردية وإما بالابادة الثورية ..

ولكن ما الذى حدث بعد ذلك ؟!

الذى حدث بالفعل أن « طبقة » جديدة بكل تعريف الطبقة ومواصفاتها قد برزت فى المجتمع الشيوعى تحت اسم جديد بالمرة هو « الحزب » !

« ١ » نقول نحن إنه ممكن فى حالة واحدة فقط ، حين ينزع حق التشريع من البشر ويتحاكمون كلهم إلى شريعة الله . فعندئذ لايكون لأحد من البشر سلطة تشريعية يتمكن بها من رعاية مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات . ولايهم فى هذه الحالة تفاوت الناس فى ثرواتهم لأن هذا التفاوت يظل أمرا فرديا لا طبقيا ، ولايتجاوز حظ كل إنسان من « المتاع » فى الحياة الدنيا .. ولنا عود إلى الموضوع عند الحديث عن نظرة الإسلام .

والفارق بين أفراد الحزب - بدرجاته المختلفة - وبين أفراد الشعب هو ذات الفارق بين أية طبقة كانت مالكة وحاكمة من قبل وبين الشعب ! فأدنى درجات الحزب - وهى العضوية العادية - تنشئ لتوها فارقا ضخما فى كل شؤون الحياة . وليست العبرة بوجود الملكية الفردية أو عدم وجودها،فلم يكن منشأ الطبقية فى المجتمعات الطبقية هو مجرد وجود الملكية الفردية كما زعم التفسير الجاهلى للتاريخ ، إنما كان ما يترتب على الملكية من سلطان ونفوذ ، انطلاقا من مبدأ أن الذى يملك هو الذى يحكم . أى أن الطبقية فى الواقع - وإن نبعت فى المجتمعات الجاهلية من الملكية الفردية كما يقول التفسير المادى - إنما هى طبقية السلطان والنفوذ ، التى تنبع من قدرة هذه الطبقة على التشريع لحساب نفسها وإلزام الآخرين بالخضوع لهذا التشريع .

وقد ألغيت الملكية الفردية من المجتمع الشيوعى ، ولكن السلطان والنفوذ الذى تركز فى « الحزب » قد جعل منه طبقة متميزة ، لها كل سمات الطبقة ومميزاتها سواء فى نوع المعيشة - أى المتاع - أو فى النفوذ والسلطان .

فمع أن العنوان العام فى الشيوعية أنه لا أحد يملك شيئا ملكية فردية فإن هناك فارقا - لا شك - بين أن تكون أنت وأفراد أسرتك جميعا تسكنون فى غرفة واحدة فى مسكن شعبى بدورات مياه مشتركة (وغالبا ما تكون بلا أبواب !) وبين أن تكون ساكنا فى « فيلا » خاصة أو فى شقة كاملة فى عمارة ، حتى ولو كنت غير مالك للشقة أو مافى داخلها من الأثاث ملكية فردية !

هناك فارق فى نوع المتاع ودرجته ، وفارق فى مشاعرك حين تكون هنا وحين تكون هناك .

ولست أناقش هنا شرعية هذا المتاع أو عدم شرعيته ، إنما أقول فقط إنه فى النظرية الشيوعية غير جائز وغير شرعى : أما فى التطبيق فهو موجود ، ويتسع الفارق كلما صعد الإنسان الدرجات فى « الحزب » حتى يصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا أو من الأعضاء البارزين فى الحزب ، فينقلب نعيمه ترفا ما كان يحلم به بعض القياصرة فى زمانهم ! والشعب فى « أكواخه » العصرية ، الأسرة كلها فى غرفة واحدة تجمع الأم والأب والأطفال بنين وبنات ما دون سن التكليف ، وتجرى فيها العلاقات الزوجية بين الأم والأب - بحكم الأمر الواقع - فى حضرة البنين والبنات ، البالغين وغير البالغين !

وليس فارق المتاع على أى حال هو الفارق الأهم أو الفارق الوحيد . إنما المهم فارق السلطان .

إن مجرد انتقال الانسان من كونه فردا من أفراد الشعب إلى كونه عضوا فى الحزب ، ينقله من « شيء » لا وجود له إلى شيء آخر له وجود ملموس ، سواء فى نظر نفسه او فى نظر المجتمع من حوله ، لأنه ينقله من طبقة المحكومين إلى طبقة الحكام الذين يسيطرون على كل شيء فى المجتمع الشيوعى .. حتى لو كان هو فى اسفل طبقة أولئك الحكام .

إن تركيز النفوذ فى « الحزب » و« الدولة » و « الزعيم » هو الذى ينشئ ذلك الفارق الضخم بين « اللاشيئية » و « الشيئية » فى المجتمع الشيوعى .. ولذلك يصبح اكبر مطمح للفرد العادى فى المجتمع الشيوعى أن يضع قدمه - مجرد وضع - ولو على أدنى درجة من درجات ذلك البناء الشاهق الذى يمثل السلطان ، فيتغير وجوده كله ، بل يصبح فى الحقيقة موجودا بعد أن لم يكن له وجود .

وسبيله إلى هذه النقلة الضخمة التى يتشهاها كل طامح إلى الوجود لايخرج عن أمر من ثلاثة أمور ، اشرفها جميعا - واندرها - القيام بعمل غير عادى فى خدمة « الوطن » . أما السبيل الميسرة والمعتادة فهى الملق للحزب وللدولة وللزعيم ، والظهور بمظهر التفانى فى حبهم جميعا ! أو التطوع بالجاسوسية وإلقاء الشبه على الأبرياء تقربا للسلطان وإظهارا للولاء !

* * *

أما دكتاتورية البروليتاريا فهى شيء بشع إلى أقصى درجات البشاعة التى يتخيلها الخيال . وبالرغم من كل المبررات التى تساق لتبرير النظام البوليسى القائم على الحديد والنار والتجسس فستبقى حقيقة واحدة لاسبيل إلى محوها ولا إنكارها ، أن الدكتاتورية القائمة ليست - كما زعموا - دكتاتورية البروليتاريا ، إنما هى الدكتاتورية الواقعة على البروليتاريا .

إن حجم الشعب الروسى - على وجه التقريب - هو مائتان وخمسون مليونا من البشر ، والحزب الشيوعى يكون منه ستة ملايين ، ستة ملايين من المحظوظين - على درجات مختلفة من الحظ - فى وسط هذا الخضم الهائل من القطع الآدمية التى لا وزن لها ولا كيان . عملها أن تنتج كالآلة ثم تغرق فى حمأة الجنس كالحيوان ، وليس لها بين هذا وذاك قلوب ولا مشاعر ولا وجود .

فى الوضع السياسى هم أولئك الأصفار الذين لايقدمون ولا يؤخرون ولا يقام لهم وزن . ولا عبرة بمسرحية الانتخابات ولا بقول الشيوعيين عن أنفسهم إنهم هم « الديمقراطية » الحقيقية !

ولسنا ندافع عن المسرحية الأخرى القائمة فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ؛ فقد سبق أن عرضناها على حقيقتها . ولكنها تحمل على أقل تقدير « مظهر » الحرية و « مظهر » الاختيار ، وإن كانت الغالبية العظمى ممن يصلون إلى المجالس النيابية هم ـ كما بينا ـ أدوات الرأسمالية الحاكمة ، ولا تستطيع هذه المجالس ، مهما قيل فيها من « كلام » أن تتخذ قرارا ضد المصالح الحقيقية للرأسمالية الحاكمة .

أما حين يكون الناس كلهم حزبا واحدا ـ بأمر الدولة ـ هو حزب الدولة ، فإن المسرحية تفقد حتى ذلك المظهر المزيف ، وتصبح سخرية ضخمة لا متعة فيها على الإطلاق !

ما الفرق بين أن تنتخب هذا الصفر أو هذا الصفر أو ذاك الصفر ، إذا كانوا كلهم أصفارا من جهة ، وكلهم يمثلون وجهة نظر واحدة من جهة أخرى ، وكلهم لايملكون الكلام إلا بإذن الدولة وبالقدر الذى تأذن به الدولة من جهة ثالثة ؟!

إن المسرحية كلها واحدة .. نعم ! ولكنك ربما تكون على استعداد لمشاهدة المسرحية والتلهى بها حين يكون الممثلون يؤدون دورهم المرسوم لهم وكأنهم يؤدونه من عند أنفسهم ، أما حين تسمع صوت الملقن واضحا يملى على الممثل أقواله وأفعاله فلاشك أن المسرحية تكون فى حسك سمجة وغير مستساغة ، وإن كتب عنها فى لوحة الإعلان أنها « مسرحية الديمقراطية الحقيقية » !

وفى الوضع الاقتصادى هم أولئك الكادحون .. كانوا ومازالوا .. الذين يقومون بأشق الجهد وينالون أقل الجزاء ، ويستمتع غيرهم « بفائض القيمة » لأنهم أصحاب نفوذ وأصحاب سلطان ! وليس من الضرورى أن يكون « فائض القيمة » نقودا توضع فى الجيوب ، فغياب المظهر لا ينبغى أن يخدعنا عن حقيقة الجوهر . ففائض القيمة هنا هو المتاع الموفر ـ بصرف النظر عن الملكية ـ وهو السلطان والنفوذ !

حين يمرض الفرد من البروليتاريا يعالج بالأدوية المحلية ، وحين يمرض الفرد من الحزب الحاكم يعالج بالدواء الأجنبى ! وحين يتنقل الفرد من البروليتاريا يتنقل فى المركبة العامة التى لاتراعى فيها أسباب الراحة ، بينما

عضو الحزب يتنقل فى السيارة الخاصة ـ ولو لم يملكها ! - فإن كان عضوا « كبيرا » فى الحزب فله السيارات الأجنبية المريحة المكيفة .. وهذا غير المسكن الذى أشرنا إليه من قبل وغير صنوف الطعام .

ما الفرق بين هذا وبين التمتع بفائض القيمة فى المجتمع الطبقى الذى كانوا ـ ومازالوا ـ يندّدون به ؟!

وفى الوضع الاجتماعى هم أولئك الأحجار المتراصة التى يبنى بها البناء ليسكنه السكان ! السكان هم الحزب بدرجاته المختلفة من أول العضو العادى إلى « الزعيم » ، والبروليتاريا مجرد بناء مقام ليسكن فيه هؤلاء ! هل يحس الحجر من الساكن ؟ أو يهمه أن يعرف ؟ أو يتغير وضعه بتغير السكان ؟!

كلا ! إنهم أحجار !

على أن أبشع ما فى الوضع كله هو الإرهاب البوليسى الذى يقع الشعب كله تحت وطأته .

منذا الذى يجرؤ أن يقول كلمة واحدة فى نقد الحاكم ؟ سواء فى سره أو فى العلانية ؟ أما فى العلانية فلا يلومن إلا نفسه إذا وجد رأسه طائرا عن عنقه ، ولايوجد شخص « عاقل » يصنع ذلك الصنيع !

وأما فى سره فالجاسوسية تكشف النقاب عنه .. ومجرد الخوف من الجاسوسية يرهب القلوب ويكمم الأفواه .

ومع ذلك كله تظهر بين الحين والحين فى كل نظام شيوعى حركات التطهير التى يذهب ضحيتها المئات والألوف .

وهذه « النكتة » من عهد خروشوف كافية لإعطاء صورة الارهاب .. فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى وقف خروشوف يندد بستالين . ويقول عنه إنه دكتاتور سفاح مجرم سافل دنىء ! وإنه غلطة لا ينبغى أن تتكرر .. وإنه ارتكب من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان ..

وهنا تقدم « مجهول » بسؤال مكتوب إلى خروشوف يقول له فيه : إنك كنت عضوا بارزا فى الحزب الشيوعى ، ورأيت هذه الجرائم كلها وكنت عالما بوقوعها . فلماذا سكت على ارتكابها ؟

وقرأ خروشوف الورقة ـ وكان حاضر البديهة حاضر النكتة ـ فقال : من الذى أرسل إلى هذه الورقة ؟! وبالطبع لم يجب أحد ! فقال خروشوف : الآن قد عرفت السبب ! لقد كنت خائفا مثلك فلم أنبس ببنت شفة !

وكون هذه نكتة لايغير شيئا من الحقيقة ، ولا يخفف شيئا من بشاعة الارهاب .. فهى نكتة ذات دلالة على الواقع المرهوب .

والمهم على أى حال أنها ليست « دكتاتورية البروليتاريا » كما كانوا يزعمون فى النظرية ، إنما هى الدكتاتورية التى تعانى غصتها البروليتاريا المسحوقة تحت الأقدام . إنما كانت أسطورة تمليك المصانع للعمال ، وأسطورة منح السلطة للعمال مجرد إغراءات دعائية ليقبل الناس على الفخ المنصوب !

* * *

أما كفالة الدولة لكل فرد من أفراد المجتمع فهى الشىء الوحيد الذى برزت به الشيوعية فى عالم الواقع على كل جاهليات التاريخ .

لايوجد فرد لايأكل ولا يلبس ولا يسكن من كل أفراد الشعب . وهذا هو الواجب الذى نكلت عنه الدولة الإقطاعية والدولة الراسمالية على السواء . وإذا كانت الدولة الرأسمالية الحديثة قد اقتربت من أداء هذا الواجب شيئا من الاقتراب بالضمانات الاجتماعية والإعانات التى تصرف للمتعطلين من نقاباتهم أومن الدولة ، وبالرعاية الصحية المجانية ، وبالخدمات المجانية العامة .. الخ ، فإنها لم تبلغ بعد الحد الذى التزمت به الدولة الشيوعية ، فضلا عن كونها قد فعلت ما فعلت لابدافع إنسانى،ولكن خوفا من الشيوعية من جهة ، وخوفا من الضرر الذى يلحقها إذا لم تستجب لطلبات العمال المطالبين بهذه الحقوق .

ولكن لنا على هذه الكفالة مجموعة من الملاحظات . إذا قسناها على الكفالة التى قررها الإسلام لكل فرد من أفراد الأمة قبل ذلك بثلاثة عشر قرنا من الزمان !

تكفل الدولة الشيوعية أفرادها على الحد الأدنى الذى وصفناه من قبل ، ومع ذلك لا تكفلهم وهم كرماء على أنفسهم ولا على دولتهم ! ولا نتحدث الآن عن تكليفهم بالعمل – رجالا ونساء ـ مقابل كفالتهم ، أى أن الدولة لاتتفضل عليهم بالكفالة،إنما هى تجندهم لحسابها،وتستصفى جهدهم كله قبل ان تعطيهم ضرورات حياتهم ، وتهددهم تهديدا صريحا بقولها : من لا يعمل لا يأكل ..

لا نتحدث الآن عن هذا ، فالعمل على أى حال هو الأصل فى حياة الإنسان وليست البطالة هى الأصل .. ولكنا نقول إن الدولة الشيوعية بإلغائها الملكية الفردية والعمل الحر ، وتحويل كل الناس إلى إجراء للدولة ، إنما تستذلهم فى

الواقع بلقمة الخبز ، فلايملكون أن يتوجهوا بكلمة نقد واحدة للقائمين بالأمر خوفا على لقمة الخبز أن تضيع .. وذلك بخلاف الإرهاب بالحديد والنار والتجسس ، الذى يزيد من مذلة الناس وانكماشهم وخضوعهم للظلم الواقع عليهم،دون التفوه بكلمة أو إشارة تدل على عدم الارتياح فضلا عن الاحتجاج الصريح .

ولقد زعمت الشيوعية أن الذل الوحيد فى الأرض هو عمل الإنسان أجيرا لإنسان آخر ، وزعمت أنها هى التى ستخلص الناس من الظلم ...... وتمنع الاستغلال،حين تمنع تأجير جهد الإنسان لإنسان آخر .

نعم .. ولكن ما الفرق بين تأجير جهد الإنسان لإنسان آخر ، وتأجيره « للدولة » التى هى شخص معنوى فى الكلام فقط ، ولكنها فى الواقع مجموعة من البشر يحملون من السلطان ما يجبرون به الناس على أداء العمل الذى يطلبونه منهم ، وما يعاقبونهم به إذا قصروا فى أدائه ؟ وأيهما أذل -- فى عالم الواقع - الأجير الذى يملك ولو ذرة واحدة من الحرية فى اختيار نوع العمل ومكانه ، واختيار شخص « السيد » الذى يبيع له جهده ، والمساومة على زيادة هذا الأجر ، والاحتجاج على انخفاضه إذا رآه كذلك ، أم الأجير الذى لايملك ذرة من الحرية فى تلك الأمور كلها ، لا اختيار نوع العمل ولا مكانه ، ولا اختيار « السيد » الذى يخدمه — فهو مفروض عليه بالحديد والنار - ولا حق الاحتجاج على الأجر المنخفض ولا طلب زيادته .. وإن فتح فمه بكلمة يموت جوعا ، إن لم يمت بوسيلة أخرى غير الجوع ؟!

وأية سفسطة تلك التى تقول إن الذل لايكون قائما حين تكون « الدولة » هى التى تسخر الناس للعمل وهى التى تمنح الأجور ؟! ما تعريف الذل ؟! وما اسم ذلك الإحساس الذى يحسه الإنسان حين يجد أنه لايملك حريته فى أى أمر من الأمور ، وأن عليه أوامر ينبغى أن يطيعها ، وواجبات ينبغى أن يؤديها ، دون أن يكون له حق الاعتراض على شىء من الأشياء ؟!

أم يحلونه عاما ويحرمونه عاما ؟!

يحلونه إذا كان صادرا منهم ومحققا لمصلحتهم ، ويحرمونه إذا صدر من غيرهم أو لم يكن فى صالحهم ؟

* * *

قضية المساواة فى الأجور لا تزيد على أن تكون واحدة من الأساطير الكثيرة التى بددها التطبيق .

فى عهد لنين والجزء الأول من عهد ستالين طبقت روسيا بصرامة مبدأ المساواة فى الأجور لجميع العمال فى الاتحاد السوفيتى . ولكن هل كانت هناك مساواة عامة فى الأجور بالنسبة لكل العاملين ؟

هل كان أجر المهندس كأجر العامل ؟ وأجر الطبيب كأجر المرض ؟ وأجر الجندى كأجر الضابط ؟

إن هذا بداهة مستحيل !

ومع استحالته فقد ظلت النظرية الشيوعية تنافح عن قضية المساواة وتندد بقضية التفاوت فى الأرزاق !

ثم جاء اليوم الذى انهارت فيه المساواة حتى فى صفوف العمال أنفسهم ، بعد أن كانت منهارة ما بين العمال وغيرهم من العاملين . فقد لجأ ستالين ـ كما أسلفنا ـ إلى إباحة العمل بعد الوحدة الإجبارية الأولى لقاء اجر إضافى ينفق فى « الكماليات » .. وهكذا ضاعت المساواة تماما ولم يعد لها وجود !

ويقولون إن هناك أجورا عالية جدا فى الاتحاد السوفييتى .

وقد تحسب لأول وهلة أنها أجور المهندسين .. أو علماء الذرة .. أو علماء الصواريخ .. أو الأطباء (وكلهم من ذوى الأجور العالية فى الاتحاد السوفيتى) ولكنك تسمع الحقيقة المذهلة فى النهاية ! إنها أجور المطربين والمطربات والراقصين والراقصات والملهين عامة والملهيات !

الاجر على قدر الخدمة !

هل تعلم الخدمة الجليلة التى يقوم بها المطربون والمطربات والراقصون والراقصات والممثلون والممثلات فى اتحاد السوفييتات ؟!

نعم !! إنها « تلهية » الشعب عن الإحساس بالضغط البشع الواقع عليه .. لكى ينسى .. لكى لاينفجر !

إن الضغط على الكائن البشرى من جميع منافذه أمر غاية فى الخطورة ! لأنه يولد الانفجار ..

ودكتاتورية البروليتاريا لا تستغنى عن الضغط السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى الذى تمارسه على البروليتاريا (التى تحكم باسمها !) وإلا أفلت الزمام ؛ وتزلزلت الدولة وتزلزل « النظام » !

فلابد إذن من التنفيس عن الناس فى جانب من الجوانب ليتسرب الغضب المكظوم قبل أن يكوّن التجمع الذى يولد الانفجار .

والمتنفس هو الشهوات .. والملهيات ..

فأما الجنس فيمارسه الناس لأنفسهم أنى شاءوا وكيفما شاءوا لا حجر عليهم ولا تدخل فى « إرادتهم » !

وأما التلهية فيقوم بها الملهون من المطربين والراقصين والممثلين من الرجال والنساء .. فينالون « تقدير » الدولة على خدمتهم الهائلة ، وينالون أعلى الأجور !

المهم فى الأمر على أى حال أن المساواة أسطورة غير قابلة للتطبيق فى دنيا الواقع .. ومع ذلك فمازالوا يتحدثون عن المساواة فى النظرية ، ومازالوا ينددون بالتفاوت فى كل نظام يجدونه فيه !

لو قالوا منذ البدء نريد أن نقرب الفوارق بين الفئات المختلفة من الناس ونضمن حدا أدنى معقولا لكل الناس ..!

لو قالوا لقلنا نعم .. للنظرية على الأقل بصرف النظر عن واقع التطبيق !

* * *

يقول الشيوعيون فى نظريتهم إن الحياة فى الشيوعية الأولى (كما يتخيلونها) هى الأصل الذى ينبغى أن تعود البشرية إليه ، وإن الشيوعية الثانية هى التى ستردهم إلى هذا الأصل الجميل ..

فيما عدا استثناء واحدا فى أمر لم يرق لهم من الشيوعية الأولى فحذفوه ! ذلك هو الدين !

ففى الشيوعية الأولى (كما يتخيلونها) كان عند البشرية دين . وهنا — فقط — قالوا إن هذا كان بسبب بداوة البشرية وقلة معلوماتها عن الكون المادى وعدم سيطرتها على البيئة ! أما فيما عدا ذلك فلا دخل للبداوة فى شىء على الإطلاق !

ولما كانت الشيوعية الثانية تأتى من غير بداوة ، فقد وجب القضاء على العنصر الوحيد الذى سببته البداوة وهو الدين !

وفى التطبيق اشتد الشيوعيون فى محاربة الدين . فلم يكتفوا بتحريم الحديث فيه ، ومعاقبة من يضبط « متلبسا » بالحديث فى الدين مع شاب أو فتاة دون الثامنة عشرة ، بل بالغوا فى الاحتياط فوضعوا فى مناهجهم الدراسية درسا

للالحاد فى مكان درس الدين ! فحيث يضع البشر كلهم درسا للدين فى مدارسهم - مؤمنين وغير مؤمنين - يتحدثون فيه عن الله ، يضع الشيوعيون فى مدارسهم درسا يقال للتلاميذ فيه إنه لا إله . والكون مادة (أى بلا خالق) .

ولا مكان للمتدينين فى الدولة الشيوعية . وقد قتل ستالين وحده ثلاثة ملايين ونصف مليون من المسلمين فى عهده ، لأن الشيوعية كانت قد طلبت معونة المسلمين فى الثورة ضد القيصر . ووعدتهم بأن تجعل لهم مكانة خاصة إذا نجحت الشيوعية ، وتترك لهم حرية ممارسة حياتهم الإسلامية ، فلما طالبوا بتحقيق الوعد ، حققه ستالين لهم على هذا النحو بالقتل والتعذيب والتشريد الجماعى .

ولقد اضطرت الشيوعية إلى « التراجع » عن قرار الإبادة الجماعية الذى كان مقررا من قبل ، حين سنحت لهم فرصة الانتشار والتوغل فى العالم الإسلامى بعد الحرب العالمية الثانية ، فوجدوا أن قرار الابادة سيعوق انتشارهم،ويفوّت عليهم فرصة قد لا تسنح من بعد ، فأعلنوا أنهم « متسامحون » وأنهم لا يتعرضون لأصحاب العقائد الدينية بالإيذاء ! ولعلهم كانوا قد ظنوا أنه لم يعد هناك خطر من « التسامح » بعد إبادة من أبادوه ونفى من نفوه وتشريد من شردوه ! ولكن دخولهم أفغانستان لإبادة المسلمين هناك يدل على أن تقديراتهم فى هذا الأمر لم تكن على صواب ! فهم اليوم يضربون المسلمين الأفغان حتى لايتجمع غدا المسلمون الروس !

وبصرف النظر عن وضع المسلمين فى الدول الشيوعية ، فإن الشيوعية تكره الدين كراهية شديدة كما أسلفنا ، وتحاربه بكل وسائل الحرب ، وتتمنى اليوم الذى يزول فيه من الوجود .

وفى إمكاننا أن نستدل من هذه الحرب ذاتها على عمق الدين فى الفطرة ! فلولا أنه عميق فى الفطرة كل هذا العمق ما خافت الشيوعية من عودته كل هذا الخوف ولا حاربته كل هذه الحرب .

ولكننا لسنا فى حاجة إلى الاستدلال عن طريق غير مباشر . فقد أغنانا حديث « جاجارين » عن ذلك ، وشهدت الفطرة على لسانه أنه لا إله إلا الله .. وهو الذى ولد وتربى فى ظل الالحاد الرسمى والشعبى على السواء !

* * *

إلى هنا كنا نتحدث عن « الواقع » التطبيقى للشيوعية بالقياس إلى النظرية .. ورأينا أن مبادئ كثيرة من التى تقوم عليها النظرية أثبتت عدم

جديتها أو عدم واقعيتها عند التطبيق ، كقضية الملكية الجماعية ، وإحلالها محل الملكية الفردية ، وقضية البروليتاريا ووضعها فى مكان السلطة ، وقضية الطبقات وإلغائها ، وقضية المساواة التامة بين الجميع .

ولكن بقيت فى النظرية « وعود » لم تتحقق بعد ، ويتذرعون - لعدم تحقيقها - بشتى المعاذير ..

بقى المبدأ القائل بأنه يؤخذ من كل بحسب طاقته ويعطى كل بحسب حاجته . وإلغاء الحكومة . وإلغاء الصراع .

وهم يستخدمون بشأنها أسلوب الشاعر العربى :

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا !

اى فى الخيال والتمنى !

وقد كان من حقنا أن ننفض أيدينا من هذه الأمانى ، ونقول : دعونا حتى تقع بالفعل ! أو نقول إن ما مر من التجربة الشيوعية فى الأمور السابقة لا يبشر بتحقيق شىء من هذه الوعود ، فإن امورا اكثر واقعية من هذه بكثير اثبتت التجربة عدم واقعيتها أو عدم جدية الشيوعيين فى الحديث عنها إلا للدعاية والترغيب فحسب !

ولكننا ننظر فى طبيعة هذه الأمور فنجدها - بطبيعتها - غير قابلة للتحقيق !

من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته ! بلا حكومة ولا صراع !

متى كان الناس بهذه الملائكية حتى نفترض انهم يمكن ان يعودوا إليها فى يوم من الأيام ؟!

اوليسوا هم الذين يقولون إنه بمجرد اكتشاف الزراعة جنح الناس إلى الملكية الفردية ، وظهر الطمع والجشع واختلف وضع الناس فى المجتمع ، وانتهت المساواة والتعاون والود والإخاء وحل محلها الصراع ؟!

أى بمجرد ظهور شىء يمكن امتلاكه !

فما الذى تغير فى طبائع البشر حتى يجىء عليهم يوم لا حكومة فيه ولا رقابة ، ثم يبذل كل منهم طاقته - حبا فى الحق والعدل فقط ، أو حبا فى الإنسانية ، أو حبا فى اى قيمة من القيم العليا (التى لاوجود لها فى ذاتها كما يقولون !) - ثم يأخذ فقط بقدر حاجته ، ويقدر هذه الحاجة بلا طمع ولا جشع ولا إسراف ؟!

إن المثاليين الذين ينعى الشيوعيون عليهم عدم واقعيتهم لم يبلغوا هذا الحد من الإسراف فى الخيال !

ولقد وصل أفراد من البشر إلى هذا المستوى بالفعل مرة واحدة فى التاريخ ، على عهد رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فكان كل إنسان منهم يبذل أقصى ما فى طاقته من الجهد ابتغاء مرضاة الله فحسب ، ثم لايجد فى نفسه حاجة مما أوتى ويؤثر أخاه على نفسه :

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد »« ١ »

« ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »« ٢ »

ولسنا نقول إن هذه الصورة حدثت مرة واحدة وهى غير قابلة للتكرار فى أى جيل قادم من أجيال البشرية ، ولكننا نقول أولا إن هذا ـ بالتجربة ـ لم يحدث إلا ابتغاء مرضاة الله ، ولايمكن لأى قيمة أخرى من القيم ـ غير الايمان الصادق بالله ـ أن ترفع الانسان إلى هذه الصورة الرفيعة الشفيفة العالية . ونقول ثانيا إنه ليس كل الناس يرتفعون إلى هذا المستوى السامق الرفيع . فقد كان إلى جوار هؤلاء ـ فى نفس الجيل ونفس الظروف ـ من قال فيهم رب العالمين :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل »« ٣ »

والإسلام فى واقعيته لا يفترض أن كل الناس يصلون إلى القمة ، وإن كان يدعو كل الناس أن يحاولوا الصعود إليها ، ثم يرضى منهم بما يصلون إليه فى محاولتهم ماداموا لايهبطون عن المستوى الذى حرم الله الهبوط عنه ، أو ماداموا لايصرون على الهبوط إذا غلبتهم مرة دوافع الشر رغم المجاهدة والتطلع إلى الخير :

« ولكل درجات مما عملوا »« ٤ »

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك

---

١ ـ سورة البقرة [٢٠٧]
٢ ـ سورة الحشر [٩]
٣ ـ سورة محمد [٣٨]
٤ ـ سورة الأنعام [١٣٢]

جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » « ١ »

أما حلم الملائكية العامة الشاملة التى ستعم البشرية كلها ذات يوم ، ودون اى احتياط لإمكان الهبوط من احد الناس أو كل الناس (بإلغاء الحكومة التى يمكن أن تردع الهابطين) فحلم أقل ما يقال فيه إنه ما وضع إلا للتخدير ! ليرضى الناس بالحرمان والشقاء الحالى ، والضغط الإرهابى الذى لم تشهده حتى قساوة القرون المظلمة ، على أمل تحقق تلك الجنة الموعودة فى الأرض فى يوم من أيام التاريخ !

كانوا يقولون إن الدين أفيون الشعوب ! لأنه يخدرهم عن عذاباتهم الحاضرة بحلم الجنة فى الآخرة ! فما القول فى هذا الأفيون العجيب الذى تقدمه الشيوعية للكادحين ؟!

إن الدين ـ فى صورته الكنسية التى استخدمت بالفعل لتخدير الشعوب ـ كان يحوى بعض الحقائق وبعض الأباطيل . فوجود الله حق ، ووجود الآخرة حق ، ووجود الجنة حق . أما رضاء الله بالظلم ، ودعوة الناس إلى الرضا بالظلم فى الدنيا ليمنحهم الله الجنة فى الآخرة فباطل ، لأن الله أمر الناس أن يرفضوا الظلم الناشئ من تحكيم شرائع غير شريعة الله ، وأمرهم أن يجاهدوا لتغيير المنكر . وأما الذين يحتجون بأنهم كانوا مستضعفين فى الأرض وأنهم رضوا من أجل ذلك بالظلم فيسميهم الله « ظالمى أنفسهم » ويقول فيهم :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » « ٢ »

نعم كان الدين الكنسى يحوى بعض الحقائق وبعض الأباطيل .. فما القول فى هذا المخدر الشيوعى الذى لايحمل شيئا من الحق وكله أباطيل ! أى الفريقين ـ وكلاهما على باطل ـ أشد استخداما « للأفيون » فى تخدير الجماهير ؟!

---

١ ـ سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦]

٢ ـ سورة النساء [٩٧]

آن لنا أن ننتهى من الحديث عن الشيوعية فى كل مجالاتها ، سواء فى المادية الجدلية أو المادية التاريخية أو المذهب الاقتصادى .. لولا أن بعض المسلمين ـ بل بعض الدعاة من المسلمين ـ يتحدثون عن « اشتراكية الإسلام » وعن إمكانية اللقاء بين الشيوعية ـ أو الاشتراكية ـ وبين الإسلام ..

فنعود إلى ذات المقاييس التى استخدمناها فيما بين الديمقراطية والإسلام .

١) قضية المعبود .

٢) قضية إنسانية الانسان .

إن الشبه العارض الذى يمكن أن يكون قائما بين الاشتراكية والإسلام فى مبدأ كفالة الدولة لكل أفرادها ، وتقريب فوارق الفئات المختلفة من الناس ، لايجوز أن ينسينا الاختلاف الجوهرى فى القاعدة التى يقوم عليها كل من النظامين ، فضلا عن الاختلاف حتى فى هذا الشبه العارض فى تلك الجزئيات .

إن القضيتين الرئيسيتين فى حياة الإنسان كما أشرنا إليهما وشرحناهما من قبل هما هاتان القضيتان : قضية الألوهية وقضية الإنسانية ، وكل ما بقى من الأمور فهى أمور ثانوية بالنسبة لهاتين القضيتين ، أو هى أمور تتفرع ـ تلقائيا ـ من هاتين القضيتين .

فأما المعبود فى الشيوعية أو الاشتراكية فهو ليس الله قطعا بتصريحهم هم بأفواههم : « لا إله . والكون مادة » (أى بلا خالق) وقد يكون الإله عندهم هو المادة . أو هو الدولة . أو هو الحزب . أو هو النظام . أو هو الزعيم . ولكنه على أى حال ليس الله . ومن هنا يستحيل اللقاء بين النظامين مهما كانت الأشباه العارضة هنا أو هناك .

وأما الانسان فهذا وضعه فى التصور الشيوعى وفى التطبيق !

فى التصور هو نتاج المادة ، وهو تلك الأداة السلبية التى تحركها الحتميات « مستقلة عن إرادتهم » ! وفى التطبيق هو تلك الآلة المنتجة فى قسم من الوقت ، وهو ذلك الحيوان الغليظ الحس فى بقية الوقت ، وهو ذلك الصفر اللاشيئى فى كل الوقت .. إلا أن يكون من الآلهة المحظوظين ، عضوا فى الحزب على اقل تقدير ، أو زعيما مقدسا على أعلى تقدير !

أما ذلك الشبه العارض فى مبدأ الكفالة الشاملة وتقريب الفوارق بين الناس فهو أولا لا يبرر اللقاء بين النظامين مع وجود ذلك الاختلاف الجوهرى فى قضية الألوهية وقضية إنسانية الإنسان ، وهو ثانيا شبه غير كامل حتى فى الجزئيات .

فالكفالة فى الإسلام ليست مقابلا لتكليف الناس بالعمل على طريقة من لا يعمل لا يأكل ، إنما هى حق إنسانى بحت لكل من يحتاج إليه بسبب من الأسباب . وكفالة المرأة بالذات واجب مفروض فى الإسلام على الرجل لكى لا تنشغل أعصابها ولا يذهب جهدها فى العمل خارج البيت على حساب مهمتها العظمى فى تنشئة الأجيال . كما أن الكفالة تتم فى الاسلام بغير إذلال الناس بلقمة الخبز ، ودون دكتاتورية الدولة التى ترهق القلوب وتخنق الأنفاس .

إن الإسلام ـ دين الله الحق ـ قد فرض على الدولة المسلمة كفالة كل فرد فيها يحتاج إلى كفالة .. وجعل مهمة بيت المال هى هذه الكفالة لمن يعجز عن كفالة نفسه بنفسه ، أو عجزت أسرته القريبة عن كفالته . وجعل المجتمع كله مكلفا بألا يكون فيه محتاج « ١ » . وقد أشرنا من قبل إلى قولة عمر رضى الله عنه ، التى عبر فيها عن مسئوليته لا عن الآدميين فحسب ، بل عن كل كائن حى يحتاج إلى الكفالة حيث قال : « لو عثرت بغلة ببغداد (أو قال بصنعاء) لكنت مسؤولا عنها لِمَ لَمْ أسو لها الطريق ! »

ولكن الإسلام فى كفالته للناس لا يستذلهم بلقمة الخبز كما تصنع الشيوعية، بل يكفلهم وهم كرماء على أنفسهم وعلى الناس . فهو يكلف الدولة المسلمة بهذه الكفالة دون مقابل على الإطلاق ، لا العمل ، ولا الخضوع المذل للحزب ولا الدولة ولا الزعيم !

إن المطلوب من المسلم ـ سواء كفلته الدولة أو كفل نفسه بنفسه أو كفلته أسرته أو كفله القادرون فى المجتمع ـ أن يعبد الله وحده بلا شريك . وأن يقيم دين الله فى نفسه وفى مجتمعه بإقامة شريعة الله والحكم بما أنزل الله . والمطلوب منه ـ من بين المطلوبات ـ أن يكون رقيبا على ولى الأمر لينظر هل قام بواجبه فى إقامة الشريعة على الوجه الصحيح أم انحرف فى التطبيق !

ولقد كان سلمان الفارسى ممن تجرى عليهم الدولة الإسلامية نصيبا من بيت المال .. وهو الذى قال لعمر رضى الله عنه : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى

« ١ » راجع الحديث عن مسؤولية الدولة المسلمة فى كفالة جميع أفراد المجتمع فى الفصل السابق .

تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به ! وهو كذلك الذى قال له : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف !

والإسلام يحض على العمل بكل وسائل الحض ، ويوضح للناس أن الإنسان خلق ليقوم بعمارة الأرض ، وليمشى فى مناكبها ويبتغى من رزق الله ، وأن العاطلين المتبطلين لا يحبهم الله ولا يحبهم رسوله صلى الله عليه وسلم .. ومع ذلك فلا يجعل كفالة الدولة لأفرادها مقابل قيامهم بالعمل .. إنما مقابل إنسانيتهم فقط ومقابل حاجتهم ! فكون الإنسان إنسانا وكونه محتاجا إلى الكفالة هما كل مقومات كفالة الدولة للفرد فى الإسلام . وهذا هو الفرق بين فضل الله وكرمه وبين كزارة البشر حين يكون بأيديهم المال والسلطان !

« قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذن لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا » « ١ »

ثم إن الاسلام فى كرمه وتفضله قد حض على العمل ، نعم ، ولكنه لم يحوج المرأة إلى العمل خارج البيت من أجل أن تحصل على لقمة الخبز ! بل قرر لها الكفالة الكاملة وهى مستقرة فى بيتها ، عاملة فيه ، قائمة بأنبل مهمة يقوم بها البشر فى الأرض ، وهى تنشئة الجيل الناشئ ليخرج إلى الحياة سويا مستقيما على أمر الله .

فأين هذا من إكراه المرأة على العمل خارج البيت فى كنس الشوارع وحمل الأمتعة فى المطارات ومحطات السكك الحديدية تحت هذا التهديد المرعب : من لايعمل لايأكل !

وهذا فضلا عما فى إخراجها من مهمتها الفطرية من إفساد للفطرة وإفساد للنشء وإفساد للأخلاق !

وأمر آخر يأتى بهذه المناسبة تتضح لنا حكمته فى الإسلام على ضوء ما وقع فى التطبيق الشيوعى .

لقد قرر الإسلام مبدأ الملكية الفردية تقريرا واضحا لاشبهة فيه ، وإن كان قد وضع للملكية حدودا كثيرة تحقق الخير وتمنع الشر . وللإسلام حكمته ـ بل حِكَمُهُ ـ فى إقرار الملكية الفردية على هذا النحو . ولكن حكمة معينة تبدو لنا الآن من خلال التطبيق الشيوعى ربما لم تكن واضحة للناس من قبل ، هى حرص

---

١ « سورة الاسراء [١٠٠]

الإسلام على أن تكون أرزاق الناس بأيديهم - على قدر الإمكان - لابيد الدولة ! وذلك حتى لايستذل الناس بلقمة الخبز ! فحين يكون العمل حرا ، والاسترزاق حرا لايحس الناس بسطوة الدولة كما يحسون بها لو كانوا كلهم أجراء للدولة كما هو حالهم فى الشيوعية .

وصحيح أن أولى العزم من البشر لن يحسوا بالمذلة للدولة ولو كانت لقمة الخبز فى أيديها . ولكن الإسلام فى واقعيته لايفترض فى كل الناس أنهم من أولى العزم . إنما يتعامل معهم بحسب واقعهم، ويعلم أنهم عرضة للضعف أمام الضغوط الواقعة عليهم . لذلك جعل التكافل فى الأسرة والمجتمع هو الأصل الكبير الذى تقوم عليه الحياة فى المجتمع الإسلامى ، وجعل كفالة الدولة المباشرة هى الاحتياط الأخير الذى يسد الثغرات التى لم تستطع سدها الأسرة ولا المجتمع . ويظل الناس بعيدين عن سطوة الدولة بقدر الإمكان، ليقوم التوازن السياسى فى المجتمع الإسلامى . ولي الأمر له على الناس السمع والطاعة ، والناس لهم على ولى الأمر النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أى الرقابة على تنفيذ شريعة الله .

وعلى ضوء الخط المستقيم المتمثل فى دين الله يتبين لنا مدى الانحراف فى الجاهليات ، وفى الجاهلية الشيوعية بالذات .

أما تقريب الفوارق بين الناس فلايتم فى الإسلام بمصادمة الفطرة وقتل الحافز الفردى .

إنما الإسلام دين الفطرة يتمشى معها ويرفعها إلى أقصى ما تطيق من درجات الرفعة ولكن دون مصادمة لاتجاهاتها الأصيلة . ومن ثم لا يلغى الإسلام الملكية الفردية إنما ينظمها على الوجه الذى تستجيب فيه للفطرة دون أن يترتب عليها الشر ، ثم يضع فى يد ولى الأمر الصلاحية الدائمة لتصحيح الأوضاع إذا اختلت رغم كل التنظيمات والترتيبات .

وتنظيمات الإسلام وترتيباته تتضمن أولا نظافة الوسائل التى يحصل بها الإنسان على المال ، فلا غصب ولا نهب ولا سرقة ولا غش ولا ربا ولا احتكار ولا أكل حق الأجير .

وتتضمن ثانيا تزكية المال بإخراج زكاته التى توضع فى بيت المال لتقوم الدولة منها - ومن الموارد الأخرى المشروعة - بكفالة من يحتاج إلى الكفالة من الناس .

وتتضمن ثالثا ضرورة إنفاق المال وعدم حبسه عن التداول . فإما أن يوظف المال فى عمل نافع فيستفيد منه المجتمع ويستفيد منه الأفراد الذين يعملون فيه ، وإما أن ينفق إنفاقا مباشرا فى أبواب الانفاق التى شرعها الله ، بما يحقق كفالة القادرين لغير القادرين فى المجتمع .

وتتضمن رابعا تحريم الإنفاق فى المعصية ، وكراهة الإنفاق فى الترف والسرف كراهة تشبه التحريم .

وتتضمن خامسا تنظيما دقيقا للمواريث يفتت الثروة على الدوام ويعيد توزيعها فى كل جيل .

وأخيرا تقرر الشريعة مبدأ « لا ضرر ولا ضرار » .. فتضع فى يد ولى الأمر سلطة التصحيح كلما وقع ما يوجب التصحيح دون مصادمة للفطرة ولا إعنات للناس .

وليس هنا مجال التفصيل ، إنما يطلب ذلك فى الكتب المتخصصة فى هذه الأمور . ولكن تكفينا هذه الخطوط العريضة لبيان الفارق بين الاسلام والشيوعية أو الأشتراكية حتى فى المواطن التى يبدو فيها وجود شبه عارض فى بعض الجزئيات .

إن الاسلام نظام متكامل ، وأجهزته كلها تعمل من داخله ، وتعمل بوسائله الذاتية ، وليس فى حاجة أن يستعير أجهزة أجنبية عنه ، ولا فى الإمكان تركيب هذه الأجهزة الأجنبية لتدور معه فى دائرته ، لأنها من مقاس غير مقاسه ، وتعمل على قاعدة غير قاعدته ..

ليس الإسلام نظاما اشتراكيا كما أنه ليس رأسماليا ولا ديمقراطيا ..

الإسلام هو الإسلام .. هو هو كما أنزله الله ..

وإذا كنا نعتقد ـ بصدق ـ أن الاشتراكية تحمل مشابه من الإسلام فى بعض النقاط ، فلماذا نأخذها من الاشتراكية ولا نأخذها من الإسلام ؟!

فلنكن صرحاء مع أنفسنا ، ولننف الهزيمة الداخلية من أرواحنا ـ أيا كانت أسبابها ـ ولنطلب الإسلام باسم الإسلام ، فهذا هو الاسم الذى قرره الله من فوق سبع سماوات : « إن الدين عند الله الإسلام » « ١ »

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين »« ٢ »

« ١ » سورة آل عمران [١٩] سورة آل عمران [٨٥]

العلمانية

« العلمانية » هى الترجمة العربية لكلمة « Secularism, Secularite »
فى اللغات الأوروبية . وهى ترجمة مضللة لأنها توحى بأن لها صلة بالعلم ،
بينما هى فى لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم . بل المقصود بها فى تلك اللغات
هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين ، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة .

تقول دائرة المعارف البريطانية فى تعريف كلمة « Secularism »

« هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى
الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها . ذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى
رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا والتأمل فى الله واليوم الآخر . ومن أجل
مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ « Secularism » تعرض نفسها من خلال تنمية
النزعة الإنسانية،حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد
بالإنجازات الثقافية البشرية ، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم فى هذه الحياة
القريبة . وظل الاتجاه إلى الـ « Secularism » يتطور باستمرار خلال التاريخ
الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية »« ١ »

وهكذا يتضح أنه لا علاقة للكلمة بالعلم ، إنما علاقتها قائمة بالدين ولكن على
أساس سلبى ، أى على أساس نفى الدين والقيم الدينية عن الحياة . وأولى
الترجمات بها فى العربية أن نسميها « اللادينية » بصرف النظر عن دعوى
« العلمانيين » فى الغرب بأن « العلمانية » لاتعادى الدين،إنما تبعده فقط عن
مجالات الحياة الواقعية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. الخ
ولكنها تترك للناس حرية « التدين » بالمعنى الفردى الاعتقادى،على أن يظل هذا
التدين مزاجا شخصيا لادخل له بأمور الحياة العملية

بصرف النظر عن هذا الاعتراض الذى سنناقش مدى حقيقته بالنسبة
للحياة الأوربية ذاتها ، كما سنناقشه بالنسبة للإسلام لنتبين مدى تطابقه أو

Encyc. Britanica V.IX p.19

عدم تطابقه مع المفاهيم الإسلامية ، فإن « اللادينية » هى أقرب ترجمة تؤدى المقصود من الكلمة عند أصحابها ، ولكنا مع ذلك سنظل نستخدم المصطلح المعروف عند الناس ـ مع بيان بعده عن الدقة ـ حتى يتفق الكتاب على نبذ هذا المصطلح المضلل ، واستخدام اللفظة الأدق .

* * *

نبذ الدين وإقصاؤه عن الحياة العملية هو لب العلمانية .

وتبدو نشأة العلمانية فى أوروبا أمرا منطقيا مع سير الأحداث هناك ، إذا رجعنا إلى الظروف التى شرحناها من قبل فى التمهيد الأول من هذا الكتاب ، أى إلى عبث الكنيسة بدين الله المنزل ، وتحريفه وتشويهه ، وتقديمه للناس فى صورة منفرة ، دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث وإرجاعه إلى أصوله الصحيحة المنزلة ، كما هو الحال مع القرآن ، المحفوظ ـ بقدر الله ومشيئته ـ من كل عبث أو تحريف خلال القرون .

فمن المعلوم أن الإنجيل المنزل من عند الله لم يدون على عهد المسيح عليه السلام ، إنما تلقاه عنه حواريوه بالسماع ، ثم تشتتوا تحت تأثير الاضطهاد الذى وقع على أصحاب الرسالة الجديدة سواء من اليهود أو من الرومان ، فلما بدأ تدوينه بعد فترة طويلة من نزوله كان قد اختلط فى ذاكرة أصحابه ، كما اختلطت النصوص فيه بالشروح ، ثم غلبت الشروح على النصوص .. ووقع الاختلاف والتحريف والتصحيف الذى يشير إليه كتّاب التاريخ الأوروبى ومؤرخو الكنيسة على السواء ، واستبد رجال الدين بشرح ماسمى الأناجيل (مع أن المنزل من عند الله إنجيل واحد لا معنى للتعدد فيه) ثم استبدوا أكثر بالاحتفاظ بعلم « الأسرار » التى نشأت من التحريف والتصحيف والتى لا أصل لها فى دين الله المنزل ، ثم زاد استبدادهم ـ كما أسلفنا فى ذلك التمهيد ـ فصار طغيانا شاملا يشمل كل مجالات الفكر والحياة : طغيانا روحيا وفكريا وعلميا وسياسيا وماليا واجتماعيا .. وفى كل اتجاه .

فحين يحدث نفور من الدين فى مثل هذا الجو فهذا أمر منطقى مع سير الأحداث، وإن لم يكن منطقيا مع « الإنسان » فى وضعه السوى . فإذا كان الإنسان عابدا بفطرته ، وكان الدين جزءا من الفطرة أو هو طبيعة الفطرة ، فإن الإنسان الراشد فى مثل الوضع الذى وجدت فيه أوروبا كان ينبغى عليه أن ينبذ ذلك الدين الذى تحوطه كل تلك التحريفات فى نصوصه وشروحه ، وكل تلك

الانحرافات فى سلوك رجاله ، ثم يبحث عن الدين الصحيح فيعتنقه . وقد فعلت أوروبا الأمر الأول فنبذت دين الكنيسة بالفعل ، ولكنها لم تفعل الأمر الثانى حتى هذه اللحظة إلا أفرادا متناثرين لم يصبحوا بعد « ظاهرة » ملموسة . ومن هنا نقول إن الظروف التى أحاطت بالدين فى أوروبـا تفسر ولا تبرر .. تفسر شرود الناس فى أوروبا عن الدين ولكنها لا تبرره .. فإنه لاشىء على الإطلاق يبرر بعد الانسان عن خالقه ، ونبذه لعبادته على النحو الذى افترضه على عباده ، سواء بالاعتقاد بوحدانيته سبحانه ، أو بتوجيه الشعائر التعبدية إليه وحده،أو بتنفيذ شريعته . فهذا التصرف المنحرف من الإنسان الذى نبذ الدين وابتعد عن الله . هو الذى قال الله فيه : « بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ؟ » « ١ » أى أنه لايقبل منه عذر فيه !

على أن الذى يعنينا الآن ليس هو محاسبة أوروبا على انحرافاتها فى مجال الدين والعقيدة ، فالخلق صائرون إلى ربهم وهو الذى يحاسبهم :

« فذكر ، إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم »« ٢ »

ولكن الذى يعنينا هو شرح هذه الانحرافات وبيان الصورة التى حدثت عليها ، والظروف التى أحاطت بها منذ مبدئها حتى صارت إلى ما صارت إليه .

ونخطئ - من وجهة نظرنا الإسلامية - إن قلنا إن « العلمانية » حدثت فقط بعد النهضة . فالحقيقة - من وجهة النظر الإسلامية - أن الفصل بين الدين والحياة وقع مبكرا جدا فى الحياة الأوروبية ، أو أنه - إن شئت الدقة - قد وقع منذ بدء اعتناق أوروبا للمسيحية ، لأن أوروبا - كما أسلفنا فى التمهيد - قد تلقت المسيحية عقيدة منفصلة عن الشريعة (بصرف النظر عما حدث فى العقيدة ذاتها من تحريف على أيدى الكنيسة) ولم تحكم الشريعة شيئا من حياة الناس فى أوروبا إلا « الأحوال الشخصية » فحسب ، أى انها لم تحكم الأحوال السياسية ولا الأحوال الاقتصادية ولا الأحوال الاجتماعية فى جملتها .

وهذا الوضع هو علمانية كاملة من وجهة النظر الاسلامية« ٣ » ولكن الذى تقصده أوروبا بالعلمانية « Secularism » ليس هذا ، لأنها لم تألف الصورة الحقيقية للدين أبدا فى يوم من الأيام ! إنما الذى تقصده أوروبا حين تطلق هذه

« ١ » سورة القيامة [١٤ - ١٥]

« ٢ » سورة الغاشية [٢١ - ٢٦]

« ٣ » سنتحدث فى هذه النقطة تفصيلا فى نهاية الفصل .

الكلمة هو إبعاد ما فهمته هى من معنى الدين عن واقع الحيـاة ، متمثلا فى « بعض » المفاهيم الدينية،وفى تدخل « رجال الدين » باسم الدين فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والعلم والأدب والفن .. وكل مجالات الحياة ؛ ثم إقامة هذا كله بعيدا عن نفوذ الكنيسة من جهة ، وبعيدا عن مفاهيم الدين كلها من جهة أخرى،بصرف النظر عن وجود الكنيسة أو عدم وجودها .

بعبارة أخرى نقول إن ما نبذته أوروبا حين أقامت علمانيتهـا لم يكن هو حقيقة الدين ـ فهذه كانت منبوذة من أول لحظة ! - إنما كان بقايا الدين المتناثرة فى بعض مجالات الحياة الأوروبية أو فى أفكار الناس ووجداناتهم . فجاءت العلمانية فأقصت هذه البقايا إقصاء كاملا من الحياة ، ولم تترك منها إلا حرية من أراد أن يعتقد بوجود إله يؤدى له شعائر التعبد فى أن يصنع ذلك على مسئوليته الخاصة ، وفى مقابلها حرية من أراد الإلحاد والدعوة إليه أن يصنع ذلك بسند الدولة وضمانتها !

* * *

كيف نشأت هذه العلمانية فى أوروبا ؟

أى كيف أقصيت بقـايـا الدين من الحيـاة الأوروبيـة وصـارت الحيـاة « لادينية » تماما فى كل مجالاتها العملية ؟

نحتاج أن نتذكر أولا أنه فى الوقت الذى لم يكن للدين الحقيقى وجود فى أوروبا ـ سواء فى صورة عقيدة صحيحة أو صورة شريعة حاكمة ـ كان هناك نفوذ ضخم جدا يمارس باسم الدين فى مجـال العقيدة وفى مجـالات الحياة العملية كلها من قبل رجال الدين ، ويتمثل فى حس الناس هناك على أنـه هو « الدين » !

أى أن الصورة الواقعية للدين فى أوروبا كانت تتمثل أولا فى عقيدة مأخوذة من « الأناجيل » وشروحها تقول إن الله ثالث ثلاثة وإن الله هو المسيح ابن مريم ، وتتمثل ثانيا فى صلوات وقداسات ومواعظ واحتفالات تقام فى الكنائس يوم الأحد بصفة خاصة ، وتتمثل أخيرا ـ وليس آخرا ـ فى نفوذ لرجال الدين على الملوك وعلى عامة الناس ؛ فأما نفوذهم على الملوك فيتضمن أنهم لايجلسون على عروشهم إلا بإذن البابا ومباركته ، ولايتولون سلطانهم على شعوبهم إلا بتولية البابا لهم ، وإذا غضب عليهم البابا ـ غضبا شخصيا لا علاقة له البتة بتحكيم شريعة الله - نبذتهم شعوبهم ولم تذعن لأوامرهم . وأما نفوذهم على

عامة الناس فيتضمن أنهم لا يصبحون مسيحيين إلا بتعميد الكاهن لهم ، وليس لهم صلاة إلا بحضور الكاهن أمامهم فى مكان محدد هو الكنيسة ، ولايموتون موتا صحيحا إلا بإقامة قداس الجنازة لهم على يد الكاهن ، ولا يعتقدون إلا ما يلقنهم إياه رجال الدين من شؤون العقيدة ، ولا يفكرون إلا فيما يسمح لهم رجال الدين بالتفكير فيه ، وعلى النحو الذى يسمحون لهم به ، ولا يتعلمون إلا ما يسمح لهم رجال الدين تعلمه ، ولرجال الدين فوق ذلك نفوذ على أموالهم وعلى أجسادهم وعلى أرواحهم أشرنا إلى جوانب منه من قبل .

هذا الدين ـ بهذه الصورة ـ مخالف للدين المنزل من عند الله فى أكثريته .. ولكنه ليس خلوا بالمرة من حقائق الدين ، وهذه شهادة الله فيهم :

« ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به »« ١ »

ففيه من حقائق الدين أن الله هو الذى خلق الكون كله ، وهو الذى خلق الإنسان على هذه الصورة الإنسانية وجعله عاقلا مفكرا مريدا ، وكلفه الأمانة ، وكلفه عمارة الأرض والهيمنة عليها ، وعرفه أن هناك بعثا ونشورا وحسابا وثوابا وعقابا يوم القيامة ، وأن هناك جنة ونارا أبديتين يصير الناس إليهما كل بحسب عمله . وفيه من حقائق الدين كذلك أن الله حرم القتل والسرقة والزنا والربا والكذب والغش والخيانة .. وأوجب على الناس فى حياتهم أخلاقيات معينة يتقيدون بها فى تعاملهم بعضهم مع بعض ، وأن الله شرع الزواج وحرم علاقات الجنس خارجه ، وشرع الأسرة وأوجب صيانتها وجعل للرجل القوامة عليها .. إلى آخر ما يجرى هذا المجرى من حقائق الدين .

ولكن الدين المنزل من عند الله ليس فيه أن الله هو المسيح ابن مريم وأن الله ثالث ثلاثة ، وليس فيه أن يشرع رجال الدين (الأحبار والرهبان) من عند أنفسهم فيحلوا ويحرموا بغير ما أنزل الله (كما أحلوا الخمر والخنزير وأبطلوا الختان) وليس فيه أن يطلب رجال الدين لأنفسهم سلطانا يرهبون به الناس ويفرضون عليهم ما أحلوا هم وما حرموا من دون الله ، كما يفرضون عليهم الخضوع الكامل لأهوائهم فى الوقت الذى لايستخدمون فيه سلطانهم الرهيب فى فرض شريعة الله على الأباطرة والملوك ليحكموا بها بدلا من القانون الرومانى ،

« ١ » سورة المائدة [١٤]

ويكتفون بجعل هذه الشريعة مجرد مواعظ خلقية وروحية من شاء أن يتقيد بها تقيد ومن شاء أن يتفلت منها فلا سلطان لأحد عليه فى الأرض ، بينما القانون الرومانى يعاقب المخالفون له بالقتل أو الحبس أو ما سوى ذلك من العقوبات !

وليس فى الدين المنزل أن الأرض منبسطة وليست كروية ، وأن من قال بكرويتها يحرق حيا فى النار !

وليس فيه أن يفرض رجال الدين لأنفسهم - لا للفقراء والمساكين - عشور أموال الناس ، ولا السخرة المجانية فى أرض الكنيسة .

وليس فيه كل ما فعله رجال الدين من فضائح ومخاز ودناءات .. كصكوك الغفران والفساد الخلقى بكل أنواعه ومناصرة الكنيسة للمظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الواقعة على الشعوب !

ولكن أوروبا حين أنشأت علمانيتها نبذت الدين كله ، لم تفرق بين أباطيل الكنيسة وبين حقائق الدين !

وصحيح أن الدين الكنسى - بحقائقه وأباطيله - لم يكن صالحا للحياة ، ولم يكن مقبولا عند الله :

« قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم »« ١ »

ولكن أوروبا - كما أشرنا من قبل - حين نبذت دين الكنيسة الفاسد لم تبحث عن الدين الصحيح ، الذى يصدق الحقائق ويبطل الأباطيل .

* * *

كان الدين الكنسى ذا سطوة عنيفة على كل مرافق الحياة فى أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة . وكان ذلك أمرا سيئا شديد السوء ، لا بسبب سيطرة « الدين » على الحياة كما خيل لأوروبا بغباء فى جاهليتها المعاصرة ، ولكن بسبب سيطرة الفساد الكامن فى ذلك الدين الكنسى على كل مرافق الحياة !

ولكى نستيقن من الحقيقة فى هذا الأمر ما علينا إلا أن نراجع فترة مقابلة « وموازية » من التاريخ ، كان فيها الدين الصحيح ذا سيطرة عظيمة على كل مرافق الحياة .. تلك هى الفترة الأولى من حياة المسلمين التى امتدت حوالى سبعة قرون من الزمان .. فكيف كانت ؟! كان الهدى . وكان النور . وكان

« ١ » سورة المائدة [٦٨]

العلم . وكانت الحضارة التى عرفتها أوروبا طرفا منها فى الأندلس والشمال الافريقى . وكان كل جميل من الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك برغم كل الانحراف الذى طرأ على حياة المسلمين فى تلك القرون ، سواء من جانب الحكام أو من جانب المحكومين !

فلم يكن « الدين » فى ذاته إذن هو مصدر السوء فى الحياة الأوروبية فى تلك الفترة (ولنذكر أن أسبانيا ـ وهى جزء من أوروبا ـ كانت مزدهرة فى نفس الوقت بتأثير الدين الصحيح ، كما كانت صقلية وغيرها من الأصقاع الأوروبية التى دخل فيها الإسلام) إنما كان « فساد الدين » هو السبب فى ذلك الظلام الذى اكتنف أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة الحالكة السواد .

وأوروبا لا تحب أن تصدق هذه الحقيقة فى جاهليتها المعاصرة ـ مع أنها حقيقة موضوعية بحتة يشهد بصحتها كل ما كتبه مؤرخوهم المنصفون عن الحضارة الإسلامية ـ لأن مجرد تصديقها معناه أنهم كانوا مخطئين فى نبذهم « الدين » كله بحجة فساد الدين الذى قدمته الكنيسة لهم ، وأنهم مازالوا مخطئين إلى هذه اللحظة للسبب ذاته .. وهم لايريدون أن يرجعوا إلى الدين بأى وسيلة من وسائل الرجوع !

مرة أخرى لانريد أن نحاسب أوروبا على انحرافاتها فى مجال الدين والعقيدة ، إنما نشرح فقط خطوات ذلك الانحراف .

كانت سيطرة الدين الكنسى على الحياة الأوروبية فى قرونها المظلمة أمرا سيئا كما قلنا ـ برغم سيطرة بعض الفضائل الدينية على الحياة وخاصة فى الريف الأوروبى ـ لأن ذلك الدين ـ بما حواه من انحرافات جذرية فى العقيدة من ناحية ، وفى فصل العقيدة عن الشريعة من ناحية أخرى ، وفى فساد ممثليه من رجال الدين وجهالتهم من ناحية ثالثة ـ كان مفسدا للحياة ومعطلا لدفعتها الحية،كما كان مفسدا للعقول ومعطلا لها عن التفكير السليم .

لذلك كان نبذ ذلك الدين والانسلاخ منه أمرا ضروريا لأوروبا إذا أرادت أن تتقدم وتتحضر وتعيش ..

ولكن البديل الذى اتخذته أوروبا بدلا من دينها لم يكن أقل سوءا إن لم يكن أشد ، وإن كان قد أتاح لها كل العلم والتمكن المادى الذى يطمح إليه البشر على الأرض ، تحقيقا لسنة من سنن الله التى تجهلها أوروبا وتجهل حكمتها ، لأنها لاتؤمن بالله ومانزل من الوحى :

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » « ١ »

نعم ! لم تكن العبودية للأحبار والرهبان من البابوات ورجال الدين أمرا صالحا للحياة ولو كانوا هم أنفسهم من الصالحين ، لأن العبودية لاتصح إلا لله وحده ، ولا تصلح الحياة إلا إذا كانت لله وحده .. فكيف وهؤلاء الأحبار والرهبان على ماكانوا عليه من الفساد والجهالة والبعد عن حقيقة الدين ؟!

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » « ٢ »

ولم يكن الدين الذى يحوى كل ذلك القدر من الأساطير ، ويحارب العلم ويحجر على الفكر ، ويفصل بين الدنيا والآخرة فيهمل الدنيا وينبذها من أجل الخلاص فى الآخرة ، ويحتقر الجسد ويعذبه من أجل خلاص الروح ، ويبيح فى الوقت نفسه للإقطاعيين أن يمتصوا دماء الفلاحين ويكتنزوا بها ويترفوا ويفسدوا ، ويخذل الفلاحين عن الثورة على هذا الظلم بحجة الحصول على رضوان الله وجنته فى الآخرة إن رضوا بالمذلة والظلم فى الحياة الدنيا .. لم يكن ذلك الدين ليسمح للحياة بالتقدم،وهو يلفها بأغلفة سميكة من الظلام .

ويقول التاريخ ـ الذى تكره أوروبا الاعتراف به إلا القلة المنصفة ـ إن أوروبا بدأت تخرج من ظلمات قرونها الوسطى المظلمة حين احتكت بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ سواء فى الحروب الصليبية أو البعوث التى بعثتها للتعلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس بصفة خاصة ، وفى صقلية وغيرها من البلاد التى نورها الإسلام .

بل تقول الروايات التاريخية إن رجال الدين المسيحى أنفسهم كانوا يتعاطون الثقافة الإسلامية فى تلك المدارس،أو فيما ينقل منها إلى اللغات الأوروبية ، وإنهم كانوا يترقون فى مناصب الاكليروس بقدر ما يحصلون عليه من تلك الثقافة » ! « ٣ »

ويقول روجر بيكون (فى القرن الثالث عشر الميلادى) : « من أراد أن يتعلم فليتعلم العربية لأنها هى لغة العلم »

« ١ » سورة الأنعام [٤٤]
« ٢ » سورة التوبة [٣١]
« ٣ » انظر كتاب « المستشرقون » لنجيب العقيقى ، ج١ ، ص١١٣ — ١٢٠

ولقد وجدت أوروبا حين احتكت بالمسلمين عالما عجيبا بالنسبة إليها ، ليس فيه بابوات ولارجال دين ! وليست فيه أسرار عقيدية يختص بعلمها فريق من الناس دون فريق .. وليس فيه « نبلاء ! » يستعبدون الناس في إقطاعياتهم .. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر ، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس .

يقول « راندال » في كتابه « تكوين العقل الحديث » (ترجمة جورج طعمة ج ١ ص ٣١٤ من الترجمة العربية) :

وبنوا (يقصد المسلمين،وإن كان يستخدم لفظة « العرب » تحاشيا لذكر المسلمين !) في القرن العاشر في أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ، بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية ، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمي والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما في أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة »

ويقول ليوبولد فايس (محمد اسد) في كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » (ترجمة عمر فروخ ص ٣٩ ـ ٤٠ من الترجمة العربية) :

« إن العصور الوسطى قد اتلفت القوى المنتجة في أوربة .. كانت العلوم في ركود ، وكانت الخرافة سائدة ، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم ، في ذلك الحين أخذ النفوذ الاسلامي في العالم ـ في بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق ، وبالجامعات الاسلامية الزاهرة في أسبانيا المسلمة في الغرب ، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التي أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية ـ أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية .

« وأمام تلك الأبصار المشدوهة ، أبصار العلماء والمفكرين الأوربيين ، ظهرت مدنية جديدة ، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة ، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم أصبحت في أوربة من قبل نسيا منسيا . ولكن الذي صنعه العرب كان أكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة .. لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة .. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن أوربا النصرانية ، ولكن في المراكز الاسلامية : في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة »

وتعلمت أوربا كل العلم الذى وجدته عند المسلمين ، كما أخذت كثيرا من الأصول الحضارية التى وجدتها عندهم « ١ » ولكنها لأمر ما رفضت أن تأخذ الإسلام ، رغم السماحة الهائلة التى لمسها المسيحيون من المسلمين فى الأندلس ! وارتدت من جاهلية الدين الكنسى المحرف إلى جاهلية ماقبل ذلك الدين ، الجاهلية الإغريقية الرومانية Greco-Roman لتنشىء على أساسها جاهلية جديدة متقدمة كل التقدم فى العلم والتكنولوجيا (على أساس العلم الذى أخذته من المسلمين ، والمنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى استمدته منهم) ومنتكسة أشد الانتكاس فيما عدا ذلك من جوانب الحياة ..

من الإغريق أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد فى صورة جمال حسى .

ومن الرومان أخذت عبادة الجسد فى صورة متاع حسى ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الإنسان فى المتاع وينسى « القيم » التى تكوّن الإنسان . كما أخذت شهوة التوسع الحربى واستعباد الأمم الضعيفة لحساب الدولة « الأم » فى صورة إمبراطوريات .

والمهم ـ بالنسبة لبحثنا الحاضر ـ أنها بدأت تنبذ الدين !

* * *

قامت النهضة على أسس معادية للدين من أول لحظة .

قامت على أصول « بشرية » بدلا من الأصول الدينية أو الإلهية كما كانت تصورها لهم الكنيسة .

كان الدين الذى قدمته لهم الكنيسة على أنه الدين الإلهى دينا أخرويا لا يقيم وزنا للحياة الدنيا ، بل يحتقرها ويزدريها ويدعو إلى إهمالها وعدم الالتفات إليها فى سبيل الحصول على « الخلاص » ، خلاص الروح ، الذى لا يمكن الوصول إليه إلا بالتجرد من متاع الأرض ، والاستعلاء على مطالب الجسد ، والتطلع إلى ملكوت الرب الذى يتحقق فى الآخرة ولا سبيل إلى تحقيقه فى الحياة الدنيا . ومن ثم فإن « حركة التاريخ » ومحاولة تصحيحها بتصحيح حركة المجتمع كما يقول ولفرد كانتول سميث Wilfred Cantwell Simth فى كتاب « الاسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History » لم تكن فى حساب الكنيسة

« ١ » انظر كتاب « شمس الله تشرق فوق الغرب » وانظر فصلا بعنوان « المسلمون فى أسبانيا » فنونهم وصناعاتهم وماكان لهم من فضل فى ثقافة أوربا فى العصر الحديث » بقلم ج . ب . ترند G. B. Trend ص ٧٢٩ ـ ٧٦٠ من الترجمة العربية لكتاب « تاريخ العالم » نشر وزارة التربية والتعليم المصرية .

المسيحية لا أيام ضعفها فى القرون الأولى ولا حين أصبح لها السلطان « ١ » . إنما يسعى كل إنسان إلى خلاصه الشخصى ، كالذى يسير على معبر دقيق كل همه ألا يفقد توازنه فيقع فى الهاوية ، أو كالذى يسير فى الوحل كل همه أن يشمر ثيابه ويلتفت إلى مواقع قدميه حتى لا ينزلق أو يتلطخ بالوحل ، لا يهمه أن يصحح مواضع أقدام الآخرين أو يقيهم من الانزلاق .

ومن هنا فإن هذا الدين فى صورته الكنسية تلك لم يكن يسعى إلى تحسين أحوال البشر على الأرض ، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تقع عليهم ، وإنما يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا برمتها ، وترك كل شىء على ماهو عليه ، لأن فترة الحياة الدنيا أقصر وأضأل وزنا من أن يحاول الإنسان تعديل أوضاعه فيها . إنما يسعى جاهدا إلى الخلاص منها دون أن يعلق بروحه شىء من الآثام . والمتاع ذاته هو من الآثام التى يحاول المتطهرون النجاة منها بالرهبنة واعتزال الحياة .

بل أكثر من ذلك : إن احتمال المشقة فى الحياة الدنيا ، واحتمال مايقع فيها من المظالم هو لون من التقرب إلى الله يساعد على الخلاص . ومن ثم دعت الكنيسة الفلاحين للرضا بالمظالم التى كانت تقع فى ظل الإقطاع وعدم الثورة عليها لينالوا رضوان الله فى الآخرة ، وقالت لهم : « من خدم سيدين فى الحياة الدنيا خير ممن خدم سيدا واحدا » !

ومن جهة أخرى كان هذا الدين يحصر كيان الانسان فى نطاق محدود محصور أشد الحصر ، ليبرز جانب الألوهية فى أكمل صورة .

ألوهية الله فى ذلك الدين معناها السلبية الكاملة للإنسان ، وحصر دوره ـ لا فى العبادة بمعناها الواسع،أى على النحو الذى قرره الإسلام ، والذى يشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ـ إنما فى الخضوع لقدر الله القائم ، وعدم العمل على تغيير شىء من الواقع المحيط بالإنسان ، لأن محاولة التغيير ـ ولو إلى الأحسن ـ تحمل فى طياتها « عدم الرضا » بالأمر الواقع ، وهو لون من التمرد على إرادة الله لا يقره ذلك الدين .

ومن ثم فإن فاعلية الإنسان محصورة فى الطاعة للأوامر الالهية ـ كما تعرضها الكنيسة بالحق أو الباطل – لا تتعداها إلى الإنشاء لأنه ليس للإنسان

« ١ » ص ٣٠ – الطبعة الاولى ، سنة ١٩٥٧ .

أن ينشئ شيئا من عند نفسه،ولو كان يلتزم فى هذا الإنشاء بالهدى الربانى . ومن ثم كذلك كان ثبات الأوضاع فى أوربا فى العصور الوسطى لفترة طويلة من الزمان بكل ماتحمل من ألوان الفساد السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى والروحى .. على أساس أنها قدر الله الذى لا يجوز للناس تغييره ، إنما ينبغى الخضوع له والمحافظة عليه تقربا إلى الله !

* * *

هذا الدين بصورته تلك لم يكن هو الدين المنزل من عند الله ، ولم يكن ـ كما أسلفنا ـ صالحا للحياة . كان لابد من نبذه والانسلاخ منه لكى تسير دفعة الحياة فى خطها الصحيح .

ولقد كان على مقربة من أوربا ـ بل فى جزء من أرضها ـ دين آخر يقدم المنهج الصحيح للحياة ، فلا هو دين أخروى بحت بمعنى إهمال الحياة الدنيا ، ولا هو الدين الذى يفرض السلبية الكاملة على الإنسان ، ويفرض عليه الخضوع « للأمر الواقع » وعدم التفكير فى تغييره .

إنه دين يعمل للآخرة من خلال العمل فى الدنيا « الدنيا مزرعة الآخرة » .

ويبين أن العمل للآخرة لا يعنى إهمال الحياة الدنيا « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »« ١ » « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »« ٢ » .

وهو دين يعمل لإصلاح الحياة الدنيا بإقامة المنهج الربانى الذى يأمر بالعدل والقسط ، كما يدعو إلى الجهاد لإقامة هذا المنهج ومنع الانحراف عنه ، ذلك الانحراف الذى يؤدى إلى فساد الحياة وإلى وقوع الظلم على الناس :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز »« ٣ »

وهو دين يجعل للإنسان إيجابية واسعة فى الأرض .

فقد خلقه الله ابتداء ليكون خليفة فى الأرض :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »« ٤ »

« ١ » سورة القصص [٧٧] — « ٣ » سورة الحديد [٢٥]
« ٢ » سورة الاعراف [٣٢] — « ٤ » سورة البقرة [٣٠]

ومن شأن الخلافة الهيمنة على الأرض والسيطرة عليها ، والإنشاء والتعمير فيها ، واستغلال الطاقات المذخورة فى السماوات والأرض ، التى سخرها الله للانسان من أجل عمارة الأرض ، والمشى فى مناكب الأرض لاستخلاص الأرزاق المكنونة فيها والظاهرة :

« هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها »« ١ »

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه »« ٢ »

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »« ٣ »

بل إن المنهج الربانى ذاته يستدعى إيجابية الإنسان لتنفيذه ، فهو لا ينطبق انطباقا آليا على الأحداث والأشياء ، بل الإنسان المستبصر بالهدى الربانى هو الذى يطبقه ويجتهد بفكره ليضع تفصيلات تنفيذه ، خاصة وهو منهج حياة كامل ، يشمل الثابت والمتغير فى حياة الإنسان ، فلابد أن يجتهد على الدوام ليضع للمتغير حلا مستمدا من المبادئ الثابتة فى هذا المنهج .. ومن ثم يعمل الإنسان بإيجابيته الكاملة فى التنفيذ ، سواء إيجابية العزيمة اللازمة لإقامة المنهج والجهاد لإقراره فى الأرض،أو إيجابية التفكير فى الوسيلة المثلى لإقامته ..

بل إن قدر الله ذاته يجرى من خلال أعمال الإنسان بالخير والشر سواء :

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »« ٤ »

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »« ٥ »

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »« ٦ »

« إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »« ٧ »

وهذا الدين الذى يعطى التوازن الصحيح بين الدنيا والآخرة ، وبين فاعلية قدر الله وفاعلية الإنسان ، وبين العبودية الكاملة لله والإيجابية السوية للإنسان ، هو الدين الصحيح الذى تصلح به الحياة فى الأرض ، وتستقيم به خطى البشر فى الحياة الدنيا .« ٨ »

« ١ » سورة هود [٦١]
« ٢ » سورة الملك [١٥]
« ٣ » سورة الجاثية [١٣]
« ٤ » سورة الروم [٣١]
« ٥ » سورة النحل [١١٢]
« ٦ » سورة الاعراف [٩٦]
« ٧ » سورة الرعد [١١]
« ٨ » انظر فصل التوازن فى كتاب خصائص التصور الاسلامى .

ولكن أوربا - بدافع العصبية الصليبية - أعرضت عن هذا الدين واتجهت إلى الجاهلية الإغريقية الرومانية ، تنتقم بها من الكنيسة ودينها الفاسد الذى يهمل الحياة الدنيا ويلغى الوجود الإيجابى للإنسان .

وإذ كانت النهضة فى مجموعها « رد فعل » للكبت الواقع على « الإنسان » بفعل التصور الكنسى للدين ، والممارسة الكنسية له ، وإذ كان الغالب على ردود الفعل هو الاندفاع لا التعقل ولا التبصر ولا الروية ولا الاتزان .. فقد اندفعت أوربا فى نهضتها تنزع من طريقها كل معلم من المعالم الإلهية (سواء كانت إلهية حقا أو مدعاة من قبل الكنيسة) وتضع مكانها معالم بشرية من صنع الإنسان ، كما تنزع من طريقها كل مايتصل بالآخرة لتضع بدلا منه مايتصل بالحياة الدنيا .. وكانت هذه هى بداية « العلمانية » بالتعريف الأوربى ..

* * *

لقد أصبح الطابع المميز للفكر الأوربى منذ النهضة هو التمرد على الدين والتمرد على الله ، وكان ذلك نابعا من تأثيرين فى آن واحد . التأثير الأول هو روح رد الفعل الذى قام ضد الدين والكنيسة،والثانى هو تأثير الجاهلية الإغريقية فى هذا الشأن بالذات .

فأما رد الفعل فقد أخذ صورة الخروج على كل ماكان سائدا من قبل فى فترة السيطرة الكنسية .

كان السائد هو الا يفكر الانسان لنفسه فى شىء من الأشياء إنما يأخذ الأفكار جاهزة من الكتب المقدسة وشروحها عن طريق رجال الدين ، سواء كانت الأفكار متصلة بالعقيدة أو بأمر من أمور الدنيا ، أو حتى أمور العلم كقضية شكل الأرض .

وغنى عن البيان أن هذا ليس الموقف الصحيح للإنسان فى ظل الدين الصحيح« ١ » ولكن هكذا كانت الممارسة الدينية فى ظل الجاهلية الكنسية المنحرفة ، والتى من جرائها كان لرجال الدين كل ذلك النفوذ على عقول الناس وأرواحهم ، فهم الوسطاء بين الناس وبين الدين ومفاهيمه ، بل هم الوسطاء بين الناس وبين الله ، والناس - علماء أو غير علماء - لا يبحثون فى أى شأن من الشئون ليكوّنوا فيه رأيا أو موقفا . إنما يسألون رجال الدين ليدلوهم على الرأى

---

١ . سنعاود الحديث فى هذه النقطة فى هذا الفصل وفى فصل « العقلانية » كذلك .

أو الموقف الذى ينبغى عليهم اتخاذه . هـذا بالإضـافة إلى أن الأمـور التى يسألون عنها هى أولا وقبل كل شىء أمور « الخلاص » . الخلاص من أدران الحياة الدنيا للحصول على رضوان الله فى الآخرة .

وكان رد الفعل أن الإنسان هو الذى ينبغى أن يستشار فى الأمور كلها وليس الدين ، وأن العقل البشرى هو الذى ينبغى أن يكون صـاحب القرار وليس الله .. ولو كان الأمر متعلقا بالعقيدة أو الأمور الأخروية . وبمقدار ما كان العقل مكبوتا ومحجورا عليه ، انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجا عن اختصاصه ! يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذى كان ممنوعا من حقه فهو يريد أن يؤكد هذا الحق . ويقتحمه بروح الشك ، أو روح المحو لكل ماكان موجودا من قبل ولم يشترك فيه ، فهو يريد أن ينشئه من جديد سواء وافق ما كان موجودا من قبل أو خالفه ، والأجدر بـه أن يخالفـه لكى يثبت وجوده .

بهذه الروح بدأ الكتاب و« المفكرون الأحرار » يهاجمـون فكرة الألوهيـة وينفون الرسالات والوحى ، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار .. ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية فى غيبة من العقل ، والآن وقد صحا العقل فقد آن الأوان لنبذها وتركها للهمج المتأخرين .. وربما كان خير ممثل لهذا الاتجاه هو « فولتير » الكاتب الفرنسى الملحد المشهور .

اما التأثير الثانى الذى أشرنا إليه فهو تأثير الجاهلية الإغريقية التى تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع وخصام لايفتر : الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتكبته وتحطمه لكى لايطمح فى أن يكون مقتدرا مثلها ، فلا تفتأ كلما حقق نجاحا أن تصب الكوارث فوق رأسه لكى لايستمتع بثمرات نجاحه ، وهو من جانبه دائم التحدى للآلهة ، كلما وقع فى حفرة من حفائرها عاد يستجمع قواه ليصارعها من جديد . وتكفى أسطورة بروميثيوس الشهيرة لبيان هـذا المعنى بصورة مباشرة،إذ تزعم تلك الأسطورة أن « زيوس » إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ثم سواه على النار المقدسة (التى ترمز إلى المعرفة) ثم وضعه فى الأرض محاطا بالظلام (الذى يرمز إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى بروميثيوس،فسرق له النار المقدسـة لكى ينير له ماحوله ، فغضب زيـوس على الإنسـان وعلى بـروميثيوس كليهمـا . فـأمـا

بروميثيوس فقد وكل به نسرا يأكل كبده بالنهار ثم تنبت له كبد جديدة بالليل يأكلها النسر بالنهار فى عذاب أبدى !

وأما الإنسان فقد أرسل له زيوس « باندورا » (التى ترمز إلى حواء) لكى تؤنس وحشته (فى ظاهر الأمر !) وأرسل معها هدية عبارة عن علبة مقفلة ، فلما فتحها إذا هى مملوءة بالشرور التى قفزت من العلبة وتناثرت على سطح الأرض لتكون عدوا دائما وحزنا للإنسان !

ويشير جوليان هكسلى إشارة صريحة إلى هذه الأسطورة فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث Man in the modern world » فيقول إن موقف الإنسان الحديث هو ذات الموقف الذى تمثله هذه الأسطورة ، فقد كان الإنسان يخضع لله بسبب الجهل والعجز . والآن بعد أن تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ويصبح هو الله !!

من هذين التأثيرين معا انطلق الفكر « المتحرر » يهاجم الدين ، ويصفه بأنه الأغلال التى تغل الفكر عن الانطلاق ، والتى ينبغى أن تحطم لكى يثبت الإنسان وجوده،ويقوم بدوره الذى يجب أن يقوم به فى الأرض !

* * *

وفى نفس الوقت اتجه الفكر المنسلخ من الدين إلى البحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين ! ذلك أن أوروبا لم تكن قد انسلخت بعد من القيم ذاتها كما حدث فيما بعد،حين امتد الخط المنحرف فازداد بعدا وانحرافا ، أولم تكن قد سنحت الفرصة للشريرين أن يعلنوا الحرب المنظمة على كل مقومات « الإنسان » كما سنحت لهم بعد ظهور الداروينية وإعلان حيوانية الإنسان !

ففى تلك الفترة وجد « الفكر الحر ! » أنه إن أقر بأن الدين هو مصدر القيم الإنسانية فقد وجب عليه أن يحافظ عليه ولا يهاجمه ولا يسعى إلى تحطيمه ! فينبغى إذن أن يبحث ذلك الفكر عن مصدر آخر يستمد منه القيم ويسندها إليه ، لكى لايقول أحد إنه لايمكن الاستغناء عن الدين ! وعلى هذا الضوء يمكننا فهم فلسفة « أوجست كومت » من ناحية ، وأفكار جان جاك روسو من ناحية أخرى . فكلاهما يجهد نفسه ليقول للذين يقفون مدافعين عن الدين : ها قد وجدنا مصدرا آخر تنبع منه القيم الضرورية لحياة الإنسان غير الدين ، وجدناه فى « الطبيعة » وفى « النفس البشرية » وهو مصدر أفضل – فى إثبات القيم

وترسيخها - من الدين .. فدعونا إذن من الدين ، وتعالوا معنا إلى تلك المصادر « الحرة » التى يقبل عليها الإنسان إقبالا « طبيعيا » و « ذاتيا » دون أن يحس بالقهر المفروض عليه من قوة أعلى منه !

وفى الوقت ذاته اتجه هذا « الفكر المتحرر » إلى عبادة الطبيعة بدلا من عبادة الله ، ونسبة الخلق إليها بدلا من الله . وقد تحدثنا من قبل عن هذا الأمر بمافيه الكفاية فلانعود إلى الحديث فيه ، ولكن نضعه فقط فى مكانه من التسلسل التاريخى .

وفى ذات الوقت كذلك اتجه الفن إلى مناجاة الطبيعة بدلا من مناجاة الله ، وتأليهها بدلا من تأليه الله« ١ » .

* * *

ومضى الزمن فى خطواته ، وجاءت الثورة الصناعية .. وجاء مزيد من إبعاد الدين عن الحياة .

ففى العهد الزراعى - أو الإقطاعى كما يسمونه - كان مايزال للدين نفوذ كبير فى حياة الناس .

كان الملوك قد استقلوا عن سلطان البابا ، وقامت « علمانية الحكم » بفصل الدين عن السياسة (أى إقصاء رجال الدين عن التدخل فى شؤون السياسة) ولكن الكنيسة كان مايزال لها سلطان ضخم على أخلاق الناس وعاداتهم وأفكارهم رغم كل الصراعات وكل الاعتبارات .

ولكن الثورة الصناعية أحدثت - أو أريد لها أن تحدث - هزات عنيفة فى حياة الناس .

ولقد مر بنا فى الفصول السابقة تفصيل ماصنعت الثورة الصناعية فى حياة أوربا ، ومابنا من حاجة إلى إعادته . ولكنا نذكّر مجرد تذكير بإخراج المرأة إلى العمل وإفساد أخلاقها وإفساد أخلاق الرجل معها ، واستغلال قضية المساواة مع الرجل فى الأجر لبث روح الصراع فى نفس المرأة وإحراج صدرها من قوامة الرجل والعمل فى البيت والتفرغ للأمومة ، ومانتج عن ذلك كله من تحطيم

« ١ » ليست مناجاة الطبيعة فى ذاتها انحرافا عن السلوك القويم فى عالم الفن ، بل العكس هو الصحيح . فالفن السليم لابد أن يلتفت إلى الطبيعة ويتفاعل معها . ولقد لفت القرآن الكريم حس المسلمين لفتا شديدا إلى الطبيعة فى شتى مظاهرها من الجبال والأنهار والوديان والزروع والرعد والبرق والسحاب والمطر والريح والسماء والأرض .. ولكن المناجاة شىء والتأليه الذى مارسته الفنون الأوربية العلمانية شىء آخر .

الأسرة وتشريد الأطفال والفوضى الجنسية .. الخ ونسبة ذلك إلى التطور الذى يهدم مايشاء من القيم ويلغى مايشاء !

وكانت الطامة العظمى هى الداروينية وإبعاد الإنسان ذاته من عالم الإنسان وإلحاقه بعالم الحيوان ! فعندئذ لم تعد هناك حاجة إلى القيم أصلا .. لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد المستمدة من الدين .. فما حاجة الإنسان إلى شىء من ذلك وهو عريق فى الحيوانية مستقر فى عالم الحيوان ؟!

ثم أتى على الإنسان حين من الدهر لم يعد حتى حيوانا ! بل هبط عن ذلك دركات فأصبح جزءا من عالم المادة الصماء !

* * *

لم نكن هنا نستعرض خطوات العلمانية بالتفصيل ، فسيأتى شىء من ذلك فيما بعد حين نتحدث عن علمانية السياسة وعلمانية الاقتصاد والاجتماع والعلم والأخلاق والفن .. ولكننا أردنا فقط أن نلفت النظر إلى حقيقة واقعة هى استمرار « الإنسان » فى الهبوط كلما أمعن فى السير على الخط العلمانى .

وأيا تكن الأسباب التى أدت بأوربا إلى العلمانية فهى كما قلنا من قبل تفسر العلمانية ولاتبررها ، ولا تبرر بالطبع نتائجها التى أدت إليها ، والتى بدأ المفكرون الغربيون أنفسهم يتنبهون إليها وينذرون نتائجها ، ولكن دون أن يعرجوا على السبب الحقيقى ولا العلاج الحقيقى !

ولئن كانت الكنيسة هى المعتدية على الملوك والعلماء فى بادئ الأمر ، مما أسفر عن العداء بين الدين والسياسة وبين الدين والعلم ، فلم تكن هى المعتدية ولا المتسببة حين أقامت الثورة الصناعية اقتصادياتها على الربا ولجت فيه ، وحين سقطت « الأخلاق » واحدا إثر الآخر ، حتى الأخلاق التى أقرها « المفكرون الأحرار » فى مبدأ عهدهم وهم يناصبون الكنيسة العداء ، ويبحثون عن مصدر آخر للقيم غير الدين !

إنما استمرأ القوم الفوضى الخلقية وأمعنوا فيها لا للدوافع القديمة التى دفعتهم للخروج على الدين أول مرة ، ولكن لأن هذه هى طبيعة السير على المنزلق .. كل خطوة تصبح أشد هبوطا من السابقة .. وهذه طبيعة الحياة حين يكف الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. يزداد المنكر وينتفش ويستفحل حتى يصبح هو الأصل ، أو حتى يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن أجل ذلك لعن الذين

كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم :

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ماكانوا يفعلون »« ١ »

ويجدر بنا الآن على أى حال أن نستعرض الصورة الراهنة للعلمانية فى أوربا فى مجالات الحياة المختلفة ، لا على أنها الصورة الأخيرة التى ستقف عندها ! فقد لاتقف عند هذا الحد من السوء ، وإن لم يكن فى وسع الخيال أن يتصور ماهو أسوأ ، ولكن لنقيس المسافة بين الأصل الذى كان ينبغى وبين ماوصلت إليه الأمور حين قال الإنسان لنفسه : لقد شب الإنسان عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله !

(١) فى السياسة :

لم تكن السياسة من أول عهدها فى الإمبراطورية الرومانية محكومة بالشريعة المنزلة من عند الله ، وإن وقعت لفترة من الوقت تحت سلطان البابوات ورجال الدين ، يفرضون على الملوك أن ينزلوا على إرادتهم على اعتبار أن إرادتهم من إرادة الله .

فقد بينا من قبل أن الفصل بين الدين والسياسة كان قائما من أول اعتناق الدولة الرومانية للمسيحية ، إذ اعتنقتها عقيدة فقط ، ولم تأخذ من الشريعة إلا مايتعلق بالأحوال الشخصية ، وبقيت الأمور الجنائية والأمور المدنية وعلاقة الحاكم بالمحكوم وغيرها من شؤون الحياة الواقعة يحكمها القانون الرومانى ولاتحكمها الشريعة المنزلة فى التوراة والمعدلة تعديلا جزئيا بالإنجيل :

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم »« ٢ »

« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »« ٣ »

ولكن الكنيسة مع رضاها بهذا الأمر – المخالف لأمر الله – فى أيام ضعفها،لم تحاول فى أيام سلطانها وسطوتها أن تعود إلى الوضع الدينى

« ١ » سورة المائدة [٧٨ – ٧٩]
« ٢ » سورة آل عمران [٥٠]
« ٣ » سورة المائدة [٤٧]

الصحيح ، فتلزم الملوك والأباطرة أن يحكموا بما أنزل الله ، وهى تمارس عليهم من السلطان مالا يستطيعون معه مخالفتها أو الخروج على أمرها ، بل استغلت سلطانها فى إخضاعهم لأهوائها الخاصة ، بينما تركتهم يحكمون بغير ما أنزل الله وهى راضية عنهم كل الرضا ماداموا يخضعون لأوامرها ، وهذا هو الذى تسميه أوربا الحكم الدينى أو الثيوقراطى وما أبعده عن الدين !

صحيح أن إخضاع الكنيسة الملوك والأباطرة لأهوائها الذاتية كان يتم باسم الدين وتحت شعاراته ، ولكن هذا لايكفى لاعتباره حكما دينيا مادام لايحكم بما أنزل الله . ولكن الحس الأوربى المضطرب يخلط بين الدين ورجال الدين نتيجة اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، واعتبار أعمالهم وأقوالهم أعمالا دينية وأقوالا دينية ولو كانت بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين !

مهما يكن من أمر فقد استطاعت الكنيسة بنفوذها أن تجعل الملوك والأباطرة طوع إرادتها . وأعلن البابا « نقولا الأول » (٨٥٨ - ٨٦٧م) بيانا قال فيه :

« إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل .. (ولذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين ، حكاما كانوا أو محكومين »

وأعلن البابا جريجورى السابع (تولى البابوية ١٠٧٣ - ١٠٨٥)« أن الكنيسة بوصفها نظاما إلهيا خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ، ومن حق البابا وواجبه - بصفته خليفة الله فى أرضه - أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال »

ولم يكن ذلك كلاما فى الهواء ، إنما كان واقعا عاشته أوربا عدة قرون ..

وأبرز الأمثلة التى يرويها التاريخ الأوربى ماحدث بين « جريجورى السابع » هذا والامبراطور الألمانى « هنرى الرابع » مما أشرنا إليه من قبل ، « إذ أن خلافا نشب بينهما حول مسألة « التعيينات » أو مايسمى « التقليد العلمانى » فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ، ورد البابا بخلع الإمبراطور وإصدار قرار حرمان ضده ، كما أحل أتباعه وأمراء مملكته من ولائهم له وألبهم عليه . فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد ، فوجد الإمبراطور

نفسه مضطرا إلى استرضاء البابا،ولم يستطع أن ينتظر حتى يصل البابا إلى ألمانيا ، فسافر إليه فى « كانوسا » وظل واقفا فى الثلج فى فناء القلعة ثلاثة أيام فى لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافى القدمين عارى الرأس حتى تعطف عليه البابا ومنحه مغفرته !

وفى بريطانيا حصل نزاع بين الملك « هنرى الثانى » وبين « توماس بكت » رئيس أساقفة كنتربرى بسبب دستور رسمه الملك يقضى على كثير من الحصانات التى يتمتع بها رجال الدين ، ثم إن رئيس الأساقفة اغتيل فثارت المسيحية على هنرى الثانى ثورة عنيفة ، فاعتزل الملك فى حجرته ثلاثة أيام لايذوق فيها الطعام ، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة وألغى الدستور ، ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها ومع ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربرى حاجا مظهرا ندمه ، وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافى القدمين حتى دميت قدماه ، ثم استلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات فى سبيل استرضاء البابا وأتباعه »« ١ »

ولكن الملوك والأباطرة أخذوا آخر الأمر يتمردون على ذلك السلطان القاهر الذى تستذلهم به الكنيسة ، ويطالبون « بالسلطة الزمنية » خالصة لهم على أن تقتصر الكنيسة على السلطة الروحية فحسب ، وكان مستندهم فى ذلك نظرية الحق الالهى المقدس .

يقول رندال (ج١ – ص ٢٧٧ من الترجمة العربية لكتاب « تكوين العقل الحديث ») :

« نشأت نظرية الحق الالهى للملوك فى أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية ، أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة . كما أنها كانت ردا على دعواه أن له حقا إلهيا فى السيطرة على الأمور الزمنية » .

ونظرية الحق الالهى تستند بدورها إلى نظرية رومانية قديمة تعرف بنظرية العقد الاجتماعى .

« ١ » عن كتاب « قصة الحضارة » لول ديورانت ترجمة محمد بدران ، ج١٥ – ص ١٩٤ ، ١٩٧ .

يقول راندال (ج١ - ص ٢٨١ من الترجمة العربية من المصدر السابق) :

« تعود أصول فكرة العقد الاجتماعى إلى الفكر الرومانى وفكر القرون الوسطى معا . وقد كانت الإمبراطورية الرومانية - كما ضمنت فى مجلة الحقوق المدنية - على القول بأن كل السلطة وكل حق فى وضع القوانين يعودان للشعب الرومانى ، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحقوق للإمبراطور ، وهو تفسير طبيعى لمجرى التاريخ الرومانى ، فجميع حقوق الشعب الرومانى وجميع سلطاته انتقلت إلى الإمبراطور ، وله وحده حق « إصدار » القوانين وحق تفسيرها . وعندما تم إحياء القانون الرومانى فى القرون الوسطى ، انتبه الإمبراطور إلى هذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ، ثم تبعه فى ذلك جميع الأمراء . وهكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعى القائلة بأن كل سلطة مدنية ترتكز فى أساسها على الشعب ، وأن الشعب قد حولها إلى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الوظائف الضرورية . ومن الواضح أنها نظرية ذات حدين .. فقد تفسر لتأكيد سلطة الحاكم الشاملة باعتباره مصدر جميع السلطات ، أو لتأكيد سيادة الشعب الأساسية باعتباره المصدر الأخير لتلك السلطة .. »

وكان « مكيافيلى » و « هوبز » من أشهر المدافعين عن الحق الالهى المقدس ، وعن استبدادية الحكام .

ويهمنا مكيافيلى هنا أكثر ، لأنه علم على اتجاه معين فى السياسة الأوربية نلحظ أثاره بشدة فى أوربا العلمانية المعاصرة .

هناك حقيقة أكدناها مرارا أن الحكم بما أنزل الله لم تعرفه أوربا المسيحية فى أى يوم من الأيام ، وأن علمانية الحكم - بهذا المعنى - قائمة فى أوربا منذ اعتنقت المسيحية . ولكن هذا لم ينف - كما بينا مرارا كذلك - أنه كان للكنيسة ورجالها نفوذ شخصى على الملوك والأمراء طيلة اجتماع السلطة الزمنية والسلطة الروحية فى يد الكنيسة . وفى تلك الفترة لم يكن الحكم دينيا بالمعنى الصحيح - وإن سمته أوربا كذلك - لأنه لم يكن يحكم بما أنزل الله لا من قبل الملوك والأمراء ولا من قبل الكنيسة المسيطرة عليهم . ومع ذلك فقد كان هذا النفوذ الدينى الذى تمارسه الكنيسة على الحكام يلزم هؤلاء الحكام بشىء من

« اخلاقيات » المسيحية رضوا أم كرهوا ، عن إيمان حقيقى أم عن ملق للروح المسيحية ونفاق ..

وليس معنى ذلك أن الحكام التزموا دائما بتلك الأخلاقيات المسيحية ، فكثيرا ما كانوا يخالفونها، ولكنهم كانوا يحسون بالحرج من مخالفتها ، ويعتذرون دائما عن المخالفة بشتى المعاذير .

فالذى صنعه مكيافيللى هو تعرية « السياسة » من ذلك القناع الأخلاقى المستمد من الدين ، وكشفها عارية من كل أثر للدين أو الأخلاق !

جاء يشرع الجريمة السياسية ويجعلها أصلا ينبغى للحكام أن يتبعوه !

ولقد كان الحكام - إلا من رحم ربك - يسيرون فى سياستهم على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة ، والغاية طبعا هى غايتهم هم ! ولكنهم كانوا - حين يستخدمون الوسائل غير النظيفة لتحقيق غاياتهم غير النظيفة - يستترون وراء عبارات براقة تحوى كل نبيل من القيم والمبادئ والأخلاقيات ، أما مكيافيللى فإن الجديد الذى أتى به - وهو خطير فى ذاته - أنه أعطى الوسائل الخسيسة فى السياسة شرعية صريحة لا مواربة فيها ولا إنكار .

ولقائل أن يقول : وماذا أضاف مكيافيللى من عنده إلى الواقع ؟ ألم يكن الواقع خسيسا فى غاياته ووسائله ؟ فكل مافعل مكيافيللى أنه كان صريحا بالدرجة التى كشف بها القناع عن الواقع المزيف وجعله حقيقة واقعة !

نعم : ولكن الفارق - العملى - كبير !

وقد لايتضح الفرق فى البداية لأن البداية تكون مجرد مطابقة النظرية للواقع الموجود بالفعل . ولكن الفارق يتبين - ويزداد - مع التطبيق .

حين ترتكب المنكر وانت شاعر بأنه منكر ، فستقتصد فى ارتكابه فلا تلجأ إليه إلا تحت ضغط قاهر ، وستقف فى ارتكابه عند الحد الذى ترى أنه لايطيح بسمعتك كلها أمام الناس ، وقد تحاول الرجوع عنه فى يوم من الأيام . أما حين يكتسب المنكر فى حسك الشرعية فلماذا تقتصد فى ارتكابه ، ولماذا تقف عند حد من الحدود ؟!

إنها هى ذاتها حكمة وقوع اللعنة على الذين لايتناهون عن منكر فعلوه .. لأنهم لايقفون فى ارتكاب المنكر عند حد معلوم .

وحقيقة إن كتاب « الأمير » الذى الفه مكيافيللى وأعطى فيه الشرعية للوسائل الخسيسة التى يستخدمها الحاكم من كذب وغش وخديعة وقتل وسفك

دماء .. قد قوبل باستنكار عنيف وقت ظهوره ، لأن أوربا - كما أسلفنا - كانت نافرة من الدين منسلخة منه ، ولكنها ماتزال تعترف « بالقيم »،وتحاول الحفاظ عليها،ولكن بشرط العثور على منبع آخر لها غير الدين .. ومن ثم ظهرت عدة نظريات تحاول أن تجعل للحكم « أخلاقا » ولكنها غير مستمدة من الدين ، كما فعل جان جاك روسو فى حديثه عن نظرية العقد الاجتماعى واوجست كومت فى فلسفته الوضعية ..

ولكن المنزلق « العلمانى » كان لابد أن يأخذ طريقه .. فمنذ استقلت السياسة عن الدين واستقلت عن الأخلاق المستمدة من معين الدين ، لم يكن من الممكن أن تظل لها أخلاق !

والقرن - الجاهلى - العشرون خير نموذج لمانقول ، فقد قامت فى هذا القرن أبشع دكتاتوريات التاريخ !

ونظرة إلى ماوقع فى أيام موسولينى وهتلر ، وماوقع فى الدول الشيوعية منذ الثورة الشيوعية حتى اليوم،كفيلة بأن ترينا إلى أى مدى انحدرت السياسة « العلمانية » فى تبرير الوسيلة بالغاية ، وكلتا الوسيلة والغاية ما أنزل الله بها من سلطان !

فى فاشية موسولينى ونازية هتلر كانت الغاية هى التجمع القومى والعزة القومية وإحلال قومية كل منهما مكانها « تحت الشمس » !

وفى سبيل هذه الغاية (التى قد تكون مشروعة فى ذاتها إذا خلت من العدوان على الآخرين) استباح كل من الرجلين أن يقتل الرفا ومئات الألوف من المعارضين باسم « حركات التطهير » و « وحدة الصف » و« القضاء على الثورة المضادة » و « القضاء على الطابور الخامس » وما أشبه ذلك من التعلات . وفتحت معسكرات التعذيب ، وذاق الشعب كله ويلات الجاسوسية والارهاب .

وفى التورة الشيوعية كانت الغاية إزالة الظلم(!!) الذى يقع على الناس من جراء الملكية الفردية والصراع الطبقى واستئثار الطبقة المالكة بالحكم والسلطان والمنافع على حساب الطبقة الكادحة ! وقد مر بنا فى فصل الشيوعية وصف العدل (!) الذى طبقته الشيوعية،والوسائل النبيلة (!) التى طبقت بها ذلك العدل ، ومن بينها ذبح ثلاثة ملايين ونصف مليون من المسلمين فى عهد رجل واحد .. وإخضاع الشعب كله لألوان من الإرهاب نادرة فى التاريخ !

أما الديمقراطية اللبيرالية الراسمالية فهى التى تبيح احتراف المعارضة

واحتراف التأييد بحسب موضع كل حزب من الحكم : هل هو بداخله أم خارجه ، بصرف النظر عن الحق والعدل والمصلحة الوطنية أو القومية .. وتبيح الكذب من الساسة على شعوبهم فى الدعاية الانتخابية (وغير الانتخابية) وتبيح استخدام وسائل استراق السمع بحجة المحافظة على الأمن ، وهى تقوم أساسا على مساندة الطبقة الرأسمالية فى امتصاص دماء الكادحين وإن أخرجت ذلك كله فى مسرحية طريفة اسمها « الحرية والإخاء والمساواة » ! وهذا كله فى السياسة الداخلية ..

أما فى السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر .

فالقرن الجاهلى العشرون هو الذى شهد أبشع حالات قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف !

فى حربين عالميتين متتاليتين شهد الناس أفظع فنون العدوان فى التاريخ ، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير جماعى وقتل للنساء والأطفال والشيوخ والمدنيين غير المحاربين .. إلى أن كانت القمة قنبلتى هيروشيما ونجازاكى الذريتين ، اللتين ماتزالان حتى اليوم بعد أربعين سنة من إلقائهما تنتجان أجنة مشوهة بفعل الإشعاع الذرى السام ، وذلك غير الخراب المدمر الذى أحدثتاه وقت إلقائهما فى مساحة كبيرة من الأرض فقتلتا فيها كل من عليها من الأحياء من البشر والدواب والشجر ، وحرمتا الحياة فيها لأجل غير معلوم !

والقنبلة الذرية لعبة صغيرة إلى جوار المدمرات التى اخترعت بعد ذلك ، والتى تهدد الحياة فى أى حرب تالية تقوم بين الوحوش ويصلاها الآدميون !

وذلك إلى إباحة الكذب الدولى والخيانة على أنهما عملة « شرعية » فى عالم السياسة الدولية !

تبرم المعاهدات لكى تنقض ! ويعلم المبرمون جميعا أنها حبر على الأوراق ! وأنه لن يتقيد بها أى طرف إلا ريثما يجد الفرصة السانحة للخروج عليها وإلقائها طعمة للنيران !

وتتكون عصبة للأمم وهيئة للأمم كلتاهما ستار للسياسة العدوانية التى تتخذها « الدول العظمى » ضد الدول الصغار ! وانظر موقف هيئة الأمم « الموقرة » من أية قضية يكون المسلمون طرفا فيها أمام غير المسلمين ! يقع العدوان على المسلمين فى أى مكان فى الأرض فتمرره الهيئة الموقرة باحتجاج شفوى على أقصى تقدير لايغير شيئا من الواقع ولايسمن ولا يغنى من جوع !

ويقع الدفاع من المسلمين ضد أى عدوان واقع عليهم فتجند هيئة الأمم قواتها لتأديب المدافعين ! لأنهم تجرءوا فردوا على المعتدين !

وذلك بخلاف الوسائل الفردية التى تستخدمها « الدول العظمى ! » بطريقها المباشر لتنفيذ « غاياتها » النبيلة !

حين قامت ثورة المجر سنة ١٩٥٦ ميلادية وجدت روسيا فى نفسها من « النبل » ماتحرك به الدبابات الشاهقة تهدم به البيوت على أصحابها أحياء وتردمهم فى الركام لأنهم تجرءوا فطلبوا أن يمنحوا حرية التصرف بأنفسهم فى أمر أنفسهم دون وصاية الدولة الروسية عليهم .. فهل تقاوم الردة إلا بالقتل الجماعى ؟! إلا أن تكون ردة عن دين الله ! فما أشد همجية المقاتلين يومئذ إذا قاموا يقاتلون المرتدين ويدعونهم إلى الرجوع فى دين الله !

كذلك حين قام الأفغانيون يقولون نريد أن تكون لنا الحرية فى أن نكون مسلمين ! فما « أنبل » الجيوش الروسية التى تصب فوقهم القنابل السامة وقنابل النابالم والتدمير الجماعى للقرى وتحريق المزروعات من الجو وحرب الجراثيم وكل محرم فى عرف « الإنسان » ..

أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب ..

نريد انقلابا هنا .. ونريد تغييرا هناك !

وسرعان ماتنقلب الأرض وتتغير الأحوال !

وكل الوسائل حلال !

الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال !

المهم أن تنفذ الغاية .. والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة فى الأوحال !

يقول كاتب غربى مشيرا إلى هذه الحقائق بلسان ساخر :

« بعض الناس يقض مضاجعهم مايقترفه العالم الراسمالى من جرائم وآثام ، فيظلون عميا لايرون جرائم البلشفية وإفلاسها .. وكثير منهم يستغلون نقائض العالم الغربى ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة .. أما أنا فأقول : لعن الله كليهما »« ١ »

« ١ » من كلام « لويس فيشر » فى كتاب « الصنم الذى هوى » (ترجمة فؤاد حمودة) ، ص ٢٧٤ من الترجمة العربية) عن كتاب العلمانية تأليف : سفر عبدالرحمن الحوالى .

(٢) فى الاقتصاد :

لم يكن النظام الإقطاعى متمشيا مع الدين الربانى فى صورته ومضمونه ، ولا كانت فيه أى ذرة من العدل ، وإن كانت الكنيسة أوهمت الناس أنه هو النظام الربانى الدائم الثابت الذى لايتغير ، لأن أوضاع الناس فيه هى الأوضاع التى قدرها الله منذ الأزل ورضى عنها ، واقتضت مشيئته أن يظل الناس عليها إلى الأبد ! وأنه من رضى بما فيه من هوان ومذلة وشظف ومشقة فقد استحق من الله الجنة والرضوان !

ولكن الناس حين خرجوا من الدين على خط العلمانية لم يستبدلوا بالإقطاع ماهو خير منه ، سواء فى الراسمالية أو الشيوعية ، بل ظلوا ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية حتى هذه اللحظة ، وكلما حاولوا أن يصلحوا الظلم جاءوا بظلم جديد . وهذا هو شأن البشر دائما حين يشرعون لأنفسهم ويرفضون الهدى الربانى ، ينقسمون أولا إلى سادة وعبيد ، سادة فى أيديهم المال والسلطان ، يشرعون ، وحين يشرعون فإنهم يضعون القوانين التى تضمن مصلحتهم وتسخر الآخرين لهم ، وعبيد ليس فى أيديهم مال ولا سلطان ، فلا يشرعون ، إنما يقع عليهم مايضعه السادة من تشريعات ، ويسخّرون – رضوا أم أبوا – لمصلحة أصحاب السلطان .. ومن جهة أخرى يصيبهم الخبل والاضطراب والتخبط نتيجة القصور البشرى والجهل البشرى والعجز عن الإحاطة والعجز عن رؤية المستقبل الذى ينبنى على الحاضر ، نعم ، ولكنه مع ذلك غيب لايمكن التنبؤ به عن يقين .

ولم يكن الإقطاع – كما أسلفنا – نظاما ربانيا ، ولا كانت فيه ذرة من عدل .. ولكن النفوذ الذى كان للدين على القلوب – مع كل ما كان فى ذلك الدين من تحريفات ، وفى أهله من فساد – كانت له جملة من الآثار فى أهل الريف الأوربى الذى يعيش فى ظل الإقطاع . فمن جهة كان عند الناس « أخلاق » يتعاملون بها ، مستمدة من تعاليم ذلك الدين ، وكانت هذه الأخلاق أبرز ماتكون فى قضية العفة الجنسية وقدسية الرباط المقدس بين الزوجين ، وكانت كذلك تشمل حسن الجوار وترابط أفراد المجتمع عن طريق التزاور والمجاملات الاجتماعية ، ومن جهة أخرى كان فى نفوس الناس رضى وقناعة تجعل الحمل العصبى الذى يعانونه محتملا فى النهاية رغم سوء الأحوال الاقتصادية إلى أقصى حد .. ومابنا أن ندافع عن الظلم المتمثل فى الإقطاع ، ولا حتى عن الرضى

الذليل الذى كانت الكنيسة تطلبه من الفلاحين مقابل الوعد بنعيم الآخرة ، فإن الدين الصحيح يطلب من الناس أن يثوروا على مثل ذلك الظلم ويصححوه بتحكيم شريعة الله . ولكنا نقرر واقعا تاريخيا كان قائما بالفعل بخطئه وصوابه ، لنقيس به الواقع التاريخي الذى تلاه على خط العلمانية حين خرج الناس من نفوذ ذلك الدين .. فقد بقى الظلم - من حيث المبدأ - كما هو ، ولكن ذهبت الأخلاق ، وذهب الرضى من نفوس الناس ! وأصبح الحمل العصبى الذى يعانونه أبشع من أن يطاق ! فانتشر الجنون والقلق والانتحار والحالات العصبية والنفسية وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة ..

لم تكن « المكيافيللية » فى الحقيقة مقصورة على عالم السياسة . إنما كانت دينا جديدا حل محل الدين المخلوع ! الغاية تبرر الوسيلة . لا فى السياسة فقط ، ولكن فى الاقتصاد والاجتماع كذلك .. بل فى كل شىء تدخل فيه الوسائل والغايات ..

يقول « سول » فى كتاب « المذاهب الاقتصادية الكبرى » (ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ص ٥٠ - ٥١ من الترجمة العربية) عن الفترة التى نبذ فيها الدين ولكن ظلت بقايا القيم - قبل اندثارها - يبحث الناس لها عن سند غير الدين :

« سيطرت فكرة الآخرة على المذاهب السائدة خلال العصور الوسطى وإن لم تسيطر على العادات والتقاليد ، والمجال الدنيوى بمافيه الحياة الانسانية نفسها ليس سوى مكان يستعد فيه الناس للحياة بعد الموت بما تشتمل عليه من ثواب وعقاب ، فكان على المرء أن يتحمل الألم وهو عالم أنه ليس إلا مقدمة لما يتوقع فى حياة مستقبلة .. أما الدافع الفكرى على تقويم العادات الاجتماعية أو زيادة الرفاهية الدنيوية فكان ضئيلا ، اللهم إلا من حيث الفائدة الروحية التى يمكن اجتناؤها .

« والآن تحول الاهتمام فأصبح محصورا فى تحسين الحياة على الأرض ، وكشفت العلوم والمخترعات عن إمكانات الأرض لذاتها ، لقد كانت المكاسب المادية ظاهرة فى كل شىء ، وكان لا حد لها من حيث وجود أساليب أفضل وأيسر لانتاج الأشياء ، وسرت روح المغامرة .

« وهنا برز السؤال التالى : أليس فى وسع الفلسفة أن تعالج النظم البشرية بنفس الطريقة التى تدرس بها الأشياء المادية ؟

« وكان الجواب بالإمكان . ذلك أن المطلوب إنما هو تطبيق العقل على الأساليب التى يستخدمها الناس كيما يعيشوا (فى الأصل : كيما يعيشون) معا،وراح الكثيرون يصوغون الخطط والمشروعات التى تكفل قيام الحياة المثالية أو اليوتوبيا .

« وصار لزاما على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ،ووجدوه فى الطبيعة .. أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان – وإن لم يكن فى الواقع كما هو أغلبهم – فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة . وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شىء له وجود فحسب ، وإنما هو شىء ينبغى أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلا على نقص فى التقوى والأخلاق » .

ويقول راندال فى كتاب « تكوين العقل الحديث » (ج٢ ، ص ٤٦٨ من الترجمة العربية) عن الفترة التالية التى تم فيها الانسلاخ من القيم كلها بعد فقدان معينها الحقيقى وهو الدين :

« هكذا كان العلم (يقصد علم الاقتصاد السياسى) يبدو فى الظاهر محاولة مجردة عن المصلحة ، للوصول إلى فيزياء اجتماعية للثورة ، لكنه كان فى الحقيقة تبريرا منظما للمطالب التى تهدف إلى زيادة حرية جمع المال وتستعين بالعلوم الجديدة البشرية والطبيعية »

ويقول « روبرت داونز » فى كتاب « كتب غيرت وجه العالم » (ترجمة احمد صادق وزميله ، ص ٧٣ من الترجمة العربية) :

« النظرية الأساسية فى كتاب ثروة الأمم« ١ » نظرية ذات نزعة مكيافللية ، وهى أن العامل الأول فى نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية ، وأن العمل على جمع الثروة ماهو إلا مظهر من مظاهرها . وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشرى . وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها ، وإنما هى على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته . وفى رأيه أنه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلابد من ترك كل فرد يستغل أقصى إمكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقيد

« ١ » كتاب ثروة الأمم هو من تأليف « ادم سميث » فيلسوف الراسمالية وإمامها الفكرى وقد كان له دوى هائل فى الغرب

بأى قيود . فللحصول على غذائنا لانعتمد على كرم الخمار « ١ » أو الخباز أو الجزار ، وإنما هم يقدمونه لنا بدافع من مصلحتهم الشخصية ، وإنا عندما نخاطبهم لا نتجه إلى مافيهم من دوافع إنسانية ، وإنما نتجه إلى مصلحتهم المادية ، ولا نكلمهم عن احتياجاتنا ، بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة » .

هذه الصورة المادية البحتة هى التى شكلت روح الرأسمالية ورسمت سمات الحياة فى ظلها ، ففقد الناس أدميتهم بالفعل وصاروا إلى ذلك المسخ الذى يعيش اليوم فى الغرب الرأسمالى .

ينقل كنث لن فى كتابه « تطور المجتمع الأمريكى » (ترجمة نعيم موسى - ص ١١٢ من الترجمة العربية) من كلام جورج فيتزهيو ، أحد الذين ساءهم وضع الرأسمالية فى نهاية القرن الماضى مايلى :

« إننا جميعا فى الشمال والجنوب نعمل فى تجارة الرقيق الأبيض . وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه .. وهذه التجارة أشد قسوة من تجارة الرقيق الأسود لأنها تفرض المزيد من العمل على عبيدها .. وفى الوقت الذى لاتحميهم فيه ولا تسوسهم برفق تفاخر بأنها تفرض المزيد (أى من العمل) ..

« نعم إنه (أى العامل) بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حرا ، إلا أنه يظل يرزح تحت عبء العناية بعائلته وبيته ، مما يجعل حريته سخرية جوفاء باطلة ، فى حين يبقى رب العمل حرا بالفعل ، ويستطيع أن يتمتع بالأرباح التى جناها من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاهيتهم » .

أما ما تلا تلك الفترة حتى اليوم فى العالم الرأسمالى فمعروف لايحتاج إلى بيان .. ففوارق الدخل بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فوارق بشعة إلى حد مذهل .. ولا يأتى هذا الربح المتضخم - كما أسلفنا فى فصل الديمقراطية - إلا من الوسائل الخسيسة التى تستخدمها الرأسمالية لتحقيق غاياتها الخسيسة ، وكلها محرم فى دين الله :

(١) الربا ..

(٢) أكل مال الأجير وعدم توفيته حقه ..

(٣) إفساد فطر الناس وأخلاقهم ليقبلوا على منتجات ليس فيها فائدة حقيقية لهم ، ولكنها تدر على الرأسماليين أرباحا طائلة لاتدرها المنتجات الجادة التى

« ١ » لاحظ أثر الجاهلية فى اعتبار الخمار واحدا من مقدمى الغذاء .. بل فى مقدمتهم !

يحتاج إليها الناس حقا فى حياتهم النظيفة المستقيمة .

(٤) وأخيرا الاحتكار ..

والنتيجة الأخيرة التى تحققها الرأسمالية العلمانية من طرفيها المتمثلين فى أصحاب رؤوس الأموال والعمال ، هى الفساد الخلقى الفاحش ، والقلق العصبى الذى يؤدى إلى الانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة وتفكك الأسرة وتشريد الأطفال والهبوط المستمر بالإنسان إلى عالم الآلة وعالم الحيوان ..

أما الشيوعية فربما كانت أسوأ بديل عرفته البشرية إلى اليوم ..

حقيقة إن الشيوعية هى النظام الجاهلى الوحيد - حتى اليوم - الذى فرض على الدولة كفالة كل فرد يعيش فى ظلها ، ولكن ذلك - كما أسلفنا - لم يكن كرما إنسانيا منها ، فهى تأخذ مقابل ذلك جهد الفرد كله ، و« من لايعمل لا يأكل » على الحقيقة لاعلى المجاز . ثم إن الدولة تستذل الناس بلقمة الخبز على نحو غير مسبوق فى كل النظم التى مرت بها الجاهلية البشرية على الأقل فى التاريخ الحديث .

وربما كان من الحق أن الناس كانوا دائما فى جاهليات التاريخ مستذلين بلقمة الخبز ، يبيعون مقابلها بعض كرامتهم أو كلها ، وبعض إنسانيتهم أو كلها .. ولكن النظام البوليسى الصارم الذى يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس ، ويمنع الناس بالرعب والإرهاب أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة ضد الدولة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام .. إنه ليفرض على الناس - مقابل لقمة الخبز - قدرا من الذل ومن ضياع الكرامة الإنسانية لامثيل له - فى نوعه ودرجته - فى كل النظم التى تزعم أنها نظم « حضارية » على مدار التاريخ !

وهذا فوق التفرقة الضخمة فى كل جانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجرد فرد فى القطيع،وبين أن يكون عضوا فى الحزب ولو فى أسفل درجاته فضلا على الدرجات العليا .

يقول « ميليوفان دجيلاس » نائب الرئيس « تيتو » فى كتاب « الطبقة الجديدة » :

« إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازت الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة .. وإذا

ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقـوق الربح وحـرية السيطرة . وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق فى إطار تلك الحرية فإن الدولة الشيوعية تتجه فى النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة .

« إن الطغيان الشيوعى والإرهاب فى أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسى » .

« لقد سبق أن أعلن ستالين عام ١٩٣٦ مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفيتى أن الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا .. وفى الحقيقة لقد تم فى المعسكـر الشيوعى القضـاء التام عـلى قوى الرأسمـاليـة الوطنيـة التى استؤصلت تماما من الجذور . ولكن مع زوالها بدأت تبرز فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى لها مثيلا .

« ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أى طبقـة أخرى ظهرت على مسـرح التاريـخ ، كما أثبتت فى الوقت نفسـه أنها تحمـل أعظم الأوهام ، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبقى جديد .

« لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب ، بل أصبحت ملكـا مكتسبـا للطبقـة الحـاكمـة وللأعضـاء القيـاديـين للحـزب والبيروقراطيين السياسيين »

« لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف ، وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب ، إنما عـلى أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات ، أما بقية الأعضاء من دونهم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية »

« وليس هناك أية طبقة أخرى فى التاريخ تشابه الطبقة الجديدة فى وحدة تماسكها ، ووحدة الفكر والعمل فى دفاعها عن نفسها ، وفى قدرتها على إحكام القبضة على كل ماهو واقع تحت سيطرتها من الملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة »« ١ »

« ١ » مقتطفات من الكتاب من صفحات ٥١ ، ٥٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ مأخوذة من كتاب « العلمانية » لسفر عبدالرحمن الحوالى . وهو من احسن ماكتب فى موضوع العلمانية .

وأما « الأخلاق » فى ظل الاقتصاد العلمانى الشيوعى فلا مجال للحديث عنها بعد الذى فصلناه فى فصل « الشيوعية » . ولسنا نقول : إن هناك « أخلاقا » أفضل منها فى ظل الاقتصاد العلمانى الرأسمالى . كلاهما بلا أخلاق ، كلا المعسكرين يهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان . فإذا كان هناك فارق بين الحيوانات السائبة والحيوانات المقيدة داخل الحظيرة فهو الفرق بين التسييب والتقييد .. وليس فارقا فى « نوع » الحيوان ..

(٣) فى الاجتماع :

كان الإقطاع ظالما كما قلنا ، ولكن بعض الجوانب الاجتماعية فيه كانت تحكمها أعراف مستمدة من روح الدين .. ومن ذلك الحفاظ على الأسرة ، والزواج المبكر ، وقوامة الرجل وقيامه بالإنفاق ، واستقرار المرأة فى بيتها، وتفرغها للأمومة وتدبير المنزل ورعاية النشء،ومحافظتها على عرضها قبل الزواج وبعده،واعتبار ذلك جزءا من مقومات الأسرة وركنا أساسيا من أركانها ، والتعاون بين أفراد المجتمع .. وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية القائمة على وصايا الدين .

ولكن ذلك كله لم يعجب المنسلخين من الدين فقرروا تغييره ، وإنشاء بديل منه لايقوم على أساس الدين !

كان التغيير فى المبدأ هو تغيير « السند » أو « المنبع » مع محاولة المحافظة على شىء من الأخلاق ، أى البحث عن منبع آخر للقيم الاجتماعية غير الدين .. فليكن هو « الطبيعة » أو يكن هو « النفس الانسانية » ذاتها .. المهم الا يكون المنبع هو الدين ، ولا يكون المرجع الذى تستمد منه القيم هو الوحى الربانى !

ولكن القيم لم تكن لتستمر فى فاعليتها بعد ان تنقطع عن معينها الحقيقى وهو الدين والوحى الربانى ..

ثم إن الهزات العنيفة التى أحدثتها الثورة الصناعية جاءت والقيم مهتزة بالفعل ، قائمة على غير أساس حقيقى يقيها من الهزات . فإذا انهارت هذه القيم سريعا فلا عجب .. وإذا افلح الشريرون فى هدمها بوسائلهم الشريرة بعد أن استعصت عليهم خلال عدد متطاول من القرون فلا عجب كذلك .. فالجدار القائم على غير أساس ينتظر من يهزه ليسقط إذا لم يتداع من تلقاء نفسه ، بينما الجدار القائم على أساس متين لايتزلزل إلا بالجهد الجهيد .

جاءت الثورة الصناعية « فحررت » المرأة .. أى استعبدتها (والرجل كذلك) لأغراضها الخاصة . وكانت « أغراضها » قدرا من الشر لايخطر على بال إنسان ..

تحررت المرأة فتحللت من القيود كلها ، وفى مقدمتها قيود الدين وقيود الأخلاق .

وطالبت بالمساواة الكاملة مع الرجل فرفضت أن يكون قيما عليها لأن القوامة لاتصلح بين الأنداد !

واشتغلت ، فانشغلت عن مهمتها الأولى فى تربية النشء ..

وتفككت الأسرة وانحل البيت وتشرد الأطفال ، وتكونت منهم عصابات جانحة ترتكب الجرائم لمجرد سد الفراغ .

وانحلت روابط المجتمع فصار كل إنسان يعيش وحده .. حتى الأسرة .. الزوج له عمله ومغامراته ، والزوجة لها عملها ومغامراتها .. والأولاد يغادرون البيت فى سن معينة ولايعودون بعد ذلك ، ولايربطهم بالأب والأم رباط ، إلا زيارات خاطفة فى مناسبات متباعدة فى أحسن الأحوال .. ويكبر الأبوان فى تلك العزلة الباردة فلا يجدان من يطرق عليهما الباب .. فينشدان سلواهما فى الكلاب !

وانتشر الشذوذ لأسباب كثيرة ، من بينها – كما يقولون هم بأفواههم – رفض المرأة للقوامة وضياع سيطرة الأب ..

وفى جانب أخر من الأرض قامت « فلسفة » بشرية مغايرة ، وإن كانت تشترك مع سابقتها فى كثير من السمات !

تشترك معها فى إخراج المرأة من البيت وشغلها عن الأسرة والأولاد .

وتشترك معها فى تحطيم كيان الأسرة ..

وتشترك معها فى حل روابط المجتمع ..

ولكنها تختلف عنها فى الطريقة !

فى الأولى يتم تحطيم المجتمع عن طريق تضخيم الفرد وجعله هو الأساس . فيتحطم المجتمع نتيجة المبالغة فى إحساس الفرد بذاتيته الزائدة عن الحد .

وأما الثانية فتجعل المجموع هو الأساس لا الفرد ، فتسحق الفرد من أجل المجموع ، ثم تعود فتحطم المجتمع نتيجة تحويله إلى مجموعة من الأصفار كل منهم بلا مشاعر ولا كيان !

(٤) فى العلم :

بدأ الصراع بين الدين والعلم حين هاجمت الكنيسة العلمـاء الذين قالوا بكروية الأرض وهددتهم بالحـرق أحياء فى الأفـران .. وكانت الكنيسـة هى المعتدية بلا شك ، وكانت حماقة شنيعة منها أن تقف هذا الموقف من أمور علمية بحتة ، يخطئ العلماء فيها أو يصيبون ولكنها تظل فى دائرة العلم لايتدخل فيها « رجال الدين » لأن الدين الصحيح لم يحرم البحث العلمى ، وإنما لفت نظر البشر إلى آيات الله فى الكون،وقال لهم تفكروا فيها وتدبروا لتعرفوا قدرة الخالق العظيم ، دون أن يقيدهم بنظرية معينة فى تفسير ظواهر الكون ، بل ترك ذلك للعقل البشرى يحاول فيه بقدر مايطيق ..

ولكن الاحتجاج بحماقة الكنيسة لفصل الدين عن العلم أو بذر بذور العداء بين الدين والعلم كان فى ذاته حماقة أشد !

فلتكن الكنيسة حمقاء بقدر ماتكون .. ولكن الفطرة السوية لاتفصـل بين الدين والعلم ، لأن كلا منهما نزعة فطرية سوية لازمة للكيان البشرى ، ولا زمة لمهمة الخلافة التى وجد الإنسان من أجلها فى الأرض .

الإنسان عابد بطبعه ، راغب فى المعرفة بطبعه ..

ولاتعارض فى الفطرة السوية بين نزعة العبادة ونـزعة المعـرفة ، ولا بـين الإيمان بالغيب والإيمان بما تدركه الحواس .

ولقد خلق الله الإنسان ليعبده :

« وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »« ١ »

وجعل من بين العبادة عمارة الأرض :

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »« ٢ »

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »« ٣ »

وجعـل من الأدوات المعينة عـلى عمارة الأرض العلم النـظرى فى صـورة « معلومات » عن الكون ، والعلم التطبيقى فى صورة تسخير طاقات السماوات والأرض للإنسان .

« علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم »« ٤ »

« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهـار مبصرة

« ١ » سورة الذاريات [٥٦]
« ٢ » سورة هود [٦١]
« ٣ » سورة الملك [١٥]
« ٤ » سورة العلق [٤ - ٥]

لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا »« ١ »

« وسخر لكم ماف السماوات وماف الأرض جميعا منه »« ٢ »

ومن هنا يكون العلم ذاته جزءا من العبادة المطلوبة من الإنسان ، يستوى ف ذلك العلم بأمور الدنيا والعلم بأمور الدين ، فإن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى تحتاج إلى هذا العلم وذاك .. العلم الدنيوى من أجل العمارة المادية . والعلم الدينى لجعل هذه العمارة المادية مستقيمة على المنهج الربانى ، وتلك هى الخلافة الراشدة المطلوبة من الإنسان .

من أجل ذلك لايوجد ف الدين الصحيح ولا ف الفطرة السوية تعارض ولاتنازع ولا خصومة بين الدين والعلم ! إنما تعمل نزعة العبادة ونزعة المعرفة ف تناسق كامل ف النفس السوية دون قلق ولا حرج ولاتصادم ولانزاع ..

وكذلك قامت الحركة العلمية الهائلة التى قامت ف العالم الإسلامى ف ظل العقيدة ، بل بدافع من العقيدة ! فمن المعلوم من التاريخ أن المسلمين لم يصبحوا أمة علم إلا بعد أن دخلوا ف الإسلام !

ولقد كان النموذج الإسلامى قائما حول أوربا من الشرق والغرب والجنوب .. بل إن أوربا لم تعرف العلم الحقيقى إلا حين أرسلت أبناءها يتعلمون ف مدارس المسلمين ف الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية ، فلئن كانت الكنيسة قد ارتكبت حماقتها بمعاداة العلم والعلماء ، فلقد كان الحل هو نبذ دين الكنيسة الفاسد لا نبذ الدين كله ، وقد رأوا نموذجا مفلحا ومثمرا منه ف العالم الإسلامى .. ولئن كانت « المكايدة » قد أصبحت هى العملة المتبادلة بين الكنيسة من جهة والعلماء من جهة ، فلقد كان المقتضى السليم لذلك هو أن يرد العلماء للكنيسة إلهها الزائف الذى تعذب العلماء باسمه وتطاردهم ، ويفروا إلى الله الحق الذى وجدوه معبودا عند أولئك العلماء الأفذاذ الذين تتلمذوا عليهم وتعلموا العلم على أيديهم ، والذى وجدوا العبادة الصحيحة له تخرج مثل هؤلاء الأفذاذ ، وتتيح لهم حرية البحث العلمى بلا قيود .

« ١ » سورة الإسراء [١٢]
« ٢ » سورة الجاثية [١٣]

ولكن رد الفعل للحماقة التى ارتكبتها الكنيسة كان حماقة جديدة ارتكبها « العلماء » !

لقد كانوا معذورين فى أن يتشككوا فى كل حرف تقوله الكنيسة وتزعم أنه من عند الله ، وفى أن يبدأوا العلم كله من نقطة الصفر ، ويجربوا لأنفسهم ليثبتوا .. فهذا على أى حال هو المنهج العلمى الصحيح الذى تعلموه على أيدى أساتذتهم المسلمين . ولكنهم غير معذورين حين تصل بهم حقائق العلم إلى رؤية القدرة المعجزة للخالق ، فيلوون رؤوسهم فى كبر ، أو يهزون أكتفاهم فى استهتار « غير علمى » ! ويقولون إنه ليس الله ، ولكنه الطبيعة !

هنا الحماقة التى لايبررها شىء .. لا الأمانة العلمية ولا الإنسانية الحقيقية للإنسان !

ولكن أوربا بدأت من هذه الحماقة ثم لجت فيها إلى أبعد الحدود ..

مجرد ذكر اسم الله فى البحث العلمي يعتبر إفسادا للروح العلمية ، ومبررا لطرح النتائج العلمية كلها ولو كانت كلها صحيحة بمقياس العلم ذاته الذى جعلوه إلها من دون الله !

بل مجرد الاعتقاد بوجود الله ، وأنه هو خالق الخلق وخالق الكون كفيل بإخراج العالم من دائرة العلماء الذين يعتد بهم ويؤخذ بآرائهم ولو كانت آراؤه صحيحة بمقياس البحث العلمى ، بل إنه يحيط ذلك العالم بالارتياب والشك فى كل مايقول ، ويجعله موضع الزراية من العلماء « الحقيقيين » ! الذين لابد أن يكونوا ملحدين لتكون آراؤهم موضع التسليم !

أى زراية بالعلم ذاته تؤدى إليه هذه الحماقة ؟!

بل أى روح « غير علمية » تلك التى تسيطر على « العلماء » فى تلك الجاهلية التى تقوم باسم العلم ؟!

ما التعصب إذن ، وما فقدان « الروح العلمية » والأمانة العلمية إذا كان هذا علما وأمانة وروحا علمية ؟

وأى انتكاسة فى عالم « القيم » وعالم « الإنسان » أكبر من تلك الانتكاسة الشنيعة التى ترفض « الحقائق » بمجرد الأهواء ؟!

وكيف - كما قلنا من قبل - كيف يكون الشىء ذاته صحيحا « وعلميا » إذا نسب إلى الطبيعة وغير صحيح وغير علمى إذا نسب إلى الله ؟! ويكون هذا هو الشرط الذى لايقبل غيره للدخول فى مجال العلم والعلماء ؟!

وكيف يتأتى لهذه الجاهلية أن تفصل - فى النفس الواحدة - بين نزعتين فطريتين : نزعة العبادة ونزعة العلم ، فتقول للناس : إذا أردتم الله فاتركوا العلم وإذا أردتم العلم فاتركوا الله ، وتسمى هذا « علما » و« روحا علمية » ؟
وما الفرق بين هذه الحماقة وحماقة الكنيسة التى من أجلها حاربها العلماء ؟!
ألم تقل الكنيسة نفس القولة ولكن من الجانب الآخر ؟! قالت : إذا أردتم الله فاتركوا هذا العلم ، وإذا أردتم هذا العلم فأنتم خارجون على الله !

وحين نستبدل حماقة بحماقة هل نكون راشدين ؟ وهل يحق لنا أن نستعلى بحماقتنا على حماقة الآخرين ؟!

على أن الحماقة البديلة لاتقف عند حد تمزيق البشرية بين نزعتيها الفطريتين ، مما يشكل سببا من الأسباب الكثيرة للاضطراب والقلق النفسى والعصبى الذى تعانيه الجاهلية المعاصرة . إنما يستخدم العلم عن قصد فى إفساد العقيدة وإفساد الأخلاق ..

فبين الحين والحين تخرج « أبحاث علمية » كاذبة - ويعلم أصحابها أنهم كاذبون - تزعم أن الإنسان قد « خلق » الخلية الحية فى المعمل ! وتسفر الحقيقة بعد الاستفسار والتقصى أنهم أعادوا تركيب خلية حية فى المعمل من أجزاء حية أخذت من مجموعة من الخلايا الحية !!

ولكن هذا الدجل « العلمى » يراد به أن يقال للناس هاهو ذا الإنسان قد خلق فلم تعد هناك ضرورة للخالق ! أى يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحاد فى الأرض ، وتتقبله المجلات « العلمية » الرصينة التى ترفض أى بحث علمى يذكر فيه اسم الله !

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون »« ١ »

وسيظل التحدى الربانى قائما فى وجه الملحدين :

« أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون »« ٢ »

وكما يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحاد تستخدم ثمار العلم لإفساد الأخلاق . وأوضح الأمثلة على ذلك حبوب منع الحمل التى يقول الأطباء « الأمناء » - وقليل ماهم - إنها ليست مأمونة تماما ، وإنها قد تسبب

---

١ - سورة الزمر [٤٥]
٢ - سورة الطور [٣٥]

أضرارا خطيرة ، وإنها ينبغى الا تستخدم إلا بإشراف الطبيب .. هذه الحبوب تباع فى الصيدليات بسعر مخفض يكاد يساوى سعر التكلفة ، ويباع لأى فتاة تطلبه - وتكرره - دون تذكرة طبية .. لأنها - كما لايخفى - أداة جبارة لنشر الفاحشة فى الأرض ، لأن الفتاة التى تستطيع أن تأمن نتائج اتصالاتها الجنسية غير المشروعة أيسر انزلاقا من التى تخشى حدوث المتاعب من هذه الاتصالات .

وذلك فضلا عن صرف جهود كثيرة فى أبحاث « علمية » بقصد اختراع المدمرات البشعة بغير موجب حقيقى ، فقد كان انتصار بعض البشر على بعض ممكنا بغير كل تلك البشاعة فى أدوات التدمير .. « ١ »

وهذا الشر العميق كله قد نشأ من « علمانية » العلم .. أى من ذلك المبدأ الملوث الشرير : مبدأ فصل الدين عن الحياة ..

(٥) فى الأخلاق :

ربما لم يكن هناك مجال تأثر بالعلمانية بقدر ما تأثرت الأخلاق ..

ذلك أن الدين هو المنبع الطبيعى للأخلاق ، فإذا جفف هذا المنبع أو جف بسبب من الأسباب فلا بد أن يتبعه حتما انهيار تدريجى فى الأخلاق ينتهى إلى « اللاأخلاق » .

ولقد كانت « النهضة » فى أول عهدها تعتقد - ربما بإخلاص وحسن نية - أن فى إمكانها أن تجد للأخلاق منبعا آخر غير الدين .. من الطبيعة أو من النفس البشرية أو من أى مكان آخر .. والواقع أنهم كانوا فى أول مرحلة الفساد ، فكانوا هم أنفسهم لايتصورون أن البشرية يمكن أن تعيش بلا أخلاق ، أو أنه سيأتى وقت عليها تكون عارية من الأخلاق . فكان المشكل بالنسبة لهم هو محاولة البحث عن منبع للأخلاق غير الدين، حتى لاتتخذ تلك ثغرة يُهاجَمون منها من قبل ذوى الغيرة على الأخلاق وهم يومئذ غير قليل .. ولكن المنبع البديل - أيا كان هو - قد أثبت عجزه عن إنبات القيم التى يحتاج إليها الإنسان فى حياته ، ككل التصورات التى تخطر فى بال الفلاسفة ولاتتعدى أذهانهم إلى واقع الحياة !

ثم جاءت أجيال أكثر علمانية من السابقة ، لأنها كانت قد بعدت أكثر عن

« ١ » حدث فيما بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الكتاب حادث انفجار المفاعل النووى الروسى . الذى تسربت منه الإشعاعات المدمرة . وتعرض لخطرها ملايين من البشر فى أوربا . وهم فى حالة « سلم » لاحرب !

المنبع الحقيقى للقيم ، فبدأت تناقش مبدأ القيم ذاته : هل هى ضرورية حقا للحياة البشرية ؟ وهل هى حقائق واقعية أم مجرد مثل خيالية معلقة فى الفضاء غير قابلة للتطبيق ؟ وإذن فلماذا لانكون « واقعيين » ونتعامل مع الواقع البشرى كماهو ؟ أى بغير مثل وبغير قيم ؟!

وكانت هذه بداية موجة جديدة من الانحدار على المنزلق .. فإننا إذا سلمنا بالواقع الموجود اليوم على انه هو الواقع الذى لايمكن أن يوجد أفضل منه ، فما الذى يمنع هذا الواقع أن ينحدر غدا إلى هوة جديدة ، ثم ما الذى يمنعنا من مجاراته فى الهبوط بحجة الواقعية ؟!

إن الذى يمنع من هذا شىء واحد ، هو وجود القيم الأصيلة التى نقيس إليها أفعالنا ومستوانا ، لنعرف على ضوئها أهابطون نحن أم مرتفعون .. فإذا وجدنا أننا هبطنا حاولنا أن نوقف هبوطنا ونصعد من جديد .. أما فى غياب الميزان فما المعيار ؟ إن الواقعية ليست معيارا يقاس إليه أى شىء ، مادامت تعتبر الواقع هو المقياس ! والناس إذا أفلتت أيديهم من خيط الصعود الذى يشدهم إلى أعلى فلابد أن تهبط بهم ثقلة الشهوات وجواذب الأرض فيزداد واقعهم هبوطا على الدوام .. ومادام معيارنا هو الواقع ، فسيظل المعيار ذاته يهبط مع هبوط الإنسان ! ونظل نحن - بحجة الواقعية - تابع الهبوط .

لقد كان القرن التاسع عشر « واقعيا » فنبذ القيم التى سماها مثالية - بمعنى غير واقعية - واعتبرها ترفا عقليا لاتطيقه طبيعة الحياة ..

وكانت نتيجة ذلك هى القرن العشرين ! قرن التفلت من القيود كلها ، والهبوط إلى الحمأة التى يستعفف عنها الحيوان !

وذلك أمر معروف من التاريخ وإن جادلت فيه الجاهلية المعاصرة ، وهى ليست أول جاهلية تجادل فى الحق وتنكر البديهيات ! إن أى جيل من أجيال البشرية أنكر القيم الإنسانية لم يقف حيث كان يوم أنكرها ، إنما ازداد هبوطا .. حتى أدركه الدمار !

ولنستعرض خط العلمانية مع الأخلاق من أوله لنعلم مدى الهبوط ..

ولنبدأ بالمفهوم الحقيقى للأخلاق ، الذى كانت تؤمن به أوربا ذات يوم ثم ظلت تتخلى عنه خطوة خطوة وهى تسير مع الشيطان .

إن الأخلاق « ميثاق » شامل .. يشمل كل أعمال الانسان .

« إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق .

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار »« ١ »

والميثاق هو اصلا ميثاق مع الله ، تتفرع منه وتتندرج تحته جميع المواثيق :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »« ٢ »

وأول الأمانات هى الأمانة المؤداة إلى الله ، ثم تأتى بعدها جميع الأمانات التى ابرز سياق الآية منها الحكم بين الناس بالعدل ..

وعلى هذا الأساس يكون للسياسة أخلاق ، وللاقتصاد أخلاق ، وللاجتماع اخلاق ، وللعلم اخلاق ، ولكل شيء على الإطلاق أخلاق .. ولا يكون هناك شيء واحد فى حياة الإنسان بلا أخلاق ..

ومنشأ الأخلاق ليس هو الفرض من الخارج .. فى صورة أوامر ونواه وزواجر من عند الله أو من عند غيره ، إنما الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد ماهو حلال وماهو حرام ، وماهو حسن وماهو قبيح ، وماهو خير وماهو شر .. الخ فيتبعه المؤمنون التزاما بما أنزل الله ، وأما غير المؤمنين فيستمدون ذلك كله من عند غير الله . وفى الحالين لايكون هذا هو منشأ « الأخلاق » عند هؤلاء وهؤلاء .. إنما يكون فقط هو منشأ « المعايير » التى تضبط الأخلاق .

إنما تنشأ الأخلاق – كما قلنا من قبل فى أكثر من موضع فى الفصول السابقة – من طبيعة الإنسان ذاته ، من أن له طريقين ، وأن له القدرة على التمييز والاختيار بين الطريقين :

« ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »« ٣ »

ومن ثم فالقيمة الخلقية لاصقة بأعمال الإنسان بحكم طبيعته .. وإنما تختلف القيم باختلاف واضعها : هل هو الله أم هم البشر . فإن كانت من عند الله فهذه هى القيم الحقيقية الصالحة ، لأنها من عند خالق الإنسان العليم به وبما يصلح له ومايصلحه :

« الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ »« ٤ »

---

١ . سورة الرعد [١٩ – ٢٢]
٢ . سورة النساء [٥٨]
٣ سورة الشمس [٧ – ١٠]
٤ سورة الملك [١٤]

وإن كانت من عند البشر فهى عرضة للأهواء وعرضة للاختلاف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وتاريخ البشرية فى جاهليتها هو الدليل ، يستوى فى ذلك أن يكون الجاهليون من الفلاسفة أو من عامة الناس !

ولقد كان هذا كله واضحا لأوربا المسيحية فى الفترة التى سيطر فيها الدين على قلوب الناس ، بصرف النظر عما فى ذلك الدين الكنسى من انحرافات .. فقد سبق أن قلنا إن وجود الانحراف والتحريف فيه لم يمنع وجود بعض الحقائق لأنهم كما يقول الله عنهم : « فنسوا حظا مماذكروا به » وبقى مما ذكروا به بعض أشياء .. وكانت القيم الخلقية من بعض هذه الأشياء .

ثم زحفت العلمانية شيئا فشيئا على الحياة الأوربية فأقصت الدين عن الحياة بقدر ماتمكنت هى من الحياة .. ومع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق ، لأنها أصلا مستمدة من الدين .

وأول مجال أزيحت الأخلاق عنه هو مجال السياسة منذ قال مكيافيلى : إن الغاية تبرر الوسيلة .. ومعناها بصريح العبارة إسقاط الأخلاق من مجال السياسة ، وممارسة السياسة بلا أخلاق !

ثم أزيحت الأخلاق من المجال الاقتصادى منذ الثورة الصناعية بتحليل الربا ، وتحليل الغش والخداع والكذب وسرقة أجر الأجير وشغل الناس بتوافه الأشياء من أجل الربح ، وتحليل شن الحروب والاستعمار من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع .. إلى آخر ماقامت به الرأسمالية من حيل غير شريفة للاستزادة من المال على حساب البشرية .

ثم أزيحت الأخلاق من مجال العلم ، فلم يعد هدف العلم البحث عن الحقيقة المجردة - لله - إنما صارت تصاحبه المصالح والأهواء والشهوات التى أسلفنا نماذج منها فى إبعاد اسم الله عمدا من البحث العلمى مع وضع بديل مزيف هو الطبيعة ، لا لأن هذه حقيقة ولكن لأنها تخدم هدفا معينا فى معركة معينة بين العلماء وبين الكنيسة ! ومن نشر أبحاث كاذبة بقصد نشر الإلحاد . ومن استخدام ثمار العلم لإفساد الأخلاق .. وغير ذلك مما كان مستحيلا أن يحدث فى ظل سيطرة الدين على مشاعر الناس،ومن ثم التزامهم بأخلاقيات الدين .. ولكنه يحدث بسهولة فى ظل العلمانية التى تفاخر بإقصاء الدين عن كل مجالات الحياة !

ثم أزيحت الأخلاق من مجال الفكر . فلم يعد يحس المفكر أنه ملتزم بأمانة

معينة هى فى أصلها الأمانة المؤداة إلى الله .. فحفلت وسائل الإعلام جميعا من أول الكتاب إلى التلفزيون ، مرورا بالصحيفة والمسرح والسينما والإذاعة ، بكل صنوف التضليل والكذب والخداع والغش وإفساد العقيدة وإفساد الأخلاق .

ثم أزيحت من مجال العلاقات الجنسية بصفة خاصة - وهى أدق مجالات الأخلاق - فقيل إن الجنس مسألة « بيولوجية » لا علاقة لها بالأخلاق ! أى مسألة ذكر وأنثى يجرى بينهما مايجرى بين الذكر والأنثى .. بـلا قيود ولا أخلاق ولا ضبط ولاتصعيد .. وكانت الحمأة الدنسة التى تردت فيها البشرية ، وكان السعار الجنسى المجنون الذى لايشبع ولايرتوى ولايفيق ..

وأخيرا أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حين قيل إنه ليس لها وجـود ذاتى ، إنما هى انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية ، أو إنها من صنـع العقل الجمعى وإنها تتغير على الدوام ولاتثبت على حال !

وسقط « الإنسان » بسقوط الأخلاق !

(٦) فى الفن :

كان الفن فى أوربا فى فترة الجاهلية الكنسية فنا دينيا بمعنى أنه موجه لخدمة الدين ، وكان يحمل كل مافى العقيدة الكنسية من انحراف ، إذ كان كله موجها لتمجيد « الرب » الذى ألهته الكنسية وهو المسيح عيسى ابن مريم ، أو تمجيد الأقانيم الثلاثة عامة : الأب والابن وروح القدس ، مع مريم البتول ومجموعة من القديسين .. سواء بالشعر أو النثر أو الرسم أو التصوير (بمعنى إقامة التماثيل) .

وقد لاحظت فى كتاب « جاهلية القرن العشرين » ملاحـظة خاصـة بالفن الأوربى ، وقلت إنها معروضة للدراسة لمن أراد أن يدرس ، تلك هى أن الفن الأوربى فى جميع أدواره التاريخية كان مشغولا بالمعبود .. فحين كان المعبود فى الجاهلية الإغريقية مجموعة من الآلهة المختلفة توجه الفن الإغريقى إلى تلك الآلهة سواء فى الأساطير أو المسرحيات أو التماثيل . وحين انتقلت أوربا إلى المسيحية عنى الفن بالإله كما صورته الكنيسة ، وحين كفرت أوربا بإله الكنيسة وألهت الطبيعة اتجه الفن إلى المعبود الجديد وخاصة فى الفترة الرومانسية ، وحين صار المعبود هو « الإنسان » اتجه الفن كله إلى دراسة الإنسان فى جميع أوضاعه .

واليوم صارت المعبودات فوضى،وتمثلت الفوضى كذلك فى الفن الأوربى الحديث !

وهذه نقطة فنية على أى حال ليس مجالها التفصيلى فى هذا الكتاب إنما ينبغى أن تدرس دراسة نقدية متخصصة .

ثم إنى ألفت كتابا كاملا هو « منهج الفن الإسلامى » لأبين العلاقة بين الفن الصحيح والدين الصحيح ، وكيف تكون مجالات الفن الملتزم بالدين ، وكيف أن ارتباط الفن بالدين لايضيق مجالاته كما يفهم البعض ، ولا يحوله إلى مواعظ دينية كما يفهم البعض الآخر ، إنما يوسع مجالاته فى الحقيقة ويعمقها ، ولكنه ينظفها فقط ويطهرها من الأرجاس .

وليس هنا مجال إعادة الحديث فى هذه الموضوعات ..

إنما نحن هنا نتحدث فقط عن آثار العلمانية فى الفن الأوربى ..

فأول آثارها - فى التسلسل التاريخى - هو عبادة الطبيعة فى الفترة الرومانسية .

وليس ثمة عيب - كما قلنا من قبل - فى مناجاة الطبيعة والتفاعل معها والحفاوة بها ، فذلك كله أمر طبيعى فى النفس السوية . ذلك أن الله خلق الكون جميلا ثم جعل فى النفس البشرية حاسة تلتقط الجمال وتنفعل به .. والقرآن يوجه الحس توجيها صريحا لرؤية الجمال فى الكون والإحساس بـه ، لا فى الورود والأزهار والجبال والوديان فحسب ، بل فى الأنعام كذلك ، التى هى مظنة الفائدة وحدها .

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون »« ١ »

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »« ٢ »

« أم من خلق السماوات والأرض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق

---

١ - سورة النحل [٥ - ٦]

٢ سورة الأنعام [٩٩]

ذات بهجـة ما كـان لكم أن تنبتوا شجـرهـا ؟ أإله مـع الله ؟ بـل هم قـوم يعدلون » « ١ »

ولكن رؤية هذا الجمال والتفاعل معه والانفعال به تحدث فى النفس السوية توجها إلى الله بالعبادة لأنه هو خالق هذا الكون الجميل ومسخره للإنسان ، وخالق هذه الحاسة الجمالية فى تركيب الإنسان ليستمتع بهذا الجمال .

أما النكسة العلمانية فى الحس الأوربى المنسلخ من الدين فقـد ذهبت فى طريق أخر مخالف ، فجعلت من هذا الحس الجمالى وثنية كاملة تعبد الطبيعة بدلا من عبادة الله . وقد وردت كلمة الوثنيـة بالذات ورودا مكـررا فى شعر الرومانسيين كأنما هو أمر مقصود !

بل إن الرومانسية فى الحقيقة هى التى يسرت للحس الأوربى الانزلاق إلى تلك المغالطة المكشوفة التى جعلت الطبيعة إلها بدلا من الله ، حتى سرت هذه المغالطة إلى « العلماء » أنفسهم فتعاملوا معها كأنها حقيقة واقعة .. بل صاروا فى النهاية يقبلونها – وحدها – على أنهـا هى العلم ، ويرفضـون الحقيقة الأصلية وهى كون الله هو الخالق ، ويعتبرونها إفسادا لروح البحث العلمى !

ثم ذوت الرومانسية بعد فترة من الوقت وحلت محلها الواقعية رد فعل لها ، إذ كانت الرومانسية مغرقة فى الخيال المغرب فجاءت الواقعية لترد الناس وترد الفن إلى الواقع ..

ولكن أى واقع هو الذى ارتد إليه الفن وارتد إليه الناس ؟!

إنـه الواقع الصغـير .. الهابـط .. المنسلخ من الدين .. من القيم .. من الأخلاق !

ففى الفترة التى استغرقتها الرومانسية وارتدت بعدها إلى الواقع كان الناس قد ساروا خطوات على خط العلمانيـة المنسلخة من الدين فهبـطوا ، فجاءت الواقعية لترصد واقعهم حيث هم .. ثم تقول هذا هو الواقع البشرى !

فأما كون هذا هو الواقع الذى كان عليه الناس وقتئذ فهذا حق لاشك فيه ، وأما أن هذا هو الواقع البشرى على إطلاقه فأمر يكذبه التاريخ . تكذبه فترات الهدى فى حياة البشرية ، التى ارتفع الناس فيها إلى قمم تبدو – فى هذا الواقع المنحرف – كأنها خيالات ، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل ، وينبغى أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المستوى السامق أو يعودوا إلى قريب

« ١ » سورة النمل [٦٠]

منه . وليس المطلوب من الفن الواقعى أن يدارى على هبوط الناس ولا أن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا ! كلا ! فالفن المزور لايستطيع أن يعيش .. ولكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنه واقع نعم ، ولكنه منحرف عن الأصل الذى كان ينبغى أن يكون عليه ، وبين تصويره على أنه هو الواقع الإنسانى الذى لايمكن تعديله أو لاينبغى تعديله أو لا يعنينا تعديله ! كلاهما تصوير للواقع . ولكن أحدهما يصور الواقع المنحرف بروح الإنكار، ويدعو إلى الارتفاع عنه ، والآخر يعطيه شرعية الوجود فتكون النتيجة الحتمية - دائما - مزيدا من الهبوط !

نموذج الواقعية الهادفة هو سورة يوسف فى القرآن الكريم :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال : معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين »« ١ » .

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن . وقلن حاش الله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم،ولئن لم يفعل ماآمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين »« ٢ »

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة .. إنما اللقطة الأخيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع :

« قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ! أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين . وماأبرئ نفسى ! إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم »« ٣ »

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يدعى الواقعية وهو فى الواقع يدعو

« ١ » سورة يوسف [٢٣ - ٢٤]
« ٢ » سورة يوسف [٣١ - ٣٢]
« ٣ » سورة يوسف [٥١ - ٥٣]

إلى الهبوط ! وهبه صادقا فى ادعاء الواقعية فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطة وحدها ويتجنب لحظات الارتفاع ؟! ثم لماذا لايسمى الهبوط باسمه الحقيقى وهو الهبوط ؟!

ثم .. تبعثرت الاتجاهات الفنية فى الفترة الأخيرة .. ولكنها حافظت على طابع واحد .. هو الهبوط !

من السريالية إلى الوجودية إلى اللامعقول .. إلى أدب الجنس المكشوف ..

أما السريالية فقد تتبعت التحليل النفسى الذى أنشأه فرويد وقال فيه إن حقيقة النفس الإنسانية ليست فى النفس الواعية التى تتعامل مع الواقع الخارجى ، إنما هى فى العقل الباطن الذى لاترتيب فيه ولامنطق ! فحاولت فى نماذج أقرب إلى الخبل منها إلى العقل أن تبرز « حقيقة النفس الإنسانية » ! فلم تصنع شيئا فى الحقيقة إلا بعثرة هذه النفس إلى قطع متناثرة لا دلالة لها ولا معنى ولا طعم .

وأما اللامعقول فقد كان هروبا من « المعقول » . هروبا من العقلانية التى طغت على الفكر والحياة الأوربية ، ومحاولة للقول بأن الحياة ليست معقولة .. ليس لها هدف .. ليس لها نظام .. ليس لها منطق .. ليس لها غاية .. إنما تحدث فيها الأحداث لمجرد الحدوث ! وحين تحدث فإنه يكون لها ثقل « الواقع » . ولكن حدوثها وعدم حدوثها سيان ! وحدوثها على هذه الصورة وحدوثها على صورة أخرى سيان ! لأن كل الصور تتساوى فى عدم المعقولية وفى الافتقار إلى معنى واضح وغاية واضحة .

ولقد كان هذا تعبيرا باطنيا حقيقيا عن أن الحياة فقدت معناها وفقدت غايتها حين فقدت الخيط الذى يَنْظِمها جميعا وينظّمها ويفسر غايتها ويفسر أحداثها ، وهو الدين .. ولكن الجاهلية لاتدرك ذلك ، وتأخذ الأمر على أنه مجرد فن ! أو إن أدركت فإنها تدرك أن الحياة البشرية أصبحت فى حاجة إلى « فلسفة » جديدة تعطيها معنى وتعطيها غاية ، بشرط ألا تكون هذه « الفلسفة » مستمدة من الدين !!

وأما الوجودية فهى أخبث من ذلك كله .. ولاتنس أن سارتر - « الكاتب الإنسانى العظيم » - يهودى من أم يهودية .

تقول وجودية سارتر إن الكون والحياة لاهدف لها ولا غاية .. ولا عدل فيها ولا حق . إنما كله ضلال وعبث . وإن الوجود الإنسانى ضياع كله ، ومن

المستحيل أن يحقق الإنسان فيه وجوده !

وإلى هنا نستطيع أن نقول إن هذا أيضا تعبير باطنى صادق عن فقدان الحياة معناها وهدفها حين تفقد العنصر الذى يوجد الترابط بين أجزائها ويعطى أحداثها تفسيرها ومعناها وهو الدين .

ولكن وجودية سارتر لاتقف عند تسجيل الضياع والعبثية وفقدان المعنى والغاية .. ولكنها تقدم حلا للمشكلة ! وياله من حل !

الحل أن يعيش كل إنسان وحده ، وأن يحقق وجوده بأن يفعل مايرى هو أنه حق وأنه واجب وأنه حسن !

فى مسرحيته « الجحيم هو الآخرون » يرسم الجحيم فى نفس إنسان – إذا كان إنسانا ! – يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها من جود آخرين لايكفون عن الوجود من حوله،ويفرضون عليه أن يكونوا موجودين معه ، فيمنعونه أن يكون نفسه .. أن يحس بذاتيته .. أن يفعل مايمليه عليه هواه الشخصى . فيظل ساكنا ساكتا يتعذب . يتطلع إلى اللحظة التى يذهب فيها عنه « الآخـرون » لينطلق بوجوده الذاتى ، ليحقق ذاته .. ولكنهم لاينصـرفون .. فيـظل هو فى الجحيم !

أما أدب الجنس المكشوف – إن كان يسمى « أدبا » – فهو أوضح من أن يحتاج إلى تعليق !

وفى تاريخ البشرية كله « آداب » تعالج الجنس بقصد الاثارة ، أو تعبر عن تجارب هابطة لإنسان شهوان .. ولكنها كانت تأخذ فى عالم الأدب مكانا منزويا ، يتستر بها صاحبها فى الظلام ، ويسقط عمن يتعاطونها رداء التوقير والاحترام ، ويقبل عليها « المراهقون » من أى عمر كانوا ، فليست المراهقة فترة معينة من عمر الإنسان كمـا هى فى اصطلاح علم النفس ، إنمـا هى حالة نفسيـة غير مستقرة وغير متزنة يمكن أن يصاب بها الفتى فى إبان طيشه . ويمكن أن يصاب بها ابن السبعين .. فتخف أحلامه ويذهب وقاره وتذهب عنه قدرته على الحكم المتزن على الأشياء ..

ولكن الجديد الذى أحدثه « التطور » العلمانى هو إعطاء « الشرعية » لهذا الهبوط الحيوانى ، وكشفه فى النور ، وإعطاؤه صفة « الفن » ، ووضع منتجيه فى قائمة المشاهير ، بل فى قائمة العظماء من الفنانين ! وينشغل النقد الأدبى والنقد الفنى بتتبع آثارهم وكشف جوانب العظمة الفنية فيهم .. بل يتبجح نقاد

فيبحثون لهم عن عظمات « نفسية » فى وسط الماخور الكبير الذى يعيش فيه هؤلاء وهؤلاء من نقاد و« فنانين » !

لقد سقط « الإنسان » كله إلى السراديب ، وقرر المقام هناك ، وأضاء الأنوار على قاذوراتها وعرضها على انها « البضاعة الحاضرة » ! لم تعد سرا يستخفى منه . لم تعد قذارة تستنكر .. لم تعد شيئا يتقزز منه الناس .

ارأيت إلى دودة الأرض اللاصقة بالطين ؟! إنها تستروح أنسام المستنقع الآسن الذى تعيش فيه ، وترى أنه بالنسبة لها هو الوضع الطبيعى .. هو الأصل الذى ينبغى أن تعيش فيه !

ارأيت لو أنك أردت أن ترفعها من الطين وتنظفها ؟

إنها تستنكر وترفض .. وتتفلت من بين أصابعك لتزداد لصوقا بالطين !

وهكذا لم يعد أدب الجنس المكشوف قذارة يترفع عنها الفن . إنما صار هو الفن الذى يتفنن فيه الكتاب ، يعرضون مفاتنه – أو بالأحرى مباذله – فى تفصيل دقيق مكشوف ، ويعرضونه على أنه قاعدة الحياة او قمة الحياة !

هل هى عدوى « فرويد » فى عالم الفن ؟

لاشك أن فرويد مسئول عن البداية التى ابتدأ بها هذا الفن الهابط . وقد كانت البداية هى قصة « عشيق ليدى تشاترلى Lady Chatterly's Lover للقصاص الانجليزى د . هـ . لورنس D. H. Lawrence المتتلمذ على فرويد ، والذى يعتبر هو نفسه « حالة فرويدية » . تلك القصة التى صودرت وصودرت وصودرت .. ثم أبيحت مع حذف الجزء الشديد الإفحاش منها . ثم أبيحت مع جزء منه .. ثم أبيحت كاملة كما هى .. عارية من كل حياء .. وطبع منها ملايين !

ولكن فرويد وحده لايكفى لتفسير كل ذلك الهبوط ..

إنه الانسلاخ من الدين ، الذى يسمى « العلمانية » !

ففرويد لم يكن يتصور – وإن تمنى – أن يأتى يوم تعرض فيه العملية الجنسية على المسرح بوصفها جزءا من مسرحية « فنية » ! ثم ينقلها التليفزيون على شاشته ليراها الأولاد والبنات فى البيوت !

وذلك إلى آلاف وآلاف من المسرحيات والقصص والأفلام والأغانى والصور والصحف والمجلات ، لا تعرض شيئا إلا الجنس ، ولا تعرضه إلا فى وضع الحيوان .

* * *

تلك هى العلمانية فى مجالات الحياة المختلفة .. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والأخلاق والفن .. وكل نشاط يمكن أن يصدر عن « الإنسان » إن كان قد بقى له بعد ذلك كله مكان فى عالم « الإنسان » !

وتقول العلمانية - الغربية على الأقل - إنها لاتحارب الدين ! فمن شاء أن يتدين فليتدين ! وانظر حولك تجد متدينين بالفعل لاتتعرض لهم العلمانية من قريب ولا من بعيد !

أرأيت لو أن إنسانا أطلق حولك كل أنواع الجراثيم الموجودة فى الأرض ، فى الهواء الذى تتنفسه . فى الماء الذى تشربه . فى الطعام الذى تأكله . فى الوجود الذى تلمسه . ثم قال لك إن أردت أن تظل سليما معافى فكن كما شئت ، فنحن لانتعرض لك ! كم يكون قوله مسخرة المساخر ، وكم يكون مغالطة مكشوفة ؟!

وذلك فضلا عن أنه فى عرف نفسه لايعتبر مايطلقه من حولك جراثيم .. بل يعتبرك أنت الجرثومة التى يخشى منها على كيانه ، والتى لم يستطع أن يقضى عليها قضاء كاملا فتركها وهو يتمنى - من الشيطان - أن تزول !

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء »« ١ »

إن الدين - حتى بمعناه الغربى المشوه - لم يعد له مكان فى العلمانية المعاصرة .

فإذا كان قد أخرج من عالم الاقتصاد ومن عالم الاجتماع ومن عالم العلم ومن عالم الأخلاق ومن عالم الفن .. فماذا بقى له من واقع الحياة وماذا بقى له من النفس الإنسانية ؟!

بقيت له ساعة فى الكنيسة من يوم الأحد من كل أسبوع عند أفراد من الناس !

نعم .. ولكن ما الدين حتى بالنسبة لهؤلاء ؟

هل له واقع فى حياتهم ؟

هل يمنح قلوبهم الطمأنينة اللازمة لحياة الإنسان .. الطمأنينة التى تمنع التمزق النفسى وتمنع القلق والاضطراب ؟

هل يمنح وجودهم معنى يحميهم من الإحساس بالضياع ؟

---

١ - سورة النساء [٨٩]

هل يمنحهم تصورا للكون والحياة والإنسان غير التصور المادى الذى تقدمه العلمانية الجاهلية ؟

لو سألت أولئك الخارجين من سماع الموعظة يوم الأحد عن رأيهم الدينى فى التعاملات الاقتصادية الربوية التى تقوم عليها حياتهم فهل تجد عند أحد منهم تحريما لها أو استنكارا لقيامها ؟ أم يقول لك قائلهم : هذه مسألة اقتصادية .. ما علاقة الدين بالاقتصاد ؟!

ولو سألت أحدا منهم : مارأيك فى كذب الساسة بعضهم على بعض فى السياسة الدولية ، وعلى شعوبهم فى السياسة الداخلية ؟ وما رأيك فى الالتزام الحزبى الذى يلزم صاحبه بالمعارضة أو التأييد حسب وضع حزبه من السلطة ؟ وما رأيك فيما تكتبه الصحافة السياسية بقصد التشويش على الحقائق لابقصد إظهار الحق ؟ الا يقول لك على الفور إن هذه مسائل سياسية .. ولادخل للدين بالسياسة ؟!

ولو سألت الفتاة وصديقها الخارجين من « الصلاة » ماقولكما فى العلاقة القائمة بينكما ؟ أليس الدين يحرمها ؟ الا يقولان لك إن الدين مسألة اعتقادية ولا علاقة له بالعلاقات الاجتماعية ؟! إن لم يقولا لك – كما يقول الكثيرون والكثيرات – إن الجنس مسألة بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ؟!

كلا ! مايزيد « الدين » فى ظل العلمانية على أن يكون مجرد وجدانات حائرة لاتلبث أن تتبدد وتضيع فى الدوامة العاتية المعادية لكل ما يأتى من عند الله !

العلمانية والاسلام

إذا صحت دعوى العلمانيين فى الغرب بالنسبة للدين الكنسى أنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما فى شؤون الآخر – وهى كما رأينا ليست صحيحة فى الحقيقة – فإنها بالنسبة للإسلام لاتصح على الإطلاق !

لقد كان الدين الكنسى منذ اللحظة الأولى دينا يهتم بالآخرة ويدير ظهره للحياة الدنيا ، نتيجة مادخل فيه من تحريف فصل الشريعة فيه عن العقيدة ، وجعله عقيدة صرفا إلا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية .. ومع ذلك فقد كان العمل من أجل الآخرة يلقى أثره على الحياة الدنيا ، قصد الناس أم لم

يقصــدوا ، ووعــوا ذلك فى إدراكهم أم لم يعــوه ، فكــان ذلك الدين - رغم التحـريف الضـخم فى كل جـوانبه - يعـطى آثارا واقعيـة فى حياة النــاس وسلوكهم ، وتصوراتهم ومشاعرهم ، وهى التى جاءت العلمانية لتزحزحها من مكانها رويدا رويدا حتى أجلتها إجلاء كاملا ، فلم يعد للدين عند الأكثـرية العظمى من الناس فى الجاهلية المعاصرة مكان على الإطلاق ، وبقى عند الأقلية « المتدينة » مجرد مشاعر ووجدانات ، وعلى الأكثر بعض « العبادات » ولكن هذه وتلك لاتحكم شيئا فى واقع الحياة . وبهذا وحده - أى بمسخ الدين على هذه الصورة المزرية - أصبحت العلمانية تتعايش - على مضض ! - مع الدين ! وقد كان هذا مسخا بالنسبة للدين الكنسى ذاته ، الذى شوهته الكنيسة حتى قطعت صلته بالأصل السماوى .. فكيف يكون الأمر بالنسبة لدين الله الحق ؟!

إن الدين الحق لايمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشــريعة .. فالالتزام بالشريعة - فى دين الله الحق - هو مقتضى العقيدة ذاتها . مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رســول الله .. بحيث لاتكون الشهـادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى ، وهو الالتزام بماجاء من عند الله ، والتحاكم إلى شريعة الله ، ورفض التحاكم إلى أى شريعــة سوى شريعة الله .

« فلا وربك لايـؤمنون حتى يحكمــوك فيما شجــر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »« ١ »

يقول ابن تيمية فى كتاب الايمان (ص ٣٣ من طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة) :

« والمقصود هنا أن كل مانفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان والاسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب فى ذلك المسمى .. ومن هذا قوله تعــالى (فلا وربـك لايـؤمنون حتى يحكمــوك فيما شجــر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حــرجـا مماقضيت ويسلموا تسليما) فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل ذلك على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد » .

« ١ » سورة النساء [٦٥]

لقد نزل هذا الدين ليعطى التصـور الصحيح لحقيقـة الألوهية وحقيقـة العبودية ، وليقيم فى عالم البشر واقعا محكوما بهذا التصور ، منبثقـا عنه ، مرتبطا به ، متناسقا معه فى كلياته وجزئياته ، لايتصادم معه ولاينحرف عنه .

فـالله الخالق البـارئ المصور ، الرازق المحيي المميت ، المـدبر اللطيف الخبير ، عالم الغيب والشهادة .. بكل أسمائه وصفاته الواردة فى كتابه المنزل ، هو المتفرد بالألوهية والربوبية ، وهو المستحق للعبادة وحده بغير شريك ..

وكل مافى الكون وكل من فى الكون غيره سبحانه هم خلقه وعباده .. واجبهم عبادته وحده بغير شريك .

والإنسان واحد من خلقه .. متميز .. نعم .. مكرم نعم .. ذو وعى وإدراك وإرادة وفاعلية .. نعم . ولكنه مخلوق من مخلوقات الله ، واجبه ككل خلقـه الآخرين محصور فى عبادة الخالق وحده بغير شريك .

ولقد كرمه الله بالوعى والإدراك والإرادة والفاعلية،وأعطاه قدرا من الحرية فى تصرفاته الإرادية يملك بـه أن يسير فى طريق الطاعـة وأن يسير فى طريق العصيان .. ولكنه لايرضى من عباده إلا أن يعبدوه :

« إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم »« ١ »

والذى يقرر العبادة المفروضة على كل كائن من الكائنات هو خالق الكائنات جميعا ، الذى خلقها وحده بغير شـريك ، ومن تفـرده بالخلق ينشـأ انفراده بالحاكمية :

« ألا له الخلق والأمر »« ٢ »

وبحق الحاكمية الناشئ من التفرد بالخلق أمر الإنسان أن يعبده وحـده ويخلص العبادة له :

« إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه »« ٣ »

« ألا لله الدين الخالص »« ٤ »

« قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين »« ٥ »

« ١ » سورة الزمر [٧]

« ٢ » سورة الأعراف [٥٤]

« ٣ » سورة يوسف [٤٠]

« ٤ » سورة الزمر [٣]

« ٥ » سورة الزمر [١١]

وإخلاص العبادة يقتضى الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ويقتضى توجيه الشعائر التعبدية له وحده ، ويقتضى كذلك التصديق بكل ماجاء من عنده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم،والاحتكام إلى شريعته وحدها دون الشرائع الجاهلية التى يصنعها البشر من عند أنفسهم دون سلطان من الله والإخلال بأى واحدة من هذه الثلاثة يوقع الإنسان فى الشرك ويخرجه من دائرة الايمان :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا أباؤنا ولاحرمنا من دونه من شئ »« ١ »

كما قالوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشئ عجاب »« ٢ »

فهذه هى الثلاثة التى أوقعتهم – أساسا – فى الشرك : توجيه الشعائر التعبدية لغير الله ، والتحليل والتحريم من دون الله ، والاعتقاد بوجود آلهة مع الله ..

وكلها مجتمعة شرك ، وكل واحدة بمفردها شرك لايستقيم معه إيمان ..
والمعاصى تقع من البشر جميعا : كل بنى آدم خطاء « ٣ »
ولكنها لاتخرجهم من الإيمان باتفاق علماء الأمة ..

إلا أن يجعلوها شرعا فعندئذ يكفرون بها . بل هم يكفرون بالتشريع ولو لم يرتكبوا المعصية بأنفسهم .. فالذى يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر بقطع يد السارق ولكنى أرى أن العقوبة المناسبة للسارق هى السجن – وهو ماتفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر بذلك وإن لم يسرق بنفسه ولم يفكر فى السرقة .

والذى يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر برجم الزانى المحصن وجلد الزانى غير المحصن ، ولكنى أرى أنه لا عقوبة على الزنا إذا كان برضى الطرفين البالغين الراشدين (أى لم تكن الفتاة قاصرا) ولم تقع شكوى من أحد الزوجين ؛ فإن كان هناك اغتصاب أو اشتكى أحد الزوجين فالعقوبة هى السجن – وهو ماتفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر بذلك وإن لم يرتكب الفاحشة بنفسه ولم يفكر فى ارتكابها ..

« ١ » سورة النحل [٣٥]
« ٢ » سورة ص [٥]
« ٣ » رواه احمد

وكذلك كل شرع من شرع الله ..

من اعتقد بأفضلية غيره عليه ، أو حتى مساواته معه ، فعدل عنه إلى غيره ، أو رضى بغيره ولم يجاهده بيده أو بلسانه أو بقلبه فقد خرج من دائرة الإيمان ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم !

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ! ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وماأولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون »« ١ »

« فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك .. »« ٢ »

« إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع »« ٣ »

« فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن.ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »« ٤ »

فإذا كان هذا أمر الله ورسوله فأنى يقول قائل إن الإسلام يمكن أن يلتقى مع العلمانية التى تقول : لادين فى السياسة ولا سياسة فى الدين ؟!! أو تقول إن الاقتصاد لا علاقة له بالدين .. أو تفصل بين حكم الدين وبين أى شىء فى حياة الإنسان ؟!« ٥ »

---

١ ـ سورة النور [٤٧ - ٥١]

٢ ـ سورة النساء [٦٥]

٣ ـ رواه مسلم

٤ ـ رواه مسلم

٥ ـ انظر تفصيلا لهذه القضية فى كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح »

العقلانية

العقلانية - بمعنى التفسير العقلاني لكل شيء في الوجود ، أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه - مذهب قديم في البشرية . يبرز أشد مايبرز في الفلسفة الإغريقية القديمة . ويمثله أشد مايمثله سقراط وارسطو .

ولقد ظلت الاتجاهات الفلسفية الاغريقية - التي تمثل العقلانية قسما بارزا منها - تسيطر على الفكر الأوروبي . حتى جاءت المسيحية الكنسية فغيرت مجرى ذلك الفكر في انعطافة حادة تكاد تكون مضادة لمجراه الأول الذي استغرق من تاريخ الفكر الأوروبي عدة قرون . فلم يعد العقل هو المرجع في قضايا الوجود إنما صار هو الوحي - كما تقدمه الكنيسة - وانحصرت مهمة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسية تلك،ومحاولة تقديمه في ثوب « معقول » !

يقول الدكتور محمد البهي في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » : « كان الدين أو النص طوال القرون الوسطى سائدا في توجيه الإنسان في سلوكه وتنظيم جماعته ، وفي فهمه للطبيعة . وكان يقصد بالدين « المسيحية » وكان يراد من المسيحية « الكثلكة » وكانت الكثلكة تعبر عن « البابوية » والبابوية نظام كنسي ركز « السلطة العليا » باسم الله في يد البابا ، وقصر حق تفسير « الكتاب المقدس » على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى ، وسوّى في الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وأفهام الكنيسة الكاثوليكية .. » « ١ »

وقد نشأت عن ذلك في الحياة الأوروبية والفكر الأوروبي مجموعة من الاختلالات عرضنا لبعضها في الفصول السابقة ، وقد نعرض لها أو لغيرها مرة أخرى في هذا الفصل ، ولكنا نبادر هنا فنقول إن هذه الاختلالات لم تنشأ - كما تصور الفكر الأوروبي في مبدأ عصر النهضة - من إهمال الفلسفة والعلوم

« ١ » ص ٢٧٩ من الطبعة الثامنة

الاغريقية والالتجاء إلى الفكر « الدينى » . فلم يكن « الفكر الدينى » من حيث المبدأ ، ولا إخضاع العقل للوحى هو مصدر الخلل فى فكر العصور الوسطى فى أوروبا ، إنما كان الخلل كامنا فى ذلك الفكر الذى قدمته الكنيسة باسم الدين ، وفى إخضاع العقل لما زعمت الكنيسة أنه الوحى ، بعد تحريفها ماحرفت منه ، وإضافتها ما أضافت إليه ، ومزج ذلك كله بعضه إلى بعض وتقديمه باسم الوحى .

والفلسفة الإغريقية التى ظنت أوروبا فى عصر النهضة أن ضلالها فى العصور الوسطى كان بسبب إهمالها ، وأن العلاج هو الرجوع إليها والاستمداد منها ، لم تكن هى فى ذاتها بريئة من الخلل ولا سليمة من العيوب ، ولاكانت فى صورتها التى قدمها فلاسفة الإغريق القدامى زادا صالحا لحياة إنسانية مستقيمة راشدة ، على الرغم من كل ما احتوته من إبداع فكرى فى بعض جوانبها .. وإنما ظل الفكر الأوروبى فى الحقيقة يتنقل من جاهلية إلى جاهلية حتى عصره الحاضر . فمن الجاهلية الإغريقية والرومانية ، إلى جاهلية الدين الكنسى المحرف فى العصور الوسطى ، إلى جاهلية عصر الإحياء ، إلى جاهلية عصر « التنوير » إلى جاهلية الفلسفة الوضعية .. إلى الجاهلية المعاصرة .

وليس همنا فى هذا الفصل أن نستعرض انحرافات الفكر الغربى فى جاهلياته المتتابعة ، إنما يهمنا فقط أن نتابع خط العقلانية فى ذلك الفكر ، ثم نخص بالحديث العقلانية المعاصرة .

* * *

كانت العقلانية الإغريقية لونا من عبادة العقل وتأليهه ، وإعطائه حجما مزيفا أكبر بكثير من حقيقته ، كما كانت فى الوقت نفسه لونا من تحويل الوجود كله إلى « قضايا » تجريدية مهما يكن من صفائها وتبلورها فهى بلا شك شىء مختلف عن الوجود ذاته ، بحركته الموارة الدائمة ، بمقدار مايختلف « القانون » الذى يفسر الحركة عن الحركة ذاتها ، وبمقدار ماتختلف البلّورة عن السائل الذى نتجت عنه .. قضايا تعالج معالجة كاملة فى الذهن بصرف النظر عن وجودها الواقعى ! وبصرف النظر عن كون وجودها الواقعى يقبل ذلك التفسير العقلانى فى الواقع أو لايقبله ، ويتمشى معه أو يخالفه !

وكان أشد مايبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة « لقضية »

الألوهية و« قضية » الكون المادى ومابينهما من علاقة . ويتشعب هذا الانحراف شعبا كثيرة ى وقت واحد .

فأول انحراف هو محاولة إقحام العقل فيما ليس من شأنه أن يلم به فضلا عن أن يحيط بكنهه ف قضية الذات الإلهية . فمن باب احترام العقل لذاته ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته ، ماكان لهذا العقل أن يقتحم ميدانا ليس بطبيعته مؤهلا لاقتحامه ، ولاقدرة له على الخوض فيه .

إن المحدود لايتسنى له أن يحيط بغير المحدود . والفانى لاقدرة له على الإحاطة بحقيقة الأزل والأبد،حيث لابداية ولانهاية ولاحدود . إنما يستطيع العقل أن « يتصور » ذلك لونا من التصور ، وأن يدرك أنه يمكن أن يوجد على هذه الصورة .. أما أن يحيط « بكنهه » على أى نحو من الأنحاء فقضية أخرى خارجة عن نطاق العقل ، وهى التى نقول إن احترام العقل لذاته ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته هى التى توجب عليه أن يتجنب الخوض فيها لأنه لن يصل فيها إلى شىء له اعتبار .

وليس معنى هذا أن « الدين » كله أمر خارج عن نطاق العقل ، أو أن الاعتقاد ف وجود الله ومعرفة صفاته أمر لانصيب فيه للعقل .

كلا .. إنما يدخل العقل إلى هذا الميدان من بابه الذى هو مؤهل بطبيعته أن يدخل منه ، لامن الباب الذى لايقدر على فتحه ، والذى يضل فيه لو اقتحمه بغير أداته ! يدخل من باب إدراك آثار القدرة الإلهية،والاستدلال من هذه الآثار على وجود الله،ومعرفة صفاته التى يتفرد بها دون الخلق . ولكن لايدخل من باب « الكنه » الذى لا يقدر عليه ولا يصل إلى نتيجة فيه .« ١ »

أرأيت لو أنك أدخلت مفتاحا ف قفل أكبر منه ، فظل يدور ف القفل ويدور دون أن يصل إلى فتحه ، فهل تظل تقول إن هذا المفتاح صالح لكل شىء ، ولابد أن تفتح به جميع الأبواب ، ولو بقيت الدهور تدير المفتاح ف القفل فلا يفتح لك الباب ؟! أم تتواضع أمام الأمر الواقع،وتقر بأن هذا المفتاح لايصلح لذلك الباب ، وتبحث له عن مفتاح آخر يناسبه ، وتحتفظ بمفتاحك للباب الذى يُحْسِنُ فتحه !

ليس العيب ف القفل ولا ف المفتاح ! إنما العيب ف أنك أنت تحاول أن تقتحم به بابا لايقدر على اقتحامه !

« ١ » سنعود إلى تفصيل هذه النقطة عند بسط وجهة النظر الإسلامية ف قضية العقل والعقلانية .

وحين أصرت الفلسفة اليونانية - ومن تبعها بعد من فلاسفة النصارى وفلاسفة المسلمين - أن يقتحموا باب الكنه بمفتاح العقل ، فقد وصلوا جميعا إلى ذلك التخبط الذى يملأ كتب الفلسفة كلها من أول التاريخ إلى آخر التاريخ !

لاجرم أن تجد أرسطو ، الذى يعتبره دارسو الفلسفة أعظم « عقل » فى التاريخ القديم ، يصف إلهه - بعقله - على هذه الصورة :

يقول « العقاد » فى كتاب « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » :

« ومذهب أرسطو فى الإله أنه كائن أزلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا آخر ولا عمل له ولا إرادة . منذ كان العمل طلبا لشىء والله غنى عن كل طلب ، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح والأفضل من كل كمال فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله فى رأى أرسطو أن يبتدئ العمل فى زمان لأنه أبدى سرمدى لايطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل ، ولايستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم . وكل مايناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التى لابغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولاتخرج عن نطاقها عناية تعنيه .

« فالإله الكامل المطلق الكمال لايعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهى « الهيولى » .. ولكن هذه « الهيولى » قابلة للوجود يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الإله ، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع فى حدودها ، فتتحرك بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار .. » « ١ »

ويعلق العقاد - بصدق - على هذا التصور فيقول :

« كمال مطلق لايعمل ولايريد ..

« أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء .. »« ٢ »

والانحراف الثانى هو تحويل الموضوع كله إلى قضايا فلسفية ذهنية بحتة ، تبدأ فى العقل وتنتهى فى العقل ، ويثبت ما يثبت منها وينفى ماينفى بالعقل ، فلاتمس الوجدان البشرى ، ولاتؤثر فى سلوك الإنسان العملى ، فتفقد قيمتها فى واقع الحياة ..

« ١ » ص ٣٣ - ٣٤ من طبعة دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٦٩ « ٢ » ص ٣٤ من المرجع السابق

إن موضوع الألوهية ليس موضوعا فلسفيا بالصورة التى تتناوله بها الفلسفة ، إنما هو موضوع « العقيدة » . والفرق بين الفلسفة والعقيدة أن الفلسفة تخاطب الذهن وحده . تبدأ من هناك وتنتهى هناك .. ولاتتجاوز الذهن إلى الواقع الحى الذى يعيشه الإنسان فى الأرض . أما العقيدة فتخاطب الكيان الإنسانى كله : عقله وجسمه وروحه وكل شىء فيه . إنها لا تسكن كما تسكن الفكرة فى الذهن ، ولا تتحرك حول نفسها فى الفراغ كما تتحرك الفكرة فى الذهن إن تحركت ، إنما هى دائما تدفع الإنسان إلى « سلوك » معين ينبثق منها ويتناسق معها ، وإلى « حركة » معينة وجدانية وسلوكية وفكرية فى عالم الواقع .

ومن ثم لم تكن الفلسفة قط من وسائل الهداية للبشرية ! إن غاية مايمكن أن تصل إليه هو نوع من المتعة العقلية عند هواة هذا اللون من المتعة ، وهم بطبيعتهم محدودون . ولكنها - وحدها - لم تنشئ قط أمة ولم تحرك أمة . والقليلون الذين يجدون فيها المتعة العقلية ينتهى بهم الأمر إلى هذا المتاع الذاتى ولا زيادة . أو إن تحركوا فلاتزيد حركتهم على محاولة إحداث هذه المتعة عند مجموعة قليلة حولهم .. ولازيادة . إنها لاتهدف إلى إحداث « سلوك » معين فى واقع حياة الناس ، ولا تملك ذلك . ونظرة سريعة إلى واقع المجتمع الإغريقى الذى عاش فيه أولئك الفلاسفة والمفكرون الكبار تبين هذه الحقيقة بوضوح ، فما كانت هناك صلة على الإطلاق بين « أفكار » هؤلاء الفلاسفة و « واقع » الناس . هؤلاء يتكلمون فى « الحكمة » وفى السلوك الإنسانى « كماينبغى أن يكون » والمجتمع غارق فى كل أنواع الفسق والرذيلة والفساد والظلم ، لايعنّى نفسه بشىء مما يملأ « أذهان » أولئك المفكرين .

أما العقيدة فلها شأن آخر ..

إنها تخاطب العقل فيما تخاطبه من كيان الإنسان ، ولكن لا من أجل المتعة العقلية كما تصنع الفلسفة ، بل من أجل إحداث الوعى اللازم بحقيقة الألوهية ، الذى يترتب عليه الوعى بالالتزام الواجب تجاه تلك الحقيقة .. أى الالتزام بمقام العبودية ، الذى يستلزم الحب والخشية والطاعة والاستقامة على أمر الله .

ثم إنها تخاطب الوجدان .. أو قل إنها تركز خطابها مع الوجدان - وإن كانت قط لاتهمل مخاطبة العقل - لأن الوجدان هو الأداة المثلى لتحويل قيم العقيدة ومبادئها إلى سلوك عملى . لأنه حى منفعل متحرك . فهو الأقدر على تلقى

الشحنة العقيدية ، وهو الأقدر على ترجمتها فى صورة واقعية حية ، لأن من طبيعته أن ينفعل بما يتلقى،ويشع من هـذا الانفعال فى داخـل النفس يقينا اعتقاديا من جهة ، وتوجها متحركا يتناسق مع هذا اليقين من جهة أخرى .

ولذلك كـانت العقيدة الحيـة دائما هى التى تنشئ الأمم وتحكم السلوك البشرى ، وكانت دائما هى سبيل الهداية للبشرية ..

ويحدث ولاشك فتور فى العقيدة فى نفوس الأمم ونفوس الأفراد . ويحدث ولاشك تفلت من المقتضيات السلوكية للعقيدة فى صورة معاص وانحرافات ، ولكن يظل الأمر فى أسوأ حالاته مختلفا عن الشأن مع الفلسفة . فمع العقيدة هناك ارتباط قوى فى أصله يمكن أن يطرأ عليه الضعف ، ومع الفلسفة لايوجد ارتباط على الإطلاق .

وموضوع الألوهية هو أصلا موضوع عقيدة .. أو هو موضوع « العقيدة » باعتبار الإنسان كائنا معتقدا بطبعه ، عابدا بفـطرته ، حتى إن ضلت هـذه الفطرة عن طريقها السوى لسبب من الأسباب . وليس معنى ذلك أنه محرم على الفلسفة ـ أو الفكر ـ أن يتناوله . ولكنه حين يتناوله على النحو الذى تناولته به الفلسفة الإغريقيـة العقلانيـة ، وتبعها فيـه فلاسفـة النصارى فيمـا يعرف « باللاهوت » وفلاسفة المسلمين فيما يسمى « الفلسفة الإسلامية» أى التناول الذهنى التجريدى الخالص ، يكون قد انحرف به عن طريقه الأصيل ، وحوله إلى « كلام » و « افكار » لاتنشئ سلوكا واقعيا ، ولاتغير شيئا فى حياة الناس .. فيتحول إلى زبد لاينفع .

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » « ١ »

وأما الانحراف الثالث الناشئ من التناول العقلانى لقضية الألوهية ، وعدم الرجوع فيها إلى المصـدر اليقينى الأوحد وهـو الوحى الربانى ، فهـو تخبط الفلاسفة فيما بينهم وتعارض مايقوله كل واحد منهم مع مايقوله الآخر .

ولاعجب فى ذلك ، فمادام « العقل » هو المحكم فى هذه القضية ، فعقل من ؟! إن العقل المطلق أو العقل المثالى تجريد لاوجود له فى عالم الواقع ! إنما الموجود فى الواقع هو عقل هذا المفكر وذاك المفكر . ولكـل منهم طريقته الخـاصة فى « تعقل » الأمور ، ولكل منهم « نوازعه » الخاصـة التى يحسبها بعيـدة عن

« ١ » سورة الرعد [١٧]

التأثير فى عقله وهو واهم فى حسابه ، ولكل منهم اهتماماته الخاصة التى تجعله يركز على أمور ويغفل غيرها من الأمور ..

ومن ثم لا تصبح تلك الفلسفة فى هذه القضية بالذات أداة هداية وإنما أداة تشتيت وأداة تضليل .

ومانريد أن نتطرق لتقويم موقف تلك الفلسفة العقلانية من القضايا الأخرى غير قضية الألوهية فقد يكون لها توفيقاتها فى بعض جوانب الفكر البشرى ، وقد تكون فائدتها الأساسية تنمية القدرة على إدراك الكليات التى تحكم الجزئيات ، وتلك مباحث لاتبتغى فى مثل بحثنا الحاضر .. ولكننا نشير إشارة موجزة هنا ، نعود إلى تفصيلها فيما بعد ، إلى أن هذه العقلانية تكاد تقف نفس الموقف من قضية أخرى لاتقل خطورة فى حياة الناس عن قضية الألوهية ، وهى قضية « منهج الحياة » الذى ينبغى أن يسير عليه البشر . فقد تخبطت تلك « الفلسفة »« ١ » فى تلك المسألة من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، فضلا عن كونها حولتها إلى أحلام طوباوية أو ذهنية لا علاقة لها بواقع الحياة ، ومن ثم لا أثر لها فى واقع الحياة !

* * *

من هذه الجاهلية انتقل الفكر الأوروبى إلى عصر « سيادة الدين » .

وكان المفروض أن يخرج ذلك الفكر إذن من الجاهلية إلى النور . ولكنه فى الحقيقة دخل إلى ظلمات حالكة ليس فيها حتى ذلك « البريق » الذى تميزت به الفلسفة الإغريقية فى كثير من المواضع بصرف النظر عن القيمة الحقيقية لذلك البريق ، وعن كونه بريقا هاديا أم مضللا عن الطريق !

كان المفروض وقد التزم العقل بالوحى ، واستمد منه اليقين والهدى – فى المسائل التى لايهتدى فيها وحده ولايستيقن فيها بمفرده - أن ينطلق الفكر فى ميادينه الأصيلة يبدع وينتج ، ويمد « الإنسان » بما يحتاج إليه فى شؤون « الخلافة » وعمارة الأرض .

ولكن الكنيسة الأوروبية أفسدت ذلك كله بما أدخلته من التحريف على الوحى الربانى المنزل من السماء لهداية البشرية على الأرض ، وتخبطت فى

---

(١) فى هذه القضية فى الحقيقة تخبطت كل الفلسفات كما سيأتى ذكره فيما بعد ، ولكن كل فلسفة كان لها فى تخبطها مدخلها الخاص .

قضية الألوهية تخبطا من نوع جديد ، حين قالت إن الله ثلاثة أقانيم ، وإن المسيح ابن مريم عليه السلام واحد من هذه الأقانيم الثلاثة ، وإنه ابن الله وفى الوقت ذاته إله ، وشريك لله فى تدبير شؤون الكون .

وفضلا عن ذلك ـ أو ربما بسبب ذلك ـ حُجِرّ على العقل البشرى أن يعمل وأن يفكر .

فإن هذه الألغاز التى ابتدعتها المجامع المقدسة فى شأن الألوهية لم تكن « معقولة » ولا مستساغة . فما يمكن للعقل البشرى أن يتصور ثلاثة أشياء هى ثلاثة وهى واحد فى ذات الوقت . ومايمكن أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ظل متفردا بالألوهية وتدبير شأن هذا الكون مالايحصى من الزمان ، ثم إذا هو ـ فجأة ـ يوجد كائنا آخر ليكون شريكا له فى الألوهية ومعينا له فى تدبير الكون !! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن أجل كون هذا العبث « المقدس ! » الذى ابتدعته المجامع « المقدسة ! » غير معقول ولا مستساغ،فقد سخّرت الكنيسة « العقل » فى محاولة إخراج هذا المزيج المتنافر المتناقض فى صورة « فلسفية » مستساغة (أو هم قالوا عنها إنها مستساغة !) وفى الوقت ذاته حجرت على العقل أن يناقشها ، لئلا تجر المناقشة إلى القول بأنها غير معقولة على الرغم من كل الصناعة « العقلية » التى وضعت فيها !

ومن ثم نشأت فى الفكر الأوروبى تلك « المسلمات » أو العقائد المفروضة فرضا التى لايجوز مناقشتها Dogmas،لا لأنها ـ فى حقيقتها ـ من الأمور التى ينبغى للعقل أن يسلم بها دون مناقشة ، ولكن لأنها مناقضة للعقل ، ومفروضة عليه فرضا من قبل رجال الدين ، الذين زعموا لأنفسهم حق صياغة العقائد وفرضها على الناس بالقوة دون أن يكون لهم حق المناقشة أو الاعتراض وإلا كانوا مهرطقين مارقين ، يجوز فيهم كل شىء حتى إهدار الدم وإزهاق الأرواح ـ كما مر بنا من شأن محاكم التفتيش التى قال عنها « ويلز » فى كتابه « معالم تاريخ الانسانية (ص ٩٠٢ ـ ٩٠٣ من الترجمة العربية) :

« فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالا مكيفين وفق مذاهب واعتقاديات حتمية Dogma وإجراءات مكررة وثابتة .. ونظرا لأن كثيرا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لايحتملون أسئلة

ولايتسامحون فى مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها .

« وقد تجلى فى الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر مايساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التى تنخر بناء مدعياتها بأكمله ، وقد تجعله أثرا بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى . وكانت تتصيد الهراطقة فى كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات ـ فيما يقال ـ عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل الهجوع فى فراشهن » .

ومن الأدلة التاريخية التى تثبت أن النصارى - على الرغم من تشبثهم الشديد بمقررات المجامع المقدسة بشأن قضية الألوهية ـ لم يكونوا يؤمنون بها فى دخيلة أنفسهم إلى درجة اليقين ، ماحدث من وفد نصارى نجران مع الرسول صلى الله عليه وسلم حين دعاهم ـ بأمر ربه ـ إلى المباهلة :

« قل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »« ١ »

فقد امتنعوا عن المباهلة وانصرفوا رغم جدالهم الشديد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حول بنوة عيسى لله وألوهيته مع الله .. ولو كانوا على يقين حاسم ماامتنعوا !

وأيا كان الأمر فقد استخدمت الكنيسة كل طغيانها الروحى للحجر على العقل .. وصنعت ذلك باسم « الدين » !

والدين الصحيح ليس فى حاجة إلى شىء من ذلك الذى صنعته الكنيسة ..

حقيقة إن فى الدين الصحيح « مسلمات » لاتناقش ، تعتبر من أصول الايمان كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام :

« قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »« ٢ »

وبعض هذه الأمور ليس للعقل سبيل إليها من ذات نفسه ، إنما يتعرف عليها عن طريق الوحى ، ويسلم بها تسليما ، كالإيمان بالملائكة واليوم الآخر وما يشتمل عليه من بعث ونشور وحساب وجزاء وجنة ونار .. وكان هذا كله واردا فى « مسلمات » الدين الكنسى ، ولا اعتراض عليه .

« ١ » سورة آل عمران [٦١] .

« ٢ » رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولكن هناك فارقا أساسيا بين « مسلمات » الدين الصحيح والمسلمات الكنسية الأخرى التى كانت تجبر الناس عليها إجبارا وتمنعهم من مناقشتها فى أمر صحتها ، وتتهمهم بالمروق عن الدين إن خالفوها أو هموا مجرد هم بمناقشتها !

فالمدخل إلى هذه المسلمات فى الدين الصحيح هو الإيمان بالله والتعرف على صفاته التى لايشاركه فيها أحد ، وفى مقدمتها انه هو الخالق وانه على كل شيء قدير ، والإيمان بالرسول المرسل صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته « ١ » ، والإيمان بأن ما يخبر به عن ربه وحى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكل هذه يدعى العقل دعوة صريحة إلى التفكير فيها ، والتأكد منها قبل الإيمان بها ، وخذ مثالا على ذلك ماجاء فى كتاب الله من خطاب للقوم المدعوين للإسلام :

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟! »« ٢ »

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله اورونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات . إيتونى بكتاب من قبل هذا او أثارة من علم إن كنتم صادقين »« ٣ »

« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه . بل الظالمون فى ضلال مبين »« ٤ »

« قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة »« ٥ »

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. »« ٦ »

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »« ٧ »

« أفلا يتدبرون القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »« ٨ »

« ١ » وهو بالنسبة للنصارى المسيح عيسى ابن مريم .
« ٢ » سورة النحل [١٧]
« ٣ » سورة الاحقاف [٤]
« ٤ » سورة لقمان [١١]
« ٥ » سورة سبا [٤٦]
« ٦ » سورة الأنبياء [٢٢]
« ٧ » سورة المؤمنون [٩١]
« ٨ » سورة النساء [٨٢]

فإذا أمن الانسان - وهو مدعو للتفكر والتدبر وإعمال العقل ليؤمن - بأن الله هو الخالق وهو على كل شىء قدير ، وآمن بصدق الرسول المرسل صلى الله عليه وسلم ، وأمن بأن ما يخبر به الرسول عن ربه وحى لاشبهة فيه ، فقد أخبره الوحى بأمور لاسبيل للعقل أن يصل إليها من تلقاء نفسه لأنها ليست مما يقع فى محيط رؤيته ولا تجربته ، وطلب منه التسليم بها لأنها آتية من المصدر الحق الذى أمن بصدقه وصدق كل ما يجىء من عنده . وهى فى الوقت نفسه مما لا يملك العقل دليلا حقيقيا ينفيها .. فوجب عليه أن يسلم بها وقد أمن بمقدماتها التى توصله إلى التسليم بها .

هذا شأن المسلمات فى الدين الصحيح : أمور لا يملك العقل أن يستدل عليها من تلقاء نفسه ، ولايملك فى الوقت ذاته دليلا حقيقيا ينفيها ، ثم إنه لايدعى إلى التسليم بها قبل أن يسلم بالمقدمات التى توصل إليها عن طريق التفكر والتدبر والتأمل فى ملكوت السماوات والأرض .

أما المسلمات التى فرضتها الكنيسة فرضا وأرهبت الناس من مناقشتها فهى غير ذلك تماما .

فحيث يتجه العقل والتدبر والتأمل إلى الايمان بأن الله واحد أحد ، وأنه لو كان فى السماوات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا .. تقول له الكنيسة إن الله ثلاثة ، ثم تزيد الأمر تعقيدا فتقول له إن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة ، ثم تمنعه من المناقشة عن طريق الإرهاب ..

وحيث يتجه العقل - بوسائل تفكيره - إلى الايمان بأن الله الذى خلق كل شىء وقدره تقديرا هو فى غنى عن كل شريك لأنه « بيده ملكوت كل شىء » ولأنه يقول للشىء « كن فيكون » ومن ثم فهو الجدير بالعبادة وحده .. تقول له الكنيسة إن هناك شريكا لله هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، هو إله مع الله ، ومعبود كذلك مع الله . ثم تمنعه من المناقشة وتتهمه بالمروق إن خالف ..

وحيث يتجه العقل - بمنطقه الذاتى - إلى الإيمان بأن الله ليس فى حاجة إلى اتخاذ الولد - والخلق كلهم خَلْقُه،خَلَقَهم بمشيئته وهم عباد له - وليس من شأنه سبحانه أن يتخذ مالا حاجة له إلى اتخاذه ، وهو المهيمن الذى يدبر أمر الوجود كله بمفرده ، بلا كلفة عليه سبحانه ولاجهد ولا حاجة إلى معين .. تقول له الكنيسة إن لله ولدا ، خلقه بمشيئته كما يخلق كل شىء بمشيئته ثم تبناه - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - ليضعه بعد ذلك على الصليب ،

ويجرعه آلام الصلب ، ليكفر بذلك عن خطيئة لم يرتكبها ذلك الابن إنما ارتكبها آدم وحواء قبل ذلك بزمن لا يحصيه إلا الله ! ثم تفرض عليه ذلك فرضا وتقول له هذه هى العقيدة .. ومن لم يعتقدها فقد حلت عليه لعنة السماء .

تلك هى المسلمات التى **لا يمكن التسليم بها** لأن العقل يملك كل دليل ينفيها ، ولأنها لا تستند إلى شيء إلا قرارات المجامع المقدسة التى تبتدعها من عند نفسها وتزعم مجرد زعم أنها من عند الله ، بينما الناس يرون رجال الدين فى تلك المجامع يتناقشون ويتحاورون ، ويختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف ، ثم يصدرون القرار من تفكيرهم الذاتى - ولو كان وحيا سماويا لالتزموا به عقيدة ولم يجز لهم الاختلاف فيه - ثم يرون أسوأ من هذا أن الأقلية تصدر القرار أو تفرضه فرضا على الأكثرية ثم تطرد الأكثرية بالقوة كما حدث فى مجمع خلقدونية .. ولا تطردهم من المجمع فحسب ، بل تزعم كذلك أنها تطردهم من رحمة الله !

ومن أجل أن هذه المسلمات المزعومة لايمكن للعقل التسليم بها فقد حظرت الكنيسة على العقل أن يفكر فيها أو يناقشها ، وزعمت للناس أن التفكير فيها منافٍ للإيمان ، وأن الموقف الصحيح للمؤمن هو التسليم بها بغير جدال ، وتفويض الأمر فيها لا - لله ! - بل « لقداسة » البابا ومن حوله من « كبار » رجال الدين !

وفى ظل الإرهاب الفكرى الذى مارسته الكنيسة انكمش نشاط العقل الأوروبى وانحصر فى التسليم بما تمليه الكنيسة والمجامع المقدسة ، ومحاولة التوفيق بينه وبين مقتضيات التفكير السليم ، فى مغالطات « فلسفية » هى أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق !

ومن ناحية أخرى انصرف الفكر الأوروبى عن النظر فى هذا العالم وفى الحياة الدنيا بتأثير آخر من تأثيرات الدين الكنسى المحرف . فقد أوحت المسيحية المحرفة إلى الناس بأن هذه الدنيا لا سبيل إلى إصلاحها أو تقويم معوجها لأنها ناقصة بطبيعتها . وأن الطبيعة الإنسانية ناقصة كذلك ، ولا سبيل إلى إصلاحها إلا بصرفها عن الاهتمام بالحياة الدنيا جملة ، وصرف اهتمامها إلى اليوم الآخر كما ألمحنا فى فصل « العلمانية » ، وأنه بقدر ما ينصرف الإنسان عن هذا العالم والتفكير فيه - بالرهبانية - يكون أقرب إلى الصلاح ، واقرب الى الفوز بملكوت الرب فى العالم الآخر .

هذا اللون من التفكير صرف الفكر الأوروبى عن النظر فى شئون العالم الأرضى والكون المادى إلا فى أضيق نطاق مستطاع . ففى أمور الحياة رضى الناس عامة - والمتدينون خاصة - بعيش الكفاف « ١ » ، ولم يتطلعوا إلى زيادة الإنتاج أو تحسينه،لأن ذلك يخالف روح الدين . ومن ثم لم يسعوا إلى زيادة فى العلم تمكنهم من زيادة الإنتاج أو تحسينه .

كذلك لم يهتموا بزيادة معلوماتهم عن الكون المادى من حولهم من فلك أو رياضيات أو كيمياء أو فيزياء .. الخ ، لأن الأمر - فى حسهم - لايستحق الاهتمام من ناحية ، ولأن المعلومات التى تقدمها المصادر « الدينية » عن هذا الكون فيها كفاية لهم من ناحية أخرى . ولم تكن تلك المعلومات تعدو أن الله خلق الأشياء على صورتها لحكمة هو يعلمها ، ولغاية هو يريدها ، وأن كل شىء يجرى على النحو الذى أراده الله منذ الأزل بلا تغيير ، وهذا فى ذاته حق ولاشك ، ولكنه لايعطى التفسير التفصيلى لظواهر الكون المادى المحيط بالإنسان ! ولا ما يحدث من التحول الدائم فى الكون والحياة والإنسان !

على هذا النحو الضيق المغلق المحصور كان الفكر الأوروبى فيما يسمى - هناك - بالعصور الوسطى المظلمة ، التى استمرت زهاء عشرة قرون ، خيم فيها على أوروبا ظلام الجهل والانحسار والانحصار ، فى ظل الطغيان الكنسى المتعدد الألوان المتشعب الأطراف .

فلما بدأت أوروبا تفيق فى عصر النهضة نتيجة احتكاكها بالمسلمين فى الحروب الصليبية من ناحية ، والاتصال السلمى بمراكز العلم والثقافة فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها ، كان العقل الأوروبى فى حالة تشوق عنيف لاسترداد حريته فى العمل ، أى حرية التفكير . ولكن ، كما اتسمت فترة العصور الوسطى المظلمة بالتطرف فى إلغاء دور العقل والحجر على حرية الفكر ، كذلك اتسمت فترة النهضة وما بعدها بالتطرف فى الجانب الآخر ، جانب إعمال الفكر فى كل شىء ، سواء كان داخلا فى مجال العقل أو غير داخل فيه ، وإعماله « بحرية » لاتقبل القيد ، سواء كان القيد مشروعا أو غير مشروع !

كان عصر « الإحياء » هو عصر العودة إلى الجاهلية الإغريقية بكل

« ١ » ماعدا الإقطاعيين بطبيعة الحال ! ومع ذلك فقد كانت الكنيسة تساندهم - بكل جشعهم وظلمهم - لأنها هى ذاتها كانت قد أصبحت من ذوات الإقطاع .

انحرافاتها .. مع زيادة انحراف جديد .. هو النفور من الدين ، ومحاولة إبعاده عن كل مجال من مجالات الحياة .

والحقيقة أن الحياة الأوروبية فى تلك الفترة تستلزم نظرة فاحصة تقف على التيارات والعوامل المختلفة التى كانت تمور فى كيانها ، والتى تمخضت فيما بعد عن الصورة الحالية « للحضارة » الغربية .

لقد أخذت أوربا فى نهضتها شيئا كثيرا من الإسلام والمسلمين ، ورفضت فى الوقت ذاته أن تعتمد الإسلام دينا وعقيدة ومنهج حياة - كما بينا فى الفصل السابق - وكان من جراء ذلك آثار بعيدة المدى فى الحياة الأوربية إلى وقتنا الحاضر ..

فقد صحت أوربا من غفوتها الطويلة بالاحتكاك الحربى والسلمى بالمسلمين فى الشرق والغرب .

وتزعم اوربا أنها لم تأخذ عن المسلمين إلا التراث الإغريقى الذى كانت قد اضاعته فى عصورها المظلمة ، فوجدته محفوظا عند المسلمين فاستردته ، وأقامت نهضتها على أساسه .

وفى هذا الزعم شىء قليل من الحق وشىء كثير من المغالطة التى لم ينج منها إلا عدد قليل من كتاب أوربا المنصفين .

فأما أن التراث الإغريقى الذى فقدته أوربا فى عصورها المظلمة كان محفوظا عند المسلمين فيما يسمى « الفلسفة الإسلامية »،وفى التراجم التى كان المسلمون قد ترجموها عن الإغريقية ، وأن أوربا استردته عن طريق التعلم فى مدارس المسلمين،وأقامت جانبا من نهضتها عليه .. فهذا صحيح .

ولكن هذا التراث الإغريقى ، على كل اعتزاز أوربا به وتعصبها له ، لم يكن صالحا - وحده - لإقامة النهضة الأوربية ، ولا أى نهضة على الإطلاق ، باعتباره مجموعة من « الأفكار » التجريدية الذهنية المنقطعة عن واقع الحياة . وهو - بكل لمعانه الفكرى - لم يستطع أن يداوم الحياة فى بيئته الأصلية التى أنبتته ، فضلا عن أن يكون - وحده - باعث نهضة جديدة على اتساع أوربا كلها ، وعلى اتساع العالم كله فى العصر الحديث !

نعم ، يوجد فى هذه الأفكار قيم ومبادئ يمكن أن تكون زادا لقوم « يرغبون » فى الحياة ، ويرغبون فى إقامة نهضة شاملة . ولكنها - وحدها - لاتبعث فيهم هذه الرغبة ولا تلك .

إنما الرغبة فى الحياة ، والرغبة فى إقامة نهضة شاملة ، كانت هى الأثر الذى أخذته أوربا من احتكاكها بالمسلمين ، وملامستها للحيـاة الموارة فى العـالم الاسلامى ، وللنهضة الشاملة فيه ..

وليس هذا فقط ..

فإن أوربا لم تغنم من احتكاكها بالمسلمين تلك الرغبة فى الحياة والحـركة وإقامة النهضة الشاملة فحسب ، بل وجدت كذلك « مقومـات » تلك النهضة بكاملها موجودة عند المسلمين ، فأخذت منها كل ماوسعها أخـذه ، والعنصر الذى رفضت أخذه - وهو الإسلام - كان هو العنصر الوحيد القمين بترشيد تلك النهضة وإقالة أوربا من عثرتها .. ولكنها رفضت - بدافع من العصبية الصليبية - فخسرت العنصر الجوهرى ، وأقامت نهضة عرجاء .. هى التى يعانى منها اليوم كل سكان الأرض !

نعم ، لم تكن رغبة الحياة ورغبة النهوض وحدها هى كل ما أخذته أوربا عن المسلمين .

لقد كانت أوربا فى جهالة تامة من كل علم إلا ما تملكه الكنيسة ورجال دينها من معلومات سطحية معظمها محشو بالأخطاء .

وعند المسلمين وجدوا « العلم » .. فى كل مجالات العلم .. فى الطب والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء،إلى جانب العلوم الدينية الإسلامية التى كانت تدرس - جنبا إلى جنب - فى الجامعات الإسلامية .

وقد مر بنا قول « روجر بيكون » : من أراد أن يتعلم ، فليتعلم العربية ، فانها هى لغة العلم »

ونضيف هنا قولة « ألفارو القرطبى » قبل ذلك بقرون فى الأندلس :

« يطرب إخوانى المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها ، بل للحصـول على أسلوب عـربى صحيح رشيق . فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينيـة على الكتب المقدسة ؟ وأين ذلك الذى يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل ؟ واأسفاه ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ، ليسوا على علم بأى أدب ولا أية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفه وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون فى زراية إذا

ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم . فواحر قلباه ! لقد نسى المسيحيون لغتهم ، ولا يكاد يوجد منهم واحد فى الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة ! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية ، فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه فى تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة ، بل لقد يقرضون من الشعر مايفوق فى صحة نظمه شعر العرب انفسهم »« ١ » .

ولم يكن العلم وحده هو الذى أخذته أوربا عن المسلمين بجانب الرغبة فى الحياة والرغبة فى النهوض ، إنما اخذت كذلك المنهج الذى تقيم عليه العلم ، وهو المنهج التجريبى .

يقول بريفولت فى كتاب « بناء الإنسانية Making of Humanity » :

« فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما اجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، ولم تتاقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى داب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، ادخلها العرب إلى العالم الأوربى »« ٢ »

كذلك لم يكن العلم وحده ولا المنهج التجريبى وحده .. يقول .. بريفولت :

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (يقصد الإسلامية) على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل من اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد أوربا إلى

« ١ » حضارة الاسلام ، جرونيباوم ، ص ٨١ – ٨٢ من الترجمة العربية .

« ٢ » عن كتاب « تجديد الفكر الدينى » تاليف محمد اقبال ، ترجمة عباس محمود . ص ٢٥٠ من الترجمة العربية .

الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون وأهم ماتكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى ». ١ « .

ويطول بنا الاستطراد لو رحنا نحصى بالتفصيل ما أخذته أوربا فى بدء نهضتها من الإسلام والمسلمين . ولكنا نعود إلى موضوعنا الأصيل فنقول إن أوربا أخذت ما أخذت ولكنها رفضت أن تأخذ الإسلام ذاته عقيدة ومنهج حياة ، وعادت إلى الجاهلية الإغريقية والرومانية تستمد منهما بدلا من الدين الكنسى الذى لفظته ، والدين الصحيح الذى رفضت بدافع العصبية أن تدخل فيه . ومن ثم عادت - كما قلنا - إلى العقلانية اليونانية بزيادة انحراف جديد هو النفور من الدين، والسعى إلى إخراجه من مجالات الفكر والحياة .

لقد كانت الجاهلية الإغريقية جاهلية وثنية خالصة فى واقع حياتها ، ولكن « المفكرين » و« الفلاسفة » فكروا فى الله سبحانه وتعالى ، وحاولوا تصوره على قدر ما اجتهدت عقولهم ، فاهتدوا إلى وحدانيته وكماله وجلاله ، ولكن تشعبت بهم الظنون فى متاهات لا قرار لها حين أخذوا يصفون كنه هذا الكمال وهذا الجلال ، كما مر بنا من تصور أرسطو .

أما جاهلية عصر الإحياء وعصر النهضة فقد سخّرت « عقلها » فى كيفية الاستغناء عن الله ، وإخراج موضوع الألوهية من ميادين الفكر والحياة واحدا إثر الآخر .

كان « التفكير الحر » معناه الإلحاد ! ذلك أن التفكير الدينى معناه الخضوع للقيد الذى قيدت الكنيسة به العقل وحجرت عليه أن يفكر . فمعنى الحرية الفكرية هو تحطيم ذلك القيد الذى يغل العقل من التفكير . ولم يكن أمام أوربا بعد أن رفضت الإسلام إلا ذلك السبيل الواحد إلى الحرية الفكرية .. وهو الخروج على الدين !

---

١ - المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

يقول برنتون كما سبق أن نقلنا من كلامه فى كتاب « منشأ الفكر الحديث » (ص ١٠٢ من الترجمة العربية - ترجمة عبدالرحمن مراد) :

« فالمذهب العقلى يتجه نحو إزالة الله ومافوق الطبيعة من الكون .. فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلى نحو الكون .. »

ويقول عن قانون السببية الذى كشفه نيوتن : « إن السببية تهدم كل مابنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة (يقصد المعتقدات الدينية) فى هذا العالم » (ص ١٥١ من المرجع السابق)

ويقول : « الاله فى عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة ولكن صانع هذه الساعة الكونية وتعنى بها الكون ، لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد ، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد .

« أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة هذه ليجبروا عليها . وإنه ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية ، الذى لايستطيع إذا ما أراد التدخل فى عمله » !!

ولنا وقفة عند هذه النصوص ..

إن الاتجاه الفكرى النافر من الدين ، المتجه الى الإلحاد ، لم يكن رد فعل لخطأ واحد من اخطاء الكنيسة وهو الحجر على العقل خوفا من مناقشة « المسلمات » المفروضة ، إنما كان فى الحقيقة رد فعل أو نتيجة لأخطاء متعددة فى وقت واحد .. فالجهالة العلمية التى عانتها أوربا عدة قرون فى ظل السيطرة الكنسية جعلت للعلم - حين بدأت أوربا تتعلم - فتنة ليست من طبيعته فى الاحوال العادية وفى النفوس السوية ، فضلا عن أن حرب الكنيسة للعلم والعلماء فى عهد النهضة - باسم الدين - جعلت طريق البحث العلمى هو طريق معاداة الدين .

إن الدين والعلم كما بينا فى فصل « العلمانية » ليسا ندين متنافرين متعادين كل منهما يسعى للسيطرة على حساب الآخر ورغما عنه ! فنزعة العبادة ونزعة المعرفة كلتاهما نزعة فطرية ، والفطرة - فى النفس السوية - لايتنافر بعضها مع بعض ، إنما تتعاون جوانبها المختلفة لبناء الشخصية السوية المتوازنة . وقد تختل الشخصية لزيادة أو نقص فى أحد الجوانب

بالقياس إلى حده المفروض ، وبالقياس إلى الجوانب الأخرى فى النفس ، ولكنها لاتختل قط من اجتماع جوانب الفطرة كلها فى النفس ، فهذا هو الأمر الطبيعى الذى لاتستقيم النفس بدونه ، بل العكس هو الصحيح . تختل النفس خللا مؤكدا حين يزاح جانب من جوانب الفطرة أو يضمر ليحل محله جانب آخر .

وفى العالم الإسلامى الذى استقت أوربا العلم منه ، كان هذا هو الأمر الواقع : كان الدين والعلم يعيشان معا متساندين متعاونين بلا تنازع ولا تنافر ولا خصام . بل كان العلم فى حقيقة الأمر نابعا من العقيدة منبثقا عنها ، يعمل فى خدمتها ، ومع ذلك كان له ذلك المجال الواسع كله الذى يعمل فيه ، والحرية التى يمارسها فى البحث وتحصيل النتائج وتدوينها ، والثمار العملية المفيدة التى تقوم عليها نهضة علمية زاهرة .

ولم يكن للعلم فى نفوس المسلمين فتنة !

لا هو فتنهم عن الدين ، ولا صار فى حسهم إلها مكان الله !

لأنهم كانوا يتناولونه كما تتناوله الفطرة السوية ، التى تأخذ حظها من العبادة كما تأخذ حظها من المعرفة العلمية ، وتطلب هذه وتلك بلا تنافر بينهما ولا صدام !

وقد كان العالم الواحد – فى كثير من الأحيان – عالما فى الطب أو الفلك أو الرياضيات .. الخ ، وعالما بالعلوم الدينية فى نفس الوقت ، متبحرا فى هذه وتلك ، متوازنا فى ذات الوقت ، لايصرفه الدين عن العلم ولا يصرفه العلم عن الدين .

وكان الحسن بن الهيثم – على سبيل المثال – الذى ظلت أوربا تدرس نظرياته فى علم الضوء (البصريات) إلى بداية القرن التاسع عشر لتفوقها وتقدمها الباهر ، والذى أثبت ملاحظة كانت بالقياس إلى وقته من أعجب العجب ، وهى انحناء الشعاع الضوئى عند ملامسته جسما منحنيا وعدم سيره فى خط مستقيم « ١ » – كان على كل عبقريته العلمية تلك يقدم إنتاجه العلمى باسم الله ، ويحمد الله ويثنى عليه ويشكره على فيض نعمه عليه !

كلا ! لم يكن العلم عند المسلمين مثارا للفتنة ، لأنهم صاحبوه عدة قرون على

« ١ » وفسر بذلك أننا نرى الشمس قبل ظهورها الحقيقى بدقائق ، ونظل نراها بعد غروبها بدقائق ! وفى القرن العشرين اكتشف انشتين أن الضوء فى الكون الواسع لايتخذ مسارا مستقيما بل ينحنى حول الأجرام السماوية بفعل الجاذبية .

رزانة وروية،فلم يفاجَئوا به كما فوجئت أوربا فى عصر النهضة ، ولأنه نبع فى حياتهم من نبع الدين فلم يثر بينه وبين الدين ذلك الخصام الذى ثار بين الدين والعلم فى أوربا ، ولأن المعرفة كلها فى حس المسلم نفحة ربانية يفتح بها على عباده ، فيكون جزاؤها فى حسه مزيدا من التقرب إلى الله ، لا بعدا عنه وازورارا عن عبادته .

كذلك كان اكتشاف قانون السببية بالذات باعثا من بواعث الإلحاد كما مر بنا من كلام « برنتون » .

والمسئول فى ذلك أيضا هو الكنيسة !

لقد ظلت الكنيسة تصرف الناس عن العلم عدة قرون ، وتوحى إليهم بالاكتفاء بما عندها هى من العلم ، الذى لم يكن يتجاوز - كما قلنا - أن الله خلق الأشياء على صورتها لحكمة يعلمها ولغاية يريدها .. أى إرجاع الأمور كلها والظواهر كلها إلى إرادة الله ومشيئته . ومن شأن الدين أن يركز دائما على هذا المعنى . انظر إلى بعض ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الشأن :

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بماينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »« ١ »

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا الوانه . إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الله لغفور رحيم »« ٢ »

---

١ ـ سورة البقرة [٦٤]
٢ ـ سورة النحل [١٠ - ١٨]

وحكمة ذلك واضحة .. « فالدين » يذكر الإنسان دائما بالله لكى يظل قلبه معلقا بالله فى جميع حالاته ، فيحبه ويخشاه ، ويتطلع إليه فى كل أمر من أموره . وبهذا وحده تصلح نفس الإنسان وتستقيم .. ولأن الانسان عرضة دائما أن ينسى فإن الدين الصحيح يلح فى تذكيره حتى لاتدركه الغفلة التى ينشأ عنها كل شر فى حياة البشر على الأرض .

ولكن هذا التركيز الشديد فى الدين الصحيح على رد الأمور كلها إلى مشيئة الله ، لم يمنع المسلمين من البحث عن « الأسباب الظاهرة » فى الكون المادى وفى الحياة البشرية ، بلا تعارض فى حسهم بين هذا وذاك .

ذلك ان الدين الصحيح – وقد رد كل شىء بحق الى مشيئة الله وقدره « ١ » – نبه البشر إلى أن هناك سننا كونية تعمل إرادة الله من خلالها فى الكون المادى ، كما أن هناك سننا أخرى تعمل تلك الإرادة من خلالها فى الحياة البشرية ، ودعاهم إلى التعرف على هذه وتلك ، الأولى ليقوموا بتعمير الأرض – وهو جزء من مهمة « الخلافة » التى خلق الإنسان من أجلها – والأخرى لتكون هذه الخلافة راشدة حين يتم تعمير الأرض بمقتضى المنهج الربانى .

لقد ظل القرآن يلفت نظر الناس إلى آيات الله فى الكون وانتظامها ورتابتها ودقتها وانضباطها :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » « ٢ »

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » « ٣ »

« ١ » يقول تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » [سورة القمر : ٤٩]
« ٢ » سورة الفرقان [٤٥ – ٤٦]
« ٣ » سورة يس [٣٣ – ٤٠]

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟! »« ١ ».

وفهم المسلمون من هذه التوجيهات المتكررة أن الله يدعوهم إلى التأمل فى هذا الكون من حولهم ، ليتعرفوا على قدرة الله القادرة التى لايعجزها شىء ، وليتعرفوا كذلك على السنن الربانية التى أودعها فى هذا الكون ، والطاقات التى سخرها لهم فيه ليقوموا بعمارة الأرض ، ويبتغوا من فضل الله :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا »« ٢ »

« ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور »« ٣ »

ومن ثم انطلقوا « يدرسون » هذا الكون ويتعرفون على أسراره .. فتقدم العلم على أيديهم تقدما ضخما ، فى الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والطب وغيرها من العلوم النظرية والتجريبية .. واكتشفوا – من بين مااكتشفوا – أن هناك سببا لكل شىء يحدث فى الكون المادى ، من نور وظلام ، وكسوف وخسوف ، ورياح ومطر ، وجدب وخصب وزيادة ونقص .. الخ .. الخ .

ولكن اكتشاف « السبب الظاهر » لم يكن فتنة لهم كما كان بالنسبة لنيوتن ومن بعده من « العلماء » !

فلم يجعلوه بديلا من السبب الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، ولم يستغنوا به عن الله ، ولم يتصوروا أن له حتمية تقيد مشيئة الله الطليقة بحيث يعجز سبحانه عن التصرف فى الكون بما يشاء ، كما توهم نيوتن ومن بعده .

إنما عرفوا أن هذا « السبب الظاهر » هو « السنة الجارية » التى تجرى شئون الكون المادى من خلالها ، ومن ثم فهى ليست بديلا من الله سبحانه وتعالى ، وهى جزء من مشيئته ، ولا تعارض بين تفسير أى أمر من أمور هذا الكون بسببه الظاهر وتفسيره بأنه راجع إلى مشيئة الله ، مادام السبب الظاهر أو « السنة الجارية » من مشيئة الله ، ومن ثم فلا تعارض بين ماسموه

« ١ » سورة الذاريات [٢٠ – ٢١]

« ٢ » سورة الاسراء [١٢]

« ٣ » سورة الملك [٣]

« الطبيعة » وماسموه « ماوراء الطبيعة » بحيث يمتنع عليك الايمان بهذه وتلك فى أن واحد كما توهمت عقلانية مابعد النهضة فى أوربا ، نتيجة أن ماوراء الطبيعة فى ظل السيطرة الكنسية والحجر على العقل كان ينفى الأسباب الظاهرة أو لايعول عليها فى تفسير أمر من أمور الكون ، وأن اكتشاف « السبب الظاهر » جاء فى جو من العداء للدين والكنيسة ، فوضع - من ثم - مناهضا ومعاديا لما وراء الطبيعة ، بالإضافة إلى أن القوم هناك ظلوا - فى ظل الإيمان بما وراء الطبيعة على الطريقة الكنسية - فى جهل مطبق بكثير مما يحيط بهم فى هذا الكون ، بينما جاء اكتشاف السبب الظاهر فى وسط معلومات عن هذا الكون تبهر العقول !

كلا ! لم يفتن المسلمون باكتشاف السبب الظاهر كما فتنت أوربا فى جاهلية مابعد القرون الوسطى ، المظلمة عندهم ، بل ظلوا يكشفون كل يوم جديدا من أسرار هذا الكون ويحققون به تسخيرا جديدا لطاقات السماوات والأرض ، المسخرة من الله أصلا للإنسان ، والتى يحتاج تحقيق تسخيرها من قبل الإنسان إلى جهد عقلى يتعرف به على السنن الربانية وجهد عضلى لتحويل المعرفة النظرية الى واقع .

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه »« ١ »

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »« ٢ »

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »« ٣ »

ولم يتصور المسلمون فى بلاهة تلك الجاهلية « أنه ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية » لمجرد أنهم عرفوا سرا من أسرارها ، بل أحسوا - كما بينا من قبل - أن العلم نفحة ربانية يمن الله بها على عباده ، فينبغى أن يشكروه عليها بإقامة الصلاة لا بقطعها ، وإدامة التعبد والخشية لله . كما عرفوا أنهم مهما تعلموا من أمور الكون فعلمهم قليل ، وأنهم فى فقر دائم إلى الله واحتياج :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »« ٤ »

---

١ - سورة الجاثية [١٣]	٣ - سورة الملك [١٥]
٢ - سورة النحل [٧٨]	٤ - سورة فاطر [٢٨]

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »« ١ »

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »« ٢ »

كذلك لم يتصوروا فى بلاهة أن الله عاجز عن التصرف فى شئون الكون بمشيئته الطليقة لمجرد أنه ثبّت سننه الجارية كما تصور نيوتن : « ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية ، الذى لايستطيع إذا ما أراد التدخل فى عمله » !! ومن ثم لم ينكروا المعجزات كما أنكرتها عقلانية النهضة وما بعدها . إنما عرفوا أن الله سبحانه وتعالى ثبت سننه - بمشيئته الطليقة - رحمة بالإنسان ، وإعانة له على القيام بدور الخلافة . ولكنه سبحانه وتعالى طليق المشيئة يصنع فى هذا الكون مايشاء ، لايقيد مشيئته شىء على الإطلاق .. ولا ثبوت سننه الجارية« ٣ » . فإن شاء سبحانه وتعالى أن يغير شيئا من نظام الكون - لحكمة يريدها - ليظهر للناس معجزة من معجزاته ، أو يغير نظام الكون كله يوم القيامة كما أخبر عباده فى كتبه المنزلة ، فلن يقف ثبوت السنة الجارية أمام مشيئته جل وعلا ، إذ السنة الجارية من مشيئته ، والسنة الخارقة من مشيئته ، وهو سبحانه يستخدم هذه السنة أو تلك وقتما يشاء وكيفما يشاء ، لاقيد على مشيئته يمنعه من التصرف كيف يشاء .

و« المعجزة » كما نطلق عليها هى شىء خارق للسنة الجارية .. نعم . ولكن « الإعجاز » فى السنة الجارية هو هو الإعجاز فى الخارقة . مصدرهما واحد ، وجوهرهما واحد .. هو القدرة الإلهية التى لايعجزها شىء فى السموات ولا فى الأرض .. وإلا فهل خلق الحياة من الموات - الذى هو فى حسنا من السنة الجارية - أقل روعة أو أقل إعجازا من شق البحر بالعصا ، أو وقف دورة الشمس لفترة من الوقت أو غير ذلك من المعجزات ؟ وهل الذى يخلق الكون كله من العدم يعجز عن تصرف جزئى فى هذا الكون تقتضيه حكمته سبحانه ؟!

وكما لم تكن معرفة المسلمين المبكرة بالأسباب الظاهرة وثبوت السنة الجارية مانعا لهم من الإيمان بالمعجزات التى جاءت فى الكتب المنزلة ، كذلك لم يكن إيمانهم بالمعجزات داعيا إلى الخرافة ، ولا الاعتقاد بأن الكون فوضى لايضبطه

« ١ » سورة الاسراء [٨٥]

« ٢ » سورة فاطر [١٥]

« ٣ » راجع فى ذلك فصل « التوازن » فى كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »

ضابط ولايربطه نظام . و« العلم » الذى أخرجوه هو البرهان على ذلك . فقد كان هذا العلم من الدقة والانضباط - بحسب المتاح فى وقته من الأدوات - لدرجة شهد لها كل منصف فى التاريخ . وكله شاهد بأن المسلمين كانوا يتعاملون مع هذا الكون على أساس أن هناك نظاما دقيقا يربطه ، نظاما من « الأسباب » و« النتائج » معجز بدقته ، رائع بانضباطه :

« مـاتـرى فى خلق الرحمن من تفـاوت ، فـارجـع البصر هـل تـرى من فطور ؟ » « ١ »

إنما كانوا على « التوازن » الذى علمهم إياه الإسلام ..

أما « عقلانية » النهضة ومابعدها فقد خـرجت على النـاس بأمـور « غير معقولة » على الإطلاق .. من نفى لوجود الله تارة ، ومن إثبات له تارة أخرى مع نفى قدرته على التصرف ، ومن جعل السبب الظاهر بديلا من السبب الحقيقى ، ومن جعل ثبوت الأسباب الظاهرة حتميات « ٢ » تفرض نفسها على مشيئة الله !

* * *

ودار الزمن دورة أخرى فانتقلت أوربا - فيمايقال - من سيادة العقل إلى سيادة الطبيعة ، حين كشف العلم مزيدا من أسرار الكون واقتنع « المفكرون » أن الأصل الذى ينبغى الرجوع إليه هو « الطبيعة » لأنها هى التى تنقش فى العقل مايتولد فيه من أفكار . فليس مصدر المعرفة إذا هو الوحى الربانى - وقد نبذوه وراءهم ظهريا سواء منه ما كان حقيقيا بلا تحريف ، وما اخترعته الكنيسة من عندها ، وقالت إنه من وحى الله - ولا هو العقل ، الذى لاينشئ - ولاينبغى له أن ينشئ - شيئا من عنده ، إنما هو الطبيعة : هو عـالم الحس .. هو الحقيقة الموضوعية ..

يقول الدكتور محمـد البهى فى تلخيصه الجيـد الذى نقلناه من قبـل عن الفلسفة الوضعية وتقديرها للطبيعة :

« ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو ان الطبيعة - فى نظرها - هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الإنسان،وهى التى تـوحى بها وتـرسم معالمهـا الواضحة . هى التى تكون عقل الإنسان ، والإنسان - لهذا - لايملى عليه

١- سورة الملك [٣]

٢- ثاب العلم اخيرا إلى انه لاتوجد « حتميات » فيما سموه « قوانين الطبيعة » إنما هى « احتمالات » .

من خارج الطبيعة ، أى لايملى عليه مما وراءها ، كما لايملى عليه من ذاته الخاصة ، إذ ما يأتى من ماوراء الطبيعة خداع للحقيقة وليست (هى) حقيقة أيضا !

« وبناء على ذلك يكون « الدين » - وهو وحى (أى مابعد الطبيعة) - خداعا ! وهو وحى ذلك الموجود الذى لايحده ولايمثله كائن من كائنات الطبيعة . هو وحى الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية ..

«وكذلك « المثالية العقلية » وهم لايتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى . إذ هى تصورات الإنسان من (عند) نفسه ، من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التى يعيش فيها وتدور حوله .

« إن عقل الإنسان فى منطق هذه الفلسفة - أى مافيه من معرفة - وليد الطبيعة التى تتمثل فى الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية . إنه مخلوق ، ولكن خالقه الوجود الحسى »« ١ »

ولقد يفهم من هذا لأول وهلة أن العقلانية التى تتبعنا أطوارها فى عصر النهضة ومابعدها قد انتهت وحل محلها طور جديد لايمت لها بصلة .. ولكن هذا غير الواقع .

لقد تغير الإله المعبود عندهم بالفعل فلم يعد هو العقل ، وإنما صار هو الطبيعة التى قال عنها دارون « الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق » ..

ولكن الإله الجديد لم يقتل الإله الأول ، ولم يخرجه من الساحة ليحل محله . إنما قيده فقط بقيوده واخضعه لشروطه ، وإن كان قد شد على يديه فى حرارة مؤيدا ومؤازرا فى نقطة واحدة معينة هى نفى الإله الحقيقى - سبحانه وتعالى - وإخراجه نهائيا من الساحة (نستغفر الله) ، وإن اختلفت زوايا الرصد واختلف « المنطق » المستخدم.فالإله الاول - العقل - ينبذه بحجة أنه « غير معقول » !! والإله الثانى - الطبيعة - ينبذه لانه لايدرك بالحس ولا يخضع للتجربة فى المعمل !! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

إن المنهج التجريبى الذى تعلمته أوربا من المسلمين لم يؤت ثماره الظاهرة فى ميدان العلم إلا فى القرن التاسع العشر على وجه التقريب ، ولكنه تحول عندهم

« ١ » ٢٩٨ - ٢٩٩ من كتاب « الفكر الإسلامى الحديث »

إلى فتنة طاغية .. لأن أوربا أخذته دون أن تأخذ القاعدة الإيمانية التى كان يقوم عليها عند المسلمين ، وهى قاعدته الأصيلة . فكأنه نبات انتزع من بيئته انتزاعا وغرس فى بيئة أخرى لاتناسب الأولى ، ولاتشبهها فى مكوناتها ومقوماتها ، فطال وارتفع ، ولكنه أثمر ثمارا شيطانية غير الثمار الطيبة التى كان يؤتيها من قبل .

كان المنهج التجريبى عند المسلمين نابعا من التوجيه الإسلامى الإيمانى .. نابعا من مثل هذه التوجيهات :

« ولاتقف ماليس لك به علم . **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » « ١ »

« يسألونك عن الأهلة ؛ قل : **هى مواقيت** .. » « ٢ »

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم . **أفلا تبصرون** ؟ »« ٣ »

«أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ؟ **أفلا يبصرون** ؟ »« ٤ »

« تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء ، إلا داء واحداً :الهرم»« ٥ » وغيرها .. وغيرها .. مما جاء فى الكتاب والسنة .. كثير .

وكانت هذه التوجيهات – التى حولت المسلمين من أمة لا اهتمام لها بالعلم فى جاهليتها إلى أمة عالمة فى كل فروع العلم المتاحة لها بحسب وقتها ، وحولت العلم من الاتجاه النظرى الإغريقى إلى الاتجاه العملى التجريبى – موجهة إلى غايتين فى آن واحد : التفكر فى آيات الله فى الكون للتعرف على قدرته المعجزة من أجل إخلاص العبادة له وحده ، والتفكر فى تلك الآيات للتعرف على السنن الكونية الربانية لتحقيق معنى الخلافة وعمارة الأرض .

ومن ثم لم تفترق الغايتان فى حس المسلمين كما افترقتا – وتعارضتا – فى حس أوروبا !

لم يشعر المسلمون أن تفكرهم فى آيات الله فى الكون من أجل إخلاص العبادة له ، مانع لهم من البحث عن السنن الكونية الربانية من أجل عمارة الأرض ،

« ١ » سورة الاسراء [٣٦]
« ٢ » سورة البقرة [١٨٩]
« ٣ » سورة الذاريات [٢٠ - ٢١]
« ٤ » سورة السجدة [٢٧]
« ٥ » رواه أحمد وغيره (انظر صحيح الجامع الصغير ٣ / ٣٧)

ولم يشعروا كذلك أن البحث عن هذه السنن من أجل عمارة الأرض مانع لهم من إخلاص العبادة لله . لأنه لاتعارض فى الحقيقة . والله يقول لهم :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا »« ١ »

ويقول لهم :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ،وإليه النشور »« ٢ »

فالمشى فى مناكب الأرض والأكل من رزق الله ـ المؤدى إلى عمارة الأرض — يصحبه فى التوجيه الربانى التذكير بالآخرة ، وواجب إخلاص العبادة لله من أجل النشور ، يوم يحاسب الناس على ماعملوا فى الحياة الدنيا . فلا العمل من أجل الحياة الدنيا مانع من إخلاص العبادة وتذكر النشور ، ولا تذكر النشور مانع من عمارة الأرض . وهكذا يتوازن « الإنسان » بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، ومطالب الدنيا ومطالب الآخرة .. بل هكذا فى الواقع يصبح الإنسان إنسانا على الحقيقة لاحيوانا فى صورة إنسان كما هو فى الجاهلية المعاصرة . إنسان يسعى بكل فاعليته فى واقع الأرض لعمارتها والهيمنة عليها والإنشاء والتغيير فيها بما يحقق معنى الخلافة ، وهو فى الوقت ذاته محكوم « بالقيم » المرتبطة بيوم النشور ، النابعة كلها من إخلاص العبادة لله ، ونبذ الأرباب المزعومة كلها ، المؤدية إلى عبادة الشيطان من سبله المتعددة :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »« ٣ »

أما فى الجاهلية المعاصرة فقد سارت الأمور فى طريق آخر ..

ذلك أن أوروبا استنبتت المنهج التجريبى الذى أخذته من المسلمين ، فى أرض سبخة يملؤها العداء للدين والفرار من الله بدلا من الفرار إليه :

« ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولاتجعلوا مع الله إلها آخر .. »« ٤ »

وكانت النتيجة أن أصبح المنهج التجريبى فتنة لأوروبا ، كلما فتح عينيها

« ١ » سورة القصص [٧٧]
« ٢ » سورة الملك [١٥]
« ٣ » سورة الأنعام [١٥٣]
« ٤ » سورة الذاريات [٥٠ - ٥١]

على مزيد من أسرار الكون زادوا بعدا عن الله ! أو كما يقول جوليان هكسلى فى كتابه « الانسان فى العالم الحديث » : إن الانسان كان يعبد الله من قبل فى عصر العجز والجهل بسبب عجزه وجهله . أما الآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ماكان يلقيه من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله .. ومن ثم يصبح هو الله !

ولم تكن الفتنة هى غرور الإنسان بنفسه وظنه أنه مستغن عن الله فحسب« ١ » ، بل كانت بالإضافة إلى ذلك فتنة بالعلم وبالمنهج التجريبى ، فأصبحت التجربة الحسية المعملية هى « المعيار » الذى تقاس به « حقيقة » كل شىء ، ويرد إليه « صدق » كل شىء ! فما أمكن إثباته عن طريق التجربة المعملية فهو الموجود على الحقيقة ، وهو الموثوق بصدقه ، ومالايمكن إثباته عن هذا الطريق فهو إما شىء لا وجود له وإما شىء ساقط من الحساب . ودخلت فى هذا القبيل قضية الألوهية بكاملها ، بكل ماحولها من وحى ورسل وكتب وبعث ونشور وحساب وجزاء .. أو باختصار : قضية الايمان « ٢ » .

وإذا كانت عقلانية عصر النهضة ومابعدها قد أغلقت كل منافذ المعرفة إلا العقل ، ولكنها تركته يسرح حيث يشاء ، ويشطح كيف يشاء،فإن « العقلانية التجريبية » التى سيطرت على الفكر الأوروبى منذ القرن التاسع عشر ، قد أغلقت كل منافذ العقل إلا التجربة والحس ! وتلك هى اللعنة التى نجا منها الفكر الإسلامى الأصيل« ٣ » وقت أن كان المسلمون مستقيمين على نهج الإسلام الصحيح .

لقد كان المسلمون ـ كما بينا — هم الذين أنشأوا المنهج التجريبى فى البحث العلمى . ولكنهم أدركوا ـ بداهة ـ أنه ليس كل شىء يدخل المعمل للتجربة ! إنما الذى يصلح لذلك هو « المادة » و « الجسم » . ولم يتوانوا هم فى إدخال المادة والجسم معمل التجربة ، فتقدمت الفيزياء والكيمياء والطب على أيديهم تقدما يعتبر بالنسبة إلى وقتهم فتوحات .

ولكنهم — فيما عدا القلة الشاذة التى تأثرت بالفكر الإغريقى — لم يغلقوا

« ١ » يقول رب العالمين جل وعلا : « كلا ! إن الانسان ليطغى . ان رآه استغنى » [سورة العلق ٦ ـ ٧]

« ٢ » مر النص من حديث جبريل عليه السلام : « قال أخبرنى عن الايمان . قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » .

« ٣ » أى الذى لم يتأثر بفكر أجنبى عن الاسلام .

كل منافذ المعرفة غير العقل« ١ » ، ثم إنهم – قط – لم يغلقوا كل منافذ العقل غير التجربة والحس .

لقد أدركوا ، وصدقوا ، وآمنوا أن الله « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » « ٢ » ومن ثم لم يجعلوا المرجع الذى يرجعون إليه فى إثبات وجود الله ووحدانيته وتفرده بصفاته التى يتصف بها هو التجربة الحسية ! إلا من جانب واحد هو رؤية آثار قدرة الله فى الكون ، والاستدلال منها على كل ماتدل عليه من وجود الله ووحدانيته وتفرده . وهذا هو المنهج العلمى الصحيح الذى فاء إليه أخيرا نفر من العلماء فى الجاهلية المعاصرة فى القرن العشرين « ٣ » !

ثم إن المسلمين لم تكن لديهم كنيسة تدفعهم – بتصرفاتها – إلى حماقة عدم تسمية الله باسمه الصحيح ! ولا إضفاء صفات الله على إله أخر مزعوم اسمه الطبيعة ، أو اسمه المادة ، لمجرد الهروب من طغيان الكنيسة .. فإذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم وإذا ذكر الإله المزعوم إذا هم يستبشرون ! وإذ ظلوا يعرفون الله باسمه الصحيح ، ويعبدونه ـ من ثم ـ العبادة الصحيحة ، فإن السبل لم تختلط عليهم ، ولم يجعلوا قضايا الوحى والرسالة واليوم الآخر قضايا تجريبية ، إنما قضايا إيمانية يسلمون بها بعد أن تتأكد عقولهم ـ بكل وسائل الاستدلال ـ من وجود الله سبحانه وتعالى ، وقدرته التى لاتحدها حدود ، وتتأكد من صدق الرسول المرسل إليهم صلى الله عليه وسلم ، ومن أن مايخبر به عن ربه وحى لاشك فيه .

ولم يتعارض فى حسهم الإيمان بما تدركه الحواس مع الإيمان بما لاتدركه الحواس ، أو الإيمان بالغيب ، فهذا له قناة فى الفطرة وذاك له قناة ، كلتاهما تمد الإنسان بلون من المعرفة غير الذى تمده به الأخرى ، ومن مجموعهما معا تتكون المعرفة اللازمة للإنسان .

لم يغلقوا على أنفسهم نافذة الغيب فى سبيل تأكيد العالم المحسوس وتأكيد معرفتهم به .. كما لم يغلقوا على أنفسهم نافذة المحسوس فى سبيل تأكيد إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

« ١ » وحتى هؤلاء لم يصلوا إلى درجة الإغريق وإن كانوا تأثروا بهم .
« ٢ » سورة الأنعام [١٠٣]
« ٣ » انظر كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » لمجموعة من العلماء الغربيين .

وبذلك تقدموا بالمنهج التجريبى ذلك التقدم الهائل الذى أحرزوه دون أن يحتاجوا إلى مسخ الانسان وطمس بصيرته وتعتيم روحه على النحو الكريه الذى صنعته الجاهلية المعاصرة ، فظلت تهبط بالإنسان دركا وراء درك حتى لتوشك أن تسلمه إلى الدمار .

ونريد أن نتعرف على الموقف الصحيح للعقل والعقلانية كما يقدمه الإسلام وكما مارسه المسلمون وقت أن كانوا مستقيمين على المنهج الصحيح .

ولكنا لا نستطيع أن نختم الحديث عن عقلانية الجاهلية ، والعقلانية المعاصرة بصفة خاصة ، قبل أن نشير إلى قولة عجيبة وردت فى كتاب من كتب سارتر ، الكاتب الوجودى المعروف ، ذات صلة بالموضوع ، ودلالة لا تحتاج إلى تعليق !

وسارتر يهودى وإن كان كثير من الناس لا يعلمون ذلك ! فقد ورد فى الدستور اليهودى أن اليهودى من كانت أمه يهودية . وأم سارتر يهودية كما ذكر هو فى هذا الكتاب المشار إليه ، والذى عنوانه « تأملات فى المشكلة اليهودية Reflec- tions sur la question juive » والذى انصح بقراءته كل قارئ يملك قراءته بلغته الأصلية الفرنسية – أو ترجمته بالإنجليزية بعنوان : « Anti-Semite and Jew » ذلك أنه لم يترجم إلى العربية فيما أعلم .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٦م بمناسبة الحديث عن تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية .. وقيمته من وجهة نظرنا أنه يعترف بأفاعيل اليهود فى إفساد البشرية فى أثناء محاولته الدفاع عنهم ! ذلك أن طريقته فى الدفاع عن اليهود هى أن يذكر التهم الموجهة إليهم ، ثم يقول إنها صحيحة ! ولكنهم معذورون فى إتيانها بسبب كذا وكذا !

وسواء اقتنعت بوجاهة الأسباب أم لم تقتنع – وهى فى مجموعها متهافتة لا تقنع أحدا – فإنها تؤكد التهمة ولا تنفيها ! ويزيد من قيمة شهادته أنه « شاهد من أهلها » لا يتهم بالتعصب ولا التحيز ولا التقول ولا الافتئات !

يقول : إن اليهود متهمون بتهم ثلاث كبرى ، هى عبادة الذهب ، وتعرية الجسم البشرى ، ونشر العقلانية المضادة للإلهام الدينى . ويقول إن التهم كلها صحيحة ! ثم يروح يقدم لكل منها مايقدر عليه من المعاذير .

قال عن عبادة الذهب إن اليهود مضطهدون فى كل الأرض وكل التاريخ ، وإنهم لابد أن يسعوا إلى امتلاك القوة ليقاوموا هذا الاضطهاد . والوسيلة التى

لجأوا إليها هى السعى إلى امتلاك الذهب وتجميعه ليكون لهم عدة وقوة !

وقال عن تعرية الجسم البشرى إن اليهود متهمون بقبح أجسامهم وعدم استقامتها ! فأرادوا أن يثبتوا للبشرية أن القبح كامن فى الجسم البشرى ذاته لافى أجسام اليهود وحدهم ! فعملوا على تعرية الجسم البشرى ليستيقن البشر من هذه الحقيقة ! (أرأيت إلى مدى السخف والتهافت ..؟!)

أما نشر العقلانية المضادة للالهام الدينى (Rationalism as against intuition (كما ورد فى الترجمة الانجليزية) فقد كشف فيه الغطاء دون مواربة ! قال : إنه طالما كان البشر يؤمنون بالدين ، فسيظل يقع على اليهود تمييز مجحف على اعتبار أنهم يهود . أما إذا زال الدين من الأرض ، وتعامل البشر بعقولهم ، فعقل اليهودى كعقل غير اليهودى ، ويومئذ لن يتميز اليهود بكونهم يهودا ، ولن يقع عليهم التمييز المجحف ، وسيعيشون فى سلام مع غير اليهود (أى بعد أن يغطوا على حقيقتهم ويندسوا فى وسط البشرية مبهمين بين الجموع !!)

ومهما يكن فى هذا الكلام من المغالطات المكشوفة التى قصد بها التغطية على الأهداف الحقيقية لليهود من وراء هذه الأفعال (وهى نشر الفساد فى صفوف الأمميين لإفساد عقائدهم وأخلاقهم بالإضافة إلى سلب أموالهم ، لتيسير استعبادهم للشعب الشرير) فإن ثبوت التهمة بشهادة شاهد من أهلها أمر غنى عن التعليق !« ١ »

* * *

ونعود الآن إلى تبين الموقف الصحيح للعقل والعقلانية كما يرسمه الإسلام ..

يقدر الإسلام العقل باعتباره من أكبر النعم التى أنعم بها الله على الإنسان :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »« ٢ »

ولكنه لايبالغ فى تقدير قيمة العقل كما كانت تفعل العقلانية الإغريقية ومن ورثها من بعد ، بحيث يجعله هو الحكم فى كل شىء ، وهو المرجع الأخير لكل شىء !

---

١ - مما يلفت النظر فى هذا الكتاب أيضا قول سارتر إن تقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية لن يحل المشكلة اليهودية . إنما الحل هو نشر الشيوعية العالمية . وهو أيضا قول لايحتاج إلى تعليق .

٢ - سورة النحل [٧٨] .

فهناك أمور لايستطيع العقل من ذات نفسه أن يصل إليها لأنها ليست فى محيط تجربته ، ولا تستطيع الأدوات التى يحصل بهـا المعرفـة وهى أدوات الحس أن تصل إليها لأنها خارجة عن نطاق المحسوس .. وإن كان فى إمكان العقل أن « يعقلها » حين تبين له ؛ فهذه تلقن للعقل تلقينا عن طريق الوحى ، ويكون دور العقل فيها أن يعقلها لابطريق التجربة المباشرة ولا بطريق الحس ، ولكن عن طريق التيقن من صدق الخبر وصدق المخبر . وهو مدعـو - كما أسلفنا - إلى القيام بعملية التيقن هذه بكل الوسائـل التى يملكها .. وهى مؤدية إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق .

وهنا نقطة مهمة فى الموضوع .

فالعقل المجرد عن الهوى ، المتمحض لتمحيص الحقائق ، المنزه عن كـل شائبة تشوب التفكير أو تشوب الحكم وَهْمٌ توهمته الفلسفة الإغريقية ، كمـا توهمته من بعدها كل عقلانية بالغت فى تقدير دور العقل وتقدير قدراته . والواقع البشرى الطويل يشهد بأحد أمرين أو بهما معا فى الحقيقة : إما أن هذا العقل - فى صورته المجردة تلك - لم يوجد قط فى واقع الأمر ، وإما أن البشرية لاتحكم عقلها فى جميع أحوالها ، وكلا الأمرين صحيح ! فلا هذا العقل المطلق موجود عند أحد من البشر العاديين ولا الفلاسفة ولا المفكرين ، ولا البشرية تخضع لنداء العقل (على فرض صحته) وتصيخ إليه ! إلا من رحم ربك !

والدليل - العقلى - على الأمر الأول ، أنه لايكاد ينـطبق عقلان من عقـول البشرية فى تاريخها الطويل كله على تصور واحد بجميع تفصيلاته ، ولو كانت العقول - حتى عقول الفلاسفة والمفكرين - بالصورة الوهمية التى تصورها العقلانية لتلاقت وتطابقت لأن الحق لايتعدد .

والدليل - العقلى كذلك - على الأمر الثانى هو هذا الجنوح الدائم والتخبط الذى تمارسه البشرية ، وتلك الحروب المجنونة ، وذلك الاتباع الجنونى للهوى والشهوات . ولو كانت البشرية تصيخ لنداء العقل فى جميع أحوالها ماجنحت ولاتخبطت ولا أصابها الجنون !

إنما الحق - الذى تشير الدلائل كلها إليه - أن العقل - فى خارج ميدانـه الأصيل - أداة طيعة لمن يسيطر عليه ! فإذا سيطرت عليـه الروح المهتديـة استقام منطقه واستقام تفكيره ، واصبح خادما أمينا للهدى يسخر طاقاته كلها فى خـدمته . وإذا سيـطرت عليه الروح الضـالة ، أى سيطر عليـه الهـوى

والشهوات ، فهو خادم للضلال يسخر طاقته كلها فى خدمته ، ويجادل أشد الجدل لتبرير موقفه :

« وكان الإنسان أكثر شيء جدلا »« ١ »

« وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » « ٢ »

« لهم قلوب لايفقهون بها » « ٣ »

ومعرفة هذه الحقيقة عن العقل لاتنقص من قدره كأداة للتفكير ، بل إن هناك ميادين من الفكر هى خالصة للعقل لايشاركه فيها غيره من أدوات التلقى وأدوات تحصيل المعرفة ، كما سيجيء بيانه . وإنما معرفة هذه الحقيقة تجعلنا نتحفظ فقط فى تقديرنا للقيمة النهائية للعقل ، بحيث لانجعله هو المحكم فى كل شيء ، ولا المرجع الأخير لكل شيء ! إنما ننزله منزله الحق ، فما كان فيه هو المرجع الوحيد أو المرجع النهائى وكلناه إليه كله ، وماكان فيه قمينا أن يضل إذا ترك وحده جعلنا له الصحبة التى تمنع ضلاله ، وماكان عاجزا عن الوصول فيه إلى شيء لم نقحمه فيه .. وهذا هو منهج الإسلام .

يمنح الإسلام العقل مجالا واسعا للعمل ، هو أوسع مجال سليم للعقل منحه إياه نظام من النظم أو عقيدة من العقائد . وفى الوقت نفسه يمنعه من مجالات بعينها ، ويحظر عليه التفكير فيها ، أو ينكر عليه حق التفكير ..

ونبدأ بالحديث عن الأخيرة لأنها ـ فى الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ـ مظنة الحجر على العقل بغير موجب !

يحظر الاسلام على العقل أمورا ثلاثة : التفكير فى ذات الله ، والتفكير فى القدر . والتشريع من دون الله .

« تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى الله » « ٤ »

« وإذا ذكر القدر فأمسكوا » « ٥ »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »« ٦ »

وأما الأولى والثانية فالحظر فيها ليس حجرا على « حرية الفكر » إنما هو

« ١ » سورة الكهف [٥٤]
« ٢ » سورة غافر [٥]
« ٣ » سورة الأعراف [١٧٩]
« ٤ » رواه ابونعيم (انظر صحيح الجامع الصغير ٣ / ٤٩)
« ٥ » رواه الطبرانى
« ٦ » سورة المائدة [٤٤]

صيانة لطاقة العقل أن تتبدد فيما لاطائل وراءه . وإلا فلننظر فى « الإنتاج البشرى » كله فيما يتعلق بذات الله ، فى الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحى ومايسمى بالفلسفة الإسلامية وعلم الكلام .. إلى أى شىء وصل ؟! والى أى شىء كان قمينا أن يصل ؟

لاشىء !

لأنه اقتحام بلا أداة .. أو بغير الأداة الصالحة للوصول ..

كالمفتاح الذى يدور فى القفل ويدور .. والقفل لايفتح .. لأن المفتاح اضأل من أن يفتح القفل !

كما قلنا من قبل : ليس العيب فى القفل ولا فى المفتاح ، ولكنه فى إصرارنا نحن أن نفتح القفل بغير مفتاحه !

الروح هى أداة الوصول !

لانعرف نحن كيف تصل .. ولكنها تصل ! فى لحظة الإشراق .. فى لحظة التوهج .. تصل ! وتحس بالوصول ! وتنعم بالوصول ! وليس معنى ذلك - كما أوضحنا من قبل - أن العقل ليس له دور فى عملية الإيمان . كلا ! إن له دوره المخصص له . لكن الإيمان بالله شىء ، والإحاطة بكنه الذات الالهية - وهو مايحاوله العقل - شىء آخر لايمكن أن نصل إليه .

والذى تصل إليه الروح ليس هو الإحاطة بكنه الذات الإلهية كذلك . إنما هو القرب الذى يتلقى النور ويفيض عليه النور ، فيستغنى عن « البحث » فى الكنه ، الذى يحاوله العقل ولايصل إلى شىء منه ! وهذه المشاعر يملكها كل إنسان فى لحظات التوجه الصادق إلى الله . وإن كان الإنسان - بطبيعته - لايثبت عليها كما تثبت الملائكة الأطهار .. ولاهو مطلوب منه أن يثبت عليها لأن الله لايكلف كل نفس إلا وسعها ..

شكا الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم حين يكونون معه يكونون فى حال ، وإذا خرجوا من عنده وانساحوا فى الحياة تغيرت بهم الحال . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مامعناه إنهم لو ظلوا على حالتهم التى يكونون عليها وهم فى صحبته لصافحتهم الملائكة !

ذلك هو الوصول الذى تقدر عليه الروح .. ولايستطيع العقل أن يمارسه لأنه ليس من شأنه .

وأما القدر فشأنه كذلك ..

ليس للعقل فيه مجال ..

إنما يحتاج الانسان لكى يدرك كيف يجرى الله قدره ، بخيره وشره ، أن يكون على مستوى الإله ! وذلك أمر لن يكون . فالله وحده هو المتفرد بالألوهية والعلم المحيط بالزمان والمكان والأشياء والأشخاص والأحداث .

ومن ثم ضــل « العقل » حيثمــا تكلم فى القدر .. واستــراح القلب المؤمن المطمئن بذكر الله .

« الذين آمنــوا وتــطمئن قلوبهم بــذكــر الله ، ألا بــذكــر الله تــطمئن القلوب »« ١ »

ومن لم يطمئن قلبه .. وسعى « بعقله » أن يعقل القدر .. فلأى شىء وصل من خلال الفلسفة والفكر والكلام ؟!

كلا ! لم يكن حجرا على « حرية الفكر » إنما صيانة لطاقة العقل أن تتبدد فيما لاطائل وراءه .. ومن أبى أن يلتزم بالحظر فقد أنهك عقله ، وشقى ، ولم يجد فى النهاية الظل الذى يفىء إليه من لفحة الرمضاء ! وهى على أى حال نصيحة يلتزم بها العاقل فيجد فيها الخير ، ويتجنبها من يتجنبها فيلقى جزاء المخالفة اضطرابا وحيرة لا تستقر .

أما التشريع بغير ما أنزل الله فليس الأمر فيه أمر « نصيحة » تــوجه إلى الناس . إنما هى قضية كفر وإيمان .

والقضية على أى حال ذات شقين ، كلاهما يتعلق بالألوهية وماينبغى لها فى شأن التشريع ..

الشق الأول من القضية هو المتعلق بمقام الألوهية : من الإله ؟ من المعبود ؟ من صاحب الأمر ؟ وهى كلها مترتبة على سؤال أولى : من الخالق ؟ من المدبر ؟ من المهيمن ؟ من صاحب السلطان ؟ الله أم الإنسان ؟

فإذا كان الله هو الخالق والإنسان هو المخلوق ، فقد تحدد مقام الألوهية ومقام العبودية ، وأصبح صاحب الحق فى أمر التشريع – كما فى كل أمر آخر – هو الله الخالق لا الإنسان المخلوق .. إلا أن يأذن له صاحب الأمر .

« ألا له الخلق والأمر » « ٢ »

« ١ » سورة الرعد [٢٨] .
« ٢ » سورة الأعراف [٥٤]

« إن الحكم إلا لله ، أمر الا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون » « ١ »

« ألا لله الدين الخالص » « ٢ »

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله »؟! « ٣ »

وقضية الكفر والإيمان – أو قضية الجاهلية والإسلام – هى دائما هذه القضية ، مصحوبة – فى الغالب – بقضية العبادة بمعنى أداء الشعائر التعبدية :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله **ماعبدنا** من دونه من شىء نحن ولا أباؤنا **ولاحرمنا** من دونه من شىء » « ٤ »

فالأولى متعلقة بالألوهية : هل الله واحد أم ألهة شتى ؟ فإذا كان واحدا فمن حقه أن يعبد وحده ، أى تقدم الشعائر التعبدية له وحده . والثانية متعلقة بخصيصة من خصائص الألوهية وهى الحاكمية : هل الله الذى يحكم ، فيحل ويحرم ، ويبيح ويمنع ، أم له شركاء فى التشريع ، يقولون من عند انفسهم : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا مباح وهذا غير مباح ، بغير سلطان من الله ؟ فمادام الله واحدا فى الوهيته ، فالحاكمية – من ثم – له وحده لأنها خصيصة الألوهية .

والإيمان هو التوحيد فى هذه وتلك . والكفر هو الشرك فى هذه أو تلك أو فيهما جميعا .

وقضية الجاهلية دائما هى الاستكبار عن عبادة الله ، سواء كانت العبادة هى أداء الشعائر التعبدية لله وحده ، المترتب على الاعتقاد القلبى بوحدانية الله ، أو كانت هى التحاكم إلى شريعة الله،المترتب كذلك على الاعتقاد القلبى بوحدانية الله .

« إن الذين يجادلون فى أيات الله بغير سلطان اتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه » « ٥ »

---

١ - سورة يوسف [٤٠]
٢ - سورة الزمر [٣]
٣ - سورة الشورى [٢١]
٤ - سورة النحل [٣٥]
٥ - سورة غافر [٥٦]

وفى الجاهليات القديمة كلها كان الناس يؤمنون بأن الله هو الخالق ، ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى يضفون عليها بعض صفات الألوهية . أما فى قضية التشريع فكان كبراؤهم يتنكبون الطريق ، فيعطون لأنفسهم حقا من الحقوق المتعلقة بالألوهية - هو حق الحاكمية - فيشرعون بغير سلطان من الله ، ويجعلون من أنفسهم أربابا مع الله . وأما المستضعفون فيخضعون لهؤلاء الأرباب المزيفين بحكم مافى أيديهم من السلطان القوى ، فيعطونهم حق التشريع ، ويستعبدون أنفسهم لهم بالخضوع لما يشرعونه من تشريع .. فيشترك الذين استكبروا والذين استضعفوا فى شرك العبادة ، ثم ينقسمون بعد ذلك إلى سادة وعبيد . السادة يملكون ويحكمون ، والعبيد لايملكون ولايحكمون .. إنما يقع عليهم الذل والهوان والضياع والبؤس كشأن كل جاهلية فى الماضى .. وكل جاهلية آتية إلى قيام الساعة .

أما الجاهلية المعاصرة فقد استكبرت استكبارا من نوع آخر فنفت وجود الله أصلا ، وزعمت أن الطبيعة أو المادة هى الخالق الأزلى الأبدى ذو السلطان . ولكنها فى قضية التشريع سارت على ذات النمط الذى سارت عليه كل جاهلية من قبل ، فاستأثر بالتشريع ذوو السلطان ، وخضع لهم العبيد ، فاستوى بذلك عهد الرق وعهد الإقطاع وعهد الراسمالية وعهد الشيوعية على خلاف فى الصورة لايقدم ولايؤخر كثيرا فى واقع الأمر« ١ » .

هذا هو الشق الأول من قضية التشريع المتعلق بمقام الألوهية . أما الشق الآخر فهو متعلق كذلك بقضية الألوهية ولكن من جانب آخر .

كان الشق الأول من القضية : من الذى يحق له أن يشرع ، الخالق أم المخلوق ؟ أما الشق الآخر فهو : من الذى يحق له أن يشرع ، العليم الخبير أم الذين لايعلمون ؟

والإنسان - فى الجاهلية الأخيرة خاصة - يزعم أنه هو العليم الخبير ، ومن ثم فهو الذى يحق له أن يضع التشريع .

وبصرف النظر عن أن الأصل فى القضية هو الاستكبار عن عبادة الله فلننظر فى هذا الإنسان الذى يزعم أنه هو العليم الخبير،كيف يعالج شئون حياته فى معزل عن منهج الله !

---

١ - راجع فصلى الديمقراطية والشيوعية فى هذا الكتاب .

كان العمال فى الراسمالية خاضعين للظلم الواقع عليهم من أصحاب رؤوس الأموال ، يسرقون كدحهم ويأكلون جهدهم ولايعطونهم إلا الكفاف .. ففكر « الانسان » فى طريقة لرفع ذلك الظلم فابتدع الشيوعية .. فأزيلت الملكية الفردية كلها وأصبحت الدولة هى المالك الوحيد . فوقع الناس جميعا فى الذل المهين للمالك الجديد ، يستعبدهم بلقمة الخبز ، فلا يملكون أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة للسيد المعبود !

وكانت المرأة فى الجاهلية الأوروبية فى عهد الإقطاع مهينة محقرة ، تعير بأنها تحمل وتلد ، ولاتعطى وضعها الإنسانى الكريم ، ففكر « الإنسان » فى طريقة لرفع الظلم عن المرأة ورد الإنسانية المفقودة إليها .. فكيف فكر وكيف قدر ؟! أخرجها من البيت وشغلها فى المصنع والمكتب ، وجعلها تختلط مع الرجل ، فاشتغل الرجل والمرأة كلاهما بفتنة الجنس ، وفسدت الأخلاق ، وتحطمت الأسرة ، وتشرد الأطفال ، وانتشر الشذوذ ، وفسدت الحياة !

وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى تفسد الحياة كلها بإفساد الدين ، ففكر « الإنسان » فى طريقة للإصلاح .. فكيف فكر وكيف قدر ؟! ألغى الدين كله . بل نفى وجود الله أصلا .. ثم راح يتخبط فى الظلمات !

هذا هو الإنسان « العليم الخبير ! » الذى يزعم أنه شب عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله ! وهذه هى طريقة تفكيره حين يضع لنفسه منهج الحياة !

إنه يقع فريسة لقصور العقل البشرى ، وفريسة للهوى والشهوات !

إنما يلزم لمن يضع للإنسان منهج حياته أن يكون بادئ ذى بدء عالما بذلك « الإنسان » ليضع له منهجا على قده ، ويلزم له أن يكون محيط العلم بماضى ذلك الإنسان وحاضره ومستقبله ، لكيلا يعالج مشكلة بمشكلة جديدة ، ولايقوم انحرافا بانحراف جديد .. ويلزم له أن يكون منزها عن الغرض ، منزها عن الهوى والشهوات ، ليكون منهجه « موضوعيا » خالصا بالنسبة لحياة الإنسان ..

فهل كذلك الإنسان ؟! وهل يمكن أن يكون كذلك فى يوم من الأيام !

يقول ألكسس كاريل عن معرفة الإنسان بنفسه :

« وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لكى يعرف نفسه ، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة

والشعراء وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا . إننا لانفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة !

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلاجواب ... »« ١ »

ومر بنا من نماذج القصور فى رؤية الإنسان وطريقة علاجه للأمور ما يغنينا عن المزيد .

إنما الله هو العليم الخبير لا الإنسان !

« الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » « ٢ »

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »« ٣ »

« قد أحاط بكل شىء علما » « ٤ »

« والله هو الغنى » « ٥ »

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهـوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » « ٦ »

من أى جانب إذن عالجت قضية التشريع ، فالتشريع هـو حق الله تبارك وتعالى ، وليس الإنسان مأذونا له ولا هو صالح لوضع منهج حياته .. إلا ما أذن الله له فيه . وسنرى فى النقاط التالية بأى شىء أذن الله للإنسان ، يُعْمِلِ فيه عقله ويجتهد فيه .

إذا جاوزنا هذه الأمور الثلاثة ، التى نُصِحَ العقل الا يتناولها كقضية الذات الإلهية وقضية القدر ، أو منع منعا جازما منها كقضية التشريع ، فكل المجالات الأخرى مباحة للعقل ومتاحة له ، بل هو – فى الإسلام – مدعو إليها دعوة

« ١ » كتاب الانسان ذلك المجهول ص ١٦ من الترجمة العربية (تعريب شفيق أسعد فريد) .

« ٢ » سورة الملك [١٤]

« ٣ » سورة البقرة [٢١٦]

« ٤ » سورة الطلاق [١٢]

« ٥ » سورة فاطر [١٥]

« ٦ » سورة النساء [٢٦ – ٢٨]

صريحة ، ويعتبر مقصرا إذا لم يقم بها .

وهناك خمسة مجالات رئيسية يدعى العقل للعمل فيها فى ظل الاسلام :

أولا : تدبر آيات الله فى الكون للتعرف على قدرة الله المعجزة ، وتفرده بالخلق والتدبير والهيمنة والسلطان ، بمايؤدى إلى إخلاص العبادة له وحده سبحانه ، وطاعته فيما أمر به ومانهى عنه .

ثانيا : تدبر آيات الله فى الكون للتعرف على السنن الكونية التى يجرى بها قدر الله فى الكون ، لتحقيق التسخير الربانى لما فى السموات ومافى الأرض للإنسان ، من أجل تعمير الارض والقيام بالخلافة بها .

ثالثا : تدبر حكمة التشريع الربانى لإحسان تطبيقه على الوجه الأكمل ، والاجتهاد فيما أذن الله فيه بالاجتهاد .

رابعا : تدبر السنن الربانية التى تجرى الأمور بمقتضاها فى حياة البشر ، لإقامة المجتمع الإيمانى الراشد الذى يريده الله .

خامسا : تدبر التاريخ

ولنقل كلمة موجزة عن كل مجال من هذه المجالات :

* * *

أولا : فى قضية الإيمان - كما أسلفنا - يخاطب الإسلام الإنسان كله ، بكل جانب من جوانبه ، ويركز على الجانب الوجدانى لأن العقيدة دائما تخاطب الوجدان وتَحْيَى فيه وتتحرك به ، ولكنه يخاطب العقل كذلك فى ذات الوقت ، ويستنهضه للتفكر والتدبر والتأمل ، لتتآزر جوانب الإنسان كلها للوصول إلى الحقيقة ، حقيقة الألوهية ، ومايترتب على معرفتها من التزامات فى كل مجالات الحياة والشعور والفكر والسلوك .

يخاطبه ليتدبر فى آيات الخلق .. خلق الكون وخلق الإنسان .. هل من خالق غير الله ؟

« أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟! بل لايوقنون ! »« ١ »

« خلق السموات بغير عمد ترونها ، والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم .

« ١ » سورة الطور [٣٥ - ٣٦]

هـذا خلق الله فأرونى مـاذا خلق الذين من دونه ! بـل الظالمـون فى ضــلال مبين ! »« ١ »

ومازال هذا التحدى قائما .. وسيظل قـائما إلى أن يـرث الله الأرض وما عليها .. وكل محاولات الجاهلية المعاصرة أن تزيغ عن مجابهة التحدى ، بالقول بالمصادفة تارة ، وبـالخلق الذاتى تارة ، وبـأى كلام تـارة أخرى إنمـا هى محاولات متهافتة لايقبلها « العقل » لو تجرد للتفكر بغير ضغوط وبغير شهوات !

والاسلام يخاطب العقل ليتجرد فى تفكره ، وليصل إلى النتيجة الموضوعية العلمية التى يدل عليها كل مافى السماوات والأرض من شىء ، ويتخلى عن الهوى الذى يعمى وعن الكبر الذى يضل .. فيجد الحقيقة بارزة تملأ اليقين .

« افمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ »« ٢ »

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » « ٣ »

« إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض .. » « ٤ »

وكمـا يخاطبـه ليستيقن من حقيقة الألوهيـة وتفرد الله بـالخلق والتدبير .. – بطرق استـدلالاته الخـاصـة من استقـراء واستنباط وقياس ومنـطق .. الخ – يخاطبه ليرتب على يقينه ذلك مايستتبعه من نبعات .. فإذا كان الله متصفا بتلك الصفات التى استدل عليها وتيقن منها فمن الجدير بالعبادة غيره ، ومن الجدير بالطاعة غيره ؟

كـذلك يخاطبـه ليستيقن من الحق الذى خلقت به السمـاوات والأرض ، ومايستتبع هذا الحق من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب :

« افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم إلينا لاترجعون ؟ »« ٥ »

« ومـاخلقنـا السمـاء والأرض ومـابيـنهـمـا بـاطلا . ذلك ظن الذين كفروا .. » « ٦ »

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات

« ١ » سورة لقمان [١٠ – ١١]
« ٢ » سورة النحل [١٧]
« ٣ » سورة الأنبياء [٢٢]
« ٤ » سورة المؤمنون [٩١]
« ٥ » سورة المؤمنون [١١٥]
« ٦ » سورة ص [٢٧]

والأرض : ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا،ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة ، إنك لاتخلف الميعاد » « ١ »

إن الله الذى صفاته هى تلك التى عرفها العقل واستيقن منها لايمكن – عقلا – أن يخلق شيئا عبثا ، أو ان يخلق شيئا باطلا ، إنما يخلق كل شىء بالحق . والحق يقتضى أن يكون هناك يوم يحاسب فيه الناس على ما عملوه فى الحياة الدنيا ، لأنه لايتم الجزاء الحق فى الحياة الدنيا كما يرى الإنسان بنفسه .. فكم من ظالم ظل يظلم حتى مات ، وكم من مظلوم ظل مظلوما حتى مات . فلو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف فأين الحق ؟ إنما يحق الحق حين يبعث الناس فيحاسبون على السيئة والحسنة ، ويأخذ كل إنسان جزاءه بالحق ..

وإذا كان الأمر على هذه الصورة فإن « العقل » يقتضى أن يحسب الإنسان لهذا اليوم حسابه ، وأن يعمل من الأعمال مايقربه من الجنة ويبعده عن النار .. وألا تفتنه اللذة العاجلة عن النعيم المقيم .

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور » « ٢ »

وهذه الأمور كلها يخاطب فيها الوجدان – مع العقل – لتترتب عليها حركة سلوكية واقعية ، ولكن نصيب العقل فيها واضح لايحتاج إلى تأكيد .

* * *

ثانيا : يوجه العقل بعد ذلك إلى تدبر آيات الله فى الكون للتعرف على أسراره . للتعرف على خواص ذلك الكون ، لإمكان تسخيرها لعمارة الأرض .

والتسخير قائم من عند الله ابتداء :

« وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه » « ٣ »

ولكن تحقيق هذا التسخير فى عالم الواقع لايتم بمجرد رغبة الإنسان فى ذلك ،

« ١ » سورة آل عمران [١٩٠ – ١٩٤]
« ٢ » سورة آل عمران [١٨٥]
« ٣ » سورة الجاثية [١٣]

فهو ليس إلها يقول للشيء كن فيكون . إنما يتحقق هذا التسخير بجهد معين يبذله الإنسان . جهد عقلى يتعرف به الإنسان على أسرار الكون وخواصه ، وجهد عضلى يطبق به الإنسان ثمار معرفته فى صورة عمل منتج .

وكل ذلك يوجّه العقل لأدائه . بل هو ميدانه الأصيل الذى تتجلى فيه كل عبقريته ، والذى لايشاركه فيه غيره . وليس معنى ذلك أنه فى هذا الميدان لايخطىء ولايتوهم ، فكثيرا مايقع فى الخطأ والوهم كما بين تاريخ العلوم ، ولكن معناه أن لديه أوسع فرصة ليصل إلى الحقيقة فيما قدر الله أن يكشف له من أمور هذا الكون . ولكنه يوجّه إلى ذلك بعد أن يوجه إلى التعرف على الخالق ، وعلى كل قضايا العقيدة .

ولذلك حكمة واضحة .

فالعقل البشرى مالم يعوقه معوق - كما كان من أمر الكنيسة الأوروبية وحجرها على العقل أن يفكر - مفطور بطبعه على التفكير فيما حوله ، واستنباط الطرق التى تحقق للإنسان حاجاته ، ثم تحسينها ومحاولة الوصول بها إلى أقصى حد من الإتقان والفاعلية ، من أجل الحصول على القدر من « المتاع » الذى قدره الله للإنسان فى الأرض .

«ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »« ١ »

ولكن العبرة فى حياة « الإنسان » ليست بمجرد العمارة المادية للأرض ، ولامجرد الحصول على المتاع من أى لون ومن أى طريق ، إنما « الإنسان » خلق لشيء أرفع من ذلك وأسمى .. خلق لحمل « الأمانة » التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها . وحملها الإنسان .. »« ٢ »

وحمل الأمانة لايتم بمجرد العمارة المادية ولا المتاع الحسى .. إنما يتم بإقامة ذلك كله على أساس من « القيم » .. والقيم الحقيقية هى التى حواها المنهج الربانى للحياة (وقد رأينا من دراستنا السابقة أن كل ماعداها زائف لايلبث أن تعبث به الأعاصير) ومن ثم كان لابد من توجيه العقل أولا - والكيان

« ١ » سورة البقرة [٣٦]

« ٢ » سورة الاحزاب [٧٢]

الإنسانى كله فى الحقيقة - للتعرف على الله والايمان به وطاعته ، حتى إذا جاء العقل يتعرف على الكون ، ويعمل على تسخير طاقاته فى عمارة الأرض ، كان مهتديا بالهدى الربانى ، فأقام عمارة الأرض على أساس المنهج الربانى الذى به وحده تصلح الحياة .

وقد مر بنا فى هذا الفصل وماقبله كيف صارت الأرض حين قامت عمارتها المادية على « قيم » أخرى غير القيم التى قررها الله وأمر بإقامتها فى الأرض . وحاضر الجاهلية المعاصرة غنى عن الاشارة وغنى عن التعليق .

فتوجيه العقل - فى الإسلام - إلى التعرف على السنن الكونية من أجل عمارة الأرض بعد توجيهه إلى الإيمان بالله ، هو المنهج الصحيح لتنشئة « الانسان الصالح » الذى تسعى البشرية - نظريا - إلى تنشئته ، ولكنها تخفق دائما حين تتنكب المنهج الربانى ، وتنشئ من عندها مناهج تؤدى إلى البوار .

وإن كان لنا من شىء نذكّر به أو نعيد التذكير به فى هذا المجال ، فهو أن الأمة المسلمة - بتوجيه الإسلام - هى التى انشأت المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، الذى قامت عليه كل نهضة اوروبا العلمية فيما بعد ، ولكنها تفردت فى التاريخ بأنها هى التى أنشأت حضارة « إنسانية » حقيقية ، تمثل « الإنسان » كله لاجانبا واحدا من جوانبه ، وتمثله متوازنا كما ينبغى للإنسان ، لا العمل فى الدنيا يشغله عن الآخرة ، ولا المتاع الحسى يشغله عن المتاع الروحى المتمثل فى العبادة ، وفى الجهاد لإقامة الحق والعدل فى الأرض . ولارؤية الأسباب الظاهرة تفتنه عن السبب الحقيقى ، ولا العلم يفتنه عن الدين .. إلى آخر تلك الانحرافات التى وقعت فيها الجاهلية الأوروبية حين رفضت الهدى الربانى وجعلت « عقلها » يرسم لها الطريق !

* * *

ثالثا : يوجه العقل فى الإسلام إلى تدبر حكمة التشريع لإحسان تطبيقه . ومن أجل الاجتهاد فيما أذن الله فيه بالاجتهاد . وحقيقة إن هذا فى الإسلام فرض كفاية لافرض عين ، لأنه لايتيسر لكل الناس - وإن كانوا مؤمنين - أن يتفقهوا فى أحكام الدين . إنما الفقهاء لهم استعداد خاص ، ويحتاجون إلى دربة خاصة لاتتاح لكل إنسان .

ولكن فرض الكفاية معناه أن يتخصص له فريق من الأمة - ممن يحملون الاستعداد وينالون الدربة - فيسقط التكليف عن الآخرين . فإن لم ينتدب له أحد من أفراد الأمة فهى كلها أثمة حتى تهيىء من يقوم عنها بهذا الأمر .

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » « ١ »

وإعمال العقل لتدبر حكمة التشريع أمر واضح الضرورة وواضح الحكمة .

فالتشريع أولا لاينطبق انطباقا آليا على كل حالة من الحالات التى تقع بين البشر .

إنما يحتاج الأمر إلى إعمال العقل لمعرفة الحكم الذى ينبغى تطبيقه فى الحالة المعينة المعروضة للحكم ، ولمعرفة الطريقة الصحيحة لتطبيقه .

ثم إن هذه الشريعة التى نزلت لتواكب حياة البشرية كلها منذ نزولها إلى قيام الساعة ، قد روعى فيها أن تواجه الثابت والمتغير فى حياة الناس .

فأما الثابت - الذى لايتغير ، أو لاينبغى أن يتغير لأن تغييره يحدث فسادا فى الأرض - فقد أتت فيه الشريعة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بتفصيلات وافية تشمل الأصول والفروع والكليات والجزئيات .

وأما المتغير - الذى يجد فى حياة الناس بحكم التفاعل الدائم بين العقل البشرى والكون المادى وماينشأ عن ذلك من علوم وتطبيقات وتحويرات فى أنماط الحياة ، والذى أذن الله فيه بالتغيير لأن ثباته يجمد الحياة ويوقف نموها - هذا المتغير لم تتناوله الشريعة بالتفصيل - بحكم تغيره الدائم - إنما وضعت له الأسس التى ينمو نموا سليما فى داخل إطارها ، وتركت للعقل المؤمن المهتدى بالهدى الربانى ، المتفقه فى أمور الدين ، أن يستنبط له من الأسس الثابتة مايناسبه فى كل طور من أطواره .

لذلك كان الفقه عملا دائم النمو لايتوقف ، ولايجوز له أن يتوقف .. لأنه إذا توقف فليس لذلك من نتيجة إلا أن تجمد الحياة أو تخرج من إطار الشريعة الربانية الحكيمة .

ولقد قام العقل الإسلامى فى ميدان الفقه فى فترة نشاط هذه الأمة وحيويتها بجهد رائع ، مازال يعد تراثا إنسانيا ثمينا إلى هذه اللحظة ، رغم ما أصاب الأجيال المتأخرة من الجمود ، وما أصاب الأجيال الأخيرة من الإعراض !

« ١ » سورة التوبة [١٢٢]

والذى يطلع على هذا الفكر يدرك مدى شمول هذه الشريعة وحيويتها وقدرتها على مواكبة النمو البشرى من جهة ، ويدرك من جهة أخرى ماقام به العقل الإسلامى المفكر من فتوحات فى هذا الباب ، كانت كلها وليدة توجيهات الإسلام .

* * *

رابعا : ترد فى كتاب الله مجموعة من السنن التى يجرى الله بها قدره فى حياة البشر ، وترد الإشارة المكررة بأن سنة الله لا تتبدل ولا تتغير ، ولا تتوقف محاباة لأحد من الخلق . ويوجه العقل إلى تدبر هذه السنن من أجل إقامة المجتمع الصالح الذى يتمشى مع مقتضياتها ولايصادمها .

فالحياة البشرية ابتداء ليست فوضى بلاضابط . إنما يضبطها نظام ربانى دقيق ، يسير بحسب سنن ثابتة ، ترتب نتائج محددة على السلوك البشرى فى جميع أحواله . ومن ثم يستطيع الإنسان أن يتبين السلوك الصائب الذى ينبغى أن يسلكه ، كما يتبين النتائج المتوقعة من سلوكه ، لارجما بالغيب ، ولكن تحقيقا لسنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير .

وهذه السنن تتناول حياة الجماعة ، فهى سنن اجتماعية فى غالبها . أما مايرد بشأن الفرد فغالبا مايكون متعلقا بالجزاء الذى يجزاه فى الآخرة لقاء عمله فى الدنيا ، وإن كان بعض السنن يأتى فيه ذكر المفرد كقوله تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا « ١ » ونحشره يوم القيامة أعمى » « ٢ »

ونعرض هنا بعض هذه السنن على سبيل المثال لا الحصر ، فليس همنا تتبعها واستقصاءها ، إنما التنويه بعمل العقل إزاءها .

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » « ٣ »

« إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « ٤ »

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »« ٥ »

« ١ » اى فى الحياة الدنيا
« ٢ » سورة طه [١٢٤]
« ٣ » سورة الروم [٤١]
« ٤ » سورة الرعد [١١]
« ٥ » سورة الأنفال [٥٣]

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » « ١ »

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » « ٢ »

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ٣ »

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » « ٤ »

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون » « ٥ »

« وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » « ٦ »

« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » « ٧ »

ونقف وقفة قصيرة عند هذه السنة الربانية :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لاينال عهدى الظالمين » « ٨ »

فقد ابتلى الله إبراهيم عليه السلام بجملة ابتلاءات صبر فيها صبرا جميلا ، وكان قمة الابتلاءات أمره - فى الرؤيا - بذبح ولده الحبيب اسماعيل ، واستسلامه وولده للأمر الربانى :

« قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل

« ١ » سورة الأنعام [٤٤]
« ٢ » سورة الأنعام [٦٥]
« ٣ » سورة الأعراف [٩٦]
« ٤ » سورة العنكبوت [٢ - ٣]
« ٥ » سورة هود [١٥ - ١٦]
« ٦ » سورة الزخرف [٢٣]
« ٧ » سورة غافر [٨٤ - ٨٥]
« ٨ » سورة البقرة [١٢٤]

ماتؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا »« ١ »

ولقد أكرمه الله جزاء نجاحه الباهر فى هذه الابتلاءات فاجتباه واتخذه خليلا :

« واتخذ الله إبراهيم خليلا »« ٢ »

وجعله للناس إماما .. وتلك نعمة كبرى يمن الله بها على عباده المقربين .. فلما نال تلك الحظوة عند الله تحركت رغبته البشرية الطبيعية فى أن يكون هذا العهد ماضيا فى ذريته ، فيكونوا أئمة للهدى ، يهدون الناس إلى الإيمان . فهل حابته السنة الإلهية وهو فى موضع التكريم والتقريب والترحيب ؟ كلا ! لقد كان الجواب حاسما : « لاينال عهدى الظالمين » أى أن العهد ماض فيهم إذا هم استقاموا على الطريق ، فإذا ظلموا فلا عهد لهم عند الله . ذلك أن الله لايمكن للناس فى الأرض لأن آباءهم أو أجدادهم كانوا مؤمنين ! بل حين يكونون هم بأنفسهم مستقيمين على الطريق .. أما الذين يرثون العهد وراثة ، أو يرثون كتاب الله وراثة - أى يتخذونه تراثا ! - فيصبح فى حسهم أنه كتاب الآباء والأجداد وليس كتابهم هم ، ولاهم مكلفون بتطبيقه ، فأولئك يقول الله فيهم وفى أمثالهم :

« فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا مافيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ؟! والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين »« ٣ » .

والذى يعنينا من هذه السنن هنا - كما أسلفنا - هو دور العقل فى تدبرها ، لاتدبرا نظريا فلسفيا يبدأ فى العقل وينتهى فى العقل كما كان شأن عقلانية الإغريق . إنما يتدبرها ليعمل - بوعى - على إقامة المجتمع الصالح الذى يستحق التمكين فى الأرض بمقتضى الوعد الربانى :

« ١ » سورة الصافات [١٠٢ - ١٠٥]

« ٢ » سورة النساء [١٢٥]

« ٣ » سورة الأعراف [١٦٩ - ١٧٠]

« وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا .. » « ١ »

وليتجنب النذير الربانى :

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم » « ٢ » .

والنذير الآخر :

« واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » « ٣ »

لسكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو قوام خيرية هذه الأمة .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ٤ »

فحين تسكت الأمة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تصيبها الفتنة ولاتصيب الذين ظلموا وحدهم ، ولكن تصيب المجموع كله لتقصيره فى مقوم أصيل من مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية .

ولاتقتصر « التوعية » السياسية على قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . إنما تتعداها إلى التوعية بالدور التاريخى والإنسانى لهذه الأمة :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » « ٥ »

والتوعية بأعداء هذه الأمة ، ومخططاتهم ضدها ، وأهدافهم من هذه المخططات ، وواجبهما إزاءهم ، وطريقة التعامل معهم فى السلم والحرب ، وقضية الولاء ومع من يكون ، وماحدوده وطبيعته .. الخ .. الخ .. مما لامجال لتفصيله هنا ، فله مباحثه الخاصة ، وإنما نتحدث هنا عن دور « العقل » فى كل ذلك .. ودوره هو تدبر السنن الربانية التى يتحصل منها الوعى الاجتماعى والوعى السياسى ، وهو أمر واجب فى الإسلام ليتم تنفيذ المنهج الربانى على وجهه الصحيح .

---

١ ـ سورة النور [٥٥]
٢ ـ سورة القتال [٣٨]
٣ ـ سورة الأنفال [٢٥]
٤ ـ سورة أل عمران [١١٠]
٥ ـ سورة البقرة [١٤٣]

خامسا : يوجه العقل إلى دراسة التاريخ :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »« ١ » .

« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مماعمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم « ٢ » ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »« ٣ » .

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟! فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »« ٤ » .

وواضح أن دراسة التاريخ المطلوبة هى للعبرة لا للتسلية وتزجية الفراغ ! ولكن ينبغى أن نعرف موطن العبرة من دراسة التاريخ ..

إن السنن الربانية التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة ، والتى يجرى قدر الله بمقتضاها فى حياة البشرية ، والتى قلنا إن العقل البشرى مدعو إلى تدبرها والتفكر فيها من أجل إقامة المجتمع الصالح القائم على المنهج الربانى .. هذه السنن - بطبيعتها - نادرا ما تتحقق بتمامها فى داخل عمر الفرد المحدود ، لأن السنن الاجتماعية بطبيعتها تستغرق أجيالا متوالية حتى يتم التحول الاجتماعى سواء إلى الخير أو إلى الشر (فيماعدا القلة النادرة التى تقتضى حكمة الله فيها تحقيق سنة بكاملها فى أمد قصير ، تأييداً لنبى أو تمكينا لجماعة مؤمنة ، كما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبناء هذه الأمة الشامخة فى سنوات قصار) .

وانظر مثلا إلى هذه السنة :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون »« ٥ » .

فالجزء الأول من هذه السنة يمثل الواقع الأوربى فى وقته الحاضر .. نسوا ماذكروا به ، وكفروا وجحدوا ، ففتح الله عليهم أبواب كل شىء ، من قوة سياسية وقوة عسكرية وقوة علمية وقوة تكنولوجية وقوة اقتصادية .. وكل

« ١ » سورة آل عمران [١٣٧]
« ٢ » اى بالتدمير عليهم لتكذيبهم
« ٣ » سورة الروم [٩]
« ٤ » سورة الحج [٤٦]
« ٥ » سورة الأنعام [٤٤]

مايمكن أن يدخل فى « أبواب كل شىء » ، وهذا الجزء وحده من هذه السنة قد استغرق قرنين كاملين من الزمان ، ولد فيه أفراد – بل أجيال – قضوا أعمارهم فى هذه الحياة ورحلوا ، ولما تتحقق بقية السنة المذكورة فى الآية ، « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » ! بل توهم أناس فى وقت من الأوقات أن هذه الأبواب المفتوحة ستظل مفتوحة إلى الأبد لاتغلق ولا تتهدم على أصحابها مهما ارتكبوا من آثام !

واليوم بدأ مفكرو الغرب أنفسهم يدركون أن « حضارتهم » آيلة الى الانهيار .. وبدأوا ينذرون قومهم إذا استمروا فى البعد عن « القيم الروحية » كما يسمونها« ١ » أن يصيبهم الدمار الذى أصاب أمما من قبلهم .. ولكن كم يستغرق ذلك من الزمان ؟ جيلا أو أجيالا كما استغرق تحقيق الجزء الأول من سنة الله !

لذلك يوجه الله « العقل » أن يتدبر التاريخ ! فالتاريخ هو المجال الواسع الذى تتحقق فيه السنن الربانية بأكملها ، سواء منها مايتحقق فى عمر الفرد ومايتحقق فى عمر الأجيال . والأغلب هو الأخير !

تدبر التاريخ إذن هو فى الواقع تدبر السنن الربانية فى واقعها التاريخى الذى يمتد خلال القرون ، ورؤية الطريقة الواقعية التى تتحقق بها تلك السنن فى حياة الأمم والأفراد ، لتتحقق العبرة الكاملة فى نفوس الناس ، فيسايروا هذه السنن ولايصادموها ، ولايقول قائل لنفسه – على سبيل المثال – هاأنذا قد عشت فى المجتمع الفاسد عمرى كله وشاركته الفساد فلا أنا أصابنى الدمار ولا المجتمع الذى عشت فيه ! ولايقول قائل لنفسه لماذا أجهد نفسى فى تقويم المجتمع من انحرافه الخلقى أو الفكرى أو الروحى .. مادام هذا المجتمع يملك القوة العسكرية والقوة السياسية والقوة الاقتصادية التى تسنده وتمنعه من الدمار ! ولايقول قائل لنفسه : ماقيمة « القيم » ؟ وما فائدة « الدين » ؟ ومامعنى « الأخلاق » ؟ إذا كان يمكن للمجتمع أن يعيش متماسكا قويا بغير ذلك كله عدة قرون ؟!

تلك عبرة دراسة التاريخ ...

إن التاريخ لايدرس – من وجهة النظر الإسلامية – لتسجيل انتصارات

« ١ » لأنهم مازالوا فى جاهليتهم يكرهون أن يذكروا الدين باسمه الصريح !

الجيوش وانكساراتها ، ونشأة الدول وزوالها مجردة عن القيم المصاحبة لها ، وعن مجرى السنن الربانية فيها . إنمـا يدرس بـادئ ذى بدء لتتبـع حياة « الإنسان » فى حالتيه : حالة الهدى وحالة الضلال ، ومايجرى خلال كل من الحالتين من أحداث ، ونتائج تترتب على الأحداث ، مضبوطة بالمعيـار الذى لايخطئ ، معيار السنة الربانية الحتمية التحقيق ..

و« الإنسان » ابتداء هو ذلك المخلوق الذى خلقه الله من قبضـة من طين الأرض ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، لا « الحيوان » الذى ابتدعه دارون ، ولا « المادة » التى زعمها التفسير المادى للتاريخ .. ومقياس علوه وهبوطه ليس هو الإنتاج المادى والعمارة المادية للأرض :

« كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها .. »

ولكنهم كانوا جاهليين ، لأنهم رفضوا الهدى الربانى ، وأصابهم فى النهاية مايصيب الجاهلية من الدمار ، على الرغم من كل القوة التى يملكونها ، ومن إثارة الأرض وعمارتها ..

إنما مقايس علو « الإنسان » أو هبوطه هو مقياس « الإنسانية » .. مقياس التزامه بالهدى الربانى الذى يحقق - وحده - إنسانية الإنسان ، والتزامه بمقتضيات الخلافة الراشدة ، أى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى لا بأى منهج سواه .

وحين يتحقق هذه الوعى التاريخى - لا فى صورة فلسفية ذهنية تجريدية - ولكن فى صورة وعى حركى واقعى ، يكون هذا عونا كبيرا للإنسان الراشد ، يوجهه إلى السلوك الناضج المستقيم ، الذى يتحقق به الوجود الأعلى للإنسان .

* * *

تلك عقلانية الإسلام .. عقلانية سليمة ناضجة تمثل الرشد البشرى فى أعلى حالاته .

عقلانية تعطى العقل مكانه اللائق به ، بلا إفراط ولا تفريط .. فلا هى تغالى فى تقدير قيمة العقل فتقحمه فيما ليس من شئونه أو تجعله المرجع الأخير لكل شىء حتى الوحى الربانى ، ولا هى تبخسه قدره فتمنعه من مزاولة نشاطه فى ميادينه الطبيعية التى يصلح لها ويحسن العمل فيها .

عقلانية تكل إلى العقل مهام خطيرة وواسعة .. تكل إليه مهمة حراسة الوحى

الذى تكفل بحفظه الله» ١ » من كل تأويل فاسد مضل ، وحراسة أحكام الله من الانحـراف بها عن « مقـاصد الشـريعة » ، وحـراسة المجتمـع من الآفـات الاجتماعية والسياسية والفكرية والخلقية التى تؤدى إلى تدميره .. كما تكل إليه مهمة التقدم العلمى والبحث التجريبى وعمارة الأرض .

ولكنها لاتكل إليه - ولاتسمح له - أن يحيد عن الوحى الربانى والمنهج الربانى ، ولا أن يجتهد من عنده بما لم يأذن به الله ، لأنـه عندئـذ يجانب الصواب ، ويحيد عن الخير ، ويمكن للفساد :

وتلك هى العقـلانية المتـوازنة .. أين منهـا عقلانيـة الإغريق الغـابـرة ، والعقلانية التجريبية التى يمارسها الغرب فى جاهلية القرن التاسع عشر والقرن العشرين !

« ١ » قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [سورة الحجر ٩]

القومية والوطنية

الوطنية معناها أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن ، والتعصب له ، أيا كانت أصولهم التى ينتمون إليها ، وأجناسهم التى انحدروا منها . أى أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس .

والقومية معناها أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغى أن يكون ولاؤهم واحدا وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم ، وإن كان معناها أيضا السعى فى النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القومية الواحدة فى وطن شامل ، فيكون الولاء للقومية مصحوبا بالولاء للأرض .. ولكن الولاء للقومية يظل هو الأصل ولو لم تتحقق وحدة الأرض .

وأيا كانت التعريفات النظرية للقومية والوطنية ، فالذى يهمنا بادئ ذى بدء أن نتعرف على منشئها فى أوربا ، ثم آثارها التى ترتبت عليها فى التاريخ البشرى الحديث .

كانت أوربا فى وقت من الأوقات وحدة سياسية تجمع قوميات ولغات وأجناسا شتى ، فى ظل الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا التجمع يشكل « أمة » بالمعنى الحقيقى . فقد كانت الدولة الأم هى « الأمة » فى نظر نفسها وفى نظر المستعمرات التى استولت عليها وألحقتها بالإمبراطورية ، كما كانت الدولة الأم هى « السيد » والمستعمرات هى « العبيد » . ولم تمتزج شعوب الإمبراطورية قط فى وحدة حقيقية كالتى جمعت الأمة الإسلامية - أمة العقيدة - التى انصهرت القوميات والأجناس واللغات فيها فى بوتقة العقيدة فصارت أمة واحدة على مستوى واحد ، هى « الأمة الاسلامية ».

فى مجتمع المدينة كان بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى فى القمة من ذلك المجتمع ، مع السادة من قريش ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « سلمان منا أهل البيت » . وكان عمر رضى الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » ، إشارة إلى بلال رضى الله عنه ، فكأنه - وهو فى الذؤابة من قريش - يقول عن بلال : « سيدنا بلال » وهى قمة لم تصل إليها البشرية فى تاريخها كله إلا فى أمة العقيدة ..

ثم انساح المسلمون فى الأرض وفتحوا مافتحوا من البلاد لا لينشئوا

إمبراطورية ولكن لينشروا العقيدة . لم تكن توسعة الأرض قط هى التى تهمهم أو تدفعهم إلى الخروج من أرضهم ، ولم يكن ضم موارد جديدة ، واستخدامها - أو تسخيرها - للدولة الأم لتغنى وتكتنز ، خاطرا يدفع قائدا من القواد أو جنديا من الجنود . إنما كان الدافع الأصيل هو إزالة « الجاهلية » ليحل محلها « الإسلام » دون إكراه للناس على عقيدة الإسلام . إزالة الجاهلية ممثلة فى دول وجيوش ونظم لاتؤمن بالله ولا تطبق المنهج الربانى ، ليحل محلها النظام الإسلامى ممثلا فى تطبيق شريعة الله ، وتطبيق العدل الربانى والحكمة الربانية ، مع ترك الناس أحرارا فى عقائدهم بإذن الدولة الإسلامية بل بحراستها وحمايتها !

إنها تجربة فريدة فى التاريخ ، لم تتكرر ، وليس من شأنها أن تتكرر مع أى نظام آخر ، إلا أن يكون نظاما قائما على العقيدة الصحيحة فى الله ، مطبقا لشريعة الله .

ومهما يكن من أمر فإن أوربا لم تعرف هذا اللون من التجمع فى تاريخها كله ، حتى بعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية - أو ادعى ذلك - وفرضها على الإمبراطورية كلها عام ٣٢٥ م .

وقد كان المفروض حين تصبح الإمبراطورية مسيحية أن يجمعها ذلك اللون من التجمع الذى وحد الأمة الإسلامية فيما بعد ، وصهر أجناسها وألوانها ولغاتها فى كيان واحد متحد ، ليس فيه أتباع ومتبوعون ، بل فيه « مسلمون » على قدم المساواة .

ولاشك أن دخول الإمبراطورية فى المسيحية قد أنشأ - لفترة من الوقت - لونا من التجمع الشعورى .. وقد كان هذا هو هدف قسطنطين الحقيقى من دخوله المسيحية ، فلم يكن همه « العقيدة » إنما كان همه توحيد الإمبراطورية التى كانت توشك على التمزق والافتراق .. ولكن هذا التجمع لم يرتق قط إلى الصورة التى مارستها الأمة الإسلامية لأكثر من سبب واحد .

أحد الاسباب - أو لعله السبب الرئيسى - أن الدين لم يصل إلى الامبراطورية فى صورته الكاملة ، إنما وصل إليها - كما بينا فى التمهيد الأول من هذا الكتاب - عقيدة مفصولة عن الشريعة . وقد كان لتلك العقيدة سلطانها على القلوب ولا ريب ، ولكن لايستوى الدينان : دين متكامل يحكم مشاعر القلب وواقع الحياة ، ودين ممسوخ ، يقبع فى وجدانات الناس ، وقد

يحكم بعض سلوكهم الشخصى ، ولكنه عاجز عن حكم الواقع العملى للناس ، يستكبر عنه الأباطرة فيحكمون بالقانون الرومانى ولايحكمون بشرائـع ذلك الدين .. لايستوى الدينان فى اثرهما على الواقع ، ولا فى قدرتهما على تجميع الناس فى صورة « أمة » موحدة :

« ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ؟ »« ١ »

والسبب الثانى أن العقيدة حين وصلت للامبراطورية الرومانية - أو حين فرضها عليها الإمبراطور قسطنطين - لم تكن على صورة واحدة ، فقد كانت قد انقسمت إلى مذاهب ومعتقدات شتى - لا فى الفروع كما هو شأن المذاهب الاسلامية - إنما فى أصل الاعتقاد ، بحيث لايمكن أن يلتقى أصحاب مذهب ومذهب على شيء . فالدين قد انحصر فى العقيدة ، والعقيدة أصبحت عقائد مختلفة متعارضة ومتعادية .. ويكفى نموذج واحد من هذا التعارض والعداء ، هو ماكان بين الدولة الرومانية وأقباط مصر .. فقد كانوا كلهم « مسيحيين » ولكن الخلاف بين مذهب الدولة الكاثوليكى ومذهب الأقباط الأرثوذكسى كان من السعة وعدم الالتقاء بحيث كان الأقباط يسامون الخسف والعذاب من أجل عقيدتهم ، حتى ليستخفون بها عن أعين الدولة ، ويقام فى الكنيسة الواحدة عبادتان مختلفتان ، إحداهما علوية ظاهرة والأخرى سفلية سرية ، كما كان الحال فى كنيسة « مار» ٢ «جرجس » حيث كانت تقام صلاة علنية على مذهب الدولة فى أروقة الكنيسة العلوية الظاهرة ، وصلاة أخرى سرية فى سراديب تحتية خفية ، يختفى فيها الأقباط عن عيون الدولة الرومانيـة التى تتعقبهم بالعذاب والإرهاب .. وشأن هذا الخلاف أن يمزق ويفرق لا أن يجمع الصفوف ويوحد البناء .

وصحيح أن أوربا فى مجموعها كانت كاثوليكية لعدة قرون ، وكان اتحادها فى المذهب عاملا من عوامل تجمعها ، كما سنبين بعد ، ولكن حجم هذا التجمع وتأثيره فى حياة الناس كان يمكن ان يكون اكبر من واقعه الذى كان عليه ، لو كان فى حس أصحابه ان دينهم واحد فى كل الأرض ، وانهم ليسوا مجرد قطاع

---

١ ـ سورة الزمر [٢٩]

٢ ـ « مار » جرجس اى الشهيد جرجس . وهى ليست « مارى » جرجس كما تجرى على السنة العامة فى مصر .

من هذا الدين - وإن يكن القطاع الأعظم - تغايره بقية القطاعات فى أصول الاعتقاد » ١ » .

فإذا اجتمع إلى هذين السببين أن اللاتينية - لغة الكتاب المقدس » ٢ » - لم تكن قط لغة الكلام فى الإمبراطورية الرومانية ، وإنما لغة المثقفين ورجال الدين فقط ، إلى جانب كونها اللغة » الرسمية « للدولة ، وإنما الشعوب داخل الإمبراطورية تتكلم لغات أخرى يختلف بعضها عن بعض اختلافا رئيسيا .

إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها وضح لنا أن التجمع الذى تم فى ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية لم يكن من شأنه أن يرتقى إلى تكوين » أمة « واحدة على النسق الذى تم به الأمر فى ظل الإسلام ، الذى لم تنفصل فيه الشريعة عن العقيدة ، والذى لم تحدث فيه خلافات عقيدية تمزق وحدته ، والذى كانت لغته - لفترة طويلة من الوقت - لغة واحدة هى لغة القرآن .

ومع ذلك كله فقد كان لسلطان العقيدة فى نفوس المسيحيين الأوربيين ، وسلطان الكنيسة البابوية من جهة أخرى ، تأثير ملموس لاشك فيه ، أوجد لونا من التجمع والوحدة رغم كل أسباب الفرقة والخلاف .

ولكن حماقات الكنيسة التى أشرنا إليها فى التمهيد الأول مالبثت أن عملت على تقويض ذلك التجمع من أكثر من باب ..

لقد كان طغيانها فى كل جانب مثيرا لردود فعل مختلفة ، تلتقى كلها عند الرغبة فى تحطيم نفوذ الكنيسة والتفلت منه ، فضلا عما حدث فيما بعد من النفور من الدين ذاته والانسلاخ منه .

وإذ كان الدين ونفوذ الكنيسة هما الرباط الذى أوجد ذلك القدر من التجمع فى أوربا ، فلنا أن نتوقع أن يكون أثر ردود الفعل المشار إليها هو انفراط عقد هذا التجمع وفصم روابطه .. وذلك الذى كان !

كان تمرد الملوك على طغيان الكنيسة السياسى أول بادرة من بوادر التمزق فى الوحدة الأوربية . ولكن هذا التمرد وحده كان يمكن أن يظل محدود الأثر لو لم

» ١ « الاختلاف الذى يمكن أن يقارن بذلك فى العالم الاسلامى هو الخلاف بين السنة والشيعة ولكن ينبغى أن نتذكر أن الشيعة والسنة لم يختلفوا فى قضية الالوهية - وهى محور الخلاف الرئيسى بين المذاهب المسيحية المختلفة - ولا فى نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنما كان فى مبدئه خلافا سياسيا حول خلافة على بن ابى طالب كرم الله وجهه ثم تطور إلى أمور أخرى .

» ٢ « كانت لغة الكتاب المقدس هى الاغريقية واللاتينية ولم تكن ايهما لغة شعبية .

يصاحبه فى ذات الفترة تقريبا تمرد من نوع آخر وفى جهة أخرى ، هو أشد خطرا على الوحدة من تمرد الملوك .. ذلك هو تمرد رجال الدين ، المعروف باسم « حركة الإصلاح الدينى » !

لقد كان تمرد الملوك نزاعا سياسيا على السلطة الزمنية . البابا يدعى لنفسه السلطة الروحية والسلطة الزمنية كليهما ، والملوك يطالبون بالسلطة الزمنية أن تكون فى أيديهم ، على أن تبقى السلطة الروحية وحدها فى يد البابا .. وإلى هنا كان يمكن أن يستقل الملوك بالسلطة الزمنية ولكن تظل الوحدة الدينية قائمة ، ويظل السلطان الروحى للبابا قائما ، فتظل الدعامتان اللتـان كونتـا الوحدة الأوربية قائمتين .

ولكن حركة الاصلاح الدينى كانت موجهة إلى صميم العقيدة الجامعة ، وهى العقيدة الكاثوليكية التى لم تكن - حتى ذلك الحين - موضع نزاع فى داخل أوربا .

كان من نتيجة الطغيان الروحى للبابا ورجال دينـه أن رغبت « كنائس » مختلفة فى أوربا أن تنفصل عن كنيسة روما وتستقل عنها ، متخذة فى الغالب صورة خلاف مذهبى مع الكاثوليكية التى كانت تخضع لها كل الكنائس من قبل ، فانفصلت كنيسة بريطانيا وكنيسة ألمانيا وتبعتها كنائس أخرى ، وحرص الملوك على السيطرة على تلك الحركات لا رغبة فى الإصلاح الدينى الذى كانت تنشق تلك الكنائس عن كنيسة روما باسمه ، ولا رغبة فى تنمية روح التدين الحقيقية عند شعوبهم ، فليس شىء من ذلك فى صالح السيـطرة السياسيـة المطلقة التى ادعوها لأنفسهم حين طالبوا بفصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية ، ولكن لأن كل حركة تمرد على الكنيسة البابوية من أى نوع هى كسب لهم فى معركتهم ضدها ، لأنها تضعفهـا وتضعف سلطانها ، فيسهـل عليهم التخلص من نفوذها .

يقول ولز فى كتاب « معالم تاريخ الانسانية » (جـ ٢ مقتطفات من ص ٩٨٩ - ٩٩١ من الترجمة العربية) :

« كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الأمراء وذوى اليسار والاقتدار من الناس . وكذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها . وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الأولى أن جعلتهم ينكرون تدخلها فى شئونهم ، وقيودها الخلقية عليهم ، ومدعياتهـا بالسيـادة العليا فـوقهم ،

وادعاءها الحق فى فرض الضرائب وفى حل ارتباطات الولاء .. لذلك كفوا عن احترام مالها من سلطان وممتلكات .

« ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر من الأمراء والحكام طوال العصور الوسطى بأكملها ، بيد أن الأمراء لم يشرعوا فى التفكير جديا فى الانفصال عن المذهب الكاثوليكى وإقامة كنائس جزئية منفصلة إلا عندما أخذت الكنيسة فى القرن السادس عشر تنضم علنا لخصمها القديم - الإمبراطور - عندما قدمت إليه التأييد وقبلت منه المساعدة فى حملتها على الهراطقة . وماكانوا ليقدموا على ذلك أبدا لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت .

« ولما انفصلت انجلترة واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك ، وشمال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة فى أيديهم .. وذلك أنهم كانوا لايسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذى يمكنهم من فصم العلاقة مع روما . فأما ماتجاوز ذلك ، وأما أى انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع البدائية ، أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس فكانوا يقاومونها » .

والذى يهمنا الآن - بصدد موضوعنا الذى نعالجه - أن حركات الانفصال هذه - أياكان العنوان الذى قامت تحته - كانت هى البداية لظهور القوميات فى أوربا .

يقول الاستاد الندوى (ص ٢١١ - ٢١٢ من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ») .

« والدين السماوى مهما تحرف وتغير لايعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولايفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين ، وجعلت من العالم النصرانى عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فقلت العصبية القومية والنعرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية رأى أن من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان بنى جنسه ، ونجح فى عمله نجاحا لايستهان بقدره . وانهزمت الكنيسة اللاتينية فى عاقبة الأمر فانفرط عقدها ، واستقلت الأمم ، وأصبحت لاتربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد

استقلالا فى شئونها وتشتتا ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها فى أوربا قويت العصبية القومية والوطنية . وكان الدين والقومية ككفتى ميزان ، كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى .. ومعلوم ان كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة منافستها راجحة . وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الانجليزى المعروف لورد لوثين - السفير البريطانى فى أمريكا - فى خطبته التى القاها فى حفلة جامعة عليكرة فى يناير سنة ١٩٣٨ م » .

وربما يعجب الإنسان لأول وهلة حين يعرف أن « حركة الإصلاح الدينى » هذه كانت نابعة من مؤثرات إسلامية ، ومع ذلك لم تؤت الثمار الطيبة التى كان يمكن أن تنشأ عنها . ولكن العجب يزول حين يدرك الإنسان ان أوربا - وهى تقتبس جزئيات من الحياة الإسلامية - كانت ترفض الإسلام ذاته بدافع العصبية الصليبية . ومن ثم يضيع الخير الجزئى الذى اقتبسته من الإسلام !

ولسنا هنا بصدد رصد المؤثرات الإسلامية التى انتجت حركة الاصلاح الدينى فى أوربا . ويكفينا أن نشير إلى كلمة القارو القرطبى التى نقلناها فى الفصل السابق عن تأثر شباب النصارى فى الأندلس بالوجود الإسلامى هناك ، إلى حد أنهم كانوا ينظرون بزراية إلى كتب اللاهوت المسيحى ويعتبرونها غير جديرة بالالتفات . ولنا أن نتوقع أن تأثيرات مشابهة - ولو كانت على درجة أقل - قد سرت فى أوربا عند احتكاكها بالمسلمين سواء فى الحروب الصليبية أو فى الاحتكاك السلمى حين بدأت أوربا ترسل مبعوثيها إلى مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها من البلاد الإسلامية ليتعلموا العلم ، حيث لم يكن هناك علم فى الأرض إلا عند المسلمين .

وقد رأى النصارى عند احتكاكهم بالمسلمين عالما مختلفا تمام الاختلاف ، عالما لا كنيسة فيه ولا « بابا » ولا رجال دين .. إنما فيه علماء يتفقهون فى الدين ، وغالبا مايتفقهون فى علوم أخرى مع العلوم الدينية كالطب او الفلك او الرياضيات .. الخ .. بلا تعارض بين تفقههم هنا وهناك .. وليس لهم - مع تفقههم - كهانة على الناس ولا سلطان إلا توقير العلماء من أجل علمهم فحسب ، ولا وساطة لهم بين الناس وبين ربهم الذى يعلمهم أنه لا وسطاء ولا شفعاء عنده ، وأنه ماعلى العباد إلا أن يدعوه ، فيستجيب لهم بلا وسيط :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » « ١ »

« ١ » سورة غافر [٦٠]

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » « ١ »

عندئذ تحركت نفوس الذين يرغبون فى الاصلاح لمحاولة إصلاح مفاسد الكنيسة المتراكمة خلال القرون ، وخلع السلطان الطاغى الذى فرضه البابا ورجاله على الناس باسم الدين . ولكن محاولاتهم كانت كالرقعة فى الثوب الخلق بسبب رفضهم الدخول فى الإسلام ، وسعيهم إلى الإصلاح بغير عدته الحقيقية التى تؤدى إليه .. واستغل الملوك هذه الحركات لحسابهم الخاص كما أسلفنا ، لايريدون الإصلاح الدينى الحقيقى ، ولايريدون للناس أن يستقيموا على دين صحيح فيخرجوا على طاعتهم ! إنما رأوا فيها أداة تساعدهم على الانسلاخ من سلطان البابا فاستغلوها فى هذه الحدود .

ولم يكن الملوك وحدهم وراء اللعبة ، إنما كان وراءها كذلك اليهود ، المتربصون لأية فرصة تسنح لهم للانتقام من النصارى الذين اضطهدوهم وأذلوهم على أساس انهم تسببوا فى صلب السيد المسيح« ٢ » . فلما قامت حركات تؤذن بتفريق كلمة النصارى وتشتيت سلطان الكنيسة ، كان من صالحهم ولاشك أن يحتضنوها ويوجهوها خلسة أو علانية لتوسيع الشقة بينها وبين الكنيسة الأصلية ، وكل فُرقة - سواء قامت باسم الاصلاح او بهدف الإفساد - هى فى النهاية فى صالح اليهود مادامت لاتؤدى إلى إصلاح حقيقى ! وإن صلة اليهود بالبروتستانتية بالذات لأمر معلوم لكل من يدرس تاريخ تلك الحركة ، وإن أنكر تلك الصلة هؤلاء وهؤلاء ! « ٣ » .

هكذا كان مولد القوميات فى أوربا ..

حركات إصلاحية مبتورة غير ناضجة ، استغلها ذوو الأهواء لحسابهم الخاص ، فأفسدوها وحولوها إلى اتجاه شرير ..

إن القومية فى ذاتها نزعة غير إنسانية ، لايتوقع أن ينشأ منها إلا الشر .

إنها بادئ ذى بدء تحد عالم « الإنسان »،فبدلا من أن يكون أفقه العالم

« ١ » سورة البقرة [١٨٦]

« ٢ » يعلم المسلمون من القرآن أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، لقوله تعالى : « وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » [سورة النساء ١٥٧ - ١٥٨] ولكن هذا لايعفى اليهود فى الحقيقة من وصمة الاجرام ، فقد ظلوا يحرضون الحاكم الرومانى بيلاطس حتى أصدر حكمه بصلب المسيح . فاذا كان الله قد رفعه إليه ولم يمكنهم من صلبه فإن جريمة التحريض باقية تصم اليهود بالكفر والإجرام .

« ٣ » كما تنكر ذلك فى الوقت الحاضر حركة « شهود يهوه » وتدعى أنها مسيحية وهى يهودية لحما ودما .

والانسانية ، إذا أفقه هو قومه ، والرقعة الضئيلة من هذا العالم التى يسكن فيها قومه .. وبدلا من أن تكون قيمه « معانى » رفيعة من التى تقاس بها رفعة الانسان ، ويتميز بها إنسان عن إنسان ، إذا قيمه هى مصالح قومه ، ومصالح هذه الرقعة الضئيلة من الأرض التى يسكن فيها قومه ، وهى مصالح مادية يتعارك عليها مع غيره من الهابطين مثله إلى دركه ، « كالمصالح » التى يتعارك عليها الحيوان ، من أرض وكلأ إذا كان من الضعاف أكلة العشب ، أو أرض وصيد إذا كان من الوحوش التى يفترس القوى منها الضعيف !

ثم إنها تقيم تجمعها على الأمور التى لاخيار فيها للإنسان .. من المولد فى أرض معينة ، والكلام بلغة الأرض التى ولد فيها ، والمصالح المادية القاهرة ، فى الوقت الذى تنبذ فيه كل الأمور التى يكون للانسان فيها الخيار ، والتى يتفاضل فيها إنسان على إنسان بناء على ذلك الخيار .. تنبذ العقيدة فى الله ، التى يختار فيها الإنسان بين الايمان والكفر ، ويتفاضل الناس فيها على أساس الايمان والكفر .. وتنبذ القيم المنبثقة من العقيدة ، وهى نظافة المشاعر ونظافة السلوك مع الاصدقاء والأعداء سواء .. أى الصدق مع كل الناس ، والأمانة مع كل الناس ، والعدل مع كل الناس ، ثم الحب فى الله والبغض فى الله (لا للمصالح الأرضية) أى الحب لمن هو جدير بالحب بالفعل بالمقاييس الإنسانية الرفيعة ، والبغض لمن هو جدير بالبغض حقا بتلك المقاييس .. وهى القيم التى يختار فيها الإنسان بين الالتزام وعدم الالتزام .. اى بين الرفعة والهبوط ..

انظر فى مقابل ذلك هذه الآية الكريمة من القرآن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل **لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »« ١ » .

فكون الناس شعوبا وقبائل ، هذه حقيقة واقعة ملموسة ، وهى من إرادة الله لأنه هو الذى « جعل » الناس كذلك ، ولكن الله لم يشأ سبحانه أن ينحبس الناس فى داخل شعوبهم وقبائلهم وينغلقوا فى حدودها وهو ماتفعله القوميات والوطنيات بادئ ذيء بدء ، ولا أراد للناس أن يلتقوا من داخل الاطار الذى تشكله شعوبهم وقبائلهم فى عراك مع الشعوب والقبائل الأخرى ، وهو ماتفعله القوميات والوطنيات بعد ذلك،أى بعد انحسارها فى داخل حدودها ، وبحثها عن « مصالحها القومية » !

« ١ » سورة الحجرات [١٣]

إنما جعل الله الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا .. يتعارفوا كما يتعارف بنو الانسان .. لأن الخطاب فى الآية كان للناس : « يا أيها الناس .. » لا للوحوش ولا للأفاعى ولا للحشرات ! ثم قرر الله قاعدة التعارف التى تليق ببنى الإنسان حين يتعارفون ، وهى التقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وهى الكلمة الجامعة لكل مافى الحياة الإنسانية من معانى الخير ..

ولكن الجاهلية الأوربية ماكان لها أن تهتدى إلى هذه المعانى وهى ترفض أصل الهدى ومنبعه ، وهو الإسلام .. ولو اهتدت إلى شيء من تلك المعانى لاستصغرت الأفق الذى تدور فيه القومية والوطنية وأحست نحوه بالازدراء ! ففى اللحظة التى تحس أن الرباط الحقيقى الذى يربط « نفسا إنسانية » بنفس أخرى إنسانية ليس هو المصالح المادية ، ليس هو الأرض والكلأ والمتاع الحسى ، وليس هو الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها من الأرض والمولد واللسان والدم .. إنما هو « المشاعر » التى ميزت الإنسان من لحظة مولده عن سائر المخلوقات من دونه ، وهى العقيدة الواعية فى الله ، والقيم المتعلقة بالعقيدة من نظافة سلوكية مع كل الناس ، وحبّ فى الله وبغض فى الله .. فى اللحظة التى ترتفع فيها إلى ذلك المستوى ستحس على الفور بأن ماتمارسه القوميات والوطنيات هبوط لايليق « بالإنسان » ! ونكسة إلى الوراء فى ميزان « الإنسانية » وليس تقدما إلى الامام !

وعلى الرغم من أن هذه الجاهليات قد حاولت أن تستعير من الإسلام رقعة ترقع بها ثوبها الخلق ، فيمايسمى بحركة الإصلاح الدينى ، فإن رفضها الأساسى لأصل الهدى وقاعدته الحقيقية قد جعل هذه الرقعة تضيع ضياعا كاملا فى ذلك الثوب .. وسرعان مابليت الرقعة كما بلى الثوب من قبل ، وألقى صاحب الثوب ثوبه البالى كله ، وخرج من الدين جملة ، واستبدل به قوميات علمانية لا صلة لها بالدين ، أقصى مايتسع صدرها له أن تتسامح فى وجوده ، فلا تنبذ اصحابه ولاتطاردهم ، وإن كانت كثيرا مايضيق صدرها به وبهم ، فتلفظهم لفظا وتلقى بهم خارج الساحة ، إن لم تفعل ماهو أسوأ من ذلك كثيرا ، فتلقيهم فى غياهب السجون !

على أن الشر الذى نجم من القوميات والوطنيات لم يكن شرا شخصيا ينتهى أمره بهبوط أصحابه عن إنسانيتهم،وقبوعهم فى داخل حدودهم وهم متشحون بذلك الهبوط .

كلا ! ليس ذلك من « شيم » القوميات والوطنيات،إلا ان تكون فى حالة من الضعف الشديد لاتقدر فيها على العدوان ! أما إن كانت فى حالتها « الطبيعية » أى تملك وسائل القوة ، فإن أول ماتتجه إليه هو السعى إلى توسيع رقعتها على حساب قومية أخرى أضعف منها ، أو تظن فيها أنها أضعف منها ! كمايسعى الوحش إلى الصدام مع من يتوسم فيه الضعف ليفترسه !

يقول الاستاذ الندوى بعد النص الذى نقلناه :

« لما قضت حركة لوثر التى تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية انقسمت هذه القارة فى إمارات شعبية مختلفة ، واصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرا خالدا على أمن العالم »« ١ » .

وبالفعل نشب صراع عنيف داخل أوربا بين هذه القوميات الناشئة بعضها وبعض .

ولنأخذ مثالا واحدا على ذلك مايعرف فى التاريخ الأوربى بالحروب الإيطالية .

يقول الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوى أستاذ التاريخ الحديث بقسم الدراسات العليا بكلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر فى كتابه « أوربا فى مطلع العصور الحديثة » تحت عنوان « تعريف بمصطلح الحروب الإيطالية » :

« الحروب الايطالية هى حروب منقطعة نشبت بين فرنسا وأسبانيا خلال فترة استطالت خمسة وستين عاما (١٤٩٤ - ١٥٥٩) وكانت هذه الحروب مظهرا من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ فى أوربا ، والرغبة فى التوسع الإقليمى داخل القارة ، وقد بدأ هذا التنافس بين فرنسا واسبانيا قبل ان يلفظ القرن الخامس عشر أنفاسه الأخيرة ، واقترن بصراع حربى مرير خاضته الدولتان ، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانا لتصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التى تطورت بعد ذلك إلى نضال أوربى اتسع نطاقه وانتقل إلى ميادين متعددة خارج شبة الجزيرة الإيطالية »« ٢ » .

ثم يقول بعد ذلك بصفحات تحت عنوان « الموقف الدولى عند نشوب الحروب الايطالية » :

« ١ » ص ٢١٢ من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

« ٢ » ص ١٥٤ من الكتاب المشار اليه .

« كانت فرنسا وأسبانيا قد تطلعتا إلى إيطاليا واستهدفتا تحقيق غرضين هما : التوسع الإقليمى بالاستيلاء على ممتلكات جديدة فى شبه الجزيرة الايطالية ، ثم السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الأوربية . كانت كل منهما تمثل الدولة الملكية الموحدة ذات الحكومة المركزية ، وكانت كل منهما أيضا ، (والقرن الخامس عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة) ، فى طليعة الدول اللاتينية والكاثوليكية فى غرب أوربا ، وقد بلغت كلتاهما مستوى من التقدم الحضارى - الثقافى والمادى - يفوق كثيرا المستوى السائد فى شرقى أوربا ، وكان من المتوقع أن تركز هاتان الدولتان جهودهما لتنشيط حركة البعوث الكشفية الجغرافية لتحقيق مزيد من النجاح بعد أن بدت تباشير اكتشاف عالم جديد يتيح آفاقا جديدة رحيبة للتجارة والثراء والقوة ، ولكن بدد ملوك أسبانيا وفرنسا قواهم طوال فترة امتدت زهاء خمسة وستين عاما فى صراع مرير استهدف السيطرة على إيطاليا ، وأنزل بهم جميعا أضرارا فادحة ، وأذل بلادا متحضرة شهدت مولد النهضة الأوربية فى فجر التاريخ الحديث .. وقد أدى هذا الصراع إلى أفول النهضة الايطالية ، وخضوع إيطاليا لصرامة الحكم الأجنبى » « ١ »

ولنستعرض فقط بعض عناوين الكتاب ذات الدلالة على الدوامة التى اجتاحت أوربا فى ذلك الحين بسبب التنافسات القومية : أحلام شارل الثامن ملك فرنسا - مقدمات التدخل الفرنسى فى إيطاليا - الزحف الفرنسى الخاطف على إيطاليا - نجاح انسحاب الجيش الفرنسى من إيطاليا - فرنسا تكتسح دوقية ميلان - فرنسا تروم استكمال سيطرتها على إيطاليا - هزيمة ملكة نابولى - بابا جديد يكتل نصف أوربا ضد جمهورية البندقية - الحلف المقدس ضد فرنسا سنة ١٥١١ - انتصار الفرنسيين فى معركة رافنا سنة ١٥١٢ - توسيع قاعدة الحلف المقدس ضد فرنسا - انتكاس فرنسا عسكريا - انتقام البابا - أطماع البابا - عودة إلى سياسة الأحلاف العسكرية - القوات السويسرية تحسم الموقف لصالح حلف مالين - أطماع فرنسوا الأول ملك فرنسا - موقعة مارينيان ونتائجها - اشتداد المنافسة بين ملكى فرنسا وأسبانيا على منصب الإمبراطور - انتخاب ملك اسبانيا

---

١ . ص ١٧٣ - ١٧٤ من المرجع السابق .

إمبراطورا - عودة إلى الصدام المسلح - عدوان ثلاثى على فرنسا - معركة باڤى (٢٤ من فبراير ١٥٢٥) - الموقف الداخلى فى فرنسا بعد كارثة باڤى - حملة سنة ١٥٢٨ - فرنسا تحرز انتصارات خاطفة - جيش فرنسى جنوبى إيطاليا يضطر إلى التسليم - هزيمة جيش فرنسى فى شمالى إيطاليا وأسر قائده - أسباب التعجيل فى عقد الصلح - تجدد الحرب ومعركة سيريزول - استمرار الصراع بين فرنسا وأسبانيا على عهد هنرى الثانى - الصدام المسلح بين فرنسا والإمبراطورية - استمرار الصراع الحربى على عهد فيليب الثانى - البابا يورط ملك فرنسا فى صدام مسلح ضد ملك أسبانيا الجديد - فرنسا تتعرض لهزيمة محققة - فرنسا تنتزع ثغر كاليه من انجلترا - نهاية الحروب الايطالية !!

وهذه كلها حرب واحدة من الحروب العديدة التى جرت فى أوربا على فترات متتابعة .. وتكفى حروب نابليون الشهيرة مثلا ثانيا على تلك الروح الشريرة التى اجتاحت أوربا منذ ظهرت فيها حمى القومية ، ولسنا فى حاجة إلى تتبع تفصيلاتها فلن يزيدنا ذلك معرفة بتلك الروح التعسة ، كما أن قصة نابليون بصفة عامة معروفة عند كثير من القراء ..

ثم جد عامل جديد زاد من حدة الصراع .. ذلك هو الثورة الصناعية ..

إن « أخلاق » الثورة الصناعية هى « الأخلاق » اليهودية - إن سميت هذه أخلاقا - أى السعى إلى الربح بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة ، ولم يكن غريبا أن تتخلق الثورة الصناعية بهذه الأخلاق الهابطة ، مذ كانت خاضعة للسيطرة اليهودية منذ نشأتها ، كما بينا فى التمهيد الثانى من هذا الكتاب « ١ »

ولما كانت القوميات قد اتجهت أساسا إلى تحقيق « المصالح القومية » بصرف النظر تماما عن « المصالح الإنسانية » .. وإذ كانت المصالح القومية مصالح مادية بالدرجة الأولى .. فنستطيع أن نتصور الحال حين تدخل القوميات بصراعاتها المادية فى دوامة الثورة الصناعية ، فإن هذه الصراعات لابد أن تتضاعف عدة مرات ، ولابد أن تأخذ صورة الصراع المادى البحت ..

وكانت « الفلسفة » التى قام عليها هذا الصراع - إن سميت هذه فلسفة - هى الفلسفة الرأسمالية المتذرعة بقول الداروينية : « البقاء

« ١ » راجع فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا » .

للاصلح »« ١ » ولما كانت كل قومية تزعم لنفسها أنها هى الأجدر بالبقاء ، وتريد أن تثبت ذلك بالفعل ، فلنا أن نتصور كيف يعنف الصراع بين القوميات المختلفة ويصل إلى حد الوحشية ! وتموت فى دوامة الصراع الوحشى كل المعانى « الإنسانية » ويسمى هذا « تقدما » حسب التفسير الداروينى للحياة ، والتفسير المادى للتاريخ !

ومع الثورة الصناعية الراسمالية المتلبسة فى ذات الوقت بالقومية ، اتسعت رقعة « الاستعمار » .

لقد كان الاستعمار الأوربى فى منشئه دفعة صليبية بحتة .

فحين سقطت الأندلس فى يد المسيحيين اصدر البابا قرارا بتقسيم أرض « الكفار » – اى المسلمين ! – إلى دولتين هما اسبانيا والبرتغال « ٢ » ، وقامت محاكم التفتيش بمجهود وحشى ضخم للقضاء على بقايا الاسلام فى الأندلس ، فاستخدمت أبشع وسائل التعذيب التى عرفها التاريخ لمطاردة الاسلام فى كل شبر من أرض ماصار يسمى اسبانيا والبرتغال ، حتى صارت الهينمة فى جوف الليل مبررا لدخول رجال التفتيش اى بيت تسمع فيه ، لأنها مظنة قراءة القرآن سرا فى هداة الليل ، وصار وجود حمام فى أى بيت يدخله رجال التفتيش مبررا لصب افظع الوان التعذيب على أهله ، لأن الحمامات داخل البيوت كانت فى ذلك الوقت خصيصة من خصائص المسلمين ! ومع ذلك كله فقد استغرق الأمر مائتى عام حتى افلح التعذيب الوحشى فى تنصير الأندلس كلها،ومحو كل أثر للإسلام فيها .

ولما تم « رسميا » إزالة الحكم الإسلامى – أى منذ ١٤٩٢م – شجع البابا النصارى على متابعة المسلمين خارج الأندلس ، فى حرب صليبية جديدة ، بغية القضاء على الإسلام فى كل الأرض . ولكن وجود الدولة العثمانية القوية فى الشرق ، التى ازالت الدولة البيزنطية باستيلائها على القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، لم يكن يتيح للحرب الصليبية الجديدة أن تتجه إلى الشرق نحو بيت

---

١ - تفهم هذه العبارة خطا على ان - الأصلح - هو الاصلح خلقيا او معنويا او على أساس اية قيم رفيعة والتعبير فى لغته الاصلية لايحمل شيئا من هذه المعانى فكلمة Fittest معناها - الأنسب - اى الذى يحمل المواصفات التى تجعله يتفوق فى الصراع الدائر بين الكائنات وبين البيئة،لان هذه المواصفات هى الأنسب للظروف البيئية المحيطة . فحين يحدث الجفاف مثلا يكون الكائن - الانسب - هو النبات او الحيوان الذى يحتمل العطش اكثر من غيره .. ولكنها حملت معنى - الأصلح - من إيحاءات الداروينية العامة .

٢ - كلمة البرتغال - برتقال - هى كلمة عربية فقد كان المسلمون يسمون هذه المنطقة ارض البرتقال !

المقدس كما اتجهت الحروب الصليبية الأولى الفاشلة ، فحاولت الدوران حول العالم الاسلامى من جهة الغرب ، وكانت البرتغال أول دولة استجابت للتحريض البابوى وسارعت إلى تنفيذه .

فى عام ١٤٩٧ قام فاسكو داجاما برحلته الشهيرة التى كشف فيها للأوربيين طريق رأس الرجاء الصالح« ١ » وبمعاونة البحار العربى المسلم « ابن ماجد » وعلى هدى الخرائط الإسلامية للشواطىء الأفريقية والآسيوية « ٢ » ، دار فاسكوداجاما حول أفريقيا متجها إلى الشرق حتى وصل إلى جزر الهند الشرقية ، وهناك قال قولته الصليبية المشهورة ، التى تقطع بأن رحلته لم تكن « علمية » كما يدّعى لها ، ولم تكن من أجل الكشف الجغرافى الخالص كما قيل عنها ، فقد قال عند وصوله إلى تلك الجزر « الآن طوقنا عنق الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل ليختنق فيموت » !

وبعد ذلك تتابعت « الكشوف » وتتابعت « الرحلات العلمية » التى مهدت للاستعمار الصليبى للعالم الإسلامى ..

ولما برزت القوميات فى أوربا تلبست بالروح الصليبية تجاه المسلمين ، فأصبح التنافس يتمثل – من بين مايتمثل – فى التنافس على استعمار العالم الإسلامى،ومحاولة تنصير أهله عن طريق الحملات التبشيرية التى صاحبت الاستعمار الصليبى دائما ، ممهدة له أحيانا ، ومستندة إلى وجوده أحيانا ، ولكنها مصاحبة له على الدوام !

وحتى حين أصبحت تلك القوميات « علمانية » تماما لم يؤثر ذلك فى صليبية الحملات الاستعمارية ، ولاقللت مقدار ذرة من النشاط التبشيرى المصاحب للاستعمار الصليبى .

وقد يبدو ذلك متناقضا لأول وهلة .. فكيف تهمل أوربا « الدين» فى حياتها الخاصة ، ثم تتذكره فى الهجوم على العالم الإسلامى ؟ الواقع أن الذى تذكرته أوربا – ولاتزال إلى هذه اللحظة تتذكره – تجاه العالم الاسلامى ليس هو « الروح الدينية » فقد انسلخت أوربا من دينها تماما .. إنما هو « الروح الصليبية » التى كانت ذات يوم متلبسة بالدين ، ولكنها ظلت على ضراوتها حتى

« ١ » كان هذا الطريق معروفا للمسلمين قبل ذلك بعدة قرون !

« ٢ » كان لدى المسلمين خرائط دقيقة للشواطىء الأسيوية والأفريقية يستخدمونها فى رحلاتهم التجارية من شواطىء الصين شرقا إلى بريطانيا غربا وشمالا .

بعد أن فقدت منبعها الأصلى ، وصارت شيئا قائما بذاته ، لا علاقة له بتدين أصحابه .. إنما هى كراهيـة وحقد ومقت للإسـلام والمسلمين ، لا لحسـاب النصرانية كدين ، ولكن لحساب الأوروبيين بوصفهم أعداء للمسلمين .

يقول ليوبلدفايس (محمد أسد) فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » :

« إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب وبين الإسلام من جانب آخر - أى الحروب الصليبية - يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوربية . فى ذلك الحين أخذت هذه المدنية - وكانت لاتزال على اتصال بالكنيسة - تشق سبيلها بعد تلك القرون المظلمة التى تبعت انحلال رومية . حينذاك بدأت آداب أوربة ربيعا منورا جديدا . وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سبات خلفته هجرات الغزو التى قام بها القوط والهون والآفاريون . ولقد استطاعت أوربا أن تتملص من تلك الأحوال الخشنة فى أوائل القـرون الوسطى ، ثم اكتسبت وعيا ثقافيا جديدا ، وعن طريق ذلك الوعى كسبت أيضا حسا مرهفا . ولما كانت أوربة فى وسط هذا المـأزق الحرج حملتهـا الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائى بالعالم الإسلامى ..إن الحروب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية فى ذلك حاسمة لأنها حدثت فى أثناء طفولة أوربة ، فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها « ١ » ، وكانت لاتزال فى طور تشكلها . والشعوب كالأفراد ، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهرا أو باطنا مدى الحياة التالية ، وتظل تلك المؤثرات محفورة حفرا عميقا ، حتى إنه لايمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة ، والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة ، ثم يندر أن تزول آثارها تماما . وهكذا كان شأن الحروب الصليبية ، فإنها أحدثت أثرا من أعمق الآثار وابقاها فى نفسية الشعب الأوربى . وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتهـا تلك الحروب فى زمنها لايمكن أن تقارن بشىء خبرته أوربة من قبل ولااتفق لها من بعد ..

« ومـع هذا كله فـإن أوربة قـد استفادت كثيـرا من هـذا النـزاع . إن « النهضـة » أو إحياء الفنـون والعلوم الأوروبية بـاستمدادهـا الواسع من

« ١ » يقصد : اخذت تظهر .

المصادر الاسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوربة أكثر مما استفاد العالم الاسلامى ، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل : وذلك بأن تنقص من بغضائها للاسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ، ثم استحالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم » ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى ، رجلا كان أم امراة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى . ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربة شيعا ، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى ، ولكن العداء للإسلام كان عاما فيها كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ولكن العداء للإسلام استمر .

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفورا قديما مثل هذا – وقد كان دينيا فى أساسه وممكنا فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية – يستمر فى أوربة فى زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قضية من قضايا الماضى !

« ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب أبدا ، فإنه من المشهور فى علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة – والتى كانت من قبل تدور حول هذه الاعتقادات المهجورة – فى قوتها تتحدى كل تعليل عقلى فى جميع أدوار ذلك الإنسان ، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام . فعلى الرغم من أن الشعور الدينى الذى كان السبب فى النفور من الإسلام قد أخلى مكانه فى هذه الأثناء لاستشراف على الحياة أكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقى عنصرا من الوعى الباطنى فى عقول الأوربيين . وأما درجة هذا النفور فإنها تختلف بلاشك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لاريب فيه . إن روح الحروب الصليبية – فى شكل مصغر على كل حال – مازال يتسكع فوق أوربة ، ولاتزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامى موقفا يحمل آثارا واضحة من ذلك الشبح المستميت فى القتال » « ١ » .

« ١ » الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ ، مقتطفات من ص ٥٢ – ٥٩ .

ويقول « ولفرد كانتول سميث » المستشرق الكندى المعاصر فى كتاب « الاسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History :

« إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية ، كان النبى (يقصد الإسلام) هو التحدى الحقيقى الوحيد للحضارة الغربية الذى واجهته فى تاريخها كله ، وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقيا ، وكم كان يبدو فى يوم من الأيام تهديدا خطيرا حقا .

« لقد كان الهجوم مباشرا ، فى كلا الميدانين الحربى والعقيدى ، وكان قويا جدا . ولاشك أنه بالنسبة للمسلمين يبدو أنه الحق والصواب ، والأمر الطبيعى المحتوم ، أن يمتد الإسلام كما امتد . ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة للشخص الواقع خارج نطاق الإسلام ، الذى لم يكن يرى فيه شيئا من ذلك كله ، والذى كان التوسع الإسلامى يقع على حسابه . وقد كان هذا التوسع إلى حد كبير على حساب الغرب . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة « أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية » لتتسلمها منها القوة الجديدة ، وكانت فى خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع - تماما - فى يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا ، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة . وفى موجة التوسع الإسلامى الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣ ، وفى قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩ بينما ظل الزحف الذى بدا عنيدا لايلين ، مستمرا فى طريقه . وحدث ذلك مرة أخرى فى وقت قريب لم يتطاول عليه العهد فى سنة ١٦٨٣ ، وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا فى قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ لم يكن له قط فى العصر الحديث ذلك الفزع فى نفوس الغرب المتهيب ، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن ، من تلك القوة الضخمة المهددة التى كان لاتكف ولاتهدأ ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة .

« وكما هو الأمر مع الشيوعية كذلك كان التهديد والانتصارات (الإسلامية) قائمين فى عالم القيم والأفكار أيضا . فقد كان الهجوم الإسلامى موجها إلى عالم النظريات كماهو موجه إلى عالم الواقع .. وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسى للعقيدة المسيحية ، التى كانت بالنسبة لأوربا العقيدة السامية التى أخذت فى بطء تبنى حولها حضارتها .. وكان التهديد الإسلامى موجها بقوة وعنف وكان ناجحا ومكتسحا فى نصف

العالم المسيحى تقريبا .. والإسلام هو القوة الايجابية الوحيدة التى انتزعت من بين المسيحيين أناسا دخلوا فى الدين الجديد وآمنوا به .. بعشرات الملايين . وهو القوة الوحيدة التى أعلنت أن العقيدة المسيحية ليست مزيفة فحسب ، بل إنها تدعو إلى التقزز والنفور .

« وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون - حتى أولئك الذين لايدركون إطلاقا أنهم اشتبكوا فى مثل هذه الأمور - قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسى المتطاول الأمد .. أو على آثار الحروب الصليبية التى استغرقت قرنين من الحرب « العقيدية » العدوانية المريرة »« ١ »

وفى هذا وذاك تفسير لهذه الظاهرة التى تبدو غريبة لأول وهلة ، وهى أن أوربا قد أهملت الدين فى حياتها ، ولكنها لم تنس الروح الصليبية التى أججتها ظروف الحرب والصراع فى نفوسهم من قديم .

* * *

وحين قامت الثورة الصناعية اتسم « الاستعمار » عامة بالصبغة الاقتصادية لأنه كان بحثا عن الموارد الرخيصة من جهة ، والأسواق المضمونة لتوزيع فائض الانتاج من جهة أخرى .. وشمل الاستعمار كل أرض مستضعفة سواء كانت أرضا إسلامية أو غير إسلامية . ومع ذلك لم ينس الصليبيون صليبيتهم إزاء المسلمين . فحيثما كانت الأرض المستعمرة غير إسلامية اكتفى الاستعمار بنهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج .. أما حيث تكون الأرض إسلامية فالعناية الأولى موجهة لمحو الاسلام عن طريق التبشير والغزو الفكرى ومناهج التعليم التى تفرض على المسلمين ووسائل الإعلام التى توجه إليهم . ثم يأتى بعد ذلك نهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج . وخير مثال لذلك استعمار البريطانيين للهند . فقد كان أول عمل لهم هناك هو إزالة الحكم الإسلامى فى الهند . ثم تركوا الهنود لمعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يتعرضوا لهم بشىء ، ووجهت الحرب الضارية ضد المسلمين وحدهم ، فصودرت الأوقاف المرصودة للتعليم الإسلامى فجفت منابعه ، وحورب المسلمون فى الوظائف العامة وأعطيت للوثنيين الهنود ، ووجه الغزو الفكرى ضد المسلمين لإخراجهم من حقيقة الإسلام !

« ١ » ص ١٠٩ - ١١٠ من الأصل الانجليزى الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ م .

وايا ماكان الأمر فقد ارتبطت القوميات فى أوربا بالاستعمار بكل سفالاته، وكل بشاعاته، ونشبت الحروب بين القوميات المختلفة أبشع ماتكون .. وصارت نهاية الأمر حروبا عالمية، تشترك فيها كل القوميات، ويصلاها العالم كله بذنب وبغير ذنب .

فى الحرب الكبرى الأولى التى استمرت من ١٩١٤ - ١٩١٨ م قتل عشرة ملايين شاب . غير الذين شوهوا أو أصيبوا إصابات تقعدهم عن العمل . واستخدمت الغازات السامة والقنابل المحرقة وغيرها من الوسائل الإجرامية، التى لم تجد أوربا فى ضميرها حرجا من استخدامها، لأن الغاية تبرر الوسيلة، ولأن المصالح القومية مقدمة على كل اعتبار !

صحيح انه كان هناك تكتل بين مجموعة من القوميات سمت نفسها « الحلفاء » لأنها - فى لحظة من اللحظات - وجدت أن مصالحها القومية - رغم اختلافها فيمابينها وتنافسها - تقتضى التجمع لتحقيق هدف مشترك .. وكان الهدف فى الحرب الأولى مزدوجا : القضاء على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية - لأمر يراد « ١ » - والقضاء على القومية الألمانية التى تطالب بأن يكون لها مستعمرات كما لبقية القوميات مستعمرات .. !!

وربما يظن الإنسان لأول وهلة أن أوربا قد فطنت إلى حماقة التجمع القومى ومايؤدى إليه من فساد فى الأرض وتقطيع للروابط الإنسانية فأنشأت تجمعا جديدا على أساس المبادئ لا على أساس القوميات .. أو هكذا قالوا هم فى دعاياتهم ! ولكن الحقيقة أن التجمع الجديد كان هو أيضا تجمع مصالح يتستر وراء المبادئ، ويريد لمجموعة من الشعوب، أو مجموعة من القوميات على الأصح، أن يكون لها السيطرة على العالم، وحدها من دون العالمين .. لأمر يراد !

وتم - على أى حال - لهذا التجمع ماأريد له من السيطرة فى الأرض مايقرب من عشرين عاما، حتى قامت الحرب العظمى الثانية، التى استمرت من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٥ م، وقتل فيها أربعون مليونا من الشباب، غير المدن التى دمرت، والمدنيين الذين قتلوا فى الغارات الجوية .. وغير قنبلتى هيروشيما ونجازاكى الذريتين، اللتين قضتا على الوجود الحى كله من نبات

---

(١) سيأتى بيان هذا الأمر فى سياق الحديث .

وحيوان وإنسان فى مساحة واسعة من الأرض ، وماتزال تولد أجنة مشوهة من أثر الاشعاع الذرى السام الذى انتشر من القنبلتين فى أماكن بعيدة عن مكان الانفجار ، بعد مايقرب من أربعين عاما من الحدث البربرى الفظيع ، الذى سمح به الضمير الأمريكى بلا تحرج ولا تأثم تأمينا « لمصالح » ذلك التجمع الشرير ! وماكان التجمع الآخر الذى انهزم بأقل شرا ولاخبثا ولا انعدام إنسانية عن التجمع الذى انتصر ! فلو أن هتلر سبق إلى استكمال القنبلة الذرية قبل أن يداهمه « الحلفاء » ويسرقوا « العلماء » الذين يعملون فى صنعها ، لكان قمينا أن يفعل بها مثل مافعلوا أو أشد !

وبرز من الحرب الثانية « معسكران » مختلفان ، هما المعسكر الشيوعى والمعسكر الراسمالى ، يبدو فى ظاهر الأمر أنهما تجمعان قائمان على « مبادئ » مختلفة .. خاصة وأن الشيوعية على الأقل تحمل مبادئ محددة ، وتحمل دعوة عالمية لنشر هذه المبادئ فى الأرض .

وقد مر بنا الرأى فى هذا الاختلاف وهل هو فى الجوهر الحقيقى أم فى القشرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .. ولكن هذا ليس معرض حديثنا هنا .. إنما نتكلم عن « المبادئ الإنسانية » التى تقوم عليها هذه التجمعات أو تزعم أنها تقوم عليها !

تعلن الشيوعية - دائما - أن الدين لايجوز أن يكون أساسا للتجمع ! إنما هو من الآثار البالية التى أحدثتها عصور الرق والإقطاع والراسمالية .. وأن تصحيح الأوضاع الذى تحدثه الشيوعية يقضى على تلك الآثار البالية ، ويقيم مجتمعا إنسانيا « حرا » لاتقوم فيه التفرقة على أساس الدين .. وطالما أبدت رأيها صريحا فى استنكار رغبة المسلمين فى شبة القارة الهندية فى إنشاء دولة « إسلامية » وقالت إن هذه اتجاهات رجعية لاينبغى تشجيعها .

ثم قامت الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م ، على أساس الدين . فهى من منشئها ، أو من منشأ الدعاية لها وطن « لليهود » ودولة « لليهود » وتجمع « لليهود » .

وفى منتصف الليل ، بتوقيت المنطقة التى أقيمت فيها الدولة اليهودية ، أعلنت أمريكا اعترافها بالدولة ، وبعد عشر دقائق اعترفت روسيا ! روسيا القائمة على أساس « المبادئ » التى تنكر قيام أى تجمع على أساس الدين !

ومنذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، تجتمع أمريكا الرأسمالية الإمبريالية التوسعية الرجعية ، وروسيا الشيوعية العقائدية التقدمية على الوقوف فى صف إسرائيل وعدوانها المستمر الذى لم ينقطع ، ضد العرب والمسلمين !

ثم تختصم روسيا وأمريكا فى كل شىء عدا ذلك ، ففى أى شىء تختصمان ؟!

على إقامة الحق والعدل فى الأرض ؟!

على تقرير حرية الشعوب فى اختيار مصيرها ؟!

كذلك تقول الدعاية المستمرة من الجانبين .. ولكن ماحقيقية الواقع ؟

ما الذى يحدث حين تمس المصالح القومية لأمريكا أو لروسيا .. أو يقف حائل دون « التوسع » و « السيطرة » و « السلطان » ؟!

إنهما تختصمان على توزيع « مناطق النفوذ » فى العالم .. أى تختصمان على توزيع « المستضعفين فى الأرض » هل يكونون فى هذا المعسكر أم ذاك المعسكر ، وكلتاهما لاتسمح لأحد من « الخاضعين لنفوذها » أن يتحرر ويقرر لنفسه مصيره .

كيف فعلت روسيا فى المجر حين ارادت الأخيرة أن تختار مصيرها بنفسها وترجع عن الشيوعية عام ١٩٥٦م ؟ كيف هدمت الدبابات الروسية البيوت على اصحابها تأديبا لهم على تجرؤهم على هذا العمل الشنيع الذى ارتكبوه ؟

وكيف فعلت حين أراد العمال فى بولندا ، الذين تزعم الشيوعية انها قامت لتحريرهم ورد الحقوق المغتصبة إليهم .. كيف فعلت حين اراد هؤلاء العمال أن يعلنوا ان الشيوعية لم تحقق مطالبهم ، ولم ترد إليهم إنسانيتهم الضائعة ، وانهم فى ظلها مقهورون مظلومون مسحوقون ، وأن لهم « مطالب » يريدون تحقيقها فى مقدمتها ممارسة الحرية ، والمشاركة فى إدارة دفة الأمور ؟!

اما امريكا ودورها الاستعمارى ، ودور اجهزتها الخفية فى نشر الفساد فى الأرض عن طريق الانقلابات العسكرية ، التى يختار أصحابها من غلاظ الأكباد قساة القلوب المرضى بجنون العظمة المتعطشين إلى السلطة لينفذوا لها مخططاتها فى إذلال الشعوب وجرها إلى العبودية .. فأمر غنى عن البيان . وإن كان الذى يغيب عن أذهان كثير من الناس مداراة كل من المعسكرين على عميل المعسكر الآخر ومده بالمساعدة حين يكون دوره هو تذبيح المسلمين والقضاء على حركات البعث الإسلامى !

وتلك هى التجمعات التى قامت فى العالم على أساس قومى .. وإن تسترت أحيانا وراء مختلف العناوين !

* * *

إلى هنا كنا نتحدث عن القوميات والوطنيات فى أوروبا ، كيف نشأت وكيف تطورت خلال التاريخ الحديث والمعاصر ، وما كان من آثارها الشريرة فى حياة العالم كله ، حين صارت « المصالح القومية » هى الأصل المعترف به فى حياة الناس ، على حساب القيم والمبادئ،وكل معنى من معانى « الإنسانية » عرفته البشرية فى يوم من الأيام ..

ولكن هناك جانبا من الموضوع مازال فى حاجة إلى بيان .. ذلك هو « تصدير » دعاوى القومية والوطنية إلى الشرق الإسلامى !

ولن نتحدث عنا عن « العدوى » التى جاءت إلى العالم الاسلامى من أوروبا حين ضعف المسلمون وتخلوا عن مقومات حياتهم الأصيلة ، وانبهروا بما عند الغرب ، وتابعوه فى انحرافاته ظنا منهم أن هذا هو الطريق الذى يخلصهم من ضعفهم وتخلفهم .. فذلك مبحث آخر نعالجه فى غير هذا الكتاب« ١ » ولكن نتحدث عن التصدير المتعمد لهذه التيارات من أوروبا إلى العالم الإسلامى .

حين وقع لويس التاسع فى الأسر فى الحروب الصليبية الأولى وسجن فى سجن المنصورة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، جعل يتفكر فى سجنه ويتدبر .. فلما فك أسره وعاد إلى قومه حدثهم بما هداه إليه فكره ، فقال لهم : إن التغلب على المسلمين بالسلاح وحده أمر غير ممكن .. وإن على أوروبا إذا أرادت التغلب على المسلمين أن تحاربهم من داخل نفوسهم ، وأن تقتلع العقيدة الإسلامية من قلوبهم .. فهذا هو الطريق !

ووعى الصليبيون المحدثون نصيحة الصليبى القديم حين بدأوا جولتهم الصليبية الثانية ضد العالم الإسلامى . فجاءوا – لا بالسلاح وحده كما جاؤوا فى المرة الأولى – ولكن بما هو اخطر منه كثيرا وأشد فاعلية ، ذلك هو « الغزو الفكرى » الذى يهدف إلى اقتلاع العقيدة من قلوب المسلمين ، وتحويلهم عن صراط الله المستقيم إلى سبل الشيطان :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله« ٢ »

« ١ » انظر كتاب « واقعنا المعاصر »

« ٢ » سورة الانعام [١٥٣]

يقول شاتلييه فى مقدمة كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » (تعريب محب الدين الخطيب) :

« ولاشك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ولايتم ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوروبية . فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوروبا ، وتتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادى ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها » .

وقد كانت دعاوى القومية والوطنية المصدرة عن عمد إلى العالم الإسلامى ، من بين وسائل الغزو الفكرى الذى استخدمه الصليبيون المحدثون فى « غزو العالم الإسلامى » كما سمى « شاتلييه » كتابه السالف الذكر« ١ »

والهدف من ذلك واضح ولاشك .. فطالما كان المسلمون « مسلمين » فسيصعب على الغزاة ابتلاعهم مهما كانوا عليه من الضعف والتخلف . ذلك أن العقيدة الإسلامية عقيدة جهاد . وقد ذاق الفرنسيون فى الشمال الأفريقى وذاق الإنجليز فى الهند وغيرها من أقطار أفريقيا وآسيا من عقيدة الجهاد هذه مالا يزال عالقا بنفوسهم برغم كل الضعف والتخلف الذى كان عليه المسلمون . فاقتلاع هذه العقيدة واستبدال غيرها بها أمر ذو أهمية بالغة ، سواء من وجهة النظر الصليبية أو من وجهة النظر الاستعمارية البحتة ، فالمسلمون لايقبلون الاستعمار ولايرضخون له طالما كانوا « مسلمين » . فإذا اجتمعت وجهة النظر الصليبية ووجهة النظر الاستعمارية تجاه الاسلام - كما هو واقع الأمر - كانت الرغبة فى اقتلاع هذه العقيدة آكد ، والعمل على استبدال غيرها بها أعنف وأشد .

وبالفعل بذرت بذور الوطنية أولا فى العالم الاسلامى . ثم جاء دور القومية بعد ذلك (لظروف سنبينها بعد قليل) فحققت أكثر من هدف فى وقت واحد ..

كان الهدف الأول هو تحويل حركات الجهاد الإسلامى ضد الاستعمار الصليبى إلى حركات وطنية ، كما فعل سعد زغلول فى مصر وغيره من الزعماء « الوطنيين » على اتساع العالم الإسلامى . والحركة الوطنية تفترق عن حركة

« ١ » الكتاب فى اصله الفرنسى يسمى « La Conquette du Monde Musulman » اى غزو العالم الاسلامى ، ولكن المعرب اختار له اسم « الغارة على العالم الاسلامى »

الجهاد الإسلامى بادئ ذى بدء فى أنها لاتنظر إلى « العدو » على أنه « صليبى مستعمر » ولكن على أنه « مستعمر » فقط .. وفرق واضح فى درجة العداء وطريقة المجاهدة بين أن يكون العدو منظورا إليه على حقيقته ، وبين أن يكون مغلفا برداء الاستعمار فحسب .

والهدف الثانى هو تحويل حركات الجهاد الإسلامى إلى حركات « سياسية » عن طريق تحويلها إلى حركات وطنية .. فالعدو غير قادر على « التفاهم » مع الحركات الإسلامية : لأنه لاسبيل إلى التفاهم معها فى الحقيقة إلا بإخراج ذلك العدو خارج البلاد ، ومن ثم فلا سبيل إلى استعمال « السياسة » من جانب العدو . أما الحركات الوطنية فالتفاهم معها سهل وممكن ! وعود من المستعمر بالجلاء ، ويأتى الوقت الموعود فيتذرع المستعمر بشتى المعاذير لتأجيل جلائه ، ويعطى وعودا جديدة يعتذر عنها بدورها إذا جاء دورها .. والساسة « الوطنيون » يغضبون - أو يتظاهرون بالغضب لإرضاء الجماهير ! - والجماهير تثور ثورة صاخبة - لكنها فارغة - سرعان ماتنطفئ بعد الاستماع إلى خطبة رنانة من الزعيم الوطنى يعد فيها بأنه لن يفرط فى شبر من الأرض ، ولن يرضى بغير « الجلاء التام أو الموت الزؤام » ! « ١ » وبين هذا وذاك تجرى « مفاوضات » بين الساسة والاستعمار تنتهى إلى أشياء تافهة يلعب بها الساسة على عقول الجماهير فيوهمونها أنها « مكاسب وطنية » وقد تنتهى إلى غير شىء على الإطلاق ، ومع ذلك يقول زعيم يعتبر من كبار الزعماء الوطنيين فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث وهو سعد زغلول : « خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الانجليز ! » ويقول : « الإنجليز خصوم شرفاء معقولون » !! وهو شىء ماكان يمكن أن يحدث لو بقيت حركة الجهاد الإسلامية كما كانت فى مبدئها ، ولم تتحول إلى حركة وطنية على يد الزعيم الكبير !

والهدف الثالث هو تيسير عملية « التغريب » من خلال تحويل حركة الجهاد الإسلامى إلى حركة وطنية سياسية .. فحين تقوم حركة الجهاد على أساس إسلامى يكون الباب موصدا تماما بين المجاهدين وعدوهم ، لايأخذون شيئا من فكره ولا عقائده ولاتقاليده ولا أنماط سلوكه المنافية للإسلام . أما حين يتحول الجهاد إلى حركة وطنية سياسية فالحاجز أرق . يسمح بالأخذ .. ومعاذير الأخذ

« ١ » كانت تلك من هتافات الحركة الوطنية فى مصر !

كثيرة ، فقد قال « أستاذ الجيل » لطفى السيد : إن الانجليز هم أولياء أمورنا فى الوقت الحاضر . وليس السبيل أن نحاربهم ، بل السبيل أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم !! » « ١ »

وأى شيء تعلم المصريون من الإنجليز ؟ هل تعلموا منهم جلدهم على العمل وانضباطهم فيه ؟ أم تعلموا منهم السكر والعربدة وفساد الأخلاق ؟

إنما يتعلم الأولى « المجاهد » لأن المجاهد يتعلم من عدوه فضائله إن كانت له فضائل ، أما « السياسى » المتسيب فالرذائل أقرب إلى قلبه لأنها سهلة لاتكلف جهدا ولاتحتاج إلى مجاهدة !

وعملية التغريب - أو الغزو الفكرى - كانت أهم مايحرص عليه الصليبى المستعمر .. فحين يفقد المسلم شخصيته الإسلامية فإنه يفقد فى الحقيقة نقطة ارتكازه .. ومن ثم فإنه يتهاوى ويضيع .

حين يظل المسلم مسلما فإنه يمكن أن « يستعير » من العالم حوله مايحس أنه فى حاجة إليه ، دون أن يفقد شخصيته ، ودون أن يفقد استعلاءه الذى يستمده من الإيمان .

« ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » « ٢ »

وذلك مافعله المسلمون الأوائل حين بدأوا ينشئون حضارتهم ، فقد كانوا فى حاجة إلى أشياء لاسابقة لهم بها وهى عند عدوهم - البيزنطى أو الفارسى - فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا على الإطلاق أن يأخذوا مايحتاجون إليه من هنا ومن هناك ، ولكن فى استعلاء المؤمن الواثق المطمئن . فأخذوا ما رأوا أنه نافع لهم ، وأعرضوا عن كثير مما وجدوه عند أعدائهم،لأنهم نظروا إليه بعين المسلم فأنكروه . وهذا يفسر لنا لماذا أخذوا العلوم الإغريقية ولم يأخذوا الأساطير !

أما حين « يستغرب » المسلم فإنه يفقد - أول مايفقد - إيمانه بأنه هو الأعلى بعقيدته الصحيحة ونظامه الربانى وأخلاقياته المتطهرة وقياسه كل شيء بالمقياس الربانى .. وينظر إلى عدوه نظرة الإكبار والإجلال ، فينقل عنه كل شيء بلاتحرز ، بل ينقل عنه مايضر ومايفسد فى حين يعجز عن نقل ماينفع ، لأنه

« ١ » لايمكن لمسلم ، فضلا عن مسلم مجاهد ان يقول عن عدو دينه إنه ولى أمره مهما تغلب الأخير عليه فى معركة السلاح وقهره . اما الزعيم السياسى فما أيسر عليه ان يقول ذلك !

« ٢ » سورة آل عمران [١٣٩]

« واهن »بعد فقدانه الإيمان ، والواهن لايقدر على بذل الجهد الذى يحتاج إليه تعلم النافع من الأمور « ١ »

لذلك لم يتعلم « المستغربون » من الغربيين قط قدرتهم الفائقة على « التنظيم » ولا جلدهم الشديد على « العمل » ولا التزامهم الشديد « بالانضباط » فى كل شىء . إنما تعلموا اللهو والعبث والمجون والرطانة بلغة الأعاجم .. وتعلموا – أسوأ من ذلك كله – التباهى بالانسلاخ من الدين والعرض والأخلاق الدينية المتطهرة من الرجس .

وكان ذلك هو التنفيذ الدقيق لوصية الصليبى القديم للصليبيين المحدثين .

* * *

أما القومية العربية فقد كان لها دور أخبث وأشد ..

لقد كنا حتى اللحظة نتكلم عن الصليبى المستعمر ..

ولكن دخل معه – على نفس خطه – عدو آخر ، هو اليهودى المستعمر ، لغرض آخر خاص به ، ولكنه يلتقى معه فى النهاية فى بغض الإسلام ، والرغبة فى القضاء على الكيان الإسلامى .

فى عام ١٨٩٧م عقد هرتزل – أبو الصهيونية كما يسمونه – مؤتمره الشهير فى مدينة « بال » بسويسرا ، ذلك المؤتمر الذى قرر فيه زعماء اليهود ضرورة إنشاء الدولة اليهودية خلال خمسين عاما فى فلسطين .

وذهب هرتزل إلى السلطان المسلم عبدالحميد يعرض عليه كل المغريات التى يطمع فيها حاكم أرضى . ذهب يعرض عليه إنعاش الاقتصاد العثمانى وكان متدهورا بسبب ماتنفقه الدولة لإخماد المناوشات المستمرة التى يقوم بها الأعداء لإحراج الدولة العثمانية أو « الرجل المريض » كما أطلقوا عليها فى أواخر أيامها . ويعرض عليه قروضا طويلة الأجل ويعرض عليه التوسط لدى روسيا وبريطانيا بالكف عن إثارة الأقليات ، فقد كانت روسيا تتعهد بإثارة الأقليات الأرثوذكسية وخاصة الأرمن وكانت بريطانيا تتكفل بإثارة بقية الأقليات ! وكان ذلك من أشد مايزعج الدولة ويعرض ميزانيتها للخراب .. وفى

« ١ » يقول القسيس المبشر « زويمر » الذى كان له نشاط تبشيرى ضخم فى العالم العربى فيما ينقل عنه كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » فى خطاب للمبشرين : « إنكم أعددتم نشئا (فى بلاد المسلمين) لايعرف الصلة بالله ، ولايريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده الاستعمار المسيحى لايهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ، ولايصرف همه إلا فى الشهوات ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء » .

مقابل هذا العرض السخى كله طلب هرتزل منح اليهود وطنا قوميا لهم فى فلسطين .

وكان من المتوقع من أى رجل يحرص على الدنيا ، ويحرص على السلطان المستبد« ١ » أن يتقبل العرض ويستجيب للمغريات . ولكن السلطان المسلم رفض ذلك كله ، وقال لهرتزل قولته الشهيرة « إن هذه ليست أرضى ولكنها أرض المسلمين ، وقد رووها بدمائهم ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها« ٢ » .

عندئذ وقعت الواقعة ، ودبر اليهود لخلع السلطان عبدالحميد ، ثم لإزالة الخلافة كلها على يد اليهودى المتمسلم كمال أتاتورك .

وكانت الوسيلة لكل ذلك هى « القومية » .

فاليهود المتمسلمون ، المعروفون بيهود الدونما ، الذين هاجروا من المغرب واستوطنوا البلقان ، كانوا هم المنظمين الحقيقيين لحزب الاتحاد والترقى ، الذى نادى بالقومية الطورانية (وهى قومية الأتراك فى جاهليتهم قبل دخولهم فى الإسلام) ورفع شعار الذئب الأغبر (وهو معبود الأتراك فى جاهليتهم) كما نادى بضرورة « تتريك » الدولة ، أى جعل المناصب فيها وقفا على الأتراك وحدهم . ومعنى ذلك - كما حدث بالفعل - أن يحس « العرب » أنهم مظلومون فى ظل الحكم التركى وأنهم مهضومو الحقوق .. عندئذ تلقفتهم الصليبية - حليفة اليهودية فى الحرب ضد الإسلام - فأرسلت إليهم « لورنس » ليؤجج فيهم روح « القومية العربية » ردا على القومية الطورانية .. ويؤلف « الثورة العربية الكبرى » ضد دولة الخلافة !

وببساطة تم الأمر .. فى غفلة من « المسلمين » !

يقول التاريخ إن أول من نادى بالقومية العربية هم نصارى لبنان وسوريا وانضم إليهم « المسلمون » الذين تربوا فى مدارس التبشير .. ثم انضم إليهم المستغفلون من المسلمين الذين لم يجدوا تعارضا بين الإسلام والعروبة على أساس أن العروبة هى عصب الإسلام،وأن العرب هم الذين حملوا الإسلام إلى كل البشرية !

والنصارى فى لبنان وسوريا كانوا جزءا من أدوات أوروبا لإزعاج « الرجل المريض » وإرباكه ، بغية تسهيل القضاء عليه وتوزيع تركته بين المتربصين

« ١ » هكذا تصف الدعاية المغرضة السلطان المسلم

« ٢ » وذلك هو سر كراهية اليهود له وتشنيعهم به ونشر الدعايات المغرضة ضده .

الذين ينتظرون الساعة « العظمى » التى يقضون فيها على بقايا الإسلام .

وماكان نصارى لبنان وسوريا فى تلك الفترة يجرؤون أن يخرجوا على الحكم الإسلامى علانية وبالاسم الصريح للخروج ، فقد كانوا أقلية محوطة بأكثرية مسلمة ، تدين بالولاء القلبى والسياسى لدولة الخلافة ، ولا تتصور لنفسها حكومة غير الحكومة الإسلامية . فلم يكن فى وسع أولئك النصارى أن يقولوا : لانريد حكم الإسلام علينا ولانريد حكم الخلافة الإسلامية ! ولذلك كان نشاطهم سريا من جهة ، وباسم غير اسم الخروج على الحكم الإسلامى من جهة أخرى .. كان نشاطهم يقوم باسم العروبة والقومية العربية ، وهو شعار يمكن أن يلتبس فيه الأمر على المسلمين العرب ، ولايروا - لغفلتهم - أنه موجه ضد الإسلام .. وضدهم هم !

كانت دعوى القومية الطورانية تحز فى نفوس العرب المسلمين فينفخ الشياطين فى الحزازة لتشتعل . وكان يقال لأولئك العرب المسلمين أنتم أولى بالخلافة من أولئك الطورانيين ! فلماذا تسكتون على الظلم ؟ لماذا لاتثورون وتستقلوا عن الأتراك ؟

وكان عبدالحميد يقظا للعبة كلها « ١ » ولكن أحوال دولة الخلافة يومئذ وأحوال المسلمين جميعا فى العالم الإسلامى ، كانت أضعف من أن تصمد للكيد .. فمضى الكيد فى سبيله حتى بلغ غايته .

ولسنا هنا نؤرخ لتلك الفترة« ٢ » .. إنما نحن نتحدث عن القوميات والوطنيات ، ودورها فى اللعبة التى أريد بها القضاء على الإسلام ، وإنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

كان عبدالحميد يطارد تلك الجماعات السرية التى تنادى بالعروبة والقومية العربية كما يضيق على النشاط السرى لحزب الاتحاد والترقى ، لإدراكه المقصود من ورائهما ، فيتخذ ذلك ذريعة لمزيد من الكيد ضده ويتهم بالدكتاتورية والطغيان فى داخل تركيا ، وباضطهاد الأقليات خارجها ! وتصنع من هذه وتلك مادة للدعاية ضده ونشر البغض والكراهية له ، تمهيدا لما يخطط من عزله ، عقابا له على عدم موافقته على إنشاء الدولة اليهودية !

وجرت الأمور فى مجراها المقدر فى علم الله ، ولكن بسبب من غفلة المسلمين

« ١ » كما تدل على ذلك مذكراته

« ٢ » راجع إن شئت مذكرات السلطان عبدالحميد .

التى مكنت الأعداء من تنفيذ مخططاتهم . والله يحذرهم فى كتابه المنزل :

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون »« ١ » .

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم » « ٢ »

ومع ذلك التحذير فقد كان مسلمون يتولون اليهود فى حزب الاتحاد والترقى ، ومسلمون أخرون يتولون النصارى فى الجمعيات السرية القائمة باسم العروبة والقومية العربية . ومسلمون آخرون يتولون « لورنس العرب ! » ويتبعونه وهو يدعوهم إلى قتال دولة الخلافة التى ظلت تحميهم من الغزو الصليبى قرابة أربعة قرون !

يقول لورد اللنبى ، قائد الجيش « العربى » الذى حارب الخلافة ! لولا مساعدة الجيش العربى والعمال العرب مااستطعنا أن نتغلب على تركيا !!

ولقد كانت الحرب العظمى الأولى تدبيرا يهوديا نصرانيا للقضاء على دولة الخلافة ، وتقسيم تركة « الرجل المريض » والتمهيد لإنشاء الدولة اليهودية فى الأمد الذى حدده مؤتمر هرتزل سنة ١٨٩٧م .. فى غفلة من « المسلمين » ! إلى جانب الهدف الآخر الذى تحقق كذلك من تلك الحرب ، وهو القضاء على القومية الألمانية لحساب القومية البريطانية والقومية الفرنسية .. ولكن الهدف الأعظم من هذه الحرب كان ولاشك تدمير الخلافة الإسلامية لحساب اليهود والنصارى مجتمعين ، وحساب اليهود بصفة خاصة !

ووزعت الأسلاب بين بريطانيا وفرنسا ، صديقتى اليهود يومئذ ، ووضعت فلسطين بصفة خاصة تحت الانتداب البريطانى ، والانتداب درجة أسوأ من الحماية ، والحماية درجة أسوأ من مجرد الاستعمار .. وكان ذلك بعد وعد بلفور الشهير ، الذى صدر عن وزير خارجية بريطانيا اليهودى « اللورد بلفور » سنة ١٩١٧ فى أثناء الحرب ، وبدأت دولة الانتداب فى تنفيذه عقب الحرب مباشرة تحت إشراف المندوب السامى البريطانى اليهودى السير صمويل هور !

---

١ . سورة آل عمران [١١٨]
٢ . سورة المائدة [٥١]

وخـلال خمسين عـاما من مـؤتمر هـرتزل قـامت الدولة اليهوديـة سنـة ١٩٤٧ « ١ » ولكن الأمر احتاج إلى حرب « عظمى » ثانية !

وسواء كانت الحرب الثانية « طبيعية » نتيجة القهر العنيف الذى وقع على القومية الألمانية من القومية البريطانية والقومية الفرنسية ، ونزوع القـومية الأولى للانتقام لنفسها من القوميتين الآخريين - كما نعتقد نحن - أو كانت تدبيرا خالصا لليهود - كما يعتقد « وليم كار » فى كتاب « أحجار على رقعة الشطرنج »« ٢ » فقد استغلها اليهود استغلالا واسعا لصالحهم ، لاستدرار عطف العالم كله عليهم - بوصفهم من ضحايا النازية - ليوافق عن طيب خاطر على سلب العرب جزءا من وطنهم لإقامة الدولة اليهودية فيه . وقد سبقت الإشارة إلى الكاتبة الألمانية التى تقول فى كتابها إن اليهود هم الذين دبروا عملية تعذيب النازى لهم ليتخذوها مادة دعاية لهم على أنهم المظلومون المضطهدون المشردون فى الأرض ، الذين يبحثون عن مـأوى يقيهم من التشريـد والظلم والطغيان ، وأن حجم التعذيب - الذى دبروا له تدبيرا - كان أضأل بكثير مما قيل فى الدعاية اليهودية العالمية التى ظلت طيلة سنوات الحرب تجلجل فى كل أرجاء الأرض لتصل إلى الهدف المطلوب .

وأيا كان الأمر فقد تم لليهود ما أرادوا بمناصرة الصليبية العالمية لهم ، وبغفلة المسلمين ..

وقد كان التدبير اليهودى الصليبى مابين الحربين الأولى والثانية محكما فى الحقيقة .

فقد قسم العالم العـربى إلى دويلات ضعيفـة مسلوبة القـوة لاحول لهـا ولاطول . فالقوة السياسية والعسكرية ذهبت بذهاب دولة الخلافة وصار حكام تلك الدويلات يعتمدون اعتمادا كاملا على بـريطانيـا وفرنسـا - صديقتى اليهود - وصارت جيوشها جيوش استعراض وزينة لاجيوش قتال حقيقى ، تعتمد فى سلاحها وذخيرتها اعتمادا كليا على بريطانيا وفرنسا ، واقتصادياتها غاية فى التخلف .. أما شباب تلك الشعوب - وهو قوة خطرة إذا وجد التوجيه

« ١ » قامت الدولة واقعيا سنة ١٩٤٧ ولكنها لم تعلن رسميا إلا عام ١٩٤٨ بعد مسرحيات الحرب التى مثلتها الجيوش العربية حسب مخطط متفق عليه .

« ٢ » يبالغ وليم كار فى نسبة كل احداث العالم الكبرى إلى اليهود ، ولانوافقه فى ذلك رغم إخلاصه فى كتابته .. راجع فصل « دور اليهود فى إفساد أوروبا » .

الجاد - فقد سلط عليه « التغريب » يقتلعه من إسلامه ومن روح الجهاد الإسلامية ، وسلطت عليه السينما والإذاعة والمسرح والقصة والصحيفة والشواطئ العارية .. كلها تصب الميوعة فى نفسه وتصرفه عن الاهتمامات الجادة ، وتفسد أخلاقه وتشغله بفتنة الجنس .. فوق انشغال كل بلد بقضاياه ومشاكله الخاصة ، وفوق بذر بذور البغضاء بين كل بلد والآخر حتى لاتجتمع كلها على قضية واحدة ولا أمر واحد مشترك .

وفى ظل ذلك قامت الدولة اليهودية بعد مسرحية « الحرب » ثم الهدنة .. ثم الحرب ثم الهدنة الثانية بعد وقوف الجيوش « المتحاربة » عند خط التقسيم المتفق عليه ! ولكن أمرا حدث لم يكن على خاطر الصليبيين واليهود .. فوجئوا به جميعا مفاجأة لم تكن فى الحسبان .. فقد اشترك فى القتال فدائيون مسلمون ، يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة . وحين عركهم اليهود وعرفوا حقيقتهم ، كانوا إذا جابهوهم يفرون من مستعمراتهم ، تاركين أسلحتهم وذخيرتهم ومئونتهم لينجوا بجلودهم !

كانت المفاجأة من جهتين ..

فقد كان الصليبيون واليهود يظنون أن الإسلام كله قد شاخ ولم يعد بوسعه أن يخرج مثل هذه العينات من البشر ، وكانت المفاجأة الثانية أنهم ظنوا أن مصر بالذات التى عمل الصليبيون على دك معاقلها الإسلامية منذ وقت مبكر ، منذ الحملة الصليبية الفرنسية بقيادة نابليون ، لايمكن أن تخرج هذه العينات الصلبة المستميتة فى القتال بروح جهاد إسلامية خالصة لايريدون بذلك جزاء ولاشكورا .

عندئذ تقرر أمران فى وقت واحد ..

الأمر الأول ضرورة القضاء على حركة البعث الإسلامى التى أخرجت مثل هؤلاء المجاهدين . والأمر الثانى ضرورة إيجاد بديل من الراية الإسلامية التى أخرجت أولئك المقاتلين وتوشك أن تمتد ظلالها من مصر إلى البلاد العربية الأخرى ..

وكان البديل هو « القومية العربية » .

يقول جورج كيرك « George Kirk » مؤلف كتاب موجز تاريخ الشرق الاوسط « A Short History of the Middle East » إن القومية العربية ولدت فى دار المندوب السامى البريطانى !!

ولقد كانت بريطانيا قد فكرت من قبل فى إيجاد « الجامعة العربية » على مستوى الحكومات ، فطار « أنتونى إيدن » وزير الخارجية البريطانى إلى القاهرة عام ١٩٤٦م ودعا الملوك والرؤساء العرب إلى الاجتماع به هناك ، وعرض عليهم فى الاجتماع فكرة إنشاء الجامعة العربية فى القاهرة لتتبنى قضايا العرب وتدافع عن مصالحهم !! ولكن ذلك لم يكن كافيا ، فقد كان لابد من رفع راية « القومية العربية » على مستوى الجماهير !

فلما ورثت أمريكا بريطانيا وفرنسا بعد الحرب وبسطت نفوذها على « الشرق الأوسط » « ١ » أقامت - عن طريق الانقلابات العسكرية - زعامات كاملة تدافع عن « القومية العربية » فى الوقت الذى تحارب فيه الإسلام والمسلمين ! وقالت الدعاية - التى أقامتها أمريكا وإسرائيل - إن امريكا وإسرائيل لاتخشيان شيئا خشيتهما للقومية العربية ، ولاتخشيان أحدا خشيتهما لزعيم القومية العربية !

وفى ظل القومية العربية التى أقامتها الصليبية العالمية ، توسعت إسرائيل وتوسعت حتى توشك أن تبتلع فلسطين كلها .. وتتطلع إلى المزيد !

لقد كانت « القومية » التى صدرت إلى العالم الإسلامى هى القومية المأكولة لا القومية الآكلة التى قامت فى أصلها هناك !

* * *

ليس هنا مجال التفصيل للظروف التى أحاطت « بالمسلمين » وأدت بهم إلى هذا الضياع كله وهذا الهوان .. إنما نقول فى ختام هذا الفصل إن الاسلام لايعرف تلك الدعاوى الزائفة التى روجها أعداء الإسلام بغية القضاء عليه ، وتشربها « المسلمون » فى غفلتهم ، غافلين عما فيها من السموم .

إن الاسلام لايغير انتماء الناس إلى ارضهم ولاشعوبهم ولاقبائلهم ، لأن هذا أمر مادى حسى واقع لاسبيل إلى تغييره ، فالذى يولد فى الأرض المصرية مصرى بحكم مولده والذى يولد فى الأرض العراقية عراقى بحكم مولده . والذى يولد فى الأرض الباكستانية باكستانى بحكم مولده .. وهكذا .

ولكن الإسلام ينكر أن تكون صلة التجمع شيئا غير الإسلام ! غير العقيدة

« ١ » كلمة « الشرق الأوسط » ذاتها كلمة دخيلة من تخطيط الاعداء من أجل تسويغ إقامة الدولة ليهودية فى المنطقة . فانها لو بقيت فى التسمية منطقة إسلامية او حتى عربية فكيف تقوم فيها دولة لليهود ؟ أما حين تصبح منطقة جغرافية لاانتماء لها فكل شىء ممكن !

الصحيحة فى الله ! لا الدم ولا الأرض ولا اللغة ولا « المصالح » الأرضية .

« قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لايهدى القوم الفاسقين » « ١ »

وانظر إلى قصة نوح مع ابنه :

« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ! قال : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل : ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى . وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً « ٢ » للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح ! فلاتسألن ماليس لك به علم . إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » « ٣ »

لقد وعد الله نوحا أن ينجو أهله معه ، إلا من سبق عليه القول :

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن . وما آمن معه إلا قليل » « ٤ »

فلما رأى ابنه فى معزل ناداه ليركب معه سفينة النجاة .. ولكنه عصى وقال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء .. وكانت عاقبته أن غرق مع المهلكين .

ولما قضى الأمر ونجا من نجا وهلك من هلك راح نوح – فى مرارة الفقد التى تشوب فرحة النجاة – يناجى ربه ، ويسأل عن تفسير ماحدث : لقد وعده الله بنجاة أهله ، وابنه من أهله ، ومع ذلك كان من الهالكين !

وكان الرد الربانى : « إنه ليس من أهلك ! إنه عمل غير صالح » .

« ١ » سورة التوبة [٢٤]

« ٢ » بعدا اى هلاكا من بَعِدَ اى هلك كما جاء فى قوله تعالى : « الا بعداً لمدين كما بَعِدَتْ ثمود » [سورة هود : ٩٥]

« ٣ » سورة هود [٤٢ – ٤٧]

« ٤ » سورة هود [٤٠]

ذلك أن الآصرة الحقيقية التى تجعله من أهلك ليست هى رابطة الدم التى تجمع بينه وبينك . إنما هى رابطة العقيدة . وقد رفض الابن أن يكون على العقيدة الصحيحة فانفصم ما بينه وبين أبيه من رباط ، لأنه « عمل غير صالح » !

ذلك هو ميزان الإسلام .

وقد مرت بنا الآية التى تجعل الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة ، والأموال والتجارة والأرض وهى مقومات القومية كلها فى كفة ، وفى الكفة الأخرى حب الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله .. والمفاصلة الكاملة بين هذه وتلك .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم كل تلك الروابط !

كلا ! إنما يجيزها كلها حين تقع تحت رابطة العقيدة وداخلها :

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » « ١ »

أى حين يكونون كلهم مؤمنين .

أما حين تكون تلك الروابط حاجزا يحجز بين المؤمن والمؤمن بسبب رباط الدم أو اللغة أو الأرض أو المصالح .. فهذه التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوها فإنها منتنة »« ٢ »

فكيف إذا كانت تلك القومية تقول لك فى صراحة إن المشرك الذى يشاركك فى قوميتك أقرب إليك من المسلم الذى ينتمى إلى قومية أخرى !

هذه .. ماميزانها فى كتاب الله ؟!

« ١ » سورة الأنفال [٧٥]

« ٢ » رواه البخارى .

الإنسانيّة

الإنسانية - أو العالمية كما يدعونها أحيانا - دعوى براقة ، تظهر بين الحين والحين ، ثم تختفى لتعود من جديد ! ياأخى ! كن إنسانى النزعة .. وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء .. دع الدين جانبا فهو أمر شخصى .. علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب .. لكن لاتجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك فى الدين .. فإنه لاينبغى للدين أن يفرق بين البشر .. بين الإخوة فى الإنسانية ! تعال نصنع الخير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين !

دعوى براقة كما ترى .. يخيل إليك حين تستمع إليها أنها تدعوك للارتفاع فوق كل الحواجز التى تفرق بين البشر على الأرض . تدعوك لترفرف فى عالم النور .. تدعوك لتكون كبير القلب ، واسع الأفق ، كريم المشاعر .. تنظر بعين إنسانية ، وتفكر بفكر عالمى ، وتعطى من نفسك الرحبة لكل البشر على السواء ، بدافع الحب الإنسانى الكبير !

أى رفعة ، وأى سمو ، وأى نبل ، وأى عظمة فى القلب والفكر والشعور !

ولكن مهلا ! انتظر حتى يخفت الرنين الذى تحدثه الكلمات والعبارات ، وفتش عن الحقيقة بعيدا عن العواطف والانفعالات ، وانظر أين تجد هذه الشعارات مطبقة فى واقع الأرض ؟! هل لها رصيد حقيقى من الواقع أم إنها شعارات زائفة ترفع لأمر يراد ؟!

ثم انظر إلى تلك العبارة الماسونية « اخلع عقيدتك على الباب كما تخلع نعليك » !

الا ترى شبها بين هذه الدعوة وتلك ؟ أما ترى أنهما قريبتان ؟ بل شقيقتان ؟!

« اخلع عقيدتك على الباب (أى عند دخولك الماسونية) كما تخلع نعليك .. » وادخل بلاعقيدة .. فهكذا يريدك الشياطين ليستعبدوك .. ليسخروك لمصالحهم !

« الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار » ..

والحمار الآدمى هو ذلك الذى خلع عقيدته على الباب كما يخلع نعليه .. ودخل ، حيث أريد له أن يدخل .. بلادين ومن ثم بلا اخلاق !

وفى القديم ، حين كان الدين قويا لايقوون على مواجهته ، لم يكونوا يجرؤون على التلفظ بمثل هذه العبارة ، بل كانوا ينافقون ليصلوا إلى اغراضهم من « إغواء » الآخرين ..

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ! وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ! إنما نحن مستهزئون ! »« ١ »

« وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره لعلهم يرجعون »« ٢ »

ولكنهم اليوم آمنون ، فلاحاجة بهم إلى التظاهر بالإيمان بما أنزل على المؤمنين .. بل إنهم لينشرون الإلحاد اليوم بجسارة فى كل الأرض .. ولكنه بضاعة للتصدير فقط ! يصدرونها للأمميين لإغوائهم عن الدين ، ولكن لايستخدمونها بين انفسهم . فالهدف الأخير من التخطيط كله هو محو كل دين لدى الأمميين ، لكى يبقى اليهود وحدهم فى الأرض أصحاب الدين ! وهم على جبلتهم لايغيرونها .. يتظاهرون أمام الناس بشىء ، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون !

وهزأة اليوم هى هذه الدعوة : « اخلع عقيدتك على الباب كما تخلع نعليك ! » فإذا صدقها الأمميون وخلعوا عقيدتهم كما يخلعون نعالهم ، فرك الشياطين أيديهم سرورا حين يخلو بعضهم إلى بعض ، وقال بعضهم لبعض : إنا معكم ، مانزال على دين الشياطين .. إنما نحن نهزأ بالأمميين !

والفارق بين دعوى الإنسانية ودعوى الماسونية ضئيل ..

الفارق أنه فى تعبير الماسونية الخشن المتوقح يوضع الدين جنبا إلى جنب مع النعال ، لأن المقبل على الماسونية لايقبل عليها إلا وقد خلع دينه بالفعل أو أوشك على خلعه ، فالكلمة الخشنة لا تؤذيه ، بل قد تكون منه موضع ترحيب ! فهى كلمة للتوكيد .. وقد تكون للتهديد ! تهديد من بقيت فى قلبه بقية خفية من بقايا الدين .. فليتنبه وليخلعها قبل الدخول !

---

١ - سورة البقرة [١٤]
٢ - سورة آل عمران [٧٢]

أما فى دعوى الإنسانية فالتعبير للترغيب والتحبيب ، ومن ثم فهو مهذب لطيف يبتلعه من يبتلعه وهو مسرور ، أو قل إنه يبتلعه وهو أشبه بالمخدور .

ولكن هذا وذاك يدعوك فى النهاية أن تترك دينك وتواجه الحياة بلا دين ! فإذا فعلت ذلك اجتالتك الشياطين !

* * *

ولكن أناسا قد يخدعون بدعوى الإنسانية لما فيها من بريق ، فيؤمنون بها أو يدعون إليها غافلين عن الحقيقة التى تنطوى عليها . وقد لا يصدقون أصلا أنها دعوة إلى التحلل من الدين يبثها الشياطين فى الأرض لأمر يراد .

فلنصدق - مؤقتا - انها دعوى مخلصة للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره أو سلوكه أو مشاعره ، ليلتقى بالإنسانية كلها لقاء الصديق المخلص الذى يحب الخير للجميع ..

فلنصدق ذلك فى عالم المثل .. فى عالم الأحلام .. فما رصيد هذه الدعوى فى عالم الواقع ؟!

ما رصيدها فى العالم الذى تجتاحه القوميات من جانب ، والعصبيات العرقية والدينية والسياسية والاجتماعية من كل جانب ؟

فلنأخذ مثالا واحدا من العالم المعاصر .. من المعاملة التى يلقاها المسلمون فى كل مكان فى الأرض يقعون فيه فى حوزة غير المسلمين ، أو فى دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد ..

فلننظر إلى « الإنسانية » التى يعاملون بها و « السماحة » التى يقابلون بها ، « وسعة الصدر » و « حب الخير » الذى ينهال عليهم من كل مكان !

خذ مثال الحبشة ..

يبلغ المسلمون فيها ٥٥٪ على الأقل من مجموع السكان وذلك قبل ضم اريتريا - عنوة - إليها ، وأريتريا كلها مسلمون ، فكيف تعاملهم الدولة المسيحية المتسلطة عليهم ؟

لا يوجد فى الدولة وزير مسلم واحد يمثل أغلبية السكان ! ولا موظف واحد من كبار الموظفين ! ومدارس الدولة لا تعلم القرآن لأبناء المسلمين ولا تلقنهم مبادئ دينهم« ١ » ، وحين يفتح المسلمون « كتاتيب » لتعليم القرآن لأبنائهم

« ١ » فى مصر يدرس للتلاميذ الأقباط مبادئ دينهم على يد مدرسين مسيحيين ، وتوضع دروسهم فى الجدول الرسمى للدراسة وتعطى لهم الحرية الكاملة يقولون فى دروسهم كل مايريدون بلا رقيب عليهم ..

على نفقتهم الخاصة ، تظل الدولة تفرض عليها من الضرائب ما يثقل كاهلهم حتى يغلقوها !» ١ » ويحرم عليهم أن يتلقوا أى معونات من المسلمين من الخارج !» ٢ » وإلى عهد غير بعيد كان المسلم الذى يستدين من مسيحى حبشى ويعجز عن وفاء دينه يسترق لدائنه ! ووقف هيلاسلاسى عام ١٩٦٢ فى هيئة الأمم فألقى خطابا « ضافيا » أعلن فيه أنه فى خلال اثنى عشر عاما لن يكون فى الحبشة إلا دين واحد ! ولم يرتفع صوت واحد فى تلك « المؤسسة الإنسانية » يستنكر ذلك التصريح !

والفلبين كانت ذات يوم أرضا إسلامية فغزاها الصليبيون» ٣ » وحكموها قهرا عن أصحابها ، فكيف عاملوا المسلمين فيها ؟

لقد ظلوا يطاردونهم ويخرجونهم من أرضهم وديارهم وأموالهم حتى حصروهم فى قطاع من أصل أرضهم ، ثم سموهم « متمردين » فاستباحوا لأنفسهم قتلهم ، وقتالهم،وتحريق مزارعهم ، بل تحريقهم هم أنفسهم شفاء للحقد الصليبى المتأصل فى نفوسهم .. ولا يتحرك واحد فى الأرض كلها ليرد البلاء عن المسلمين ، ويكف عدوان المعتدين !

والهند حكمها المسلمون ثمانية قرون فلم يكرهوا أهلها على الإسلام ، ولم يضطهدوهم وهم يعبدون البقر ويعبدون الأوثان ، فلما حكمها الهنود فانظر كيف يعاملون المسلمين :

لاتنقطع أخبار « الشغب » كما تسميه الدولة والصحافة .. وخلاصتها أن يهجم الهندوس على القرى الإسلامية فيحرقوها على أصحابها ويقتلوا منها من تطوله أيديهم .. فيحتج المسلمون ، ويخرجون لرد العدوان فتعتقلهم الشرطة بتهمة إثارة الشغب وتودعهم فى السجون ! هذا وحكومة الهند حكومة « علمانية » أى أنها لا تقيم حكمها على الدين ، ولا تتعرض لأصحاب الدين ! ومن سنوات غير بعيدة صرح نهرو تصريحا عجبا قال فيه إن تقرير المصير حق لكل الناس .. إلا فى كشمير !! ولم يستنكر ذلك أحد فى العالمين !

« ١ » وفى مصر يفتح الأقباط - بجانب الدروس الدينية الرسمية التى يتلقونها فى مدارس الدولة - مدارس دينية خاصة تسمى « مدارس الاحد » لا تتعرض لها الدولة أى نوع من التعرض .

« ٢ » وفى مصر يتلقى الأقباط المعونات من الدول المسيحية والهيئات والافراد فلا تسألهم الدولة من اين يأخذون ولا فيم ينفقون .

« ٣ » كان « ماجلان » الذى يطلق عليه لقب « الرحالة العظيم » ممن قاموا بغزوة صليبية على الفلبين بعد إلحاح شديد على « البابا » ان يأذن له فى فتح تلك البلاد وضمها إلى المسيحية . وقد قتله الأهالى فى المعركة التى جرت على اثر تجرؤه على رفع الصليب على ارض بلادهم الإسلامية فسموا « المتبربرين » .

وفلسطين ظلت أربعة عشر قرنا من الزمان أرضا إسلامية .. ثم جاء اليهود ليقيموا عليها دولة يهودية ..ولم يستنكر أحد من « الإنسانيين » طرد السكان الأصليين وإجلاءهم عن أرضهم بالقنابل والمدافع ، بل بشق بطون الحوامل والتلهى بالتراهن على نوع الجنين كما فعلت العصابات اليهودية التى كان يرأس إحداها مناحم بيجن .. وإنما استنكرت من المسلمين أن يطالبوا بأرضهم ، وألا يخلوها عن طيب خاطر للغاصبين !

ويطول الأمر بنا لو رحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين فى قبضة غير المسلمين ، أو الذين يتعرضون لعدوان غير المسلمين فى كل مكان فى الأرض .. فى روسيا الشيوعية التى قتلت مايقرب من أربعة ملايين من المسلمين ، وفى يوغسلافيا التى قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم ، وفى أفغانستان التى تستخدم فيها الأسلحة المحرمة « دوليا » و « قانونيا » و « إنسانيا !» وفى أوغندا ، وفى تنزانيا ، وفى .. وفى .. وفى .. وفى ..

فما بال « الانسانيين » ؟ ما بالهم لا يتحركون ؟! مابالهم لا يصرخون فى وجه الظلم الكافر الذى لا قلب له ولا ضمير ؟!

إنما توجه دعوى « الانسانية » فقط ضد أصحاب الدين !

فمن كان متمسكا بدينه فهو « المتعصب » « ضيق الأفق » الذى يفرق بين البشر على أساس الدين ، ولا يتسع قلبه « للإنسانية » فيتعامل معها بلا حواجز فى القلب أو فى الفكر أو فى السلوك !

أو قل على وجه التحديد إن الذين يحاربون اليوم بدعوى « الإنسانية » هم المسلمون !

يحاربون بها من طريقين ، أو من أجل هدفين : الهدف الأول هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه، الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به فى كل الأرض . لكى تَتَبَهِمَ شخصيته وتتميع ؛ والهدف الثانى هو إزالة روح الجهاد من قلبه .. ليطمئن الأعداء ويستريحوا !!

فى الهدف الأول يقول المستشرق النمساوى المعاصر « فون جرونيباوم Von Grunebaum » فى كتاب له يسمى « الإسلام الحديث Modern Islam »[1] إن

« ١ » لا يتسع المجال هنا للتعليق على عنوان الكتاب الذى يقصد به أن الاسلام ليس شيئا ثابتا محدد المعالم ، وإنما هو شيء دائم التغير ! فالإسلام الاول شيء ، وإسلام القرون الوسطى (وهذا عنوان كتاب أخر لنفس المؤلف) شيء آخر ، والإسلام الحديث شيء ثالث ! وهذه القضية ذاتها من وسائل الحرب التى يستخدمها المستشرقون ضد الإسلام !

الحاجز الذى يحجز المسلم عن « التغريب Westernization » هو استعلاؤه بإيمانه ، وإنه لابد من تحطيم ذلك الحاجز لكى تتم عملية التغريب !

أرأيت ! إنه هدف مقصود لذاته .. ألا يشعر المسلم بالاستعلاء بالإيمان ! يراد له أن تذوب شخصيته وتتميع ، ولا تكون لها تلك السمة المميزة التى أرادها الله :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »« ١ » .

إن أعداء الإسلام لن يستريحوا حتى يزيلوا ذلك التميز الذى يحسه المؤمن :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »« ٢ » .

وتلك قضية قديمة عمرها الآن أكثر من أربعة عشر قرنا .. أى منذ وجد المجتمع الإسلامى فى المدينة .. ولكن وسائل القتال تتغير ، ومن بينها اليوم ما نسميه « الغزو الفكرى » ومن بين الغزو الفكرى هذه الدعوى .. دعوى الإنسانية !

فباسم الإنسانية يقال للمسلم الحق : يا أخى لا تعتزل الناس ! إن الانسانية كلها أسرة واحدة ، فتعامل مع الأسرة كفرد منها ، ولا تميز نفسك عنها ! وشارك فى النشاط « الإنسانى » ومظاهر الحضارة « الإنسانية » !

ولا نقول لهؤلاء : هل تعاملون أنتم المسلمين كأفراد من أسرتكم « الإنسانية » « العالمية » فتعطونهم حقهم بوصفهم أفرادا فى تلك الأسرة، فلا تطاردونهم ، ولا تنبذونهم ، ولا تتعصبون ضدهم ، ولا تتجمعون على أذاهم ؟!

لا نقول لهم ذلك لأنه لا فائدة من جدالهم . ولكن نقول « شهد شاهد من أهلها » فهو غير متهم فيما يشهد به ! ذلك هو « توينبى » المؤرخ المعاصر المشهور ، وتعصبه ضد الاسلام والمسلمين أمر كذلك مشهور !

يقول فى محاضرة له باسم الإسلام والغرب والمستقبل بعد أن قسم العالم تجاه عملية « التغريب » إلى متحمسين بغير عقل « ٣ » ، ومقلدين بلا تحفظ ، وبعد أن امتدح حركة كمال أتاتورك المقلدة للغرب :

« ١ » سورة البقرة [١٤٣]

« ٢ » سورة البقرة [٢١٧]

٣ يقصد بهم – بصفة خاصة – المسلمين المحافظين على إسلامهم .

« ويجب على المراقب الغربى أن يراعى حدود اللياقة ولا يسخر « ١ » لأن ما يحاول (المقلدون) الأتراك القيام به هو تغيير وطنهم ومواطنيهم مماهم فيه إلى حالة كنا نحن منذ التقاء الغرب بالإسلام ننتقدهم لعدم وجودها طبيعة فيهم . وها هم حاولوا - ولو متأخرين - إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربى .

« وعندما ندرك تماما هدفهم الذى رموا إليه لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة : هل يبرر هذا الهدف حقا الجهد الذى بذلوه فى صراعهم لبلوغه « ٢ » ؟!

« من المؤكد أننا لم نكن نحب التركى التقليدى المسلم الذى كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من عل على أننا فريسيون زناديق ! ويحمد الله على أنه لم يجعله مثلنا . وبما أن التركى التقليدى القديم كان يعتبر نفسه من طينة خاصة ، حاولنا أن نحط من كبريائه بتصوير هذه الطينة الخاصة شيئا ممقوتا وسميناه « التركى النكرة » .. إلى أن استطعنا أخيرا أن نحطم سلاحه النفسى وحرضناه على القيام بهذه الثورة (المقلدة) التى استهلكها الآن أمام أعيننا .. « ٣ »

« والآن ، وبعد أن تغير التركى بتحريضنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلا لنا ، وللشعوب الغربية من حوله ، الآن نحس نحن بالضيق والحرج ، بل ونميل إلى الشعور بالسخط والحنق ، تماما كما شعر صموئيل عندما اعترف بنو إسرائيل بفظاظة غايتهم ورغبوا فى وجود ملك ..

« لذلك فإن شكوانا الجديدة من الأتراك فى هذا الظرف أمر أقل ما يقال فيه إنه غير لائق « ٤ » . وبإمكان التركى أن يجيبنا أنه مهما فعل فهو مخطئ فى نظرنا ..

« على كل حال ، قد يكون انتقادنا للأتراك فظا وغير لائق ، ولكن ليس فيه أى تحامل « ٥ » ولا هو خارج عن الموضوع ، إذ ما الذى سيكسبه التراث الحضارى ، فى حالة عدم ذهاب جهود الأتراك سدى ؟ أى فى حالة نجاحهم - فرضا - النجاح المرجو ؟ وهذه النقطة تكشف حركة المقلدين عن نقطتى ضعفها الأصيلتين فيها :

« ١ » هذا اعتراف من المؤلف بأن الغربيين يسخرون من الأتراك بعد أن تغربوا وتركوا إسلامهم !

« ٢ » لاحظ سخرية المؤلف بالأتراك ، مع أنه ينصح الغربيين بعدم السخرية بهم !

« ٣ » يلتقى الصليبيون جميعا فى كراهيتهم لهذا « السلاح النفسى » وهو استعلاء المسلم بإيمانه . راجع قوله « جرونيباوم » المشار إليها آنفا .

« ٤ » وهذا اعتراف بأن سخرية الغرب بالأتراك المقلدين تصل إلى حد « عدم اللياقة » أى سوء الأدب !

« ٥ » يعود إلى سخريته - على طريقته الخاصة - فيقول إن سخرية الغرب بالأتراك المقلدين ليس فيها أى تحامل ! يعنى أنهم يستحقون ذلك !

« أولاهما : أن الحركة مقلدة متبعة ، وليست مخترعة ، لذا ففى حالة نجاحها - جدلا - لن تزيد إلا فى كمية المصنوعات التى تنتجها الآلة فى المجتمعات المقلدة ، بدل أن تطلق شيئا من الطاقة المبدعة فى النفس البشرية .

« ثانيهما : فى حالة النجاح الباهت - المفترض - هذا ، وهو أقصى ما يمكن للمقلدين الوصول إليه ، سيكون هناك خلاص - مجرد خلاص - لأقلية ضئيلة فى أى مجتمع تبنى طريقة التقليد ، لأن الغالبية لا تأمل فى التحول إلى أعضاء فى الطبقة الحاكمة للحضارة المقلدة ، ومآل هذه الغالبية هو تضخيم عدد بروليتاريا الحضارة المقلدة .

« كانت ملاحظة موسولينى ملاحظة حادة عندما قال : هناك شعوب بروليتارية « ١ » مثلما هناك طبقات بروليتارية وأفراد بروليتاريون » « ٢ » .

تلك هى القضية ! إن تمسك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الاسلام بصورة جنونية .. ولايهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه (ومن وسائل ذلك كما أسلفنا دعوى الانسانية والعالمية) فإذا تميع بالفعل ، ولم تعد له سمته المميزة له ، احتقروه كما احتقرت أوربا الأتراك بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم و « فرنجهم » و « غربهم » ! بينما يقول أحد المبشرين فى كتاب « الغارة فى العالم الإسلامى» إن أوربا كانت تفزع من « الرجل المريض » (وهو مريض) لأن وراءه ثلثمائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده « ٣ » وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية أو الهدف الثانى من استخدام دعوى « الإنسانية » فى محاربة المسلمين .

« ١ » اى شعوب ذليلة تابعة مقدر عليها الذل والتبعية لا فكاك لها منها !

« ٢ » تعريب الدكتور نبيل صبحى باسم « الاسلام ... والغرب .. والمستقبل » ص ٥١ - ٥٣

« ٣ » ظهر فى بريطانيا فى أوائل الستينات كتاب بعنوان « معضلة الرجل الابيض » The White Man s Dilemma شرح فيه مؤلفه موقف الرجل الابيض من الرجل الملون ، وخلاصة فكرة الكتاب أن الرجل الابيض يتصايح اليوم بضرورة تحديد نسل الرجل الملون ، ويحاول إقناع الرجل الملون بتحديد نسله بشتى الوسائل على أساس أن أقوات الأرض لا تكفى لمواجهة « الانفجار السكانى » فى المستقبل . ويناقش المؤلف هذا الزعم ، ويثبت أن موارد الارض لم تستثمر كلها بعد ، فضلا عن أن موارد البحر تعتبر غير مستثمرة اصلا . وأن الارض - بيابسها ومياهها - تحمل من الاقوات مايكفى اضعاف اضعاف العدد الحالى من البشر . ولكن الحقيقة الكامنة وراء هذه الصيحة أن الرجل الابيض يخشى على سيادته وسيطرته ورفاهيته الناعمة من يقظة الرجل الملون الذى سلب الرجل الابيض خيراته عن طريق السيطرة والاستعمار . فاذا ظل نسل الرجل الملون يتزايد بنسبته الحالية - بينما نسل الرجل الابيض يتناقص بسبب عمل المراة وانشغالها بالمحافظة على رشاقتها وانشغالها بملذاتها عن الحمل والامومة - فسيستيقظ الرجل الملون إلى الحقيقة الواقعة ، وهى أن خيراته التى تشتد حاجته إليها بسبب تزايد أعداده مسلوبة بيد الرجل الابيض . وعندئذ سيثور على الرجل الابيض لاسترداد خيراته المسلوبة ، فيفقد الرجل الابيض سلطانه ورفاهيته .. ومن أجل ذلك ينصحه بتحديد نسله ويخوفه بالجوع !!

إن أشد مايخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه !

وقد مر بنا فى الفصل الماضى كلام المستشرق الكندى المعاصر « ولفرد كانتول سميث » الذى يقرر فيه أن أوربا لا تستطيع أن تنسى الفزع الذى ظلت تزاوله عدة قرون من الفتح الاسلامى ، وأن هذا الفزع لايدانيه شىء فى العصر الحديث ، ولا فزع أوربا من استيلاء الشيوعية على تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٤٨ !

وهذا هو المستشرق الامريكى « روبرت بين Robert Payne يقول فى مقدمة كتابه السيف المقدس The Sacred Sword :

« إن لدينا اسبابا قوية لدراسة العرب والتعرف على طريقتهم . فقد غزوا الدنيا كلها من قبل . وقد يفعلونها مرة ثانية ! إن النار التى أشعلها محمد ماتزال تشتعل بقوة ، وهناك الف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء » !

ولنترك المستقبل لعلم الله .. فما ندرى ماذا يكون من أمر المسلمين غدا . ولكنا ننظر إلى الحاضر ذاته فنلمح السبب فى فزع أعداء الإسلام من روح الجهاد الكامنة فيه ..

إن أوربا لم تتضخم كما تضخمت اليوم ، ولم تصل إلى الرفاهية الناعمة التى تعيش فيها إلا باستعمار العالم الإسلامى ونهب خيراته واستعباد أهله وإخضاعهم لنفوذها . فماذا يكون إذا استيقظت فى المسلمين روح الجهاد فطردوا ذلك الاستعمار بكل أنواعه الخفية والظاهرة ، العسكرى منها والسياسى والاقتصادى ، واستردوا سيادتهم على أرضهم وارواحهم وأفكارهم وضمائرهم ؟!

ماذا يحدث لأوربا لو تم ذلك ؟ ومن اين لها الرفاهية الناعمة التى تعيش فيها اليوم ، إذا احتفظ المسلمون بخيراتهم لأنفسهم ، أو باعوها لأوربا بيعا حرا بالسعر الحقيقى الذى تستحقه فى التجارة الحرة المتكافئة ؟ ومن أين لها التضخم الذى تمارسه اليوم ، سواء التضخم العسكرى أو العلمى أو المادى ، إذا انحسرت مواردها وكسدت بضاعتها التى توزعها اليوم على « المتخلفين » وتربح فيها بغير حساب ؟!

كلا ! مايحب أعداء الاسلام قط أن تستيقظ روح الجهاد الكامنة فيه ، ولو لم يتحقق شىء من كلام روبرت بين ، الذى يزعج به أعصاب الغرب ليشتدوا فى

الضغط على المسلمين ولا يتيحوا لهم أى فرصة للنهوض .. أو - على وجه التحديد - لا يتيحوا لهم أى فرصة للرجوع إلى حقيقة الإسلام التى فقدوها بعملية « التغريب » !

ودعوى الإنسانية من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين .

ياأخى ! لقد تغيرت الدنيا ! لا تتكلم عن الجهاد ! أو إن كنت لابد فاعلا فتكلم عن الجهاد الدفاعى فحسب ! ولا تتكلم عنه إلا فى أضيق الحدود ! فهذا الذى يتناسب اليوم مع « الإنسانية المتحضرة » ! لقد كانت للجهاد ظروف تاريخية وانقضت ! أما اليوم فقد أصبحت الإنسانية أسرة واحدة ! وهناك قانون دولى وهيئات دولية تنظر فى حقك وتحل قضاياك بالطرق « الدبلوماسية »! فإذا فشلت تلك الهيئات فى رد حقك المغتصب فعندئذ لك أن تقاتل دون حقك ولكن لاتسمه جهادا !.. فالجهاد قد مضى وقته ! إنما سمه دفاعا عن حقوقك المشروعة !!

أما نشر الدعوة فإياك أن تتحدث فيه عن الجهاد ! هناك اليوم وسائل « إنسانية » لنشر الدعوة فاسلكها إن شئت .. هناك الكتاب والمذياع والتلفاز والمحاضرة والدرس .. إياك إياك أن تتحدث عن الجهاد فتكون مضغة فى أفواه المتحضرين !

ولا نقول لهؤلاء : أين هى الهيئات الدولية فى قضية فلسطين ؟ وفى قضية الفلبين ؟ وفى قضية كشمير ؟ وفى قضية افغانستان ؟ وفى كل قضية كان المسلمون طرفا فيها ؟ أين هى الحقوق التى ترد بالطرق الدولية أو العدوان الذى يصد ؟!

ولا نقول لهم : ماقيمة هذه الهيئات الدولية والقانون الدولى وكل الاجراءات الدولية ، إذا كان هذا القانون يعترف رسميا بأن هناك جبابرة خمسة فى الأرض لهم الحق - الشرعى !! - أن يوقفوا أى إجراء لا يوافق أهواءهم ومطامعهم العدوانية - مهما يكن عادلا فى ذاته - عن طريق « الفيتو » (حق الاعتراض) ؟!

لا نقول لهم ذلك لأنه لا فائدة من جدالهم ! إنما نقول لهم إن إسرائيل تضرب بقرارات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن عرض الحائط ، وتعلن فى تبجح - وهى المعتدية دائما - أنها لن تخضع لهذه القرارات ولن تلتزم بها ،

ولا يتحرك « الإنسانيون » لتأديبها .. إنما يشهر سلاح « الإنسانية » فى وجه المسلمين فقط حين يطالبون بحقهم المشروع !

* * *

الإسلام – دين الله – صريح غاية الصراحة ، حاسم كل الحسم ، لايداور ولا يناور ، ولا يتاجر بالشعارات .

« خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن »« ١ »

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟» « ٢ »

« ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، ومايستوى الأحياء ولا الأموات .. » « ٣ »

ويقرر فى صراحة حاسمة أن ولاء المسلم هو لله ولرسوله وللمؤمنين ، ويحرم الولاء فيما وراء ذلك :

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا .. » « ٤ »

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء »« ٥ »

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم »« ٦ »

ويقرر فى صراحة حاسمة كذلك أن الجهاد لنشر الدعوة ماض الى يوم القيامة :

« وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله »« ٧ »

ولكنه لايقاتل من أجل فرض عقيدته على الناس وهم كارهون . إنما يقاتل كما قلنا من قبل لإزالة القوى الجاهلية التى تمنع وصول الحق للناس دون حواجز نفسية أو حسية مادية ، ممثلة فى نظم جاهلية لها فى حس الناس ثقل « الأمر الواقع » وجيوش ودول تحمى تلك النظم الجاهلية وتعطيها ثقلها فى الأرض ، فإذا أزيلت الحواجز فلا إكراه فى الدين :

« ١ » سورة التغابن [٢]
« ٢ » سورة الزمر [٩]
« ٣ » سورة فاطر [١٩ – ٢٢]
« ٤ » سورة المائدة [٥٥]
« ٥ » سورة آل عمران [٢٨]
« ٦ » سورة المائدة [٥١]
« ٧ » سورة الأنفال [٣٩]

« لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى .. »« ١ »

إنما يقام العدل الربانى ليستمتع به الناس ويعيشوا فى ظله ولو كانوا لايعتنقون عقيدة الإسلام .

وقد فتح المسلمون مصر وكان سكانها على دين النصرانية ، فلم يكرههم المسلمون على اعتناق الإسلام . ولو كان هناك إكراه مابقى الأقباط على دينهم حتى هذه اللحظة !

إنما أقام المسلمون العدل الربانى كما أمرهم الله فردوا للأقباط كرامتهم الإنسانية المفقودة التى سلبهم إياها حكامهم الرومان وهم على نفس الدين ولكن على مذهب مخالف . فقد كان الرومان يلهبون ظهور الأقباط بالسياط لمخالفتهم إياهم فى المذهب فلايتحرك الأقباط لرد العدوان ، ولايجدون ملجأ يلجئون إليه يمنحهم الحرية الاعتقادية ويمنحهم العدل والكرامة . فلما جاء المسلمون منحوهم كل ذلك . وقصة القبطى الذى ذهب إلى المدينة ليشكو إلى عمر بن الخطاب ضربة العصا التى وقعت على ظهر ابنه من ابن عمرو بن العاص شهيرة لاتحتاج إلى إعادة . ولكن دلالتها واضحة ، فهذا القبطى الذى كان يتلقى سياط الرومان ولايشكو ولايثأر لكرامته المسلوبة ، يسافر هذه الرحلة الطويلة طلبا للعدل ، لأن الإسلام رد له كرامته فصار يستنكر الظلم ويطلب العدل ، ولأن الإسلام أوجد له ملجأ حقيقيا يتحقق له العدل فيه فطلبه هناك .

ومن أجل هذا يقاتل المسلمون ، لا لفرض عقيدتهم ، ولا للتوسع الاستعمارى ، ولا لسلب أقوات الناس والاستئثار بها لأنفسهم ، ولا لأى فائدة أرضية من التى تسعى الدول إليها ، ولكن قياما بأمر الله ، ونشرا لهذا العدل الربانى فى الأرض .

وفتح المسلمون الأندلس ، وظلوا هنالك ثمانية قرون .. فلم يفرضوا عقيدة الإسلام على نصارى الأندلس،بل دخل منهم من دخل الإسلام حبا فيه وإيمانا بصدقه ، وبقى النصارى نصارى حتى ردوا للمسلمين الجميل بطردهم من الأندلس مع التعذيب والتنكيل والتشريد على أبشع صورة وعاها التاريخ . ونشر المسلمون النور فى الأندلس وغيرها من البلاد عن طريق مدارسها وجامعاتها وأساتذتها وكتبها وعلومها وحضارتها ، التى مرت شهادات الشاهدين بها من

---

١ - سورة البقرة [٢٥٦]

منصفى الغرب على قلتهم ! وكانت الأندلس هى الملاذ الآمن لليهود والنصارى على السواء ، يشعرون فيها بالأمن الكامل فى ظل الحكم الإسلامى ، بينما أوروبا كلها تضطهد اليهود وتنكل بهم ، وبينما النصارى المخالفون لمذهب الكنيسة يعيشون فى رعب دائم من الإرهاب .

وفتح المسلمون الهند ، وحكموها ثمانية قرون .. فلم يفرضوا العقيدة الإسلامية على الوثنيين الهنود ، بل تركوهم لعقائدهم مع أن فيها مالا يعقله عاقل ، من عبادة للبقر ، وتبرك بروثها وبولها .. وإنما فرضوا عليهم فقط أن يكفوا عن بعض عاداتهم الوحشية التى كانوا يمارسونها من دفن الأرملة حية مع زوجها المتوفى ، أو حرقها حية .. من أجل رفع هؤلاء الناس إلى درجة الآدمية فى بعض تصرفاتهم دون المساس بعقائدهم . وظل الهندوس محافظين على عقائدهم وتقاليدهم فى ظل الحكم الاسلامى حتى تسلموا حكم الهند بمساعدة الصليبيين الإنجليز،فردوا الجميل للمسلمين بالعدوان المستمر عليهم وتحريق قراهم وتعمد الاثارة الدائمة لهم ، والتهييج الدائم لخواطرهم ،

كذلك كان فتح المسلمين للأرض .. ومن أجل هذه المعانى الرفيعة أمرهم الله بالقتال لنشر الدعوة .. ومع ذلك فهم لايبدأون بالقتال ، إنما يبدأون بعرض الإسلام ، فإن لم يقبل منهم فالجزية ، فإن لم تقبل فالقتال من أجل إخراج الناس من ظلمات الجاهلية وظلمها إلى عدل الإسلام وسماحته ، على النحو الذى تم به الأمر فى واقع التاريخ .

وللحرب مع ذلك تقاليد .. بل قل إنها أخلاقيات الإسلام فى كل شىء حتى مع المشركين المعاندين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجيشه يعلمه أخلاقيات الحرب فى الإسلام « اغزوا باسم الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلا تغلُوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .. » الحديث « ١ »

ثم إن أعطوا الأعداء عهدا أو موثقا فالله يأمرهم أن يوفوا بالعهد ولا ينقضوا الميثاق ، تحت أى ظرف من الظروف ولأى هدف من الأهداف . فإن خافوا منهم خيانة فلينبذوا إليهم عهدهم علانية ولايغدروا ولايفاجئوا عدوهم بالقتال قبل انقضاء العهد :

« ١ » رواه مسلم

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ماتفعلون . ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، أن تكون امة هى أربى من امة . إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون . ولاتتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم »« ١ »

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لايحب الخائنين »« ٢ »

ولقد كان معاوية قد أعطى عهداً للروم إلى أمد محدد ، ثم جاءته عيونه تخبره أن القوم يستغلون الهدنة للاستعداد للانقضاض على المسلمين ، فأراد أن يباغتهم ، فاستشار فأبى عليه مستشاروه ، وقالوا له إما أن تنبذ إليهم عهدهم على سواء وإما أن تنتظر إلى نهاية العهد ، والله ينصرك بالطاعة . فانتظر حتى نهاية العهد وانتصر بإذن الله .

ويروى التاريخ كيف غدر الصليبيون بعهدهم مع صلاح الدين وفاجئوا المسلمين الآمنين على بغتة فاحتموا بالمسجد فدخلوا عليهم المسجد واعملوا فيهم القتل حتى غاصت الخيل إلى ركبها فى الدماء .. فلما دارت الدورة وانتصر صلاح الدين ابى أن ينتقم منهم - سماحة - ولم يغدر قط بميثاق واحد أعطاهم إياه .

وظل وفاء المسلمين بمواثيقهم فى السلم والحرب مضرب المثل خلال التاريخ ، اتباعا لتعاليم الاسلام ، وتخلقا بأخلاق لا إله الا الله .

* * *

والاسلام صريح فى توجيه اتباعه إلى التميز عن أحوال الجاهلية ، التميز بنظافة السمت ونظافة الأخلاق ونظافة السلوك ، والاستعلاء بالايمان على كل مصدر ليس إسلاميا أو متعارضٍ مع الإسلام ، حتى لو لحقت بهم هزيمة مؤقتة أو ضعف طارئ :

---

١ . سورة النحل [٩١ - ٩٤]
٢ . سورة الأنفال [٥٨]

« ولاتهنوا ولاتحزنوا وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »« ١ »

ومصدر التميز هو الإحساس بأنهم على الهدى وغيرهم على الضلال ، وأن المنهج الذى يعيشون به هو المنهج الأعلى لأنه المنهج الربانى ، والذى يعيش عليه غيرهم هو المنهج الأدنى لأنه منهج جاهلى . فهو ليس تميزا مبنيا على الجنس ولا اللون ولا الجاه ولا الغنى ولا القوة ولا أى معنى من المعانى الأرضية التى تعتز بها الجاهلية وتستعلى بها على الناس . إنما التميز المستمد من معرفة المنهج الربانى واتباعه ..

ومع ذلك كله فكيف يكون التعامل الإسلامى مع غير المسلمين ؟!

« لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين »« ٢ »

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذى أخدان »« ٣ »

كما أنه ليس مقتضى التميز والاستعلاء هو « مخاصمة » كل مايأتى من مصدر غير إسلامى ، إن كان شيئا نافعا فى ذاته ، ولم يكن متعارضا مع الإسلام ، فقد أخذ المسلمون الأوائل من الحضارة الفارسية والحضارة البيزنطية ما رأوه نافعا لهم ولايتعارض مع عقيدتهم واخلاقهم وافكارهم وتصوراتهم الإسلامية . إنما مقتضى ذلك الا يأخذوا من مصدر غير إسلامى امرا يتصل بالعقيدة أو يتصل بالقيم أو يتصل بالشريعة او يتصل بالاخلاق لأن مرجعهم فى ذلك كله هو كتاب الله وسنة رسوله ، وهو حسبهم وفيه كل مايحتاجون إليه فى هذه الأمور . أما « الأدوات » الحضارية ، واما « العلم » واما « التجارب » النافعة فلا خصومة معها ، ولا عداء مادامت لاتصادم أصلا من أصول الاسلام .

* * *

ذلك هو الواقع الإسلامى .. وخلاصته أن « الإنسانية » الحقيقية « والسماحة » الحقيقية هى الإسلام !

« ١ » سورة آل عمران [١٣٩]
« ٢ » سورة الممتحنة [٨]
« ٣ » سورة المائدة [٥]

فحيث تكون دعاوى الانسانية والعالمية والتسامح فى كل النظم مجرد شعارات لارصيد لها من الواقع ، فإنها فى الإسلام واقع حقيقى ، لادعاوى ولاشعارات مرفوعة بغير رصيد .

والإسلام دين الله الحق ، وكل أمر فيه – بما فى ذلك الجهاد لنشر الدعوة ، والتميز والاستعلاء بالإيمان ، واعتزال أدران الجاهلية وعدم المشاركة فيها – هو أمر ربانى ، لم يبتدعه المسلمون من عند أنفسهم ، ولاقاموا به لصالح أنفسهم ، إنما تنفيذاً لأمر الله . سواء نالهم منه فى الأرض الغنم أو الغرم – بالمقاييس البشرية المحدودة – إنما يصنعونه ابتغاء مرضاة الله ، وطمعا فى الجزاء فى الآخرة .

ولكن غير المسلمين لايؤمنون بذلك بطبيعة الحال ، فلاننناقشهم بمنطق الإيمان الذى لايلزمهم . بل نفترض – جدلا – أن كل النظم ذات حق متساو فى الوجود وفى الانتشار فى الأرض .. فلننظر فى الواقع التاريخى نظرة « علمية » « موضوعية » « مجردة » . أى النظم مارس حقه فى الوجود وفى الانتشار فى الأرض بروح إنسانية حقيقية ، وأيها مارس الوجود والانتشار بسلوك خال من القيم الإنسانية هابط إلى الحضيض ؟!

فمن كان فى شك فلينظر إلى الواقع المعاصر ومايتم فيه من الوان من البربرية الوحشية لاتخطر على البال ، وألوان من نقض المواثيق لاتخطر على البال ، وألوان من العبث بكرامات الشعوب والاستخفاف « بحقوق الإنسان » لاتخطر على البال !

وذلك رغم كل الشعارات المرفوعة ، والقيم المسطرة فى ديباجات الدساتير والمعاهدات والمواثيق !

أما الإسلام فلايداور ولايناور ، ولايرفع الشعارات البراقة بلا رصيد . إنما هو رغم الصراحة الحاسمة التى يعالج بها كل أمر ، هو الذى يطبق الروح الانسانية الحقيقية والتسامح الحقيقى .. ولاعجب فى ذلك ، فإنما هو المنهج الربانى الحق لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، وهو الصراط المستقيم الذى لاعوج فيه .

الإلحـــاد

الإلحاد - بمعنى إنكار وجود الله ، والقول بأن الكون وجد بلاخالق أو أن المادة أزلية أبدية ، وهى الخالق والمخلوق فى ذات الوقت - بدعة جديدة فى الضلالة فيما أحسب ، لم توجد من قبل فى جاهليات التاريخ السابقة ، ومن المؤكد على أى حال أنها لم توجد بهذه الصورة وبهذا الاتساع الذى تمارسه الجاهلية المعاصرة ، فى أى فترة سابقة من فترات التاريخ .

وبعض الناس يشير إلى الآية الكريمة : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر »« ١ » ويستدلون منها على أنه وجد فى الجاهلية العربية (وبالتالى فى غيرها) من ينكر وجود الله ، وأن هؤلاء الدهريين كما أطلق عليهم هم صنو القائلين «بالطبيعة» المنكرين لوجود الله .

والآية - فيما أرى - لاتعطى هذه الدلالة بصورة قاطعة ، فإنها تقطع فقط بأن القوم المشار إليهم ينكرون البعث ، ولكنها لاتقطع بأنهم ينكرون وجود الله .

وما لم يثبت من مصدر يقينى« ٢ » أنه وجد فى العرب أو فى غيرهم من الأمم من قبل من ينكر وجود الله، فأغلب الظن عندى أن هؤلاء القوم المشار إليهم فى الآية هم الذين يؤمنون بوجود الله وبأنه هو الخالق المدبر ثم ينكرون قـدرته سبحانه وتعالى على بعث الموتى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن لله »« ٣ » « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل : من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون »« ٤ »

ومع إقرارهم بذلك كله فقد كانوا ينكرون البعث إنكارا شديدا ويعجّبون ممن

« ١ » سورة الجاثية [٢٤]
« ٢ » أى حديث مقطوع بصحته .
« ٣ » سورة لقمان [٢٥]
« ٤ » سورة المؤمنون [٨٤ - ٨٩]

يقول به : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ بل الذين لايؤمنـون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد »« ١ » .

فتكذيبهم بالبعث لم يكن ناشئا من إنكارهم لوجود الله،إنما من إنكارهم قدرته سبحانه وتعالى على إحياء الموتى بعد أن بليت أجسادهم وضلوا فى الأرض : « وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد »« ٢ » .

ولذلك كان الجدل معهم فى هذا الموضوع يدور كله حول معنى واحد هو أن الذى خلق الخلق من العدم أول مرة قادر على أن ينشئهم مرة أخرى :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون.أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون »« ٣ » .

« وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا »« ٤ » .

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيـده وهو أهـون عليه . وله المثـل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » « ٥ »

والذين أطلق عليهم اسم « الدهريين » قوم ينكرون البعث إنكارا مطلقا ، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا ، أى لاتوجد حياة أخرى بعدها . يموت منا من يموت ويحيا منا من يحيا ، ومايهلكنا إلا مرور الزمن . فكلما مر الزمن ماتت نفوس .. ولكن لابعث وراء ذلك ولاحياة . أما إنكارهم لوجود الله فاستـدلال لاتدل عليه الآية دلالة صريحة ولادلالة لازمة . والقوم إنما نسبوا إلى الدهر – أى إلى مرور الزمن – أنه هو الذى يهلكهم ، ولكنهم لم يقولوا إن الدهر هو الذى خلقهم أو هو الذى منحهم الحياة . أى أنهم لم يتخذوه إلها بدلا من الله !

« ١ » سورة سبأ [٧ – ٨]
« ٢ » سورة السجدة [١٠]
« ٣ » سورة يس [٧٨ – ٨٣]
« ٤ » سورة الإسراء [٩٨ – ٩٩]
« ٥ » سورة الروم [٢٧]

وحتى لو فرضنا جدلا - بغير دليل يقينى - أنهم أنكروا وجود الله ، فليس هناك من يقول إنهم كانوا كثرة يحسب لها حساب ، ولا إنهم كانوا هم الصورة الغالبة للجاهلية . أما إنكار وجود الله على النحو الذى تتبجح به الجاهلية المعاصرة ، وبالسعة التى تمارس بها ذلك التبجح ، فأمر غير مسبوق فى تاريخ البشرية ..

ذلك أن الفطرة بذاتها تعرف وجود الله ، وتتجه إليه اتجاها فطريا بالعبادة على نحو من الأنحاء .. ولو ضلت الطريق ! ولم يكن الضلال الغالب على البشرية فى جاهلياتها هو إنكار وجود الله ، إنما كان الضلال الغالب هو الشرك ، وتصور الله على غير حقيقته . فقد يتصورون أنه هو الشمس أو هو القمر أو هو النجم أو ما إلى ذلك من المخلوقات . « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »« ١ »

« وأنه هو رب الشعرى »« ٢ »

أو يتصورونه آلهة متعددة متعادلة فى القوة والسطوة كإله الخير وإله الشر عند الفرس ، يتنازعان أبدا ولايغلب أحدهما الآخر ، أو غير متعادلة كما كان الرومان والإغريق يؤمنون بوجود إله كبير هو رب الأرباب ، ودونه آلهة شتى ، وكما كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بأن الله هو رب الأرباب الخالق الرازق المهيمن ، وثمة آلهة أخرى يشاركونه فى بعض الأمر فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » « ٣ »

ولم يبعث الله رسولا ولا نبيا ليقول للناس إن هناك إلها،فالفطرة تعرف ذلك بغير رسول ! ولاليقول لهم إن هناك إلها فاعبدوه . فالفطرة تتجه بالعبادة تلقائيا إلى الإله الذى تعتقد بوجوده بغير رسول ! فقد أودع الله ذلك كله فى الفطرة والبشر مازالوا فى عالم الذر :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟! قالوا : بلى ! شهدنا »« ٤ » !

« ١ » سورة فصلت [٣٧]	« ٣ » سورة الزمر [٣]
« ٢ » سورة النجم [٤٩]	« ٤ » سورة الأعراف [١٧٢]

إنما الذى أرسل به الرسل جميعا هو « التوحيد »

« فاعلم أنه لا إله إلا الله » « ١ »

« اعبدوا الله مالكم من إله غيره » « ٢ »

وذلك لتصحيح مسار العقيدة وتقويم الفطرة مما تقع فيه من الضلال ، لا لإنشاء العقيدة ابتداء وإثبات وجود الله :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » « ٣ »

نعم .. تعرف الفطرة بذاتها وجود الله ، وتتجه إليه بالعبادة منذ أن أخذ الله من بنى أدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم ..

ولاندرى نحن كيف تم ذلك ..

ولكنا نلحظ من أحوال الفطرة مصداق تلك الحقيقة .

هناك منافذ فى الفطرة تتلقى إيقاعات من الكون والحياة ، فتستيقظ من غفلتها ، إن كانت غافلة ؛ فتروح تتساءل : ماوراء ذلك ؟ ومن وراء ذلك ؟ .. فتهتدى إلى وجود الله ثم تتصوره على حقيقته ، فردا صمدا خالقا رازقا مدبرا مهيمنا .. فتعبده العبادة الحقة وتخلص له العبادة ، أو تضل فتتصوره على غير حقيقته ، وتشرك معه آلهة أخرى . ولكنها فى الحالين تعرف وجوده ، وتتوجه إليه بالعبادة على نحو من الأنحاء .

هناك بادئ ذى بدء هذا الكون الهائل ، الذى يروع الحس بضخامته المعجزة .

وبغير الأدوات التى استحدثها الإنسان لتزيد بصره حدة ، وتجعله ينفذ فى آماد الكون المتطاولة التى لاتنفذ إليها النظرة بالعين المجردة ، كان الإنسان يحس بضخامة الكون وسعته المعجزة ، من رؤية السماء التى لايحيط بها بصره ، ورؤية الشمس والقمر ، ورؤية العدد الهائل من النجوم التى يعجز عن إحصائها .. وكان يروعه ذلك كله ويسترعى انتباهه فيظل يفكر فيه ، ويتساءل .. أوتتساءل فطرته ، من وراء ذلك ؟ وماذا وراء ذلك .. فيهتدى الى الله الحق ، أو يضل فيتصور الشمس هى الله ، أو القمر هو الله ، أو النجم هو

---

١ - سورة محمد [١٩]

٢ - سورة هود [٦١]

٣ - سورة الروم [٣٠]

الله .. أو أنها جميعا آلهة فى وقت واحد . ولكنه فى كل حالة يعلم أن هناك خالقا لهذا الكون الهائل ، فيتخيله على صورة من الصور ، ويعبده لونا من العبادة ، يحتوى على ركوع وسجود ، وشعائر أخرى والتزامات .

وحين مد الإنسان ببصره إلى داخل الكون من خلال المناظير رأى عجبا يأخذ بالألباب !

رأى أن الشمس كلها والمجموعة الشمسية من حولها ليست إلا « نجما » واحدا من نجوم لاتحصى فى مجموعة واحدة تعرف « بالمجرة » وأن المجرة التى فيها شمسنا ليست إلا واحدة من مجرات أخرى غيرها فى الكون تعد بالملايين ! كلها ذات نجوم تعد بالملايين !

ورأى أن هناك نجوما تبعد عنا عدة آلاف .. لا من الأميال .. ولامن ألوف الأميال (أى ألوف الألوف) ولكن من السنين الضوئية ! أى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كاملة وهى رقم فلكى لايتعامل به البشر على سطح الأرض :

١٨٦٠٠٠ × ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥٫٢٥ = ٥٫٨٦٩٫٧١٣٫٦٠٠٫٠٠٠ ميلا تقريبا .

ورأى من حيث الحجم أن هناك نجوما تبلغ أضعاف حجم شمسنا ، التى لانراها بطبيعة الحال فى حجمها الطبيعى لأنها تبعد عنا حوالى ٩٢ مليون ميل ، وأن هذه النجوم تبدو لنا مجرد نقط فى الفضاء رغم حجمها الهائل ذلك ، لأن مسافتها منا شىء مذهل ، لايقاس إليه بعد شمسنا منا .. وأن المسافة بين نجم ونجم فى هذا الفضاء لايكاد يتصورها العقل .. فما بال الفضاء كله ؟ كم حجمه ؟ ماأبعاده ؟ هل هو منته أم ممتد بلا انتهاء !

وعلم - من طريق المناظير - أن الكون المرئى كله إن هو إلا جزء من الكون فحسب ، وأن نسبته إلى الكل أمر لايمكن تحديده ، لأنه لم يمكن بعد تحديد مقدار ذلك « الكل » .. لأنه كلما اخترع الإنسان آلة أبعد .. بدا له من الكون مزيد لم يكن يراه من قبل ، ولم يكن يحسب أنه كائن فى الوجود !

ومع هذه الضخامة المعجزة يلحظ الحس البشرى دقة معجزة كذلك .

ومن قبل أن يتوصل الإنسان إلى الأجهزة الدقيقة البالغة الدقة ليقيس بها مقدار الدقة فى هذا الكون ، كان يرى مايروع حسه ويستغرق انتباهه .

كان يرى الدقة العجيبة فى تتابع الليل والنهار بمواعيد مضبوطه على مدار

العام ، والدقة العجيبة فى مسار الظل وتغيره يوما عن يوم حتى يعود إلى نفس مكانه بعد عام كامل من كل يوم .. ومن هنا نبتت فكرة المزولة ثم فكرة الساعة وكان يرى الدقة فى مسار القمر وتغير أوجهه ليلة بعد ليلة حتى يعود إلى نفس وضعه بعد شهر كامل من كل يوم يرصد فيه .. وكان يرى دورة النبات من البذرة المغمورة فى الأرض ، إلى الشطأ الذى يخرج منها ، إلى الساق والأغصان والأوراق ، إلى الزهرة والثمرة والبذرة فى نهاية المطاف .. وكان يرى الزهرة الملونة تتكون من خيوط دقيقة ومساحات دقيقة من اللون يعجز الرسام الماهر أن يرسمها بهذه الدقة ، ويعجز عن تكرارها بنفس الصورة فى رسم آخر فضلا عن ألوف وملايين ؛ ولكنها فى الطبيعة تبرز ملونة بهذه الدقة فى كل زهرة دون جهد مبذول . ويرى ريشة الطائر الملون مكونة من عدد لايحصى من الخطوط والخيوط ، كل يحمل نصيبا دقيقا من اللون يعجز الرسام أن يرسم مثله فى دقته ، ثم يحدث من تجمعها فى الريشة ذلك المنظر البهيج الذى يروع النظر ويروع الحس . وكان يرى دقة دخول الليل فى النهار حتى يتلاشى الضوء ، ودقة دخول النهار فى الليل حتى يتلاشى الظلام .. وكان يرى أشياء وأشياء توقظ فطرته إن كانت غافلة فيتساءل : هل يمكن أن توجد هذه الدقة العجيبة كلها بغير موجد ؟ ثم يروح يتطلع الى الموجد ، فيهتدى إلى أنه حقيقة لاتدركها الأبصار فيؤمن بالله على بصيرة ، ويعبده على بصيرة ، أو يضل فيتصور أنه الشمس أو القمر أو النجوم أو الروح الساكنة فى التمثال الذى ينحته بيديه .. ولكنه فى كل حال يعلم أنه لابد من خالق خلق هذا الوجود بتلك الدقة التى يلحظها فى تلك الكائنات حوله .

ثم مد الإنسان ببصره إلى داخل هذا الكون المعجز عن طريق الأدوات التى استحدثها فرأى عجبا لم يكن يخطر له على بال ! رأى هذا الكون العجيب كله مكونا من ذرات متناهية فى الدقة لاتراها العين المجردة ، إنما ترسمها الأدوات التى استحدثها الإنسان ، فى صورة شمس تدور حولها كواكب على ذات النمط الذى تتكون منه المجموعة الشمسية ولكن فى دقة متناهية لايدركها الحس . وفى كل قطعة صغيرة من المادة ملايين وملايين من هذه الذرات متراكبا بعضها مع بعض ، ومشدودا بعضها إلى بعض ، بذات القوة التى تمسك الكون كله بعضه إلى بعض ، وتسمح له بالحركة الدائبة دون أن يصطدم أو يتناثر ، والتى أطلق عليها اسم « قوة الجاذبية »

بل رأى أعجب من ذلك حين فتت الذرة وأطلق منها « الطاقة » .

إن الذرة ليست « مادة » مصمته كما كان يتخيل أول الأمر ، وليست هى الصورة النهائية « للمادة » ولكنها جسيمات كهربية موجبة وسالبة ومتعادلة ، يمكن تفتيتها وتفكيكها فتتحول إلى طاقة ، والطاقة يمكن أن تتحول إلى مادة . ولايوجد ذلك الحاجز الذى كان يتخيله بين المادة وبين الطاقة .. والكون فى النهاية طاقة تأخذ صورا شتى . صورة متكتلة فى هيئة المادة ، وصورة منطلقة فى هيئة شعاع ضوئى ، وصورة منطلقة فى هيئة جاذبية مغناطيسية ، أو مغناطيسية كهربية تحير الألباب !

ورأى من بين مارأى عجبا عاجبا فى تكوين الجنين ونموه المتتابع حتى يصبح خلقا تام التكوين .

فهو فى أصله بويضة ملقحة وحيدة الخلية ، تتكاثر عن طريق الانقسام المستمر إلى خلايا جديدة متشابهة فى التكوين ولكنها متخصصة . وإلى أن تكون مضغة لايظهر للعين ذلك التخصص . ولكن فى وقت معين مقدر محدد ، تصدر لكل خلية أوامر خفية . فهذه الخلية يصدر لها أمر أن تكون هى الأنف ، وتلك الخلية يصدر لها أمر أن تكون هى العين ، وثالثة يصدر لها الأمر أن تكون هى القلب . ثم تتكاثر كل منها على النحو المقدور لها فيتكون من تكاثرها أنف وعين وقلب وبقية الأعضاء ..

ثم هناك « الجينات » أو « المورثات » متناهية فى الصغر كالذرات .. عجيبة كل العجب فى شأنها كله .

فكل جنس من أجناس الكائنات له عدد محدد من « الكروموسومات » حاملات الصفات الوراثية لايتجاوزها فى كل فرد من أفراده ، تحدد له خصائصه كلها من أعضاء وقدرات وأعمال ، فالكلب له عدد من « الكروموسومات » معين ، والحصان له عدد معين والقرد له عدد معين .. والإنسان هو أكثرها عددا .. ولايتجاوز كل جنس حدوده إلى جنس أخر ، محكوما بعدد هذه الكروموسومات وماتحمله فى داخلها من الخصائص .. فلايستطيع القرد أن يكون إنسانا فى يوم من الأيام ولا فى جيل من الأجيال !

ثم هذا الإنسان ، أعجب مخلوقات الله وأشدها إعجازا ، وإن كان الخلق كله معجزا بالنسبة إلينا ، وهينا بالنسبة للخالق الذى يقول للشىء كن فيكون ، ولايتعب فى تشكيله وتكوينه كما تتعب المخلوقات !

عدد « الكروموسومات » بالنسبة للإنسان كله واحد .. ولكن الإنسان اكثر كائنات الخلق تعددا فى صوره وأشكاله . فهذا قصير وهذا طويل ، وهذا أبيض وهذا أسود ، وهذا أزرق العينين وهذا داكن .. وهذا عبقرى وهذا خـامل .. وهذا موهوب فى الادب وهذا موهوب فى الرياضيات .. وهذا جلد صبور وهذا مستثار حائر .. كل إنسان تركيبة وحده ، وهو مكون من ذات العناصر .. من ذات العدد من حلاملات الصفات الوراثية التى يحملها « الإنسان » ولكنها فى كل فرد غيرها فى الفرد الآخر ، فلايكاد يتماثل اثنان فى ملايين البشر فى الجيل الواحد ولا فى جميع الأجيال . بل تصل الدقة فى بصمات الأصابع إلى حد تصبح معه من وسائل التعرف لأنها لاتتكرر فى فردين اثنين من بين ملايين الأفراد !

كيف يحدث ذلك كله ؟ كيف تحدث هذه العجائب التى لاينقضى العجب منها سواء فى تكوين المادة أو فى تكوين الكون كله ، أو فى المادة الحية من أول الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان ، أو التناسق و « التوازن » فى بنية الكون ، وخاصة ذلك التوازن الكائن فى تلك المجموعة الشمسية التى منها أرضنا ، والتى يتبدى التنسيق الدقيق فيها بحيث لو اختل عنصر واحد منها ما أمكنت الحياة على صورتها الحالية ولا أمكن استمرار الحياة .. لو اقتربت الأرض من الشمس أكثر تحترق الكائنات الحية ولو ابتعدت اكثر تهلك من الصقيع .. لو اقتـرب القمر من الأرض أكثر لارتفع المد حتى يغرق كل الأرض .. ولو زاد الأكسجين لاشتعلت الكائنات ولو قل لم تجد كفايتها للحياة .

كيف يحدث ذلك كله ؟ من غير خالق مدبر حكيم ؟

* * *

ويتلقى الحس البشرى إيقاعات من الحياة من حوله . الحياة ذاتها إعجاز ..

كيف تكونت الحياة أول مرة من الموات ؟

ثم كيف تعددت على هذا النحو الذى نراه ، من نبات وحيوان وإنسان ؟ ثم فى أنواع النبات المختلفة وأنواع الحيوان المختلفة وأشكال الإنسان المختلفة ؟

ما الحياة ؟ وماسرها ؟ من واهبها ؟ وكيف يهبها ؟

كيف « ينمو » الكائن الحى وتتغير أحواله من طور إلى طور ..؟

والكائن البشرى بالذات .. المعجز فى كل تفصيلاته .. كيف تتم عمليات النمو المختلفة فيه .. كيف يتعلم الكلام ؟

إن الكلام ذاته معجزة لايحيط بها العقل البشرى ! كيف تم للبشر أن ينطقوا

بلغـة ذات رموز وتـراكيب ؟ كيف تأتّى للأصـوات المبهمة أن تكـون ألفاظا محددة ، وكيف تم للألفاظ أن تعبر عن المعانى .. وكيف تعددت اللغات التى تعبر عن ذات المعانى مابين شعب من البشر وشعب ، وكلهم « نوع » واحد ، يعانى تجربة واحدة هى تجربة الحياة فى هذه الأرض ؟!

وهذه المعانى .. هذه الأفكار المجردة .. كيف تمت ؟

وعملية التفكير ذاتها .. وعملية التذكر .. كيف تتم هذه وتلك ؟

وكيف « ينمو » هذا كله مع نمو الطفل .. كيف تنمو قدرته عـلى الكلام ، وقدرته على التفكير والتذكر ؟

وكيف اختص « الإنسان » - دون مقدمات من الكائنات الأدنى منه - بخاصية التفكير المجرد ، وخاصية الرمـز للأفكار بـالكلمات ذات الأصـوات والحروف والمقاطع ، وخاصية الإبداع المادى والمعنوى ، فصارت له حضارة وصار له تاريخ ؟!

ثم .. ذلك الجانب الآخر من « الحياة » الذى يسمى « الموت »

ماسره ؟ كيف يحدث ؟ من الذى يملكه ؟

إن الطفل - لفرط حيويته - يتخيل الوجود كله « حيا » مثله .. ويتخيل أن الحياة هى الأمر الطبيعى لكل الأشياء .. فيتعامل مع اللعبة التى يلعب بها ، كما يتعامل مع الباب والنافذة والكرسى والعصا على أنها كائنات حية ، تفهم عنه لغته التى لم تتبلور بعد ، وتتجاوب معه وإن لم تنطق بحرف !

ثم ينمو إدراكه ويعرف بطبيعة الحال أن هناك أحياء حقيقيين ، وأشياء أخرى لاحياة فيها ، كان هو يخلع الحياة عليها فى طوره السابق ، واليوم يعلم أنها لاتتحرك من ذات نفسها ولاتأكل ولاتشرب ولا تتغير حالها كما تتغير أحوال الأحياء ، ولكنه من فرط حيويته لايزال يخلع عليها الحياة وهو عالم بأنها غير حية فى حقيقتها ، ويكلمها ويتخيل أنها ترد عليه ، ويضربها أو يربت عليها ، ويتخيل أنها تتألم وتبكى أو تسر وتفرح ، كما يتخيل الشاعر فيما بعد وهو يكلم الأطلال ويستوحيها ويناجى « الطبيعة » ويتخيل أنها ترد عليه !

ثم ينضج فى يوم من الأيام حتى يدرك إدراكا لالبس فيه أن هناك فارقـا حاسما بين الأحياء وغير الأحياء من الكائنات ، ولكنه بعد يفترض أن الحياة دائمة فى الأحياء كما أن الجمود دائم فى الجوامد من الأشياء .

ولكنه ذات يوم يفاجأ بحقيقة الموت ، وبأن « الحياة » ليست دائمة كما كان

يظن . ذلك حين يموت أمامه كائن حي يعرفه ، سواء كان القطة التى كان يلهو بها ، أو العصفور الذى يراه يقفز فوق الأغصان ، أو قريبا له كان يحبه ويتعلق به .. وعندئذ تفعل المفاجأة فعلها فى نفسه ، فتهزه من أعماقه وتثير الأسى فى قلبه .. ويظل التأثر بالموت يصاحبه كلما جد له داع من دواعيه .. حتى يأخذ دوره فى الركب الراحل عن الحياة ..

وتظل الظاهرتان معا ، ظاهرة الموت وظاهرة الحياة ، تهزان كيانه ، وتبعثانه يتساءل : من وراء ذلك ؟ من وراء الحياة يخلقها بكل مظاهرها ، ومن وراء الموت الذى ينهى الحياة ويقف دفعتها عن السريان ؟! ويهتدى فيعرف الله على حقيقته ، وأنه هو المحيي المميت ، أو يضل فينسب الحياة إلى مصدر والموت إلى مصدر آخر كما كان يفعل « الدهريون » ، أو ينسبهما معا إلى آلهة أخرى غير الله . ولكنه يعلم - على الأقل - أن واهب الحياة هو خالق الخلق فيتعبده ويترضاه .

* * *

ويتلقى الحس البشرى إيقاعات كذلك من جريان الأحداث من حوله :

فهذا الوجود حوله ليس ساكنا فى أى حالة من حالاته .

فهناك الليل والنهار حركة يومية دائبة تنقل الأشياء كلها من النور إلى الظلمة ومن الظلمة إلى النور ، وهناك دورة الفلك حركة سنوية دائمة تنقل الأشياء كلها من الربيع إلى الصيف ، ومن الصيف إلى الخريف ومن الخريف إلى الشتاء ومن الشتاء إلى الربيع ، مع مايصحب ذلك من اختلاف مستمر فى الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة واخضرار الزرع وجفافه وإيناعه وإثماره ونضجه وسقوطه ، واختلاف مستمر فى نشاط الإنسان وأحواله بما يناسب الجو وأحواله والعمل وأحواله .

وهناك حركة الحياة والموت في الأحياء لابوصفها « ظاهرة » ولكن بوصفها حركة تنتج عنها أحداث . هذا يولد وهذا يموت ، وهذا يكون صغيرا فينمو ، وصحيحا فيمرض أو مريضا فيصح . وهذا غنى فيفتقر أو فقير فيغنى . وتدول دول وتولد أخرى ، وتحدث حروب وسلم ، وهزيمة ونصر ، ورفع فى مكانة الناس وخفض ، وتقدم وتأخر ، وعز وذل ..

وتشد الأحداث انتباه الناس وتهزهم ، فيروحون يتساءلون : هل هناك « رابط » بين الأحداث ؟ وهل هناك « نظام » ؟ أم إنها تحدث كيفما اتفق ؟ وهل

وراءها غاية أم يسير الوجود كله بلاهدف ولاغاية ؟ وماالغاية إن كان هناك ؟ ومن صاحب الغاية ؟ ومن يدبر الأحداث ؟ ويهتدى الإنسان إلى الحقيقة ، فيعلم أن مدبر الأحداث هو خالق الكون ، وأنه يجرى الأحداث بمشيئته وقدره ، وأن له حكمة من وراء ذلك يعلمها البشر أحيانا ويجهلونها أحيانا .. أو يضل فلايعرف الغاية ولايعرف الحكمة ويحسب الأمور تجرى خبط عشواء .. ولكنه فى كل حالة يعلم أن هناك مشيئة تجرى بمقتضاها الأحداث ، وأنها ليست مشيئة البشر إنما مشيئة كائن أعلى من البشر ، فيشعر نحوه بالرهبة وقد يشعر نحوه بالإجلال ..

* * *

ويتلقى حس الإنسان إيقاعات « ذاتية » دائمة من شعوره الدائم بالعجز .. يولد الطفل عاجزا تمام العجز لايقدر على شيء .. ولولا رعاية الذين يحيطونه وإمدادهم له بالغذاء وقضاؤهم له حاجاته مااستطاع أن يعيش . ورويدا رويدا يقدر على شيء من الحركة وهو محمول فى حضن والديه أو المكلفين برعايته ، حتى يستطيع فى وقت من الأوقات أن يجلس مستقلا بعض الشيء . وفى اللحظة التى « يقدر » فيها على الجلوس يحس « بالعجز » عن المشى ! ويجاهد حتى يتمكن أخيرا من الحبو على الأرض .

وفى اللحظة التى يقدر فيها على الحبو يحس بالرغبة فى الوقوف والعجز عن تحقيق تلك الرغبة ! وفى مرحلة تالية يتمكن من الوقوف ولكنه يحاول المشى فيقع على الأرض ويحس بالعجز عن تحقيق مايريد .. وتمضى الأيام والسنون فيمشى ويجرى ويخرج إلى الطريق ويتعلم العلم ويحس « بالقدرة » على أشياء كثيرة لم يكن يقدر عليها من قبل ..

فهل تنقضى رغباته ؟ وهل يكف عن الشعور بالعجز ؟

كلا ! إنه هكذا ركب فى طبيعته .. كلما حقق حلما راح يشتاق جديدا ، ولم يقنع بما وصل إلى تحقيقه بالفعل ، حتى حين ركب الصاروخ ووصل إلى القمر ونزل على سطحه .. حتى حين سيطر على كثير من شئون البيئة من حوله ونظمها حسبما يريد .. حتى حين اخترع من الآلات ماصار يحقق فى جزء من الثانية ماكان يتسغرق منه الساعات والأيام والشهور ولايحكم تنفيذه .. حتى حين وصل إلى ذلك كله فهل رضيت نفسه ، وقال : لقد حققت وجودى كاملا فما أرغب المزيد ؟!

كلا ! إنه يريد فى حقيقة الأمر شيئا لايقدر عليه ، ويحس « بالعجز » الدائم عن تحقيقه ، يريد أن يسيطر على الكون . يريد أن يقول للشيء كن فيكون !

ويعلم الإنسان فى دخيلة نفسه أنه عاجز عن تحقيق ذلك . وأنه مهما أوتى من القدرة والسيطرة على بعض جوانب الوجود ، فإن بينه وبين السيطرة الحقيقية التى يحلم بها أمدا لايمكن بلوغه ، لأن مدى قدرته محدود بحدود ، ومدى عمره محدود بحدود ، ومدى تمتعه - فى عمره المحدود - بالصحة والقوة والنشاط والقدرة محدود بحدود !

وهكذا يشعر الإنسان بالعجز كلما شعر بالقدرة ! ولا يصفو له قط الشعور بالقدرة الكاملة التى يحلم بها فى كل مراحل عمره ، فضلا عن أنواع العجز التى يعلم أنها مفروضة عليه لا محالة ، ومن بينها الموت الذى يعجزه عن الخلود !

ومن شعور الإنسان بالعجز الدائم الذى يلاحقه حتى آخر لحظة من حياته يلتفت الحس البشرى إلى الكائن الذى لايعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض !

كل شيء يعجز عنه هو يقدر عليه ذلك الكائن الذى لا يعجزه شيء !

الخلق من العدم بادئ ذى بدء ، والسيطرة المطلقة على كل شيء ، والتسخير المطلق لكل شيء ، والقوة التى لايقهرها شيء وهى تقهر كل شيء ، والمشيئة التى تحقق كل شيء فى لمح البصر لأنها تقول للشيء كن فيكون ..

والخلود الأزلى الأبدى صفة يتفرد بها ذلك الكائن الذى لايعجزه شيء .. وكل ماعداه يفنى ويزول ..

عندئذ يتحول الحس إلى ذلك الكائن الذى قدرته لاتحد .. فيهتدى ، ويعرف الله على حقيقته ويعبده حق عبادته ؛ أو يضل فيظن ذلك الكائن هو الشمس أو القمر أو النجم أو الروح القاطن فى الوثن الذى ينحته بيديه .. ولكنه يعلم فى كل حالة أنه هناك . أنه موجود ، وأنه إله ، وأنه معبود ، فيتقدم إليه بالشعائر ، ويلتزم نحوه بلون معين من السلوك .

* * *

رغبة أخرى من رغبات الإنسان لاتقل عمقا فى نفسه عن رغبة السيطرة ورغبة الخلود ، يحس فيها الإنسان بالعجز المطلق الذى لاتحده حدود ، تلك هى رغبته فى استكناه الغيب !

الرغبة فى معرفة الغيب قديمة قدم الإنسان على الأرض .. وستظل تصاحبه طالما كان هناك بشر يعيشون فى الأرض !

يريد الانسان أن « يطمئن » على حياته .

كم سيعيش ؟

هل يسلم من الأحداث ؟

هل يستمتع بالقوة والصحة والنشاط والحيوية فيما قدر له من العمر ؟

هل يحقق أحلامه ؟ يتزوج ويسعد ويحصل على الثروة والجاه .. أو يكون بطلا مجاهدا .. أو يكون زعيما قائدا .. أو ..

ماذا يكسب غدا ؟

بأى أرض يموت ؟

عشرات من التساؤلات ومئات .. يريد أن يعرفها « ليطمئن »..

ويروح يستكنه الغيب فلا يقدر ..

لاغيب السنوات القادمة ولا الشهور ولا الأيام .. بل غيب الساعات القليلة القادمة .. بل غيب اللحظة المقدمة عليه ، التى دخل أولها من الباب ومازال آخرها محجوبا بحجاب !

كيف يَقْدِرُ والغيب وراء الأستار ؟!

هل تنزاح الأستار ؟!

يمضى الإنسان – فى جاهليته – نحو الكاهن والعراف ، يستلهمه أمر الغيب ، ويتعلق بكل كلمة تخرج من شفتيه كأنها أسرار الغيب الحقيقى .. ولكن .. هل يستيقن ؟ هل « يطمئن »؟

وحين يهتدى يعرف أن الكاهن والعراف والمنجم وضارب الرمل والشياطين والجن كلهم محجوبون مثله عن الغيب ، فيكف عن طلب الغيب منهم ، ولكن هل تغادره الرغبة فى أن يعلم سر الغيب ،ويطمئن على نفسه ومن يحبهم من حوله ويخاف عليهم ؟

يروح يستلهم حسه الباطن .. ويستلهم الرؤى .. ويستلهم تلك القوة الخفية فى نفسه التى تقدر على الاستشفاف .. ولكن هل يستيقن ؟ هل « يطمئن »؟

كلا ! إنه يشعر بالعجز الكامل عن النفاذ وراء الأستار ، ويظل الغيب المحجوب ملفعا بالحجاب ..

عندئذ يتحول الحس إلى الكائن الذى لا يغزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، لأنه هو العليم بكل شىء ، وهو خالق الأحداث والأشياء وكل شىء سائر بمشيئته وحده لابمشيئة أحد سواه .

ويهتدى فيعرف أن الله الحق علام الغيوم ، أو يضل فيظنه كائنا أخر .. ولكنه يعلم دائما أن أسرار الغيب مكشوفة للكائن العلوى الذى يخلق ويبدع وينتهى إليه مصير كل شىء ، فيعبده لونا من العبادة ، ويلتزم نحوه بلون من السلوك .

* * *

تلك بعض منافذ الفطرة التى تتلقى إيقاعات الكون والحياة ، فتستيقظ من غفلتها إن كانت غافلة ، فتروح تبحث عن الله سواء اهتدت إلى الله الحق أم ضلت فى الطريق ..

لذلك فإن الفطرة دائما تعرف وجود الله ، وتؤمن به فى داخل أعماقها ، وإن ضلت عن الهدى فتصورت الله على غير حقيقته أو أشركت به آلهة مزعومة ليس لها وجود .

أما أن تنكر الفطرة وجود الله أصلا ، وتقول إن الخلق قد وجد بلا خالق .. فبدعة فى الضلال غير مسبوقة فى التاريخ .

صحيح أن الحس البشرى بحكم الإلف أو العادة يتبلد ..

يتبلد على المنظر المكرور فلا يعود يهزه كما هزه أول مرة . ويتبلد على المعنى المكرور أو الحدث المكرور فلا يعود يستجيش مشاعره كما استجاشها أول مرة . فيعيش فى وسط الآيات غافلا عن دلالتها ، ويموت قلبه فلا يتحرك لمعنى الألوهية كما ينبغى له أن يتحرك .. فيعيش كما تعيش السائمة :

« أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون »« ١ »

وصحيح أن البشرية حين يطول عليها الأمد « تتعب » من الايمان بما لا تدركه الحواس ، وتتجه إلى المحسوس ، فتنشئ آلهة محسوسة تعبدها من دون الله أو تعبدها مع الله ، فى صورة أوثان وأصنام ، أو فى صورة بشر ، أو فى صورة أفلاك .. وذلك لأن الإيمان بما لاتدركه الحواس يستلزم أن يكون الإنسان فى وضعه الطبيعى - أو الفطرى - كما خلقه الله ، تعمل كل أجهزته فى وقت واحد ، فتعمل أجهزة الإدراك الحسى جنبا إلى جنب مع أجهزة الإيمان المعنوى أو الايمان بما لاتدركه الحواس ، عملا فطريا طبيعيا متناسقا ينتج عنه الإيمان بالله عن طريق رؤية آياته فى الكون ، والإيمان به إيمانا مباشرا عن

« ١ » سورة الإعراف [١٧٩]

طريق الروح ، فيعمق كل منهما الآخر فيصل إلى درجة اليقين .

فإذا طال على البشرية الأمد يحدث « هبوط » فى كيان الإنسان ، يعطل أجهزة الإدراك المعنوى تعطيلا جزئيا أو كاملا ، وتبقى أجهزة الإدراك الحسى هى التى تعمل ، وعلى قدر الهبوط يكون نوع الشرك ودرجته .. فيظل صاحبه مؤمنا بالله ويشرك به آلهة محسوسة ، أو يؤمن بالآلهة المحسوسة وحدها من دون الله .

وصحيح أن البشرية فى حالة هبوطها تجنح إلى ثقلة الأرض فتشدها الشهوات إلى أسفل ، فتتفلت من تكاليف الدين والتزاماته . تتفلت من « قيد الانسان » الذى تصاحبه « حرية الإنسان »وتجنح إلى « حرية الحيوان » التى تصاحبها قيود الحيوان « ١ » ولكنها - فى مبدأ أمرها على الأقل - تحب أن تسند هذا التفلت بأمر شرعى !

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ؟» « ٢ »

ورويدا رويدا تحتاج إلى اختراع آلهة تسند إليها ذلك التفلت ، من البشر أو غير البشر ، تتخذ أربابا مع الله أو من دون الله :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » « ٣ »

وصحيح أن الطغاة فى الأرض يضيقون بالقيد الربانى الذى يجعلهم عبيدا لله ككل العبيد ، خاضعين لأمره منفذين لشريعته ، ويريدون أن يكون لهم السلطان الطاغى فى الأرض ، ويريدون أن يكون الولاء لهم لا لله . فيضيقون دائما بديانة التوحيد ، وبإخلاص العبادة لله وحده ، فيفرضون أنفسهم بالقوة الغاشمة وبالإرهاب أربابا من دون الله أو مع الله ، هم الذين يشرعون ، وهم الذين يفرضون التشريع ، وهم الذين يعاقبون « عبيدهم » إذا خرجوا على ذلك التشريع .

وفى هذه الحالات كلها يقع الشرك الذى تجنح إليه البشرية كلما ضلت الطريق . ولكنها فى كل حالاتها السابقة لم تكن تنكر وجود الله .

وحتى فرعون حين قال لموسى عليه السلام « وما رب العالمين » « ٤ » .

« ١ » انظر الفصل القادم

« ٢ » سورة الأعراف [٢٨]

« ٣ » سورة التوبة [٣١]

« ٤ » سورة الشعراء [٢٣]

وحين قال لهامان :«ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، إسباب السماوات فاطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا »« ١ » .

وحين قال لقومه : « ماعلمت لكم من إله غيرى »« ٢ »

وحين قال لهم : « أنا ربكم الأعلى »« ٣ »

لم يكن ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، ولم يكن يقصد أنه هو الاله الخالق ، والدليل على ذلك قول الملأمن قومه له :

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك و ألهتك »« ٣ »

فقد كان له هو إله يعبده ، هو الذى يؤمن بأنه خالق السماوات والأرض وخالق الكون كله« ٤ » . وعلى الرغم من أنه - كما سجلت الآثار الفرعونية - كان يدعى « الإله ابن الإله » وكانت تقدم له شعائر التعبد من ركوع وسجود كما كانت تقدم لقيصر وكسرى ، إلا أن الوهيته وبنوته للإله الأكبر كانت فى حسه كما هى فى حس « الجماهير » من قومه الوهية مجازية لا حقيقية . وكان يقصد منْ اقواله لموسى وهامان ولقومه امرين فى أن واحد . الأمر الأول أن الإله الذى يتحدث عنه موسى ، ويقول إنه مرسل من عنده ، ويعطى نفسه بناء على ذلك سلطانا يأمر به فرعون وينهاه ، ويطلب منه أن يطلق سراح بنى إسرائيل . هذا الإله لا وجود له ، وموسى كاذب فى دعواه بوجوده ، وبإرساله من عنده ، إنما الإله الموجود حقيقة هو الإله الذى يعبده هو وقومه ، وينحتون له التماثيل ويرسمون له الرسوم ، الإله المحسوس الذى تعبده الجاهلية هبوطا منها عن الإيمان بما لاتدركه الحواس ، والأمر الثانى - وهو مشتق من الأول - أنه يقول لقومه خاصة : ماعلمت لكم من سلطة تأمر فتطاع إلا سلطتى ، فأطيعونى ولا تطيعوا ذلك الخارج على سلطانى ، الذى يزعم انه صاحب الكلمة التى ينبغى أن تطاع !

وحتى النمرود حين حاج إبراهيم فى ربه لأنه يرى نفسه ملكا ذا سلطان وإبراهيم فرد من أفراد « الشعب » لايحق له أن يناقش صاحب السلطان ولا يأمره ولا ينهاه .. لم يكن يعتقد أنه هو الإله الخالق ، إنما كان يصدر عن كبر

« ١ » سورة غافر [٣٥ - ٣٦]
« ٢ » سورة النازعات [٢٤]
« ٣ » سورة الأعراف [١٢٧]
« ٤ » هو الاله « امون » الذى يرمزون له بقرص الشمس .

أجوف بإزاء إبراهيم عليه السلام ، ولكن فى حماقة أشد من حماقة فرعون الذى كان يعلن على الملأ أن له إلها يعبده هو وقومه .. أما النمرود فقد جره الاستكبار على إبراهيم إلى الادعاء بأن له سلطانا فى الأرض يشبه سلطان الله ، وأنه - مثل الله - يحيى ويميت ! حتى حاجه إبراهيم عليه السلام فأخرسه :

« الم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحى وأميت ! قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر !»« ١ »

* * *

وهذا الشرك - الذى ينجم عن مثل الأسباب التى ذكرناها فى الفقرة السابقة - هو الذى يبعث الرسل لتقويمه وتصحيحه ، ويوقع الوحى الربانى على ذات الأوتار التى خلقها الله فى الفطرة ، وجعلها تهتز لإيقاعات الكون والحياة ، فتستيقظ من غفلتها إن كانت غافلة،وتروح تبحث عن الله لتعبده وتخشاه .

فعن الكون بضخامته المعجزة ودقته المعجزة وما يحدث فيه من حركة معجزة يقول الوحى الربانى :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »« ٢ »

« إن ربكم الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »« ٣ »

« خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »« ٤ »

« ١ » سورة البقرة [٢٥٨]
« ٢ » سورة البقرة [١٦٤]
« ٣ » سورة الأعراف [٥٤]
« ٤ » سورة لقمان [١٠]

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا »« ١ »

وعن قدرة الله لا في الخلق فحسب ، بل في تنويع الخلائق كذلك :

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »« ٢ »

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »« ٣ »

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور »« ٤ »

وفى أطوار الجنين :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »« ٥ » .

وفى عجائب الخلق فى الأرض عامة وفى الإنسان خاصة :

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟! »« ٦ »

وفى الموت والحياة :

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور »« ٧ »

« الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى

« ١ » سورة الفرقان [٤٥ - ٤٦]
« ٢ » سورة الأنعام [٩٩]
« ٣ » سورة الرعد [٤]
« ٤ » سورة فاطر [٢٧ - ٢٨]
« ٥ » سورة المؤمنون [١٢ - ١٤]
« ٦ » سورة الذاريات [٢٠ - ٢١]
« ٧ » سورة الملك [١ - ٢]

عليهـا الموت ويـرسـل الأخـرى إلى أجـل مسمى . إن فى ذلك لآيـات لقـوم يتفكرون »« ١ »

« هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »« ٢ »

وفى جريان الأحداث :

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شئ قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب »« ٣ »

وفى العجز البشرى مقابل القدرة الإلهية :

« أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لايوقنون ! أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ! أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون »« ٤ » .

وفى علم الغيب خاصة :

« الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وماتزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. »« ٥ »

« يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور . وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل : بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »« ٦ »

« ١ » سورة الزمر [٤٢]
« ٢ » سورة غافر [٦٨]
« ٣ » سورة آل عمران [٢٦ - ٢٧]
« ٤ » سورة الطور [٣٥ - ٤٣]
« ٥ » سورة الرعد [٨ - ١١]
« ٦ » سورة سبأ [٢ - ٣]

« إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ماف الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير »« ١ »

« وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو . ويعلم ماف البر والبحر ، وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين »« ٢ »

والقرآن كله فى الحقيقة توقيعات على أوتار القلب البشرى لاقتلاع كل دواعى الشرك واستنبات بذرة الإيمان .

فأما الغفلة التى ترين على القلب بحكم الالف والعادة ، فالقرآن يستعرض آيات الله فى الكون بطريقة موحية تعرضها كأنما يشهدها الحس لأول مرة ، فيتلقى شحنتها كاملة ، ويتيقظ لدلالتها يقظة كاملة . فإذا استثير الوجدان بالآيات المعروضة على هذا النسق الفريد ، قال له الحقيقة المطلوبة : « ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون » فيتلقى الوجدان الحقيقة حية متحركة تزيل عنه الغفلة وتذهب عنه « الران » .. فيتطلع القلب إلى الله ، شاعرا بعظمته ، مقرا بألوهيته وربوبيته ، مستيقنا بوحدانيته ، فيعبده وحده بلا شريك .

وأما الهبوط الذى تهبط به البشرية عن الإيمان بما لاتدركه الحواس ، فإن القرآن يعيد الروح البشرية إلى طلاقتها وإشراقها ، تارة بعرض سعة الكون الهائلة وإحاطة قدرة الله بها ، وتارة بعرض الدقة المعجزة فى الكون وارتباطها بقدرة الله ، وتارة بعرض إحاطة علم الله بكل ماف الكون من أشياء وأشخاص وأحداث ، وتارة بعرض مشاهد القيامة حية مجسمة كأنها الحاضر الذى يعيشه الإنسان فى هذه اللحظة ، والحياة الدنيا كأنها ماض كان منذ زمان سحيق ، وتارة باستجاشة الوجدان بآيات رحمة الله بالإنسان ورعايته له فى سرائه وضرائه ، وتارة بعرض هيمنة الله المطلقة على كل شىء فى هذا الكون ، سماواته وأرضه وأفلاكه ، وناسه وأحداثه ، سواء فى الحياة الدنيا أو الآخرة ، يوم يبعث الموتى ويعرضون للحساب « وخشعت الأصوات للرحمن فلاتسمع إلا همسا »« ٣ » « وعنت الوجوه للحى القيوم »« ٤ »

« ١ » سورة لقمان [٣٤]
« ٢ » سورة الأنعام [٥٩]
« ٣ » سورة طه [١٠٨]
« ٤ » سورة طه [١١١]

وحين يخاطب القرآن « الإنسان » كله ، من جميع جوانبه ، وفى كل حالاته ، يعود إلى وضعه الفطرى ، فتعمل أجهزته كلها فى وقت واحد ، فتعود لأجهزة الإيمان بما لاتدركه الحواس حيويتها الطبيعية ، فيؤمن الإنسان بالله الذى « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » « ١ » بلاجهد يبذله فى ذلك الإيمان ، بل بشعور عميق بالطمأنينة والرضا والاسترواح والسكينة التى تغمر القلوب :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « ٢ »

فتصبح لحظات القلق هى لحظات البعد عن النور الإلهى الفياض وساعات الرضا هى ساعات الاقتراب .

وأما ثقلة الشهوات التى تجنح بالإنسان إلى التفلت من أمر الله ، وتؤدى به فى النهاية إلى ألوان مختلفة من الشرك ، فإن القرآن يرفع الإنسان عنها بتوسيع آفاقه ، ورفع اهتماماته ، وتوجيه طاقاته إلى جوانب الخير فى الحياة ، فيحدث « التسامى » أو « التصعيد » الذى يطهر النفس من الأرجاس :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار : الصابرين ، والصادقين ، والقانتين ، والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار » « ٣ »

وحين تصل النفس إلى هذه الرفعة فإنها لاتعود تستنكر القيد الربانى وتسعى إلى التفلت منه ، بل تحس أنه القيد الذى يمنح الإنسان الحرية اللائقة به .. حرية الإنسان . وتعود تنفر من ذلك الهبوط الذى كانت تتشهاه من قبل ، وتلمس فيه القيود الكريهة التى لم تكن تراها من قبل .. قيود الحيوان .. وعندئذ تقبل النفس على الله راضية بعبادته وحده دون سواه .

وأما الطغاة الذين يستعبدون الناس فى الأرض ، ويصنعون من أنفسهم

« ١ » سورة الأنعام [١٠٣]
« ٢ » سورة الرعد [٢٨]
« ٣ » سورة آل عمران [١٤ - ١٧]

أربابا مع الله أو من دون الله ، ويسوقون الناس إلى الشرك فى نهاية المطاف ، فالوحى الربانى يجند النفوس المؤمنة لجهادهم وإجلائهم من الأرض على أساس من إخلاص العبادة لله ، ذلك الإخلاص الذى يتضمن الاعتقاد اليقينى فى القلب بوحدانية الله ، والتوجه بالشعائر التعبدية لله وحده ، وتحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض أى شريعة أخرى لم يأذن بها الله .

وبهذه الوسائل كلها مجتمعة تفىء الفطرة إلى سوائها ، وتعود إلى صفائها ، ويصبح الإنسان فى أحسن تقويم ..

* * *

ولقد كانت « مؤهلات » الشرك كلها قائمة فى الجاهلية المعاصرة منذ « النهضة الأوروبية » إلى اليوم ، مما ران على القلوب من غفلة ، ومن الهبوط الذى يعطل أجهزة الإيمان بما لاتدركه الحواس ، ومن الهبوط الخلقى واتباع الشهوات ، ومن تحكيم غير شريعة الله .

ولكن لأمر ما لم تؤد هذه « المؤهلات » بأوروبا إلى الشرك - كما كان شأنها فى الجاهليات السابقة - ولكنها أدت بها إلى الإلحاد !

ولابد من وقفة لدراسة هذا الأمر الذى لامثيل له من قبل فى كل جاهليات التاريخ .

الكنيسة الأوروبية - بحماقاتها - هى المسؤول الأول عن ذلك ولاشك .

فهذه الحماقات هى التى أدت إلى جعل العلم بديلا من الدين ، وجعل السبب الظاهر بديلا من السبب الحقيقى ، وجعل الطبيعة بديلا من الله ..

فالعلم - فى وضعه الطبيعى - ليس بديلا من الدين ! إنما هو نافذة من نوافذ المعرفة التى تؤدى فى النهاية إلى المعرفة الحقة بالله ، ومن ثم إلى إخلاص العبادة لله ، حين يدرك العقل البشرى عظمة الخلق ويطلع على أسراره العجيبة التى تحير الألباب :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » « ١ »

وحين قالت أوروبا أن الدين قد أخلى مكانه للعلم وإن العلم هو البديل من الدين ، لم تكن تتحدث عن حقيقة موضوعية ولاحقيقة مطلقة .. إنما كانت تتحدث عن « واقع » حدث فى أوروبا بسبب حماقة الكنيسة حين حاربت العلم والعلماء ، وخيرتهم بين اتباع الخرافة للمحافظة على « الدين » - دينها الذى

« ١ » سورة فاطر [٢٨]

ابتدعته وشكلته على حسب أهوائها – وبين اتباع العلم والخروج من الدين . وقد اختار العلماء اتباع العلم لأنهم يعرفون قدره ، ويعلمون أنه أحق بالاتباع من الخرافة . فلما طردتهم الكنيسة من « الدين » كان العلم – بالنسبة إليهم – هو البديل من الدين . لا لأنه فى الحقيقة بديل عنه ، ولا لأنه بطبيعته يغنى عنه ، ولكن لأن حماقة الكنيسة وضعت الأمور فى هذا الوضع .

والسبب الظاهر ليس بديلا عن السبب الحقيقى ، لأنه يفسر فقط كيف تحدث الأشياء على النحو الذى تحدث به ، ولكنه لايفسر لماذا كانت الأشياء على هذا النحو !

فقانون السببية مثلا يفسر كيف يتحول الماء إلى بخار بالتسخين . ولكنه لايفسر لماذا كان التسخين يحول الماء إلى بخار ! فلولا أن الله خلق الماء على النحو الذى يجعله التسخين يتحول إلى بخار ماتحول !

بعبارة أخرى : إن العلم بخواص المادة يفسر لنا الظواهر التى تحدث فى عالم المادة ، ولكنه لايفسر لنا لماذا كانت المادة بهذه الصورة وبهذه الخواص . ذلك أن هذه الصورة ليست هى الصورة الوحيدة الممكنة عقلا .. بل هى إحدى الصور الممكنة ، وقد كان يمكن – لو أراد الله – أن تكون على صورة أخرى وذات خواص مختلفة . فالذى جعلها على هذه الصورة ، وأعطاها هذه الخواص هو مشيئة الله وحدها . وهذا هو السبب الحقيقى الذى لايغنى عنه معرفة السبب الظاهر ، وإلى ذلك تشير سورة الواقعة :

« افرايتم ماتمنون ؟ أانتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين على أن نبدل امثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟! افرايتم ماتحرثون ؟ أانتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون : إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ! افرايتم الماء الذى تشربون ؟ أانتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون »« ١ »

وحين قال علماء أوروبا فى عصر النهضة ومابعده إن السبب الظاهر بديل من السبب الغيبى ، أو إن « الطبيعة » بديل عما « وراء الطبيعة » لم يكن ذلك حقيقة موضوعية ولا حقيقة مطلقة .. إنما كان « واقعا » عاشته أوروبا بسبب

---

١ . سورة الواقعة [٥٨ – ٧٠]

حماقة الكنيسة ، التى كانت تمنعهم - أو لا تتيح لهم - أن يبحثوا عن السبب الظاهر ، وتبرز لهم السبب الغيبى وحده مع إبقائهم فى ظلمات الجهل ، فلما اكتشفوا السبب الظاهر ، وانبهروا « بالعلم » الذى كَشَفَ لهم - عن طريق معرفة السبب الظاهر - آفاقا لم يكونوا يعرفونها من قبل ، كان الأمر الواقع بالنسبة إليهم أن السبب الغيبى لم يعلمهم شيئا عن ظواهر الكون المادى من حولهم ، وأن السبب الظاهر هو الذى علمهم : ومن ثم كان وضع السبب الظاهر بديلا من السبب الغيبى هو الأنسب لهم والأكسب ! فقالوا قولتهم من واقعهم الضيق الذى عاشوه ، وخيل إليهم فى بهرة « العلم » أن مايقولونه هو الصواب !

وحين جعلت أوروبا الطبيعة بديلا من الله لم يكن ذلك - كما بينا فى فصول الكتاب الأولى - إلا مهربا من إله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه وتفرض عليهم الإتاوات والعشور ، والخضوع المذل لرجال الدين ، مع محاربة العلم ، والحجر على حرية الفكر ، ومع الوقوف الظالم مع رجال الإقطاع ضد المطالبين بالإصلاح .. ولم يكن قط حقيقة علمية ، وإن بلغ الحمق « بالعلماء » أن يصدقوا الخرافة ، ويقدموها على الحقيقة ، ويصنعوا ذلك باسم « العلم » !

ولكن هذا كله على أى حال كان إلحاد « العلماء » و« الفلاسفة » و« المفكرين » .. أما الجماهير فكانت ماتزال تؤمن « بالدين » . ولانتعرض هنا لما كان فى ذلك الدين الذى آمنت به الجماهير من تحريف وتشويه وخرافة .. وإنما نتحدث عنه باعتبار أنه « دين » يحوى على أقل تقدير إيمانا بوجود الله وإيمانا بالوحى ، وايمانا باليوم الآخر ، فى مقابل « اللادين » .. فى مقابل الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله ، وإنكار الوحى ، وإنكار اليوم الآخر ..

كيف انتقلت الجماهير من الدين إلى اللادين ؟

الكنيسة هى المسئول الأول ماتزال ..

والفتنة بالعلم من الأسباب ..

والعودة إلى « الحضارة الإغريقية » أو بالأحرى « الجاهلية » الإغريقية الوثنية هى كذلك من الأسباب ، فقد كانت تلك الجاهلية بالذات تصور العلاقة بين الإنسان والآلهة علاقة صراع وخصام متبادل . الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتستذله ، وتتشفى فى كل مصيبة يقع فيها ، والإنسان يريد أن يلقى

عنه نير الآلهة وينطلق بفاعليته دون قيود .« ١ »

والعودة إلى « الحضارة » الرومانية أو بالأحرى « الجاهلية » الرومانية هى كذلك من الأسباب ، فقد كانت تلك الجاهلية بالذات تزين للإنسان لذائذ الحس، والفتنة بها إلى حد الاستغراق مع كل ماتبدعه فى الأرض من رقى مادى وتنظيم .

ولكن هذه الأسباب كلها مجتمعة كان يمكن أن تؤدى إلى الشرك - كما ادت إليه فى كل جاهلية سابقة - ولم يكن من الضرورى - ولا من الطبيعى - أن تؤدى إلى الإلحاد بين الجماهير ..

إنما الذى نشر الإلحاد فى الأرض - تأسيسا على هذه الأسباب كلها ، واستغلالا لها - كانوا هم اليهود !

كتب اليهود فى « البروتوكولات »« ٢ » أنهم سينشرون الإلحاد فى الارض .. وقد نشروه بالفعل ..

الثورة الفرنسية .. الداروينية .. الثورة الصناعية .. النظريات « العلمية » التى تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد .. إنشاء مجتمع بلا دين ولا أخلاق ..

مابنا من حاجة لأن نعيد شيئا مما قلناه من قبل« ٣ » .. وإنما نذكّر فقط بهذه الحقيقة : أن اليهود استغلوا الأحداث التى هيأتها لهم حماقة الكنيسة ، وردود الفعل التى نشأت من تلك الحماقة ، فركبوا الموجة إلى نهايتها ، ونفذوا كل مافى جعبتهم من مخططات الإفساد فى الأرض ، لاستحمار الأمميين واستعبادهم لصالح الشعب الشرير .

والإلحاد بالذات هدف أساسى من أهداف المخطط الشرير .. فالهدف الأخير من المخطط كله هو إزالة كل دين فى الأرض ، ليبقى اليهود وحدهم فى الأرض أصحاب الدين !

« ١ » راجع اسطورة « بروميثيوس » سارق النار المقدسة ، وانظر ان شئت ملخصا لها فى كتاب « قبسات من الرسول »

« ٢ » بعض الذين يتمسكون « بالمنهج العلمى » يشككون فى حجية كتاب « البروتوكولات » كوثيقة،ويضعون فى الاحتمال ان يكون بعض الناس قد تقولوا عليهم ماجاء فى البروتوكولات . ونحن لانقطع بصحة الكتاب من الناحية الوثائقية البحتة ، ولكن ذلك - فى نظرنا - لايؤثر فى صدق ماجاء فى ثنايا الكتاب ! لانه سواء كان هذا الكلام كلام اليهود بالفعل او كلام إنسان أتيح له أن يطلع على فكر اليهود ويترجمه فى هذه الصورة ، فإن كل ماجاء فيه قد نفذ بالفعل ! جاء فيه انهم سينشرون الإلحاد ونشروه . وجاء فيه انهم سينشرون الشيوعية ونشروها . وجاء فيه انهم سيضحكون على الأمميين بشعار الحرية والإخاء والمساواة وضحكوا بالفعل . فسواء كان هذا كلامهم او كان ترجمة أفكارهم فالنتيجة الأخيرة واحدة : أن هذه مخططاتهم وقد نفذوها بالفعل فى غفلة من الأمميين !

« ٣ »راجع فصل « دور اليهود فى إفساد أوروبا » فى أوائل الكتاب .

إن اليهود فى هذه المرة لم يفسدوا عقائد الأمميين كما كانت محاولاتهم السابقة فى التاريخ ، إنما أفسدوا فطرتهم . وقد أسلفنا القول بأن الفطرة - وإن ضلت - لاتتجه إلى الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله ، وإنما تتجه إلى الشرك . فاتجاهها إلى الإلحاد فى الجاهلية المعاصرة ليس مجرد ضلال ككل ضلال سابق ، إنما هو فساد فى أعماق الفطرة قام به اليهود استغلالا للأرضية الفاسدة التى كانت قائمة فى أوروبا منذ « النهضة » . وسواء كان الجهد الذى بذلوه فى هذا الشأن عسيرا أو ميسرا فقد استغرقوا قرابة قرنين من الزمان حتى وصلوا به إلى صورته الشاملة الموجودة اليوم فى الأرض ، سواء فى المعسكر الشرقى حيث يفرض الإلحاد فرضا فى مناهج التعليم ووسائل الإعلام،ويعاقب من يضبط « متلبسا » بمجرد الحديث فى الدين لفتى أو فتاة دون سن الرشد .. أو المعسكر الغربى حيث لايفرض الإلحاد على الناس بتلك الصورة ولكن يشجع الناس عليه بكل وسائل التشجيع !

والإلحاد لايستحق منا مناقشة « علمية » جادة لأنه ليس من الأمور الجادة التى عرضت للبشرية فى مسيرتها على هذه الأرض ، إنما هو عبث صنعه الشياطين،وأوقعوا فيه المستغفلين من الأمميين فى فترة كانوا فيها « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة »« ٢ » ولقد كانت « الحمر » فارة من طغيان الكنيسة وحماقاتها ، فأسرع الشياطين فركبوها وألهبوا ظهورها بالسياط لتجرى إلى آخر المشوار ، بدلا من أن تفيق من نفرتها المجنونة وتفىء إلى الدين الصحيح الذى يخلصها من كل ماكانت تشكو منه من مشكلات أو انحرافات أو حماقات ..

وقد تحدثنا فى مقدمة هذا الفصل عن بعض منافذ الفطرة التى توصلها إلى الإيمان بوجود الخالق المدبر المهيمن المسيطر،سواء عرفته على حقيقته فعبدته العبادة الحقة أم تصورته على غير حقيقته وأشركت به آلهة أخرى ، ومابنا من حاجة إلى مزيد فى مثل بحثنا الحاضر . ولكنا هنا - فى هذا الفصل - بصدد شىء واحد هو التأكيد على هذه الحقيقة : أن الإلحاد ليس من شأن الفطرة حتى فى حالة ضلالها ، وأنه أمر مصطنع ، لاتصل إليه الفطرة من تلقاء نفسها مهما وصل بها الحال من الضلال .

« ٢ » سورة المدثر [٥٠ - ٥١]

ونكتفى بالتعرض لنقطة واحدة مما جاء فى التواءات الجاهليين المعاصرين فى شأن الدين ، أو فى شأن الإلحاد .

تلك هى قولة جوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World » إن الإنسان قد خضع لله بسبب عجزه وجهله ، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة. فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ماكان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله .

نعوذ بالله .

« إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ؛ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير »« ١ »

نفترض جدلا أن العجز والجهل - وحدهما - هما سبب خضوع الإنسان لله فى صورة دين وعقيدة وعبادة .. فما الذى تغير فى حياة الإنسان المعاصر ليخرجه من الخضوع لله ؟!

تلك القشور من العلم التى وصل إليها ، وهذا القدر الضئيل من السيطرة على « البيئة » ؟!

فأما العلم فندع « ول ديورانت » الفيلسوف المعاصر يتحدث عنه فى كتاب « مباهج الفلسفة »

« ماطبيعة العالم ؟ ما مادته وماصورته ؟ ومامكوناته وهيكله ؟ وماموادة الأولى وقوانينه ؟ وما المادة فى كيفها الباطن وفى جوهر وجودها الغامض ؟ وما العقل ؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها ؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها ؟ أيكون كلا العالمين : الخارجى الذى ندركه بالحس والباطنى الذى نحسه فى الشعور ، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية كما قال الشاعر « مايكتبه الخالق فى مطلع النهار نقرؤه فى آخر النهار » ؟ أم ثمة فى المادة ، أو فى العقل ، أو فى كليهما ، عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية ؟ .. هذه أسئلة يسألها قلة من الناس ، ويجيب عليها جميع الناس . وهى منابع فلسفاتنا الأخيرة ، التى يجب أن يعتمد عليها فى نهاية الأمر كل شىء آخر ، وفى نظام متماسك من الفكر .. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض .

« ١ » سورة غافر [٥٦]

« ولنسلم أنفسنا فى الحال لإخفاق ما مناص منه . لا لأن هـذا الباب من الفلسفة يحتاج فى إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط ، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل .. فهذه النظرة الكلية – وهى فتنتنا فى هذه المغامرات اللطيفة – ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفـاتن . ويكفى أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع وشىء من الأمانة ، لنتأكد أن الحياة فى غاية من التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما . وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلا قد يكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شىء« ١ » . فكل مانستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا ! وكلما كثر علمنا قلت معرفتنا ، لأن كل خـطوة نتقدمهـا تكشف عن غوامض جديدة ، وشكوك جديـدة . « فالجـزىء » يتكشف عن « الذرة » والذرة عن الإلكترون (الكهرب) والإلكترون عن الكوانتوم « Quantum » (الكويمية) . ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا « Categories » وقوانينا وينطوى عليهما . والتعليم تجديد فى العقائد وتقدم فى الشك ، وآلاتنا كما ترى مرتبطة بالمـادة وحواسنا بالعقل .. وفى خلال هذا الضباب يجب علينا نحن « الزغب » عـلى الماء ، أن نفهم البحر !« ٢ »

وعن تقلب « العلم » يقول :

« إلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟ هل يؤيـدها علم الفلك الحديث أو يسخر من وجهها المغبر ؟

« وأين ذهبت قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين وميكوفسكى وغيرهما الكون راسا على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم ؟

« وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى الفيزيقا المعاصرة ، وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟

« وأين إقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصـوغ الرياضيـون لنا ابعـادا جديـدة بحسب أهوائهم ، ويبتـدعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون فى الفيزيقيا ـ والسياسة كذلك – أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟! .

« ١ » انظر أثر الجاهلية الاغريقية فى انحرافات الفكر الغربى

« ٢ » ص ٦١ – ٦٢ من الترجمة العربية « ترجمة الدكتور احمد فؤاد الاهوانى »

« وأين علم الأجنة ليرى أن « البيئة الناشئة » تحل محل « الوراثة » التى كانت إله العلم « ١ » ؟ وأين « جريجورى » و« مندل » الآن ليشهدا انصراف علماء الوراثة عن « وحدة الصفات » ؟ وأين « داروين » الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة « التغيرات السريعة » محل « الاختلافات الذاتية والمتصلة » فى التطور ؟ وهل هذه التغيرات هى الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع فى تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية « انتقال الصفات المكتسبة » ؟ أنجد انفسنا وقد عدنا مرة أخرى اكثر من قرن إلى الماضى نعانق رقبة زرافة « لامارك » ؟

« وماذا نصنع اليوم بمعمل الاستاذ فونط « Wundt » وباختبارات « استانلى هول » حين لايستطيع اى عالم نفسانى من أتباع السلوكيين أن يكتب صحيفة واحدة فى علم النفس الحديث دون أن يلقى بمخلفات أسلافه فى الهواء ؟!

« وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم فى تاريخ قدماء المصريين كشفا بالأسرات وتواريخها على هواه ، ولايختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة آلاف من السنين ؟! وحيث يسخر علماء الأجناس من « تيلور » و« وستر مارك » و « سبنسر » ؟ وحيث يجهل « فريزر » كل شئ عن « الدين البدائى » لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟!

فماذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قداستها ومافيها من حقائق ازلية ؟ ايمكن أن تكون « قوانين الطبيعة » ليست سوى فروض إنسانية ؟ الم يعد هناك يقين أو استقرار فى العلم ؟ »« ٢ »

وعن « حقيقة » المادة يقول :

« وأول شئ نكشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التى وصفتها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تندال وهكسلى غير فاسدة . فهى تقعد وتنام أنى وضعتها ، كذلك الصبى البدين فى قصة « أوراق بكويك »« ٣ » وهى تقاوم بكل مافيها من وقار الحجم والثقل كل جهد لتحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت فى الحركة . وبيّن « برجسون » فى يسر شديد أن مادة

« ١ » انظر الى اثر الجاهلية الاغريقية مرة اخرى

« ٢ » ص ٢٢ - ٢٤ من الترجمة العربية

« ٣ » قصة مشهورة لشارل ديكنز . وكان مستر بكويك بطل القصة « المترجم »

فى مثل هذا الخمود لايمكن أبدا أن تفسر الحركة ، ومن باب أولى لاتحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك ، كما كتب برجسون ، كانوا فى سبيلهم إلى هجر تصور المادة خامدة ، وإلى الكشف فيها عن حيوية لاريب فيها . فهذه مثلا الكهرباء لايمكن تفسيرها فى صيغ من الخمود والذرات . فما هذه القوة الخفية التى تضاف إلى الكتلة فتزيد فى طاقتها ولكنها لاتضيف شيئا إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسرى الشحنة الكهربية فى سلك أو فى الهواء اللاسلكى ؟ أهى شىء يتحرك فى داخل السلك والذرات ؟ فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذى يتحرك فى تلك الموجات الكهربية التى تكاد تبلغ فى سرعتها سرعة الضوء نفسه ؟ أهى الذرات ؟ أو « الأثير » أو لاشىء ؟ وفى أشعة إكس ، عندما تمر شرارة كهربية فى فراغ باعثة أشعة تنفذ من جدران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيمائيا ، فما هذا الذى يمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندما بدت المادة نشيطة لاتفرغ ، كما هو الحال فى الراديوم ، وبدت الذرات (التى لايمكن أن تنقسم) منقسمة إلى مالانهاية ، واصبحت كل ذرة نظاما كوكبيا من الشحنات الكهربية تدور حول شىء لايزيد جوهره عن شحنة كهربية أخرى .. فأى مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاد ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التى ظفرت باحترام كل مفكر واقعى ؟ أكان الخمود أسطورة ؟ أيمكن أن تكون المادة حية ؟» [١]

« لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة فى المادة . فالتماسك والتآلف ، والتنافر ، كانت توحى بها . ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربية والمغناطيسية صورا من « الطاقة الذرية » وهى ظواهر ترجع إلى حركة الالكترونات الدائبة فى الذرة .. ولكن ، ما الالكترون ؟ أهو جزء من « المادة » يظهر فى ثوب من الطاقة ؟ أو هو مقدار من الطاقة منفصل تمام الانفصال عن أى جوهر مادى ؟ ولايمكن أن نتصور الفرض الأخير ! ويقول ليبون « قد يمكن ولاريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور الطاقة بغير مادة .. ولكن مثل هذا التصور فى غير مقدورنا . فنحن لانستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها فى الإطار المشترك لأفكارنا . ولما كانت ماهية الطاقة مجهولة فنحن

---

[١] انظر المحاولة الملتوية للتخلص من التحدى القائم فى نشأة الحياة من الموات ، وهو التحدى الذى يؤدى - فطرة - الى الإيمان بالله .

مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها » . فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع ، فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور الميكانيكية . ولذا لم تنصرف عنها كي ننظر في أنفسنا فإننا نتصور كل شيء كآلة مادية . ومع ذلك فإن أوستولد « Ostwald » يصف المادة على أنها صورة من الطاقة وحسب . ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات الكهرباء الموجبة والسالبة . ويعتقد لودج أن الإلكترون لايشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته . ويقول ليبون ببساطة : « المادة صورة مختلفة من الطاقة » ويقول ج . ب . س . هالدين : « يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين في العالم اليوم المادة كمجرد ضرب خاص من الاضطراب التموجي » . ويقول إدنجتون : « إن المادة مركبة من بروتونات وإلكترونات ، أي شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء . فاللوح هو في الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك » . ويقول هوايتهيد : « إن مفهوم الكتلة في طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد ، باعتبارها المقدار الواحد الدائم في النهاية .. فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة في علاقتها ببعض آثارها الديناميكية » . وإلى هذه المرتبة الوضيعة سقط الجبار ورجعنا إلى بوسكوفيتش « Boscovich »« ١ » الجزويتي القديم ، إلى تلك العبارة غير المفهومة : من أن المادة التي تشغل « المكان » مركبة من نقط لاوجود لها ! وفي ذلك يقول نيتشه : « لقد كان بوسكوفتش وكوبرنيق حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحا في دحض شهادة العيان » . فلاغرابة أن يستنتج ديوي أن « مفهوم المادة الذي يوجد بالفعل في تطبيق العلم لايمت بصلة إلى مادة الماديين » !

« أيمكن أن يكون شيء أكثر غموضا وغرابة من هذا القول الذي يقوله علماء الطبيعة من أن « المادة » بمعنى « الجوهر المتحيز » « Spatial » قد بطلت عن الوجود ؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شيء من خصائص المادة ، فهي ليست صلبة ، ولاسائلة ، ولاغازية ، وهي ليست كتلة ، أو صورة ، وانحلالها إلى نشاط إشعاعي يلقي شكوكا على أعز عقيدة في العلم الحديث ، أي عدم قابلية المادة للفناء .. ولنسمع رأي أحد علماء الطبيعة مرة أخرى « إن عناصر الذرات التي تنحل تفنى تماما ، فهي تفقد كل صفة للمادة ، بما في ذلك الثقل وهو أكثر

« ١ » فيلسوف يوغسلافي من دلماشيا اذاع في بلاده فلسفة نيوتن « المترجم »

صفاتها أساسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ولاشىء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة ، فقد اختفت فى عظمة الأثير .. والحرارة والكهرباء والضوء إلى غير ذلك .. تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها فى الأثير .. والمادة التى تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها فى حالات متتابعة تنتزع منها تدريجيا صفاتها المادية ، حتى تعود فى النهاية إلى الأثير الذى لايمكن وزنه ، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه

« الأثير ؟ .. ولكن ماهو الأثير ؟ لاأحد يعرف ! ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسما على الفعل « يتموج » والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث . فهو غامض غموض الشبح أو الروح ! وافترض اينشتين وجود الأثير حين أعاد تفسير الجاذبية ، وعزم أخيرا أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه ! وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول : « الأثير » !

« ويقول الاستاذ إدنجتون أحدث حجة فى هذا الموضوع : « ليس الأثير نوعا من المادة ، فهو لامادى

« ومعنى ذلك أن شيئا لاماديا يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات « Contortions » الغامضة (دوامات Vortices » كما سماها كيلفن) ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل ، بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض ، مادة متحيزة ، ويمكن أن توزن . أهو اللاهوت قد أعيد ؟ أم هو علم مسيحى جديد ؟ أم هو صورة من البحث الطبيعى ؟ وفى الوقت الذى يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من « الشعور » حتى يرد « العقل » « للمادة » يأسف علم الطبيعة فى تقريره أن المادة لاتوجد ! ولقد قال نيوتن متعجبا : « أيتها الطبيعة احفظينى مما بعد الطبيعة « الميتافيزيقا » . فياللأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك ! .

« يقول برتراندرسل : « يقترب علم الطبيعة من المرحلة التى يبلغ فيها الكمال » وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك .. أما هنرى بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث فى حالة من الفوضى ، فهو يعيد بناء جميع اسسه ، وفى أثناء ذلك لايكاد يعرف أين يقف . وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيرا تاما فى العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كلتيهما . ولم تسمح أعمال كورى ورذرفورد وسودى واينشتين ومينكوفسكى لأى تصور قديم عن الطبيعة النيوتونية بالبقاء . وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف

النظام الوحيد للعالم وحزن على عدم وجود نظم أخـرى تكشف ! ولكن عالم نيوتن قد انتحى اليوم جانبا . ولم يعد التثـاقل « Gravitation » مسـألة جاذبية « Attraction » وتمزقت « قوانـين » الحركـة فى كل جهـة بنظريـة النسبية . وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم فى « الأشباح » والمجردات ، وكان العلم يبحث فى « المادة » و« المحسوس » و« الحقائق الواقعة » . أما الآن فعلم الطبيعة مجموعة مستورة « Esoteric » من القوانين المجردة . « وفكرة المادة مفقودة بالكلية فى الدوائر العلمية » « ١ » . وكان على الفلسفة أن تتنحى جانبا (ولايزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال خمسين عاما) أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . والآن فى الوقت الذى يحمل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التى كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة ،« ٢ » يقال لنا فى تواضع إن : « البحث العلمى لايفضى إلى معـرفة طبيعـةالأشياء الباطنة »« ٣ » (ص ٦٨ – ٧٣ من الترجمة العربية)

* * *

وأما السيطرة – أو قل العجز – فقد تحدثنا عنه فى إحدى فقرات هذا الفصل ، وبينا أنه عجز دائم أصيل لايؤثر فيه ولاينقص منه هذا القدر من السيطرة الذى يحققه الإنسـان « بالعلم » « والتكنـولوجيا » وإن فتت الذرة وأطلق طاقتها ، وإن ركب الصواريخ وطاف بها فى أرجـاء الكون ، لأن الذى يرغب فيه الإنسان ، ويحس بالعجز عن تحقيقه هو أمر بالنسبة إليه مستحيل التحقيق : أن يسيطر سيطرة كاملة على الكون . أن يقول للشيء كن فيكون . أن يخلد فى الأرض . أن يعلم الغيب . وبعض هذه كان من المغريات التى أغرى بها الشيطان آدم منذ بدء الخليقة :

« وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » !« ٤ »

ومن هنا فإن الشعور بالعجز شعور دائم ملازم للإنسان فى كل أحواله وفى جميع أوضاعه . وليس إنسان العصر الحديث ناجيا منه حتى يقول جوليـان

« ١ » ادنجتون ص ٢٧٤

« ٢ » يقصد الدين

« ٣ » ادنجتون ص ٣٠٢

« ٤ » سورة الأعراف [٢٠]

هكسلى إنه قد أن للإنسان أن يأخذ على عاتق نفسه ماكان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »« ١ »

ونحب أن نضيف إلى ذلك أن الانسان السوى يعلم أن مايحققه من تسخير طاقات السماوات والأرض ليس « اغتصابا » من الإله كما تصور ذلك الأساطير الإغريقية المجنونة ، حتى يكون مبررا للخروج على طاعة الله ، بله التبجح بإنكار وجود الله كما تفعل الجاهلية المعاصرة ، إنما هو من قدر الله للإنسان ، ومن رحمة الله بالإنسان ، ومن فضل الله على الإنسان،لأنه هو الذى سخره ابتداء للإنسان ، ثم أعانه على تحقيقه :

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه »« ٢ »

« وعلم آدم الأسماء كلها »« ٣ »

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »« ٤ »

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »« ٥ »

« الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الانسان لظلوم كفار »« ٦ »

* * *

وأخيرا ، فنحن نزعم أن الدين من الفطرة ، وهم يزعمون أنه طلل بال ينبغى أن تزال آثاره ، ليحل محله « العلم » و« الإلحاد »

ونحن نستشهد عليهم من أنفسهم كما أشرنا من قبل .

---

١ . سورة الروم [٧]
٢ . سورة الجاثية [١٣]
٣ . سورة البقرة [٣١]
٤ . سورة النحل [٧٨]
٥ . سورة الملك [١٥]
٦ . سورة ابراهيم [٣٢ - ٣٤]

نستشهد عليهم برائد الفضاء الأول « يورى جاجارين » الذى قال بعد هبوطه من الفضاء فى المؤتمر الصحفى العالمى الذى أعد لاستقباله : « حين صعدت إلى الفضاء أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله » !

ولاعبرة « بالتصحيح » الذى أضافته الدولة على تصريحه أوأمرته أن يضيفه ، فقال

« فمضيت أبحث عن الله فلم أجده » !

إنه تمحل واضح ..

ولايمكن أن يكون « جاجارين » قد قاله ابتداء ! فما الذى يجعله يتحدث عن الله ابتداء إذا كان قصده هو النفى ، ولا أحد من الحاضرين قد أثار القضية حتى يتعرض لنفيها ؟! إنما المعقول أن يكون ذكره لله ابتداء للإثبات لا للنفى . لإثبات استجابة « الفطرة » الطبيعية لعظمة الكون وروعته حين رآه لأول مرة من خارج الغلاف الجوى ، فرآه فى صورة مختلفة عما تبلد عليه حسه بحكم الالف والعادة .. فاتجهت الفطرة اتجاها تلقائيا إلى فاطر السماوات والأرض ، رغم كل « الإلحاد » الذى صبته الدولة فى قلبه وفكره منذ مولده إلى لحظة انطلاقة فى الفضاء !

وهى شهادة « أفلتت » من المعسكر الملحد بغير قصد منه ولاتدبير :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »« ١ »

ونستشهد عليهم بما يقوله « علماء » من علمائهم ، تربوا فى « الإلحاد العلمى » ! فألجأهم « العلم » ذاته إلى الإيمان بوجود الله ، ونكتفى بهذه المقتطفات من كتاب « العلم يدعو للإيمان » « ٢ » وكتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » « ٣ » فهى تغنينا عن المزيد .

يقول « أ . كريسى موريسون » رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك :

« فى خليط الخلق قد أتيح لكثير من المخلوقات أن تبدى درجة عالية من اشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو مالاندرى .. فالدبور مثلا يصيد الجندب النطاط ، ويحفر حفرة فى الأرض ، ويخز الجندب فى المكان المناسب تماما حتى يفقد وعيه ، ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ . وأنثى الدبور تضع بيضا فى

« ١ » سورة فصلت [٥٣]
« ٢ » تاليف كريسى مويسون ترجمة محمود صالح الفلكى
« ٣ » تاليف جماعة من العلماء ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان

المكان المناسب بالضبط ، ولعلها لاتدرى أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى دون أن تقتل الحشرة التى هى غذاؤها فيكون ذلك خطرا على وجودها . ولابد أن يكون الدبور قد فعل ذلك من البداية وكرره دائما ، وإلا مابقيت زنابير على وجه الأرض .. والعلم لايجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخفية : ولكنها مع ذلك لايمكن أن تنسب إلى المصادفة !

« وإن أنثى الدبور تغطى حفرة فى الأرض وترحل فرحا ثم تموت . فلاهى ولا أسلافها قد فكرت فى هذه العملية وهى لاتعلم ماذا يحدث لصغارها ؛ أو أن هناك شيئا يسمى صغارا . بل إنها لاتدرى أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها ! » « ١ »

« وفى بعض أنواع النمل يأتى العملة بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل فى خلال فصل الشتاء ، وينشىء النمل ماهو معروف « بمخزون الطحن » وفيه يقوم النمل الذى أوتى فكاكا كبيرة معدة للطحن ، بإعداد الطعام للمستعمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتى الخريف ، وتكون الحبوب كلها طحنت فإن « أعظم خير لأكبر عدد » يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام .. ومادام الجيل الجديد سينتظم كثيرا من النمل الطحان ، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود ، ولعلها ترضى ضميرها الحشرى بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافى ، إذ كانت له الفرصة الأولى فى الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

« وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير (واخترمنهما مايحلو لك) إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن تسميته « بحدائق الأعشاش » وتصيد أنواعا معينة من الدود والأرق أو اليرق ، (وهى حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة الغسلية) فهذه المخلوقات هى بقر النمل وعنزاتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاما له .

« والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب .. وبينما تضع بعض عملة النمل الأطراف فى مكانها ، تستخدم صغارها - التى تقدر أن تغزل الحرير وهى فى الدور اليرقى - لحياكتها معا ! وربما حرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه ولكنه قد خدم الجماعة !

« ١ » ص ١٢٩ - ص ١٣٠ من كتاب « العلم يدعو للايمان »

« فكيف يتاح لذرات المادة التى تتكون منها النملة أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟

« لاشك أن هناك خالقا أرشدها إلى كل ذلك »« ١ »

ويقول عالم الطبيعة « فرانك ألن »

« ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات الكون تفقد حرارتها تدريجيا وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .. ولامناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت .

« أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث ، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليست لقدرته حدود . ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه « ٢ »

ونكتفى بهذه المقتطفات ولانحتاج إلى المزيد . فهى كلها ناطقة بمدى سخف تلك البدعة الضالة التى نشرها الشياطين فى الجاهلية المعاصرة . حين يسرت لهم « الحمر المستنفرة » أن يركبوها ويهيموا بها فى وديان الضلال !

أما الذين يحسون اليوم أن « وجودهم الذاتى » أو مجدهم الذاتى مرتبط باعتناق الإلحاد بدلا من اعتناق الدين ، فهم فقاقيع ستنفثىء غدا حين تعود البشرية إلى رشدها .. ونحسب أنها – بحكم الظروف كلها – عائدة إليه ، مالم يكتب الله عليها الفناء !« ٣ »

«فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض »« ٤ »

« ١ » مقتطفات من كتاب « العلم يدعو للايمان » ص١٣١ – ١٣٢

« ٢ » من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٥ – ٦

« ٣ » انظر الفصل القادم

« ٤ » سورة الرعد [١٧]

الإسلام ومستقبل البشرية

تفزع أوروبا من الدين كما يفزع الملدوغ من الحبل .. ولو كان بالنسبة إليه حبل النجاة !

وأوروبا تسيطر اليوم بقوتها السياسية والعسكرية والعلمية والاقتصادية والتكنولوجية على العالم كله . وتجر البشرية معها إلى الهاوية بسبب ذلك الموقف الأحمق المفزع من الدين !

ولقد زعمت الجاهلية المعاصرة فى أول أمرها فى عصر النهضة أنها تستطيع أن تدير ظهرها للدين ثم تظل تمارس الحياة بصورة طبيعية لايعتورها نقص ولااختلال . بل زعمت أنها حين تتخلص من الدين فستعالج ماكان فى حياتها من نقص واختلال ! ولقد كانت ظروفها كما بينا من قبل تؤدى بها إلى الانسلاخ من ذلك الدين الذى يعكر صفو الحياة ، ويعطل دفعتها ، وينشر الجهالة ، ويحجر على الفكر،ويحجب عن البشرية النور .

وحين بدأت أوروبا تنسلخ من دينها لم يكن فى مقدورها أن تنسلخ دفعة واحدة من « القيم » التى كانت تصاحب ذلك الدين ، وربما لم يكن ذلك فى نيتها فى مبدأ الأمر .

فراح القوم - مخلصين فيما نحسب - يبحثون عن مصدر آخر للقيم التى لايمكن أن تعيش بدونها البشرية .

ولكن التجربة العلمية اثبتت أنه لايوجد مصدر حقيقى للقيم غير الدين !

قالوا العقل .. وقالوا الطبيعة .. وقالوا النفس البشرية .. وقالوا العلم .. وقالوا الفلسفة .. وقالوا كل مايخطر فى بالهم . ثم خرجوا من ذلك كله بما وصلوا إليه آخر الأمر : القلق والجنون والضياع والحيرة والأمراض النفسية والعصبية والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة والانحلال والمسخ الذى يشوه الفطرة .. والهبوط الخلقى والفكرى والروحى فى كل ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب والدول كلها على السواء ! وتحول الإنسان إلى آلة للإنتاج المادى فى صباحه ، وحيوان

هائج فى الليل يبحث عن المتاع الحسى الغليظ ، ويبحث عنه أحيانا فى تبذل يتعفف عنه بعض أنواع الحيوان !

وتلك نهاية طبيعية لبعد الناس عن الدين ، وهى تجربة مكرورة فى تاريخ البشرية وإن ظنت الجاهلية المعاصرة أنها تجربة « رائدة » تخوضها البشرية لأول مرة ، لأنهم – فى جهالتهم « العلمية » – لايقرأون التاريخ ، أو لايحبون أن يأخذوا العبرة من التاريخ !

« قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض . وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون »« ١ »

* * *

ثم إن الإنسان عابد بطبعه كما بينا فى الفصول السابقة من الكتاب . فلاتستطيع أن تحول الإنسان من العبادة إلى « اللاعبادة » . إنما تستطيع أن تحوله من نوع من العبادة إلى نوع آخر . وليس الخيار – كما خيل للجاهلية المعاصرة – بين العبادة وعدم العبادة، إنما الخيار فقط فى المعبود .. هل يكون هو الله جل جلاله أم يكون شيئا آخر غير الله .

الخيار – بالتعبير القرآنى الحاسم – هو بين عبادة الله وعبادة الشيطان .

« ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم »« ٢ »

وصراط الله المستقيم واحد ، ولكن سبل الشيطان كثيرة متعددة :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »« ٣ »

والمعبودات فى الجاهلية المعاصرة شتى ، والسبل إليها متعددة ، من عبادة « الدولار » إلى عبادة الهوى والشهوات، مرورا « بالإنتاج » و« المصالح القومية » و« العلم » و« العقل » و« التقدم » و« التطور » و« الحرية الشخصية » و« الطبيعة » و« الانسانية » .. ولكل معبود من هذه المعبودات تكاليفه والتزاماته التى ينبغى أن تطاع ..

فأين يذهب الإنسان حين يخرج من الدين ، أى من عبادة الله ؟

« ١ » سورة يونس [١٠١]
« ٢ » سورة يس [٦٠ – ٦١]
« ٣ » سورة الانعام [١٥٣]

تقول الجاهلية المعاصرة إنه « يتحرر » من « القيد » .

نعم ! يتحرر من « القيد الإنسانى » ليقع فى قيود الحيوان !

فالقضية كما قلت مرة فى كتاب « فى النفس والمجتمع » ليست خيارا بين القيد والحرية كما يتوهم الناس لأول وهلة حين ينفلتون من الدين والقيم المصاحبة له . إنما الخيار هو بين قيد من نوع معين يصاحبه نوع معين من الحرية ، وبين حرية من نوع أخر يصاحبها نوع آخر من القيود . قيد الإنسان ومعه حرية الإنسان ، او حرية الحيوان ومعها قيد الحيوان « ١ »

الدين قيد لاشك فيه ، لأنه التزام بما أنزل الله .. قيد على شهوات النفس، وقيد على أهواء الإنسان .. ولكنه فى الوقت ذاته يحرر الإنسان من ضغط الشهوات وثقلة الأرض والخضوع المذل للقوى القاهرة التى تقهر الإنسان فى الأرض ممثلة فى بشر يستبدون بالبشر ، أو ضغوط مادية واقتصادية تسحق كرامة الإنسان .

والانفلات من الدين والقيم المصاحبة له هو « تحرر » دون شك . تحرر من القيود التى فرضها الله على الانسان فى تصرفاته ، والحدود التى رسمها للناس وقال لهم : « تلك حدود الله فلاتعتدوها »« ٢ » « تلك حدود الله فلاتقربوها »« ٣ » . ولكنه فى الوقت نفسه يمسك الإنسان من خطامه ، ويجره من حبل الشهوات أو من حبل الضغوط القاهرة فلايملك ألا يستجيب !

وحين انفلت الناس فى الجاهلية المعاصرة من قيد « الدين » فقد وقعوا فى عبوديات لاحدود لها ، سواء للحاكمين عليهم ، الذين لايحكمون بما أنزل الله ، فيتخذون من أنفسهم أربابا يشرعون للناس ، ويخضعونهم لهم بالسلطان القاهر ، أو لشهواتهم التى لايملكون الفكاك منها ، أو لأعراف وقيم وموازين ما أنزل الله بها من سلطان ، كلها تهبط بالإنسان من مكانه الكريم الذى كرمه الله به يوم خلقه ، وتمرغه فى الأوحال .

فهل هذه هى « الكرامة » التى يحققها الإنسان لنفسه حين يتمرد على الدين ويخرج من عبادة الله ؟

« ١ » انظر – ان شئت – فصل « القيد والحرية » من كتاب فى النفس والمجتمع
« ٢ » سورة البقرة [٢٢٩]
« ٣ » سورة البقرة [١٨٧]

كلا ! وماتستطيع البشرية أن تستمر فى الحياة على هذه الصورة .

فمن ناحية تظل أمراضها الرئيسية تتضاعف لأنها تعرض عن تناول الدواء .

ومن ناحية أخرى تصيبها السنة الحتمية التى لاتتبدل ولاتتخلف ولايتغير مجراها على مر الدهور :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »« ١ »

ولقد مضت السنة الربانية مع أوروبا فى جاهليتها المعاصرة خطوة خطوة : نسوا ماذكروا به ففتح عليهم أبواب كل شىء ، من قوة اقتصادية وعلمية وتكنولوجية وعسكرية وسياسية .. الخ ففرحوا بما أوتوا ، أى طغوا فى الأرض بغير الحق ، ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة حتى تتم السنة بتمامها ، وهى أخذهم بغتة إذا أصروا على ماهم فيه . والبغتة هى دائما بغتة وإن رأى بعض الناس بوادرها وتوقعوا حدوثها .

« أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون ؟ أو يأخذهم فى تقلبهم فماهم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم »« ٢ »

و« العقلاء » فى الجاهلية المعاصرة بدأوا يتخوفون على أقوامهم من الدمار المؤكد إن لم يغيروا حياتهم من قواعدها .

قال الفيلسوف الإنجليزى المعاصر « برتراند رسل » فى تصريح له :

« لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض .. وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة « ٣ » واعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون .. »« ٤ »

وقال « جون فوستر دالاس » وزير خارجية امريكا فى كتاب « حرب أم سلام » :

« ١ » سورة الأنعام [٤٤ - ٤٥]

« ٢ » سورة النحل [٤٥ - ٤٧]

« ٣ » لايريد الرجل ان يقول « السنن الربانية » فيسميها - بفعل الجاهلية - قوانين الطبيعة !

« ٤ » عن المستقبل لهذا الدين (ص٥٥)

« إن هناك شيئا مايسير بشكل خاطئ في أمتنا ، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية . ولايجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا (لعله يقصد تبريريا) وأن يتملكنا الذعر .. إن ذلك أمر جديد في تاريخنا !

« إن الأمر لايتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية . إنماينقصنا هو إيمان صحيح قوي . فبدونه يكون مالدينا قليلا .. وهذا النقص لايعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها ! فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا .

« وفي بلادنا لاتجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها . وهناك حيرة في عقول الناس وتآكل لأرواحهم . وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادي - كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن - ولن تستطيع أي إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف »« ١ »

وقال « ألكسيس كاريل » في كتاب « الإنسان ذلك المجهول » :
« إن هدف هذا الكتاب هو أن يضع تحت تصرف كل شخص مجموعة من المعلومات العلمية التي تتعلق بالكائنات الحية في عصرنا . فقد بدأنا ندرك مدى مافي حضارتنا من ضعف .. وكثيرون يرغبون في أن يلقوا عنهم التعاليم التي فرضها عليهم المجتمع الحديث . ولهؤلاء أكتب هذا الكتاب .. كذلك كتبت لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية - بل أيضا ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري » (ص١١ - ١٢ من الترجمة العربية لشفيق أسعد فريد) .

« إن الحضارة الغربية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لاتلائمنا . فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقة ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى

« ١ » عن المستقبل لهذا الدين (ص ٨٣)

الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا .. » (ص٣٨)

« يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لايملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من غيرها إليها .. ولكنها لاتدرك ذلك ، إذ ليس هناك مايحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التى سبقتها أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لاتزال غامضة .. إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. » (ص٤٤)

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة ، وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها عليه المجتمع العصرى .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى حسه وشعوره .. وعرفنا أنه لايستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله ، وأن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسئولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .. لقد نقضنا قوانين الطبيعة « ١ » فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى . الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائما .. إن مبادئ « الدين العلمى » و« الآداب الصناعية » قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة « البيولوجية » . فالحياة لاتعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد « الأرض المحرمة » .. تضعف السائل ! ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار .. » « ص ٣٢٢ »« ٢ »

« ١ » انظر كيف يتأثر الرجل بالعرف الجاهلى رغم كل ثورته على الجاهلية المعاصرة !

« ٢ » عن « المستقبل لهذا الدين » ص ٧٢ - ٧٥ » .

ولكن تخوف هذه القلة القليلة من « العقلاء » فى خضم الجاهلية المجنونة لن ينقذها من الدمار إلا أن تصيخ لصوت العقل وتعود إلى الله !

* * *

ولقد كان الدين الذى انسلخت منه الجاهلية المعاصرة دينا فاسدا ، لأنه من صنع البشر .. دينا لايصلح للحياة . ولقد كانت – وهى تنسلخ منه – على مشارف الرشد .. ولكنها ضلت الطريق ..

وعلى البشرية اليوم – إن أرادت النجاة من الهاوية المحتومة ـ أن تبحث عن الدين الحق . الدين الذى يُؤَمِّن العقيدة الصحيحة فى الله ، والمنهج الصالح للحياة .

الدين الذى لايوجد فصاما مصطنعا بين الإيمان بالغيب والايمان بالمحسوس . بين الإيمان بالعقيدة والايمان بالعلم . بين نشاط الروح ونشاط الجسد . بين الدنيا والآخرة . بين العمل والعبادة . بين التقدم المادى والحضارى والالتزام بالقيم « الإنسانية » .. ولابين أى جانب من الكيان البشرى السوى وجانب آخر .

الدين الذى يقيم حضارة « إنسانية » متكاملة لأنه يأخذ الانسان كله ولايهمل جانبا منه . لايهمل قبضة الطين من أجل إشراقة الروح ، ولايهمل إشراقة الروح من أجل قبضة الطين . ولايهمل عمارة الأرض فى جميع جوانبها وأشكالها من أجل الفوز بالخلاص فى الآخرة ، ولايهمل أمر الخلاص فى الآخرة من أجل عمارة الأرض . لايهمل المشاعر الدينية الشفافة الرفيعة المرفرفة من أجل النظر العلمي والتجربة العلمية ، ولايهمل النظر العلمى والتجربة العلمية من أجل شفافية المشاعر الدينية . لايهمل القيم الخلقية من أجل « النجاح » فى الأرض ، ولايهمل النجاح فى الأرض من أجل القيم الخلقية ..

الدين الذى يُؤَمِّن العدل السياسى والعدل الاجتماعى والعدل الاقتصادى ، والذى يؤمن فى الوقت ذاته التجدد والنمو فى الحياة البشرية .

الدين الذى ينشئ الحضارة التى تليق بالإنسان، الذى صوره الله فى أحسن صورة ، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق :

« الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم

ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » « ١ »

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ٢ »

ولن يكون هذا الدين إلا الإسلام ، فهو عند الله هو الدين :

« إن الدين عند الله الإسلام »« ٣ »

وهو الذى تمت به نعمة الله على البشر واكتمل به شرع الله ومنهجه :

« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » « ٤ »

وهو الذى يشهد واقعه ـ وقت أن طبق فى عالم الواقع – أنه أنشأ تلك الحضارة « الإنسانية » المتكاملة التى شملت كل جوانب الحياة وكل جوانب النفس البشرية . والتى كانت للإنسانية كلها نورا وهداية ، والتى استمدت منها أوروبا العلم والحضارة حين انبعثت – بعد احتكاكها بالمسلمين – تطلب النهوض .

وحين تعتنق أوروبا هذا الدين فلن تحتاج أن تتخلى عن شىء من تقدمها العلمى والمادى والتكنولوجى ، ولاشىء من عبقريتها التنظيمية ، ولاشىء من جلدها الدؤوب على العمل والإنتاج ، وهى العوامل التى حفظت لها بقاءها حتى هذه اللحظة ، وإن كانت – كما أشار جون فوستر دالاس – لاتستطيع أن تحميها من الدمار الحتمى الذى يجره عليها غياب « الروح » ..

كلا ! لاتحتاج أن تتخلى عن شىء من ذلك ، إنما تحتاج فقط أن تقيم ذلك كله على قاعدته الصحيحة،وهى الإيمان بالله وتطبيق منهجه فى الأرض ، كما تحتاج أن تتخلى عن عبوديتها للمادة وعبوديتها للشهوات .

* * *

والمسلمون بطبيعة الحال يحملون المسئولية الكبرى فى هذا الشأن ، فهم الذين أخرجهم الله ليكونوا هداة البشرية فى الحياة الدنيا ، والشاهدين عليها يوم القيامة :

« ١ » سورة غافر [٦٤]
« ٢ » سورة الاسراء [٧٠]
« ٣ » سورة آل عمران [١٩]
« ٤ » سورة المائدة [٣]

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »« ١ »

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » « ٢ »

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » « ٣ »

ولن يكونوا شهداء على الناس يوم القيامة حتى يؤدوا الشهادة فى الدنيا لهذا الدين ، بإقامته فى الأرض كما أمر الله ، والدعوة إليه كما أمر الله ، فتقوم الحجة على الناس إن قبلوه فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا فقد أعذرت الأمة الإسلامية إلى ربها ، ويوم القيامة يشهدون على الناس أمام ربهم : لقد أقمنا الدين فى الأرض كما أمرتنا ، ودعونا الناس إليه كما أمرتنا فأعرضوا فحق عليهم الجزاء ..

والمسلمون اليوم فى حضيض من الذلة والهوان والضعف والتخلف لم يهبطوا إلى مثله فى تاريخهم كله بسبب تخلفهم عن هذا الدين ، وإضاعة عقائده وأحكامه ، والغفلة عنه ، والتفريط فيه .

ولكنهم يحملون مسئوليتهم مع ذلك .. مسئوليتهم نحو أنفسهم ، ومسئوليتهم نحو البشرية ، لايعفيهم منها كل ماوقعوا فيه من الهوان والذلة ، بل إن ذلك كله ليضاعف مسئوليتهم ، فإنهم ماوقعوا فيه إلا لتفريطهم فى هذا الدين الذى قال الله فيه :

« فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » « ٤ »

فماذا هم قائلون لربهم غدا حين يسألهم ؟!

وأى وزر يحملونه إذا احتاجت إليهم البشرية غدا فلم تجدهم فى المكان الذى ينبغى أن يكونوا فيه ، مكان الأمة التى تحمل الهدى الربانى وتبينه للناس ؟!

فأما الله سبحانه وتعالى فلن يعجزه تخاذل الذين يحملون اسم الإسلام اليوم

---

١ - سورة آل عمران [١١٠]
٢ - سورة آل عمران [١٠٤]
٣ - سورة البقرة [١٤٣]
: سورة الزخرف [٤٣ - ٤٤]

وهم غافلون عنه ، إذا أراد أن يهدى البشرية غدا إلى الدين الحق ، فقد قال سبحانه يحذر المسلمين من قبل :

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم » « ١ »

فإذا أراد الله للبشرية الهدى فسيقيض لهذا الدين من يحمله وينافح عنه كما قال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم.ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » « ٢ »

وإنا لنرى بواكير هذا الفضل الربانى فى حركات البعث الإسلامى التى تنبعث اليوم من كل مكان فى الأرض ، تسعى إلى تحقيق الإسلام فى الواقع ، وتجاهد فى سبيل الله لاتخاف لومة لائم ، وتتعرض لأبشع ألوان التعذيب الوحشى ، ثم تظل صامدة فى سعيها إلى إقامة هذا الدين فى الأرض كما أمر الله . كما نرى بواكير هذا الفضل فيمن يدخلون فى هذا الدين فى أوروبا وأمريكا من البيض والسود بعشرات الألوف ويتزايدون على الدوام .

أما البشرية فقد بدأت طلائعها على الأقل تضيق بالضياع والحيرة وتتلمس الطريق إلى النور .. والنور هو دين الإسلام .

* * *

يقول « توينبى » فى محاضرته التى أشرنا إليها من قبل :

« صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة . ولكن يجب أن نضع فى حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرب « ٣ » ضد السيطرة الغربية ونادت بزعامة معادية للغرب . فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لاحصر لها فى إيقاظ الروح النضالية للإسلام ، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف ، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولى للإسلام .

« وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقى فى انتصاره على الدخيل الغربى :

« ١ » سورة القتال [٣٨]

« ٢ » سورة المائدة [٥٤]

« ٣ » يقصد الدول الخاضعة للنفوذ الغربى

« ففى عهد الخلفاء الراشدين ، بعد الرسول حرر الإسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية التى أثقلت كاهلهما مدة ألف عام تقريبا .

« وفى عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول .

« فإذا سبب الوضع الدولى الآن حربا عنصرية فيمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى .. وأرجو ألا يتحقق ذلك ! » « ١ »

أما نحن فنرجو أن يتحقق ذلك ! لا على أساس حرب عنصرية كما يقول توينبى ، الذى يحصر تصوراته فى حدود التفكير الغربى الضيق الأفق ، بل على أساس من الصراع الصحيح بين الحق والباطل الذى قال الله فيه :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » « ٢ »

نرجو أن يتحقق ذلك لا بوصفنا مسلمين فحسب ، بل انطلاقا من كل الحب الذى نكنه للبشرية .. لكى تهتدى إلى النور ..

« والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لايعلمون » « ٣ »

« ١ » ص ٧٣ من الترجمة العربية .
« ٢ » سورة الحج [٤٠ - ٤١]
« ٣ » سورة يوسف [٢١]

فهرس

صفحة

صفحة

يصدر عن **دار الشروق**

في شرعية قانونية كاملة

كتب للمؤلف :

* الإنسان بين المادية والإسلام
* منهج الفن الإسلامى
* منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
* منهج التربية الإسلامية (الجزء الثانى)
* معركة التقاليد
* فى النفس والمجتمع
* التطور والثبات فى حياة البشرية
* دراسات فى النفس الإنسانية
* هل نحن مسلمون
* قبسات من الرسول
* شبهات حول الإسلام
* جاهلية القرن العشرين
* دراسات قرآنية
* مذاهب فكرية معاصرة
* مفاهيم ينبغى أن تصحح
* كيف نكتب التاريخ الإسلامى

تحت الطبع :

* المستشرقون والإسلام.